ليو تولستوي

153

إلياذة العصور الحديثة

المجلد الأول

الحرب و السلم





ذاكرة الكتابة

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر بسورية استنادا إلى التراجم الفرنسية و الإنكليزية و روجع النص على الأصل الروسى

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

(الجزء الأول)

تأليف:
ليوتولستوى



سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الحرب والسلم (ج١)
• تأليف: ليوتولستوى
• هذه الطبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة -2013م
5ر16 × 5ر23 سم
• تصميم الغلاف:
فكرى يونس
• رقم الإيداع: ١٦١٨٤/ ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 978-977-718-476-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة 153

تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

تصدير
رواية الحرب والسلم

لا يمكن التكلم عن تولستوى دون ربط إبداعاته بتيار الثقافة الروسية التى يمكن اعتبار أشعار ألكسندر بوشكين، أعظم شاعر غنائى روسى، البداية الحقيقية لهذا الأدب. فقد تميزت بلغتها الموجزة وبلاغتها الفائقة فى التعبير. ويمكن القول إن بوشكين كان يبحث فى قصائده السردية عن موقع الإنسان فى المجتمع. وكثير من شخصياته الرئيسية مثل يوجين أونيجين (١٨٢٥-١٨٣٢م) ليسوا قادرين على إيجاد هدف للحياة وهم ينتهون ضجرين وبعيدين عن مشاعر الحب. كتب بوشكين عام ١٨٢٥م مسرحية تاريخية بعنوان بوريس جودنوف فى شعر مرسل. وكانت تلك محاولة منه لإدخال الأسلوب الشكسبيرى فى عرض الأحداث، حسب التسلسل التاريخى فى المسرحية الروسية. والفارس البرونزى قصيدة قصصية كتبها بوشكين عام (١٨٣٣م) تعتبر إحدى أعظم قصائده السردية، ويلقى فيها الضوء على محاولة بطرس الأكبر إدخال المدنية الغربية إلى روسيا وتأثير ذلك على الروس العاديين ويوضح النتائج العظيمة والمأساوية أيضا التى تنتظرها روسيا من وراء هذه الرغبة الجامحة. كتب بوشكين أيضًا رواية وعدداً من القصص، وكانت روايته «بنت القبطان» (١٨٣٦م) شبيهة بالروايات التاريخية للسير وولتر سكوت الكاتب الرومانسى الأسكتلندى. ومن أجل قصصه قصة «ملكة البستونى» (١٨٣٤) التى تدور أحداثها حول مقامر يصاب بالجنون، بعد أن يفشل فى الحصول على بعض الأموال فى لعب القمار.

وهذه الحركة التى بدأت فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ركزت أيضًا على تعميق أهمية الأحلام والرؤى والخيال. هكذا شهد الأدب الروسى فى هذه الفترة حرية أوسع فى الشكل والأسلوب وإعجابًا بالمشاعر والانفعالات الإنسانية. وكان الفساد السياسى والأخلاقى ضمن المواضيع السائدة فى بعض الكتابات الرومانسية المتأخرة فى الأدب الروسى، غير أن الرقابة اشتدت في عهد القيصر نيقولا الأول الذى بدأ حكمه سنة ١٨٢٥م واشتدت الرقابة بشكل خاص على جميع الأعمال الأدبية الناقدة للمجتمع الروسى، ولا سيما ما يتعلق منها بعبودية الفلاحين ومن أبرز كتاب هذه المرحلة: ميخائيل ليرمنتوف وفيودور تيوتشيف ونيقولاى جوجول.

كان ليرمنتوف من الشعراء والروائيين البارزين. ويعبر كثير من أشعاره العاطفية عن الإحباط الشديد والتبرم بالحياة فى روسيا، وكان ليرمنتوف يحلم فى شعره بفردوس بعيد المنال. إن الشموخ والرغبة الجامحة يؤديان بالبطل فى قصة ديمون (نحو عام ١٨٣٩م) إلى إضاعة هذا الوضع المثالى. وكانت قصة «بطل من زماننا» (١٨٤٠م) التى كتبها ليرمنتوف أول رواية نفسية فى الأدب الروسى. والبطل بتشورين مثال آخر للرجل خالى الوفاض، إذ إنه يضيع حياته فى مغامرات لا معنى لها، لأن الطبيعة القاسية للحياة الاجتماعية والسياسية فى روسيا تحول بينه وبين أى نشاط مفيد سوى القيام بواجباته العسكرية. وكتب تيوتشيف، وهو شاعر رومانسى لامع آخر، عن مثل هذه المواضيع، مثل موقع الكائنات البشرية فى الكون ومدى فهمهم للطبيعة المحيطة بهم ومقدرتهم على الاتصال بعضهم ببعض لغويًا. ومن ضمن قصائده الشعرية «سيلاتيوم» (١٨٣٠م)، «حلم فى البحر» (١٨٣٣م)، «ليست الطبيعة ما تظنها أنت» (١٨٣٦م).

وكان جوجول أحد أشهر الأدباء الروس. وقد قدم فى أعماله الأدبية المبكرة أوصافا تنبض بالحيوية عن الحياة فى أوكرانيا، مسقط رأسه. و«تاراس بولبا» وهى

رواية تاريخية يمجد فيها جوجول عظمة القوازق الأوكرانيين الأوائل. واعتبر نقاد الأدب كثيراً من أعمال جوجول المتأخرة هجاءً سياسياً، غير أن جوجول كان يهدف أصلاً إلى السخرية من ضعف الإنسان الروحى. وتمثل الشخصيات الواردة فى قصة «المفتش العام» (١٨٣٦م) العيوب الشائعة فى الطبيعة البشرية وقصة «النفوس الميتة» (١٨٤٢م) رغم عدم اكتمالها فإنها تعتبر من أروع سخريات جوجول، إذ نجد أن بطل القصة يتنقل داخل روسيا وهو يشترى سندات التملك لعبيد الأرض المتوفين، الذين لا تزال أسماؤهم مدونة فى السجلات وهو يخطط لاستخدام تلك السندات فى عملية احتيالية. وهذه الحكاية وهى هجوم على تفشى الفساد الأخلاقى، والسياسى. ولعل «المعطف» التى كشف فيها عن انسحاقية التراتب الوظيفى التى تستهين بالقيم الإنسانية وتحط منها.

برزت الواقعية فى الأدب الروسى فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وسعى معظم أتباعها إلى إعطاء صورة صادقة عن الحياة والدعوة فى نفس الوقت إلى الإصلاح الاجتماعى. وفى البداية جمع الأدباء خصائص رومانسية وواقعية فى كتاباتهم. وهنا جاء إيفان تورجنيف ليؤلف روايات مسرحية أظهرت تفهماً للمجتمع الروسى. وساعدت روايته «دفتر الرياضى» (١٨٥٢م) على تأجج عواطف الجماهير نحو عبيد الأرض فى روسيا، ووصفهم تورجنيف بأنهم أناس ذوو مودة وكرامة. وصور أصحاب الأرض بأنهم أشخاص غير ناضجين وأنهم عديمو الإحساس. أما آباء وأبناء فقد جاءت فى المرتبة الأولى من بين أعمال تورجنيف فى محتواها الدرامى وتحليل شخصياتها. وهو يعرض فيها الشباب الروسى المتطرف فى السنوات الأولى لستينيات القرن التاسع عشر الميلادى يصفهم بأنهم ذوو إرادة قوية، وهم لا يحترمون السلطات ولا يراعون التقاليد ويرغبون فى إحداث التغيير، غير أن المجتمع ليس مستعداً للقيام بالثورة. ويموت البطل بازاروف فى حالة يأس

وإحباط. وكان أحد موضوعات تورجنيف المفضلة هو الحب الناشئ كما جاء فى «آسيا» (١٨٥٨) و«الحب الأول» (١٨٦٠م). ففى «الحب الأول» يمر شاب بتجربة صدمته، حين يكتشف أن البنت التى يحبها هى خليلة أبيه. وفى أنجح رواياته المسماة شهر فى الريف (وقد أكملها عام ١٨٥٠م) يسرد تورجنيف قصة مماثلة، حيث تتنافس إحدى البنات وولية أمرها على حب مدرس شاب.

حاول الروائى إيفان جونجاروف إقناع الروس المتحررين بأن العمل الفعلى وليست الأفكار العاطفية، هى التى تؤدى إلى الإصلاح الاجتماعى. وفى رواية «أوبلوموف» (١٨٥٩م) يصور المؤلف، صاحب أرض كريم المحتد، ومع أن أوبلوموف شخص ذكى فإنه قد فشل فى تحقيق أى هدف مما كان يحلم به. وقد بدأ الروس على أثر نشر هذه الرواية بالإشارة إلى أى عمل غير مجدٍ لأصحاب السلطة.

كتب ألكسندر أستروفسكى، وهو أكثر كتاب المسرح الروس شهرة وأغزرهم إنتاجًا، روايات ينتقد فيها الطبقة الوسطى. واستخدم اللغة الروسية اليومية الدارجة مما جعل رواياته تلقى إقبالاً شديداً. والأوغاد فى روايات أستروفسكى هم نتاج العالم التجارى، وهم جشعون ومخادعون ومتحكمون. وفى رواية «الفقر ليس جريمة» (١٨٥٤م) يقرر أحد رجال الأعمال الأنانيين تزويج ابنته لأحد الأثرياء الغشاشين. ولكن أعظم أعمال أستروفسكى «العاصفة» (١٨٦٠م) يصور فيها الكاتب القصة المأساوية لزوجة أحد التجار، التى تقدم على على الانتحار لكى تتخلص من استبداد حماتها.

جاءت ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر الميلادى، لتنتهى خلالها الرومانسية فى الأدب الروسى، وبرز الكتّاب الواقعيون الروس وهم يكتبون عن الأوضاع الاجتماعية، وحلت كتابة النثر المبسط محل الأسلوب الأنيق للرومانسية، وأصبحت الرواية الشكل الرئيسى للكتابة الأدبية. وقد تضمن العديد من الروايات شخصيات مفعمة بالحيوية ولكن فى بنية قليلة الحبكة.

ومن الكتاب الروائيين الروس الكبار دوستويفسكى الذى اشتهرت رواياته بالأوصاف الدراماتيكية للصراعات الداخلية، وهى ذاتها الصراعات التى يختلج بها المجتمع الروسى، والتى تعانى شخصياتها من تنازع روحى عنيف بين إيمانهم بالله ومشاعرهم القوية المفعمة بالكبرياء والأنانية. ويصف لنا دوستويفسكى فى «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦م)، وهى روايته الأكثر إثارة، حالة أحد القتلة وهو يقاسى عذاب الضمير، ثم يسترد البطل حالته الطبيعية، عندما يعترف بجريمته ويرضى بالعقاب الذى يستحقه. ورواية «الشياطين» (١٨٧١ – ١٨٧٢م) التى تعرف أيضا بـ«الممسوسين»، يصف لنا فيها الكتاب السياسيين المتطرفين. وفى رواية «الإخوة كارامازوف» (١٨٧٩ – ١٨٨٠م) وهى آخر روايات دوستويفسكى وأعظمها، التى تحتوى على أعقد التداخلات الدرامية، إلى جانب العديد من القصص القصيرة المضفرة فى بنية العمل الدرامى العام للرواية، من أجل أن يقوى الدراما الكلية للرواية، ويدعم فكرته عن ترقى الخاص إلى إنتاج العام. ومن هنا فلا عجب من أن آينشتين فى سياق كشفه نظرية النسبية كان يتداول قراءة هذه الرواية.

عندما جلس إسكندر الثالث على عرش القياصرة، عارض كثيراً من الإصلاحات التى قام بها والده إسكندر الثانى، وظهرت موضوعات كثيرة، تتسم باليأس والمرارة فى الكتابات الروسية، نتيجة لقسوة الحكم القيصرى فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. وأصبحت القصص والمسرحيات تمثل الأشكال الأدبية للواقعية المتأخرة.

وكان أنطون تشيخوف من كتاب القصة القصيرة والمسرحية البارزين. ومعظم أعماله تتعلق بالسأم والإحباط من الحياة. وفى رواية «لونيتش» (١٨٩٨م) يورد تشيخوف قصة طبيب مثالى حساس، يصبح كسولاً ومعجبًا بنفسه كلما تقدم فى العمر. و«الخال فانيا» (١٨٩٩م) مسرحية عن أحد المثقفين الذين يصيبهم الضياع،

فيعيش حياة واقعية، بينما كان يعتقد بأنه يكرس نفسه للمثاليات. وتحكى «الأخوات الثلاث» (١٩٠١م) قصة أسرة يتصف أعضاؤها بضعف شديد فى الإرادة، بحيث لا يبذلون أى جهد لتحسين أوضاعهم المعيشية السيئة. ويبحث تشيخوف فى «بستان الكرز» (١٩٠٤) انحلال دور الملاك الكبار أصحاب الأرض. ولكننا نجد له كذلك «العنبر رقم ٦» هذا العمل الذى يكاد يكون العمل المحورى للتشيخوفية، إذا جاز لنا التعبير، ونحن لا يمكن أن نقرأ أعماله دون التمعن فيه.

وهناك روايات ومسرحيات وقصص مكسيم جوركى، آخر الأدباء الروس الكبار من الواقعيين الذى تعكس أعماله الأدبية المبكرة فلسفته الماركسية التحريضية مثل رواية «الأم»، كما يصف الفقر المدقع الذى تعانى منه الطبقات الدنيا. ولعل «حكايات من إيطاليا» تكشف لنا عن انحيازه للطبقة العاملة حتى خارج بلاده. وأشهر مسرحيات جوركى «الحضيض» (١٩٠٢م) التى يفرغ فيها المؤلف الحياة البائسة التى يعيشها ساكنو أحد الملاجئ فى قالب مسرحى. وكثير من الأفكار الرئيسية لأعمال جوركى المتأخرة كانت تتضمن انحلال الطبقة المتوسطة العليا، كذلك كتب جوركى سيرته الذاتية المفصلة ونشر مذكراته حول من التقى بهم وصادقهم من كبار كتاب الروس.

فهل كان تولستوى بعيدا عن هذا الزخم الذى يتفاعل داخل المجتمع والأدب الروسى؟

الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوى (٩ سبتمبر ١٨٢٨ - ٢٠ نوفمبر ١٩١٠) من عمالقة الروائيين الروس فى القرن التاسع عشر والبعض يعدونه من أعظم الروائيين على الإطلاق.

ألف الكونت ليو تولستوى، أعظم رواياته فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. نابذا فيها القيم الرومانسية للبطولة والحب العذرى وأظهر بدلاً من ذلك

اهتمامًا عميقًا بالمراحل الطبيعية للنمو البشرى، كالولادة والزواج والوفاة. وروايته الرائعة «الحرب والسلام» (١٨٦٩م) جذبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسى لروسيا ونيرانه عام ١٨١٢م. ولكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب وتكشف عن رغبة تولستوى فى حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة. وفى «آنا كارنينا» (١٨٧٥ - ١٨٧٧م) هاجم تولستوى الحب الرومانسى باعتباره ضربًا من الانغماس الذاتى، وشجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقى وحب الأسرة. أما روايته «موت إيفان إيليتش» فإنها صورة مرعبة لموت رجل، وقبوله مصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة.

فى سبتمبر من عام ١٨٤٤، قبل ليف تولستوى طالبًا فى جامعة كازان - كلية اللغات الشرقية، قسم اللغتين التركية والعربية، ولقد اختار ليف تولستوى هذا الاختصاص لسببين: الأول لأنه أراد أن يصبح دبلوماسيًا فى الشرق العربى، والثانى لأنه مهتم بآداب شعوب الشرق ولكن طريقة التدريس لم تعجبه فهجرها إلى الأعمال الحرة عام ١٨٤٧م، وبدأ بتثقيف نفسه، وشرع فى الكتابة. فى تلك المرحلة الأولى من حياته كتب ثلاثة كتب وهى (الطفولة) ١٨٥٢م، (الصبا) ١٨٥٤، (الشباب) ١٨٥٧م.

سئم حياته تلك فالتحق بالجيش الذى كان فى حرب فى القفقاس وشارك فى بعض المعارك ضد جيش المريدين بقيادة الإمام شامل لكنه أحب القفقاس وأثرت فيه حياة شعوب القفقاس وكتب عن تجاربه تلك موضوعات نشرت فى الصحف، وألف عنها كتابه (القوزاق) ١٨٦٣م الذى يحتوى على عدة قصص.

وفى أواخر حياته عاد تولستوى لكتابة القصص الخيالية فكتب (موت إيفان إيليتش) ١٨٨٦م، كما كتب بعض الأعمال المسرحية مثل (قوة الظلام) ١٨٨٨م، وأشهر أعماله التى كتبها فى أواخر حياته كانت (البعث) وهى قصة كتبها ١٨٩٩م

وتليها فى الشهرة قصة (الشيطان) ١٨٨٩، «كريتسيروفا» ١٨٩١م، (الحاج مراد) التى نشرت بعد وفاته والتى توضح عمق معرفته بعلم النفس، ومهارته فى الكتابة الأدبية. ومدى حبه ومعرفته بالقفقاس، وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال، وتليها فى الشهرة قصة «الشيطان» ورواية «الميت الحى» ومسرحية «سلطان الظلام» وروايات «كريتسيروفا سوناتا»، و«الحاج مراد»، و«وفاة إيفان ايليتش» وقصة «الأب سيرجى». وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال.

تزوج تولستوى صوفى بيرز التى أثبتت أنها خير الزوجات وأفضل رفاق الحياة على الرغم من أنها تصغره بستة عشر عاما. خلفا ١٣طفلاً مات خمسة منهم فى الصغر. كان زواجه ملاذه لهدوء البال والطمأنينة، لأنه كان يعيده إلى واقع الحياة هربا من دوامة أفكاره. صوفى كانت خير عون له فى كتابته، فقد نسخت مخطوط روايته «الحرب والسلام» ٧ مرات حتى كانت النسخة الأخيرة التي تم نشرها.

حتى فى شيخوخته كان متماسكا، وقوى الذاكرة دون أن تضعف رؤاه، إلا أنه وفى توجهه لزيارة شقيقته فى دير كانت هى رئيسته، فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ توفى فى قرية استابو بسبب إصابته بالالتهاب الرئوى فى الطريق، وكان قد بلغ من العمر ٨٢ عاما. ودفن فى حديقة ضيعة ياسنايا بوليانا بعد أن رفض الكهنة دفنه وفق الطقوس الدينية الأرثوذكسية بسبب حرمانه.

«الحرب والسلام» نشرت أول مرة من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٦٩ فى مجلة «المراسل الروسى»، وهى تروى قصة تحولات المجتمع الروسى فى فترة غزو نابليون.

بين أحداث الحرب والسلام تدور أحداث الرواية التى دمج تولستوى فيها شخصيات عديدة، رئيسية وثانوية، تاريخية وأخرى خيالية، ابتدعها تولستوى نفسه. كما تعطى صورة واسعة وموضحة لحياة الترف التى عاشتها طبقة النبلاء فى روسيا

فى عهد الحكم القيصرى. هناك من يعتقد بأن الشخصيات الرئيسية مثل بيير بزوكوب والأمير أندرى تمثل أوجه مختلفة فى شخصية تولستوى نفسه.

أكملت المسودة الأولى لـ«الحرب والسلم» فى ١٨٦٣ . وفى الوقت الذى أكملت فيه النسخة المطبوعة، كان ما يقارب الثلث من مجمل العمل قد تم نشره فى المجلة الأدبية تحت العنوان «١٨٠٥». لم يكن تولستوى مسرورا بالخاتمة، وأعاد كتابة الرواية بمجملها بين سنتى ١٨٦٦ و١٨٦٩ . هذه النسخة نشرت فيما بعد كرواية كاملة تحت عنوان «الحرب والسلم».

توصف هذه الرواية عادة بأنها واحدة من تحفتى تولستوى الكبيرتين (والأخرى هى آنا كارنينا anna Karenina)، وكذلك واحدة من أعظم الروايات العالمية «الحرب والسلم» قدمت نوعا جديدا من القصص الخيالى، ذا عدد كبير من الشخوص وقعوا فى حبكة روائية، غطت مواضيع عظيمة أشير إليها فى عنوان الرواية، مجموعة بعدد مماثل فى الكبر من المواضيع، عن الشباب، الزواج، السن والموت. ورغم أنها غالبا ما يطلق عليها «رواية» اليوم، فإنها كسرت العديد من تقاليد الشكل فى الكتابة، مما جعلها لا تعتبر رواية فى وقتها. وبالفعل، فإن تولستوى نفسه اعتبر «آنا كارنينا» ١٨٧٨ هى محاولته الروائية الأولى بالمعنى الأوروبى.

لكن تولستوى مع ذلك لم يتلف المخطوط الأصلى، والذى تم تحريره فى روسيا سنة ١٨٨٣م، ومنذها تمت ترجمته بشكل منفصل عن النسخة «المعروفة»، إلى اللغات الإنجليزية، الألمانية، الفرنسية، الإسبانية، الهولندية، السويدية، الفنلندية والكورية. والنسخة الأولى مختلفة عن النسخة الأخيرة فى العديد من الاعتبارات، وخاصة بنهايتها السعيدة اللافتة للنظر.

رغم أن تولستوى كتب معظم الكتاب، وبضمنه كل السرد باللغة الروسية، فإن جيوبا هامة من الحوار فى كل الكتاب (من ضمنها فقرته الافتتاحية) مكتوبة باللغة

الفرنسية، والمتحدثون غالبا ما ينتقلون بين اللغتين فى منتصف الجملة. وهذا عكس للواقع ليس إلا، فالأرستوقراطية الروسية فى القرن التاسع عشر كانت كلها تعرف الفرنسية وتتحدث بها غالبا فيما بينها، مفضلة لها على الروسية. وتولستوى بالفعل يشير إلى أرستقراطى روسى بالغ، عليه أن يأخذ دروسا فى الروسية ليتقن اللغة الوطنية. وبشكل أقل واقعية، فإن الفرنسيين الموصوفين فى الرواية، وبضمنهم نابليون نفسه، يتحدثون بالفرنسية أحيانا، وبالروسية أحيانا أخرى.

تروى الرواية قصة خمس أسر أرستقراطية – آل بزوخوف، آل بولكونسكى، آل روستوف، آل كوراجين وآل دروبيتسكوى – وورطات حيواتهم الشخصية مع التاريخ بين ١٨٠٥-١٨١٣، وبشكل رئيسى غزو نابليون لروسيا سنة ١٨١٢. ومع استمرار الأحداث، فإن تولستوى وبشكل منتظم، يحرم شخوصه أية حرية اختيار ذات قيمة، ودور التاريخ المندفع إلى أمام يحدد السعادة والمأساة على السواء.

العديد من شخصيات «الحرب والسلم» استندت إلى أناس حقيقيين معروفين لتولستوى نفسه. نيكولاى روستوف وماريا بولكونسكايا استندا إلى ذكريات تولستوى عن أبيه وأمه، فى حين أن ناتاشا صنعت وفقا لزوجة تولستوى وزوجة أخيه، بيير والأمير أندريه يحملان شبها كبيرا بتولستوى نفسه، بعض الشخصيات تاريخية، والعديد من فصول الرواية مكرسة بالتحديد لمناقشة تفسير تولستوى للدور العسكرى والتاريخى للجنرالين، نابليون وكوتوزوف.

بالإضافة للعديد من الشخصيات الأقل شأنا فى «الحرب والسلم» إما تظهر فى فصل واحد أو تذكر أحيانا بشكل عابر. وقلة من هؤلاء مثل أفلاطون كاراتيف Pla-ton Karataev، ليسوا فعلا أقل شأنا فيما يخص تطور الشخصيات كاراتايف مثلا يلعب دورا حاسما فى نضوج بيير بعد ما يصبح أسير حرب.

ينقسم النص الروسى القياسى إلى أربعة كتب وخاتمتين – إحداهما سردية

بشكل رئيسى، والأخرى مختصة بموضوع شكلى كلى. وفى حين إن نصف الرواية الأولى تقريبا منهم بشكل كامل بالشخصيات الخيالية، فإن الأجزاء اللاحقة، كحال إحدى الخامتين، تألف بشكل متزايد من مقالات عن طبيعة الحرب، السلطة السياسية، التاريخ وكتابة التاريخ. لقد نثر تولستوى هذه المقالات فى القصة، بطريقة تتحدى تقاليد الكتابة الخيالية. وبعض الإصدارات المختصرة للرواية أزالت هذه المقالات كليا، فى حين قامت أخرى، ومنها البعض مما نشر حتى عندما كان تولستوى على قيد الحياة، قامت ببساطة بنقل هذه المقالات إلى ملحق بالكتاب.

عبد العزيز جمال الدين

تقديم
عن تولستوى
وتحفته الحرب والسلم

١- عن تولستوى

فى (ياسنايا بوليانا) وبالتحديد فى العام ١٨٢٨ ولد (تولستوى)، وربما كان العالم يعرف أنه فى هذه اللحظة سيستقبل موهبة، لم يكن قد استقبل مثلها من قبل فأعد مائدة الاحتفال بنفسه (العالم)، منتشياً كان بمقدم هذا المولود الجديد الذى جاء خصيصاً لقلب موازين الكتابة رأسا على عقب (هكذا خمن العالم) - كان العالم يتوقع - لكن الله يعرف، فأعدت مراسم التقديم تقديم الكاتب بمأساة مبكرة، حيث رحلت الأم بعدها بعامين، أى فى العام ١٨٣٠، وفى العام ١٨٣٦ تركت الأسرة (ياسنايا بوليانا) وانتقلت إلى موسكو، ليكمل القدر بعدها بعام واحد بإضافته عنصر جديد من مأساة (تولستوى) برحيل الأب فى العام ١٨٣٧ (ياله من احتفال بهيج) على شرف المولود الكاتب، كذلك رحل (الكساندرا أوسكن) ساكن الوصية القانونية على أسرة (تولستوى) فينتقل الأبناء إلى (قازان) - حدث ذلك فى العام ١٨٤١، ليجد (تولستوى) نفسه بعدها بأربعة سنوات طالبا فى قسم اللغات الشرقية بجامعة (قازان)، إلا أنه ينتقل من اللغات الشرقية، إلى كلية الحقوق بعدها بعام واحد (١٨٤٥)، وفى العام ١٨٤٧ يداهمه الحنين إلى (يوسنايا بوليانا) فيترك الجامعة ويعود إلى بلدته القديمة، إلا أنه يعود فى العام ١٨٤٩ ليؤدى امتحاناً للحصول على شهادة من جامعة بطرسبرج، ثم ينسحب عائداً إلى (يوسنايا بوليانا) وفى العام ١٨٥١ يذهب إلى القفقاس بصحبة أخيه (نيقولا)، وفى العام ١٨٥٢ يصير

ضابطًا فتبدأ رحلته مع الكتابة بـ(الهجوم) و(الطفولة) والتى نشرت فى مجلة المعاصر فى العدد (٩)، بعدها يبدأ كتابة (رواية ملاك روسى)، ثم يتلوها بقصة (الصبا) والتى انتهت فى العام ١٨٥٤، وكان أثناء كتابتها قد بدأ رواية (القوازق) فى العام ١٨٥٣ وعقب قصة (الصبا) يكتب (تولستوى) قصة (الشباب)، وبعد أن ترقى إلى رتبة (ملازم) أول يستقيل ويعود إلى (ياسنايا بوليانا) (المولد والهدف)، وفى العام ١٨٦٢ تتغير حياة (ليون تولستوى) بزواجه من (صوفيا بيرز) - وعقب هذا الزواج يبدأ تحفته الخالدة (الحرب والسلم) (١٨٦٣) والتى نحن بصدد إعادة إصدارها فى سلسلة ذاكرة الكتابة، - كل هذه التواريخ الواردة فى السطور السابقة جاءت استنادًا إلى كتاب (رالف ئى ماتلو) والذى ترجمه الأستاذ (نجيب المانع) وهو كتاب جدير بالاهتمام، ولنفس الكاتب والمترجم كتاب آخر عن (ديستويفسكى) والكتابان من إصدار، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (الجمهورية العراقية) - سلسلة الكتب المترجمة دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٠.

عن الحرب والسلم

فى كتابه (عشر روايات خالدة) يذكر (سومرست موم) أن بلزاك هو أعظم روائى عرفه العالم على الإطلاق، ولكنى اعتقد والكلام (لسومرست موم) أن رواية (الحرب والسلم) لـ(تولستوى) هى أعظم رواية، ويؤكد (فلم يسبق أن كتبت وأغلب الظن أن هذا لن يتكرر) رواية تضارعها فى الضخامة. وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة فى التاريخ، كما أنه لا توجد هناك رواية استطاعت أن تتناول هذا الحشد الضخم من الشخصيات، ولـ(ستراخوف) الناقد الأدبى الكبير والصديق الشخصى لـ(تولستوى) تعبيرًا أورده (موم) فى كتابه حيث يرى (إنها صورة كاملة للحياة الإنسانية، صورة كاملة لروسيا فى ذاك اليوم، وصورة كاملة لما يمكن أن يسمى تاريخ الشعوب ونضالها، صورة كاملة لكل شىء يجد فيه الناس سعادتهم ومجدهم، حزنهم

وهوانهم، تلكم هى رواية (الحرب والسلم) (راجع عشر روايات خالدة لـ(سومرست موم) سلسلة دراسات فى الآداب الأجنبية ترجمة سيد جاد وسعيد عبد المحسن، دار المعارف ١٩٧١) لهذا كله جاء حرصى على إدراجها ضمن خطة النشر بعد موافقة الأستاذ (عبد العزيز جمال الدين) الذى لا يتوانى فى دعم أى كتاب رائد ومهم، وقد اخترنا أن ننشر نسخة الرواية التى صدرت بالعربية فى العام ١٩٥٣ عن دار اليقظة العربية فى سورية الشقيقة، وقد كان لدى أمل أن أعيد نشر النسخة التى أصدرتها وزارة الثقافة فى سوريا من ترجمة الأستاذ (سامى الدروبى) الذى كان يترجمها ضمن الأعمال الكاملة لـ(تولستوى) إلا أنه رحل قبل أن يكمل الترجمة فأكملها الأستاذ الجليل (صياح الجهيم) وهى ترجمة رائعة، وقد صدرت فى العام ١٩٧٦، إلا أن مسألة حقوق النشر جعلتنا نعود إلى الوراء ما يقرب من ربع قرن لننشر هذه الترجمة، وهى لا تقل أهمية عن ترجمة طبعة وزارة الثقافة السورية، إلا أن دار اليقظة قد اختارت أن تنشرها دون ذكر أسماء المترجمين واكتفت بجملة (لجنة من أدباء دار اليقظة) وعلى الرغم من صعوبة تحديد هذه اللجنة، إلا أن هناك تخمينات تقول إن الأستاذين (فؤاد أيوب) و(سهيل أيوب) كانا ضمن اللجنة، ولا أستبعد ذلك لتخصصهما فى ترجمة الأدب الروسى، وربما كان معهما الأساتذة (أنطون حمصى – فاروق جلال الشريف)، إلا أن كل هذا مجرد تخمين لا يمكن اعتماده كنتيجة حقيقية أو قاطعة.

حكايتان عن الحرب والسلم

فى العام ٢٠٠١ كنت قد ذهبت إلى معرض الكتاب الدولى بمدينة نصر للبحث عن رواية الحرب والسلم، وكانت روايات (الإخوة كارامازوف) و(الجريمة والعقاب) و(الأبله) للكاتب العظيم (ديستويفسكى) شهب ساطعة فى أركان الجناح الروسى، كذلك الأعمال الكاملة لـ(مكسيم جوركى) فى ستة مجلدات (وأود أن أشير أنها

ليست أعمال كاملة كما اعتدنا تسميتها فـ(جوركى) كتب أكثر من سبعين مجلد لذا التسمية الحقيقية لها مختارات جوركى، وكذلك تعاملنا مع أعمال (تشيخوف) فى أربعة مجلدات إلا أن (تشيخوف) كتب أكثر من ذلك بكثير، المهم كان الجميع حاضراً فى الجناح الروسى إلا (تولستوى) ورواية (الحرب والسلم) فأخذت اتنقل بين دور النشر حتى شاهدت النسخة مختصرة فى إحداها، فرحت أقرأها بلهفة فى جناح العرض لإحدى دور النشر اللبنانية، وحين سألت أجابونى أنها نسخة وحيدة للعرض، وكانت مختصرة، فكنت أقرأ يوميا ما استطيع قرأته وأثنى الصفحة التى وقفت عندها كما أفعل مع كتبى الخاصة، كنت أتعامل مع الكتاب كما لو كان ملكى، وفى أحد أيام المعرض الأربعة عشر ذهبت لأستكمل قراءة الرواية فلم أجدها فشعرت وقتها كما لو كان قلبى فقد، وجلست أفكر فى الأمر (لابد أن قناص من قناصة الكتب قد اقتنصها لنفسه) - بعدها بعامين وجدت الرواية فى إحدى مكتبات وسط البلد ودون أن يكون معى ثمنها وكان الجو مهيئًا لاقتناصها وقد كان، اختطفت الرواية وقفزت اصارع السلالم حتى اختبأت بها فى أحد المساجد المجاورة للمكتبة، إلا أننى عندما عدت إلى البيت واكتشفت أن سعر الرواية (٣٧) جنيها فى أجزاءها الأربعة لم انم إلى أن أكملت ثمن الرواية بعد أسبوعين تقريبًا، وعدت إلى المكتبة لأجد رجلاً بسيطًا وجميلاً اسمه (عم محمد) كان نوبيًا جميلاً، وصارحته بالأمر وأخبرته أننى جئت من أجل أمرين إما إرجاع الرواية وإما دفع ثمنها، فأقسم أن لا يرجعها أو يحصل على ثمنها، بل قام على الفور واحضر لى أحد مجلدات (إيڤان تورجنيف) كهدية فصعقت من المسألة، وإذا به يخبرنى أن أول رواية سرقها فى حياته كانت (الحرب والسلم) هكذا يمكن لرواية الحرب والسلم أن تفقدك السيطرة على نفسك إذا أنت وجدتها فى أى مكتبة دون أن يكون لديك ثمنها نعم اعترف سرقت (الحرب والسلم) وحاولت إعادتها فاعادنى (عم محمد) إلى بيتى

بالرواية وثمنها وذكرى رجل لا أظن أننى أستطيع نسيانه كما لا أستطيع أن أنسى كيف غزا (نابليون) روسيا وكيف أحرق (موسكو) كما هلكت جيوشه، وكيف أنسى عائلات (رستوف - بولكونسكى - كوراجين) وهل لى أن أنسى (بيير) أو الأمير (اندرو)، وإذا نسيت كل هذا كيف لى أن أنسى (ناتاشا) العزيزة.

طارق هاشم



ليوتولستوي

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

المجلد

١

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

استناداً الى الترجمتين الفرنسية والانكليزية
وروجع النص الاخير على الاصل الروسي

القسم الأول



الكتاب الأول

الجزء الأول



نابوليون (هذا المسيح الدجال)

الفَصلُ الأوّل

وصيفة الامبراطورة

صباح يوم من حزيران ١٨٠٥ ، أرسلت آنا بافلوفنـــا شيرر ، Anna Pavlovna Scherer وصيفة شرف الامبراطورة ماري فيودوروفنا Marie Fiodorovna المفضلة ، خادماً يرتدي بزة حمراء رسمية يحمل بطاقات الى كل أصدقائها دون استثناء جاء فيها ما يلي :

« إذا كانت الرغبة في قضاء السهرة عنـد مريضة مسكينة لا ترعبك ، ولم يكن لديك ما تفعله خيراً من ذلك ، فانه سيفتنني ياسيـدي الكونت – أو يا أميري – ، أن استقبلك بين الساعة السابعة والساعة العاشرة » .

آنيت شيرر

أصيبت آنـّا بافلوفنا منذ بضعة ايام بعارض سعال كانت تسميه « كريب » Grippe رغبة منها في ايراد كلمة جديدة لم يذع استعمالها ويشع بعد ... فكان هذا العارض سبب تنويهها بالمرض في رقاع الدعوة .

كان الامير بازيل Basile ، الشخصية السامية المرموقة ، اول من حضر حفلتها من المدعوين . كان يرتدي حـــلة البلاط الموشاة ، المزينة بالأوسمة ،

وجوارب حريرية تبرز ساقاه من خفين رشيقين . وكان وجهه ذو القسمات الخداعة مشرقاً .

استقبلته آنا بافلوفنا بالعبارات التالية :

« إذن يا أميري ، إن جنيس(١) ولوك(٢) Gênes, Lucques أصبحتا الآن اقطاعيتين من املاك أسرة بونابرت . أخطرك بأنك اذا لم تبلغني أننا أعلنا الحرب ، او سمحت لنفسك بالاستمرار في تخفيف حدة فواحش هذا الدجال وقساواته – ولعمري إنني أؤمن بما أقول فإنني سأتنكر لك . لن تكون صديقي بعد ذلك ولا خادمي المطيع كما تقول . إه ، مرحباً ، مرحباً . أرى انني أخيفك ، إجلس وحدثني عن الاخبار . »

اجابها الأمير غير آبه باستقبالها :

– رباه ، يا للحدة اللاذعة !

كان يعبر عن خواطره ويفكر بتلك الفرنسية التي درج كبار رجالات البلاط الروسي على التحدث بها ، مدخلا عليها تلك النبرة المترفعة ، والمخارج الرخوة التي يمتاز بها ، أولئك الذين افنوا العمر في المجتمعات الراقية ، وكانوا ذوي حظوة في البلاط .

احنى رأسه المضمخ بالعطور والأدهان على يد آنا بافلوفنا وقبلها ، ثم تهالك بخفة على الأريكة .

إستطرد يقول بلهجته تلك وبصوت يخفي لامبالاة اقرب الى التهكم وراء ستار من التأدب واللطف :

---

(١) جنيس مدينة ذات مرفأ على خليج جنيس ، عاصمة ليجورجيا ، في ايطاليا. وهي مدينة من حيث موقعها ومتاحفها ومرفئها وتجارتها وصناعاتها وانتاجها . اسمها بالايطالية « جنوا » . احتلها الفرنسيون عام ١٨٠٥ والحقوها بمملكتهم . سكانها (٦٣٤٠٠٠) .

(٢) لوك مدينة ايطالية مشهورة بزيت الزيتون . تعداد سكانها « ٨٠٠٠٠ » .

– اسرة الترجمة –

— طمئني صديقك قبل كل شيء ، اخبريني كيف حالك يا صديقتي العزيزة
فأجابت آنـّا بافلوفنا :

— كيف يحسن حال المرء . . . إذا كان يتألم معنوياً ؟ هل يمكن للمرء ان يحتفظ بهدوئه في أيامنا هـــذه إذا كان طيب القلب ؟ اعتقـد انك ستمكث عندي طوال السهرة ؟

— وحفلة المفوضية الانكليزية ؟ إننا في يوم الاربعاء . ينبغي ان اظهر هناك كذلك . ستأتي ابنتي لتصطحبني .

— كنت اعتقد ان حفلة اليوم قد أجلت . اعترف لك بأن كل هـــذه الحفلات والمظاهر المصطنعة اخذت تصبح تافهة باردة .

أكد الأمير ، الذي كان كالساعة الدقاقة ، يبدي آراء بحكم العادة ، كان كثيراً ما يزعجه شخصياً ان يراها تحمل على محمل الجد :

— لو علموا ان هذه هي رغبتك ، لأجلوها بلا شك .

— لا تعذبني ! والآن ، ماذا قرروا بشأن برقيـــة نوفو سيلتسوف Novossiltsov ؟ إنك تعرف كل شيء .

اجاب الامير بلهجة باردة متبرمة :

— ماذا اقول لك ؟ لقد قرروا ان بونابارت قد احرق سفنه ، واعتقد اننا في سبيل إحراق سفننا كذلك .

كان الأمير بازيل يتكلم دائماً بتثاقل الممثل الذي يؤدي دوراً دققه ومحصه مائه مرة من قبل . اما آنـّا بافلوفنا ، فكانت على العكس ، شديدة الاندفاع والتحمس رغم اعوامها الاربعين .

أصبحت حالة التحمس عندها ميزة اجتماعية تعرف بها ، حتى انهـا احيانا ، كانت تبدي ذلك الحماس مرغمة ، ارضاء لرغبـة معارفها . فكانت الابتسامة الصغيرة التي تشرق ابداً على محياها — رغم ما بينها وبين تقاطيع وجهها المكدود من بعض التنافر — توحي — شأن الأطفـال المدللين — باعتراف صريح بخطئها

اللطيف ، ذلك الخطأ الذي كانت لاتريد ولا تستطيع الرجوع عنه ولا تؤمن بضرورة تقويمه .

ثارت آنّا بافلوفنا في سياق هذا الحديث على السياسة ، وهتفت مسخطة :

آه ! لا تحدثني عن النمسا ؛ قد لا أكون مطلعة على الحقائق . لكن النمسا لا تريد الحرب ولم ترده ابداً . إنها تخوننا . ان على روسيا وحدها مهمة انقاذ اوروبا . ان محسننا(١) يعرف المهمة السامية التي هو مدعو الى انجازها ، وسيكون مخلصاً لمهمته . هذاهو الامر الوحيد الذي أؤمن به . ان عظيمنا(٢)، امبراطورنا الباهر ، مدعو للقيام بأجمل دور في العالم . إنه شديد الصلاح ، غاية في الشهامة ، حتى ان الله لن يتخلى عنه ابداً . سوف يحقق مهمته ويبخرها ، فيسحق آفة الثورة التي اصبحت الآن اشد خطراً واكثر رعباً بعد ان تجسدت في شخص هذا السفاح الأثيم . ان علينا نحن ، ونحن وحدنا ، ان نشتري حياة العدل ... من الذي نستطيع الاعتماد عليه ؟ ان انكلترا ، بتلك العقلية التجارية التي تهيمن عليها ، لا تفهم ولن تفهم عظمة نفس الامبراطور الكسندر(٣) Alexandre ونفسيته النبيلة . لقد رفضت إخلاء مالطة . إنها تحتج وتتهمنا باضمار بعض النوايا . ماذا قالوا لنوفوسيلتسوف ؟. لا شيء !. انهم لم يفهموا ، ولا يمكنهم ان يفهموا نزاهة امبراطورنا وتجرده ، وأنه لا يهدف الى اي غنم شخصي ، بل يريد خير العالم . وبماذا وعدوا؟ بلا شيء ! انهم

---

(١) (٢) القاب كانت تطلق على الامبراطور اسوة بـ : مولانا ، سيدنا ، الخ . . التي تطلق عندنا . — اسرة الترجمة —

(٣) اسكندر الأول ، امبراطور روسيا منذ عام ١٨٠١ ولد عام ١٧٧٧ وتوفي عام ١٨٢٥ وقد حارب نابليون الاول فهزمه هذا في معارك : أوسترليتز Austerlitz وإيلو Eylau وفريدلاند Friedland فعقد معه صلح تيلسيت Tilsit . غير انه عاد يعلن الحرب عليه عام ١٨١٢ . — اسرة الترجمة —

لن يتقيدوا بوعد حتى ولو قطعوه على انفسهم ! لقد اعلنت بروسيا ان بونابارت لا يقهر . فاذا آمنا بما اعلنت ، كان معناه ان اوربا كلها لن تستطيع الصمود في وجهه... انني لا أصدق كلمة واحدة من تخريف هاردنبرغ(١) Hardenberg او هوغويتز(٢) Haugwitz . ان حياد بروسيا العتيد ليس الا شركاً . انني أؤمن بالله وحده وبهمة امبراطورنا الرحيم السامية . انه سينقذ اوربا !.

توقفت فجـــأة وكانت اول من ابتسم لتحمسها . فقـال الامير وهو يبتسم بدوره :

– لعمري لو انـــك أرسلت بدلاً من عزيزنا وينـتز نجيرود(٣) Wintzingerode لأمكنك انتزاع موافقة ملك بروسيا انتزاعاً . ان لك بلاغة ... هل ستقدمين لي قدحاً من الشاي ؟

– على الفور .

ثم استطردت وقد عاد اليها هدوءها :

– وبهذه المناسبة ، عندي شخصيتان هامتان جـــداً ستحضران اليوم : الفيكونت مورتمارت(٤) Mortemart وهو حليف جماعة مونتمورانسي(٥)

---

(١) الأمير : شارل اوغست دو هاردنبرغ ، سياسي في خدمة حكومة بروسيا ، مثلها في مؤتمر فيينا . ولد عام ١٧٥٠ وتوفي عام ١٨٢٢ . — اسرة الترجمة —

(٢) الكونت هنري دو هوغويتز ، سياسي بروسي وقع مع فرانسا معاهدة بال Bale. ولد عام ١٧٥٢ وتوفي عام ١٨٣٢. — اسرة الترجمة —

(٣) فردیناند دو وینتز نجیرود، فيلد مارشال وسياسي روسي وهو احد قواد جيش الغزو الروسي خلال معارك عام ١٨١٤ ولد عام ١٧٧٠ وتوفي ١٨١٨ . — اسرة الترجمة —

(٤) أسرة مورتمارت، أسرة فرنسية عريقة انحدر منها الاميرال دوفيفون De Vivonne ومدام دو مونتيسبان ، محظية لويس الرابع عشر واسمها الكامل : فرانسواز آتينائيس مركيزة روشوشوارت ولدت عام ١٦٤١ وتوفيت عام ١٧٠٧ . — اسرة الترجمة —

(٥) أسرة مونتمورانسي أسرة فرنسية شهيرة تحدر منها رجال مشاهير تبوؤوا المركز العسكري الاول في فرنسا حتى اتجاه ريشيلو فألغى ذلك المركز. ومن أشهر أفراد هذه=

Montmorency بواسطة جماعه روهان(١) Rohan ، ومن المع الاسماء في فرانسا وخيرة المهاجرين الحقيقيين — ثم الرئيس الروحي موريو abbé Morio .
هل تعرف هذا الدماغ الألمعي ? لقد استقبله الامبراطور هل تعرفه ?
— آه ! ستسعدني معرفته !
واستطرد بلهجة وشيقة وكأنه تذكر فجـأة أمراً جوهريا كان الواقع الأقوى لزيارته :—
— وبهذه المناسبة ، هـل صحيح ان الامبراطورة الأم تدعم ترشيح البـارون فونك للسكرتارية الاولى في فيينا ؟ ان هـذا البارون سيد مفلس كما يبدو .
كان الامير بازيل يتطلع الى هذا المركز لتنصيب ابنـه فيـه ، بينما كان بعضهم يستغل وساطـة الامبراطورة ماري فيو دو روفنـا لتعيين البارون فيه .
أجابت بلهجة مكتئبة باردة :
— ان سيـدي البارون دو فونك de Funke ، قد أوصـي به الى الامبراطورة الأم من قبل اختها .
لما نطقت آنـّا بافلوفنا باسم الامبراطورة ، اعرب وجهها فجأة عن احترام وتبجيـل عميقين مخلصين ، لا تخالطها سحابة من الشك . وكانت دائماً تتخـذ مثـل ذلك الطابع التمجيدي ، كلما تحدثت عن تلك الشخصية السامية ، الـتي تحيطها برعايتها وحمايتها .

=الاسرة : ماتيو الاول على عهد لويس السابع وماتيو الثاني وآن الاول وهو احد كبار مستشاري الملك فرانسوا الاول والملك هنرى الثاني ، وهنري الاول وهنري الثاني وكانوا جميعاً رؤساء الجيوش الفرنسية في عهودهم . — اسرة الترجمه —
(١) روهان ، بلدة فرنسية تعدادها ٥٦٨ شخصاً «سابقاً» . سمي الجنرال الفرنسي هنري دوقاً لها على عهد لويس الرابع عشر وانحدرت منها اسرة عريقة . — اسرة الترجمه —



سهرة آنا شيرر

استطردت وقد اظلمت نظرتها من جديد :

ـ لقد تفضلت جلالتها واحاطت البارون بتقديرها البالغ .

لزم الامير صمتاً خليـــاً . فأرادت آنـّا بافلوفنا ـ بما طبعت عليـه من احساس مرهف وما جبلت عليه من طباع السيدة العريقة في شؤون البلاط ـ ان تشعر الامير بأنه تجاوز حدود اللبـاقة في التحـــدث عن شخص تحميه الامبراطورة ، باللهجة والعبـارة التي تحدث بها ، وتوخت في الوقت ذاته ان تغريه بالفشل الذي مني به ، فقالت :

ـ ولكن على ذكر اسرتك ، هل تعرف أن ابنتك منـذ ان بلغت سن الرشـد وانطلقت في المجتمع ، اصبحت مطمع الانظار وقبلتها ؟ انهم يجدونها كالنهار المشرق .

انحنى الامير للتدليل على امتثاله وامتنانه .

وبعد فترة صمت ، اقتربت آنـّا بافلوفنا من الأمير وعلى شفتيهـا ابتسامة أنيسة ، وكأنها تنفت انتباهه الى ان المواضيـع السياسية والاجتماعية ، أتاحت السبيل للمناجيات الودية الخاصة .

أردفت تقول :

ـ إنني أحدث نفسي غالباً ، بأن الحيـــاة تبدو احياناً باغيـة في تقسيم السعـادة .

وأضافت عرضياً ، بلهجه لا تدع مجـالاً للرد ، وهي تقطب حاجبيها :

ـ لمَ حبـاك القدر بولدين فاتنين جميلين ـ باستثنـــاء آناتول ، ولدك الأصغر الذي لا يعجبني مطلقاً ـ ، ولدين على هذا القسط من اللطف والجمال ؟ انك أقل الناس اهتماماً بهما ، حتى أنك لا تستحقهما .

فأجاب الامير :

ــ ماذا أستطيع ؟ قد يقول لافاتر(١) Lafater إنني محروم من الحدب الأبوي .

ــ كفّ عن الهزل . إنني أرغب في التحدث اليك جدياً . هل تعرف أنني غير راضية عن صغيرك ؟

وعلت وجهها سحابة من الغم ، وأردفت :

ــ لقد تحدثوا عنه في حضرة صاحبة الجلالة الامبراطورة ــ والحديث بيننا ــ ، وقد أشفقوا عليك ورثوا لحالك .

ولما لم يحر الامير جواباً ، حضته على الجواب بنظرة من عينيها . فعبس الامير وقال أخيراً :

ــ ماذا تريدينني ان أفعل ؟ لقد بذلت كل ما في وسعي كأب لتثقيفهما . انهما ليسا الا سخيفين احمقين . ان هيبوليت سخيف هادىء على الأقل ، أما آناتول ، فانه سخيف طائش عربيد .

وابتسم ابتسامة اكثر تبرماً من العاده ، بينما ارتسمت على أطراف شفتيه خطوط عميقة ، تنبىء بغضبة مرة ، وأضاف :

ــ هذا هو الفارق الوحيد بينهما .

قالت آنّا بافلوفنا وهي ترفع اليه عينين حالمتين :

ــ لمَ ينجب الأشخاص الذين من نوعك أولاداً ؟ لو لم تكن أباً ، لما وجدت شيئاً آخذه عليك .

ــ إنني خادمك المخلص . أستطيع ان أصرح لك وحدك بأن أولادي هم

---

(١) جان كاسيار لافاتر ، فيلسوف وشاعر وأستاذ لاهوت بروتيستانتي ولد في «زيوريخ» سويسرا عام ١٧٤١ وتوفي عام ١٨٠١ وهو مبتدع « الفيزيونيومونيا » او علم الفراسة «الحكم على المرء استناداً الى تقاسيم وجهه » . ــ اسرة الترجمة ــ

قيود وجودي وحياتي . انهم مصدر عذابي . اني أرى الأمور على هذه الصورة . ماذا تريدين ...

صمت ، وأشار بيديه متمماً حديثه ، معلناً استسلامه لمصيره القاسي . فاستغرقت آنـّا بافلوفنا في التفكير .

ـ ألم تخطر ببالك فكرة تزويج « أناتولك » ، هذا الولد الضال ؟ يشاع أن العانسات مهووسات بالزواج . انني لم أشعر بعد بمثل هذا الضعف ، لكنني أعرف فتاة ما ، جعل أبوها حياتها جحيما . انها قريبة لنا : احدى أميرات بولكونسكي .

كان جواب الأمير بازيل اشارة من رأسه ، أعرب بها ببداهة الرجل الراقي الخبير ، عن استيعابه الغاية والعرض . واستتلى مسترسلاً في سياق آرائه الكئيبة قائلا :

أتعرفين أن هذا الـ « أناتول » يكلفني اربعين الف روبل كل عام ؟

وصمت فترة ثم عاد يقول :

ـ ماذا يحدث اذا استمر الحال خمس سنين على هذا المنوال ؟ هذا ما يجنيه المرء عندما يكون أباً . هل أميرتك شابة غنية ؟

ـ ان أباها غني بقدر ما هو بخيل . انه يقطن في الريف . انه ذلك الأمير بولكونسكي العتيد ، الذي ترك الخدمة منذ عهد الامبراطور المرحوم ، والذي كانوا يلقبونه بملك بروسيا . انه شديد الذكاء ، لكنه شاذ سيء العشرة . والصغيرة المسكينة ، تعيسة تعاسة الحجارة . ان لها أخاً تزوج مؤخراً بليزمينن وهو مرافق كوتوزف . انني أنتظره هذا المساء .

أمسك الأمير فجأة بيد مخاطبته ، وادناها ـ والله أعلم بالسبب ـ حتى لامست الارض وقال :

ـ اصغي الي ياعزيزتي آنيت . رتبي لي هذه المسألة ، فأكون خادمك

المطيع الى الأبد . (أ ـ ب ـ د) كما يكتب الىّ و كيلي في تقاريره . انها غنية ومن أسرة جيدة ، وهذا كل ما أبغيه .

وانحنى بحركاته الرفيعة الكيسة التي يمتاز بها وحده ، على يد وصيفة الشرف ليقبلها ، وراح يهزها فترة طويـــلة ، وهو جالس على أريكته يتأملها عن البعـد .

قالت آنّا بافلوفنا ساهمة :

ـ انتظر . سأتحدث هـــذا المساء الى ليز ، زوجة بولكونسكي الشاب . ولعلني استطيع تسوية هذه القضية . انني سأقوم بتدريبي الأول كفتاة عانس ، في اقامة اول زواج لواحد من اعضاء أسرتك .

* * *

الفصل الثاني

بيير

أخذ بهو آنّا بافلوفنا يعج بالمدعوين . اجتمعت فيه صفوة الطبقة الارستقراطية في بترسبورغ ، من مختلف الأعمار والمشارب : اشخاص تربط بينهم رفعة الحسب ، رغم فوارق الأعمار وتباين الآراء . جاءت هيلين الجميلة ، ابنة الأمير بازيل ، لتصحب أباها الى حفلة السفارة الانجليزية ، ترفل في ثوب خاص بالحفلات ، ينم عن الترف والثراء العريضين اللذين تنعم بهما صاحبته . ووصلت الأميرة الصغيرة الشابة بولكونسكي ، التي اشتهرت بأنها اجمل نساء بيترسبورغ واكثرهن فتنة ، والتي تزوجت في الشتاء الماضي وباتت تنتظر مولوداً ، مما اضطرها الى اعتكاف الحفلات العامة ، والاقتصار على الظهور في الحفلات العائلية الودية ، التي تجمع طائفة من المقربين . وجاء الأمير هيبوليت ، ابن الأمير بازيل ، بصحبة مورتمارت وقدمه للموجودين . ثم تلاهما الأب موريو وفي أعقابه عدد من علية القوم وخيرة أهل الثراء والنسب .

كانت آنّا بافلوفنا تسأل كل وافد جديد : « ألم تر بعدُ عمتي » او : « الا تعرف عمتي ؟ » ثم تمضي به بعد ذلك وعلى وجهها طابع جدي رزين ، الى

عجوز قصيرة القامة ، مزملة بشرائط ضخمة ، خرجت من غرفة مجاورة عند وصول طلائع المدعوين ؛ فتقدم الزائر اليهـــا ، وهي تنقل بصرها ببطء بينه وبين الـ « ماتانت » ثم تنسحب من فورها .

وكان كل مدعو يتقدم اليها بتهانيه التقليدية ، وبالعبارات اللائقة بالمقام ، بصدد تلك العمة المجهولة ، التي لم يكن احد يشعر بحاجة الى معرفتها ، او يبدي رغبته بتلك المعرفة . فتعلن آنّا بافلوفنا بهيئتها المتطيرة الخطيرة ، موافقتها على تلك الاطراءات التي يغدقها المادحون . وكانت « الماتانت » ، تبدأ حديثها مع كل من المقدمين اليهـــا ، بعبارة تقليدية متعلقة بصحتهم ، وصحتها الشخصية ، وصحة جلالتها الامبراطورية التي كانت — ولله الحمد — احسن في ذلك اليوم . فكان كل واحـــد منهم ينسحب مستأذناً — دون ان يبدي عجلة وتلهفاً على الانسحاب من باب المجاملة والأدب — ، وهو يتنفس الصعداء كمن تخلص من واجب مقيت عسير ، فلا يعود الى حضرتها طيلة السهرة .

كانت الاميرة بولكونسكي تحمل معها اشغالها في كيس صغير من القطيفة المدبجة بالذهب . وكان طيف من الزغب يظلل شفتها العليا اللطيفة ، التي كانت قصيرة بعض الشيء ، ولكنها تنفرج بشيء كثير من العذوبة وتبرز بانضمامها الى الشفة السفلى تشذراً اكثر فتنة واغراء . فكانت تلك العيوب الطفيفة — تلك الشفة القصيرة ، وذلك الفم المنفرج — تضفي عليها — كما هو الحال لدى النساء الفاتنات الجميلات — جاذبية خاصة وجمالاً لايصلح بغيرها . وكان كل من ينظر الى تلك الأم المنتظرة ، المملوءة حيوية وصحة ، وهي تحتمل أعباءهـــا برضى ونشاط ، يشعر بالغبطة والسرور يملآن قلبه فكانت دقائق قليلة بصحبتها تكفي ليشعر الكهول والشباب الجامدون المتضجرون ، بأنهم اضحوا في مثل حالها

«١» درجت الطبقة الارستقراطية في روسيا على اقحام كلمات فرنسية في حديثها بالروسية دلالة على تثقفها إذ كانت اللغة الفرنسية تعتبر لغة الطبقة الراقية . وقد ادخلت انا في حديثها كلمة ماتانت « عمتي لهذا الغرض — المترجم .

من النشاط والغبطة . وكان كل من لاحظ وهو يتحدث اليها ، تفتح ابتسامتها المشرقة اثر كل كلمة ، وعاين لمكان اسنانها البيضاء المستمر ، يعتقد انه في تلك الامسية ، اكثر عذوبة ورقة من اي يوم مضى . كذلك كان اعتقاد كل المدعوين .

دارت الاميرة الصغيرة حول المـــائدة بخطوات نشيطة متهادية وكيس اشغالها في يدها ، ثم جلست على مقعد قرب « السماور » الفضي ، وهي ترتب ثوبها بهدوء ، وكأن الامر يتعلق بحفلة سمر ستتذوقها كما سيتذوقها كل من حولها ويحيط بها ؛ ثم فتحت حقيبة يدها وقالت وكأنها توجه حديثها الى كل واحد بالذات :

ـ لقد جئت معي باشغالي .

ثم اعقبت موجهة حديثها الى ربة البيت هذه المرة :

ـ حاذري يا آنيت ان تعدي لي حيلة ماكرة ، لقد كتبت لي تقولين انها سهرة صغيرة لطيفة . انظري الى زينتي المتواضعة .

ومدت ذراعيها لتريها ثوبها الرشيق الاشهب الموشى بالخرز ، والذي كان يحدق به شريط عريض يمتد حتى اسفل الصدر .

فاجابت آنـّا بافلوفنا :

لاتراعي ياليز . ستكونين ابداً اجمل الموجودات .

استطردت ليز موجهة حديثها الى احد الجنرالات بلهجتها العذبة الرقيقة :

ـ اتدري ان زوجي قد هجرني مفضلاً التعرض للقتل .

ثم خاطبت الامير باذيل بقولها :

ـ قل لي لم هذه الحرب الملعونة ؟

ودون ان تنتظر جواباً ، استدارت نحو هيلين الجميلة ، ابنة الامير باذيل . فغمغم هذا في اذن آنـّا بافلوفنا قائلاً :

ـ يالها من شخصية فتانة ، هذه الاميرة الصغيرة !

وبعد فترة من دخول الاميرة ، وصل شاب متين البنيان ضخم الجثة ،

ذو شعر حليق ونظارتين ، سراويل فاتحة من احدث طراز ، وصدارة عالية و « فراكاً » بلون القرفة . كان ذاك الفتى الضخم ابن غير شرعي للكونت بيزو خوف ، وهو تلك الشخصية المشهورة على عهد كاترين ، الذي كان يقضي آخر ايامه في موسكو . كان الفتى قد انشيء خارج البلاد وعاد منذ حين الى روسيا ، فلم ينخرط في خدمة الجيش . وكانت تلك الليلة ، اول عهده بالظهور في المجتمعات الراقية . استقبلته ربة الدار بالتحية التي توجهها الى احط زوارها شأناً . ولم يمنع ذلك الاستقبال الفاتر من ان تشفعه آنـّا بافلوفنا باظهار ذلك التبرم الذي يبدو على وجه المرء احياناً ، عندما يصادف امرأً مزعجاً يتنافا مع كل مايحيط به . كان الفتى يجمع بين السذاجة والفطنة ، والذكاء والارتباك . فكانت هذه الميزة التي ينفرد بها ، سبب ذلك النفور الذي قوبل به . اضف الى ذلك شكله العام الذي احدث أثراً كبيراً في نفوس الرجال الحاضرين .

قالت آنـّا بافاوفنا وهي تتبادل نظرة قلقة مع « الماتانت » بعد ان قدمت اليها الزائر الجديد :

— انه لجميل منك ياسيد بيير ان تحضر لزيارة مريضة مسكينة .

غمغم بيير ببضع كلمات غـــير مفهومة ، بينما كانت نظراته تدحج وجوه المجتمعين بقحة . حيا الاميرة الصغيرة بابتسامة مرحة كما يحيي المرء احد معارفه المقربين ، ثم اقترب من العمة . ولم يكن قلق آنـّا فلوفنا دون مبرر . اذ أن السيد بيير ، ترك العجوز الطيبة ، قبل ان تنتهي من نثرها الموفق عن صحة صاحبة الجلالة الامبراطورة .

فاستوقفته آنـّا بافلوفنا مذعورة وقالت له :

— هل تعرف الأب موريو ؟ انه شخصيه هامة .

— نعم لقد سمعت شيئاً عن تصميمه حول السلم الدائم . ان المشروع مثير للفضول لكنه لايبدو عملياً . . .

قالت آنـّا بافلوفنا ، رغبة منها في التلفظ بأي شيء :

ـ هل تظن ذلك ؟ . . .

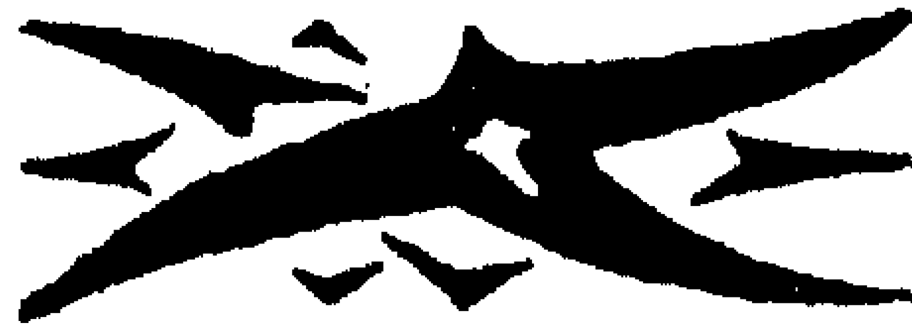
وارادت العودة الى واجباتها كربة منزل . لكن بيير ارتكب خطأ جديداً مناقضاً لخطئه الاول تماماً . ففي المرة الاولى ، غادر محدثته دون ان ينتظر نهـــاية حديثها . وهاهو الآن يستوقف محدثة ثانية رغم ارادتها ! وقف امام آنّا بافلوفنا ، مطرق الرأس مباعداً بين ساقيه الضخمتين ، يعرض عليهـــا الاسباب التي من اجلها يبدو تصميم الأب موريو خيالياً تماماً .

قالت آنّا بافلوفنا باسمة :

ـ سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد .

وبعد أن تركت الفتى الذي لايعرف كيف يتصرف ، عادت الى واجباتها كمضيفة ، وكلها عيون وآذان ، مستعدة للتدخل اينما وجدت ان الحديث قد خمدت حدته او خبت ناره . مثلها كمثل معلم النسيج ، الذي يروح ويجيء بعد ترتيب عماله ، مشرفاً على أنواله وآلاته ، حتى اذا توقف دُرّار او ندّ عن آخر صوت غير طبيعي ، او علا صرير او بدا خلل ، هرع الى مكان العطب والخلل يصلحه ، فيوقف هذا ، ويسير ذاك . كذلك كانت آنّا بافلوفنا ، تتجول في بهو منزلها ، مقتربة من الحلقـــات الصامتة ، تزكي الحديث بين افرادها ، او الجماعات الصاخبة ، تهدىء من حدتها وثورتها ؛ فتلقي كلمة هنا ، وتنقل شخصاً الى هناك ، معطية آلة الكلام ، الظروف الدقيقة المؤآتية ، التي تتطلبهـــا المناسبات لاستمرارها على العمل . غير ان تلك العناية الفائقة ، وذلك النشاط المختلف من جانبها ، لم يفلحا في تبديد الكآبة التي احدثها وجود بيير ، تابعته بنظرة قلق ، فرأته يتجه نحو الحلقة التي انتظمت حول مورتمارت ثم ينتقل منها حيث كان موريو يسهب في الحديث . كانت حفلة آنّا بافلوفنا ، اول حفلة يحضرها السيد بيير ، الذي تلقى علـومه خارج روسيا . وكان يعرف ان كل

« أضواء » بيتر سبورغ على موعد للتلاقي فيها . فكان اشبه بالغلام في دكان بائع الألعاب ، يحدق فيها حولة باعجاب وافتتان . كان يخشى دائماً ان تفوته بعض البحوث الرصينة المتعقلة ، التي يمكنه ان يفيد منها . فلما رأى شخصيات مرموقة ، شديدة الاعتداد ، مجتمعة في ذلك المكان ، توقع ان يصغي الى روائع فكرية وعلمية . وبدت له المناقشة المستعرة بين الأب موريو والمحيطين به مهمة ، فانضم الى المجتمعين ، متحيناً الفرصة التي يتوق اليها كل شاب ، للادلاء بوجهة نظره .



الفَصلُ الثّالِثُ

مقتل الدوق دانجيان

سارت الأمور في حفلة آنّا بافلوفيا على أحسن حال . كانت الدرارات تسير في كل ارجاء المصنع ، دون توقف ولا تصادم ، في منتهى النظام والترتيب ، باستثناء « ماتانت » التي لم يبق لها من تتحدث معه ، إلا سيدة متقدمة في السن ، ذات وجه ناحل جرحته الدموع ، كانت تبدو مضطربة غير مستريحة الى الوسط اللامع التي كانت فيه . انقسم المدعوون الى ثلاث جماعات : الأولى ، وجل افرادها من الرجال ، يتزعمها الأب موريو ؛ والثانيـــة ، وقد ضمت معظم الشباب ، سطعت فيها الأميرة الجميلة هيلين ، وقد جلست على عرش الجمال الى جانب الأميرة الفاتنة بولكونسكي ، فبدت متوردة المحيا ، شديدة اللطف . أشد نعومة مما يسمح به سنها . وكان محور الالتفاف في الجماعة الثالثة : مورتمارت وآنّا بافلوفنا .

ومما لاشك فيه أن الفيكونت الشاب ، ذا المظهر الأنيق ، والقسمات

الدقيقة والأساليب اللطيفة، كان يعتقد أيه شخصية شهيرة لامعة، لذلك فإنه لم يترفع عن إرضاء فضول جماعة النبلاء الملتفين حوله، أدب وحسن تصرف.
وكذلك لم يفت آنّا بافلوفنا بدورها أن تقدمه الى مدعويها بما يليق به من اعتبار، وكما ان الطاهي البارع، يقدم لزبائنه طبقاً يعتبره خارق اللذة، لو قُدم في مطعم قذر لما أثار غير الاشمئزاز والتقزز، كذلك قدمت آنّا بافلوفنا لمدعويها الفيكونت الشاب أولاً، ثم الأب موريو، كما تقدم ألواناً مفضلة من الأطعمة أنتقيت بعناية وتدقيق خارقين.
دار الحديث اولاً في دائرة مورتمارت عن مقتل الدوق دانجيان
فأكد الفيكونت ان الدوق قضى ضحية طيبة قلبه ونبله، وأن في مقتله موجبات خاصة، تتعلق بغل" بونابرت.
— آه! حدثنا بذلك يافيكونت.
كانت آنّا بافلوفنا هي التي هتفت بتلك الجملة، وقد اطربها ان لاحظت ان في جملتها تلك: «حدثنا بذلك بافيكونت» على بساطتها، وقعاً يحمل بين طياته، صدى اسلوب التحدث على طريقة لويس الخامس عشر.
انحنى الفيكونت دلالة الاحترام للمتكلمة، وقد انطبعت على ثغره ابتسامة مهذبة. فبادرت آنّا بافلوفنا على الفور الى تشكيل حلقة حول الفيكونت الشاب، ودعت الموجودين الى اعارة حديثة آذناً صاغية.
قالت لأحدهم:
لقد كان الفيكونت معروفاً بصورة خاصة من قبل سمو الدوق...
والى آخر
— ان الفيكونت محدث لبق بارع...
والى ثالث تحضه بقولها:
— ما أسرع ما يعرف المرء الرجل الممتع الصحبة...
وهكذا قدمت الفيكونت سلواناً لمجتمعها الراقي، على ألبق مظهر وافضله،

كما يقدم طبق من اللحم المشوي الحار ، وقد ذر عليه البهار وانواع المشهيات .

وابتسم الفيكونت ابتسامته العذبة الرقيقة ، واستعد للشروع في حديثة .

هتفت آنّا بافلوفنا بالأميرة الجميلة التي كانت على مقربة منها ، وسط فريق من المعجبين :

تعالي هنا ياعزيزتي هيلين .

نهضت الأميرة هيلين ، وعلى ثغرها تلك الابتسامة المشعة ، إبتسامة المرأة الجميلة المكتملة الأنوثة ، التي كانت تشرق على وجهها منذ أن دخلت الى البهو . مرت وسط الرجال الذين راحوا يفسحون لها الطريق وهي تجر وراءها ثوبها الأنيق الموشى بالزهور ، فيحدث حفيفاً خافقـــاً ، واختالت مزهوة بكتفيها البضتين الجميلتين ، وشعرها المتموج ، وجواهرها المتلألئة ، شامخة الرأس ، لا احداً بنظرتها ، بينما كانت ابتسامتها تغمر الموجودين . وبدت كأنها تراعي ان يتأمل كل منهم قامتها الفارعة ، وكتفيها المنسجمتين ، وعنقها وظهرها العاريين ، البارزين بسخاء خلال فتحة الثوب ، وفق مبتكرات ذلك العصر . اقتربت من آنّا بافلوفنا وكأنها تجر في اعقابها كل روعة الحفل وبهائه . كانت هيلين على قسط كبير من الجمـال ، بعيدة عن اسباب التجمل والتبرج ، تبدو مشفقة من سلطان جمالها المفرط الخارق وكأنها تبحث عبثـاً عن وسيـلة تخفف من بغيه وطغيانه .

كان كل من يلقاها لا يتمالك نفسه عن القول .

— يا للبهاء والجمال !

فلمـــا جلست امام مورتمارت ، وطلعت عليه بابتسامتها الخالدة ، اجفل الفيكونت وكأن الدهشة قد عقلت لسانه . واطرق مبتسماً .

«١» الدوق دانجيان ولد في شانتيلي وهو ابن لويس هنرى جوزيف ، امير كوندي . ولد عـــام ١٧٧٢ . وقد اختطف من الاراضي الالمانية تنفيذاً لامر بونابارت واعدم رمياً بالرصاص في فانسين عام ١٨٠٤ — المترجم

قال وهو ينحني :

ـ سيدتي ، إنني مشفق على وسائلي في حضرة الجمال الطاغي . d'Enghien

أغفلت الامـــيرة الرد على اطرائه ، واسندت ذراعها المتناسقة على نضد صغير ، وانتظرت باسمة . لبثت طيلة المدة التي استغرقتها وقائع القصة ، منتصبة الجسد ، ترتب ثنيات ثوبها ، او تتأمل تارة ذراعها المستديرة البديعة ، التي كان ثقلها على النضد يخفق في تشويه شكلها الجميل الشهي ، وطوراً عنقها الاثيل الفتان ، الذي كانت تعانقة قلاداتها الماسية . وفي المواقع المثيرة من القصة . كانت عيناها تشخصان الى وجة آنّا بافلوفنا مستفسرتين ، فتنقل هذه انطباعاتها باخلاص . لكن تقاطيعها سرعان ماتنسط بابتسامة ملائكية .

تركت الاميرة الصغيرة مائدة الشاي على اعقاب هيلين ، وهي تهتف بها :

ـ انتظريني ريثما آخذ أشغالي .

ثم توجهت الى الامير هيبوليت قائلة :

ـ ففيم تفكر ؟ جئني بحقيبتي اليدوية !

احدث تأهب الامـيرة للانتقال من مكانها ، وما اشفعته بحديث واعقبته بضحكات وزعتها على من حولها ، الغطاً في حلقة مورتمارت فلما جلست بين افراد الجماعة الجديدة ، واصلحت من زينتها ، قالت وهي تستعيد اشغالها :

ـ هكذا . لقد اخذت مكاني . يمكنك ان تبدأ قصتك .

وتبعها الامير هيبوليت ، حامل الحقيبة ، في حلها الجديد ، وجاء يجلس على مقعد دفع به الى مقربة منها .

كان بين « هيبوليت الجذاب » واخته هيلين الفاتنة شبه بيّن واضح ، لم يمنع ان يكون الاخ شديد البشاعة ، رغم وحدة التقاطيع : لقد كانت قسمات هيلين مضاءة ابداً بتلك الابتسامة الرصينة الفتية الخالدة ، التي تشع حبوراً ، وتعرب عن استمتاع ببهجة الحياة . على عكس اخيها الذي كانت قسماته مكفهرة مظلمة ، وقد انسدل عليها حجاب من الغباء ، فاصبحت تنم عن زهو متجهم . ثابت .

وكان تكوين هيلين الكامل الذي ابدع الفنان في صوغه وتركيبه ، يتناقض مع جسد هيبوليت الا عجف النحيل . فكان وجهه ابداً متقلصاً تحيطبانفه وفمه وعينه ، خطوط تدل على شراسة طبعه . اما ذراعاه وساقاه ، فكانت تتخذ ابداً وضعيات مقتبسه منفرة .

لم يكن يجلس في مقعده ، حتى بادر يثبت عوينته ، وهى الحركة الملازمة التي بدونها ماكان يستطيع البدء في الحديث .

قال مستفسراً :

– اهي قصة اشباح ؟

فاجاب المحاضر وهو يهز كتفيه بحيرة :

– كلا ياعزيزي .

قال الامير معللاً سؤاله :

– ذلك انني امقت قصص الاشباح .

كانت لهجة الامير تدل على انه لايتحرى الدقة في عباراته وانه يفهم مرامي اقواله بعد ان يصرفها . وكان يتحدث بتأكيد حاسم ، حتى ان المستمع ليحار في اخذ عباراتة على محمل الرشد او الدعابة . كان يلبس جوارب حريرية ، وينتعل خفين ، ويرتدي « فراكاً » اخضر قاتماً ، وتحته سراويل اصطلح على تسميتها : فخذ جنية مروعة .

استطاع الفيكونت اخيراً ان يروي الحكاية بحماس يتناسب مع خطورتها . ولم تكن الاحدوثة جديدة او غريبة . كانت خلاصتها ان الدوق دانجيان الذي جاء سراً الى باريس ، لزيارة المدموازيل جورج ، وجد عندها بونابارت الذي كان حائزاً على عطف الممثلة الشهيرة ، والتفاتها كذلك . فانتاب بونابارت اغماء ، جعله تحت رحمة خصمه ، الذي غزف عن الافادة من الفرصة وانتهازها . وقد سبب نبله ذاك مقتله بعدئذ ، لانهباغضائه عن قتل بونابارت في

نوبة من النوبات التي كان فريسة لهـــا ، ترك لبونابارت امكانية رسم الخطة للانتقام من الدوق بقتله .

كانت الاحدوثه على شيء من الاثارة ، خصوصاً في الجزء الذي يصف لقاء الحصين الفجائي . وقد احدثت هـــذه الناحية تأثيراً في السيدات . فهتفت آنّا بافلوفنا وهي تستفسر الاميرة الشابة بنظرة من عينيها :

— بديع ، أليس كذلك ؟

فغرزت هذه ابرتها في اشغالها ، دلالة على ان تلك القصة الممتعة لاتسمح لها بالاستمرار في عملها ، وقالت مؤيدة :

— رائع .

شكر الفيكونت الاميرة بابتسامة على اطرائها الصامت ، الذي احسن تقديره ، وهم بمعاودة الحديث ، عندما لاحظت آنّا بافلوفنا ان الشاب الذى كانت تخشى سوء تصرفه ، وصدور حماقة عنه ، مشتبك في نقاش صاخب حامي الوطيس مع الاب موريو فهرعت من فورها نحو الجهة المهددة .

والحقيقة ان السيد بيير كان في تلك الاثناء ، يتباحث مع موريو حول التوازن الاوربي ، فراح هذا يعرض على الفتى مشروعه العتيد عن السلم الدائم ، وقد اخذ بحماس الشاب الساذج وحميته المتوقدة . وشد ماراع آنّا بافلوفنا ان وجدت ان كان في ذلك النقاش راضياً ، يصرف فيه حماساً وتقبلاً .

كان موريو يقول :

ان العلاج الوحيد هوالتوازن الاوربي ، وحقوق الافراد . فاذا قامت دوله كبرى قوية كروسيا المتهمة ببربريتها ، وتزعمت حلفاً غرضه ايجاد التوازن فيأوربا ، فان تلك الدولة تستطيع انقاذالعالم ، اذ كانت لاتغذي نوايا مضمرة .

— وكيف تجد ذلك التوازن ؟ . . .

هم بيير بمتابعة حديثه ، لكن نظرة قاسية من آنّا بافلوفنا التي تدخلت في تلك اللحظة ، ارغمته على الكف الاسترسال .

قالت تسأل الاب موريو :

– كيف تجد الجو هنا ؟ هل تحتمله ؟

فانطبع وجه الايطالي المتحول ، بطابع اللطف والايناس الذي ينفرد به في حضرة السيدات ، واجاب :

– ان جمال المجتمع الذي اسعدني الحظ ان استقبل فيه ورفعته وميزاته ورقيه ، شدهتني واذهلتني ، حتى انني لا اجد بعد متسعاً للتفكير في المناخ .

وحاذرت آنّا بافلوفنا ان تترك موريو وبيير معـــاً ، ولم تجد بداً من اجتذابها الى حلقتها ، ليتسنى لها وضعها تحت رقابتها الصارمة .



الفَصلُ الرابعُ

الاميرة دروبتسكوي

في تلك اللحظة دخل الى البهو زائر جديد ، هو الأمـــير الشاب آندرية بولكونسكي ، زوج الاميرة الشابة . وهو فتى جميل الطلعة ، متوسط القامة ، ذو قسمات واضحة جامدة . كان كل مافيه، إعتباراً من نظرته المنهكة المظلمة ، وحتى تثاقل مشيته واتزانها ، يوحي بنقيض عنيف لحيوية زوجته اللطيفة ولاشك ان زبائن آنّا بافلوفنا وعباراتهم كانوا معروفين منه ، حتى انه كان يشعر بضجر وسأم قاتلين ، او الاستماع الى اقوالهم . كان واضحاً انه ما كان يميل الى احد من اولئك الاشخاص المملين او يهتم به ، بما في ذلك زوجته ، الـــتي ما ان وقع نظره عليها حتي عجا وجهه واستدار على الفور . وبعد ان قبل يد آنّا بافلوفنا ، راح يتفحص وجوه المدعوين بعينين نصف مغمضتين .

سألته آنّا بافلوفنا :

— هل تنضم الى صفوف المقاتلين يا أميري ؟

فأجاب بولكونسكي بالفرنسية وهو يحاول تقليد ابناء السين .

ـ إن الجنرال كوتوزوف انتقاني مرافقاً له . . .

ـ وليز زوجتك ؟

ستعتزل في الريف .

ـ الا تخجل لحرماننا من زوجتك الفاتنة ؟

هتفت الاميرة تنادي زوجها ، بتلك اللهجة اللعوب التي تخاطب بها الغرباء :

ـ آندرية لو علمت بالقصة الرائعة التي رواها الفيكونت لنا منذ حين عن بونابرت والمدموزيل جورج . ليتك سمعتها .

قطب الامير حاجبيه واشاح عنها . وفي تلك اللحظة اقترب منه بيير ، الذي كان يتابعه منذ دخوله بنظرة ودية مغتبطة ، وامسك بذراعه . فلم يستدر بولكونسكي ، ولكن وجهه اتخذ طابع الاشمئزاز حيال ذلك المتطفل . غير انه ما كاد يشاهد وجه بيير المبتهج ، حتى ابتسم بدوره ابتسامة مرحبة ، لم يكن ينتظرها احد .

قال له :

ـ كيف ! . . . هل بدأت تندمج في الاوساط الراقية انت ايضاً !

فأجابه بيير :

ـ كنت انتظر ان اراك . هل استطيع دعوة نفسي الى تناول طعام العشاء عندك ؟

فاه بهذه الجملة الاخيرة بصوت منخفض بغية عدم التشويش على الفيكونت يجتر قصته العتيدة .

فأجابه الامير آندرية ضاحكاً :

ـ كلا ، مستحيل .

بينما كانت يده التي ظلت تضغط على يد بيير ، تشعره بان الدعوة للعشاء طبيعية لا تتطلب توكيداً .

هم ان يضيف بضع كلمات جديدة ، غير ان الامير بازيل وابنته نهضا في

في تلك اللحظة ، فاضطر الشابان الى اخلاء الطريق لهما .

قال الاميرباز يل يخاطب مورتمارت ، وهو يمسك بذراعه بحركة ودية ليمنعه من النهوض لتشييعه :

– اعذرني ياحبيبي الفيكونت . ان حفلة السفارة الانجليزية المزعجة افسدت علي سروري ، وارغمتني على مقاطعتك .

ثم التفت الى آنـّا بافلوفنا واردف :

– انني شديد الاسف اذ اضطر الى مغادرة حفلك البهيج .

شقت هيلين طريقها بين صفي المقاعد ، وهي على احسن حال من الاشراق والبهجة . فلما وصلت الى حيث كان بيير واقفاً ، راح هذا يتأمل جمالها بعينين ارتسم فيهما اعجاب قريب من الهلع .

قال بولنسكي :

– انها رائعة الجمال .

فغمغم بيير مؤيداً

– نعم انها جميلة جداً .

قبض الامير بازيل على ذراع بيير واستدار الى آنـّا بافلوفنا وقال :

– ارجو ان تروضي لي هذا الدب . انه يقطن عندي منذ شهر ، مع ذلك فانني اراه للمرة الاولى في المجتمع . ان صحبة النساء الذكيات لايضاهيها مثيل في تهذيب نفوس الشباب وصقلها .

وعدت آنـّا بافلوفنا باسمه بان تهتم ببيير ، الذي كانت تعرف صلة القربى التي تربط اباه بالامير بازيل .

هرعت السيدة المسنة التي كانت في صحبة « الماتانت » لتلحق الامير بازيل عند الردهة اختفى من وجهها الهضيم الذي قعرته الدموع ، كالوقار الذي يتطلبه ذلك الوسط ، وحل محله القلق والذعر .

قالت وهي تجري وراء الامير :

اليس لديك ماتقوله لي بشأن بوريس ياميري انني لاأستطيع البقـــاء في بيترسبورغ اكثر مما مكثت . اؤ خبر سار تحملينه الى ولدي المسكين ؟

وعلى الرغم من ان الامير كان يصغي اليها ببرود خال من التهذيب ، يتضح عن نفاذ صبروتذمر ، فان السيدة المسنة كانت تبسم له بلطف عميق مسكن ، لتحمله على الاصغاء الى قولها حتى مضت في الحاحها الى الامساك بذراعه .

اردفت ضارعة :

— لن يكلفك التحدث عن ابني الى الامبراطور كثيراً . ان حكمة واحدة منك ، يدخل ابني بعدها في عداد الحرس .

اجابها الامير بازيل :

سأعمل ما في وسعي ياامـيرة ، صدقيني . غير انه من العسير بالنسبة لي ان اتحدث الى الامـبراطور . انني اوصيك ان تعمدي الى روميا نتسيف Roumiantsev ، عن طريق الاميرجولتسين golitsyne . ان ذلك سيكون ادعى الى النجاح .

كانت تلك السيدة المسنة ، وهي احدى اميرات دروبتسكوي Droubetskoi تحمل واحداً من اكبر الاسماء في روسيا . لكن الفقر اضطرها الى اعتزال المجتمعات ، ففقدت باعتزالها علاقاتها السالفة . وقد جاءت الى بيترسبورغ على امل الوصول الى وعد جازم بنقل ابنها الوحيد الى ملاك الحرس . وقد حضرت تلك الحفلة دون ان تدعى اليها ، بغية لقاء الامير بازيل فيها . وكانت هذه الغاية وحدها هي التي حملتها على الاصغاء بصبر نافذ الى قصة الفيكونت . وقد اخافها جواب الاميرة في باديء الامر ، اذ افصح وجهها الذي ظل محتفظاً ببقايا جمالها الغابر ، عن انفعال يشوبه الذعر . لكنها سرعان ما استعادت ابتسامتها وازداد ضغطها على ذراع محدثها بعصبية مكتومة .

قالت :

اصغ الي ياميري . انني لم أسألك قط معروفاً ، ولن اسألك كذلك منة .

انني لم اذكرك قط بالصداقة التي كان ابي يكنها لك . غير انني استحلفك الله ان تتوسط الآن من اجل ابني . . .

ثم اردفت بكلمات متتابعة متلاحقة تقول :

— سأعتبرك المحسن المنان الذي غمرني بمعروفه . لاتغضب ، عدني فقط . لقد قابلت جوليتسين فرفض . . .

واستطردت ضارعة مبتهلة وهي تحاول الابتسام رغم حجاب الدمع الذي كان يغمر مآقيها !

— كن ذلك الغلام الطيب الذي كنته من قبل .

هتفت الاميرة هيلين التي كانت تنتظر امام الباب ، وقد ادارت رأسها الجميل فوق كتفيها المتناسقين الرشيقين :

— ابتاه سوف ، سوف نتأخر عن الموعد .

كان النفوذ في « العالم » الراقي ذخيرة طيبة يجدر الاحتفاظ بها ، والا ، فانها سرعان ماتتبخر فيفقر صاحبها . لذلك كان الامير بازيل شديد الشح على ذخيرته تلك ، قلما يمد يده اليها ، وهو على تمام الثقة من انه لو حاول صرفها في التوسط لمصلحة كل من يلتمسون منه وساطة ما ، وجد نفسه صبيحة ذات يوم عاجزاً عن سؤال اي شيء لمصلحته الشخصية . مع ذلك ، فان نداء الاميرة دروبتسكوي الملح ، خلق في نفسه شيئاً من التبكيت والتعنيف الخفي لقد نطقت الاميرة العجوز بالصواب : ان اباها كان صاحب الفضل ، اذ قاد خطوات بازيل الاولى في طريق الرفعة والسمو الذي بلغ اليها . اضف الى ذلك انه لاحظ من مظاهر تلك السيدة وتصرفاتها ، انها من تلك النسوة ، او الامهات اللاتي يتابعن السير وراء غاياتهن ويعملن المستحيل في سبيل تحقيقها ، حتى اذا تعثرن بقصبة او تصدى لهن كائن ، اشبعته تقريعاً ولوماً في كل لحظة ، واوسعنه تعنيفاً ، فكان هذا الاستنتاج الواضح الصحيح سبباً في حسم الموضوع .

استطرد بلهجة مرحه كان معروفاً بها ، تخللتها سحابة من الارهاق :

– عزيزتي آنّا ميخائيلوفنا ، يستحيل علي تقريباً ارضاء رغبتك . مع ذلك فانني سأبذل المستحيل لاثبت لك ودي المخلص وتمجيدي لذكرى المرحوم والدك واحترامي له . اعدك بأن ينقل ابنك الى الحرس . فهل يرضيك ذلك ؟

– ياصديقي الطيب ، انك محسن ذو الفضل العميم علينا ! ما كنت انتظر منك غير ذلك . كنت اعرف انك طيب .

انحنى الامير يحاول الانسحاب ؛ فقالت الاميرة العجوز :

ثمة كلمة اخرى ، ارجوك .

وترددت برهة ثم أردفت :

– عندما ينتظم في سلك الحرس ، ارجو ان تتفضل بالسؤال من ميخائيل ايلاريونوفوتيسن كوتوزوف – هو صديق لك – ان يدخله في عداد مساعديه . وعندئذ سأقر عيناً ولن اسألك . . .

ابتسم الامير بازيل لهذا المشروع الجديد .

– لا استطيع ان اقطع لك وعداً . لو انك تدركين مدى المضايقات التي يتعرض لها كوتوزوت منذ ان عين « جنرالاً اعلى » لعذرتني . لقد قال لي بنفسه ان كل نسائنا الفاضلات في موسكو ، تآمرن عليه ليدخل ابناءهن في عداد مساعديه .

– كلا ، كلا ، ياصديقي الطيب ، ياصاحب الفضل علي ، لن ادعك قبل ان تمنحني وعداً . . .

كررت هيلين الجميلة نافذة الصبر :

ابتاه ، سوف نصل متأخرين .

فقال الامير :

– الى اللقاء ، اترين انني على عجلة من امري

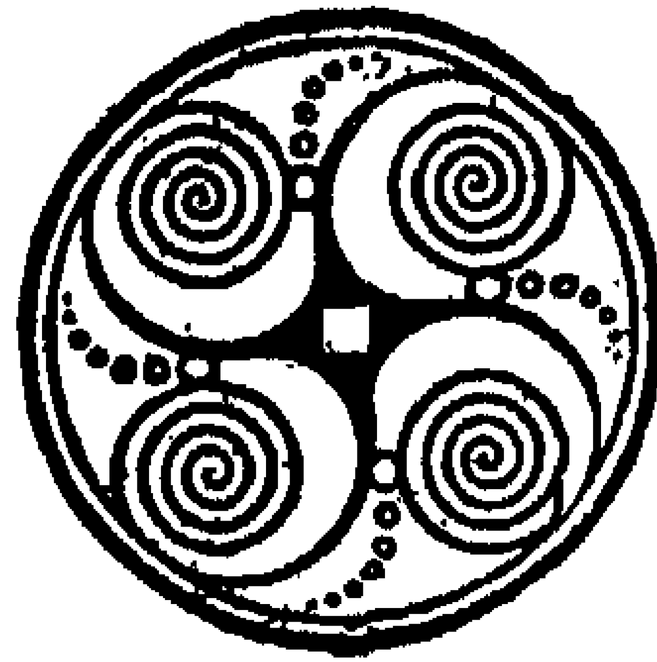
اتفقنا اذن . ستتحدث الى الامبراطور .

– بلا شك . اما كرتوزوف ، فانني لا اعد شيئاً بصدده .

فالحت الاميرة بابتسامة فتاة لعوب فاتنة ، ابتسامة متنافية متنافرة مع تقاطيع وجهها التالف بقدر ما كانت اليفة مع ذلك الوجه من قبل :

– بلى ، بلى . يابازيل .

كان واضحاً انها تناست تماماً سنها المتقدمة وانها لجأت بحكم العادة ، الى كل مواردها الانثوية السابقة . لكن ما ان خرج الامير ، حتى استعاد وجهها طابع البرود الذي كان موسوماً به من قبل . عادت تلتحق بالمدعوين الملتفين حول الفيكونت الذي كان لايزال يتابع خطابته ، وتصنعت الاصغاء الى اقواله ، متحينة لحظة الانصراف ، وقد باتت تتوق لها ، بعد ان انجزت مهمتها .



الفصل الخامس

نقاش حول بونابارت

استقصت آنّا بافلوفنا تقول :

ـ ادن ، ماقولك في اضحوكة التنصيب الاخيرة في ميلان ؟ ومهزله شعبي جينس ولوك الجديدة ، اللذين جاءا يرفعان ولاءهما الى السيد بونابارت الجالس على عرش ، معلنين عن عواطف الامم وتمنياتها ! مدهش ! اليس كذلك ؟ بل أنه يكاد يثير الجنون ! حتى ليظن أن العالم أجمع قد فقد عقله .

طافت ابتسامة على وجه الأمير آندريه وحدق في وجه آنا بافلوفنا بنظرة ثابتة . قال وهو يردد كلمات بونابارت :

ـ نعم « لقد اعطانيها الله والويل لمن يمسها » Dieu me la donne; gare à qui la touche يقال انه كان رائع الجمال وهو يردد هذه الكلمات .

وعاد يكرر هذه الجملة بالأيطالية Dio mila do: na, gu a hi la tocca

واستطردت آنّا بافلوفنا قائلة :

ـ آمل ان تكون هذه العملية بمثابة النقطة التي يطفح بها الوعاء . ان الأمراء اصبحوا لايطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدد كل شيء .

فقال الفيكونت بلهجة أنيسة ولكن هادئة .

ـ الأمراء؟ ... انني لا أتحدث عن روسيا بالطبع . الأمراء ياسيدتي ! ماذا فعل الامراء للويس السادس عشر ، للملكة ، او لمدام اليزابيت ؟

ثم استطرد بثورة وحماس وانفعال .

ـ لاشيء ! صدقيني انهم الآن يلاقون عقابهم على خيانتهم لقضية آل بوربون الأمراء ؟ إنهم يوفدون رسلاً يحملون تمنياتهم وتهانيهم للمغتصب .

ندت عن صدره زفرة حقد عميقة ، واعتدل في مجلسه من جديد إلتفت الأمير هيبوليت ـ وكان حتى تلك اللحظة محتمياً وراء عوينته ليتاح له تأمل الفيكونت على هواه ـ الى الاميرة الصغيرة فجأة ، وطلب إليها ابرة راح يرسم بها على المائدة شعار اسرة كوندة ، وراح يفسر لها رموزها بجد واندفاع وكأنها سألته ذلك بينما كانت الأميرة تصغي اليه والابتسامة مشرقة على وجهها .

أردف الفيكونت بحماس متزايد ، شأن الرجل الذي لايأبه الاصغاء الى الآخرين ويتبع ماعدا ذلك، سياق آرائه وحده ، في المسألة التي يلم بها كل الالمام ويتفهمها أكثر من اي سواه .

إذا لبث بونابرت على العرش عاماً آخر ، فإن الامور لن تتوقف عند هذا الحد . ان الدسائس والقسوة والنفي والتنكيل ، ستدمر المجتمع الفرنسي ، واقصد المجتمع الراقي ، تدميراً لارجعة بعده وعندئذ ...

وهز كتفيه دلالة على اليأس ، وانهى حديثه تلك النهاية الصامتة . وهم بيير ، الذي اثار ذلك الحديث اهتمامه ، ان يدلي بدلوه فيه . غير ان آنّا بافلوفنا التي كانت تراقبه بشدة ، لم تترك له مجالاً للحديث .

شرعت تقول بذلك الطابع الخطير ، الذي كانت تضفيه على وجهها كلما تحدثت عن الأسرة الامبراطورية :

ـ لقد اعلن الامبراطور ألكسندر انه سيترك للفرنسيين حرية انتقاء نوع الحكم . انني واثقة من انه أن يطيح بالمتصب الجائر . وينقذ الامة منه ، سيلقي الشعب بنفسه بين ذراعي حاكمه الشرعي .

فاهت آنّا بافلوفنا بالجملة الاخيرة ارضاء لشعور المهاجر النبيل .

قال الامير آندره :

— لا اظهر ذلك . لقد سارت الامور شوطاً بعيدا ، كما يؤيدني في قولي سيدي الفيكونت ، حتى بات يتعذر احياء الماضي وبعثه من طيات النسيان .

فتدخل بيير قائلاً وقد قفزت الدماء الى وجنتيه :

— اريد ان اقول ان الطبقة النبيلة كلها ، قد انضمت الى بونابرت .

فأجاب الفيكونت دون ان يرفع ابصاره الى بيير :

— ان هذه آراء بونابارتية . من العسير على المراقب الآن ، إستنباط عقلية البلاد الحقيقية ، وهي على حالة البلبال الحاضرة .

قال الأمير آندره ، بابتسامة هازئة :

-- لقد قال الامير بونابارت : « لقد دللتهم على طريق المجد ، فلم يسلكوه ، فلما فتحت لهم ردهاتي ، هرعوا اليها ذرافات ذرافات » ... ولست ادري الى اي مدى حق له أن يقول مثل هذا القول .

كان الامير آندره لايشعر بميل الى الفيكونت الشاب ، لذلك فقد كان يهدف الى ايلامه بايراد اقوال بونابارت وتأييدها ، ولو كان يتظاهر بعدم التحدث اليه .

اجاب الفيكونت معقباً على أقوال الأمير :

— ليس له أي حق في التلفظ بتلك الأقوال . منذ مقتل الدوق ، كف المعجبون به . اتفهم ، عن التطلع اليه بتلك النظرة التي يمجد الانسان بها احد ابطاله .

واردف موجهاً حديثه الى آنّا بافلوفنا بصورة خاصة :

— حتى ولو أنه كان بطلاً في نظر بعضهم ، فانه منذ مقتل الدوق ، ازداد عدد الشهداء في السماء واحداً كما نقص عدد الابطال ، فخسرت كذلك بطلاً .

قابلت آنّا بافلوفنا وصحبها تلك الكلمات بابتسامة مؤيدة ، استطاع بيير على اثرها ان يحشر نفسه في الحديث ، دون أن تستطيع آنّا بافلوفنا التصدي له لمنعه من اثارة المواضيع غير اللائقة التي كانت تخافها .

قال السيد بيير :

ــ ان اعدام الدوق دانجيان كان ضرورة حكومية . وفي رأيي أن « نابليون » بتحمل وحده مسؤلية هذا العمل ، قد أوردت دليلاً واضحاً على سمو نفسه وعظمتها .

غمغمت آنّا بافلوفنا مروعة :

ــ رحماك يارب ألهم رحماك !

وقالت الأميرة الصغيرة وهي دائمة الابتسام ، وقد ازدادت تعلقاً باشغالها :

ــ كيف ترى ياسيد بيير ان القتل دلالة على عظمة النفس ونبلها .

وانطلقت الآهات وآيات الدهشة ، من مختلف الحناجر والافواه .

بينما هتف الأمير هيبوليت وهو يضرب على فخذه ، متحدثاً بالانجليزية :

ــ انها نظرية قاضية !

اما الفيكونت ، فقد اكتفى بهز كتفيه مستعيضاً بتلك الحركة عن كل جواب تنازل بالرد به على اقول بيير .

سرح بيير نظره بين السامعين خلال نظارتيه ومن فوقها ، فكانت نظرة متباهية منتصرة .

اردف يقول مغامراً بكل شيء مندفعاً بلا مبالاة وراء فكرته :

ــ سأشرح الأمر . لقد فر آل بوربون امام الثورة وسلموا البلاد للفوضى . اما نابوليون ، فانه على العكس ، استطاع ان يفهم الثورة وان يسيطر عليها . فما كان يستطيع والحالة هذه ، ان يضع حياة فرد واحد في الكفة المقابلة لكفة المصلحة العامة .

قالت آنّا بافلوفنا محاولة تسوية الأمر :

ـ لو انك انتقلت ياسيد بيير الى المائدة الثانية ...

غير ان بيير كان كالعاصفة التي نشطت من عقالها ، لايسمع ولا يصغي . استطرد معقباً :

ـ نعم . ان « نابوليون » عظيم لانه استطاع السيطرة على الثورة . لقد خنق سيئات الثورة وابقى جوهرها الطيب : مساواة المواطنين وحرية القول والصحافة . ولهذه الاسباب وحدها ، استولى على السلطة العليا .

فقال الفيكونت مناقشاً :

ـ لاشك انه لو اعاد السلطة ـ بعد ان حصل عليها ـ الى ايدي اصحابها الشرعيين بدلاً من ان ينتهز فرصة وصولها اليديه لارتكاب جزيمة قتل ، لاسميته رجلاً عظيماً ولا شك .

ـ ان ذلك مستحيل أصلا . ان الامة لم تعهد اليه بمقاليدها الا لينقذها من آل بوربون ، ولانها رأت فيه رجلا عظيما يستحق ثقتها ..... لقد كانت الثورة خطوة جبارة ...

كان بيير باصراره على ابداء رأيه على هذا الشكل يعبر عن رغبته العميقة في ابداء الرأي النزيه بعيداً عن الموجبات والاعتبارات الاخرى ، مدفوعاً بحمية الشباب .

كررت آنّا بافلوفنا مغضبة :

ـ الثورة خطوة جبارة ؟ قتل الملك والتجاوز على سلطته ؟ هلا انتقلت الى المائدة الاخرى بعد كل هذا ....

ألمح الفيكونت وهو يفضح ابتسامة وديعة :

ـ العقد الاجتماعي !

بينما انطلق بيير يدافع عن نفسه !

ـ انني لم اخص مقتل الملك بالقول ... انني اتحدث عن الافكار ...

فقاطعه الفيكونت بابتسامة هازئة وصوت ساخر :

ـ نعم ، أفكار السلب والقتل وقتل الملوك ...

ـ ان هذه الحوادث ـ ولا افكر ابداً في انكار وقوعها ـ لا تشكل كل الثورة واهدافها . ان روح تلك الثورة وجوهرها هي حقوق الأنسان ، والغاء التقاليد البالية والمساواة بين المواطنين . لقد أقام نابوليون هذه المبادىء بكل معانيها وقوتها .

فقال الفيكونت بمقت ، وقد قرر اخيراً ان يشعر ذلك الغر بكل السخف الذي في تلك الآراء والافكار التي يتشدق بها :

ـ ان الحرية والمساواة كلمات طنانة ضخمة استغلت استغلالاً بشعاً . من ذا الذي لايحب الحرية والمساواة ؟ لقد كانت منذ الازل من تعاليم سيدنا المخلص . ولكن هل جعلت الثورة الرجال اكثر سعادة ؟ على العكس . اننا نحن اؤلاء الذين أردنا الحرية ونابوليون هو الذى دمرها وحطمها .

كان الامير آندره يسرح نظرة باسماً بين بيير والفيكونت ومنهما الى وجه ربة الدار . كانت هذه ، رغم ممارستها تقاليد المجتمعات واتقانها ضبط اعصابها ، قد فقدت بادىء الامر ، كل سيطرتها على اعصابها وكادت ان تعلن عن سخطها وتنكبها سبيل المضيفة اللبقة . لكنها عندما وجدت ان الفيكونت مورتمارت ظل محتفظاً بهدوئه ولا مبالاته ازاء آراء الشاب الدنسة ، تلك الآراء التي فات اوان كبتها وخنقها ، استعادت شجاعتها ولجأت الى الهجوم .

قالت تنفيذاً لخطتها الجديدة :

ـ ولكن ياسيدي بيير العزيز ، كيف تفسر لجوء رجلك العظيم الى اعدام دوق بل لنفل ، رجل عادي ، مخلوق انساني بسيط ، دون ان يحاكم الرجل التعس او ان يكون مذنبا ؟

فأعقب الفيكونت قائلا :

— وانني بالمثل أتوق الى معرفة التفسير الذي سيقدمه السيد عن حادثة ١٨ برومير (١)؟ أليس في ذلك الحادث مايشبه دور المشعوذ ؟ انها سرقة وشعوذة لاتشبه مطلقاً تصرف الرجال العظام .

اضافت الاميرة الصغيرة التي سرت رعشة ظاهرة في كتفيها :

— والسجناء الذين قتلهم تقتيلا في افريقيا ؟ انه لامر مريع !

فأيد الأمير هيبوليت قائلا :

— لقد أحسنت القول ، انه دنيء ، انها دناءة .

حار السيد بيير في من يصغي اليه ، لذلك فقد اكتفى بان راح بتأمل مغارضيه مبتسما . ابدلت ابتسامة بيير سحنته تبديلا كاملا اذ تحول وجهه الذي كان يحتفظ أبداً بتقاطيعه الخطيرة الكئيبة الى وجه طفل يفيض بالبراءة والطيبة ، على عكس ماجرت العادة عليه عندذوي القسمات الجدية الوقورة الذين لاتختلف تقاطيع وجوههم عادة اذا ماابتسموا . كان بيير في ابتسامته تلك ، اشبه بالطفل الذي يطلب الصفح .

استنتج الفيكونت ، الذي يرى بيير للمرة الاولى ، ان ذلك الثوري المتعصب ، تنحصر خطورته في كلماته فحسب . فران صمت عام .

وعندئذ قال الامير آندره مثيراً الموضوع من جديد :

— كيف تريدون منه ان يجيب على كل السائلين معاً ؟ انني اعتقد — على العموم — انه يجب ان تحوي اعمال رئيس دولة ما ، طابع الانسان العادي وطابع رئيس الجيش الى جانب صفات الامبراطور .

هتف بيير مؤيداً وقد سره ذلك الدعم الذي هبط عليه على غير انتظار .

— طبعاً ، طبعاً .

---

(١) اشبر برومير هو الشهر الثاني من التقويم الثوري في فرنسا . وهو يقابل من ٢٣ او ٢٢ تشرين الاول ولغايه ٢٠ او ٢١ تشرين الثاني — المترجم —

استطرد الامير آندره محاولاً التخفيف من عدم خرق بيير :

– ينبغي ان تعترف بأن نابوليون – بوصفه انسانا – رجل عظيم في موقعة جسر آركول ومستشفى يافا حيث مد يده الى الموبوئين ولكن ...

– ولكن تصرفات اخرى صدرت عنه ، يصعب ولا شك تبريرها .

أشار الامير آندره بعد ذلك الى زوجته ونهض مستأذنا . ولكن الامير هيبوليت نهض فجأة وانتصب بقامته الفارعة ، داعياً بحركات من يده ، ان يجلسوا جميعاً للاصغاء الى مايقول .

شرع يقول :

– آه ! لقد قص عليّ بعضهم اليوم ، حكاية موسكوفية رائعة ، أرى ان لاأحرمكم من الاستمتاع بها . أرجو ان تعذرني يافيكونت إذ يجب ان اقص الحكاية باللغة الروسية والا فقدت روح النكتة التي تزكيها .

وراح الامير يتكلم الروسية بلغة سقيمة ، حتى ليخيل الى من يستمع اليه ، انه فرنسي لما يمض عامه الاول في روسيا بعد . مع ذلك ، فقد أصغى اليه استجابة الى الرغبه التي اعرب عنها بكل شخصيته .

– توجد سيدة في موسكو . وهي شديدة الحجل . شاءت ان تستخدم خادمين ليقفا على الحاجز الخلفي من عربتها . وألحت في ان يكونا طويلي القامة ، لان تلك كانت رغبتها . والمسألة تتعلق بالذوق ، وكانت لديها وصيفة طويلة القامة ايضاً . قالت ...

وهنا توقف الامير هيبوليت وراح يبحث عن الجمل التي ستساعده على التعبير واتمام القصة . إستطرد :

– قالت .... نعم قالت للوصيفة : « ياإبنتي ، البسي ثوب الخادم الاحمر الرسمي ، وتعالي معي وراء العربة ، لنقوم بالزيارات » .

وانفجر الامير هيبوليت ضاحكا قبل ان يشعر المستمعون برغبة في الضحك . فكانت ضحكته المسبقة ذات أثر سيء على عكس ما كان ينتظر .

بينما تنازل بعض الاشخاص ، ومن وبينهم آنّا بافلوفنا والسيده العجوز . بابداء شبح إبتسامة ...

استطرد :

– فمضت . وهبت ريح عـاتية فأطـارت قبعة الوصيفة . فتهدل شعرهـا الطويل على كتفيها ...

وانتابته موجة ضحك عنيف استطاع خلالها ان يتمتم : « فعرف كل الناس ان ... » دون ان يستطيع اتمام اقصوصته !

وهكذا انتهت الحكاية الرائعة . وعلى الرغم من ان احداً لم يفهم لمَ روى تلك « النكتة » ولا لسبب اصراره على روايتها باللغة الروسية ، فان آنّا بافلوفنا والآخرين ، قدروا للامير هيبوليت حسن تصرفه ، لتبديد الوجوم والامتعاض اللذين أحدثهما حديث السيد بيير الشائك . وتبعثر النقـاش والحديث بعد ذلك ، واقتصر على شؤون الحفلات الراقصة التي اقيمت والتي ستقام ، والمراقص والمناسبات التي يمكن للمجتمعين ان يلتقوا خلالها في الايام في ألايام المقبلة .



الفصل السادس

(الصديقان)

بدأ المدعوون يغادرون الدار بعد ان قدموا – كل بدوره – احترامهم وتهانيهم لآنّا بافلوفنا على حفلتها الممتعة . غير ان بيير أخفق في مجاراة الآخرين في هذا التصرف . – كان بجسده الضخم وقامته الطويلة وتكوينه المتين ويديه الحمراويين – لايعرف كيف يدخل احد « الصالونات » بقدر ما كان يجهل كيف ينسحب منه . أي أنه ما كان يعرف توجيه بعض العبارات اللطيفة قبل مغادرته الحفل البهيج الذي كان فيه . وكان الى جانب ذلك ساهماً بعض الشيء . حتى انه لما نهض يغادر البهو تناول بدلاً من قبعته ، قبعة مثلثة لاحد الجنرالات راح يعبث بزينتها حتى رجاه صاحبها ان يعيدها اليه . لكن سذاجته وتواضعه وطيبة نفسه ، كانت ضمانا كافيا لتغطية جهله وشروده وشذوذه في الاوساط الراقية . وهكذا منحته آنّا بافلوفنا الغفران عن اخطائه وقذفته باشارة من رأسها .

قالت تودعه :

– آمل ان اراك قريباً . لكنني آمل كذلك ان تكون قد أبدلت آراءك ياسيد بيير بانتظار اللقاء التالي .

فاكتفى بالانحناء معاودة الابتسام جوابا على قولها وكأنه كان يقول :

« ان ارآئي هي بانتظار ولكن انظري اى شاب شجاع اكون » . وبـدا على الموجودين ، اعتباراً من آنـّا بافلوفنا نفسها ، انهم فسروا ابتسامته على هـذا النحو .

وفي الردهة ، راح الأمير آندره — وهو مستدير الظهر للخـادم ليضع له معطفه على كتفيه — يلقي أذنا صاغيـة كثرثرة زوجته مـع الامير هيبوليت ، الذي كان ينظر اليها بقحة خلال نظارته ويتفرس في تقاطيعها .

قالت الاميرة الصغيرة موجهة حديثها الى آنّا بافلوفنا :

- عودي الى البهو يا آنيت . ستصابين بالبرد .

ثم اضافت بصوت منخفض وهي تودعها :

— لقد اتفقنا ...

كانت آنـّا بافلوفنا قد وفقت خلال السهرة ، في الاسرار الى ليز ، بأنها تفكر في منح أخت زوجهـا ، خطيباً يضاهيهـا في المركز ، ممثلا في شخص الامير آناتول . فأعقبت آنّا على قول الاميرة بلهجة مماثلة :

— انني اعتمد عليك ياعزيزتي . أكتبي له واخبريني كيف ينظر الاب الى هذا الموضوع . الى اللقاء .

وعادت الى الغرف الداخلية .

انحنى الامير هيبوليت ليهمس الى الاميرة بكلمات في أذنها . وكانـ هناكـ خادمانـ ينتظران ، احدهما خادم الاميره وبين يديه (شال) والآخر تابع للامير يحمل « رودنجوتا » وكانا يرقبانها وهمـــا يتحـدثان بالفرنسية ويتظاهران بفهم تلك الكلمات رغم جهلهما التـام باللغة الفرنسية . وكان من عادة الاميرة ان تتكلم وهي تبتسم وتصغي وهي فاغرة الفم تتصنع الدهشة .

كان الامير هيبوليت يقول :

— انني سعيد لعدم ذهابي الى حفلة المفوضية . انـ المرء يتضجر هنـاك . ان سهرتنا هنا كانت ممتعة للغاية أليس كذلك ؟

فأجابت الاميرة وهى تطوف ابتسامة على شفتيها :

— يقولون ان الحفلة الراقصة ستكون فيها اجمل نساء المجتمع .

فقال الامير هيبوليت معقباً وهو يضحك :

— لن يحضرنها كلهن لانك لن تكوني موجودة .

وانتزع الدثار من يد خادمها بشيء من العنف ، وراح يساعد الاميرة على وضعه . فلما انتهى من مهمته ، ابقى يديه برهة وكأنه يطوق الاميرة بها . ولم يكن من السهل التنبؤ بحقيقة الدوافع لتلك الحركة ؛ أكانت مبيتة أم من باب الخطأ . لكن الاميرة أفلتت من يديه برشاقة ورقة وهي تبتسم ، والتفتت الى زوجها . كان الامير آندره ، يبدو تعباً نعساً وعيناه نصف مغمضتين .

سأل زوجته وهو يشملها بنظرة :

— ألأنت متأهبة ؟

ارتدى الامير هيبوليت « رودنجوته » بعجلة — وكان من احدث طراز ينسدل حتى كعبيه — ، وهرع يتبع الاميرة وهو متضايق من طول المعطف وانسداله . فلحق بها امام الباب الخارجي ، يساعدها خادمها على الصعود الى عربتها .

هتف بصوت أجش كالح لتصرفه في ذلك المساء :

— الى اللقاء أيتها الاميرة !

انزوت الاميرة في ركن العربة المظلم وهي تسوي ثوبها ، بينما راح الامير آندره يحسن وضع سيفه ليجلس الى جانبها . كان الامير هيبوليت يزعجه ببشاشته وتصرفه .

قال له الامير آندره بلهجة جافة ليفسح له الطريق :

— اسمح لي ياسيدي .

واردف الامير بولكونسكي بلهجة وديعة لطيفة مغايرة للهجته الاولى :

ـ انني أنتظرك يابيير .

وضرب الحوذي الخيول بسوطه فقفرت تجر العربة بضجة وصخب ، بينما لبث الأمير هيبوليث امام الباب ، يضحك تلك الضحكة المتقطعة ، بانتظار الفيكونت الذي كان قد وعده باعادته الى مسكنه .

ولما جلس الفيكونت الى جانب الامير هيبوليت قال :

ـ اذن ياعزيزي ، ان اميرتك الصغيرة رائعة رائعة ! رائعة جداً .

ثم قبل أطراف اصابعه وأردف :

ـ وفرنسية تماماً ...

فانفجر هيبوليت ضاحكاً بينما تابع الفيكونت قائلاً :

ـ انك ـ لو علمت ـ مرعب بطابعك البريء الذي تتصنعه . انني أشفق على زوجها ، ذلك الضابط الصغير ، الذي يتظاهر وكانه ولي عهد !

فقال الامير هيبوليت وهو يغرق في الضحك من جديد :

ـ لقد كنت تزعم ان النساء الروسيات لايساوين النساء الفرنسيات ، وفاتك ان الأمر منوط بحسن التصرف والتعقل في معاشرتهن .

دخل بيير ـ شأن الخبير بمسالك البيت المطلع على عادات أهله مكتب الأمير آندره قبل ان يدخله ذاك ، وارتمى على اريكة بحكم عادته ، ومد يده الى اول كتاب وقعت عليه ، وكان « تآويل » قيصر ، وراح يتصفحه كيفما اتفق ، معتمداً بمرفقيه على الاريكة . وعندئذ دخل آندره .

ابتدره هذا وهو يفرك راحتيه البيضتين الصغيرتين :

ـ لقد أثرت الآنسة شيرر في هذه الليلة حتى انهـا ستقع فريسة المرض ولا شك ؟

فاستدار بيير بكل جسمه ليبتسم للأمير بوجهه المنبسط المنتعش ،

فند عن الأريكـة صرير تحت ثقل وزنه الجبار . قال وهو يلوح بيـده بلا مبالاة :

أتدري بأن مشروع هذا الـ « موريو » جدير بالالفات لولا أنه يخطي فقط في الوسائل التي ستؤمن تنفيـذه . . . ان السلم الدائم ممكن التحقيق ولكن . . . لست ادري كيف اعبر عن رأيي . . . على كل حال ، ليس التوازن السياسي هو الوسيلة المنشودة .

كانت تلك البحوث السلبية لاتستلت اهتمام الامير آندره . قال مستفسراً :

اعلم ياعزيزي انه لايمكن للمرء دائماً ان يفصح عن سريرته وحقيقة آرائه. هل قررت أخيراً الانخراط في عداد فرسان الحرس أم في السلك السياسي ؟

تربع بيير على الاريكة وأجاب :

– لست ادري حقيقة ماذا سيكون من امري . انني أرى أن كلاً من هاتين الناحيتين تعبس لي ولا تشجعني .

– مع ذلك ، ينبغي أن تسلك اتجاهاً معيناً . بأن اباك ينتظر .

كان بيير قد أرسل الى خارج البلاد منذ ان بلغ العاشرة تحت رعاية مدربه ومرشده وكان من الآباء الروحيين . فلما بلغ العشرين من عمره استدعاه أبوه الى موسكو ، وأعفى المرشد من مهمته وقال لأبنه :

« إمض الآن الى بيترسبورج ، وانتق لنفسك المركز الذي يحلو لك ، وستراني موافقاً سلفاً على انتقائك . هاهي ذي النقود اللازمة ، وإليك رسالة توصية للأمير بازيل . اتصل بي دائماً واطلعني على كل جديد ، وسأساعدك في كل ما يقتضي التدخل والمساعدة . » وقد أقضى بيير نيفاً وثلاثة اشهر وهو يفكر في انتقاء المركز الذي يتعشقه ؛ لذلك راح آندره يسأله رأيه .

قال بيير وهو يمر بيده على جبينه فجأة ، وافكاره عالقة بالأب موريو :

– لاشك انه ينتمي الى محفل ماسوني .

فاستوقفه الامير باشاره من يده وأعقب :

دعك من هذه الترهات ولنتحدث جديا . هل بحثت مسألة الحرس الراكب؟

ـ كلا . لكنني أهدهد فكرة واتتني في هذه البرهة ، اود ان اعرضها عليك . إننا الآن في حرب مع نابوليون . ولو ان الحرب كانت حرب تحرير ، لكنت اول من انخرط في عداد المحاربين . اما واننا سنكون سائرين على اعقاب بريطانيا والنمسا ضد اقوى رجل واعظم رجل في العالم . . . فان هذا لايروق لي .

إكتفى الأمير بهز كتفيه جوابا على تلك الآرأء الصبيانية . كان يشعره بتلك الحركة ، بان اقواله لاتستحق جوابا أحسن من ذلك الجواب . إذ ماذا كان يستطيع أن يقول جوابا على مثل تلك الاستنتاجات الساذجة ؟ واخيراً قال :

ـ لو ان كل محارب كان يسير مدفوعاً بمباديء يؤمن بها ، لما وقعت حرب قط .

فأجاب بيير معقباً :

ـ ولكان الامر خيراً وأفضل ! . . .

ابتسم الأمير موافقاً وقال :

ـ لاشك . لكن ذلك لن يقع أبداً .

ـ إذن ، لمَ تذهب الى الحرب ؟

ـ لماذا ؟ الحقيقة لست ادري . لأنه يجب ان أذهب . ثم لأنه . . .

وتردد الامير برهة ثم أردف :

ـ لأن الحياة التي اعيشها هنا لاتروق لي .

الفصل السابع

(زوجة الأمير)

تناهى الى سمعه حفيف ثوب في الغرفة المجاورة ، فانتفض الامير شأن النائم الذي اوقظ في غير رفق ، وعادت تقاطيع وجهه تتخذ ذلك الطابع الذي بدت عليه في حفلة آنـّا بافلوفنا ، بينما اصلح بيير من جلسته . دخلت الاميرة. كانت قد ابدلت ثوبها الرسمي ، بآخر منزلي . لكنه لم ينقص شيئاً من بهائها ورشاقتها . فنهص الامير وقدم لها مقعداً وهو يهش لها ، فتهالكت جالسة عليه.

قالت باللغة الفرنسية – كعادتها – :

– انني اتساءل دائماً كيف لم تتزوج آنيت حتى اليوم . انكم جميعاً حمقى ايها السادة ، لأنكم لم تظفروا بها . اعذروا حديثي ، ولكنكم لاتفقهون شيئاً في شؤون النساء . . . يالك من مشاكس منازل ياسيد بيير .

اجات بيير دون ان يفضح ذلك الارتباك الذي يعرو عادة كل شاب عندما يتحدث الى سيدة شابة :

– انني كنت منذ حين أخاصم زوجك لأنني لاأفهم سبباً لرغبتــه في الذهاب الى الحزب .

انتفضت الاميرة ، وقد اصيبت في أدق عواطفها . اجابت :

ـ إن هذا مادأبت اقوله له بدوري ! انني لا أستطيع أن افهـم السبب الذي يجعل الرجال عاجزين عن الاستغنـاء عن الحرب . ماهو السبب الذي يجعلنا ـ نحن النساء ـ لانشعر بأية رغبة في ذلك أو حاجة به ؟ هيا ، كن محكماً . انني لا اني اكرر على مسامعه بأنه هنا مساعد لعمه ، وان مركزه لامع ممتاز وان كل الناس يعرفونه ويقدرونه لقد سمعت منـذ ايام عند آل آبراكسين ، سيدة تسأل ! « أهذا هو الامير آندره الشهير ؟ »

وأعقبت تقول ضاحكة :

ـ اقسم لك بشرفي على ذلك ! أنه يستقبل أحسن استقبال اينما ذهب . ان في مقدوره ان يصبح تابعاً للامبراطور . إنك تعرف ان جلالته وجه اليـه الحـديث بكل انشراح وبشاشة . لقد كنا نقول ، آنيت وآنّا ، ان من السهل تدبير الامر ليصبح تابعاً للامبراطور . فما رأيك ؟

سأل بيير دون ان يجيب على السؤال ، لأنه ألقى نظرة على وجه الأمير فاستنتج ان الحديث لايروق له .

ـ متى ستذهب ؟

هتفت الاميرة بلهجة الطفل الذي افسده الدلال ، تلك اللهجة التي كانت تستعملها في حفلة آنّا بافلوفنا وهي تتحدث مع هيبوليث ، والتي كانت لاتتفق مع ذلك الجو العائلي الذي كان بيير يبدوا جزءاً منه .

ـ آه ! لاتحدثني عن ذلك الرحيل ، لاتحدثني عنه ! لا أريد ان اسمع كلمة عنه . عندما فكرت منذ حين في انني سأضطر الى قطع كل علاقاتي العزيزة الثمينة ... ثم هل تعرف ياآندره ؟

وغمزت لزوجها بعينها ونظرت اليه خلال اهدابها نظرة حافـلة بالمعاني وأردفت تغمغم وهي ترتعد :

ـ انني خائفة ، خائفة .

فنظر اليها الامير بدوره وكأنه اذهل لوجود شخص ثالث في الغرفة معه ومع بيير ، وسألها بلباقة يشع منها البرود :

– مم تخافين ياليز ؟ لست افهم .

– كذلك هم الرجال : أنانيون ! نعم ، نعم . انكم أنانيون ... انه يهجرني لمجرد هوى ، والله يعلم السبب ، وينفيني وحيدة في الريف .

فقاطعها الأمير آندره بوداعة :

– مع ابي وأختي ! ارجو أن لاتنسي ذلك .

– سأظل مع ذلك وحيدة بدون أصدقائي ... ورغم هذا فانه يريدني على ان لاأكون خائفة !

ارتفع صوتها وبدت شفتها القصيرة التي كانت تسبغ عليها طابعاً من الوداعة تحمل الآن شبهاً قويا بالحيوانات القاضمة . صمتت وقد قدرت انه من غير المستحسن ان تلمع امام بيير الى ان حالة الامومة التي تنتظرها ، هي السبب الوحيد في انفعالها .

قال الأمير ببطء دون ان يشيح ببصره عنها :

– لست افهم حتى الآن ماذا يخيفك .

احمر وجه ليز وهتفت وهي تلوح بيدها ، دلالة على نفاذ صبرها :

– آه ياآندره ، لشد ماتبدلت . لقد تبدلت تبدلاً جسيماً ...

– لقد منعك طبيبك من السهر ، فيحسن بك ان تستريحي .

لم تجب ليز ، غير ان شفتها القصيرة المظللة ارتعشت فجأة ، بينما وقف الامير وراح يذرع الغرفة بلا مبالاة .

كان بيير يلقي عليها خلال عدسات نظارتيه نظرات كلها دهشة . تظاهر انه ينهض لمغادرة المكان ، غير انه ابدل رأيه وعاد الى مقعد .

قالت الاميرة الصغيرة فجأة وقد شوه وجهها الجميل تقلص باك :

- لا يهمني حضور بيير واصغاؤه . لقد مرّ عليّ وقت طويل اردت خلاله ان اسألك : لمَ تبدلت كل هذا التبدل حيالي ياآندره ؟ ماذا جنيت ؟ انك انخرطت في الجيش ، وفقدت كل شفقة عليّ ، فلماذا ؟

هتف الامير :

- ليز !

كانت تلك الكلمة تحمل رجاء وتهديداً ، وعلى الاخص ، كانت تبرز تأكيداً بانها ستندم على اقوالها غير أنها استرسلت ، تتدفق الكلمات من فمها متلاحقة :

- انك تعاملني كمريضة ، او كما تعامل طفلاً . انني ارى ذلك بوضوح . فهل أنت أنت ، لم تتبدل عما كنت عليه منذ ستة شهور ؟

صرخ الامير بلهجة حاسمة واضحة :

- ليز ، كفي ارجوك .

نهض بيير الذي كان انفعاله وتأثره يزدادان باضطراد ، واقترب من الاميرة.

كان يبدو على استعداد للبكاء ، لشد ما كان منظر الدموع يؤلمه :

- هدئي روعك ياأميرة . انك تتخيلين أشياء وهمية . انني انا الآخر تعرضت لمثل هذا ... لأني ... كما ترين ... آه ، اعذراني . ان وجودي غير مرغوب فيه بينكما . اهدئي ارجوك ... الى اللقاء .

امسك بولكونسكي بذراعه مستوقفاً وقال :

- لحظة واحدة يابيير . اظن ان الاميرة من الطيبة بحيث انها لن تحرمني من سروري برفقتك .

غمغمت الاميرة خلال دموع الغضب التي عجزت عن قهرها وتبديدها :

- بلا شك ، لن تحرمك . انه لايفكر الا في نفسه .

كرر الامير بصوت يشعر بنفاذ صبر صاحبه :

- ليز !

بدت الاميرة منقلبة السحنه : تبدد شكل السنجاب الغضوب وحت محله امارات ذعر محزن يستدر الرثاء . والقت عيناهـــا الجميلتان نظرة مختلسة الى الامير ، فيها عبارات الخضوع ، بينما انطبع وجهها بطابع الكلب المذعور ، الذي جاء يبصبص قرب سيده ، محني الرأس .

زفرت وقالت :

- رباه ، رباه !

وأمسكت اطراف ثوبها بيدها ، واقتربت من زوجها ، فقبلت جبهته . فنهض هذا وانحنى على يدها ، فقبلها ، وتار كما يفعل المرء مع السيدات الغريبات ، وقال :

- عمي مساء ياليز .



الفَصلُ الثّامِنُ

« نجوى »

صمت الصديقان ، فلم يجرأ احدهما على البدء بالحديث . كان بيير يرقب الامير آندره الذي كان يخفي عينيه بيده .

قال هذا اخيراً وهو يتأوه :

— هيا بنا نتناول العشاء .

ونهض متجهاً نحو الباب .

دخل الصديقان الى غرفة طعام انيقة تنبيء بذوق رفيع . كان كل مافيها من مفروشات ، وفضيات ، وآنية ، وخزف يحمل طابع الجدة الذي يدل على حداثة انشاء المسكن . وبينما كانا يتناولان الطعام ، توقف آندره فجأة ، وأخذ رأسه بين يديه وهو فريسة انفعال لم يشهد بيير صديقه في مثله من قبل . وقال بلهجة الرجل الذي قرر اخيراً ان ينفث عما في صدره .

— لاتتزوج ابداً ياصديقي . تلك هي النصيحة التي أسديكها . لاتتزوج قبل ان تتأكد من انك لن تستطيع ان تعمل غير ذلك . وقبل ان تنقشع عن عينيك سحابة تعلقك الغريزي بالمرأة التي اولعت بها ، التي تكون قد اعمت بصيرتك وجعلتك لاتراها على حقيقتها . انك بغير ذلك في خطأ مروع

لايمكنك تلافيه . تزوج متأخراً بقدر ماتستطيع ، ولكن عندما تصبح غير صالح لأي شيء ... والا فان كل ما في نفسك من نبل وعظمة وطموح سيتبدد . سترى نفسك كذلك غائصاً في ترهات وسخافات ... نعم ، سترى نفسك كذلك ! لاتنظر الي بمثل هذا الذهول ... اذا كانت في نفسك آمال للمستقبل ، وتزوجت قبل تحقيقها ، يحسن بك عندئذ ان تستعد للحداد على طموحك . لأنك ستشعر في كل خطوة ، بان الأبواب كلها مغلقة في وجهك ، باستثناء ابواب الأبهاء « والصالونات » حيث ستكون معدوداً كأول سخيف ، او كأول خادم في البلاط ... نعم ، ان الامر كذلك .

واشفع جملته هذه باشارة ابلغ من الحديث .

نزع بيير نظارتيه ، واتخذت سحنته طابعاً جديداً مضيئاً بالذكاء ، وراح يتأمل صديقه بذهول .

أردف الامير آندره :

– ان زوجتي مخلوقة ممتازة ، نادرة بين النساء اللاتي لايخشى المرء معهن على سعادته زوالاً . مع ذلك ، رباه ، كم اعطي وبكم اضحي لاكون غير متزوج بها !... انك اول من ابثه هذه النجوى ، والوحيد الذي سيسمعها لانني أحبك .

وكلما استغرق الامير في الحديث ، كلما ازداد بعداً عما كان عليه في بهو آنّا بافلوفنا ، حيث كان متهاوياً على مقعده يغمغم ببعض العبارات باللغة الفرنسية ، وامارات الاجهاد واضحة في عينيه نصف المغمضتين . كانت عضلات وجهها العابس كلها ، تنتفض بانفعال ، وعيناه اللتان كانتا منذحين خابيتين ، تشعان في تلك اللحظة ببريق متقد مشتعل . كانت بلادته في الحالات الطبيعية تتحول في تلك اللحظات من الانفعال المرضي ، الى لون من جنون التيقظ .

أردف يقول :

– هل يدهشك ان تراني اتحدث بهذا الشكل ؟ انها كما ترى مأساة حياتي .

انك تحدثني عن بونابارت ومركزه ، ولكن بونابرت كان حراً عندما تابع هدفه حتى بلغه . انه لم يكن يفكر الا في غايتـــه ، وبذلك وصل اليها . انك اذا ارتبطت بامرأة ، كنت اشبه بالمحكوم عليـه ، المغلول الى سلسلة . فقل الوداع ايتها الحرية ، والكفاءات والآمال ؛ واقبع في ظل تبكيت الضمير ، لأنك ستفقد هذه المزايا الى الابد . ان المنتديات والهـذر والحفلات والغرور ، والبؤر الاجتماعية ، هي الدائرة الكريهة الفاسدة ، التي لاأعرف كيف اخرج منها . وهـذا هو السبب الذي من اجله امضي الى الحرب ، الى اعظم حرب ، الى اعظم الحروب ، وانا لااعرف شيئاً لانني لاأصلح لشيء . انني لطيف جداً . ولاذع جداً ! وهكـذا يصغون اليّ راضين عنـد آنتّا بافاوفنا . آه ! من ذلك المجتمع الاحمق الذي لاتستطيع زوجتي عنه ابتعاداً ، اولئك النسوة اللاتي ... ليتك تعرف مَن مِن أولئك النسوة الراقيـات المرموقات ... وكل النساء ! ان ابي على حق . ان المرأة عندما ترى على حقيقتها ، لاتزيد عن كونهـا انانية مغرورة ، محدودة خرقاء تماماً . لكنهـــا في المنتديات تضفي على نفسها لونا آخر . غير انك اذا امعنت النظر فيها ، وجدتها لاشيء ، لاشيء لاشيء !..

ثم اعقب يقول ناصحاً :

ـ لاتتزوج ياعزيزي ، كلا . لاتتزوج .

قال بيير :

ـ كيف ! أهو انت الذي تحكم على نفسك بالعجز ، وتزعم ان حيـاتك محطته ! لكن هذا لعمري عجيب ! يمكنك ان تتطلع الى كل شيء ، وانت ..

لكنه لم يعقب . كان صوته يدل دلالة واضحـة على التقدير العميق الذى يكنه لصديقه ، وعلى اي مستقبل زاهر يعتقد انه بالغة .

كان بيير يتساءل : « كيف يستطيع آندره ان يخفض من قيمة نفسه ! » كان الامير آندره بالنسبة لبيير مثالاً للكمال والنضوج . الم يكن يرى فيـه

الصفات الممتازة التي كان بيير - لايملك منها شيئاً ، والتي كان يعتقد انهـا كلها مدينة لفضيلة هامة رئيسية ، وهي سمو النفس ؟

كان بيير معجباً بالهدوء الذي يبديه الامير في علاقاته مع الاشخاص من مختلف الطبقات ، وببداهة عقله ، وتنوع معلوماته ، وغزارة علمه ، وهو الذي قرأ كل شيء ، وعرف كل شيء ، وألم بكل شيء . اضف الى ذلك قدرتـه على العمل والابداع . واذا كان بيير قدشعر من قبل بدهشة لميـل صديقه الى كل ذلك قدرته على العمل والابداع . واذا كان بيير قد شعر من قبل بدهشة لميل صديقه الى التحليق الفلسفي ، الذي كان عنـده يبلغ ذروته ، فـانه كان يرى في ذلك الشرود لونا من السمو ، اكثر مما كان يعتبره نقيصة مرذولة .

ولـكي تسير العربة سـيراً حسناً ، ينبغي ان يعني بتشحيم عجلاتها ، وكذلك فان اشد العلاقات صراحـة واعمقها بحاجة الى رعايتها بالمديح او التقريظ .

قال الأمير آندره :

– انني رجل مقضي عليّ ... ولكن مـاذا يجدي الحديث عني ؟ وصمت برهة ثم اردف وهو يبتسم لفكرة ما اشعرته ببعض العزاء :

– لنتحدث عنك انت .

انبسطت اسارير بيير ، مندما طافت تلك الابتسامة على وجـه صاحبه . وقال مشرق الوجه ، خلي الفكر :

– وبماذا اتحدث عن نفسي ؟ من انا ؟ ابن سفاح !

واحمر وجهه اثر تلفظه بتلك الكلمة ، حتى شحمة اذنية ، واردف :

– رجل لااسم لى ، ولا ثروة ... ثم مع ذلك ...

لم يتم جملته ، بل غير سياق افكاره واعقب :

– انني حر راضي عن نفسي . وبهذه المناسبة ، عندي ماأسالك رأيك فيه جدياً .

نظر الامير الى صديقه بعينين حانيتين ، غير ان تلك النظرة الودية الملاطفة كانت دليلًا واضحاً على رفعة شأنه وسموه . قال :

– انك عزيز عليّ قبل كل شيء . لانك – بين كل افراد عالمنا – مخلوق حيٌّ . فانتق اي مركز تشاء . انه سيان . ولكن كفَّ عن الاختلاط بآل كوراجين . فهل هنا بغيتك ، تلك الحياة التي تشبه حياة الصور المتحركة .

قال بيير وهو يهز كتفيه :

– ماذا تريد ياعزيزي ؟ ان النساء ياعزيزي هن النساء !

– النساء الراقيات لابأس بهن . اما نساء كوراجين ، فهن نساء وخمر ! في الحقيقة انني لا افهمك .

كان بيير – وهو الذي يقطن عند الامير بازيل – قد راح يرود البؤر التي قاده اليها آناتول هذا ، هو الذي يعمل ابوه على تحسين سلوكه ، بتزويجه من اخت الامير آندره .

قال بيير وكأن فكرة سعيدة طارئة قد راودت رأسه :

– اتدري بانني اناقش نفسي منذ امد بعيد ، واخرج بمثل هذه النتيجة ؟ ان هذا اللون من الحياة يمنعني من التفكير ومن اتخاذ اي قرار . انني اشعر بآلام في رأسي ، وبجفاف في كيس نقودي ... لقد دعاني الليلة آناتول . لكنني لن اذهب .

– اتقسم بشرفك ؟

– اقسم بشرفي .

* * *

الفَصلُ التّاسِعُ

« رهان »

لم يخرج بيير من دار صديقه الا بعد ان تجاوزت الساعة الواحدة صباحاً . كانت ليلة جميلة بيضاء كما لايرى مثلها الا في بيتر سبورج في شهر حزيران . استقل بيير عربة واراد الذهاب الى مسكنه ، لكنه كلما ازداد اقترابا منه ، ازداد شعوره بالعجز عن قضاء ساعات جميلة ، تشبه الغسق او الفجر ، اكثر مما تشبه الليل ، النوم والراحة . كان البصر يمتد بعيداً في تلك الشوارع المقفرة . تذكر بيير وهو في طريقه ان جماعة المقامرين الذين كانوا سيجتمعون تلك الليلة عند آناتول كوراجين ، ينهون سهرتهم عادة بأكوس من الشراب سيتبعها لون من التسليات التي كان يقدرها .

راح يحدث نفسه : « ماذا لو مررت على منزل كوراجين ؟ لكنه تذكر فجأة الوعد الذي اعطاه للأمير آندره . وشعر كذلك فجأة – كما يحدث للاشخاص المحرومين من الاتزان – برغبة ملحة في تذوق لذائذ هذا النوع من الحياة الفاسدة . فأعد عدته واتخذ قراره . بدا له انه مرتبط بموعد مسبق مع آناتول ، وان العهد الذي قطعه للامير آندره ، يفقد قيمته ازاء الوعد المسبق .

راح يفكر : ان كل وعود الشرف تلك لاقيمة لها ولا وزن ، لانها اشياء شرطية ، تفقد اعتبارها عندما يفكر المرء انه قد يموت غداً ، اوانه سيجد نفسه في موقف ، يفقد فيه حتى الشعور بالشرف وبقلة الشرف . كان ذلك النوع من المناقشة والحكم مألوفاً عند بيير ، وبسببه كانت مشاريعه وقراراته تتبدد . وهكذا مضى الى منزل كوراجين ؟

وصل امام البناء الفسيح الملاصق لثكنة فرسان الحرس ، حيث كان يقطن آناتول ، فتخطى بيير المدخل المضاء وصعد السلم ، فوجد الباب مفتوحاً . لم يصادف احداً في الردهة التي كانت الزجاجات الفارغة مبعثرة في ارجائها ، والمعاطف تتدلى على المشاجب ، والأحذية الواقعية للاخفاف ملقاة بغير انتظام كانت رائحة الخمر تفوح في المكان ، واصوات صخب بعيدة تبلغ المسامع . لاشك ان اللعب والعشاء كانا قد انتهيا ، غير ان المدعوين ما كانوا قد تفرقوا بعد .

خلع بيير معطفه ودخل الحجرة الاولى ، حيث كانت بقايا الطعام لازالت على المائدة . وكان هناك خادم يفرغ في جوفه بقايا الاقداح ، في منجاة العيون . وكان ضجيج ضحك وصيحات ، وصوت اقدام وهمهمة دب ، ترتفع بوضوح من الغرفة الثالثة ، حيث كان حوالى عشرة شباب ، واقفين امام نافذة مفتوحة ، يصخبون ويهذرون ، بينما راح ثلاثة آخرون يعبثون مع دب صغير ، فيحمله احدهم من سلسلته ويوهم الباقين بالقائه عليهم .

صاح صوت :

– انني اراهن بمائة روبل على ستيفنس !

– دون ان يتمسك بشيء ، أليس كذلك ؟

– وانا اراهن على دولوخوف ! كن شاهداً ياكوراجين .

– هيا دعوا الدب جانباً ان في الموضوع رهاناً .

ـ دفعة واحدة ، أليس كذلك ؟ وبدون ذلك تحدث الخسارة !

صاح صاحب الدعوة ، وهو شاب جميل يرتدي قميصاً رقيقاً ، مفتوح الياقة :

ـ هولا ! الي بزجاجة . ايا كوف ، الي بزجاجة !

ولما وقع بصره على بيير ، هتف :

ـ لحظة واحدة ايها السادة . هو ذا صديق قلبي ، ها هوذا بيتروشا العزيز!

صاح صوت يتناقض باتزانه مع كل الاصوات المخمورة :

ـ تعال الى هنا ، واحكم في الرهان .

كان المتكلم ضابطاً في فيلق سنميونوفسكي قصير القامة ، ذا عينين بلون ازرق فاتح . وكان يشاطر آناتول في مسكنه .

قال بيير وهو يسرح نظرة لاهية فيما حوله :

ـ ماهو الموضوع الذي تبحثون ؟ انني لا افقه شيئاً .

ـ انتظروا ، انه ليس ثملاً . هولا ، الي بزجاجة ! اشرب قبل كل شيء .

وبينما راح بيير يعب قدحاً اثر قدح ، كانت عيناه ترقبان من زاويتها ، وجوه المدعوين السكارى ، الذين تجمهروا قرب النافذة ، وأذناه تصغيان الى اقوالهم . كان اناتول يتابع صب الخمرة في القدح وهو يشرح له ان دولوخوف تراهن مع احد المدعوين : الانجليزي ستيفنس ، وهو ضابط في البحرية ، على ان يشرب زجاجة من الروم دفعة واحدة ، وهو جالس على حافة هذه النافذة من الدور الثاني ، وساقاه مدليتان الى الخارج .

قال أناتول وهو يقدم لبيير القدح الأخير :

ـ هيا ، انزع الزجاجة ! لن أدعك قبل ان تنتهي من شربها !

فاجاب بيير وهو يدفعه جانباً :

ـ كلا ان فيما شربته الكفاية !

واتجه نحو النافذة .



دولوخوف پراهن .

امسك دولوخوف بذراع الانجليزى وراح يخاطب المدعوين مخصصا بينهم أناتول وبيير ، شارحاً بدقة مفرطة ؛ شروط الرهان .

كان دولوخوف ذاك ؛ شاباً في الرابعة والعشرين ، أميل الى القصر ، ذا شعر اجعد وعينين يمتازان بزرقة فاتحة . كان ككل ضباط المدفعية ، حليق الشارب ، فكان فمه — وهو الجزء الأكثر تعبيراً في وجهه — يبدو مكشوفاً ، يظهر خط الانحناء فيه بدقة رائعة مليحة . كانت الشفة العليا تسقط على الشفة السفلى الغليظة مشكلة زاوية حادة كلها ، بينما لبثت الزاويتان تظهران ضحكة مزدوجة ثانية ، فكان تكوين ذلك الوجه ، المتفق مع تلك النظرة التي لاتخلو من قحة معنوية ، يستوقف الانتباه . وكان ذلك الشاب محروماً من الثراء والعلاقات الرفيعة . مع ذلك ، فقد كان يشارك أناتول في مسكنه ، ويلقي بالمال من النوافذ ! كان يحسن فرض احترامه على أناتول وكل الآخرين يشرب وكأنه قربة هائلة ، فلايفقد اتزانه ابداً . وكان كوراجين ودولوخوف امراء الشبيبة اللامعة في بيترسبورج .

بعد ان أتيا بالزجاجة ، راح الخادمان المروعان بثورة الهرج والصخب والنصائح التي كانت تلقي اليهما من كل مكان ، يحاولان جاهدين انزال اطار النافذة ، ليستطيع دولوخوف الجلوس على حافتها الخارجية ، فاقترب أناتول بخطورة الغازي الفاتح . كان في مظهره مايدل على رغبته في تحطيم شيء ما .

ازاح الخادمين جانباً وراح يجذب الاطار بقوة . لكن هذا لم يلن تحت الضغط ولو ان جانباً من زجاج النافذه قد تحطم .

قال بيير :

ـ هيا ، جرب انت ايها الرجل القوي .

امسك بيير بمراقي الاطار وجذبها فكاد ان يخلع النافذة كلها .

صاح دولوخوف آمراً :

ـ اخلعها . والا فانهم سيدعون انني استندت الى درفة او الى جزء منها .

ـ قال اناتول :

ـ ان الانجليز ينفخ اوداجه أليس كذلك ؟ هل انهيت من النافذة ؟

فاجاب بيير :

ـ لقد انتهيت .

راح يرقب دولو خوف وهو يتقدم من النافذة والزجاجة في يده . فكان يرى منها السماء الصافية الأديم حيث يختلط ضياء المساء مع طلائع النهار .

قفز دولوخوف الى النافذة والزجاجة في يده وصاح آمراً :

ـ اصمتوا .

كان واقفاً على حافة النافذة ووجهه الى المتفرجين . فصمت الجميع استجابة لرغبته . أردف قائلا بلغة فرنسية سقيمة ليفهم الانجليزي :

ـ إنني أراهن بخمسين روبلاً أو بمائة إذا شئت !

فقال الانجليزي :

ـ بل بخمسين .

ـ ليكن ، أراهن بخمسين روبلاً على أنني سأتجرع زجاجة روم دفعه واحدة ، وأنا جالس في هذا المكان ـ وانحنى ليدل على المكان الذى سيجلس فيه ـ دون أن أستند الى شيء ... هل اتفقنا ؟

فقال الانجليزي :

ـ اتفقنا .

إلتفت آناتول الى ستيفنس ، وأمسك بزر « فراكه » ثم هبط بنظرته نحوه ـ لأن الانجليزي كان قصيراً ـ ، وراح يكرر عليه بالانجليزية شروط الرهان. غير ان دولوخوف إستنفر مجدداً إنتباه الموجودين وهو يقرع بزجاجته على طرف النافذة وهتف :

ـ إصغوا إلي ! دقيقة واحدة ! إصغ ياكوراجين : إذا قام بعضكم بمثل هذا العمل ، فانني سأدفع له مائة روبل . هل فهمتم ؟

أشار الانجليزي برأسه أن نعم ، دون أن يفهم من إشارته أنــه يوافق على ذلك الرهان الجديد أم لا . راح يشير بالحركات والاشارات الى أنه فهم المراد، غير ان أناتول لم يدعه قبل أن أنهى إليه الترجمة الحرفية للشروط ، كافة أقوال دولوخوف . هرع شاب في مقتبل العمر ، نحيل الجسم ، جنــدي بسيط في الحرس ، كان قد خسر تلك الليلة في المقامرة ، الى النافذة وأطل الى الخارج . صرخ وهو يتأمل بلاط الشارع من علٍ :

— هو ! هو ! هو ! . . .

زمجر دولوخوف وهو يدفع الجندي نحو الغرفة :

— إستعد !

فقفز الجندي وقد أربكه المهازان فكاد ان يسقط على الارض .

وضع دولوخوف الزجاجة على حافة النافذة لتكون في متناول يـده ، ثم تسلق النافذة بحذر . إعتمد بيديه على الاطار ودلى ساقيه الى الخارج ، ثم انتقى مكاناً مناسباً فجلس وأفلتت يـــداه الاطار . إلتفت يميناً ويساراً ، وامسك بالزجاجة . وعلى الرغم من أن خطوط النهار كانت قد وضحت ، فان أناتول جاء بشمعتين أوقدهما ، ووضعهما الى يمين دولوخوف وشماله حتى يستطيع المراقبون رؤية أية حركة تصدر عن يديه ، فأضاء بذلك قميص المراهن الأبيض ، وشعـره الاجعد ، وجعله هدفاً ميسور المراقبة . واحتشد المتفرجون ، والانجليزي في المقدمـــة ، يتطلعون بلهفة . وكان بيير يضحك دون ان ينطق بكلمة . وفجأة إندفع أكبر الموجودين سناً وعلى وجهه إمارات الغضب والذعر ، وهتف وهو أكثر الحاضرين اتزاناً :

— إنه جنون أيها السادة . سوف تدق عنقه !

وهم بامساك قميص دولوخوف ليمنعه عن القيام بما هو في سبيله ، لولا ان امسك به أناتول وقال :

لآ ـ لا تمسه لانك ستخيفه ... فيسقط من حالق . وعندئذ ... هن ؟ ...

أدار دولوخوف رأسه ليصحح من وضعيته إعتماداً على يديه ، وقال وهو يدفع بالكلمات خلال شفتيه المطبقتين :

ـ إذا شاء أحد أن يتدخل في شؤوني فسأجعله يقفز من هذا الفراغ لنبدأ ن !

إستدار نهائياً نحو الشارع بعد ان تخلى عن كل سند ، ولبث في جلسة على حافة النافذة المنحرفة الى الخارج ، والزجاجة مرفوعة الى فمه ، وذراعاه الى أعلى ليحافظ بهما على توازنه . كان احد الخدم منحنياً يجمع حطام الزجاج المتناثر ، فلبث في وضعيته المنحنية ، وعيناه شاخصتان الى النافذة تلتهمان ظهر دولوخوف وانتصب أناتول على مدى قامته وراح يحملق بعينيه . أما الانجليزي ، فقد راح ينظر حوله وهو يعفر وجهه . وراح الشاب الجندي يحتمي في ركن ، وقد تهالك على أريكة وأدار وجهه الى الجدار ؛ بينما حجب بير وجهه بيده وقد علت شفتيه ابتسامة منسية ، تعبر عن الذعر والخوف . وجمد المتفرجون ووجموا ، فرفع بيير يده عن عينيه : كان دولوخوف محتفظاً بوضعيته تلك ، لكنه كان شديد الانحناء الى الوراء ، حتى ان خصلات شعره كانت تلامس ياقة قميصه . كانت الزجاجة تفرغ من محتوياتها ، مرغمة رأس المراهن على الانحناء اكثر فأكثر ، رافعة معها اليد التي تقبض عليها ، وهي تهتز بحكم المجهود الذي يبذله صاحبها . أخذ بيير يحدث نفسه قائلاً : « ماأطول هذه الفترة ! » خيل إليه ان نصف ساعة قد انقضت منذ ان بدأ دولوخوف في عملية شرب الروم . وفجأة ، قام دولوخوف بحركة عنيفة الى الوراء : كانت رعدة عصبية تحرك ذراعه بما يكفي ليفقد الجسد المتمركز على الحافة المنحدرة اتزانه . راح يتأرجح بمجموع جسده : الرأس والذراع المتزايدة الاهتزاز بتأثير المجهود المبذول . وكادت اليد الاخرى أن تمسك باطار النافذة . لكنها انكمشت في آخر لحظة . فأغمض بيير عينيه من جديد ، وقرر ان لا يفتحها بعد ذلك . لكنه شعر فجأة بحركة غير

اعتيادية حوله ، ففتح عينيه متسائلاً . شاهد دولوخوف وقد شحب وجهه وبان السرور عليه ، واقفاً على حافة النافذة .

هتف معلناً نجاحه ، وهو يلقي بالزجاجة الى الانجليزي الذي تلقفها قبل أن تسقط على الارض :

– إنها فارغة !

وقفز دولوخوف الى أرض الغرفة تنبعث من فمه رائحة قوية ، طغى فيها الروم على كل الخمور الاخرى التي تناولها من قبل . هتفوا به من كل صوب :

– مرحى! يالرجل المتين ! إنه لرهان رائع !

بينما اخرج الانجليزي كيس نقوده وراح يعد المبلغ . ولبث دولوخوف يرمش بعينيه دون أن ينبس بكلمة .

وفجأة اندفع بيير نحو النافذة وصاح :

– ايها السادة ، من يعقد رهاناً معي ؟ سأعمل مثل ما عمل دولوخوف . بل أنني لاألح في صدد الرهان ! إعطوني زجاجة روم وسأشربها على حافة النافذة . هيا ، إلي بزجاجة ! زجاجة !

ابتسم دولوخوف وصاح مشجعاً :

– هيا ، امض في عزمك !

غير ان الاعتراضات انبعثت من جانب . هتف قائل :

– ماذا دهاك ؟ هل جننت ؟ هل تظن اننا سندعك تنفذ عزمك ؟ انت الذي تصاب بدوار لمجرد صعودك سلم !

صرخ بيير وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

– كلا ، كلا ! الي بزجاجة ، زجاجة ! سأفرغها !

وتسلق النافذة . فقبضا على ذراعيه ، لكن ذلك الجبار سرعان ماتخلص من معارضيه وابعدهم عنه ، فانكمشوا امام قوته .

قال أنا تول :

– كلا ، لن تستطيعوا حمله على العدول هكذا . انتظروا ؛ سوف اجعله يتراجع اسمع ، انني اقبل المراهنة معك ولكن غداً . اما الآن ، فلنذهب الى لوس . . .

فهتف بيير :

– حسناً ، هيا بنا ! ولنأخذ معنا الدب ميشكا .

وحمل الدب حملا وراح يدور به في فراغ الغرفة .



الفَصْلُ العَاشِرُ

« حفلة آل روستوف »

بر الأمير بازيل بوعده الذي قطعه للأميره دروبتسكوي في حفلة آنّا بافلوفنا بشأن ابنها الاوحد بوريس ، اذ وافـــق الامبراطور الذي تحدثوا اليه عن الفتى ؛ ان ينقـــل استثنائياً الى ملاك الحرس مكان حامل العلم في فيلق سيميونوفسكي . غير ان آنّا ميخائيلوفنا لم تستطع رغم كل الجهود والمحاولات ان تجعل ابنهـا يقبل في دائرة اركان حرب كوتوزوف ، لابصفة مساعـد ولا كملحق بسيط . فانتقلت الى موسكو ، بعد انقضـــاء فترة قصيرة على الحفلة العتيدة ؛ التي انفذت الشطر الاول من خطتهـا فيها ؛ ونزلت عند اقاربهـا الاغنياء : آل روستوف ؛ الذين درجت عادتهـا على الحـلول بينهم ؛ والذين نشأ عزيزها بوريس في بيتهم منذ طفولتـــه ؛ وظل يقطن عندهم ؛ حتى اصبح مؤخراً حامل العلم في فيلق الحرس ؛ بعد ان كان في الجيش . وكانت فرقة بوريس قد بقيت في موسكو ؛ بانتظار ان تلحق بالفيلق الذي غادر بيترسبورج في العاشر من شهر آب في طريقه الى رادزيويلو Radziwilow.

وكان آل روستوف يحتفلون ذلك اليوم بعيد القديسة ناتالي ؛ التي كانت

ربة البيت وابنتها الصغرى تحملان اسمها . فكان رتل متواصل من العربات الأنيقة ، متوقف منذ الصباح امام مسكنهم في شارع بوفارسكايا Povarskaià العتيد ، الشهير في كل موسكو . وفي البهو ، كانت الكونتيس روستوف بصحبة ابنتها البكر – وهي مخلوقة رائعة الجمال – تستقبل السيل المتدفق من الزوار . كانت الكونتيس ، سيدة في الخامسة والاربعين من عمرها ، ذات وجه نحيل يضفي عليها مسحة شرقية ، ارهقتها اثنتا عشرة ولادة متتابعة ، وترك طابع الكد والتعب على تقاسيمها . وكانت حركاتها التعبة وأسلوبها البطيء في الحديث نتيجة لذلك الارهاق ، تعطيها لونا من الوقار يفرض الاحترام على الآخرين . كانت الأميرة دروبتسكوي – نظراً للالفة التي بينها وبين اصحاب الدار – تستقبل كذلك المدعوين كما لو كانت في بيتها ، وتزكي الحديث . اما الشبان من آل الدار ، فكانوا منصرفين عن الجو الرسمي . وكان الكونت ، يستقبل المدعوين ويشيعهم داعياً اياهم الى تناول العشاء تلك الليلة .

كان يقول :

– تشرفت جداً ياعزيزتي او ياعزيزي – وقد درجت عادة الكونت على ان يخاطب الجميع بياعزيزتي او ياعزيزي دون استثناء او تقدير لمركز الشخص الاجتماعي – انني اشكرك باسمي الشخصي واشكرك باسم اللتين نقيم الحفل من اجلهما . لاتتخلف عن العشاء لأنني سأعتبر ذلك اهانة لي ياعزيزي . انني ارجوك باخلاص وادعوك باسم كل الاسرة .

كان يوجه هذا القول الى الى الجميع بصرف النظر عن كل الاعتبارات الاخرى ، دون ان تتبدل تعابير وجهه المنتفخ البشوش الحليق بتأنق ، ويصافح الجميع بتلك اليد القوية وهو يكرر انحناءة اثر اخرى . وكان كلما شيع زائرة ، عاد قرب التي او الذي بقي في البهو ، فيدني مقعداً ، بيسر الرجل الذي يحب ان يحيا حياة جميلة ويستمسك بهذا الشرط ، ويجلس بنشاط متباعد الساقين ،

ممداً يديه على ركبتيه . ولان وهو ينتقل ببشاشة ومرح ، يبدي تنبؤات عن الطقس ، ويسدي النصائح حول الصحة تارة بالروسية وأخرى بالفرنسية ، فرنسيته البغيضة القبيحة المطبوعة بالجرأة والطلاقة . ثم يعود ثانية ، رغم تعبه ، فيرافق الاشخاص ، بحرص رب الدار الذي يضحي بالكثير في سبيل اتمام واجباته ، فيشيع الزائر وهو يكرر دعوته للعشاء ، ويسوي بيده ، شعيراته الشهباء القليلة المبعثرة على رأسه الاصلع . وكان أحياناً ، عند عودته من الردهة ، يقوم بجولة بين بيت النباتات وجناح الخدم ، ليدخل الى قاعة الطعام الكبرى ، التي تغطي قطع الرخام جدرانها وارضها ، فيعاين المائدة المهيأة لثمانين مدعواً ، ويلقي نظرة على اعمال الخدم ، اللذين كانوا يحملون الاطباق والأواني الخزفية والفضية ، ويرتبونها على المائدة ، او يبسطون عليها الاغطيه الموشاة ؛ فينادي دميتري فاسيليفيتش Fimitri Vassilviteh ، وهو نبيل اخنى عليه الزمن فاصبح يشرف على المؤنة وشؤون مالية الكونت ، فيقول له : انتبه باميتا ، وافتح عينيك . اسهر على ان يكون كل شيء على اكمل وجه . ويضيف عندما يتأمل المائدة الجبارة ذات الاطراف التي تسمح بتبديل طولها وفق رغبة صاحبها وعدد الآكلين ، بنظرة ابتهاج : ممتاز ! عال ! ان المائدة المنسقة تنسيقاً جميلا ، هي الاساس الاهم في حفلات الطعام . هيا ، هذا حسن !... ويعود الى البهو وهو يزفر بارتياح .

اعلن تابع الكونتيس بصوت مدو راعد :

— ماري لفوفنا كاراجين وابنتها !

فقالت الكونتس بعد لحظة تردد ، وبعد ان غمست اصبعها في علبة صعوتها المذهبة ، التي تحمل صورة زوجها :

— ان هذة الزيارات ستسقمني وتقتلني هيا ، لنستقبل هذه المتظرفة المتصنعة ، ادخلها .

كانت بتلك اللهجة الآمرة ، التي خاطبت بها التابع ، كأنها تقول : « خلصيني من ذلك ، طالما انت موجود ! »

دخلت سيدة بدينة ضخمة ، مترفعة الحركات ، تتبعها ابنتها ، بوجهها السمين الممتلىء المشرق ، ترفلان في أثوابها .

قالت اصوات نسائية بحماس تقاطع بعضها بعضاً ، وتمتزج بحفيف من الاثواب وضجيج القواعد :

— عزيزتي الكونتيس ، لقد مضى زمن طويل ... لقد كانت ملازمة فراشها ، طفلتي المسكينة ... في حفلة آل رازوموفسكي ... والكونتيس آبراكسين ... لقد كنت سعيدة جداً ...

وهكذا بدأت الثوثرة الطبيعية الاعتيادية ، التي تطوف بالموجودين للوهلة الاولى ريثما تنهض المضيفة محدثة لجباً وتقول « إنني مفتتنة بزيارتك ... صحة الماما ... والكونتيس آبراكسين ... » ثم يمر الصخب وحفيف الاثواب حتى يبلغ الردهة ، وهناك ترتدي السيدة المشيعة دثارها وترتحل . تبدأ الحديث يدور حول الحدث الاول في العالم الراقي ، وهو مرض العجوز الثري الكونت بيزوخوف ، الذي كان من أجمل رجال عهد كاتيرين ، والذي تصرف ابنه غير الشرعي بيير ، بتلك الطريقة الزرية المخجلة ، في حفلة آنّا بافلوفنا شيرر .

قالت الزائرة الجديدة :

— إنني أرثي للكونت المسكين . انه في حالة المرض التي هو فيها ، يتعرض لخطر الموت متأثراً بفعال ابنه الطائشة .

سألت الكونتيس متظاهرة بانها تجهل تلك القصة التي سمعتها اكثر من خمس عشرة مرة ؛

— أية تصرفات طائشة ؟

فاستطردت الزائرة تقول :

تلك هي قطوف التثقيف في هذا العصر ، لقد تُرِكَ هــذا الفتى لنفسه ، عندما كان في الخارج ، وها هو الآن في بيترسبورج يرتكب – كما يقال – حماقات مروعة ، حتى ان الشرطة اضطرت الى ابعاده

هتفت الكونتيس بدهشة :

– صحيح !

فتدخلت الاميرة دروبتيسكوي قائلة :

– لقد اساء انتقاء اصدقائه ، فلم يجد خيراً من ابن الامـير بازيل ، وآخر يدعي دولوخوف . لقد ارتكب ثلاثتهم – كما يقال – شتي أنواع الموبقات . ونجم عن ذلك ان عوقب دولوخوف بانزال رتبته من ضابط الى جندي . وأن أبعد بيزخوف الشاب الى موسكو . اما أناتول كوراجين . فقد اضطر هو الآخر ، الى مغادرة بيترسبورج ، ولولا تدخل ابيه ومركزه ، لانتهت قضيته الى ذيول خطيرة .

سألت الكونتيس مستفسرة :

– ولكن ماذا عملوا حتى استحقوا هذا ؟

فأجابت الزائرة بلهجة التأكيد تقول :

– انهم اشقياء حقاً ، وعلى الاخص دولوخوف ، رغم انه ابن ماري إيفانوفنا دولوخوف ، وهي شخصية محترمة ... تصوري ان ثلاثتهم قد حصلوا – والله اعلم بالمكان – على دب ، أرادوا حمله معهم في عربة إلى حيث يقطن بعض الممثلين . فلما تدخل رجال الشرطة بغية اعادتهم الى صوابهم ، اصطدموا بضابط القسم ، فألقوه أرضاً ، وربطوه ظهراً لظهر مع الدب في نهر « المويكا » فراح الدب يسبح حاملاً ضابط الشرطة على ظهره .

هتف الكونت وهو يغرق في الضحك .

– تصوري موقفه ياعزيزتي .

– ياله من امر مريع ! ماالذي تراه مضحكا في الأمر ياكونت ؟

غير ان النساء أيضاً لم يستطعن رغم تلك الملاحظة الابقاء على سيماء الجد في وجوههن .

استتلت مدام كاراجين :

— لقد لاقوا مشقة كبيرة في انقاذ المسكين . تصوروا ان صانع تلك الفضيحة هو ابن الكونت سيريل فلاديمير وفيتش بيزوخوف ؛ انهم يزعمون انه جم التهذيب والذكاء . هذه هي الحدود التي تقود اليها الثقافات في الخارج . آمل ان لا يستقبله أحد هنا رغم ثرائه . لقد ارادوا ان يقدموه إلى فقلت : كلا ، شكراً ، ان عندي بنات .

سألتها الكونتيس وهي تنحني عليها :

ثروته ! ولكن اين تلك الثروة ؟

وتظاهرت الفتيات الشابات بعدم الاصغاء ، بينما استطردت الكونتيس :

— ليس للكونت سيريل إلا أولاد غير شرعيين على ماأعتقد . ولن يُستثنى بيير هذا من ذلك .

هتفت مدام كاراجين بلهجة مستهزئة .

— أولاد غير شرعيين ! أعتقد أن للكونت عشرين واحداً على الأقل !

واعتقدت الأميرة دروبتيسكوي أن الفرصة مواتية لاظهار علاقاتها ومعلوماتها . فقالت بصوت منخفض ، وعلى وجهها إمارات توحي بانها تعرف الاصول والفروع .

— اليكم المسألة : إن سمعة الكونت سيريل معروفة ولا شك انه لا يعرف عدد أبنائه ، غير ان بيير هذا مفضل مصطفى بينهم .

— أتعرفون ان هذا العجوز الأنيق كان في العام الماضي على أحسن حال ، واني لم أر قط أجمل منه رجلاً ؟

فاجابت الأميره دروبتيسكوي وهي تعود الى موضوعها .

— اوه ، لقد تغير كثيراً . كنت اقول إذن ان بيير مفضل ومقرب إليه.

ولقد عُني بتثقيفه ، وكتب بشأنه الى الامبراطور ... فاذا وقعت فاجعة ـ وهو في ارذل العمر وأسوأ النهايات ، حتى انهم استدعوا لوران من بيترسبورج ـ فان ثروته ـ وتعدادها اربعون ألف نفس وعدد من الملايين ـ ، ستؤول حتما الى بيير . ويسبب ذلك خسارة الامير بازيل الذي يعتبر وريثاً مباشراً عن طريق زوجته ، كما حدثني بنفسه . ان معلوماتي إذن مستقاة من مصدر ثقة . اضف الى ذلك انني ، عن طريق امي ، أُعتبر حسب العرف المتبع في بريطانيا ، حفيدة الكونت سيريل ، ويعتبر بوريس ابنه بالمعمودية .

تفوهت بجملتها الاخيرة دون أن يبدو عليها أنها تتعمد امراً من وراء ذلك .

قالت مدام كاراجين .

ــ ان الامير بازيل هنا منذ البارحة في جولة تفتيشية كما يشاع .

فاجابت الاميرة :

ــ نعم ، ولكن التفتيش ـ والحديث بيننا ـ ليس الا ذريعة . اما سبب سفره الحقيقي ، فهو مرض الكونت سيريل الخطير .

هتف الكونت روستوف فجأة :

ــ لقد تحدثتي بالصدق ياعزيزتي . ان الحكاية مضحكة مسلية .

لكنه لما رأى الزائرة لاتصغي اليه ، مال الى الفتيات الشابات ، وأردف :

ــ لاشك أن موقف الضابط المسكين كان مضحكا .

واشفع قوله باشارات من يديه ، للدلالة على مدى سخط الضابط وغيظه المكتوم . وانفجر ضاحكا ضحكة مجنجلة مدوية ، ضحكة رجل أمضى كل عمره بين الطعام الجيد ، والشراب الاجود فتجاوب لها جسده السمين المنتفخ . ثم اختتم حديثه قائلا :

ــ لقد اتفقنا اذن . سوف ننتظرك لتناول العشاء معنا .

الفصل الحادي عشر

(ناتاشا وبوريس)

ران السكوت لحظة . فلم تستطع الكونتيس اخفاء دلائل الارتياح الذي ستشعر به ، اذا ما غادرتها الزائرة منصرفة ، رغم الابتسامة المشجعة التي كانت توقفها عليها .

أخذت الآنسة كاراجين تستفسر امها بالنظر ، وتتأهب لمغادرة المكان ، حينما ارتفع فجأة صوت خطوات متهافتة ، آتية من الغرفة المجاورة ، ثم ارتطام مقعد منقلب ، وفجأة فتح الباب ، وظهرت على عتبته فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، تخفي ورائها شيئاً في طيات ثوبها القصير ، المصنوع من قماش « الموصلين » الفاخر . توقفت الفتاة في مكانها ، وقد ادهشها أن تكون اندفعت في جريها الى ذلك المكان . وفي ذات اللحظة ، بدا ورائها طالب ذو ياقة خمرية اللون ، وضابط من الحرس ، ثم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، وغلام يرتدي سراويل قصيرة ، ذو وجنتين مضرجتين ممتلئتين .

قفز الكونت فوراً ، وراح يتأرجح في مشيته ، ويلف ساقاً على ساق ، ويباعد بين ذراعيه ، ليقطع الطريق على الفتاة . صرخ وهو يضحك :

آه ، هاهي ذي بطلة حفلتنا ! يافتاتي الصغيرة العزيزة !

وتصنعت الكونتيس الضغب وقالت :

ــ هناك وقت لكل شيء ياعزيزتي .

واعقبت تخاطب زوجها :

ــ إنك تفسدها كثيراً يا إيلي .

هتفت مدام كاراجين :

ــ مرحباً ياعزيزتي ، اهنئك .

ثم اعقبت تخاطب الأم :

ــ يالها من فتاة لطيفة !

لم تكن الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين ، والفم الكبير ، على شيء من الجمال ، ولكنها كانت تتفجر بالحياة . كان انطلاقها في الجري قد بعثر خصلات شعرها الاسود ، المنسدل الى الوراء ، وابرز كتفيها الناحلتين تحت ثوبها . كانت ذراعاها الدقيقتان عاريتين ، وساقاها الصغيرتان ، تبرزان خلال سراويل من « الدانتيلا » تصل حتى حذاءيها المكشوفين . كانت في ذلك السن الباسم التي لاتكون الفتاة فيه طفلة ولا تكون الطفلة فيه في مصاف الفتيات الشابات افلتت من الكونت وهرعت تخفي وجهها البسام المتورد في ثوب امها ، التي لم تفلح ملاحظتها القاسية في ترويعها . كانت ولا شك تفكر في امر مضحك مثير ، اذ انها اخرجت من بين طيات ثوبها لعبة وغمغمت تقول :

ــ ألا ترين ؟ لعبتي ... ميمي ... الا ترين ؟

وعجزت الصبية ناتاشا عن متابعة حديثها ، إذا اجتاحتها موجة الضحك التي سرت منا الى الآخرين ، عندما أطلقت ضحكة رنانة ، تجاوبت اصداؤها في القاعة ، واستجاب لها الموجودون بما فيهم الزائرة ذات المظاهر المتعالية .

قالت الام وهي تتصنع الغضب :

ــ اذهبي ، اذهبي ، واحملي معك هذه السماجة .

ثم خاطبت مدام كاراجين قائلة :

– إنها صغرى بناتي .

سألتها هذه متقربة :

– قولي لي ياصغيرتي ناتاشا ، هي قرابتك مع هذه الميمي ؟ إنها بلا ريب ابنتك ؟

كانت تعتقد أنها بذلك السؤال تتقرب من الفتاة . لكن دعابتها السمجة لم ترق لناتاشا التي القت عليها نظرة قاتمة دون أن تجيب .

وفي تلك الاثناء ، احتلت الشبيبة : – بوريس ، وهو الضابط ابن الامير دروبتسكوي ، ونيكولا ، وهو الطالب ذو الياقة الحمرية وابن الكونت البكر ، وسونيا إبنة اخت الكونت ، وبيتروشا الصغير ، وهو اصغر ابنائه مكانها في البهو . كانت وجوههم تطفح بالابتسام والاشراق ، رغم انهم بذلوا جهوداً جبارة لكبت ضحكاتهم ، احتراماً للرسميات التي يقتضيها الموقف . كان يبدو على وجوههم بوضوح ، انهم كانوا في تلك الحجرات البعيدة ، غارقين في مشاريع أكثر تسلية وقبولاً ، ألف مرة مما عليه الحال في البهو الكبير ، من ثرثرات ولغظ ، وحديث عن الطقس وعن الكونتيس آبراكسين وآخر الفضائح كانوا يتبادلون نظرات متآمرة وهم يكتمون ضحكاتهم .

كان الشابان الضابط والطالب ، صديقين منذ الطفولة ، وكان كلاهما يتمتع بجمال بديع . لكنها كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا مرموقاً . كان بوريس طويل القامة أشقر ذا تقاطيع دقيقة متناسقة ومنبسطة . أما نيكولا ، فكان على العكس ، قصير القامة ، اجعد الشعر ، ذا سحنه مشرقة مطبوعة بحمية شديدة فوارة . كانت شفته العليا مظللة بشارب خفيف أسود . تضرج وجهه عندما دخل الى البهو ، وراح يحاول عبثاً تبرير سلوكه . اما بوريس ، فكان على العكس . لقد استعاد هدوءه بسرعة وعاد إليه بشره ، فراح يروي القصة بصوت

ملؤه المجون والسكون . قال انه عرف تلك « الميمي » ، صبية جميلة سليمة الانف . لكنة ولدهشة وجدها بعد خمس سنوات ، قد شاخت بسرعة ، حتى أنها حطمت جمجمة نفسها . وبعدئذ ألقى على ناتاشا نظرة لم تستطع هذه احتمالها، فاختلست نظرة الى وجه اخيها الذي كانت ضحكته مكتومه تهز جسده بعنف ، وهو مغمض العينين . وفجأة قفزت هاربة من القاعة ، وقد فقدت السيطرة على نفسها نهائياً . غير ان بوريس لم يتحرك . قال يخاطب امه :

— كنتِ تريدين الخروج للنزهة يأماه . فهل اجهز لك العربة ؟

وابتسم لأمه ابتسامة محببة ردتها له من فورها بأجمل منها . وقالت :

— هو ذاك . إذهب واقطر الخيول اليها .

ومضى بوريس بخطوات هادئة يبحث عن ناتاشا . اما الشاب القصير ، فانه جرى على اعقابها وعلى وجهه آيات التبرم ، شأن من اغضبه بعضهم ، بازعاجه في غمزة اعماله الهامة ، بتفاهات !



الفصل الثاني عشر

(ثرثرة وحديث)

باستثناء الآنسة كاراجين وابنـة الكونتيس البكر ، التي كانت تزيد على أختها بأربع سنين ، وتقلد حركات الكبار المسنين ، لم يبق في البهو ممثلا عن الشبيبة إلا نيكولا وابنة عمه سونيا ، تلك السمراء النحيلة ، رقيقة العود ، التي كانت تحيط رأسها بضفيرة ثقيلة من شعرها دارت حوله دورتين ، وجاءت تنعقد أخيراً عند منبت الشعر . كان جلدها زيتوني اللون ، فاتحة عند وجههـا ، على عكس ظهوره الصارخ عند عنقها وذراعيها العاريين ، اللذين اهزلتهما « العصبية » لكنها لم تكن خالية من الجاذبية والبهاء . كانت خفيفة الظل ، لدنة الاعضاء مرنتها ، تعطيها بعض الحركات التي لاتخلو من مكر ، مظهر القطة الصغيرة الجميلة التي لازالت خشنة بعض الخشونة ، ولكنها بالمقابل ، تبشر بمستقبل ينبيء بأنها ستصبح هرة بديعة فتانة . تظاهرت بأنها تشعر باهتمام للحديث العام الدائر البهو ، لكنها لم تستطع التموين على احد ، بان تجعل ابتسامتها التي كانت منطبقة على شفتيها تشعر بذلك الاهتمام ، خصوصاً وان تبادل النظرات بينها وبين ابن عمها ، تلك النظرات التي كانت ترمقه بها خلال

اهدابها الطويلة ، اظهر بوضوح ان القطة الصغيرة لم تمكث هناك ، الا لتمرح مع ابن عمها الذي يتعشق حياة الجيش ، حالما يجذوان حذر بوريس وناتاشا ، فيخرجان بدورهما من البهو ليختليا ببعضهما ، مضللين الكبار ، الذين يتحدثون في البهو .

كان الكونت العجوز يحدث السيدة كاراجين مشيراً الى ابنه :

– نعم ياعزيزتي . هاهو ذا صديق بوريس . لقد رقي صديقه الى رتبة ضابط ، فلم يرغب « نيكولاي » في البقاء متخلفاً ، لذلك فقد أهمل دراسته وأباه الهرم ، والتحق بالخدمة ياعزيزتي . كان ينتظره مركز ممتاز في الادارة ، يبشر بمستقبل بسام . يالها من صداقة جميلة ، أليس كذلك ؟

قالت مدام كاراجين :

– يزعمون أن الحرب قد اعلنت .

– فاجاب الكونت :

– انهم منذ زمن يتشدقون بهذا القول ، حتى باتت أعصابنا مرهقة من كثرة التكرار ...

وكرر ملمحاً الى جملته الاولى :

– ياللصداقة الجميلة ، أليس كذلك ؟ لقد دخل في فيلق الخيالة .

لم تستطع مدام كوراجين التخلص من ورطتها الا بهز رأسها . فبان نيكولا يجيب بدلاً عنها في شيء من الاحتداد ، اذ بدا تفسير أبيه لسلوكه على شيء من القسوة . قال :

– ولكن ، لاعلاقة للصداقة بالأمر . ان الجيش يجتذبني . وهذا هو السبب .

وألقى على ابنة عمه وعلى الآنسة كاراجين نظرة ، فأيدتاه كلتاهما بابتسامة .

قال الكونت وهو يهز كتفيه :

ـ ان الكولونيل شويبرت مدعو لتناول العشاء عندنا . انه قائد فرسان بافلوغراد . انه عندما ينهي عطلته ، سيأخذ ابني الشقي معه ماذا اقدر أن أعمل ؟

كان يتكلم بلهجة مازحة ، لكنه كان واضح الأنشراح للحادث الوشيك .

قال الأبن :

ـ اكرر عليك القول ياأبي ، انك اذا كنت لاترغب في ذهابي ، بقيت في جانبك . غير ان الحظيرة العسكرية هي وحدها التي تروق لي . ان السياسة والادارة لاتصلحان لي ، لأنني لاأستطيع اخفاء عواطفي وشعوري .

لم يكف لحظة ـ خلال هذا القول ـ عن النظر الى الفتيات بتظرف الشباب الجري . وكانت القطة الصغيرة تلتهمه بنظراتها ، تكاد أن ترتمي عليه ، وأن تكشف عن طبيعتها المكبوتة .

قال الكونت العجوز :

ـ لابأس ، ذلك حسن ! ينبغي على كل حال أن يتبع طموحه ! ان بونابارت هو الذي يدير رؤوسهم جميعاً : ملازم اول يصبح امبراطوراً ! ان هذا هو حلمهم ، أليس كذلك ؟ ليكن ، على مشيئة الله !

انهى الكونت كلماته دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي رفرفت على فم مدام كاراجين .

وتحول موضوع حديث الكبار الى بونابارت وقضاياه الشائعة ، فانتهزت جولى ، ابنة مدام كاراجين ، هذه الفرصة ، والتفتت الى روستوف الشاب تقول بحنان :

– كم كان مؤسفاً أنك لم تحضر الخميس المنصرم الى حفلة آل آرخـاروف ! لقد سئمت جداً بدونك !

جلس نيكولا بجانب جولي التي لم تكن تقل عنه ابتساماً . كان حديثها قد ارضى غروره ، فجلس الى جانبها ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة ، ابتسامة الشباب الماجن ، وراح يتحدث معها حديثاًخاصاً ، لم يلحظ خلاله ان تظرفه المبتذل كان وقع الحسام في قلب سونيا التي كانت تتحرق من الغيرة ، وتحاول عبثاً اخفاء مابها باظهار الوداعة والانشراح . وفجأة ، رفع أبصاره الى وجهها : وعندئذ صعقته سونيـا بنظرة تتصارع العاطفة فيها مع الغضب والغيظ ، ثم امسكت دموعها بجهد بالغ ، واستبقت على شفتيها طيف ابتسامة وغادرت البهو . فخبا حمـاس نيكولا دفعة واحدة . قطع حديثه مع جولي حالما أتيح له ذلك دون ان يخدش شعورها ، ومضى وعلى وجهه امارات القلق يبحث عن سونيا .

قالت آنا ميخائيلوفنا مشيرة الى نيكولا الذي كان يغادر القاعة :

– كم تبدو أسرار الشبيبة مفضوحة ظاهرة ! ان قرابة العمومة جوار خطر !

فقالت الكونتس ، عندما خبا الاشعاع الذي تسلل الى القاعة مع الشبان الذين غادروه :

– نعم .

ثم أجابت على سؤال لم يكن أحد قد طرحه عليها ، بل كانت تشعر بالحاحه يؤرقها :

– كم من مزعجات وقلق احتملنا حتى باتوا اليوم يشيعون في نفوسنا بعض البهجة ! ثم ان هذه البهجة يفسدها الخوف . أي اننا انقضي حياتنا كلها في العذاب . لأن في مثل هذه السن ، يتعرض الشبان والفتيات لأشد الاخطـار .

قالت الزائرة :

– ان الامر متوقف على تربيتهم .

أجابت الكونتيس، وهي تتصور ان اولادها لايخفون عنها سراً شأن كثير من الامهات :

– لاشك ! لقد كنت دائماً صديقة اولادي . وهم يثقون بي ثقة عمياء . سأكون ابداً موضع سر فتياتي . أما نيكولا ، فانه بطبيعته الثائرة مرغم على ان يرفه عن نفسه على شكل ما ، ككل الشبان . لكنه لايمكن ان يتجاوز الحدود كأولئك السادة في بيترسبورج . انني واثقة من ذلك .

وأيدها الكونت بقوله :

نعم ، إنهم ذو طبيعة ممتازة . – وكلمة « ممتازة » هذه ، كانت تعطي للكونت حلا لكثير من المسائل السائكة ؛ – صدقي انه يريد الالتحاق بقطعات الخيالة ! ماذا تريدين مني ان اعمل ، ياعزيزتي ؟

قالت مدام كاراجين :

– يالها من مخلوقة رائعة ، ابنتك الصغرى ! انها جياشة كالبارود .

فقال الكونت :

– نعم كالبارود . انها تشبهني . ويالجمال صوتها، ياعزيزتي ! صحيح أنها ابنتي، ولكن الحقيقة هي الحقيقة . ستصبح مغنية حقيقية . سالوموني الثانية . اننا نعطيها دروساً على يد ايطالي .

– أليست في سن مبكرة بعد ؟ يقال ان دروس الغناء في مثل هذه السن تتلف الصوت .

هتف الكونت :

– كيف مبكرة ؟ ألم تتزوج امهاتنا في سن الثاني عشر او الثالث عشر ؟

وقالت الكونتيس ، وهي تعلن عن ابتسامة مشرقة لأم بوزيس :

– وها هي ذي ببوريس ! افتحي عينيك قليلًا !

وعادت الى شاغلها الرئيسي في الموضوع وأردفت :

ـ لو انني شددت المراقبة عليها وضعتها من ... لكان الله وحده يعرف ماذا يمكن ان تعمل في الخفاء معه . (كانت تريد ان تقول انها كانا سيتعانقان ويقبلان بعضهما) . اما على هذه الحرية التي اطلقها لها ، فانني أعرف كل مشاريعها وأفكارها . إنها تأتيني كل مساء لتقص علي كل مايقع لها في بحر النهار . قد اكون مخطئة في تصرفي الذي قد يفسدها ، لكنني لاأبالي . ان هذا خير من النتائج الاخرى على مايبدو لي . لقد راقبت البكر مراقبة شديدة من قبل.

فقالت البكر ، الكونتيس فيرا الجميلة ، باسمة :

نعم ، لقد انشئت على نمط مختلف تماماً .

كانت الابتسامة التي من عادتها ان تجمل الوجوه ، تضفي على فيرا لونا عكسياً غير طبيعي ، منفر تقريباً . كانت فيرا جميلة ، ذكية ، مثقفة وحسنة التربية . وكان لصوتها وقع جميل . مع ذلك ، فان ملاحظتها ـ رغم ملاءمتها وصحتها ـ ألقت على السامعين وشاحاً من الفتور . فنظروا اليها جميعاً ، ابتداء من الكونتيس ومدام كاراجين ، نظرة مستنكرة مستغربة .

قالت مدام كاراجين :

ـ ان الامهات يسعين دوماً الى انشاء ابكارهن بكل تدقيق وعناية وحرص.

قال الكونت :

ـ آه نعم ياعزيزتي . إذ مافائدة الانكار ؟ لقد تصرفت كونتيستي الصغيرة حيال فيرا بحرص زائد وعناية دقيقة .

ثم تمالك نفسه وأردف ، وهو يغمز لابنته بنظرة ودية لطيفة :

ـ ثم ان التجربة نجحت نجاحاً باهراً .

نهضت الزائرات ووعدن بالعودة لتناول العشاء .

قالت الكونتيس ، بعد ان شيعتهن حتى الباب :

ـ يالها من أساليب وتصرفات سخيفة ! هل يسمح للمرء البقاء كل هذا الوقت ! لو لبثن وقتاً آخر لنبتت لهن جذور هنا ؟

الفَصْلُ الثّالِثُ عَشَر

(غرام الصغار)

لم تذهب ناتاشا بفرارها الاهوج بعيداً . اختبأت في بيت النباتات تنتظر بوريس ، وراحت تصيخ السمع الى الضجيج الذي كان يتعالى من البهو . أدركها الملل فراحت تريح ساقاً وتعتمد على الاخرى ، وقد نفذ صبرها وكادت ان تبكي . وفجأة ، تناهى الى سمعها صوت خطوات متزنة ، لابطيئة ولا سريعة ، عرفت ناتاشا منها ان فتاها يقترب من مكانها . فاختبأت وراء أصص الزهور .

وقف بوريس في منتصف الحديقة الشتوية ، وراح يتفحص أركانها بأبصاره وينفض الغبار عن كمه بطرف سبابته ، ثم اقترب من المرآة الكبيرة ، وراح يتأمل طلعته البهية فيها . لبث برهة أمام المرآة ، ثم ابتسم ومضى الى الباب الآخر . كادت ناتاشا ان تناديه . لكنها فكرت في نفسها برهة وقالت في سرها : « كلا ، ليبحث عني ! » . ولم يكد بوريس يغادر بيت النباتات حتى دخلت سونيا فجأة ، مضرجة الوجه ، تتمتم خلال دموعها وتلعن . همت ناتاشا للوهلة

الاولى ان تلقي بنفسها على عنق ابنة عمها ، لكنها تمالكت اعصابها من جديد ، وراحت من مخبئها ، تراقب سير الحوادث بسكون المتآمرين . شعرت بسرور لم تعهد مثله من قبل ، وهي تتأمل تتابع الاحداث دون ان يراها أحد . رأت ان سونيا ، التي لم تكف عن اللعن والبكاء ، ترقب بلهفة باب البهو ، الذي لم يلبث نيكولا ان بدا على عتبته .

جرى نحوها ، وهو يقول :

ـ سونيا ، ماذا بك ؟ هل يجوز لك ان ...

فأجابته ، وهي تنشج بالبكاء :

ـ ليس بي شيء ! دعني ، ليس بي شيء ، دعني .

ـ بلى ، انني اعرف مابك .

ـ أتعرفه ؟ حسناً ، هذا افضل !.. إمضِ الى صديقتك الاخرى !

أمسك نيكولا بيدها ، فلم تمانع سونيا ، وكفت عن البكاء . فقال :

ـ سونيا !... كلمة واحدة فقط . انك تتخيلين اشياء سخيفة . هل يجوز لنا ان نتعذب من أجل هذه التفاهة ؟

لبثت ناتاشا جامدة في زاويتها ، ملتمعة العينين ، مبهورة الانفاس ، تراقب ذلك المشهد بلهفة وتلذذ .

راحت تتساءل : « ترى ، ماذا سيحدث ؟ »

استطرد نيكولا يقول :

ـ سونيا ، ماذا يهمنا العالم ؟ ألست كل شيء بالنسبة لي ؟ سوف أثبت لك ذلك .

ـ انني لاأحب ان تتحدث هكذا .

ـ صفحاً وعذراً . لن أعود الى مثله .

ثم جذبها الى صدره وقبلها .

فقالت ناتاشا في مخبئها تحدث نفسها : « آه ! كم هـذا لذيذ ! » فلما غادرت سونيا غرفة النباتات بصحبة نيكولا ، غادرت مكانها ، تبحث عن بوريس .

قالت له بلهجة فيها طابع الجد والمكر :

– بوريس ، تعال . لدي ماأقوله لك . تعال من هنا ، من هنا ...

وعادت معه الى الحديقة الشتويةوجذبته الى حيث كانت مختبئة وراء أصص الزهور ، فتبعها بوريس باسماً . قال :

– حسناً ، ماذا هناك ؟

كانت شديدة الانفعال ، متحفزة العـواطف ، فراحت تفحص ماحولهـا بعينيها . ولما وقع بصرها على دميتها التي كانت ملقاة على احدالصناديق ، التقطتها وقالت له :

– قبّل ميمي .

لم يجب بوريس ، لكنه كان يدقق في وجهها المتيقظ بنظرة ودية . قالت ، وهي تلقي بدميتها بعيداً :

– الا تريد ؟إذن ، تعال من هنا .

وتغلغلت بين النباتات ، وهمست :

– اقترب ، ازدد قرباً !

اطبقت بيديها الاثنتين على أشرطة ثوبه ، وراح وجههـا المحموم يزداد خطورة وقلقاً .

تمتمت، وهي تكاد ان تبكي من الانفعال :

– وانا ، ألا تريد أن تقبلني ؟

وأشفعت قولها بغمزة مغرية .

فاحمر وجه بوريس وقال :

– كم انت مضحكة !

انحنى على ناتاشا ، فازداد وجهه احمراراً ، لكنه لم يجرأ على تقبيلها .
وفجأة ، قفزت فوق احد الصناديق ، وبذلك استطاعت ان تنوف عليه .
وعندئذ ، ألقت بذراعيها العاريتين حول عنقه أسفل رأسه . وارسلت شعرها الى الوراء بحركة عنيفة من رأسها ، ثم اكبت بوجهها عليه وقبلته في شفتيه .
ونفرت اثر ذلك بين أصص الزهور ، وانتظرت عند الطرف الآخر من الغرفة ، مطرقة الرأس .
قال بوريس :
ــ ناتاشا ، انك تعرفين أنني أحبك ولكن ...
فقاطعته قائلة :
ــ هل تهواني ؟
ــ نعم ، انني أحبك . لكنني أرجوك ان لانعود الى مثل ذلك ... لننتظر أربع سنين أخرى ، وعندئذ سأطلب يدك .
فكرت ناتاشا برهة ، وقالت وهي تعد على أصابعها :
ــ ثلاثة عشر ، أربعة عشر ، خمسة عشر ، ستة ... ليكن ! اتفقنا ؟
كان السرور يشرق على وجهها الذي عاد الى بهائه وصفائه .
قال بوريس :
ــ لقد اتفقنا .
فقالت الفتاة :
ــ الى الابد ؟ حتى الموت ؟
وامسكت بذراعه وهي شديدة الاغتباط والبهجة ، وراحت ترافقه في طريقها الى مخدعها ..



الفصل الرابع عشر

(الصديقتان)

أعيت تلك الزيارات المملة الكونتيس روستوف ، فأمرت الحاجب بان لا يدخل عليها أحداً ، على ان يدعو كل الزوار الذين سيتقدمون بتهانيهم - دون تفضيل - الى تنـاول العشاء على مائدتهم ذلك المساء . كانت تتلهف للبقاء وحيدة مع صديقة طفولتها ، الاميرة دروبتسكوي ، التي لم تكن قـد تحدثت اليها بحرية منذ ان عادت من بيترسبورج . ولبثت آنا ميخائيلوفنا تحتفظ بعذوبة تقاطيعها التي لم تخل من طابع اليأس والشكوى ، وقربت مقعدها من زميلتها . قالت :

- سوف أتحدث اليك بكل اخـلاص . اننا لازلنا صديقتين حميمتين كما كنا من قبل ، أليس كذلك ؟ انني اقدر صداقتك حق التقدير من اجل ذلك .

واسترقت نظـرة الى حيث كانت فيرا وتوقفت . فضغطت الكونتيس على يد صديقتها وقالت تحدث ابنتهـا الكبرى التي لم تكن ولا شك شديدة العطف عليها :

ـ فيرا ، الا تستطيعين الفهم ؟ الا تشعرين بأن وجودك بات فائضاً ؟ اذهبي الى حيث شقيقاتك أو ...

لم تستعذب فيرا الملاحظة ، لكنها مع ذلك لم تعترض الا بابتسامة فيها لا مبالاة وترفع . قالت وهي تنهض :

ـ لو نوهت لي بذلك من قبل لكنت الآن بعيدة عن هنا ، يا أماه .

وبينما كانت تجتاز غرفة الجلوس قاصدة غرفتها ، توقفت عندما رأت أمام كل نافذة اثنين يتناجيان ، فابتسمت بمرارة . كان نيكولا جالساً الى جانب سونيا ، يقرأ عليها باكورة نظمه الذي استلهمه منها وينسخه . أما بوريس وناتاشا فكانا يتجاذبان أطراف الحديث . صمتوا جميعاً عند ظهور فيرا ، وراحت الفتاتان العاشقتان تنظران اليها بضيق وتبرم ، دون ان تذهب البشاشة عن وجهيها . وبدا ذلك المشهد المؤثر المضحك متنافياً مع ذوق فيرا التي قالت موبخة :

ـ كم مرة رجوتكما ان لا تمسا أشيائي . ان لكما غرفتكما الخاصة .

فأجاب نيكولا متوسلاً ، وهو يغمس الريشة في الدواة التي حاولت رفعها من أمامه :

ـ لحظة واحدة فقط .

قالت فيرا :

ـ لاشك ان الذوق يعوزكم . ان دخولكم الى البهو مثلاً لم يخجلكم . لقد شعر الجميع بالخجل لتصرفكم .

كانت الملاحظة محقة . رغم ذلك ـ او لعله بسبب ذلك ـ لم يجب الأربعة الا بتبادل النظرات .

أردفت فيرا :

ـ ثم في مثل سنكم ، اية اسرار يمكن ان تكون بينكما ، او بين ناتاشا وبوريس؟ ان هذه الا سخافات وترهات !

تدخلت ناتاشا في الموضوع وسألتها بلطف وهي مستعدة لمقابلتها باللطف واللين :

ـ ماذا يعنيك كل هذا، يافيرا ؟

ـ ان كل هذا سخيف ، وانني لأخجل منكم . مامعنى هذه الاسرار ؟

أجابت ناتاشا في شيء من الانفعال :

ـ لكل اسراره . اننا لانتدخل في شؤونك مع بيرج وما تفعلينه معه !

أجابت فيرا :

ـ لاينبغي الا هذا ! وكأن في سلوكي مايؤخذ عليه ! انتظري قليلاً ، سوف أقول « لماما » كيف تتصرفين مع بوريس .

قال بوريس :

ـ ان ناتالي ايلينيتشا تتصرف تصرفاًممتازاً معي . انني لا أستاء من تصرفها .

هتفت ناتاشا بصوت متهدج من الانفعال :

ـ إصمت انت يابوريس، انك شديد «الدبلوماسية» ، وقدبدأ هذا يزعجني !

وكانت كلمة « الدبلوماسية » شائعة ومن أحدث طراز بين الاولاد ، الذين كانوا يعطونها معنى خاصاً .

أردفت تهاجم فيرا بشدة قائلة :

ـ ماذا تريد مني هذه ؟ انك لاتفقهين شيئاً ، انك لم تحبي احداً قط ، انك محرومة من القلب . انك لست الا مدام دوجانليس[1] ـ وهذا كان اللقب الذي اصطلح نيكولا على اطلاقه على اخته لتجريحها ـ ان غاية سرورك هي تسبيب الازعاجات والاساءات للآخرين . هيــا اذهبي الى بيرج ، وتظرفي ماشئت معه ...

ـ انني ، على كل حال ، لاأجري راكضة وراء شاب أمام المدعوين .

---

(١) هي السيدة ستيفاني فيليسيتي دوجانليس ، مدرسة ابناء الدوق دورلبسان ومؤلفة كتب عن التربية (١٧٤٦ - ١٨٣٠) والتورية ظاهرة في هذه التسمية . ـ المترجم ـ

قال نيكولا :

ـ ها قد بلغت غايتك من الكلام . انك أسففت بحقنا جميعاً ، ولقد افسدت مرحنا ... هيا بنا الى غرفة الاطفال .

ونفر الاربعة وكأنهم رف طير مذعور . فلاحقتهم فيرا بقولها :

ـ بل انكم انتم الذين وجهتم الي إسفافا وحماقات ، انني لم اخاطب احداً بمثلها .

وتعالت من وراء باب الحجرة المغلق أصوات هازئة تقول :

ـ مدام دوجانليس ! مدام دوجانليس !

غير ان فيرا الجميلة لم تبال بذلك . لقد ارضاها أنها أحفظتهم وأحنقتهم ، فابتسمت وتوقفت أمام المرآة تصلح من غطاء رأسها (إيشارب) وزينتها . ولما انعكس بهاء وجهها على صفحة المرآة ، ازداد اشراق وجهها وتزايدت برودتها.

خلال ذلك ، كانت الصديقتان تتناجيان في البهو . كانت الكونتيس تقول جواباً على حديث الأميرة :

ـ آه ، ياعزيزتي . ان في حياتي أيضاً كثيراً من الأشواك . اننا إذا لبثنا على مانحن عليه من انفاق، لن تلبث ثروتنا حتى تنضب بعد قليل. والخطأ في هذا خطأ النادي وطيبة قلبه . اننا لانعرف الراحة والهدوء حتى في الريف : حفلات وصيد وقنص والله يعرف ماذا أيضاً ! ... ولكن مافائدة التحدث عني؟ أنبئيني كيف تتدبرين شأنك ؟ أتدرين ياآنيت أنني أعجب بك غالباً ؟ امرأة وحيدة وفي مثل سنك ، تجري من مكان الى آخر ، من موسكو الى بيترسبورج ، فتحدث الوزراء وكل افراد الطبقة الراقية، وتجد دائماً اللهجة المناسبة للحديث .. حقاً انني معجبة بك . انني لأرتبك أشد الارتباك لو وجب علي فعل ذلك .

أجابت الأميرة :

ـ آه ، ياعزيزتي! أشكري الله على انه أراد لك ان تبقي جاهلة. ألم الترمل

وبؤسة ، وشقاء الوحـــدة وفقد السند ، وعلى ذراعيـك ابن تحبينه لدرجة العبادة . . . ان التعاسة مدرسة ممتازة .

وأردفت في شيء من الفخار :

- إن دعواي قد هذبتني وعلمتني . انني عندما أضطر الى مخاطبة شخصية رفيعة أرسل اليه كلمه على بطاقة : « ان الاميرة فلانة ، ترغب في رؤية سيدي فـلان اوفلان » . ثم أستقل عربة وأذهب الى حيث أراه ، وأعيد الكرة مثنى وثلاثاً ، حتى أظفر بما أريـــد . ان مايقوله الناس وما يتخرصون به عني لا يهمني في شيء .

– ومن التمست من أجل بوريس ؟ هاهو ذا ضابـط في الحرس ، بينما صغيري نيكولا قد انخرط صف ضابط فقط في فيلق الخيالة . ان ابني لايجد من يدعمه ويزكيه . مع من تحدثت بشأن ابنك ؟

قال آنا ميخائيلوفنا بلهجة متباهية :

– مع الأمير بازيل . ياله من رجل ظريف ! لقد قبل طلبي من فوره وتحدث الى الامبراطور . . .

– نسيت الأميرة ، وهي تتحدث عن انتصارها ، مبلغ الضراعة والتوسل والاهانة التي لحقت بها والتي يرجع اليها الفضل في نجاحها .

سألت الكونتيس :

- الأمير بازيل ؟ ألم يهرم بعد ؟ انني لم أره منذ ان كنا نتقابل في حفلاتنا لدى آل رومیانتسيف . قد يكون نسيني . . .

وأردفت بابتسامة من يحيي ذكرياته العذبة :

– لقد كان يغازلني !

أجابت آنا ميخائيلوفنا :

– انه لازال كعهدك به ، لطيفاً ، صدوقاً . ان العظمة والمراكز الجليلة

لم تفعل فعلها في نفسه . لقـــد قال لي : « انني آسف اذا كنت لاأستطيع من أجلك شيئاً كثيراً ، ولكن مريني ياأميرتي العزيزة ، أمتثل . » . نعم ، انه رجل ودود وقريب ممتاز . . . انك تعرفين ياناتالي حبي لولدي ، وتعرفين أنني لا أتراجع عن شيء في سبيله .

وصمتت برهة ، ثم أضافت بلهجة حزينة كئيبة وبصوت منخفض :

— ولكن للأسف ،أراني في وضعية مريعة سيئة . ان دعواي لازالت حيث هي ، لم تتقدم ، وهي تستنفذ كل ثروتي . وانني الآن لاأملك شروى نقير لأدفع لابني بوريس تجهيزاته .

— وأخرجت منديلها لتجفف دموعها واستطردت :

— انني في حاجة الى خمسمائة روبل لهذه الغاية بينما لاأملك الا خمسةوعشرين روبلا . تلك هي وضعيتي . . . ان أملي الوحيد هو عند الكونت سيريل بيزوخوف ، فاذا ماشاء ان يساعد ابنه في المعمودية - انه شبين بوريس اذا كنت لاتعلمين — واجراء مرتب معين له ، فان كل جهودي تكو قد ذهبت هباء ، لأنني لن استطيع تجهيزه .

راحت الكونتيس بدورها تشاطرها البكاء . لم تتلفـــظ بكلمة ولكنها كانت تفكر !

تابعت آنا ميخائيلوفنا تقول :

— انني أحدث نفسي غالبا ، ولعله حديث سيء ، فأقول : ان الكونت سيريل يعيش وحيداً في زاويته ، وهو جم الثراء واسع الغنى . . . فلم يعيش اذن ؟ ان الحياة ليست الا عبئاً بالنسبة اليه . اما في سن بوريس . . .

قالت الكونتيس :

— سوف يترك له ولاشك شيئاً .

—علم ذلك عند الله ، ياصديقتي الحميمة ! ان الرجال الأغنياء والسادة العظام

أنانيون بفطرتهم . على كل حال،سأذهب مع بوريس لأراه وأتحدث اليه بصراحة . ليتحدثوا عن تصرفي بما يشاؤوا ، لست مبالية ، لأن مستقبل ولدي يتوقف على ذلك .

ونهضت واقفة ، وتابعت :

ـ ان الساعة الآن الثانية ، وحفلتك تبدأ في الرابعة . واذن ، فان لدي ما يكفي من الوقت .

واستدعت ابنها على الفور ، شأن السيدة التي عادت لتوها من العاصمة وهي عارفة بقيمة الوقت وانصرفت تشيعها الكونتيس حتى الردهة .

وهمست في اذن الكونتيس محاذرة ان يسمع ابنها :

ـ وداعا ، ياصديقتي الطيبة . تمني لي حظاً سعيداً .

وظهر الكونت في تلك اللحظة ، فقال وهو على باب غرفة الطعام :

ـ أتذهبين لزيارة الكونت سيريل ، ياعزيزتي؟ اذا كانت صحته أحسن ، ارجو ان تدعي السيد بيير باسمي . لقد جاء قبل هذه المرة الى دارنا ورقص مع الأولاد . لاتنسي دعوته ، ياعزيزتي . لقد وعد « تاراس » ان يتجاوز حدود ما عرفناه عن براعته حتى الآن . سوف نرى . انه يزعم انه سيقدم لنا الليلة عشاءً يفوق ما كان يمكن ان يقدمه الكونت أورلوف بالذات ، وأنت تعرفين حفلات الكونت أورلوف ، صديق كاتيرين المفضل الذي ينهي الآن ايامه في أملاكه الشاسعة الغنية في « سان سوسي » قرب موسكو .



الفصل الخامس عشر

(آنا ميخائيلوفنا)

درجت عربة الكونتيس روستوف ، التي استقلتها الأميرة دروبتسكوي وابنها ، في طريق نثر عليه التبن ، قبل ان تدخل الى حديقة فندق بيزوخوف الذي كان الكونت يقيم فيه .

قالت الأميرة ، وهي تسحب يدها من ثنية كمها وتضعها على يد ابنها بحركة لطيفة مفعمة بالحنان :

— ياعزيزي بوريس ، كن رفيقاً ياولدي وامتثل للواقع . ان الكونت سيريل شبينك ياعزيزي ، ومستقبلك كله يتوقف عليه . تذكر ذلك ياولدي ، وكن رفيقا كما تحسن ان تكون . .

فأجابها بوريس بلهجة باردة :

— ليت هذا الخنوع يعود بشيء من الفائدة ... لكنني مع ذلك أعدك . انني أمتثل نزولا عند رغبتك فقط .

وعلى الرغم من ان خادم الباب رآهما يهبطان من عربة تدل على ان

اصحابها من السادة المبجلين ، فانه زاح يحدق بقحة في وجه الأم وابنها ، اللذين دخلا مباشرة الى الشرفة دون ان يبلغا عن قدومهما ، ووقفا بين ذينك الصفين من التماثيل الجميلة البديعة التي تحف بها . وبعد ان نظر الى ثوب السيدة باشفاق ، سألها عما تريد وهل ترغب في رؤية الاميرات او الكونت . فلما عرف انها تريد مقابلة الكونت ، أبلغها ان سعادته سيء الصحة لايستقبل احداً .

فقال الابن وهو يقطب حاجبيه :

ـ حسنا ، هيا بنا إذن !

فضرعت اليه الام تقول :

ـ ياصديقي !

وأشفعت قولها بلمس ذراعيه ، ولعلها بتلك اللمسة كانت تستوحي الهدوء او شحذ القوى .

صمت بوريس وراح يستفسر أمه بنظره دون ان يخلع معطفه . فقالت هذه تخاطب خادم الباب بلهجة لبقة :

ـياصديقي الطيب ، انيأعرف ان الكونت سيريل فلاديميروفيتش مريض جداً ... ومن اجل هذا جئت ... انني لن أزعجه ، ياصديقي ... اود فقط ان ارى الأمير بازيل سيرجيئفيتش ، واعرف انه هنا . فتفضل بابـــلاغ وصولنا اليه .

فجذب خادم الباب حبل الجرس بشراسة، واستدار يقول لخادم آخر ظهر على الباب يرتدي سراويل قصيرة واخفاف :

ـ ان الأميرة دوربتسكوي ترغب في مقابلة الأمير بازيل سيرجييئفيتش.

كان الخادم الثاني يطل من فوق الحاجز استجابه لنداء الجرس. فلماانهى اليه خادمالباب الأمر ، عاد الى الداخل .اما الأميرةفانها راحت تسوي ثوبهاوترتبه وهي واقفة امام إحدى مرايا البندقية الشهيرة ، كانت معلقة على الجدار ، ثم

راحت ترتقي السلم،المغطى بقطع السجاد النفيسة ، ببسالة رغم حذائها الباليين.

قالت لابنها، وهي تضغط من جديد على يده :

– لقد وعدتني ، ياعزيزي ، فلا تنس .

فتبعها الابن بهدوء مطرق الرأس .

دخلا الى بهو يؤدي الى جناح الأمير بازيل . فلما وصلا الى منتصف القاعة ، هما بالسؤال من خادم عجوز بادر لاستقبالها . غير ان أكرة احد الابواب أديرت ، وظهر على عتبة الباب الأمير بازيل بثياب المنزل ، لايزين صدره إلا وسام واحد ، معلق على سترته المخملية القصيرة. كان يودع رجلاً اسمر جميل الطلعة ، هو الطبيب لوران الشهير الذي استقدم من بيترسبورج .

سأله الأمير :

–أهو إيجابي ؟

فأجاب الطبيب، وهو يلفظ الكلمات اللاتينية على الطريقة الفرنسية:

– ياسيدي الأمير ، ان الحال خطير ولكن . . .

– حسناً ، حسناً . . .

ولما وقعت ابصاره على آنا ميخائيلوفنا وابنها ،استأذن من الطبيب وتقدم منهما بوجه طافح بامارات الاستفهام . وفجأت امتلأت نظرة الاميرة بكآبة الحزن العميق ، فلم يخف ذلك التحول المفاجيء على بوريس ، الذي وجد صعوبة كبرى في اخفاء ابتسامته .

قالت الأميرة دون ان تبالي بالنظرة الباردة الجارحة التي كان الأمير بازيل يصعقها بها :

– أية مناسبات سيئة شاءت ان تجمعنا من جديد، ياأميري . . . كيف حال مريضنا العزيز ؟

انتقلت تلك النظرة الفاحصة الى بوريس ، الذي انحنى بأدب. غير ان الأمير

لم يلق بالاً الى تحيته ، واستدار الى آنا ميخائيلوفنا ، فأجاب على سؤالها بغمغمة وهزة رأس لاتبشران بخير عن صحة المريض .

هتفت الأميرة :

– ياالله ! ان هذا مريع ، انه مخيف ...

ثم استئلت وهي تشير الى بوريس :

– اقدم اليك ولدي بوريس . لقد الح في ان يحضر بنفسه لشكرك .

– فعاد بوريس الى الانحناء من جديد بتأدب واحترام .

استطردت الأميرة تقول :

– ثق تماماً ياأميري من ان قلبي كأم لن ينسى لك ابداً مافعلته من اجلنا .

واخيراً نطق الأمير فقال ، وهو يصلح من وضع ياقة سترته :

– انني سعيد ياآنا ميخائيلوفنا الطيبة لأنني استطعت ان أحسن اليك .

قدر ان عليه – هنا في موسكو – ان يعامل محميته بشيء من الترفع لأنه وحيد معها . وقدر أيضاً ان تكون وسائله الآن اكثر شدة وجلاءً مما كانت عليه في بيترسبورج عندما كان في حفلة آنيت شيرر . فقال لبوريس بلهجة صارمة :

– كن ضابطاً ممتازاً ، ينبغي ان تكون جديراً ب . . . انني سعيد جداً من ناحيتي . . . هل انت في عطلة هنا ؟

حشا الأمير بازيل جملته الأخيرة بأقصى ما في طاقته من مظاهر العظمة . فأجابه بوريس دون ان يبدي تردداً ازاء لهجة الأمير المرتفعة المهينة او الرغبة في متابعة الحديث :

– انني ياصاحب السعادة أنتظر الأمر لألتحق بمركزي الجديد .

كانت لهجته متزنة مهذبة حتى ان الامير راح ينظر اليه باهتمام ملحوظ .

– هل تقطن عند أمك ؟

فأجاب بوريس، دون ان ينسى اضافة كلمة : صاحب السعادة :

ـ انني أقطن عند الكونتيس روستوف.

فتدخلت آنا ميخائيلوفنا قائلة :

ـ أتذكر انه ايليا روستوف الذي تزوج ناتالي شينشين .

فقال الأمير بصوته وحيد النغمة :

ـ أعرف ، أعرف . انني ما استطعت أبداً ان أفهم كيف ان ناتالي وافقت على الزواج بهـ ـذا الدب القذر ! انه شخص سخيف ومضحك تماماً ، ومقامر على ما يقـال

فأعقبت آنا ميخائيلوفنا بلهجة وابتسامة دمثتين ، وكأنها توافق على حكمه على الرجل ،ولكنها تلتمس منه الصفح والعفو عن عجوز مسكين :

ـ لكنه رجل باسل جداً ، ياأميري .

وعادت تسأل بعد لحظة صمت ساعدتها على ان تطبع وجهها بطابع ذعر عميق:

ـ ماراى كلية الطب ؟ وتقصد الطبيب . .

فقال الأمير :

ـ هناك أمل ضئيل .

ـ وأنا التي كنت مزمعة على شكر « عمي » على كل ماأحاطني وأحاط بوريس به من عطف وحسن التفات ...

وأضافت بعد حين ، وكأن الخبر سيسر الأمير بازيل معرفته:

ـ ان بوريس ابنه في المعمودية !

فقطب الأمير حاجبيه وراح يفكر ولا شك في انه سيرى في هذين الدخيلين دعيين آخرين في ميراث الكونت بيزوخوف . وأدركت آنا ميخائيلوفنا مـا يجول في خاطره ، فبادرت تطمئنه بقولها :

انني اذا كنت هنا ، فما ذلك الا لمحبتي « لعمي» واخلاصي له . ـ وعادت

تضغط على كلمة عمي بتأكيد لبق — . انني أعرف عقليته النبيلة الصريحة . غير أني أعرف ان الأميرات وحدهن بجانبه . وهن شابات صغيرات في السن . . .

واقتربت منه لتهمس في أذنه بصوت خافت :

— هل قام بآخر واجباته ، ياأميري ؟ كم هي ثمينة هذه اللحظات الأخيرة ! فاذا كانت صحته منحدرة الى هذا الدرك السيء ، فيجب حتما اعداده . ولاشيء أخطر من هذا .

وأعقبت تقول بعد فترة صمت ، وهي تشفع قولها بابتسامة عذبة :

— انك تدرك ياأميري اننا ، معشر النساء ، نعرف كيف نتصرف في ظروف عصيبة كهذه . يجب ان أراه . انه واجب مؤلم لكنني تعودت الألم .

وفهم الأمير — كما حدث من قبل في حفلة آنيت شيرر — ان من العسير التخلص من انا ميخائيلوفنا . فقال :

— ان مقابلتك له ، ياآنا ميخائيلوفنا العزيزة ، قد تثقل عليه : لننتظر حتى المساء لقد أكد الأطباء انه ينتظر نوبة . . .

— ان ننتظر ، ياأميري ؟ لكن مستحيل ! فكر ، ان هذا الأمر متعلق بخلاص روحه . . . آه كم هي مؤلمة واجبات المسيحي . . .

فتح باب الجناح الخاص وخرجت منه واحدة من الاميرات وهي ابنة اخت الكونت ، ذات وجه بارد جامد عابس ، تعطي ساقاها القصيرتان اللتان تحملان قامتها الطويلة لونا من الغرابة والشذوذ للناظر المتفحص . التفت الأمير بازيل اليها ، وقال :

— حسناً ! كيف حاله ؟

فقالت ابنة الأخت ، وهي تتفرس في وجه آنا ميخائيلوفنا وكأنها تنظر الى سيدة مجهولة :

ـ لازال كما هو . ان هذا الضجيج ، كما تعلم . . .

ورمقت الزائرة بنظرها ولم تعقب .

اقتربت هذه منها منبسطة الأسارير خفيفة الخطى ، وقالت بتودد :

ـ آه ، عزيزتي ، لم أكن أعرفك . لقد وصلت للتو وانني في خدمتك لمساعدتك في العناية « بعمي » . . .

ثم رفعت عينيها الى السماء باشفاق واردفت

ـ انني أتخيل مدى ألمك .

لم تتعطف الأميرة بالجواب ولا بمجرد الابتسام ، وانسحبت لفورها. فنزعت آنا ميخائيلوفنا قفازيها وراحت تجلس على مقعد وثير وكأنها في « ارض محتلة » ودعت الأمير بازيل الى الجلوس بقربها . ثم قالت تخاطب بوريس وهي تبسم :

ـ سأري الكونت عمي يابوريس ، فامض الى لقاء بيير خلال هذا الوقت ياصديقي . ولا تنس ان تبلغه الدعوة التي وجهها اليه آل روستوف . . .

ثم أردفت تحادث الأمير :

ـ ان آل روستوف يدعونه لتناول العشاء لديهم . اعتقد انه لن يذهب ، أليس كذلك ؟

فأجاب هذا بلهجة حادة منفعلة :

ـ لم لايذهب ؟ سأكون سعيداً اذا خلصتني من هذا الفتى . . انه لايتحرك من هنا رغم أن الكونت لم يطلبه حتى الآن مرة واحدة ، ولم يسأل عنه او يعرب عن رغبته في رؤيته .

وهز كتفيه . وجاء خادم يقود بوريس من باب آخر يؤدي الى سلم جديد ، ليقوده الى حيث كان بيير كميربيوفيتش .

* * *

الفصل السادس عشر

بيير وبوريس

كان تصرف بيير ونوع الحياة التي اندمج فيها في بيترسبورج قد منعاه حتما عن انتقاء السبيل الذي يرتضيه للبلوغ الى مستقبله المنشود . فقد كانت القصة التي رووها لدى آل روستوف عن تصرفه ، حقيقة لا زيف فيها . كان الشاب قد عاد من بيترسبورج ، بعد ان أبعد من هناك لاشتراكه في شد وثاق ضابط القسم الى ظهر الدب ، وقبع في منزل ابيه . كان واثقاً من ان القصة ستثار في موسكو ، فتعطي للأوساط النسائية ،التي كان على اسوأ العلاقات معها ، مادة غنية للحديث تساعد على النيل منه وإفساد علاقته مع أبيه . مع ذلك ، فانه لم يتردد عن المثول من فوره في حضرة أبيه . فوجد الاوانس الثلاثة في البهو ، وهو مركز اجتماعهن المفضل . كانت كبرى الاميرات ، وهي التي شهدناها منذ حين تتقابل مع آنا ميخائيلوفنا فتعاملها تلك المعاملة المهينة ، فتاة صارمة ، طويلة القامة ، تعنى عناية خاصة بملابسها . وكان دأبها القراءة بصوت مرتفع .

أما الاميرتان الأصغر سنا فكانتا تشتغلان في اعمال الابرة على مناسج صغيرة . كانتا وديعتين لطيفتين ، تشبه احداهما الاخرى حتى ان كثيراً من الناس كانوا يخلطون بينهما ، لولا « حسنة » كانت على وجنة إحداهما . حياهن بيير تحية مهذبة رقيقة . لكنهن استقبلنه وكأنه شبح او مصاب بالطاعون . توقفت الكبرى عن القراءة وحملقت بعينيها في وجهه بذعر دون ان تتلفظ بكلمة . واتخذت الثانية موقف اختها الكبرى ، فنقلت التعابير التي كانت مرتسمة على وجهها بكل أمانة ، وأبرزتها على وجهها . اما الثالثة ، تلك التي كانت « الحسنة » التي على وجهها تميزها عن أختها ، فقد انحنت على منسجها لتخفي ابتسامتها ، وقد تأكد لها انها ستشهد موقفاً ممتعاً يتفق مع مزاجها المرح . سحبت خيطها الصوفي وراحت تتظاهر بالاهتمام بنقوشها وترتيبها ، وهي تجهد في كبت القهقهة التي تكاد تفلت من حنجرتها .

قال بيير :

— عمي صباحاً ، ياابنة العم . ألا تعرفينني ؟

— بل انني أعرفك اكثر مما تظن ، نعم اكثر . . .

سأل بيير ، دون ان يرتبك رغم اسلوبه الخائب الفاشل الطبيعي :

— كيف حال الكونت ؟ هل أستطيع ان أراه ؟

— ان الكونت يتألم جسدياً وعقلياً . وانني ارى أنك عملت كل ماينبغي لمضاعفة آلامه المعنوية وزيادتها خطورة .

كرر بيير سؤاله :

— هل أستطيع ان أرى الكونت ؟

— إحم ! اذا أردت ان تقتله او أن تعجل بنهايته ، فانك ولاشك تستطيع ان تراه . . .

ثم أردفت تخاطب أختها لتنوه لبيير بأنهن كن يعملن للتخفيف من الآلام التي كان هو يثيرها وكأنه يتلذذ بزيادة حدتها :

ــ أولجا ، أنظري اذا كانوا قد هيأوا شراب عمنا .

فخرجت أولجا ، ولبث بيير ينتظر برهة ثم انحنى للشقيقتين وهو ينظر اليها وقال :

ــ سأمكث في غرفتي . ولكما ان تبلغاني عندما يتسر لي ان أراه .

وانسحب من البهو تشيعه ضحكة ذات « الحسنة » المجلجلة التي كانت ، رغم قوتها ، تعتبر مكتومة مراعاة للظرف الدقيق المحيط بصاحبتها ، تلك الشيطانة التي لاتعرف غير المرح .

وفي اليوم التالي وصل الأمير بازيل ، وأقام لدى الكونت . فاستقدم بيير وقال له :

ــ ياعزيزي بيير ، اذا تصرفت هنا تصرفك في بيترسبورج فان نهايتك ستكون سيئة . هذا كل ماأقوله لك . ان الكونت مريض ، بل مريض جداً ، فلا تحاول ان تراه او ان تتصل به .

ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد أحد يهتم ببيير الذي لازم جناحه في الدور الثاني من الفندق .

ولما دخل بوريس عليه ، كان بيير يذرع غرفته بعصبية وانفعال ، فيتوقف حيناً في احدى الزوايا ويحدق من فوق نظارتيه في الجدار ، او يقاتل بذراعه عدواً غير منظور ، وكأنه يشطره بسيف الى شطرين ، ثم يعود الى مشيته التي تتخللها حركات عنيفة من الذراعين وهزات من الكتفين وكلمات متفككة لا ارتباط بينها .

كان يقول مشيراً باصبعه الى لاشيء ، وكأنه يهدد عالماً خفياً ، وهو مقطب الحاجبين :

ـ لقد عاشت بريطانيا ، ولقد حكم على بيت[1] بوصفه خائناً للأمة ولحقوق الأشخاص . . . .

كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة نابوليوناً حقيقياً ، « نابليون » بالذات ، سيد لندن بعد اجتياز البادوكاليه الى بريطانيا في تلك المحاولة الخطيرة ، والحكم على بيت بعقوبة لم يجد وقتاً لتحديدها ، لانه توقف عندما رأى ضابطاً شاباً ، مهيب الطلعة ، يدخل الى غرفته فجأة . لم يعرف بوريس للوهلة الاولى لأنه تركه غلاماً في الرابعة عشرة من عمره ، فنسيه تماماً . مع ذلك ، فقد استقبله مصافحاً ببشاشة وهو يبسم له ابتسامة ودية ، مدفوعاً بطيبة نفسه البديهية التي تجعله ينظر الى كل الناس من زاوية بريئة مرحة .

قال بوريس بلهجته المتزنة ، وهو يقابل ابتسامته بمثلها :

ـ هل تذكرني ؟ لقد جئنا ـ أمي وأنا ـ لنقدم تمنياتنا للكونت . لكن صحته ليست على مايرام كما يقولون .

فأجاب بيير ، وهو يتساءل عبثاً أين ومتى رأى هذا الشاب من قبل :

ـ نعم ، ان صحته كما يبدو ليست على مايرام . انهم يزعجونه غالباً .

ادرك بوريس ان بيير لم يعرفه . مع ذلك فقد ظل ينظر في عينيه دون ارتباك ، ودون أن يقدم نفسه اليه . قال ، بعد فترة صمت طويلة أزعجت بيير :

ـ ان الكونت روستوف يرجوك ان تتناول طعام العشاء عنده بعد قليل .

فهتف بيير مسروراً :

ـ آه ، الكونت روستوف ! انك اذن ايلي ، ابنه ! تصور أنني لم أعرفك

---

(١) وليام بيت الصغير ، ابن اللورد شاثام ، وزير دولة بريطاني ، ولد في هاي عام ١٧٥٩ وتوفي عام ١٨٠٦ . كان عدواً لدوداً للثورة الفرنسية ، نظم ثلاث محالفات ضد فرنسا ، لكنه أخفق في احباط انتصارات نابليون وفي انقاذ الاقتصاد الانجليزي ، الوقت الذي هبط الى الحضيض . ـ المترجم ـ

للوهلة الاولى . هل تذكر نزهاتنا على جبل العصافير مع مدام جاكو ... ان ذلك ليس قديم العهد .

فأجابه بوريس بهدوء ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مواسية لاتخلو من طابع السخرية :

ـ انك تخطىء انني بوريس ابن بوريس ابن الاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي . أما روستوف الشاب فاسمه نيكولا وأما إيلي فهو أبوه . وانا لم اعرف مدام جاكو من قبل ..

انتفض بيير وراح يلوح بيديه باضطراب، وكأنه يطرد ثول نحل او ذباب تجمع حوله . وأرتج عليه لحظة ، ثم قال :

ـ آه، ويحي! إنني اخلط بين الاشياء! ان لي عدداً كبيراً من الاقارب والمعارف في موسكو ! .. انك اذن بوريس . حسناً ، لقد اتفقنا ... حدثني عن رأيك في غزوة بولونيا . ان الانجليز لن يصمدوا طويلاً اذا تخطى نابليون بحر المانش ، أليس كذلك ؟ انني أعتقد ان المسألة ممكنة التنفيذ شريطة ان لايرتكب فيلنوف[1] حماقات وأخطاء !

كان بوريس لايقرأ الصحف . لذلك فقد كان لايعرف شيئاً عن غزوة بولونيا ويجهل حتى مؤدى اسم فيلنوف . قال بلهجته الهازئة الهادئة :

ـ ان الحفلات والولائم تشغلنا هنا اكثر مما تشغلنا السياسة . لذلك فانني لاأستطيع ان اكوّن رأياً بصدد قضية أجهلها . ان موسكو مدينة المهذارين قبل كل شيء . انهم لايتحدثون الآن الا عن الكونت وعنك . ان النميمة طبع متأصل في النفوس .

---

(١) بيير دو فيلنوف ، اميرال فرنسي ولد في فالانسول (الالب الواطئة) عام ١٧٦٣ وتوفي عام ١٨٠٦ .هزمه نيلسون الانجليزي في معركة الطرف الاغر (ترافالغار) ـ المترجم ـ

ابتسم بيير ابتسامته البريئة الصريحة . كان ينتظر ان يحدثه بوريس بكلمات قاسية يندم على قولها . غير ان بوريس نطق بكلماته بصوت واضح جاف وهو لايني يحدق في عيني بيير بجرأة . أردف يقول :

— نعم ، ان الثرثرة عمل الموسكوفيين الوحيد . انهم يتساءلون الآن لمن سيترك الكونت ثروته ، رغم انه قد يعيش حتى بعد ان نموت نحن ، وهو الأمر الذي اتمناه من صميم نفسي .

قال بيير ،وهو يزداد خوفاً من ان ينزلق بوريس في منحدر خطر عسير ، لايجد منه خلاصاً :

— نعم ، ان كل هذا مزعج وأليم .

أضاف بوريس معقباً ، وقد احمر وجهه قليلًا دون ان تتبدل لهجته او ان يتغير أسلوبه :

— يمكنك ان تصدق ان كل الناس يأملون في ان يبلغوا نصيباً من ثروته. بل ان عدداً منهم قد أصبحت الفكرة في رأسهم ثابتة متركزة .

فقال بيير في سره : « ها قد وقع المحذور ! » بينما أردف بوريس :

— أود بهذه المناسبة ان أبلغك ، تفادياً لأي سوء تفاهم يقع ، أنك تخطىء خطأ فاحشاً اذا وضعتنا ، أمي وأنا ، في عداد هؤلاء الناس الذين حدثتك عنهم. اننا فقراء جداً . لكنني أستطيع ان أؤكد لك — باسمي على الأقل — أنني لا أعتبر نفسي قريباً لأبيك لمجرد كونه من ذوي الغنى واليسار . واننا ، لا أمي ولا أنا ، لانتسول ولا نتقبل أبداً شيئاً منه .

لبث بيير برهة قبل ان يستوعب غاية الفتى من حديثه . فلما فهمها ، اندفع من مجلسه على الأريكة وأمسك برسغ بوريس بحماسته الحرقاء المعروفة عنه ،

وقد احمر وجهه حتى فاق تضرجه اللون الذي اصطبغ به وجه محدثه ، وغمغم بخجل وغضب :

ــ ولكن ماذا . . . هل حقيقة أنني ؟ . . من الذي يفكر في هذا ؟.. انني أعرف تماماً . .

كان بيير يهدف الى طمأنة بوريس وتهـــدئة خاطره . غير ان هذا قاطعه ليهدىء من ثائرته بقوله :

ــ أنني مسرور لأنني قلت لك ما قلت. فاعذرني اذا بدا لك قولي مزعجاً. آمل ان لا أكون قد جرحتك او أهنتك . ان مبدأي هو التحدث أبدا بكل صراحة ... حسناً ، أي جواب أحمله الى آل روستوف ؟ هل تقبل دعوتهم ؟

استعاد بوريس هـدوءه وبشاشته بعد ان تخلص من واجب شاق اداه ، وأحسن تصرفاً في ايضاح اللبس الذي قد يحيط به في بال الآخرين .

قال بيير ، وقد استعاد بدوره اتزانه بعد لأي :

ــ أصغ الي ، انك مدهش ، ان ماقلته لي منذ حين حسن ومقبول . انك لاتعرفني ولا شك . لقد انقضى زمن طويل لم نر بعضنا خلاله .. زمن يعود الى الطفولة . لذلك فقد كان بمقدورك ان تعتقد أنني ... انني أفهمك ، انني افهمك تماماً . صحيح انني ماكنت لأتصرف على هذا النحو لأن الشجاعة الكافية تعوزني ، لكنني مع ذلك راضٍ عما قلت وسعيد بمعرفتك . .ان ما خمنته بصددي غريب !

صمت برهة ، ثم أردف ضاحكاً :

ــ ان هذا لا يهم . سوف نتعرف على نفسيتنا مستقبلاً بشكل اوضح .

وضغط على يده بشدة واعقب :

ــ أتدري أنني لم أر الكونت بعد ؟ انه لم يستدعني . . رغم ان حالته الصحية تقلقني وتزعجني كثيرا . . لكن ماالعمل ؟

سأل بوريس ، وهو يضحك :

ـ انك تعتقد اذن ان اجتياز بحر المانش من قبل نابليون أمر ممكن ؟

أدرك بيير ان بوريس يغير الحديث ويوجهه وجهة أخرى . ولما كان الموضوع الذي تطرق له يستأثر بكل اهتمامه وميله ، فقد راح بيير يشرح مثالب المحاولة ومحاسنها ، شرح الخبير المتعمق .

وجاء خادم من طرف الأميرة يستدعي بوريس ، فوعده بيير قبل ذهابه ان يحضر مأدبة روستوف ليتاح له الاختلاط به ، وشد على يده مصافحاً وهو ينظر اليه خلال نظارتيه بتودد وألفة . فلما ارتحل بوريس ، عاد بيير يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . لكنه بدلاً من ان يحارب خصوماً مجهولين وان يقاتلهم ، كان يبسم مبتهجاً ، لذكرى الشاب البهي ، الذي تتساوى بداهته بطلاقة لسانه واتزانه . وراح بيير يكرر في نفسه ، ـ شأن كل الشباب عندما يناقشون في خلواتهم آراء عرضت لهم ـ ، رغبته في ان يصبح صديق بوريس ، استجابة للشعور الذي أحس به نحوه ، والذي كان يلح عليه بالتقرب من الضابط الشاب .

وبينما كان بيير يناقش نفسه على ذلك الشكل ، كان الأمير بازيل يشيع الاميرة وهي تجفف عيونها بمنديلها وتقول :

ـ انه أمر مريع مفزع ! لكنني سأقوم بواجبي مهما كلفني القيام به من ثمن . سأسهر عليه عندما يقتضي الأمر السهر ، اذ لا يمكن ان ندعه يقضي دون ان يعترف . ان اللحظات ثمينة جدا . ما تنتظر الأميرات ؟ لعل الله يلهمني سبيل اعداده لملاقاته . وداعاً ، ياأميري ، وليساعدك الله !

ـ الوداع ، ياسيدتي الطيبة .

وغادرها الأمير ، وكر عائداً الى مخدعه !

وبينما كانت تصعد الى العربة مع ابنها ، راحت تحدثه قائلة :

ـ انه في حال مؤلم محزن . انه لايستطيع التعرف على أحد تقريبا .

سأل بوريس :

ـ أود ان أعرف بدقة النوايا المبيتة نحو بيير ، لأنني لاأفقة من الأمر شيئاً . ماهي الترتيبات المنوي اتخاذها بشأنه ؟

ـ ان الوصية ستطلعنا على كل شيء ، ياصديقي . . . ان مصيرنا كذلك متوقف عليها .

ـ لكن ماالذي يدعوك الى الاعتقاد بأنه سيترك لنا شيئاً ؟

ـ آه ياصيديقي ، اننا في فقر مدقع وهو في غنى وثراء واسعين !

ـ لكن هذا لايفسر الأمر . إنه ليس سبباً كافياً ، ياأمي العزيزة !

فزمجرت الاميرة :

ـ آه يارب ، كم هو في حالة سيئة ! رباه !

* * *

الفصل السابع عشر

الصديقة المخلصة

بعدذهاب آنا ميخائيلوفنا وولدها ، لبثت الكونتيس روستوف فترة طويلة وحيدة في البهو ، غارقة في تفكير عميق . ولم تلبث ان حزمت أمرها على شيء فقرعت الجرس . غير ان الوصيفة أبطأت في المثول في حضرتها ، مما أسخطها وأثار حفيظتها ، فلما كررت القرع ودخلت الوصيفة ، صاحت بها غاضبة :

— مامعنى هذا، ياعزيزتي ؟ اذا « شئتم » ان لا « تقوموا بواجبكم » فسأعرف كيف أجد « لكم » مكاناً آخر !

كانت الكونتيس ثائرة الأعصاب متألمة لحزن صديقتها الأميرة وفقرها المخجل . وكانت دلائل سخطها وثورتها تتجلى في أسلوب كلامها مع خادمتها ـ لغة الجمع ـ وفي إضفاء لقب « عزيزتي » عليها .

قالت الوصيفة معتذرة :

ـ أرجو ان تغفر لي سيدتي .

ـ أطلبي الى الكونت ان يتفضل برؤيتي .

جاء الكونت بعد قليل يتأرجح في مشيته كعادته ، وعلى وجهه امارات الجد والاهتمام . ابتدرها قائلاً :

ـ آه ياعزيزتي الكونتيس الصغيرة ! ياللطعام الفاخر الذي سنقدمه ! لقد تذوقته بنفسي . انني احسنت صنعاً بإعطائي الف روبل لتاراس . انه يستحقها !

جلس قرب زوجته وشعره الابيض متمرد على رأسه ، واعتمد مرفقيه على ركبتيه وقال :

ـ ماذا ترغبين ،ياعزيزتي الكونتيس الصغيرة ؟

ـ حسنا ، إليك ما أريد . . .

وابتسمت وهي تشير بسبابتها الى صدارة زوجها ، وقالت :

ـ ما هذه اللطخة التي على صدارتك ؟ أتعشم ان تكون من مرق الطعام !

وعاد الحزن يسدل أستاره على وجهها فأعقبت :

ـ إليك ماأريد : انني في حاجة الى المال . .

فأخرج الكونت حافظة نقوده ، وهو يقول :

ـ حالاً ، حالاً . . . آه ، أيتها الكونتيس الصغيرة . .

غير ان الكونتيس الصغيرة قاطعته قائلة :

ـ ذلك انني في حاجة الى أكثر من المعتاد ، الى خمسمائة روبل .

وراحت تدلك بمنديلها المصنوع من قماش « الباتيست » اللطخة التي على صدارة زوجها . فهتف هذا :

ـ فوراً ياعزيزتي . . . فوراً .

وصاح شأن من تعود ان يهرع الناس تلبية لأول نداء يصدر عنه :

ـ هو لا، ليأت أحد ! إبعثوا في طلب ميتيا .

ودخل ميتيا بخطواته الخفيفة المكتومة ، وكان فتى فقيراً تعهده الكونت وأقامه أميناً على بيته فقال له الكونت :

ـ إسمع ياعزيزي ، إئتني بـ . . . . ـ وراح يفكر برهة ـ بكم . . . آه ، بسبعمائة روبل ، نعم سبعمائة روبل . واحذر ان تكون أوراقاً قذرة او ممزقة كما حدث في المرة الأولى . أريدها جديدة كل الجدة ، لانها للكونتيس .

فأعقبت الكونتيس ، وهي تزفر زفرة حرى :

ـ نعم ، أرجوا ذلك ، باميتيا . اعمل على ان تكون جديدة ونظيفة .

سأل ميتيا :

ـ متى تريدها ، ياصاحب السعادة ؟

ولما رأى ان الكونت بدأ يتنفس بصعوبة ، وهو نذير غضبه ، أردف يقول مستدركاً :

ـ لاتنزعج . لقد أسأت الفهم . انك تريدها فوراً . أليس كذلك ؟

ـ نعم ، نعم . احضرها واعطها للكونتيس .

فمضى ميتيا بخطواته المتلصصة المكتومة . فقال الكونت بعد خروجه :

ـ ياله من كنز ثمين ! انه يعرف دائماً كيف يتدبر الأمر . انني أمقت ان يعترضني معترض ، لانني أعتقد ان كل شيء ممكن تنفيذه لما تتوفر الرغبة الصادقة.

قالت الكونتيس :

ـ آه من المال ، ياكونت ! كم يسبب المال آلاماً في هذا العالم! ليتك تدري مبلغ حاجتي الى هذا المبلغ التعس .

فقال الكونت ، وهو يقبل يد زوجته قبل ان يعود الى مكتبه :

ـ نعم ياعزيزتي الكونتيس الصغيرة ، اننا نعرف سخاءك وكرمك .

ولما عادت آنا ميخائيلوفنا من زيارتها للكونت بيزوخوف ، كان المبلغ قد أصبح في حوزة الكونتيس ، وقد وضعته على نضد قريب وغطته بمنديلهـــا. غير ان انفعال الكونتيس واضطرابها لم يخفيا على عيني آناميخائيلوفنا الحاذقة .

سألت الكونتيس :

ـ ما أخبارك ، ياعزيزتي ؟

ـ آه من الحال السيئة التي بلغ إليها ! ان حالته شديدة السوء ، حتى أنني لم أستطع البقاء إلا دقيقتين ولم أحدثه الا بكلمتين !

مدت الكونتيس يدها الى النضد فجأة ، وقالت :

ـ آنيت ، بحق السماء لاترفضي .

تضرج وجهها بلون أرجواني يناقض خطورة تقاسيمها المهزولة التي عملت بها يد السنين تخريباً وترميماً واضحين .

فهمت آنّا ميخائيلوفنا غاية صديقتها ، فانحنت تتحين الوقت المناسب لترتمي على عنقها تقبله . قالت الكونتيس :

ـ قدمي المال الى بوريس من جانبي ليعد تجهيزاته .

بكت آنّا ميخائيلوفنا وهي تعانق الكونتيس ، فشاركتها هذه في البكاء. بكتا تحناناً لطبيعة قلبيها وللتفاهم الوثيق الذي يربط بينها ، وبكتا لأن المال، ذلك الشيء الحقير ،قد تدخل شخصاً ثالثاً في صداقتها التي ترجع الى أيام الطفولة؛ وكذلك بكتا أسفاً وهما تفكران في شبابها الضائع الزائل ... غير أن الدموع كانت حبيبة الى نفسيها ، كانت تفرج عن كربتها وتواسيها .

الفصل الثامن عشر

(ماري دميتريفنا)

كان عدد من المدعوين في البهو الكبير يحيط بالكونتيس روستوف وبناتها، وكان الكونت قد رافق الرجال الى مكتبه ووضع رهن تصرفهم مجموعته الثمينة من الغلايين . وكان يخرج من حين الى آخر ليستعلم عما إذا كانت « هي » قد وصلت . كان آل روستوف ينتظرون مقدم ماري دميتريفنا آخروسيموف الملقبة بالتنين الرهيب . وهي امرأة محرومـــة من الثراء والألقاب ، لكنها استطاعت أن تشق لنفسها طريق الشهرة بفضل صراحتها المخيفة وبدانتها . كانت ماري دميتريفنا معروفة من الأسرة المالكة وفي موسكو كلها وبيترسبورج . وكانت تروى عنها أقاصيص في المدينتين تجعل الناس يعجبون بها ويسخرون سراً ، ويقدرونها ويهابونها دون أن يجدوا جرأة على بهتها بسخريتهم .

كان الرجال يتحدثون عن الحرب في مكتب الكونت العابق بدخان اللفافات . كانوا يعرفون ان الحرب قد أعلنت رسمياً ، غير ان أحداً لم يقرأ بعد الصيغة

الرسمية لاعلانها . وكان الكونت جالسا على أريكة شرقيـــة بين اثنين من المدخنين لايدخن ولا يتحدث ، بل يلتفت تارة الى اليمين واخرى الى اليسار ، ويراقب مدعويه بسرور واضح ، ويصغي الى مناقشاتهم بانتباه واهتمام ، ليرى مآل الأمر بينهم ، استعداداً لاثارة نقاش جـديد ، عند صدور اول بادرة تهدد بخفوت احتدام النقاش .

كان أحد الاثنين الجالسين الى جانبيه مدنياً ذا وجـه صفراوي ، أجرد مجعد الوجه ، ذا مظهر أنيق رغم تقدمه في السن وتخليفه الشباب وراءه . وكان يجلس على الطريقة الشرقية وكأنه في بيته ، وفي زاوية فمه مبسم من الكهرمان ، يجذب خلاله أنفاساً متلاحقة وهو يغمز بعينيه . وكان هذا الرجل الناضج واحداً من أبناء عم الكونتيس ، اسمه شينشين ، وهو عزب عجوز يعتبر في أندية موسكو لساناً سليطاً مسلطاً . وكان الكونت ينظر اليه نظرة توحي بتفوقه على محدثه الآخر ، الذي كان ضابطاً في الحرس ، نضر الوجه مورّد الوجنتين ، شديـد التأنق والترفع ، معني كل العناية بهندامه ومظهره ، يمسك بغليونه في منتصف فمه محاذراً بتبديل مكانه ، وتمتص شفتاه القرمزيتان خلال القصبة نفحات خفيفة من الدخان ، يرسلها من فمه على حلقات متلاحقة رقيقة . كان هذا الزائر هو الملازم بيرج ، من فيلق سيميونوفسكي ، الذي كان عليه أن يلتحق بالجيش مع بوريس ، والتي كانت ناتاشا تسميه : « خطيب فيرا » إمعاناً منها في إثارة أختها الكبرى .

كان الكونت كله آذاناً صاغية وعيوناً متطلعة . وكان أجمـل ما يستأثر بانتباهه بعد لعب[1] الورق ، هو الاصغاء الى حديث المتناقشين ، خصوصاً عندما يكون سبب إثارة اثنين من ابلغ المحدثين .

---

(١) جاء في الاصل تعبير Jeu de boston ، ويراد بذلك لعبة « الباصرة » المعروفة عندنا .
ـ المترجم ـ

قال شينشين بلهجته الساخرة :

ـ إذاً يافتاي الطيب ، يا ألفونس كارليتش شديد الاقـدام ، انك تتوقع أن تقتطع ايرادات على حساب الدولة ، وأقصد أنك تود الاستئثار بربح على حساب غيرك ؟

كان شينشين يجمع بين الكلمات القروية والعامية في الروسية وبين العبارات المنتقاة باللغة الفرنسية ، وكان اسلوبه في الحديث يمتاز بطابع السخرية .

أجابه الملازم :

ـ كلا يابيوتر نيكولائيتش ، انني أزعم فقط أن سلاح المدفعية يعطي فوائد جمة تفوق على ما يعطيه سلاح الفرسان . خذ حالتي مثلًا ...

كان بيرج يتحدث أبداً بلهجة دقيقة متزنةٍ شديدة التهذيب ، لكنه لا يتحدث الا عن نفسه . فاذا دار الحديث حول مواضيع اخرى لاعلاقـة له بها ، صمت هادئاً لايريم ، ولا يبدي او يحدث حوله أي امتعاض ، ولو استمر على سكوته ساعات طويلة . أما اذا كانت شخصيته موضوع الكلام والبحث ، فعندئـــذ يستفيض ببلاغة واسترسال وطلاقة ، والسرور بادٍ على محياه .

ـ إنني في حالتي ، يابيوترنيكولائيتش... لو كنت مثلًا في سلاح الفرسان وفي رتبتي الحالية كملازم ، فإنني ما كنت لأتقاضى أكثر من مائتي روبل كل ثلاثة أشهر ، بينما يزيـــد مرتبي حالياً في سلاح المدفعية على المائتين والثلاثين روبلًا .

وأشفع عبارته بابتسامة وديعةٍ وجهها الى شينشين والكونت ، شأن الرجل الذي لايشك أبداً في أن خصوصياته لاتشكل أقصى رغبات أنداده من بني البشر .

عاد بعد فترة صمت يتابع حديثه قائلًا :

ـ أضف الى كل ما قلت أنني ، بانضمامي الى سلاح الحرس ، أكون مرموقاً ، وتكون المراكز الشاغرة اكثر حدوثاً مما هي عليه في سلاح المدفعية. ثم ألا، ترى يابيوترنيكولائيتش ، أنني ما كنت لأستطيع شيئاً بمائتين وثلاثين روبلًا لو كنت في سلاح الفرسان ؟ أما في وضعي الحاضر ، فإنني أدخر مرتبي بل وأرسل منه الى أبي .

ومن جديد انبعثت من فمه حلقات من الدخان راحت تتصاعد متلوية .

غمغم شينشين ، وهو ينقل مبسمه الى زاوية فمه الأخرى :

ـ وهكذا يتم التوازن ... ان المثل يقول إن الألماني ينسج الخز من سوق القمح .

وغمز بعينيه للكونت فانفجر هذا ضاحكاً. وهرع عدد آخر من المدعوين، اجتذبهم مرح شينشين وحماسه . أما بيرج فانـــه لم يعبأ بالسخرية ولا بفتور المستمعين ، بل ازداد انطلاقاً في حـديثه ، وراح يؤكد أن انتقاله الى سلاح الحرس أكسبه مرتبة تفوّق بها على أقرانه ، وانه في اوقات الحرب يكون قائد السرية شديد التعرض للخطر ، وبذلك تتاح له ـ هو بيرج ـ امكانية الارتقاء الى رتبة رئيس ، بوصفه أقدم ملازم في الفرقة .هذا الى جانب الحب الذي يتمتع به من كافـة افراد الفيلق ، ورضاء ابيه عن وضعه الحاضر . وكان بيرج ، وهو يصرح بكل هذه الأمور ، يشعر بمرح حقيقي وسرور شديد ، كانا يجعلانه مرتاباً في أن يكون للآخرين من بني الانسان اية مصالح غير مصالحه الخاصة . مع ذلك ، نقد كانت لهجته الرقيقة المتزنة ، بالاضافة الى انانيته الساذجة ، تخفف من غلواء المستمعين .

انزل شينشين قـدميه على الأرض ، وتناهض وهو يقول لبيرج مربتاً على كتفه :

ـ حسنا يافتاي الطيب ، هناك شيء واحد أثق به وأتأكد منه ، وهو انه بمقدورك ان تفتح لنفسك الطريق سواء كنت في المشاة او الخيالة .

فطفح وجه بيير بالسعادة ، بينما راح الكونت ومدعووه يغادرون المكتب للانتقال الى البهو .

بلغ المدعوون تلك الفترة التي تسبق اقتراب موعـد الطعام ، والتي جرت العادة على ان لايثيروا خلالها مناقشات طويلة ، بينما يحاولون التظاهر بأن سكوتهم وجمودهم ، لايرجعان الى لهفتهم على الانتظام حول المائدة . كان المضيفون ينظرون الى باب البهو ويتبادلون النظرات بين الحين والحين ، بينما يحاول المدعوون جاهدين معرفة سبب التأخير ، وهل مرده انتظار اصحاب الوليمة وصول قريب رفيع المقام ، أو تمهلهم ريثما ينضج لون معين من الطعام تأخر الطهاة في تحضيره .

دخل بيير في تلك اللحظة بالذات ، ومضى يجلس بتصرفـه الاخرق على مقعد في منتصف البهو ، معرقلاً بجلوسه عليه سير المدعوين وانتقالهم . حاولت الكونتيس ان تدخل معه في حديث ، لكنه اجاب على كل أسئلتها بكلمات صغيرة مقتضبه ، وهو يسرح حوله الطرف من وراء نظارتيه ، باحثاً بنظرة ساذجة عن شخص معين . فسبب تصرفه تشويشاً عاماً شعر به كل الحاضرين باستثنائه هو . كان جل المدعوين يتأملون بفضول ذلك الفتى الوديع ، ويتساءلون كيف استطاع متثاقل مثله ان يعتدي بالضرب على ضابط بوليس .

سألته الكونتيس .

ـ هل وصلت لتوك ؟

فأجابها ، وهو ينقب بأبصاره في زوايا البهو :

ـ آه ، نعم ياسيدتي .

ـ ألم تر زوجي بعد ؟

أجابها بابتسامة في غير موضعها :

ـ كلا ، ياسيدتي .

ـ لقد عدت من باريزعلى ما أعتقد ؟ انه لأمر مثير ، أليس كذلك ؟

ـ كل الاثارة .

فهمت آنّا ميخائيلوفنا من النظرة التي خصتها بها صديقتها ، انها تستنجد بها لتحل عقدة لسان هذا الشاب . فاقتربت من بيير وراحت تسأله عن ابيه . لكنها ـ كما كان حال الكونتيس ـ لم تظفر منه الا بأجوبة قصيرة مغمغمة . وكان المدعوون يثرثرون بينهم ، فيعلو لغطهم تارةً ، وينخفض اخرى . ويصغي المرء الى « آل رازوموفسكي ، ... لقد كان ذلك رائعاً ... انك ذات فضل . . . الكونتيس أبراكسين » تتردد على السنة المتحدثين . وفجأةً نهضت الكونتيس ، وانتقلت الى صالة الرقص .

سُمع صوتها وهي تسأل :

ـ ماري دميتريفنا ؟

وصوتاً آخر قوياً يجيب :

ـ هي بذاتها .

ودخلت ماري دميتريفنا الى البهو .

نهضت كل الشابات والسيدات ـ ما عدا المسنات منهن ـ لاستقبال القادمة . وقفت ماري دميتريفنا على عتبة الباب ،وراحت تشمل الحشد بنظرة مترفعة ، وهي تُسوي أكمامها بتؤدة ، وكأنها تريد حسرها عن ذراعيها . كانت ضخمة الجثة ، متينة التكوين ، يشمخ رأسها باعتداد واعتزاز بخصلات الشعر الأصهب التي تكلله .

قالت القادمة بصوت جهير خطير ساد على الضجيج المنبعث :

ـ عيداً سعيداً لسيدة الدار واولادها .

واردفت بالروسية التي لاتعرف لغةً سواها، تخاطب الكونت الذي كان يقبل يدها :

ـ وأنت ايها الفاسق العجوز ، إنك متبرم بالحياة في موسكو ، أليس كذلك ؟ إنك لاتجد كلاباً تضنيها بالصيد والقنص . لكنك ياصديقي لن تستطيع إلا تقبل الواقع ، لأن عصافيرك تنمو ـ وأشارت بيدها الى الفتيات الصغيرات ـ فإذا شئت ام ابيت ، فإنه يجب عليك ان تجد لهن ازواجاً ...

والتفتت الى ناتاشا التي كانت تقترب منها بجرأةٍ لتقبل يدها ، وقالت :

ـ باه ! أهذه أنت ، ايتها القوقازية ؟

وراحت تجري بيدها على شعرها ملاطفةً وهي تناديها بكلمة « قوقازيّة » ، التي درجت على اطلاقها عليها ، وأعقبت :

ـ انك ماجنة يافتاة ، لكن ذلك يرضيني .

واخرجت من حقيبة يدٍ ضخمةٍ قرطين ذهبيين مصنوعين على شكل أجاصة ، فأعطتهما لناتاشا التى طغى البشر على وجهها ، فأشرق واصطبغ بحمرة السرور والفرح . ثم استدارت تخاطب بيير مضفيةً على صوتها نبرة مرحةً لاتتفق مع لهجته :

ـ آه ، تعال هنا ايها الباسل ، تعال إلي ايها العزيز .

وشمرت عن أكمامها بحماسةٍ وحميةٍ وعادت تخاطب بيير ، الذي خطانحوها بضع خطوات وهو ينظر اليها ببراءةٍ خلال نظارتيه :

ـ إقترب، إقترب ، ايها الباسل القوي ! لقد كنت الوحيدة التي قالت لأبيك كل حقائقه عندما كان في أوج جبروته وسلطته ، فـــلا تنتظر مني ان ارتبك في حضرتك .

وصمتت صمتاً لم يجرؤ احد على قطعه ، لأن الموجودين ادركوا من سياق حديثها ان مافاهت به حتى الآن ليس الا استهلالاً له ما بعده .

أردفت بسلاطتها تقول :

ـ ياللفتى الوديع ! لعمري إنه امر مخجل ... إن اباه على فراش الموت ، والسيد يلهو ويعبث ، ويتسلى بشد وثاق ضباط البوليس الى ظهور الدببة ... إنه مخجل ، يا فتاي ! مخجل . يستحسن ان تنخرط في الجندية .

وأدارت له ظهرها ، وقدمت ذراعها الى الكونت الذي كان يجد صعوبة في كتم ضحكته .

قالت مستطردة :

ـ حسناً ، لقد أزفت ساعة الطعام . ألا تعتقد ؟

سارت مع الكونت في الطليعة ، تتبعها الكونتيس متأبطة ذراع زعيم في الجيش ، وهو شخصية لها خطورتها لأن نيكولا كان سيلتحق بفيلقه تحت أمرته. وجاءت آنا ميخائيلوفنا برفقة شينشين ، وبيرج مع فيرا ، بينما كان نيكولا يرافق جولي كاراجين ، التي كانت مشرقة الوجه بالابتسام وتبعتها أزواج أخرى على طول قاعة الرقص . أما الاولاد ومعلموهم والمربيات ، فقد جاءوا في نهاية الرتل دون ترتيب ولاانسجام . وهرع الخدم وصدحت الموسيقى ، بينما أخذ المدعوون أمكنتهم وسط ضجيج المقاعد الذي أعقبه السكون . ولم تلبث أصوات الملاعق والسكاكين ولغط الحديث ان غطى اصوات الموسيقى وطغى على صوت خطوات الخدم الخفيفة ، وهم يهرعون في غدوهم ورواحهم . وفي الطرف الاقصى من المـــائدة ، جلست الكونتيس والى يمينها ماري دميترييفنا ، بينما جلست آنا ميخائيلوفنا وبقية السيدات الى يسارها . اما في الجانب الآخر ، فقد كان الكونت قابعاً الى يسار الزعيم ويمين شينشين والرجال الأُخر . وكان الشبان

والفتيان الصغار يشغلون وسط المائدة ـ فيرا الى جانب بيرج وبيير الى جانب بوريس ـ بينما في الجانب الآخر ، احتشد الأطفال مع معلميهم ومربياتهم . وكان الكونت لايفتأ يملأ أقداح جيرانه بالأنبذة ، دون ان ينسى نصيبه منها ، وهو ينقل طرفه بين حين وآخر الى زوجته وقلنسوتها المرتفعة ذات الأشرطة الزرقاء السماوية ، التي تنعكس خلال زجاج الأواني البلورية المرتبةعلى المائدة . وكانت الكونتيس بدورها تلقي نظرات حافلة بشتى المعاني الى وجه زوجها عبر المائدة ، متخطية ثمار الأناناس ، دون ان تنسى واجباتها كمضيفة لبقة . كانت جمجمة زوجها ووجهه المتضرجين ، يبدوان لها متنافرين مع لون شعره الأشهب . وكانت الاصوات في ركن السيدات خافتة رتيبة ،على عكس ركن الرجال ، الذي كان النقاش فيه يحتدم أكثر فأكثر يعلو فيه بصورة خاصة صوت الزعيم الذي كان يشرب الأقداح دون مزج ، ويأكل بنهم وشهية اتخذهما الكونت أمثولة ظلب الى مدعويه الاحتذاء بها . وكان بيرج وعلى فمه ابتسامة حانية يفسر لفيرا طبيعة الحب ، تلك العاطفة السماوية التي لاعلاقة لها بالارض . بينما كان بوريس يطلع صديقه الجديد بيير على أسماء المدعوين ، وهو يتبادل النظرات المختلسة مع ناتاشا الجالسة قبالته . وكان بيير يتفحص كل هذه الوجوه الجديدة ويتحدث قليلا ويأكل كثيراً ، حتى انه لم يستعبد من قائمة الطعام الحافلة ، الا لوناً واحداً فقط ، ولم يرفض لوناً من الخمر مما كان رئيس الخدم يقدمه من زجاجته الملفوفة بالمنشفة . فكان يصغي بغموض الى أسماء الأنبذة المقدمة : « دري مادير ، توكاي ، نبيذ الرين ، » الخ . . . وكان امام كل مدعو أربعة أقداح من البلور النقي ، تحمل شعار الكونت ، وقدأعدت لأربعة أنواع مختلفة من الخمور . فكان بيير يقدم لرئيس الخدم أول كأس تقع عليه يده ، فيملأها هذا له ، ليفرغها في جوفه بحبور واضح ، ويعود الى تصفح وجوه

المدعوين بنظرة تزداد التماعاً . وكانت ناتاشا - وهي تجلس قبالته - تنظر الى بوريس ، كما تنظر الفتيات في سن الثالثة عشر ، الى الشاب الذي يعتقدن أنهن يعشقنه ، والذي تبادلن معه قبلتهن الأولى . فكانت احدى تلك النظرات تهيم ضائعة لتتوقف على بيير ، الذي كان يحس برغبة في الضحك ، دون ان يدري له سبباً ، كلما وقع عليه نظر تلك الفتاة المنتعشة اليقظى بوجهها الناطق الضاحك.

وتشاء الظروف ان يكون نيكولا بعيدا عن سونيا ، يتحدث مع جولي كاراجين ، وعلى وجهه تلك الابتسامة المغتصبة . وعلى الرغم من ان سونيا كانت تتظاهر بالابتسام هي الأخرى فإن الغيرة كانت تنهشها ، فكانت تشحب وتحمر طوراً فطوراً ، وتحاول التقاط نتف من حديثهما . أما المربية فكانت تحضن الاطفال بنظرة قلقة ، وهي على استعداد للانقضاض على اي منهم ، اذا جرؤ على مقاومة رغبتها . وكان المعلم الألماني يحاول بمشقة كبيرة ان ينقش على لوح ذاكرته اسماء الأطعمة والخمور التي تقدم على المائدة ، ليتسنى له وصف كل ذلك بأدق تفاصيله في رسالته المقبلة التي سيرسلها الى ذويه في المانيا . فلما مرّ رئيس الخدم وراءه ، حاملا زجاجته الملفوفة بالمنشفة ، دون ان يصب في قدحه منها ، شعر بجرح في كرامته ، لأنه أسيء فهمه فهو ما كان يريد الخمر لارواء عطشه اولاشباع جشعه ، بل انه كان يود تذوق كل الانواع ، ارضاء لرغبة الاطلاع في نفسه وزيادة معلوماته !

الفصل التاسع عشر

حول المائدة

كان الحديث يزداد اضطراماً في زاوية الرجال على المائدة ، وكان الزعيم يؤكد ان الحرب قد أعلنت رسمياً في بيترسبورج ، وان نسخة من مرسوم اعلان الحرب قد أرسلت بالبريد الى حاكم موسكو العسكري ، وأنه اطلع على تلك النسخة بنفسه .

هتف شينشين :

- هل تستطيع ان تحدثني بالسبب الذي من أجله نعلن الحرب على بونابارت؟ أي شيطان أثيم يدفعنا الى اعلانها ؟ لقد اخمد من قبل ثورة النمسا ، وأخشى ان يكون دورنا قد حل .

استاء الزعيم - وهو ألماني طويل القامة متين البنيان مضرج الوجه، عسكري غيور ووطني - لمزاعم شينشين ، فأجابه قائلا بلكنة أجنبية ظاهرة على مخارج كلامه :

ـ لأي سبب ، ياسيدي العزيز ؟. ان الامبراطور يعرف السبب. انه يقول في بيانه : انه لايستطيع البقاء متفرجاً على الأخطار التي تهدد روسيا وتحيق بها ، وإن سلامة الامبراطورية وكرامتها وصحة التعاقد والارتباطات ...

وضغط على هذه الكلمة وكأنه يشير الى أنها تحوي على مفتاح السر ثم راح ـ بذاكرة الرجل الرسمي التي لاتخون ـ يتلو المقطع الاول من البيان :

« ... ورغبة الامبراطور المقررة في تحقيق السلم في أوربا على قواعد متينة ، دفعته الى ارسال جزء من الجيش خارج الحدود الروسية ، والارتباط بتعاقد جديد لينفذ رغباته وأهدافه . » وأضاف قائلاً :

ـ هذا هو السبب، ياسيدي العزيز ...

ونظر الى الكونت منتظرا موافقته على قوله وافرغ قدحه في جوفه بأسى .

أجاب شينشين ، وهو يعجو وجهه :

ـ هل تعرف المثل القائل : « من الخير ان يعنى المرء « بملفوفه » على ان يصاب بالنوائب والمحن » ؟ ان هذا المثل ينطبق علينا انطباقاً كلياً . لقد كان سوفوروف[1] جبارا قوياً ، مع ذلك فقد هزم هزيمة نكراء . فأين نحن الآن من سوفوروف ، وأين مثله بيننا ؟ انني أتساءل وأسألك الجواب .

كان شينشين كعادته يقفز من الفرنسية الى الروسية وبالعكس . أجابه الزعيم ،وهو يضرب المائدة بيده :

ـ ينبغي ان نحارب حتى آخر نقطة من دمائنا ، وان نموت في سبيل امبراطورنا اذا اقتضى الأمر ، وأن نناقش الأمور على أضيق مدى ممكن .

---

(١) الكسندر سوفوروف ، أوسافاروف ، جنرال روسي ولد في موسكو عام ١٧٢٩ وتوفي عام ١٨٠٠ أخمد الثورة في البولونية عام ١٧٩٤ ، وحارب ضد جيوش الثورة في ايطاليا وحاز على انتصار حاسم في ماسيفا (زوريخ) . كان جنرالاً ماهرا ممتازاً لكنه كان ذا عقلية شاذة غريبة . ـ المترجم ـ

وضغط كذلك على المقطع الأخير ، وأردف مكرراً :

– نعم على أضيق مدى ممكن . . . وعندئذ سيسير كل شيء على مايرام، أليس كذلك ؟ .

وراحت عيناه تبحثان من جديد عن موافقة الكونت وتأييده . ثم استرسل قائلا :

– اننا معشر الجنود القدامى نفكر بمثل هذه العقليه فقط ! . . . فما رأيك أيها الجندي الشاب والفتى الغض ! . . .

كان السؤال الأخير موجهاً الى نيكولا الذي ما ان شعر بأنهم يتحدثون عن الحرب حتى أغفل صديقته واندفع ، بكل حواسه ، مصغياً الى مايدور من حديث حول هذا الموضوع . قال مجيباً على السؤال بحماس بيّن :

– انني من رأيك تماماً .

ثم أزاح الصحاف والاقداح من أمامه بجرأة الرجل الذي يتهدده خطر ماحق، وأضاف :

– نعم ، انني مقتنع بأن على الروس إما ان ينتصروا وإما ان يموتوا كراماً .

كانت العبارة الطنانة شديدة الوقع في ذلك الجو ، لكنه شعر بعد فوات الأوان أنها لاتنسجم مع الجو كمالاحظ المدعوون، لذلك فقد بان عليه الارتباك . فقالت جارته جولي تؤيده :

– ان ماقلته لرائع جميل !

أما سونيا ، فانها عندما سمعته يتكلم على ذلك النحو ، اقشعر جسمها وتضرج وجهها . حتى ان عنقها لم ينجح من تأثير القشعريرة ، وغدا أرجوانياً .

وكان بيير يصغي الى آراء الزعيم ، فأيده باشارة من رأسه وقال :

– انه لعمري رأي سديد ناضج .

بينما هتف الزعيم ، وهو يضرب المائدة بقوة وشدة فاقتا مابدر منه في المرة السالفة :

ـ انك جندي حقيقي، أيها الشاب !

غير ان صوت ماري دميتريفنا الخفيض ارتفع فجأة من الطرف الآخر للمائدة مجلجلاً. قالت تسأل العسكري الكبير :

ـ ماهذا الصخب ؟ لمَ تضرب على المائدة ؟ مع من تظن نفسك الآن ؟ هل تعتقد انك أمام الفرنسيين في هذه اللحظة ؟

فأجاب الزعيم باسماً :

ـ انني لاأقول غير الصدق .

وهتف بها الكونت من مكانه مفسراً :

ـ اننا كنا منهمكين في التحدث عن الحرب ، ياماري دميتريفنا . ذلك لأن ابني سيشترك فيها ، هل تفهمين ، ابني ، نعم نيكولا .

فأجابت ماري دميتريفنا بصوت بلغ طرف القاعة الأقصى دون ان ترفعه :

ـ وماذا في ذلك ؟ ان لي أربعة أولاد في الجيش . مع ذلك لست أبكي من أجلهم ، لأننا جميعاً بين يدي الله : فهنا يموت حي وهو على فراشه ، وهناك يحارب بعضهم دون ان يصاب بأي أذى ، وهكذا . . .

ـ لاشك ، لا شك . . .

وبعد هذا الفاصل ، عاد كل من الفريقين الى حديثه الخاص دون ان يعير مايقوله الآخر التفاتاً . وفي تلك اللحظة ، كانت ناتاشا تنظر الى أخيها متحدية وهو يقول لها :

ـ لن تجرؤي على ذلك السؤال . كلا لن تجرؤي . . .

وكانت تجيبه مصرة معتدة بنفسها :

ــ بل اجرؤ !

وأشرق وجهها بتصميم جريء عات . فنهضت وألقت نظرة على بيير تدعوه للاصغاء الى ماستقول ، ثم التفت الى أمها وقالت بصوتها الصبياني ، محاولة اجتذاب انتباه أمها والسامعين :

ــ أماه !

فسألتها الكونتيس مذعورة :

ــ ماذا هناك ؟

لكنها لما قرأت على وجه ابنتها بوادر محاولة ماكرة خبيثة ، نظرت اليها بصرامة ودعتها الى الصمت بحركة من يدها . وأعقب ذلك صمت . لكن الصغيرة لم تلبث ان انطلقت تسألها بلهجة حازمة وكلمات متلاحقة :

ــ أماه ، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام ؟

لم تجد الكونتيس مبرراً للغضب ، بينما رفعت ماري دميتريفنا إصبعها مهددة وقالت مغمغمة :

ــ حاذري يا « قوقازية » ، إهدئي !

وراح المدعوون ينظرون الى الوالدين وموقفهم من سؤال ابنتهم ليتصرفوا بما يتناسب والمقام . فان غضبا أظهروا استياءهم ، والا ابتسموا مبتهجين .

فقالت الكونتيس :

ــ انتظري برهة !

ازداد صوت ناتاشا ارتفاعاً وقد تأكدت من ان رعونتها هذه لن تسبب لها أي عقاب :

ــ أماه ، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام ؟

كان بيتيا الضخم وسونيا لايكادان يكبتان ضحكتهما . اما ناتاشا فقد قالت لأخيها مباهية ، وهي تطيل التحديق في وجه بيير :

ـــ ها قد سألتها !

قالت ماري دميتريفنا مجيبة :

ـــ ستقدم « البوظة » ، لكنك لن تطعمي منها .

ولما كانت ناتاشا متأكدة من انها لن تعاقب ، تجرأت على الصمود أمام « التنين » بالذات . قالت :

ـــ أية « بوظة » ، ياماري دميتريفنا ؟ انني لاأحبها مع الفانيليا !

ـــ بل ستكون بالجزر !!

فصاحت العابثة بصوت أقرب الى الصراخ :

ـــ غير صحيح ! أي نوع من « البوظة »، ياماري دميتريفنا ؟ اي نوع ؟اريد ان اعرف . . .

فانفجر السامعون بالضحك اعتباراً من ماري دميتريفنا نفسها ، وحتى الكونتيس ، التي كبتت ما في نفسها . ولم يكن جواب « التنين المرعب » هو الذي اثار تلك العاصفة الهوجاء من الضحك ، بل كانت جرأة الفتاة الخبيثة التي عرفت كيف تصمد أمام « التنين » في غير وجل ، هي السبب .

ولما أبلغت ان « البوظة » ستكون بالآناناس ، تظاهرت ناتاشا بالرضى . وطاف الخدم بالشمبانيا قبل تقديم « البوظة » ، وعزفت الموسيقى « بشرفاً » آخر ، فمضى الكونت الى زوجته يعانقها ، فجدد المدعوون تمنياتهم بمناسبة ذلك العيد ، وقُرعت الأكؤس ، وشُربت الأنخاب ، انخاب الكونتيس والكونت واولادهما . ثم عاد الخدم الى النشاط ، وعلا صخب المقاعد وارتفعت جلبتها ، وغادر المدعوون قاعة المائدة بالترتيب الذي نهجوا عليه عند دخولهم ، مع فارق واحد : وهو ان وجوههم كانت متضرجة من اثر الخمر الجيدة المعتقة . وانتقلوا الى البهو الكبير حيث مكث فيه الذين كانوا فيه من قبل ، بينا قصد الرجال الى مكتب الكونت ليعودوا الى أحاديث ما قبل الطعام .

الفصل العشرون

(آلام العشاق)

نصبت موائد لعب الورق ونظمت الجماعات ، وانقسم الموجودون بين اللهو والمخادع والمكتبة .

كان الكونت يمسك بالاوراق في يده على شكل مروحة ، ويغالب النعاس الذي تسلط عليه ، بحكم اعتياده على النوم بعد الطعام . واجتذبت الكونتيس الشباب والشابات الى الارغن « والبيانو » . فمضت جولي ، استجابة للرغبة العامة ، تعزف على الارغن قطعة متنوعات ، ثم اتحدت مع الشابات ووجهن جميعاً دعوتهن الى ناتاشا ونيكولا ، ليشتركا في غناء قطعة ما ، نظراً لما عرف عنهما من ميلهما للموسيقى ، وموهبتهما الطبيعية في هـذا المضمار .

شعرت ناتاشا بالاعتداد والفخار لأنها عوملت معاملة الاشخاص الكبار ، ودعيت للغناء بالاجماع ، لكنها مع ذلك أحست بشيء من الارتباك .

سألت :

ـ ماذا سنغني ؟

فأجابها نيكولا :

ـ أغنية « النبع » .

ـ حسناً ، لنشرع . تعال يابوريس الى هنا ... لكن اين سونيا ؟

ولما رأت ناتاشا ان صديقتها اختفت ، هرعت تبحث عنها . فلما لم تعثر عليها في غرفتها ولا في غرفة الاولاد، اعتقدت ناتاشا انها ولاشك مختفية فوق الصندوق في الممشى . لقد جرت عادة فتيات آل روستوف الصغيرات على الانزواء فوق ذلك الصندوق ، كلما اردن ان ينفثن عن صدورهن . وقد صدق حدسها ، إذ ان سونيا ، دون اعتبار ما قد يصيب ثوبها الجميل الرقيق الوردي من أذى ، كانت مستلقية على صدرها على فراش من الزغب ، مخطط قذر ، عائد للمربية ، وموضوع فوق ذلك الصندوق ، وقد دفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي بكاء مراً ، اهتزت له كتفاها الدقيقتان العاريتان . تخلت ناتاشا عن بهجة العيد التي كانت فائضة على وجهها ، والتي لم تبارحها طيلة ذلك النهار ، وشخصت ابصارها ، وسرت رعشة في جسدها ، وهبطت زاويتا فمها . هتفت :

ـ سونيا ، ماذا بك ؟ ... ماذا حدث بالله ؟ ... هي ، هي ، هي !

وانقلبت سحنتها ، وتشوه فمها الكبير ، تبعاً للتقلص الذي اعترى وجهها ، فبدت شديدة البشاعة ، وراحت تنتحب بدورها كطفل صغير ، دون اي سبب ، الا لأن صديقتها تبكي . ودت سونيا ان ترفع رأسها لتجيب على سؤال صديقتها، لكنها لم تجـــد القوة الكافية على ذلك ، فراحت تزيد في البكاء ممعنة في اخفاء وجهها . جلست ناتاشا وهي باكية ايضاً على الفراش الازرق ، واخـــذت صديقتها بين ذراعيهـــا . واخيراً ، استعادت سونيا بعض شجاعتها ، فتناهضت

وراحت تمسح دموعها في غير عناية ، استعداداً لشرح مايحزنها . قالت :

ـ ان نيقولا سيذهب بعد ثمانية ايام . . . لقد تلقى امر المسير العائد اليه . . . لقد حدثني بذلك . . . لكنني لست ابكي من اجل هذا ، ولكن . . .

ـ وابرزت لها ورقة كانت تخفيها في يدها ، عرفت ناتاشا من النظرة الاولى انها تحوي على الابيات التي كتبها نيكولا بعد ان نظمها متغزلاً بسونيا ـ لكنك لاتستطعين ابداً . . . بل لايستطيع احد ان يدرك مبلغ نبل نفسه !

ولما تذكرت تلك النفس النبيلة عادت الى البكاء من جديد . اردفت بعد لأي :

ـ انك سعيد انت . . . ولست اشعر بالغيرة منك . . . انني احبك وبوريس حباً جماً ، وهو لطيف ، ولا شيء يعترض زواجكما . . . اما نيكولا ، فهو ابن عمي . . . وينبغي لنا الحصول على اذن خاص من الاسقف اذا اردنا الزواج . . . وهو يستطيع ان يرفض اعطاءنا الاذن الخاص . . . ثم اذا تحدث بعضهم الى امي ، ـ وكانت سونيا تعتبر الكونتيس اماً لها وتدعوها كذلك ـ فانها ستقول انني احطم مستقبل نيكولا ، وانني عديمة الشعور ناكرة الجميل . . . مع ذلك ، يشهد الله ـ ورسمت اشارة الصليب على صدرها ـ على انني احب ماما واحبكم جميعاً . . . غير ان فيرا . . . ولكن لماذا ؟ ماذا عملت لها ؟ انني شديدة الاعتراف بجميلكم جميعاً حتى انني على استعداد للتضحية بكل شيء من اجلكم ، لكن ليس لدي شيء . . .

وأرتج عليها ، فأخفت وجهها من جديد بين راحتيها وعادت الى الفراش تلتجىء اليه . فراحت ناتاشا تعزيها أجمل عزاء ، غير ان وجهها كان ساهماً ينبىء بأنها تفهم أحزان صديقتها على الوجه الصحيح :

هتفت فجأة ، وكأنها اكتشفت سبب حزن ابنة عمها :

– سونيا ! لقد تحدثت فيرا معك بعد الطعام ، أليس كذلك ؟

– نعم . . . ان هذه الأبيات كتبها نيكولا بيده ، وقد نسخت بنفسي أبياتاً اخرى . وقد وجدتها على طاولتي ، فقالت انها ستعطيها « لماما » . . ثم قالت لي انني عاقة وان ماما لن توافق أبداً على زواجنا وإنه سيتزوج جولي . ألم تري أنه كان يغازلها طيلة النهار ؟ . . . ناتاشا ، لمَ تعذبني على هذا الشكل ؟

وعاد اليها البكاء على أشده . فأنهضتها ناتاشا وأحاطتها بذراعها وهي تبتسم خلال دموعها ، وراحت تعمل على تهدئة خاطرها .

– لاتصدقيها ياعزيزتي سونيا ، لاتصدقيها . تذكري حديثنا مع نيكولا في المخدع . . . هل تذكرين ، ذات مساء بعد العشاء ؟ لقد قررنا آنذاك كيف ينبغي ان نتصرف في الأمـــر ليتحقق لنا المستقبل المنشود . لقد نسيت التفاصيل ، لكن كل شيء سيسير وفق ما اتفقنا عليه . أتذكرين ؟ ان أخـا العم شينشين قد تزوج ابنة عمه لأبيه . ونحن ، إننا جميعاً تابعين لهذا التسلسل العائلي . ان بوريس يقول ان كل شيء سهل ميسور . . . لقـد حدثته بكل شيء كماتعلمين . . . انه لطيف جداً وذكي جداً . . . هيا ، ياسونيا ، لاتبكي ياعزيزتي ، ياحبيبتي . – وعانقتها وهي تضحك – . ان فيرا خبيثة ، فلا تصغي اليها . لن تقول شيئاً « لماما » ، وسوف نسوي كل شيء . ان نيكولا هـو الذي سيتحدث الى ماما ، تأكدي من ذلك ولا تفكري قط في جولي .

وقبلت جبينها ، فنهضت سونيا ، وعادت الحياة الى القطة الصغيرة فالتمعت عيناها ، وبدت على أهبة للقفز على أوجلها المرنة ، وللعب بكرة الصوف ، والبصبصة بذيلها ، وبكلمة موجزة ، بدت القطة الصغيرة مستعدة للعودة الى طبيعتها المرحة .

قالت سونيا ،وهي تسوي ما فسد من زينتها وشعرها بسرعة :

– أتعتقدين ذلك ؟ حقاً ؟ كلام شرف ؟

فأ كدت ناتاشا قائـــلة، وهي تسوي خصلة من الشعر أفلتت من ضفيرة ابنة عمها :

– كلام شرف !

وراحتا تضحكان بمرح ...

– والآن ، هيا بنا نغني « النبع » .

– هيا بنا .

لكن ناتاشا توقفت فجأة ، وقالت :

– أتعرفين ، ان هذا الضخم بيير ، الذي كان جالساً قبالتي على المـائدة ، يبد وغريباً مضحكا . انني أتسلى بالنظر اليه !

وراحت تجري في الممشى ، واندفعت سونيـا على آثارها بعد ان نزعت الزغب العالق بثوبها وأودعت في صدرها الضامر الهزيل الورقة الحاوية على الابيات الشعرية . تبعت ناتاشا نشيطة ، خفيفة الحركة ، فلحقت بهـــا قبل ان تغادر الممشى .

غنى الشبان والشابات الاربعة أغنية « النبع » بناء على طلب المدعوين ، فصفقوا لهم طويلا . ثم غنى نيكولا وحده قصيدة كان قد تعلمها حديثاً :

عندما يلمع القمر في السماء الصافية

يفكر العاشق الحزين بقلق :

لابد من وجود مخلوقة على الارض .

يستجيب قلبها لنداء أشواقي ،

وعلى أرغنها المرتعش ،

تمرر أصابعها المرتعدة ،

وتدعوني بحب مدنف ،
وهي مستعدة لاستجابة رغباتي الملتهبة .
وبعد انتظار يوم او اثنين
سيفتح النعيم أبوابه . . .
أسفاً ! ان أملك خائب ،
وصديقك المسكين لن يكون بعد في الوجود !

لم يكن قد انتهى من أغنيته بعد ، حتى كان الشبان في القاعة الكبرى يتأهبون للرقص ، وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يضبطون الايقاع بأقدامهم استعداداً للشروع في العزف .

خلال ذلك ، كان شينشين في البهو داخلا مع بيير في بحث سياسي عميق أضحى بعد ذلك بحثاً عاماً . كان شينشين يرغب في استطلاع رأي شاب ناشىء تثقف خارج البلاد وعاد اليها بمعلومات جديدة . وكان بيير متضايقاً في مجلسه يتوق الى التخلص من ذلك الجو المقبض . وما ان عزفت الموسيقى المقاطع الأولى ، حتى دخلت ناتاشا واتجهت نحوه مباشرة .

قالت الفتاة ضاحكة :

– لقد أوعزت إلي أمي ان أستبقيك للرقص .

فنهض بيير ، وقد تضرج وجهه حتى حاكى حمره وجهها وأجاب :

– انني أخشى ان أفسد الحركات الراقصة ، لكنني أقبل اذا وافقت على ان تكوني أستاذتي . . .

واضطر الى الانحناء ليستطيع اعطاء ذراعه القوية الى الفتاة النحيلة الصغيرة.

استمر بيير يرافق فارسته طيلة الوقت الذى لبثت الفرقة الموسيقية تعزف خلاله. وكانت ناتاشا تكاد ان تطير فرحاً ، لأنها كانت تراقص « شابا حقيقياً »

عاد منذ قليل وقت من « الخارج » ، فكانت تحاكيه في حركاته ، وترافقه على مرأى من الموجودين ، وكأنها سيدة كبيرة ! ولما أعطتها احدى الآنسات مروحتها على سبيل الاعارة راحت تستعملها وفق أحدث الأساليب الاجتماعية الراقية – دون ان يعرف أين ومتى تعلمت تلك الأساليب – وهي تبسم لبيير من ورائها ، وتتحدث معه على احسن ما يكون الحديث من الجد .

وصدف ان كانت الكونتيس روستوف تجتاز القاعة في تلك اللحظة ، فقالت تشير الى ابنتها :

– ولكن ماهذا ؟ انظروا الى هذه !

فأجابت الفتاة ، وقد تصعد الدم الى وجهها :

– ثم ماذا ، ياأماه ؟ لمَ تسخرين مني ؟ أية غرابة تجدينها في مظهري ؟

وعندما عزفت الموسيقى رقصة الايقوسية الثالثة ، ارتفع من المكتب حيث كان الكونت يلعب الورق مع ماري دميتريفنا ، ضجيج مقاعد وجلبة خطوات اذ نهض الأشخاص المسنون ، ومعظم المدعوين من ذوي الحيثيات الذين شعروا بحاجتهم الى الحركة وترويض أطرافهم ، فأودعوا في جيوبهم نقودهم وحافظاتهم ، واتجهوا نحو قاعة الرقص على شكل رتل : كل فارس يرافق مراقصته . فجاء الكونت مع ماري دميتريفنا في الطليعة ، وهما على أحسن مزاج . ثنى الكونت ذراعه وقدمها بأدب جم الى مراقصته ، ونصب قامته واتخذ طابع المرح متصابياً . ولما انتهت الحركة التصويرية الأخيرة من تلك الرقصة ، صفق بيده وهتف مشيراً الى السدة ، محدثاً عازف الكمان الأول :

– هل تعرف « دانيللو كوبر » ، ياسيميون ؟

والدانيللو كوبر هي احدى الحركات التصويرية لرقصة انجليزية ، كان الكونت في شبابه يتعشقها ويميل الى رقصها دائماً . وقد امتازت هذه الرقصة

بسرعة الحركة ، ووجوب استعمال الخفة في التنقل. هتفت ناتاشا ، وهي تطلق ضحكة مدوية امتلأت القاعة بصداها ، وتنحني فيلامس رأسها المتوج بالشعر الجميل ركبتيها :

ـ انظر الى بابا !

نسيت تماماً وهي في سياق مرحها أنها تراقص « شاباً حقيقياً » .

والحقيقة ان كل الحاضرين ، راحوا ينظرون الى ذلك العجوز المرح ، الذي كان الى جانب مراقصته الضخمة ، التي تفوقه طولا ، ويبرز رأسها اعتباراً من العنق فوق هامته ، يكوّر ذراعيه ، ويضبط الايقاع ، فيهز كتفيه ، ويقرع الأرض بقدمه ، وعلى شفتيه ابتسامة مرحة تضفي على وجهه بهجة ومرحاً ، ملفتاً انتباه الحشد المتفرج الى المشهد الممتاز الذي هو في سبيل عرضه عليهم . فلما صدحت الموسيقى بمطلع الرقصة الرشيقة ، فتحت الأبواب كلها ، وأطلت منها وجوه مشرقة باسمة تتطلع بانتباه ولذة الى ذينك الراقصين . فكان الخدم والرجال من جهة ، والنساء من الجهة الأخرى ، يراقبون جميعهم الكونت وهو يعود الى أيام الصبا .

هتفت المربية الواقفة قرب أحد الأبواب :

ـ آه ، ان سيدنا نسر حقيقي ! .

كان الكونت يرقص برشاقة تثير الاعجاب ، وكان يعرف ذلك عن نفسه . أما الفارسة فكانت على عكس ذلك ، سيئة الحركة ، تفسد الرقصة دون ان تبالي بأخطائها . فكانت جثتها الضخمة الهائلة منتصبة ثابتة في مكانها ، وذراعاها الهائلتان منسدلتين بلا حراك الى جانبها بعد ان تخلصت إحداهما من الحقيبة الضخمة ، التي مافتئت تلازمها ، باعطائها الى الكونتيس . ولم يكن الا وجهها القاسي ، الذي يمتاز بجماله ، يتابع الرقصة بالبشر المنتشر على قسماته . فكانت ابتسامتها متسعة تكاد تشمل الوجه كله ، ورأسها مرتفع الى الوراء باعتداد

متشامخ . أما الكونت ، فكان على العكس يرقص بكل جسده الممتلىء . لكنه على الرغم من ان كل حركة من حركاتـــه . الرشيقة وخطواته المتزنة البديعة كانت تثير اعجاب المتفرجين ، فان أقل حركة او اهتزاز من كتفي ماري دميتريفنا أو قدميها ، كانت تحدث تأثيراً مماثلا في نفوس المتفرجين ، الذين كانوا سعداء لرؤيتها في ذلك الوضع ؛ تسخر جثتها الضخمة ، وتتساهل رغم صلابتها المعروفة . وكانت الرقصة تزداد حيوية ونشاطاً ، حتى ان الراقصين الآخرين ما كانوا يستطيعون اجتذاب انتباه أحد . وعلى الرغم من ان الكونت وماري دميتريفنا كانا محط أنظار الجميع ، فان ناتاشا كانت تتهافت على المدعوين واحداً تلو الآخر فتجذب هذا من كمه وتلك من ثوبها ، لتنبههم الى « البابا » وهو على حاله تلك وكان الكونت خلال فترات من الراحة يتنفس بصعوبة ، ويوحي للعازفين سواء بالاشارة أم بالقول ان يضاعفوا سرعة العزف ، الأمر الذي كان يزيده نشاطاً ومرونة واندفاعا ؛ فيدور تارة على رؤوس أقدامه ، وطوراً على كعبيه حول الراقصة البدينة . وأخيراً ، وبعد ان قادها الى مجلسها ، قام بالحركة الأخيرة ، بأن رفع ساقه المرنة الى الوراء ، معتمداً على ساقه الأخرى ، وانحنى حتى أصبح جسمه زاوية قائمة على ساقه ، ورسم بيـــده اليمنى دائرة متسعة انتزعت عاصفة من التصفيق والضحكات التي كان صوت ناتاشا واندفاعها يبرزان خلالها . وكان الراقصان المجدان على آخر رمق فتوقفا وراحا يجففان أيديهما ووجهيهما بمناديلهما الفاخرة .

قال الكونت :

— كذلك كنا نرقص من قبل ، ياعزيزتي .

فأجابت ماري دميتريفنا بعد ان استجمعت أنفاسها بصعوبة ، وراحت تحسر الأكمام عن ذراعيها :

— ذلك هو مايسمونه « دانيللو كوبر . »

الفصل الحادي والعشرون

(المؤامرة)

وبينما كان المدعوون يرقصون «الانجليزية» السادسة في منزل آل روستوف، وقد راح الموسيقيون يخطئون في الايقاع لشدة التعب ، والخدم والطهاة يهيئون العشاء ، اصيب الكونت بيزوخوف بنوبته السادسة . اعلن الاطباء ان الامل الاخير قد ضاع . لذلك فقد لجأوا الى اخذ اعتراف المريض « ومناولته » وهو فاقد الوعي ، وراحت الاستعدادات للمرحلة الاخيرة تتخذ ، وسط الطقوس الدينية المرعية . وسادت الفوضى الطبيعية في مثل هذه الظروف الفندق كله ، وهرع متعهدو الدفن الى الأبواب لاصطياد ذلك الصيد الثمين ، فراحوا يحاصرون مداخل الفندق ، ويختفون كلما وصلت عربة بعض السادة امام الباب . وجاء حاكم موسكو العسكري بنفسه يودع صفي كاترين الثانية العتيد الوداع الاخير ، بعد ان أقام مساعديه وحجابه في الفندق ، ليطلعونه أول فأول على أخبار المريض وتطوراته .

كانت قاعة الاستقبال الفخمة تعجّ بالناس . فلما خرج الحاكم العسكري من غرفة المريض ، بعد أن مكث مختلياً به نصف ساعة ، نهض الموجودون في قاعة الاستقبال متطلقين . لكن الحاكم مرّ بين المحتشدين متحاشياً الرد على تحياتهم ، وعلى أسئلة الاقارب والاطباء ورجال الدين . وكان الأمير بازيل ، الذي نحل وشحب خلال الايام الاخيرة ، يرافق الحاكم ويهمس في اذنه من حين الى آخر بكلمات معينة . ولما ودع الحاكم بعد ان شيعه الى الباب ، عاد الامير يجلس وحيداً في البهو ، وقد وضع ساقاً فوق ساق ، وأسند مرفقيه الى ركبتيه ، وأخذ رأسه بين يديه . ولم تمض برهة حتى نهض ، وسار بخطوات عصبية لم يسبق ان ظهرت في مشيته من قبل ، وهو يُلقي حوله نظرات ، قلقة فقطع الممشى الذي يفصل بين اجنحة المسكن وغرفه الداخلية ، ومضى الى مخدع كبرى الاميرات .

خلال ذلك كان الزاور يتحدثون باصوات خافتة في القاعة الكبرى ، التي كان يضيئها نور خفيف . ومن حين الى آخر ، كان الباب المؤدي الى غرفة المحتضر يُحدث صريراً خافتاً كلما فتح ليخرج منه بعضهم ، فتعود الآراء الى الاحتدام ، وترتفع الأبصار الى وجه الخارج بقلق واكتئاب .

قال عجوز يرتدي ثياب رجال الدين ، يخاطب سيدة بجانبه جلست تُصغي اليه ببراءة وسذاجة :

ــ ان لكل مخلوق أجلًا لايستطيع تجاوزه .

فسألت السيدة ، وهي تُضفي على اقوالها صبغة كنائسية :

ــ ألم يفت الوقت بعد لتلقينه الصلوات الأخيرة ؟

ولما كان يبدو على وجهها جهلها التام بما تقول ، اجاب رجل الكنيسة مغتماً

وهو يمر بيده على رأسه الأصلع ، الذى مازالت خصلات من الشعر مبعثرة في اطرافه :

ـــ ياسيدتي العزيزة ، انه طقس ديني كبير .

وفي الطرف الاقصى من الغرفة ، ارتفعت اصوات تقول :

ـــ من هو هذا ؟ ... الحاكم العسكري ؟... انه يبدو شاباً !

ـــ بل انه تخطى الستين ؟... يقال أن الكونت فقد القدرة على التعرف على الأشخاص . . سوف يلقونه الصلوات الاخيرة

ـــ إنني أعرف واحداً لُقن سبع مرات وعاش بعدها .

ـــ خرجت ثانية الأميرات من غرفة المحتضر ، وراحت تجلس قرب الطبيب لوران ، الذي كان متكئاً على تضد في جلسة مريحة ، تحت صورة كاترين الثانية .

أجاب على سؤال يدور حول الطقس طرحته الاميرة عليه

ـــ جميل جداً ياأميرة . جميل جداً . ان القاطن في موسكو يعتقد انه يعيش في الأرياف .

ـــ أليس كذلك ؟ ... هل نستطيع ان نعطيه مايشرب ؟

علت وجه لوران امارات التفكير . سألها :

ـــ هل أخذ جرعة الدواء

ـــ نعم

نظر لوران الى ساعته وقال :

ـــ خذي قدحاً من الماء المغلي ، وأضيفي اليه قليلا من المسحوق الذي أعطيته لك .

وأشفع قوله بحركة من ابهامه وسبابته، ليشير الى الكمية الضئيلة التي يجب ان تضعها في قدح الماء .

قال طبيب ألماني لأحد المساعدين العسكريين !

ـ لم يسبق مثيل لهذه البادره . اذ لم ينجح أحد بعد النوبة الثالثة ابداً .

فقال الضابط المساعد :

ـ لقد كان معنياً به عناية شديدة !

ثم أضاف هامساً :

ـ لمن ستؤول ثرواته ؟

فأجاب الألماني بلغته المحطمة الركيكة وهو يبتسم :

ـ لن ينقص الادعياء والراغبون فيها .

شخصت عيون الاثنين الى الباب الذي كان يصر من جـــديد ، وتابعت الابصار الأميرة ، وهي تحمل للمريض الوصفة التي اشار بها لوران . فاقترب الألماني من زميله الشهير وسأله بفرنسية تظهر فيها رطانة أجنبية مضحكة :

ـ هل يطول به الأمر حتى الغد ؟

فزم لوران شفتيه ، وراح يحرك سبابته أمام أنفه حركات سلبية ، وقال بتؤدة :

ـ كلا لن يتأخر اكثر من هذا المساء .

وأشفع رأيه الحاسم بابتسامة مهذبة مقنعة وابتعد .

كان الأمير بازيل يفتح الباب المؤدي الى غرفة الأميرة، وكانت هناك شمعتان تحترقان امام الصور المقدسة ، فتعطيان ضوءاً شاحباً خافتاً ، والمباخر والزهور تملأ الغرفة التي تتزاحم فيها الدواليب والمناضد والخزائن . وكان يُرى من وراء

ستر من القماش ، أطراف سرير مرتفع ذي فراش من الريش . فلما فتح الباب نبح كلبٌ صغير :

ــ آه ، أهذا انت ياابن عمي ؟

نهضت الأميرة وصقلت شعرها الذي جرت عادتها على ترجيله دون عقص ولا حزم ، حتى وكأنه ملتصق بفروة رأسها التصاقاً . سألته :

ــ ماذا هناك ؟ لقد أخفتني .

فأجاب الامير وهو يتهاوى على المقعد الذي بارحته الاميرة .

ــ لا شيء . لقد جئت لاتحدث معك بامور مهمة ياكاتيش . ورباه ان الحرارة عندك خانقة !... تعالي نجلس ونتحدث .

وكلمة كاتيش ، هي التحريف لتصغير كاترين على الطريقة الفرنسية. وكاترين هو اسم الاميرة الكبرى .

قالت الاميرة وهي تجلس قبالة الامير وعلى وجهها البارد برودة الصخر طابع من الجمود :

ــ لقد ظننت ان امراً قد وقع ... كنت اريد النوم قليلا يا ابن عمي ، لكنني لن أستطيع .

ــ حسناً وماذا بعد يا عزيزتي ؟

طرح الامير ذلك السؤال بعد ان استجاب لحركته الغريزية ، التي درج عليها كلما استغرق في التفكير العميق ، فأخذ يد الأميرة وأنزلها نحو الأرض . وكانت عبارته : « وماذا بعد ياعزيزتي » تحمل معان كثيرة، كان كلاهما يفهمها دون حاجة الى اعلانها واظهارها .

راحت الأميرة تحدُج الأمير بعينيها الكئيبتين ، بنظرةٍ خاليةٍ من المعاني

والتعابير ، وقد انتصب جذعها الأعجف، الذي يعوزه التناسق مع ساقيها القصيرتين . هزت برأسها وألقت نظرةً الى الصور المقدسة وزفرت . وكانت تلك الحركة تعني اما شدة الحزن ، واما الرغبة في راحةٍ تستحقها . غير أن الأمير اعتبرها دلالةً على التعب ، فقال مواسياً :

اتعتقدين بأن الحال ليست أليمة بالنسبة لي أيضاً ؟ . انني منهوك كحصان البريد . رغم ذلك ، يجب ان اتحدث معك حديثاً غايةً في الخطورة والأهمية .

صمت الأمير بازيل ، بينما أخذت وجنتاه تتشنجان دورياً تشنجات عصبية ، تُضفي على وجهه بشاعةً ونفوراً ، لم يسبق للمجتمعات الراقية أن شهدت مثلها عليه . كانت في عينيه تعبيرات غير معهودة فيها ، إذ كان الخوف يتنازع فيهما مع الوقاحة والعتو . وكانت الأمـــيرة تنظر بانتباه الى الامير بازيل ، وهي تربت على رأس كلبها الصغير ، الذي حملته على ركبتيها ، بيدين جافتين ناحلتين . بدا انها لن تقطع الصمت ولو دام يوماً كاملاً . لذلك اضطر الأمير بازيل ، بعد صراع داخلي مرير ، على الشروع في الحديث والبدء به . قال :

— إصغي الي ياأميرتي وابنة عمي العزيزة كاترين سيميونوفنا . ينبغي للمرء أن يفكر في كل شيء في ظروف كهذه . ينبغي التفكير في المستقبل وفيكن . . . انني احبكن جميعاً كما أحب أبنائي ، وأنت لاتجهلين ذلك .

لبثت الأميرة جامدة الوجه ، تتأمله بنظرتها القاتمة . بينما أردف الأمير دون أن ينظر الى وجهها ، بعد ان دفع نضداً صغيراً بحركة عصبية :

— وأخيراً ينبغي ان أفكر في اسرتي . انك تعرفين ، يا كاتيش ، أنك أنت وأختيك وزوجتي ، الوريثات الوحيدات المباشرات لثروة الكونت . انني اعرف أنه يصعب عليك البحث في كل هذا ، ويؤلمك مجرد التفكير فيه . ان ذلك هو

شعوري كذلك . غير أنني ياصديقي اقترب من الستين ،ويجب أن اكون مستعداً لكل شيء . هل تعرفين انني ارسلت في طلب بيير ؟ لقد اصر الكونت على احضاره وهو يشير الى صورته .

راح الكونت يستفسرها بعينيه دون أن يستطيع التأكد من أنها تفكر فعلاً فيما قاله لها ، أم انها تنظر اليه نظرة مجردة .

قالت تجيبه :

ـ انني لاأطلب الى الله يا ابن عمي إلا امراً واحداً ، وهو أن يشفق عليه ، ويمنح روحه الطاهرة سلامة التحرر من ...

فقال الامير فاقد الصبر ، وهو يمر بيده على رأسه الاصلع ، ويعيد النضد بانفعال الى مكانه الاول :

ــ نعم بلا شك. ولكن ... ولكن ، انك لاتجهلين ان الكونت حرّر وصية في الشتاء الأخير ، جعل بيير بموجبها الوريث الوحيد لكل ثرواته وأملاكه ، حارماً كل الورثة المباشرين الآخرين .

فقالت الأميرة ببرود :

ــ وصايا ، لقد حرّر أكثر من وصية ! لكنه ما استطاع اقامة بيير وريثاً شرعياً . ان بيير ولد طبيعي !

جذب الأمير بازيل النضد اليه ، وضغطه على صدره بشدة ، وراح يتحدث باندفاع وسرعة . قال :

ــ مارأيك ياعزيزتي اذا كان قد حرّر ملتمساً الى الامبراطور ؟ إن اقامة شرعية بنوة بيير ستمنح له ولا شك ، نظراً لخدماته الجليلة السابقة للعرش !

ابتسمت الاميرة ابتسامة الذي يعرف اكثر مما يظن المتحدثون، بينما استطرد الامير وهو يمسك بيدها قائلا :

– إنني محدثك بأكثر من ذلك. لقد حصل على تأييدجهات مسؤولة متعددة على ملتمسه ، لكنه لم يرسله بعد الى الامبراطور. غير ان جلالته أعلم بسير الأمور وبرغبة الكونت . والأمر الآن متوقف على معرفة مصير ذلك الملتمس ،وهل أبلغ الى الامبراطور أم أتلف . فإذا لم يكن قد اتلف بعد ، وقضي الأمر – وزفر زفرة ليصبغ على عبارة : « قضي الأمر » المعنى الذي يهدف اليه – واطلعوا على وصية الكونت وملتمسه بين اوراقه ، فإن رسالته سترفع الى الامبراطور حتما . وسينظر جلالته في طلب الكونت بعين الاعتبار ، ويؤيد شرعية انتساب بيير الى الكونت ، فيصبح عندئذ الوريث الأوحد .

سألت الأميرة التي كانت ضحكتها تنبىء بأنها تصدق كل شيء إلا هذا :

– والقسم الذي يعود الينا ؟

– ولكن يا « كاتيشتي » المسكينة ، إن ذلك واضح وضح النهار . إنه سيصبح الوريث الشرعي ، فلا يمكن أن تنالي شيئاً . فابحثي إذن عما إذا كانت الوصية والرسالة قد كتبتا ، واذا كانتا قد أتلفتا أم لا . فإذا كانتا منسيتين في مكان ما،لسبب من الأسباب ، فيجب اكتشاف مكانهما مهما كلف الأمر لأن ...

فقاطعته الأميرة بابتسامة ساخرة،دون أن تتبدل نظرتها الجامدة،وصاحت :

– هراء ! انني امرأة وأنت تعتقد أن كل النساء سخيفات مع ذلك ، فإن لي من العقل ما يكفي لاقناعي بأن الابن غير الشرعي لا يمكن أن يرث . . . إنه ابن سفاح .

أرادت بهذه الكلمة أن تبين للأمير حقيقة بيير ، لتثبت له فساد نظريته . غير ان الأمير لم يقتنع . قال يناقشها :

ـ ولكن يا كاتيش ، كيف لا تفهمين ،رغم ذكائك المتقد ، أن الكونت إذا منح اذناً يسمح له باعتبار بيير ابناً شرعياً له ، فان هـذا يصبح على الفور كونت بيزوخوف ، والوريث الأوحـــد ! . . فإذا كانت الوصية والرسالة سليمتين لم تتلفا ، لن يبقى لك إلا أن تعزي نفسك بأنك قمت بواجبك حيال الكونت قبل وفاته ، الى آخر ماهنالك . ان ذلك واضح .

قالت الأميرة ، بتلك اللهجة التي تعمد اليها النساء عندما يتعمدن ابراز شيء يعتقدن ان فيه مايشير الى الذكاء المفرط او يتعمدن تجريح الشخص المخاطب به :

ـ انني أعرف انه حرر وصية . لكني أعرف كذلك ان تلك الوصيـــة لا قيمة لها . فهل تعتقد انني حمقاء، ياابن عمي ؟

استطرد الأمير بلهجة منكدة :

ـ ياعزيزتي كاترين سيميونوفنا المحبوبة ، اذا كنت قد جئت للقائك ، فانني لم اهدف الى مبارزتك بالفكر والدهاء والخدع، بل لأتحدث اليك عن مصالحك كما يتحدث المرء مع احدى قريباته ، مع قريبة حقيقية طيبة ممتازة. انني أكرر لك للمرة العاشرة ياعزيزتي ، انه اذا كان الملتمس الموجه للامبراطور ، ووصية الكونت لصالح بيير ، موجودين بين اوراقه ، فانك لا أنت ولا شقيقاتك يمكنكن أن تعتمدن على الارث . واذا كنت لا تصدقينني ، يمكنك السؤال من الأشخاص المختصين المسؤولين. لقدتحدثت منذ حين الى ديمتري اونوويثيتش ـ وهو محامي الكونت ـ ، وقد أيد رأيي بكليته .

ولعل افكار الأميرة اتجهت فجأة وجهة جديدة ، اذ امتقعت شفتاهـــا الرقيقتان ، رغم تلك النظرة الثابتة التي لم تبارح عينيها الشاخصتين. فلماتحدثت ، كان لصوتها وقع أدهشها ـ قبل غيرها ـ ما اعتراه من تأثر .

قالت :

ـ سيكون الامر على خير مايرام ، انني لم أحلم بشيء ولاأحلم قط بشيء.
ثم أبعدت الكلب الصغير من حجرها وراحت تسوي ثنيات ثوبها .أردفت:
ـ هذه هي اذاً مكافأته لاولئك الذين ضحوا بكل شيء من اجله . لابأس .
ان هذا رائع . لست في حاجة الى شيء ، ياأمير .

فاعترض الامير بازيل على قولها ، دون ان تتنازل بالاصغاء اليه :

ـ لكنك لست وحيدة . هناك اخواتك .

ـ كان ينبغي ان اعرف من قبل انني لن احصد في هذا البيت إلاالدناءة والحسد والرياء والشغب والعقوق . نعم ، اسوأ أنواع العقوق.

سألها الامير ، وقد عادت التشجنات العصبية إلى وجنتيه ، أقوى من المرة السابقة :

ـ هل تعرفين مكان الوصية ؟

ـ آه ، كم كنت حمقاء ! يالها من حماقة ان يستسلم المرء للناس ، ويحبهم ويضحي بنفسه من أجلهم ! ان النفوس الدنيئة وحدها ، هي التي تنجح في هذه الحياة . انني اعرف مصدر هذه المزعجات .

ارادت ان تنهض ، غير ان الأمير استبقاها ، فألقت عليه نظرة غضبى ، وبدا على وجهها انها تخلت عن كل حسن ظنها في الجنس البشري .

ـ لم نخسر شيئاً بعد، ياصديقتي. انك تذكرين، ياكاتيش، ان كل ذلك وقع على حين غرة ، في لحظة من لحظات الغضب ، وتحت تأثير المرض ، ثم اهمل كل شيء ونسي . وواجبنا ياعزيزتي هو تصحيح هذه الخطيئة ، وتخفيف عذاب ساعته الأخيرة ، بأن نسمح له بابطال هذه الظلامة ، وان لاندعه يموت وهو يفكر في انه تسبب في آلام الناس وتعاستهم . . .

فاعقبت كاتيش متممة حديثه :

ـ الناس الذين صخوا بكل شيء من اجله . . .

وحاولت النهوض من جديد ، فعاد الأمير يستوقفها مرة اخرى . اردفت وهي تزفر متلوعة :

ـ وهذا هو الأمر الذي لم يقدره حق قدره ابداً . . .

ثم اضافت :

ـ حسناً يا ابن عمي ، ان هذا يعلمني بأنه ليس في هذا العالم مجال لانتظار المكافآت ، بعد ان حرم العالم من الشرف والعدل . ان هذا العالم الدنيء ملك للأوباش والخبثاء :

ـ هيا هدئي روعك . انني اعرف قلبك الطيب :

ـ آه ، كلا انني لست طيبة

كرر الأمير :

ـ انني اعرف قلبك الطيب ، وأقدر صداقتك ، وارجو ان تبادليني هذا الشعور الطيب . إهدائي ولنتحدث بتعقل ، طالما ان الوقت لم يدركنا بعد . اذ لعل امامنا يوماً كاملاً وقد تكون ساعة واحدة . حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية . اذكري لي أين هي ، اذ ينبغي ان تكوني على علم بذلك. سوف نطلع الكونت عليها . لعله يكون قد نسيها ، فيبدي رغبة في اتلافها . اعلمي جيداً ان رغبتي الصحيحة هي تنفيذ ارادته بكل امانة واخلاص ، ومن اجل ذلك جئت الى هنا ؛ لقد اتيت لأساعدك وأساعده معاً !

ـ انني افهم كل شيء الآن . انني ارى الجهة التي تسببت بكل هـــذه المضايقات ، نعم انني ارى بوضوح .

ـ لكن الأمر لا يتعلق بذلك، ياعزيزتي.

– انها محميتك ، عزيزتك الأميرة دروبيتسكوي ، تلك المخلوقة اللعينة ،تلك المرأة الذرية التي لاأرتضي بمثلها وصيفة لي ...

– إننا نضيع الوقت عبثاً ...

– آه ، دعك من هذا ! لقد تسللت الى هنا في الشتاء المنصرم، وروت للكونت عنا جميعنا أكاذيب مروعة – وبصورة خاصة عن صوفي، حتى انني أخجل من إعادة اقوالها . فنجم عن ذلك أنه رفض رؤيتنا خلال مرضه ، ولبث يبعدنا عنه خمسة عشر يوماً . إنني واثقة من انه كتب تلك الوصية البغيضة الجائرة في تلك اللحظة . ولقد ظننت بكل سخف انها لاقيمة لها !

– ها قد وصلنا الى النقطة الهامة . لمَ لمْ تحدثيني بهذا الامر من قبل ؟

– إن الوصية في حافظة أوراق جلدية ، مع تعليمات اخرى . والحافظة موضوعة تحت وسادته .

وأعقبت الأميرة متغاضية عن الرّد على سؤال الأمير :

– إنني الآن أرى الأمر بوضوح .

ثم صرخت مُخنقةً وقد خرجت عن طورها :

– إنني اذا كنت اعترف بخطيئة احمل وزرها ، فإن خطيئتي الوحيدة ستكون الحقد الذي احمله لتلك الحقيرة . ماذا تفعل هنا ؟ لمَ تدخلْ الى هذا المكان ؟ انني اسألك ! ولكن صبراً ، سوف اقول لها رأيي فيها ، ولن اتحدث بصوت خفيض !

الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرونَ

(آنا ميخائيلوفنا)

بينما كانت تلك الاحاديث تدور والمؤامرات تحاك في قاعـــة الاستقبال وغرفة الاميرة في فندق الكونت بيزوخوف ، كانت عربـة بيير التي أرسلت لنقله تقله ويصحبته آنّا ميخائيلوفنا ، التي قررت مرافقته ، واعتبرت ذهابها معه ذا منفعة لها . دخلت العربة فناء الفندق ، ومرت عـلى الطريق المفروش بالتبن ، فخفت ضجيج عجلاتها . ولاحظت آنا ميخائيلوفنا أن رفيقهـــا الذي كانت تتوجه اليه بعبارات التعزية نائم في زاويته ، فأيقظته وترجلت من العربة بصحبته . ولما صحا بيير واستعاد حواسه ، راح يفكر للمرة الاولى في المقابلة التي ستتم بينه وبين المحتضر . لاحظ ان العربة وقفت امام سلم الخدم بدلا من وقوفها امام المدخل العام . ولما ترجل منها بدوره ، لاحظ ان رجلين في ثياب مدنية اختفيا مسرعين في ظلال الجدار . فتوقف لحظة ، اتاحت له ان يرى عدداً آخر من الرجال ، مختبئين في فراغات الابواب وخلف الاعمدة . غير انه

لم يعرهم التفاتا او انتباها ، أسوة برفيقته آنا ميخائيلوفنا وبالخـادم المرافق . وشعر الرجال المختفون كذلك بلا مبالاة القادمين ، فسهل ذلك مهمتهم الى حد كبير . تبع بيير رفيقته التي كانت ترتقي بمرونة السلم الحجري الضيق ، الذي ينيره نور خافت ، وهي تحثه على الاسراع باللحاق بها . وعلى الرغم من ان بيير لم يفهم السبب الذي من أجله كان يذهب لمقابلة المحتضر ، ولا الداعي لدخوله عن طريق سلم الخدم ، فإنه قدر ان لهفة آنا ميخائيلوفنا وثباتها كانا كافيين لكي « يكون الامر ضروريا ». ولما بلغ منتصف السلم ، كاد ان يسقط متدحرجاً الى الأسفل ، لاصطدامه بأشخاص يحملون دلاء ، كانوا ينزلون السلالم بضجيج وصخب ، تحدثهما احذيتهم العالية . التصق هؤلاء بالجدار ليسمحوا له ولرفيقته بالمرور ، دون ان تعبر وجوههم عن اية دهشة ، لالتقائهم بالسادة على سلم الخدم .

سألت آنا ميخائيلوفنا أحدهم :

— هل يقود هذا السلم الى شقة الاميرات ؟

فأجاب الخادم بصوت مرتفع ولهجة قوية ، وكأن المحاذير التي كانت تضطره الى خفض صوته قد انعدمت :

— نعم . إن الباب الأيسر يقود الى جناح الاميرات ، ياسيدتي الطيبة .

ولما وصلا الى البسطة ، قال بيير متسائلاً :

— لعل الكونت لم يستدعني . ماذا لو قصدت الى غرفتي تواً ؟

توقفت انا ميخائيلوفنا لتسمح لبيير باللحاق بها ، وقالت وهي تلمس ذراعه كما فعلت منذ ساعات مع ابنها :

— أواه ، ياصديقي ! ثق انني أتألم مثلك . ولكن كن رجلا .

فقال بيير ، وهو ينظر اليها بوداعة خلال نظارتيه :

ـ الحقيقة انني احسن صنعاً بالذهاب الى غرفتي والانسحاب فوراً .

ـ آه ياصديقي ، إنسَ الاساءات التي وقعت لك حتى الآن ، واذكر انه ابوك ... ولعله في النزع ـ وأطلقت زفرة ـ لقداحببتك لفوري كما احب ابني . فثق بي يابيير ، ولن انسى مصالحك .

لم يفقه بيير شيئاً من مرميات حديثها ، غير انه ازداد قناعة بأن الأمر « ينبغي ان يكون كذلك » . تبعهابدعة ، وكانت قد شرعت تفتح الباب .

كان الباب يؤدي الى ردهة ، وقف في احدى زواياها خادم الأميرات العجوز ، ينسج جورباً من الصوف . لم يكن بيير قد دخل من قبل هذاالجزء من الفندق ، او فكر في وجوده . وظهرت وصيفة تحمل زجاجة ماء على طبق . فتقدمت آنا ميخائيلوفنا منها ، وسألتها عن غايتها ، وهي تكرر عبارات : «ايتها الطيبة ، وعزيزتي » . استفسرت عن صحة سيداتها ، ثم قادت بيير عبر ممشى مرصوف بالبلاط ، كان الباب الايسر فيه يؤدي الى غرف الاميرات . وكانت الوصيفة في عجلتها ـ والعجلة كانت على اشدها ذلك اليوم في الفندق ـ ، قد نسيت اغلاق ذلك الباب عندما خرجت منه ، مما اتاح لبيير ولآنا ميخائيلوفنا ، ان يلقيا نظرة عادية لاارادية الى الغرفة ومحتوياتها . شاهدا الأمير بازيل ، يتحدث بصوت خافت وباهتمام بالغ مع كبرى الاميرات . فلما وقع بصرهما على القادمين ، القى الأمير نفسه الى الوراء بحركة تدل على نفاذ الصبر ، بينما نهضت الاميرة فجأة ، وصفقت الباب بقوة وشراسة وغضب .

كانت تلك الحركة تنافي الهدوء الطبيعي ، الذي كانت كاتيش تظهر عليه عادة ، وكذلك كان رعب الامير لايتفق مع هدوئه وخطورة حركاته ، حتى ان بيير شعر بالفارق الشاسع ، فوقف يسائل رفيقته بنظره . أما آناميخائيلوفنا ، فإنها لم تعرب عن اية دهشة بل اجتاحت وجهها ابتسامة غامضة ،

كانت الى جانب الزفرة الثائرة التي ندّت عن صدرها ، كل مايشهد بأنها كانت تتوقع كل هذه الأمور .

قالت ، وهي تحث الخطى مسرعة :

ـ كن رجلا، ياصديقي . سوف اسهر بنفسي على مصالحك.

لبث بيير لايفقه من تلك المعضلة شيئاً . كان يتساءل في سره : ماذا تريد ان تقول بعبارة : « سأسهر على مصالحك »؟ ولما لم يجد جواباً اكتفى بالقول « ان الامر ينبغي ان يكون كذلك . »

قادهما الممشى الى قاعة كبرى نصف مضاءة تتصل بقاعة استقبال الكونت. كانت من تلك القاعات الفخمة الانيقة الباردة التي يعرفها بيير حق المعرفة والتي لم يكن قد دخل اليها الا عن طريق السلم الكبير . وكان في وسط تلك القاعة مغطس فارغ ، وكان الماء مسفوحاً على قطع السجاد حوله . مرا، وهما في طريقهما يمشيان على رؤوس اقدامهما ، بخادم وشماس يحمل مبخرة . لكن هذين لم ينتبها اليهما . وأخيراً دخلا الى قاعة الاستقبال التي يعرفها بيير تماماً والتي تمتاز بنافذتين على النمط الايطالي ومخرج يؤدي الى الحديقة الشتوية . وكان تمثال نصفي لكاتيرين الثانية يجثم فوق قاعدة من الرخام وصورة الكونت مسندة الى اقدام الامبراطورة الكبيرة . وكان في القاعة جمع غفير من الناس يتحدثون بأصوات منخفضة ، فلما دخلا توقف المتحدثون عن متابعة احاديثهم وصوبوا اليهما نظراتهم التي راحت تتصفح وجه تلك السيدة الشاحب المهدم بالدموع والى جانبها ذلك الفتى الضخم الفارع الطول الذي كان يتبعها بسكون وهو مطرق الرأس .

أزفت اللحظة الحاسمة فشاعت قسمات آنا ميخائيلوفنا انعكاسات تنبىء بحلولها . دخلت دون ان تترك بيير متظاهرة بمظهر السيدة رفيعة الشأن القادمة

بيترسبورج التي عركتها الأعمال وتسلحت بنشاط جم لم تشعر بمثله من قبل .
كانت في تلك اللحظة لاتخاف من لقاء أحد، خصوصاً وانها كانت تصطحب الشخص الذي طلب المحتضر رؤيته . ألقت نظرة عجلى على الحاضرين ، فلما وقع بصرها على رجل الدين الذي درج الكونت على الاعتراف أمامه ، اقتربت منه بخطى قصيرة متلاحقة دون ان تبالغ في الانحنـــاء او بالتظاهر بشديد التضاؤل امام مركزه الروحي ، فتقبلت بركاته على تلك الصورة المحترمة وبركة مرافقيه من رجال الدين وقالت لهم :

ـ حمداً لله لأنكم جئتم في الوقت المناسب . ان كل الأسرة كانت تخاف ان يكون الوقت قد أصبح متأخراً . . .

ثم أضافت بصوت منخفض تقول :

ـ ان هذا الشاب ابن الكونت . يالها من لحظات مروعة !

واقتربت بعد حين من لوران ، وقالت له :

ـ عزيزي الطبيب ،ان هذا الشاب ابن الكونت . . . فهل هناك أمل ؟

رفع النطاسي عينيه الى السماء وهز كتفيه فكانت تلك الحركات أبلغ من كل جواب . حذت آنا ميخائيلوفنا حذوه فهزت كتفيها ورفعت الى السماء عينيها المغمضتين تقريباً ، وبعد ان أطلقت زفرة ، عادت تلحق ببيير لتقول له بحنان ممتزج بالحزن والامتثال :

ـ لتكن لك ثقة في رحمة الله .

وأشارت الى أريكة رجته ان ينتظرها عليها، ومضت بسكون الى الباب الذي كانت الأبصار كلها شاخصةً اليه ، ففتحته بحذر وأغلقته وراءها .

قرر بيير ان يطيع زميلته في كل ماتريد ، لذلك مضى الى الأريكة التي أشارت اليها واطمأن عليهـــا . وما كادت آنا ميخائيلوفنا تخرج من غرفة

المحتضر ، حتى تعلقت الأبصار بها ، ابصار متطفلة ومشفقة . ورأى بيير ان كل الموجودين يتهامسون بينهم ويشيرون اليه بطرف العين في شيء من الفزع واللوم. شعر بهم يظهرون نحوه عناية لم يعهدها من قبل : فالسيدة المجهولة منه ، التي كانت مع رجال الدين ، نهضت لتقدم له مكانها ، والضابط المساعد التقط قفازه الذي سقط من يده وقدمه اليه ، والأطباء صمتوا عند اقترابه وافسحو له الطريق باحترام . ودّ بيير بادىء الأمر ان يجلس في مكان آخر كي لا يزعج السيدة ، وأراد ان يلتقط بنفسه قفازه ، وتمنى لو تحاشى لقاء الأطباء الذين ما كانوا يعترضون سبيله ، غير انه شعر فجأة بشعور غامض يوحي بأن من اللباقة ان تمر تلك الليلة بسلام ، وان يقوم خلالها بالأدوار التي تفرضها الظروف عليه ، والتي ينتظرها الجميع منه ، وبالتالي ان يتقبل من جميع الموجودين هذرهم وتمنياتهم وتعزياتهم . واذاً فقد سمح للضابط ان يعيد اليه قفازه وجلس في المكان الذي أخلته السيدة مباعداً بين يديه في جلسة بريئة تشبه وضع التماثيل المصرية . قرر في نفسه ان كل هذه الأمور ينبغي ان تمر على هذا الشكل وأنه ـ تحاشياً لأي تصرف أخرق من ناحيته ـ ينبغي ان يتحاشى ذلك المساء كل ابتكار او رغبة شخصية وأن يقنع بإطاعة من يوجهونه إطاعة عمياء .

لم تمض دقيقتان حتى دخل الأمير بازيل مرفوع الرأس وعلى صدره ثلاثة أوسمة ذهبية . كان يبدو كأنه قد ازداد هزالاً منذ حين ، وكانت عيناه أكثر اتساعاً من جري العادة عندما راح يديرهما في القاعة ليعثر على بيير . فلما وقعت أبصاره عليه ، اتجه نحوه مباشرة وأمسك بيده ـ وهو الأمر الذي لم يتعطف أبداً بعمله من قبل ـ وهزها بعنف وكأنه يختبر درجة مقاومته وقال له :

ـ تشجع يا صديقي . لقد طلب رؤيتك . وهذا أمر جيد .

ود الأمير بازيل ان يبتعد ، غير ان بيير قدر ان من المناسب ان يطرح عليه سؤالاً فقال :

– كيف حال صحة . . .؟

تردد قليلا وهو لايدري هل يجدر به ان يقول الكونت أو يقول أبي .

– لقد أصيب بنوبة جديدة منذ نصف ساعة . نعم لقد أصيب بنوبة جديدة، فتشجع ياصديقي . . .

واستعمل الكونت كلمة « ضربة » للدلالة على النوبة . لذلك فقد ظل بيير فترة طويلة وهو يعتقد ان الأمير بازيل أراد بكلمته معناها الحقيقي . كان عقله شديد التشوش والاضطراب قاصراً في تلك اللحظة عن ادراك مرمى تلك الكلمة، لذلك فقد راح ينظر الى الأمير بهلع حتى تبينت له أخيراً الغاية الحقيقية من تلك الكلمة . ومضى الأمير بازيل على أطراف قدميه – بعد ان تبادل كلمة مع الطبيب لوران الى غرفة المحتضر . وكانت تلك الطريقة الجديدة في المشي جديدة عليه حتى ان كل جسمه راح يهتز تبعاً لخطاه . وجاءت كبرى الأميرات فتبعته وفي أعقابها عدد من القساوسة والشمامسة ورجال الكونت . وتعالت ضجة وراء الباب . وفجأة خرجت آنا ميخائيلوفنا ، وهي دائمة شحوب الوجه ، تحمـــل تقاسيمها طابع الشعور بالواجب ، فهرعت الى بيير ولمست ذراعيه وهي تقول :

– ان الرحمة الالهية لاتنفذ ولا تنضب ، ستقام الآن طقوس المسحة الأخيرة ، فتعال .

خطا بيير بضع خطوات على السجادة السميكة المرنة ، وبينما كان يجتاز الباب رأى الضابط المساعد، والسيدة المجهولة ، وعدداً من الخدم يتبعونه وكأن الأمر أضحى في تلك اللحظة في غير حاجة للاستئذان .

الفصل الثالث والعشرون

(اللقاء الأخير)

كان بيير يعرف تماماً تلك الغرفة الفسيحة التي تغطي أرضها قطع السجاد العجمي الفاخر والتي قسمت الى قسمين بقوس مرتكز على اعمدة . كان نور أحمر قوي ، نور كنسي كذلك الذي ينبعث خلال صلاة المساء ، يضيء أقصى الغرفة المؤثثة بسرير كبير من خشب « الأكاجو » « شجرة كابلي » ذي ستائر حريرية ، وبخزانة كبيرة محاطة بالصور . وتحت « الايقونات » التي كانت زينتها الثمينة تلتمع تحت الأنوار كانت هناك أريكة كبيرة من نمط « فولتير » وقد غطي مسندها بالوسائد التي كانت أغلفتها النظيفة قد أبدلت منذ حين بأخرى جديدة . وعلى تلك الوسائد البيضاء كالثلج أسجي جثمان الكونت بيزوخوف وقد لف حتى وسطه في غطاء أخضر نضير اللون . نظر بيير الى ذلك الوجه النبيل ذي الجبين العريض الذي تحيط به هالة متناسقة من الشعر الأبيض ، والى تلك القسمات التي يعلوها الاصفرار المشوب بحمرة خفيفة ، والتي حفرت فيها التجاعيد أخاديد عميقة واضحة . كانت يدا الكونت القويتان مسدلتين على الغطاء وراحتيها الى

الأسفل. فركز بعضهم بين سبابته وإبهامه الأيمن شمعة أسندها خادم عجوز انحنى فوق المقعد . بينما أحاط الكهنة بالمقعد وهم يرتدون الألبسة المزينة ، وكانت شعورهم تنسدل تحت تيجانهم المرصعة التي كانت على رؤوسهم . راحوا يرتلون والشموع في أيديهم ، ويطوفون ببطء ووقار . ووراء هذا الحفل ، جلست الأميرتان وفي يد كل منهما منديل تُخفي به عينيها ، بينما انتصبت أمامها اختها الكبرى كانيش وعلى وجهها امارات العزم والخبث ، وراحت تنظر بإمعان الى الايقونات وكأنها تريد القول بأنها اذا أشاحت ببصرها عما تنظر اليه فانها لاتستطيع ان تُسأل عما يصدر عنها . لبثت آنا ميخائيلوفنا شديدة الوقار والرحمة والشفقة واقفة أمام الباب والى جانبها السيدة المجهولة .

ومن الجانب الآخر من ذلك الباب ، وقف الأمير بازيل على مقربة من الأريكة وراء مقعد مزين بالنقوش المحفورة ومغطى بالقطيفة ، وقد أدار مسنده الى ناحيته وأسند يده اليسرى على المسند حاملة شمعة مضاءة ، بينما كانت يمناه ترسم اشارة الصليب على صدره كلما رفع أبصاره الى السماء او لمس جبينه بيده . كان وجهه ينبيء بخشوع هادىء واستسلام لمشيئة الله وكأنه كان يقول : « اذا كنتم لاتفهقون شيئاً من هذه المشاعر فذلك شأنكم. » ووقف وراءه الضابط المساعد والأطباء والذكور من الخدم يتزاحمون . لقد انتحى الرجال والنساء جانباً آخر كما هو الحال في الكنيسة .

كان الحاضرون جميعاً يرسمون شارات الصليب على صدورهم ، فلا يسمع المرء الا صلوات وطقوساً وترتيلا خافتاً عميقاً متناسقاً تعقبه بين فترة وفترة زفرات وحركات أقدام . أعربت آنا ميخائيلوفنا عن انها تفهم وتعي ماتفعل . اجتازت الغرفة الفسيحة حتى بلغت موقف بيير فأعطته شمعة أشعلتها له وراح ،

مأخوذاً بالملاحظات التي كان يلتقطها على وجوه الموجودين ، يرسم بدوره على صدره إشارة الصليب مقتدياً بالآخرين .

كانت الأميرة الشابة « صوفي » ذات الحسنة والخدين الورديين واللهجة الساخرة ، تتأمل بيير وهي تبتسم وتخفي وجهها وراء منديلها . عادت بعد فترة طويلة ترفع بصرها اليه ثم تضحك من جديد . كان يبدو عليها أنها لا تستطيع الامتناع عن النظر اليه ولا ان تنظر اليه دون أن تفقد وقارها ، لذلك فقد تسللت من مكانها واختبأت وراء احد الأعمدة لتحمي نفسها من الاغراء ومعاودة الكرة.

وبينما كان الطقس الديني في أوجه،توقف المرتلون فجأة وراحوا يتهامسون بينما التفت الخادم العجوز الذي كان يسند يد الكونت نحو السيدات ونهض واقفاً . اقتربت آنا ميخائيلوفنا وانحنت فوق المحتضر وأشارت باصبعها من وراء ظهرها الى لوران ان يقترب. كان الطبيب الفرنسي مستنداً الى أحد الأعمدة يرقب الحفل الديني دون ان يحمل في يده شمعة شأن ذوي الأديان المختلفة الذين يقدرون رغم اختلاف دينهم قيمة مايدور أمامهم من شعائر يؤيدونها بشعورهم الديني دون ان يؤمنوا بها . اقترب الطبيب بخطوات ثابتة ساكنة ، خطوات الرجل الذي في مقتبل العمر ، وانحنى على المريض فأخذ يده بين أصابعه البيضاء المعقدة وراح يتحسس النبض بصمت وانتباه . أسقي المريض شراباً . ثم عاد كل الى مكانه ، وعاد القساوسة الى إحياء طقسهم الديني . لاحظ بيير ان الأمير بازيل ترك مكانه خلال تلك الفترة وبدلاً من ان يتجه نحو المريض مر من أمامه واقترب من كبرى الأميرات ، وبعدئذ توجه كلاهما الى السرير الكبير الضخم ذي الستائر الحريرية الذي كان منتصباً في صدر القاعة ، واختفى كلاهما وراء باب المضجع ثم عاد كلاهما الواحد وراء الآخر حوالي نهاية الحفلة ، ومضيا كل الى مكانه . وكان بيير مقتنعاً بأن كل مايدور أمامه ذلك المساء لا يمكن

الا ان يكون كذلك . ولهذا السبب لم يعلق على تلك الحركة وذلك التصرف أية أهمية تذكر .

توقف الترتيل الديني واقترب أحد القساوسة من الكونت وهو في استلقائه لايفصح بادرة واحدة من بوادر الحياة ، فهنأه بالقداس الذي أجري له وتكأكأ الموجودون كلهم حول الكونت . وسمع بيير ضجيج الأقدام وهمسات يطغى عليها صوت آنا ميخائيلوفنا وهي تقول :

— ينبغي نقله الى سريره اذ لايمكن اجراء شيء وهو في مكانه هذا !...

وأحاط الاطباء والاميرات والخدم بالمريض احاطة كلية ، حتى ان بيير لم يعد يرى رأسه الشاحب المضرج بحمرة خفيفة المكلل بشعر ابيض ، ذلك الرأس الذي ظل ينظر اليه طيلة الاحتفال الكنائسي رغم ان نظرته كانت في كثير من الاحيان شاردة ساهمة ، خمن من حركات الاشخاص حول الأريكة انهم يحملون المحتضر لنقله الى سريره ، وسمع صوت احد الخدم يغمغم :

— إمسك بذراعي ، سوف تدعه يسقط ...

وأصواتا اخرى تقول :

— من الاسفل ... واحد آخر ...

وارتفعت اصوات الخطى واللهثات وكأن الحمل كان اثقل من طاقة الحمالين .

مرّ حاملو الجسد ومن بينهم آنا ميخائيلوفنا امـام بيير الذي استطاع ان يلقي نظرة خاطفة من فوق الاعنـاق ، فرأى هالة الشعر الابيض المجعد الذي يحيط برأس الكونت وكتفيه القويتين العريضتين وصدره المتسع الممتلىء وهم يحملونه من تحت أبطيه . كان دنو الموت لم يبدل شيئاً من ذلك الرأس المتناسق الجميل الأجبه ذي الخدين الممتلئين ، والفم الحساس الجميل ، والنظرة البـــاردة المتعالية . كان ذلك الرأس لايختلف ابداً عن الذى رآه بيير منذ نيف وثلاثة

أشهر عندما غـــادر موسكو الى بيترسبورج مـع فارق واحد ، وهو انه كان في تلك اللحظة يهتز وفق خطوات حامليه ،وكانت نظرته الحائرة الشاردة لاتعرف اين تتوقف .

تعالى ضجيج خلال دقائق حول السرير ثم ابتعـد الناس ، بينما جاءت آنا ميخائيلوفنا تلمس ذراع بيير وتقول له : تعال. فتبعها حتى السرير حيث أجلس المريض عليه بشكل ادعى للاحترام والوقار ، شكل يتناسب والطقس الديني الذي اجري له منذ حين . وكان عدد من الوسائد قـد رصت وراءه لتجعل جذعه منتصباً، بينما بسطت يداه على طول راحتيها فوق الغطاء الحريري الاخضر على مسافة احداهما من الاخرى . فلمـا اقترب بيير ، حدجه الكونت بنظرة من تلك النظرات التي لايمكن لكائن حي في الدنيا ان يحدد قيمتها ومرماها ، فهي اما ان تكون لاتعني شيئاً مطلقاً اكثر من حاجة الانسان الذي يضطر الى فتح عينيه ان يلقي ببصره الى جهة ما ، او على العكس ، أن تكون محمـلة بالمعاني مفعمة بها . توقف بيير متردداً لايدري مـاذا يفعل في ذلك المـوقف ، والتفت الى رفيقته مستفسراً . فأشارت اليه بنظرها الى يد المحتضر وزمت شفتيها على شكل قبلة ، فتبع بيير النصيحة ومد عنقه بتؤدة متجنباً المساس بالغطاء ، والصق شفتيه على يد المريض المكتنزة . لم تتحرك اليد ولم تتقلص عضلة واحدة في وجه المريض ، فعاد بيير يستشير آنا ميخائيلوفنا ، التي أومأت له ان يجلس على المقعد قرب السرير فجلس عليه متـــأثراً ، وعاد الى الاستفسار بالنظر من آنا ميخائيلوفنا عما اذا كان احسن صنعاً بما فعل وفهم مرادها ،فلماهزت له رأسها موافقة عاد الى جلسته الكهنوتية الساذجة الشبيهة بالتماثيل المصرية وهو آسف جداً لرؤية جسده الضخم يشغل كل هـذا الفراغ ، يحـــاول الظهور في اصغر حجم ممكن . ولما رفع عينيه الى وجه الكونت ، رأى ان هذا يحدق بعنـاد

في المكان الذي غادره منذ حين محمولاً . واما آنا ميخائيلوفنا فكان مظهرها يدل على الاهمية البالغة التي تقلقها على تلك المقابلة النهائية بين الأب والابن، وبعد دقيقتين خالهما بيير ساعتين طويلتين ، انتفض وجه الكونت المجعد فجأة وازداد تقلصاً ، والتوى فمه الجميل محدثاً صوتاً أجش غير واضح ، وعندئذ فقط فهم بيير ان أباه على وشك الموت . راحت آنا ميخائيلوفنا تتفحص حدقة المحتضر محاولة معرفة رغبته من نظرته . اشارت بيدها الى بيير ثم الى الشراب فالغطاء وغمغمت بصوت منخفض تلفظ اسم الامير بازيل . غير ان قسمات وجه المريض وعينيه كانت توحي بنفاذ الصبر . قام بمجهود جبار لينبه الخادم الذي كان لايفارق سريره من ناحية القدمين .

غمغم الخادم :

ــ ان سعادته يرغب في ان نقلبه على جنبه الآخر .

وراح يحاول القيام بتلك المهمة الشاقة التي تقتضيه تحريك جسد ضخم كبير فاقد الاحساس ، فنهض بيير ليساعده في مهمته .

وبينما كان بيير والخادم يبدلان وضعية الكونت ، راح هذا يحاول عبثاً جذب ذراعه الذي ظل منسدلا لاحياة فيه وراء ظهره . ولعل المريض شاهد نظرة الذعر التي القاها بيير على ذراعه المشلولة او ان فكرة اخرى خطرت في رأسه ،لانه راح يتأمل ذراعه الجامدة ثم وجه لبيير المذعور ليعود بنظره الى ذراعه . وأخيراً افتر ثغره عن ابتسامة غامضة أليمة ما كانت تتفق مع طالعه النشيط ، بل تبدو سخرية مرة من عجزه التام . شعر بيير فجأة بانقباض في صدره ودغدغة في انفه ، وما لبثت الدموع ان طفرت من عينيه .

كان الكونت في تلك اللحظة مستديراً بوجهه الى الجدار يتأوه .

وجاءت احدى الاميرات تحل محل آنا ميخائيلوفنا ، فقالت هذه لبيير :

ــ لعله اغفى قليلا ، هيا بنا !

فتبعها بيير صامتاً .

الفصل الرابع والعشرون

(فشل المؤامرة)

لم يكن في البهو الكبير الا الأمير بازيل وكبرى الاميرات . كانا جالسين قرب لوحة كاترين الثانية يتحادثان بحمية . لكنهما توقفا عندما شاهدا بيير ورفيقته .

غمغمت الاميرة :

ـ انني لاأستطيع رؤية هذه المرأة .

وخيل لبيير ان الاميرة اخفت شيئاًما .

قال الأمير مخاطباً آنا ميخائيلوفنا :

ـ ان كاتيش تقدم الشاي في البهو الصغير فاذهبي الى هناك ياآنا ميخائيلوفنا وتناولي شيئاً ، والا فانك لن تصمدي ياصديقتي المسكينة .

ولم يوجه كلمة واحدة الى بيير ، لكنه ضغط على ذراعه بحنان أسفل الكتف . واقتادت آنا ميخائيلوفنا بيير الى البهو الصغير ...

كان الطبيب لوران واقفاً أمام مائدةٍ محملة بأدوات الشاي والوان الطعام الباردة، وقد انتظم حولها كل الاشخاص الذين قضوا الليل في الفندق . قال الطبيب وهو يفرغ قدحه الرقيق المصنوع من الخزف الصيني بجرعات صغيرة :

– ليس هناك ما يشحذ الهمة بعد ليلة بيضاء اكثر من قدح من هذا الشاي الروسي الممتاز .

كان يتحدث بحيوية متزنةٍ دون أن يبدو عليه شيء مما يعتلج في صدره . تذكر بيير تلك القاعة الصغيرة المستديرة ذات المرايا والنضد . تذكر أنه كان في السنوات القديمة الماضية ، عندما كان الكونت يحيي حفلات راقصة ، يفضل الجلوس في هذا المكان ليراقب السيدات وهن في أبهى زينتهن ، عندما يخطين بتيهٍ امام تلك المرايا التي تحيط بها اضواء مشعة ، فيتأملن هندامهن واكتافهن العارية ، وأعناقهن التي تحيط بها المجوهرات والماسات الفاخرة الثمينة ، فتنعكس الاضواء عليها وتشع إشعاعات تخطف الأبصار . ورأى ان شمعتين بسيطتين كانتا تضيئان تلك القاعة الصغيرة بالذات بدلاً من أنوار امس الساطعة ، وان اقداحاً وصحافاً مبعثرة على تلك النضد التي يحيط بها اشخاص من كل نوع ، مرتدين الألبسة العادية ، يهمسون في الظلام وهم يبرهنون بأقوالهم واشاراتهم على أنهم لم ينسوا بعد الحدث الجسيم الذي وقع منذ حين في غرفة النوم المجاورة . لم يأكل بيير شيئاً رغم شهيته القوية ، وبينما كان يلتفت الى آنّا ميخائيلوفنا ليسألها بنظرة كعادته ، رآها تسير على اطراف قدميها نحو البهو الكبير ، فقدر من جديد أن الأمر « ينبغي أن يكون كذلك » ، وقرر بعد لحظة تردد أن يتبعها . ولما تخطى الباب ، رآها منتصبة امام كاتيش وهي محتدمة معها بنقاش عنيف بصوت منخفض . كانت السيدتان تتكلمان معاً في وقت واحد .

قالت كاتيش، وهي مضطربة متطورة كما كانت منذ حين عندما صفقت الباب في وجه آنـّا ميخائيلوفنا :

ـ اسمعي ، ياأميرة .. أظنني أعرف ما هو محتشم وما هو غير محتشم .

غير ان آنـّاميخائيلوفنا أجابت ملمّحة، وهي تقف بين مخاصمتها والطريق الى غرفة النوم :

ـ ولكن ياعزيزتي فكري في أن تصرفك سيزعج عمنا المسكين الذي هو في مسيس الحاجة الى الراحة ! ان التحدث معه في مثل هـــذا الوقت عن اشياء تخص هذا العالم بينما هيئت روحه للصعود الى العالم العلوي ...

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده لافاً ساقاً على ساق كعادته ، وكان حذاءاه المترهلان ينتفضان بحركات تشنجية ، وقد اتخذا شكلا غريباً ، فكانا يبدوان عند اسفلهما أكثر عرضاً من حالتهما الطبيعية . وفيما عدا ذلك ، كان يبدو عليه عدم الاهتمام بحديث السيدتين . قال :

ـ هيا ، يا آنـّاميخائيلوفنا الطيبة ،دعي كاتيش وشأنها . انك لاتجهلين مدى حب الكونت لها .

فقالت كاتيش تخاطب الأمير بازيل ، وهي تشير الى حافظة جلدية مرصعة كانت ممسكة بها في يدها :

ـ انني لاأعرف شيئاً عما جاء في هذه الورقة . على كل حال ان الوصية الحقيقية موجودة في مكتب الكونت . اما في هذه الحافظة ، فان كل ما فيها عبارة عن ورقة عديمة القيمة .

وأرادت ان تتخطى أنـّاميخائيلوفنا . لكن هذه قفزت قفزة كبيرة ولحقت بها ، وعادت من جديد تمنعها من متابعة السير .

قالت ، وهي تستحوز على الحافظة الجلدية بيد ثابتةٍ حازمة تفصح بأنها لن تتخلى عنها بسهولة :

- انني أعرف ذلك ياعزيزتي ، ياأميرتي الطيبة ، ولكني أرجوك بل أتوسل اليك ان كاتزعجي الكونت ، وان توفري عناء ذلك عليه . استحلفك الله .

فضلت كاتيش ان لاتجيب لأنها لو فتحت فمها لما نطقت ولا شك بكلمات ترضي آنّاميخائيلوفنا ، لذلك فقد قام بين المرأتين نضال صامت حول ملكية الحافظة ، كانت آنّاميخائيلوفنا خلاله تقاوم بضراوة بينما ظـــل صوتها محتفظاً بلهجته المهذبة الفاتنة . هتفت تقول :

- بيير ياصديقي ، تعال ... اعتقد انه ليس غريباً عن هذا الأمر العائلي . ما رأيك ، ياأميري ؟

هتفت كاتيش فجأة بصوت مرعد بلغت أصداؤه مسامع كل من كان في البهو الصغير فأفزعت السامعين :

- ماذا يا ابن عمي ، انك لاتقول شيئاً ! انك تحتفظ بالصمت بينما يعلم الله بأمر من يتدخل في شؤوننا ،ويسمح لنفسه بإثارة فضائح على عتبة المحتضر ! ...

وأردفت بصوت غاضب مختنق :

- أيتها الدساسة !

وجذبت بكل قواها حتى أن آنّاميخائيلوفنا اضطرت ان تخطو الى الأمام بضع خطوات وتقبض على ذراع الأميرة خشية ان تفلت الحافظة من يدها .

هتف الأمير بازيل باستغراب واستنكار :

- أوه ! ان هذا شاذ ! دعي الحافظة اقول لك !

فأطاعت كاتيش ذلك الأمر الحاسم وهتفت :

- أنت ايضاً !

غير أن آنّا ميخائيلوفنا لم تخضع للأمر . فقال الأمير :

ـ دعي ذلك أقول لك . انني اتكفل بكل شيء . سأذهب بنفسي لرؤيته وسأسأله ... نعم ، أنا ! ... فينبغي أن لاتقني بذلك .

فاعترضت آنّا ميخائيلوفنا :

ـ ولكن يا أميري ، لقد اقيم له منذ حين اكبرطقس ديني ، فدعه في راحة . ما رأيك، يابيير ؟

كان الفتى قد اقترب منهما وراح ينظر بذهول الى وجه الأميرة المنقلب السحنة ، وخدي الأمير المتقلصين .

صرخ الأمير بازيل بحزم وقسوة :

ـ ستكونين مسؤولة عن كل مايحدث . فكري في ذلك . انك لاتعرفين ما تعملين .

وصرخت كاتيش :

ـ أيتها المرأة الملعونة !

ثم ارتمت فجأة على آنّا ميخائيلوفنا ، وانتزعت الحقيبة من يدها . فأطرق الأمير بازيل برأسه وسقط ذراعاه الى جانبيه .

وفي تلك اللحظة فتح الباب ،ذلك الباب الرهيب الذي استأثر طويلاً بنظرة بيير ، والذي كثيراً ما كان يوارب بهدوء ، فتح في تلك اللحظة بعنف حتى اصطفق بالجدار . وظهرت ثاني الأميرات التي هرعت اليهم وهي تضرب كفاً بكف وتصيح :

ـ ماذا تعملون ! ان الكونت يموت ، ومع ذلك تتركونني وحيدة .

سقطت الحافظة من يدي كاتيش ، فانحنت آنّا ميخائيلوفنا مندفعةً والتقطتها بقوة وركضت الى غرفة النوم ؛ فتبعها الأمير وكاتيش بعد ان سيطرا

على اضطرابها . ولم تمض لحظات ، حتى غادرت كاتيش غرفة النوم شاحبة الوجه مُمتقعته ، تعض شفتها السفلى . فلما وقع بصرها على بيير ، لم تستطع السيطرة على غضبتها فصرخت في وجهه قائلةً :

— لينشرح صدرك . هذا الذي كنت تريده .

واختنق صوتها بالعبرات ، فأخفت وجهها بمنديلها ، وجرت مبتعدة .

وظهر الامير بازيل بدوره مترنحاً في مشيته ، وارتمى على الاريكة التي كان بيير جالساً عليهـــا ، وهو يحجب عينيه بيده . ولاحظ بيير ان وجهه شديد الارتعاش وان ذقنه كانت ترتعد وكانه واقع تحت تأثير حمى خبيثة .

قال الامير ، وهو يمسك بمرفق بيير :

— آه ، ياصديقي !

كان صوته ينبيء بنبرة اخلاص وصراحة واسترسال لم يعهد بيير مثلهـا فيه من قبل . اردف الامير يقول :

— آه ياصديقي ، كم من خطيئة ترتكب وخدعة ودسيسة . وكل ذلك من أجل ماذا ؟ انني تجاوزت الستين ، ياصديقي . . . وانني . . . انْ كل شيء ينتهي بالموت ، كل شيء . . . والموت ياصديقي امر رهيب .

اختنق صوته بموجة من البكاء والدموع .

خرجت آنا ميخائيلوفنا من الغرفة بدورها ، واقتربت من بيير بخطوات مكتومة خافتة وقالت تناديه :

— بيير .

فنظر اليها بيير مستفسراً ، واذا بها تنحني على جبينه تقبله وتبلله بدموعها . قالت بعد لحظة صمت :

— لقد قضى . . .

راح بيير يحدق في وجهها خلال نظارتيه ، بينما أردفت تقول :

ــ ها، سأصحبك . حاول ان تبكي اذ ليس مثل الدموع ماينفث الكرب .

قادت بيير الى بهو مظلم ، فسر هذا عندما رأى ان أحداً لن يرى وجهه ، وتركته لحظة هناك ثم عادت لتجده معتمداً رأسه على ذراعه غارقاً في نوم عميق .

وفي صباح اليوم التالي قالت له :

ــ نعم ياعزيزي ، انها خسارة جسيمة حلت بنا جميعاً . انني لاأتحدث عنك. لكن الله سيساعدك لأنك شاب وقد اضحت بين يديك الآن ثروة هائلة . ان الوصية لم تفتح بعد . انني اعرفك معرفة كافية تجعلني متأكدة من ان الثروة المنتظرة لن تدير رأسك . لكن ذلك يفرض عليك واجبات جديدة فينبغي ان تكون انسانا .

لبث بيير صامتاً ،فأردفت الاميرة تقول :

ــ لعلني أقول لك في المستقبل انني لو لم اكن موجودة مساء امس لكان الله وحده يعلم بما كان سيحدث . لقد كان عمي اول أمس يعدني بان لاينسى بوريس . لكنه لم يجد متسعاً من الوقت ، فآمل ياصديقي العزيز ان تنفذ رغبة ابيك .

لبث بيير مشدوهاً لايفقه شيئاً ، واكتفى بالنظر الى آنا ميخائيلوفنا وقد تضرج وجهه وبان الارتباك على قسماته .

بعد ذلك اللقاء والحديث ، عادت الاميرة دروبتسكوي الى منزل آل روستوف وأوت الى سريرها . وبعد ان نالت قسطاً من الراحة ، راحت تسرد على مدعويها ومعارفها تفاصيل دقيقة عن آخر لحظات الكونت بيزوخوف . كان المرء ، اذا اصغى اليها ، يفهم من كلامها ان الكونت مات الميتة التي كانت

هي نفسها تتمناها لنفسها ، اذ ان نهايته كانت مثيرة للشعور بل وعبرة وقدوة للناس . أعربت في حديثها عن تأثرها البالغ باللقاء الاخير الذي تم بين الابن وابيه ، حتى انها لم تتمالك عندما فكرت في ذلك اللقـــاء من ذرف الدموع . ماكانت ترى او تستطيع ان تميز من الذي تصرف خيراً من الآخر في تلك المناسبة الاليمة : اكان الاب الذي تذكر كل الناس في تلك اللحظة الحاسمة وكل الاشياء المحيطة به ، فوجه الى ابنه كلمات آية في الحنان والعطف ، أم بيير الذي صهره الالم والحزن رغم محاولته اخفـائها بعناية كي يوفر على ابيه مضاعفة آلامه .

كانت آنا ميخائيلوفنا تقول :

– لقد كان المشهد أليما لكنه لم يخل من الفـائدة . انه يرفع الروح ويسمو بها . ان رؤية رجال مثل الكونت العجوز وابنه البار تهز المشاعر .

وتحدثت كذلك عن تصرفات كاتيش والامير بازيل بلهجة فيهـا هجاء وتوبيخ وتبكيت . غير انها في تلك المرة كانت تتحدث بصوت منخفض وسرية مطلقة .



الفصل الخامس والعشرون

(الامير بولكونسكي)

كان الامير نيكولا آندريثيفيش بولكونسكي ينتظر في مقاطعته آليسيا جوري اي الجبل الاقرع ، وصول الامير الشاب آندره وزوجته من يوم الى آخر ، دون ان يُغفل مع ذلك النظام الدقيق الذي يتبعه في بيته الكبير الذي يقطن فيه . كان منذ عهد بول الاول ، حيث ابعد الى اراضيه ، يعيش بصورة مستمرة في الريف مع ابنته ماري والآنسة بورين ، وهي الوصيفة المرافقة للاميرة الشابة . وقد ظل الجنرال الاعلى ، الامير بولكونسكي ، ملك بروسيا كما كان يسميه الاشخاص العارفون في الارياف معتكفاً منذ ذلك الحين . فلما فتح له العهد الجديد طريق العاصمتين ، ظل مثابراً على انزوائه في املاكه ، زاعماً ان الاشخاص الذين يريدون لقاءه يستطيعون قطع اربعين ميلاً للوصول اليه حيث هو في مقاطعة الجبل الاقرع . اما هو ، فلم يكن في حاجة الى شيء او الى اي شخص . كان يصرح ابداً بان البطالة والاعتقادات الخرافية كانت

المصدر الاوحد لكل الشرور والآثام ، وان الفضيلتين الوحيدتين في العالم هما: الذكاء والعمل . فكان يشرف بنفسه على تثقيف ابنته واغناء تينك الفضيلتين الاساسيتين في نفسها . لبث يعطيها دروساً في الجبر والهندسة حتى بلغت سن العشرين ، وجهد دائماً على ان لا يدعها تمضي فترة واحدة من اوقاتها دون عمل تعمله . وكان بدوره لا يهدأ أبداً : فكان يكتب مذكراته ويناقش ويحل مسائل رياضية عالية ، ويصنع الاواني الفخارية ، ويعمل في بستانه ، ويراقب أبنيته الكثيرة لانه كان بناء كبيراً .

ولما كان النظام هو الشرط الجوهري الاول في نشاطه وعمله ، فان وجوده كان منظما بدقة ، حتى في ادق المراحل واللحظات . فكان بذلك يجلس الى المائدة في مواعيد ثابتة يراعي فيها ليس الساعة فحسب بل الدقيقة ايضاً . ولم يكن قط قاسياً ، غير ان صلابته الملازمة التي لم تكن تفارقه ابداً ، كانت توحي الى من حوله ابتداء من ابنته وحتى أتفه الخدم احتراماً مفزعاً ، ما كان يستطيع فرضه اشد الناس قسوة ووحشية . وعلى الرغم من انه كان محروماً من كل نفوذ جديد ، فان كل حاكم جديد للمقاطعة كان يعتقد عند وصوله او قبل مغادرته المقاطعة ليحل خلف محله ، بضرورة الشخوص الى منزل الامير وتقديم تمنياته وواجبات الاحترام اليه . فكان ذلك الموظف الكبير يضطر الى الانتظار في قاعة الاستقبال الفسيحة ، اسوة بالمهندس والبستاني والاميرة ماري نفسها ، ريثما تحين الساعة الثابتة لنهوض الامير من فراشه ، وعندئذ كان المنتظرون يشعرون ، دون استثناء ، شعوراً بالاحترام ممزوجاً باحساس بالرهبة ، عندما تفتح درفتا الباب الضخم المؤدي الى مكتب الامير ليبدو هذا على عتبته بشعره المستعار وقامته الصغيرة ، قامة عجوز ذي يدين معروقتين وحاجبين ابيضين كثين يحجبان كلما قطبها نظرته المشعة ببريق الذكاء والنشاط والشباب .

ذهبت الاميرة ماري ، صباح اليوم الذي كان ينتظر فيه وصول الزوجين الشابين ، الى قاعـــة الانتظار كالعادة ، في الساعة المعينة لتمنيات الصباح ، ورسمت كالعادة اشارة الصليب على صدرهـا وقرأت دعـاء صامتاً وابتهالاً سريا . كانت كل صباح تدخل تلك القاعة وتبتهل الى الله ان يؤازرهـا خلال المقابلة الرهيبة المنتظرة ، فكان خادم عجوز ينهض دون ضجة فيستقبلها ويهمس لها قائلا :

– تفضلي بالدخول .

ومن وراء البـاب ، كان دوي عجلة دائرة دورة رتيبـة يسمع بوضوح . جذبت الاميرة بخوف مصراع الباب الذي كان ينفتح دون عناء ، وتوقفت على العتبة . فالتفت الأمير اليها ، لكنه لم يتوقف عن عمله .

كانت غرفة الأمير الشاسعة تزدحم بعـــدد من الاشياء التي تحمل طابع الاستعمال الدائم . فالطاولة الكبيرة كانت تنوء بالكتب والمخططات ، وخزائن الكتب العالية تعج بمحتوياتها ، وفي قفل كل منها مفتاحه الملائم ؛ وعلى نضد مرتفع يصلح للكتابة اذا كان الشخص واقفاً ، كان دفتر كبير مفتوحاً وبجانبه ادوات الكتابة . اما جهاز صنع الاواني الفخارية ، فقد كانت الادوات المختلفة المبعثرة فوق النشارة التي تغطي مساحة حوله ، تشهد بنشاطـه المستمر المتنوع المضبوط . كانت حركات ساقه على الدولاب وضغط يده الناحلة الثابتة تشهد بالقوة العظيمة التي يمتاز بها الامير في كهولته الناعمة . ادار العجلة بقدمه عـدة دورات أخرى ، ورفع ساقـه عن المحرك ومسح « ازميله » والقـاه في جيب جلدي معلق الى الجهاز ، ثم اتجه نحو الطاولة ، واستدعى ابنته ، فقدم لها وجنته المتغضنة لتقبلها ، وعلا صوته الصارم الذي تلطفه نظرة مفعمة بالحنان والعناية ، قائلا ان يباركها – لان عادته جرت على استنكار مثل هذه الطقوس – .

ـ هل أنت على خير حال ؟ ... اجلسي إذن .

دفع بقدمه مقعده الوثير واخذ دفتراً من دفاتر الهندسة وكتب بخط يده فيه . ثم تصفحه وهو يشير بظفره المتين الى المقطع الذي يريد منها دراسته وحفظه :

ـ هذا واجبك ليوم الغد .

فانحنت الأميرة على الدفتر، بينما قال العجوز فجأة :

ـ انتظري ... لدي رسالة لك .

وراح يبحث في جيبٍ محدثٍ في الطاولة عن الغلاف المنشود الذي كان يحمل كتابة نسائية .

ألقى الرسالة على الطاولة ، فالتقطتها الاميرة بانفعال وضمتها الى صدرها وقد تضرج وجهها فجأة .

قال الأمير، وقد افتر ثغره عن ابتسامة باهتة كشفت عن اسنان صفراء متينة :

ـ أهي من « هيلوئيزتك » ؟

فأجابت الفتاة بابتسامة ونظرة وجلة :

ـ نعم، إنها من جولي .

قال الأمير في غير أنس :

سأدع رسالتين أخريين تمران ، لكنني سأقرأ الثالثة . إنكن تكتبن لبعضكن سخافات أتوجس منها خيفةً . لذلك سأقرأ الثالثة .

أجابت الأميرة ، ووجهها يزداد حمرةً وهي تمد له يدها بالرسالة :

ـ يمكنك قراءة هذه، ياأبي .

فأجاب الأمير بلهجة حاسمة ، وهو يُبعد الرسالة عنه :

ـ الثالثة . لقد قلت الثالثة .

ثم اتكأ على الطاولة وجذب اليه دفتر الهندسة ، وشرع يشرح وهو ينحني فوقه ، مستنداً بإحدى يديه على مسند المقعد الذي جلست عليه ابنته :

ــ انتبهي يا آنسة ، انظري الى هذه المثلثات ، انها متساوية. لذلك اعتبري أن زاوية آ ب ج ...

كانت الأميرة، في جلستها تلك، تحسّ برائحة التبغ تنفذ الى صدرها ، وتشعر بالعفن الحاد الذي ينبعث من اجسام الكهول يختلط بأنفاسها . كانت ماري تختلس بين الحين والحين نظرات فزعة الى عينيه المتمعتين القريبتين من وجهها ، لكنها ما كانت تفقه شيئاً لان الخوف كان يمنعها من فهم شرح ابيها مهما بلغ من وضوح وإسهاب . وسواء أكان الخطأ مصدره الاستاذ أم التلميذ ، فان ذلك المشهد كان يتكرر كل يوم : تضطرب عينا الفتاة وتعجز عن رؤية الأحرف والخطوط وسماع البيانات ، فلا ترى الا ذلك الوجه الأعجف الصارم القريب من وجهها ، ولا تُحسّ الا بانفاسه وبتلك الرائحة التي تنبعث منه ، ولا تفكر الا في الفرار بأسرع ما يمكن واللجوء الى غرفتها لتدرس أمثولتها بهدوء ، وتحلّ النظرية الهندسية باطمئنان . وكان العجوز يبرم بها وينفذ صبره فيبعد المقعد ويقربه بصخب ويكبت غضبه . لكنه في كل مرة كان ينتهي به الأمر الى الثورة والانفعال والتأنيب ، فيلقي بالدفتر الى كل الشياطين !

أخطأت ماري في جوابها ، فصاح الامير العجوز وهو يلقي بالدفتر بعيداً ويستدير بغضب :

ــ هل يمكن ان تكون فتاةٌ اشد غباءً منك !

لكنه نهض بعد ذلك وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، ثم اقترب من ابنته وراح يـــداعب شعرها ملاطفاً ، واخيراً عاد الى مقعده وباشر بشرح نظريته مجدداً .

وبعد ان اخذت التلميذة ملاحظات على النظرية سجّلها على الدفتر ، تأهبت للخروج ، فقال الامير :

ــ ينبغي ان تكوني دؤوبة، يا أميرة . ان الرياضيات أهم شيء في الوجود. انني لن اسمح لك أن تكوني سخيفة كسيداتنا النبيلات في هذا العصر . سوف تشعرين بميل الى العلوم الرياضية بعد قليل من الصبر .

ثم اردف ،وهو يُربت على وجنتها :

ــ وبذلك فقط تخرج التُرهات والخرافات من رأسك الى الأبد .

همت الأميرة بالخروج ، لكنه استوقفها بإشارة ،ووضع على النضد المرتفع كتاباً جديداً لم تقطع أوراقه بعد، وقال:

ــ وهذا أيضاً واحد من « مفتاح السر » ترسله لك صديقتك هيلوئيز . انه كتاب يؤيد العقيدة الدينية . انني لا أتدخل في معتقدات احد . وقد تصفحته فيمكنك اخذه . اذهبي الآن،اذهبي .

وربت على كتفها، وأغلق بنفسه الباب وراءها .

عادت الأميرة ماري الى غرفتها وعلى وجهها أمارات حزن وشرود ما كانت تفارقه . بل كانت تُضفي على ذلك الوجه المريض محدود الجاذبية والفتنة ستراً من البشاعة . جلست الى مكتبها الذي تراكم فوقه خليط من الكتب والدفاتر والمخطوطات يشهد بأنها على نقيض ابيها ، لاتحب النظام الذي كان مهووساً به . وألقت دفتر الهندسة جانباً ، وراحت تفض الرسالة التي بعثت بهـــا صديقة طفولتها المفضلة بصبر نافذٍ لتطلع على ما أوردت فيها . ولا يفوتنا هنا ان نُنوّه بأن صديقتها جولي ، هي بعينها جولي كاراجين التي مرّ بنا الدور الذي لعبته في حفلة آل روستوف .

كتبت جولي ما يلي :

« عزيزتي الصديقة الممتازة . ان الغياب امر مخيف مرعب ! لقد قلت دوماً ان نصف وجودي وسعادتي كامن في شخصك وانه على الرغم من المسافة التي تفرق بيننا ، فإن قلبينا متصلين برباط لايُفصم عراه . ان قلبي يتمرد على القدر فلا استطيع ، رغم المسرات التي تحيط بي والتي تساعـدني على الترويح عن نفسي ، ان اهزم وأبدد لوناً من الحزن الدفين الذي احسّ به قابعاً في اعماق قلبي منذ فراقنا . لمَ يا تُرى لم نجتمع هذه المرة كما وقع لنا ذلك الصيف في غرفتك الكبرى على الأريكة الزرقاء ، اريكة الاعترافات ؟ لمَ لا استطيع منذ ثلاثة شهور ان احصل على قوى معنوية جديدة استمدها من نظرتك شديدة الوداعة شديدة الهدوء وشديدة التعمق ، تلك النظرة التي احببتها حباً جماً ، والتي يخيل الي انها ماثلة امامي ساعة اكتب اليك هذه الرسالة ! »

لما بلغت الأميرة هذا المقطع ، رفعت نظرها الى مرآة مقامة الى يمينها في فراغ بين نافـــذتين . فعكست المرآة صورة هزيلةً محزنةً راحت عيناها المكتئبتان تتأملانها بكثير من الأسى والحزن . قالت في سرها : « إنهـا تمتدحني » وأشاحت بوجهها عن المرآة لتتابع القراءة . غير ان جولي ما كانت تُغدق المديح الكاذب على احد وخصوصاً على صديقتها . اذ ان عيني الاميرة الكبيرتين العميقتين كانتا احياناً تشعان بإشعاعات دافئة حامية تسبغ على وجهها المهزول جاذبية يعجز الجمال عن مثلها . ولما كانت الأميرة ماري تعرف ان تلك النظرة الدافئة الفتانة لاتشع من عينيها الا في اوقات تكون فيها ابعد الناس عن التفكير في نفسها ، لذلك فقد كانت لاترى تلك البادرة ابداً ولا تعتقد بوجودها . كانت ككل الناس تقريباً ، اذا وقفت امام المرآة ، اتخذت طابع الترقب اللاارادي الذي يرتسم عادة على كل وجه امام المرآة ، فكان ذلك الطابع يشوه حسنها . تابعت قراءة الرسالة :

« ان موسكو كلها لاتتحدث الا عن الحرب ، وان واحداً من أخوي أصبح الآن خارج البلاد ، اما الثاني فانه مع فرقة الحرس التي تتجه نحو الحدود. ان امبرطورنا العزيز قد ترك بيترسبورج وهو يرمي – على ما نما الي – الى تعريض ذاته السنية لخطر الحرب . فعسى ان يقدر الله ان يُسحق الوحش الكورسيكي الذي أقلق سلام أوربا ودمره ، من قبل الملك الذي أرسله الله لنا برحمته ملكا وامبراطوراً ! ان هذه الحرب قد حرمتني علاقات حبيبة الى قلبي بصرف النظر عن أخوي اللذين يخوضان غمارها . ذلك ان نيكولا روستوف، الشاب الذي دفعته حماسته الى الانخراط في الجيش وترك الجامعة ، قد ذهب في عداد الذاهبين . ثقي ياعزيزتي ماري انه على الرغم من سنه الفتي الريان ، فانني أستطيع ان أصرح لك بأن ذهابه سبب لي حزنا كبيراً . ان ذلك الشاب ،وقد حدثتك عنه في الصيف الماضي ، شديد النبل . نبل يندر ان يلاقي المرء مثله في هذا العصر حيث نعيش بين شيوخ في العشرين من أعمارهم . انه طيب القلب جداً ، صريح الى أبعد حدود الصراحة . وهو نقي السريرة ، شاعري الاحساس ، حتى ان علاقاتي معه مهما بلغت من تفاهتها وكانت علاقات عابرة ، كانت أجمل المباهج التي مرت على قلبي المسكين المفعم بالألم . سأحدثك ذات يوم عن كل ماتحدثنا به عند الوداع وما دار بيننا خلاله . انه لازال حتى الآن عالقاً في ذاكرتي لأنه حدث بالأمس القريب . آه ، ياصديقتي الحميمة ! انني اغبطك لجهلك المباهج والآلام الممضة التي أتحدث عنها في هذه الرسالة . انك سعيدة لأن المتأخرات في هذا المضمار هن دائماً الأكثر سعادة والاشد ساعدا وقوة ! انني أعرف تماماً ان الكونت نيكولا صغير جداً لاأمل لي في بناء آمالي عليه في شيء أكثر من الصداقة العادية ، غير ان تلك الصداقة الهادئة الوادعة ، وتلك العلاقات شديدة الطهر والشاعرية ، كانت كلها من متطلبات قلبي . ولكن لنترك هذا الأمر

جانباً ، ولنتحدث في غيره . ان الخبر الأخير الذي يشغل بال أهل موسكو جميعاً وهو موت الكونت بيزوخوف الهرم وإرثه . تصوري ان الأميرات الثلاثة لم يرثن الا نزراً تافهاً ، وان الامير بازيل حُرم من كل شيء ، وان السيد بيير قد ورث كل شيء وأصبح علاوة على ذلك ابن الكونت الشرعي وبالتالي الكونت بيزوخوف ، مالك أكبر ثروه في كل روسيا . انهم يزعمون ان الامير بازيل لعب دوراً مرذولاً في هذه القضية ، وأنه انسحب عائداً الى بيترسبورج وهو حائر شديد الخجل .

« أصرح لك بأنني لا أفهم من هذه الأمور شيئاً يذكر ، لكنني أرى وأعرف أنه منذ ان أضحى الشاب الذي كنا نعرفه تحت اسم السيد بيير فقط ، كونت بيزوخوف مالك أكبر الثروات الروسية ، فانني أتسلى بالنظر الى السيدات والأوانس ومراقبة التبديلات والتغيرات في اللهجات وأساليب التحدث التي طرأت على الأمهات اللاتي ينؤن بأعناد بناتهن ، البالغات سن الزواج ، حيال هذه الشخصية الجديدة الذي ظل يبدو لي رغم ذلك ، كما كان من قبل ، سيداً مسكيناً . ولما كانوا منذ عامين يزعمون دائماً أنني سأزوج لفلان او فلان من المجهولين مني ، فان آخر اشاعة راجت في موسكو جعلتني الكونتيس بيزوخوف المنتظرة . لكنك تشعرين ولا شك بشعوري ، وتعرفين انني لا أفكر قط في مثل هذا المركز . ولما كنا نتحدث عن الزواج فانني أعلمك « ان العمة الجماعية » آنا ميخائيلوفنا أسرت إليّ أخيراً تقول ان هناك مشروع زواج يتعلق بك يحاك في الخفاء . فهل تعرفين الزوج المنتظر ؟ خمني . انه ليس الا ابن الامير بازيل ، الشاب آناتول الذي يفكر أبوه في إيجاد مركز رفيع له ، وإقحامه في صلب المجتمع ، بتزويجه من فتاة غنية راقية ومرموقة . وقد وقع اختيارهم واختيار ذويه عليك . ولست أدري كيف تنظرين الى الأمر ، لكنني اظن

ان من واجبي ، رغم السرية التامة التي أحيط المشروع بها ، ان أبلغك وأنذرك بما يقال ومايشاع عن زوجك المنتظر . انهم يقولون انه جميل جداً وشاب رديء جداً . هذا كل ما استطيع قوله وما أعرفه عنه .

« ولكن كفانا ثرثرة حتى الآن . لقد ملأت الورقة الثانية من رسالتي ، وها ان امي أرسلت في طلبي لأذهب معها عند آل ابراكسين . اقرئي الكتاب الديني الذي يبحث في شؤون العبادة والذي أرسلته لك مع كتابي هذا لانه شديد الرواج عندنا . وعلى الرغم من ان هذا الكتاب يحفل ببعض الامور التي يصعب علينا فهمها بامكانيتنا الانسانية المحدودة الضعيفة ، فانه كتاب رائع تسمو النفس عند قراءته . وداعاً . احتراماتي للسيد أبيك وتمنياتي للآنسة بوريين . أقبلك كما أحبك .

جولي »

« ملاحظة : اطلعيني على اخبار أخيك وزوجته الصغيرة الفتانة » .

راحت الأميرة ماري تفكر ، واخيراً ابتسمت وهي شاردة الذهن ، وانبسطت اسارير وجهها الذي اضاءه ذلك الاشعاع المنبعث من عينيها . نهضت فجأة ومضت الى مكتبها بخطوات ثقيلة ، فأخذت ورقة ، وراحت يدها تجري بالقلم عليها جرياً . كان الجواب الذي حررته مايلي :

« عزيزتي وصديقتي الممتازة ، لقد احدثت رسالتك المؤرخة في ١٣ الجاري سروراً بالغاً في نفسي . انك اذن لازلت تحبينني يا جوليتي الشاعرية . والفراق الذي تتحدثين عن كل مساوئه لم يؤثر في نفسك اثره المباشر الطبيعي ، لانك لم تنسيني . انك تشتكين من الفراق فماذا أقول انا اذا « جاز لي » ان اشكو ، وانا المحرومة من كل من هم اعزاء على نفسي ؟ آه ! لو لم يكن لدينا الدين عزاء ، لكانت الحياة شاقة لاتطاق ، حزينة كئيبة . لم توقعت مني نظرة صارمة عندما حدثتني عن اعجابك بفتاك الشاب ؟ اني على هذا الاساس ، لست قوية

ولا قاسية الا على نفسي . انني افهم هذه الاحساسات التي تعتلج في نفوس الآخرين . ولما كنت لاأستطيع تأييدها ، خصوصاً وانني اشعر بها بنفسي ، فانني لااحكم عليكم على ضوئها . يبدولي ان الحب المسيحي فقط ، حب المستقبل والآخرة ، حب اعدائنا ، هو الحب الوحيد الاكثر فائدة وجدارة . وهو اجمل حب وانبل إحساس لاتستطيع العيون الجميلة واثرها في نفس فتاة شاعرية عاشقة مثلك ، ان تحدث مثلها .

« ان موت الكونت بيزوخوف قد بلغنا قبل وصول رسالتك . ولقد حزن ابي حزناً عميقاً لموته وقال : انه كان قبل الاخير بين ممثلي القرن المشرق الباهر ، وانه الآن بات يتحين دوره ، لكنه سيعمل مافي طاقته لتأخير حلول ذلك الدور مااستطاع الى ذلك سبيلا . ليحفظنا الله من ذلك البلاء المريع ! انني لااشاطرك رأيك حول بيير الذي عرفته طفلاً . لقد كان يبدولي دائماً ذاقلب ودود ممتاز ، وهذه الصفة هي التي اقدرها اكثر من غيرها في نفوس البشر . اما فيما يتعلق بإرثه وبالدور الذي لعبه الامير بازيل ، فان الامر ذو عناء ونصب للاثنين معاً . آه ، ياصديقتي الحبيبة ! ان كلمة مخلصنا الالهي التي تقول : ان دخول جمل في سم الخياط اسهل من دخول غني في ملكوت السماوات لرهيبة في حقيقتها وصدقها . وانني اشفق على الامير بازيل وآسف من اجل بيير آسفاً اكثر عمقاً . انه يافع بعد ، تبهره مثل هذه الثروة ، فكم من مغريات سيتعرض لها بسببها ! لو انهم سألوني عما افضله في هذا العالم على سواه من الامور ، لقلت انني ارغب ان أكون أشد فقراً من أفقر المتسولين . الف شكر ياصديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلتيه لي ، والذي هو في أوج رواجه عندكم . ولما كنت تنوهين بأنه يحوي ، بين العديد من الامور الطيبة التي فيه ، على شؤون لايستطيع ادراكنا البشري بلوغ مداها ، فانه يبدولي عبث الاستغراق وضياع الوقت في

قراءة يصعب فهمها ، يمكن ان تكون نتيجتها عديمة الجدوى . انني لم أفهم قط سبب الولع الذي يبديه بعض الناس في تشويش مداركهم بالتعلق ببعض الكتب اللاهوتية التي لا تخلع على نفوسهم الا أطيافاً من الشكوك والارتياب ، فيسمو خيالهم ويعطيهم نفسية متعنتة متطرفة ، تتناقض مع البساطة المسيحية . لنقرأ الاسفار والانجيل وأقوال الرسل . ولنترك البحث في محاولة التعمق في ماوراء ذلك من اسرار لاننا لايجوزلنا ، ونحن الخاطئون الحقيرون ، ان ندخل او ان نزعم اننا نستطيع الدخول في الاسرار الرهيبة المقدسة التي اختصت بها القدرة الالهية ، طالما اننا نرفل في ثوبنا الجسدي الذي يرفع بيننا وبين الواحد الازلي ستاراً لايخرق . فلنكرس جهودنا اذن لدراسة المبادىء السامية التي خلفها مخلصنا الرباني وراءه لتكون سنتنا على هـذه الارض ، ولنسع فى اجادة القدوة وتأثر خطاه الشريفة ، ولنضع نصب أعيننا اننا كلما اعتدلنا في ارهاق فكرنا البشري الضعيف كلما كان ذلك أكثر تقبلاً من الله ورضواناً منه . لأن الله يستبعد كل علم لايبلغ بالمرء اليه ، وإننا كلما حاولنا التعمق في الامور التي طاب له ان يبعدها عن نطاق معرفتنا ، كلما أسرع في تقريبها وكشفها بروحه السامية .

« لقد حدثني أبي عن الزوج المنتظر ، لكنه لم يسهب ، بل اكتفى بالقول انه تلقى رسالته وانه ينتظر الاميرباذيل . أما رأيي في مشروع الزواج الذي يتعلق بي ، فانني أعتقد بأن الزواج سنة ربانية ينبغي على المرء ان يخضع لهـا . وانني واثقة من ان الله القدير ، اذا فرض علي واجب الزواج والامومـة ، فانه سيعطيني القوة الكافية لاداء تلك الواجبات بكل ما في طاقتي من اخلاص ، دون ان ابالي بالأختبار الذي ستجتازه عواطفي حيال الشخص الذي سيصبح زوجي .

« لقد تلقيت رسالة من اخي يعلمني فيها بأنه سيحضر الى الجبل الاقرع مع

زوجته . لكنها ستكون بهجة قصيرة الأمد لأنه سيغادرنا بعدهـا ليشترك في الحرب التعسة التي اندفعنا فيها ، والذي لايعلم الا الله كيف ولماذا اشتركنـا فيها . والحديث عن الحرب لا يقتصر على وسطكم الحافل بالاعمال والمنتديات ، بل انه تعداه الينا وسط اعمال الحقول وهدوء الطبيعة ، كما يتصور أهل المدن حياة الارياف . ان الحديث عن الحرب قد بلغ اليـنـــا وأحدث أثره السيء الاليم . وأبي لايتحدث الا عن هجوم وهجوم مضاد ومـا الى ذلك من امور لاأفقه منها شيئا ! وأمس الاول ، بينما كنت أتنزه في شارع القرية كعادتي ، وقعت أبصاري على مشهد أليم مروع . . . لقـد شهدت بأم عيني قافلة من المجندين الذين ادخلوا في اسلحـة الجيش يغادرون القرية الى مراكزهم التي تنتظرهم . ولو انك شهدت مثلي حالة امهاتهم وزوجاتهم واولادهم ، اولئك النساء الملتاعات اللواتي شهدن ذهاب رجالهن الى الحرب ، وهن ينتحبن ويبكين ، لاعتقدت معي ان الانسانية نسيت قوانين مخلصها الرباني الذي بشر بالمحبة والعفو عن الاساءات ، تلك الانسانيةالتي باتت تتنافس بينها وتتسابق في التقتيل والتدمير .

وداعاً ياصديقتي الطيبة العزيزة ، وليحرسك مخلصنا الرباني وأمـه الشديدة القدسية برعايتها القوية المقدسة .

«ماري »

قالت الآنسة بوريين الضاحكه بصوتها الرخيم الألثغ :

ــ آه ! هل ترسلين رسالة ، ياأميرة ؟ لقد ارسلت بريدي . لقد كتبت الى امي المسكينة .

كانت المرافقة ، الآنسة بوريين ، فتاة لعوباً تجر في اعقابها عالماً من المرح والبهجة يبدد الجو الثقيل المشحون بالاسي الذي تعيش الأميرة فيه .

أردفت الآنسة بوريين ، وهي تخفض صوتها :

ــ ينبغي ان اخطرك ، ياأميرة : ان الأمير تعرض اليوم لنقاش حاد مع ميشيل ايفانوف ، وهو الآن متعكر المزاج شديد التضجر والتبرم . وقد رأيت ان من واجبي ان أخطرك بالامر .

كانت الآنسة بوريين تجد لذة فائقة في التحدث عن مزاج الأمير ، حتى انها عندما كانت تروي للأميره ماري موضوع النقاش ، كان صوتها الرخيم العذب ينطق بالسرور الفائق . غير ان الأميرة لم تكن من رأيها ، اذ قالت تجيبها :

ــ آه ، ياصديقتي العزيزة ! لقد رجوتك من قبل ان لاتحدثيني أبداً عن مزاج أبي والحالة النفسية التي يكون عليها . انني لااسمح لنفسي ان انتقده ولا أريد ان يفعل غيري ذلك .

والقت الأميرة نظرة الى المنبه ، انبأتها بأنها قد تأخرت خمس دقائق في تطبيق برنامجها العملي . فانطلقت الى البهو بوجه فزع . فقد درجت عادة الامير على نشدان الراحة من الظهر وحتى الساعة الثانية . وكان على الأميرة ماري ان تمضي ذلك الوقت في دراسة الموسيقى الوترية وتطبيق دروسها على « البيان » الذي في البهو .



الفصل السادس والعشرون

« الاب والابن »

كان الخادم العجوز غافياً في مقعده على صوت الشخير الذي اعتاد على سماعه كلما كان الأمير نائماً في غرفته الرحبة . ومن الجناح الاقصى من البيت ، كانت ايقاعات لحن خاص بـ : دوسك - وهو مؤلف موسيقي تشيكي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت – تتكرر باستمرار وترديد ممل ، لشدة الصعوبة التي كانت تواجه العازفة في اجـادة عزف ذلك اللحن الصعب ، وتصل الى اسماع الخادم العجوز خافتة ، خلال العديد من الأبواب الضخمة المغلقة التي تفصل بين الجناحين .

وفي تلك اللحظة ، توقفت عربتان امام باب الفناء ، احداهما مغلقة من طراز بيرنين والاخرى خفيفة مكشوفة من طراز بريتشكا . ترجل الامير آندره من الاولى وساعد زوجتـه الصغيرة على الهبوط ، ودعاها لتتقدمه في المشى . فأخرج الخادم العجوز تيخون رأسه المغطى بشعر مستعار ، خلال فرجة قاعة الانتظار ، وابلغ الامير الشاب بصوت منخفض ان اباه في قيلولته ، ثم

اغلق الباب . كان يعرف ان اي حدث مهما بلغت اهميته ، حتى ولا وصول الأمير الشاب ، ما كان يعكر سير برامج الامير وسياق ترتيب اوقاته . وكان آندره يعرف ذلك كما يعرفه تيخون تماماً ، وقد اقنعته نظرة ألقاها على ساعته بان الأمير العجوز لم يتبدل قط منذ ان بارحه آخر مرة . فقال لزوجته :

— سينهض ابي بعد عشرين دقيقة ، فلنمض الآن الى جناح ماري .

كانت الاميرة الصغيرة قد ترهلت بعض الشيء ، لكن عينيها وشفتها القصيرة الباسمة المظللة بطيف من الزغب كانت تتخذ دائماً ، عندما تشرع في الحديث ، ذلك الطابع الوديع الظريف . اخذت تسرح الطرف حولها ثم قالت لزوجها بمثل اللهجة التي كانت تخاطبه بها لو انه كان قد رتب حفلاً راقصاً او اقام عرضاً مغريا :

— لكنه قصر منيف ، لنسرع ، هيا ، لنسرع ! . . .

كانت تبتسم لكل من كان حولها ، لزوجها ، لتيخون ، وللخادم الذي كان يقودهم . اردفت :

— ان ماري تتمرن على العزف ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ينبغي ان نفاجئها ، فلا تثيروا صخباً . . .

كان الأمير آندره يتبعها وعلى وجهه طابع أنس يشوبه الغم . قال يحدث تيخون الذي تقدم منه وقبل يده :

— لقد هرمت ، ياتيخون . . .

وبينما كانا على وشك الوصول الى البهو ، حيث راح صوت المعزف يزداد وضوحاً ، شاهدا فتاة شقراء صغيرة الحجم جميلة الوجه ، تكاد تطير من الفرح ، تخرج من باب جانبي . هتفت الشقراء في مرح :

— آه ! بالسعادة الاميرة . اخيراً . . . لقد وصلتما ، ينبغي ان اخطرها .

فقالت الاميرة الصغيرة ، وهي تعانق الفرنسية الشقراء :

— كلا ، كلا ، وحق السماء ... انك الآنسة بوريين . لقد عرفتك فوراً لكثرة ماحدثتني عنك الأميرة ماري في رسائلها . انها تكن لك حباً عنيفاً . هل تنتظر قدومنا ؟

توقف الأمير آندره على باب قاعة الموسيقى ، حيث كان ذلك المقطع الشائك لاينى يتكرر ويتردد باصرار وعناد ، وكأنه تطير امام مشهد محزن يكاد ان يقع .

دخلت ليز ، فانقطع اللحن في ادق مقاطعه ، وانبعثت صرخة ، وصوت خطى ماري البطيئة ، ورنين القبل . ولما حزم آندره أمره على الدخول ، كانت أخته وزوجته ـ وقد انقطعتا عن رؤية بعضهما بعد ان امضتا فترة قصيرة عقب زواج آندره بليز ـ تضمان بعضهما بعنف وشغف ، وترشقان القبل كيفما اتفق ، بينما كانت الآنسة بوريين تضغط على قلبها بيده ، وهي تبتسم بغبطة ، وتكاد ان تنخرط في البكاء او تنفجر بقهقهة . قطب آندره حاجبيه وهز كتفيه ، كما يفعل الهواة عندما تصك اسماعهم نغمة نشاز واخيراً ، افلتت الاميرتان بعضهما ، ولكن سرعان ماهوت كل منها على يد الاخرى فأطبقت عليها وكأنها تريد تقبيلها ، رغم ممانعة كل منهما لحركة الاخرى . ثم عادتا الى العناق من جديد ، ولشديد دهشة الأمير آندره انخرطتا في بكاء مرير ، وهما تتبادلان القبل . وحزمت الآنسة بوريين امرها على البكاء ، ونفذت عزمها . وما كان الأمير آندره يخفي انزعاجه ، غير ان الاميرتين كانتا تجدان تلك المكاشفة القلبية أمراً طبيعياً . بل انهما ماكانتا تظنان ان لقاءهما يمكن ان يتم على ابسط من ذلك الشكل .

لم تلبث الأميرتان ان انتقلتا من النحيب الى الضحك ، فقالتا معاً :

ـ آه ! ياعزيزتي ! . . . آه ! ماري ! لقد حلمت الليلة الفائتة . . . ما كنت تتوقعين اذن . . . آه ماري ! لقد هزلت . . . وقد استعدت أنت . . .

قالت الآنسة بوريين ، وقد قدرت تدخلها ضرورة لازمة :

ـ لقد تعرفت فوراً على سيدتي الأميرة . .

هتفت ماري :

ـ وأنا التي ما كنت أتوقع أبداً ! . . . آه ! آندره ! . . . لم أرك من قبل .

وتعانق الأخ والأخت ، فقال لها آندره إنها لازالت تلك المنتحبة «إياها» ، بينما ألقت « هي » نظرة طافحة بحرارة العطف خلال دموعها ، نظرة كانت تشع من عينيها الدامعتين فتكسب وجهها جمالاً وروعة .

كانت ليز خلال ذلك مسهبة في الحديث . وكانت ابتسامتها الرائعة لا تفارق فمها بسبب استمرار هبوط الشفة العليا القصيرة على الشفة السفلى ، وكشفها خلال هذه الحركة الرتيبة عن أسنانها البيضاء اللامعة . راحت تروي حادثاً وقع لها على منحدر سباسكوائي كان يمكن ان يكون ذا نتائج خطيرة بالنسبة لها وهي في حالتها الحاضرة . ثم انتقلت الى التحدث عن شؤونها فقالت انها تركت كل مستلزمات زينتها في بيترسبورج ، وانها لن تجد هنا ماتظهر فيه ، وان آندره قد تبدل كثيراً ، وإن كيتي أودنيتسوف قد تزوجت رجلاً هرماً ، وانهم وجدوا جدياً خطيباً لماري ، ولكنها ستتحدث عن هذا الأمر فيما بعد . وكانت الأميرة ماري لاتنبس ببنت شفه خلال ذلك الحديث المختلف المطول ، بل كانت عيناها المفعمتان بالحب والحزن شاخصتين الى آندره ، بينما كانت أفكارها تتبع اتجاها يختلف كل الاختلاف عن الوجهة التي كانت تسير فيها أحاديث ليز . وبينما كانت هـذه تصف آخر الاعياد التي أحييت في بيترسبورج ، سألت ماري اخاها :

– هل تذهب الى الحرب حتماً ، ياآندره ؟

وزفرت زفرة حرى ، فانتفضت ليز وأجابت :

– نعم ، بل ومنذ الغد .

ثم أردفت تقول :

– سوف يهجرني هنا ، والله أعلم بالسبب ، رغم أنه كان يستطيع ان يحصل على ترقية ...

لم تنه جملتها حينما عادت الأميرة ماري ، وقد كانت منسجمة مع أفكارها الخاصة ، تقول لأخيها وهي تلقي نظرة ودوداً على قامته المتناسقة :

– اذن ، هل ذلك محقق ؟

فابدلت ليزا طابع وجهها وزفرت مرة اخرى ، وقالت :

– نعم . آه انه لأمر مفزع ! . . .

انسدلت شفتها العليا فجأة فأطبقت على السفلى ، وأدنت وجهها من وجه الأميرة وشرعت تنتحب .

قال الأمير آندره ، وهو يقطب حاجبيه :

– انها في حاجة الى الراحة . أليس كذلك ، ياليز ؟ خذيها الى جناحك بينما أمضي للقاء أبي . كيف حاله ؟ هل لازال كعهدنا به ؟

فأجابت ماري برقة :

– نعم ، كعهدنا به . بل يبدو لي انه ساء قليلا عن ذي قبل . سوف تراه بنفسك .

سأل الأمير الشاب ، وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة تدل على انه – رغم كل الاحترام الذي يكنه لأبيه – يعرف نقاط الضعف فيه :

– ألا زال مولعاً بالأوقات الثابتة اياها ، وجهاز صنع الأواني الفخارية ، والنزهات في الماشي المشجرة ؟

فأجابت ماري :

ـ نعم ، لازال يصر على دقة أوقاته ، ويغرم بجهازه وبالرياضيات ، ودروس الهندسة التي يلقنها لي كل يوم .

كان صوتها الفكه ، وهي تتحدث عن دروسها ، يوهم السامع ان تلك الدروس كانت احدى مباهجها الرئيسية المستظرفة !

ولما انقضت الدقائق العشرون وأزفت ساعة نهوض أبيه النظامية ، جاء تيخون يستدعي الأمير الشاب للقاء أبيه الذي خرق نظام عاداته ابتهاجاً بقدم ابنه ، وتفضل باستقباله بعد فترة راحة الظهيرة ! فلما دخل آندرة الى غرفة الزينة ، كان الأمير الشيخ جالساً على مقعد ضخم من الجلد ، مرتدياً قميصاً ، مسلماً رأسه لعناية تيخون لانه كان أميناً على العادة القديمة ، فكان يرتدي أبداً ثوباً موشى وينثر على شعره الذرور . لم يدخل الأمير على أبيه كما كان شأنه في المجتمعات الراقية : شرساً متطيراً بوجه مكتئب ، بل كان هاشاً شديد الحيوية ، كما كانت عليه حاله عندما التقى لأول مرة بصديقه بيير .

هتفت الأمير عند رؤية ابنه الشاب :

ـ آه ، هوذا رجل الحرب ! لقد صورت اذن لنفسك انك ستهزم بونابرت؟

وهز برأسه بقدر ما كان تيخون ، الذي كان يضفر الشريط الذي يثبت شعره ، يسمح له به وأردف :

ـ حسناً ، مثلك كمثل الآخرين . فاعمل ما في طاقتك . لأننا اذا لبثنا على على مانحن علية من تصرف ، سوف يجعلنا بعد حين في عداد أتباعه !

ثم أضاف ، وهو يقرب له وجنته :

ـ مرحبا !

كان الأمير الشيخ يزعم ان النوم بعد الغداء من فضة بينما النوم قبل

الغداء من ذهب . وفي الحقيقة انه كان على أحسن مزاج . ألقى نظرة جانبية نحو آندرة ، يظللها حاجباه الكثيفان المنسقان بعناية ؟ فقبله هذا في المكان الذي عينه أبوه ، لكنه لم يعقب على رأي أبيه ، الذي درج على الاستهانة بعسكريي المدرسة الحديثة ، وبصورة خاصة ببونابرت .

قال الأمير الشاب وهو يتابع ببصره بامتثال شديد كل حركة من عضلات وجه أبيه العجوز :

ـ ها أنذا يا أبي . لقد أتيتك بزوجتي ، وهي في حالة خاصة . كيف حالك يا أبي ؟

ـ إن المرض ياعزيزي لايداهم الا الحمقى والفجار . ولما كنت ـ كما تعرف ـ عفيفاً زاهداً جما المشاغل ، أعمل منذ الصباح وحتى المساء ، فان ذلك يجعلني في صحة جيدة .

فقال آندره باسماً :

ـ حمداً لله وشكراً .

ـ لادخل لله في هذا الموضوع .

ثم أعقب وقد عاد الى سخريته المعتادة :

ـ هيا حدثني كيف علمكم الألمان التغلب على بونابرت ، بحسب الجديد المسمى « ستراتيجية »

فأجاب آندره بابتسامة وديّة تنبىء بأن ميول العجوز لاتمنعه من الامعان في احترامه وقال :

ـ دعني أتنفس يا أبي . لست أدري بعد أين سنستقر .

فهتف الامير وقد أمسك بذراعه وهو يجذب شريط شعره ليختبر متانته :

ـ بل على العكس ، على العكس . ان مخدع زوجتك جاهز . سوف

تأخـــذها ماري اليه . سوف تثرثران بكل سرور ، لأن النساء لا هم لهن إلا الثرثرة . انني سعيد باستقبالها . هيا اجلس والنتحدث . انني افهم ماذا يعمل جيش ميخلسن ، وكذلك جيش تولستوي . . . نزول متوافق . ولكن ماذا يفعل جيش الجنوب ؟ سوف تبقى بروسيا حيادية ولا شك . ولكن ماذا عن النمسا ؟ والسويد ؟ كيف يمكن اجتياز بوميرانيا Pemeranie ؟

نهض الأمير وراح يذرع غرفته يتبعه تيخون الذي كان يقدم له قطع الثياب المختلفة ليرتديها . فلم يستطع الأمير آندره امام ذلك الالحاح الا ان يخوض في في الحديث . بدأه في شيء من الضجر ، لكنه ما لبث أن ثارت حميته وازداد اندفاعه ، فراح كعادته ، يخلط الكلمات الروسية بالكلمات الفرنسية ، وأخـــذ يعرض على مسامع أبيه ، خطة المعركة المقبلة : سيهدد بروسيا جيش قوامـــه تسعون ألف رجل ليخرجها عن حيادها . وسوف يجتمع جانب من ذلك الجيش في سترالسوند بجيش السويد . وسوف ينشط للعمل في ايطاليا وعلى الرين مائتا ألف نمساوي ومعهم مائة ألف روسي . وسينزل في نابولي خمسون ألف روسي وخمسون الف انكليزي . وسيكون مجموع الجيوش التي ستهاجم الفرنسيين ، خمسمائة ألف رجل ، وستعمل هذه الجيوش في نقاط مختلفة متنوعة .

كان الأمير الشيخ ، مستمراً في ارتداء ملابسه خلال الحديث وهو يتمشى في الغرفة . ما كان يبدي أي اهتمام بما يشرحه ابنه من نظريات ، بل كان يبدو وكأنه لايصغي الى قوله فلم يقاطعه الا ثلاث مرات ، وبصورة غير منتظرة أبداً . الاولى عندما صاح قائلا :

ـــ الأبيض ! الأبيض !

وكان معنى ذلك أن تيخون أخطأ في تقديم الصدارة المطلوبة . والمرة الثانية عندما توقف ليسأله :

ـــ اذن ، هل الولادة قريبة ؟

ثم هز رأسه بعدئذ بلهجة المؤنب وهتف :

– في ! في ! ... استمر ، استمر .

وأخيراً ، بعد ان انتهى آندره من حديثه ، أرعد بصوت نشازمحطم يغني :

مالبورغ يمضي الى الحرب .

الله يعرف متى يعود .

أعقب آندره مبتسماً :

– انني لا أزعم أن ما عرضته على مسامعك هو المخطط المثالي الذي أحلم به ، لكنني اروي لك ما سيكون . ولاشك أن لنابليون خطته التي تساوي هذه.

فقال الأمير الشيخ مؤيداً :

– هيا ، انك لم تطلعني على شيء جديد . هيا الى مائدة الطعام !

وراح يدندن من جديد :

الله يعلم متى يعود ...

* * *

الفَصلُ السَّابِعُ وَالعِشرونَ

(على المائدة)

في الساعة المحددة لتناول الطعام ، دخل الامير العجوز قاعة الطعام وهو على احسن زينة ، فالتقى بابنته وزوجة ابنه والآنسة بوريين ومهندسه الخاص الذين كانوا ينتظرون قدومه حول المائدة . وكان الامير ـ انسياقاً مع هوى في نفسه ـ يتصل على مائدته ذلك المهندس عديم الشأن مضفياًعليهشرفاًواعتباراً كان الامير قليل الميل نحو اتحاد الطبقات ، وكان يدعو الىمائدته كبارموظفي المقاطعة في فترات بعيدة ، مع ذلك فقط حلاله ان يظهر في شخص المهندس ميخائيل ايفانوفيتش الذي كان يمسح انفه بين الحين والحين بمنديل ذي مربعات، ان كل الرجال متساوون على الأرض . وكان قد المح اكثر لابنه ان ميخائيل ايفانوفتش لم يكن ادنى منهم منزلة في شيء فكان خلال اوقات الطعام ، يوجه جل حديثه الى المهندس الصامت .

كان افراد الاسرة ينتظرون قدوم الأمير في قاعة الطعام الكبيرة ذات الجدران المرتفعة اسوة بكل غرف البيت . وكان خادم يقف وراء كل مقعد

ورئيس الخدم واضعاً منشفته على ذراعه ، يرقب المائـــدة ، فيعطي بين حين وآخر أوامره بعينيه للخدم ، بينما كانت عيناه القلقتان ، تتبعان مشيةعقارب ساعة الجدار البطيئة ، وتنتقلان منها إلى الباب الذي سيدخل الامير منه . كان آندره يدقق في اطار كبير مذهب ، لم يره من قبل، يحوي شجرة بولكونسكي السلالية ، يرتبط باطار آخر لايقل عنه ضخامة ، يحيط بصورة امير مالك ، جالس على عرش وعلى رأسه تاج ، وهو ولاشك سليل روريك ، وأصل اسرة بولكونسكي . كانت اللوحة سيئة التصوير تدل على انها من صنع رسام مبتديء .

كان آندره متعصباً امام الشجرة السلالية يهز رأسه ضاحكاً وكأنه يعاين رسماً هزلياً « كاريكاتورياً » .

قال لأخته التي كانت تقترب منه :

ـ انني اتعرف عليه هنا !

فنظرت اليه ماري مأخوذة . لم تكن تفهم مايدفعه الى الضحك .

فقد كان كل ما يعمله ابوها ، يوحي اليها باحترام عميق .

استطرد آندره يقول :

ـ لكل انسان نقطة ضعفه . كذلك فان ذكاء متوقداً كذكائه قد اهرق في هذا العمل المضحك الغريب !

ما كانت ماري تتقبل حكماً هداما مناقضاً كهذا الحكم ، فهمّت تريد لومه والتعرض لاسلوبه ، لولا أن ترددت الخطوات المنتظرة وعلا وقعها . ودخل الامير العجوز بمشيته النشيطة الرشيقة ، وحركاته الطليقة وكأنها تعترض على النظام الدقيق الذي يسير الأمور في البيت . وفي تلك اللحظة دقت الساعة دقيقتين وردد البهو صدى دقتين أخريين من الساعة المعلقة على جداره . توقف

الأمير وراحت نظرته العميقة القاسية تنتقل بين الموجودين حتى توقفت على زوجة ابنه . فشعرت هذه بذلك الشعور الذي يندمج القلق فيه بالاحترام ، والذي يفرضه وجود الامير على كل من حوله ، واحست احساس الرعية المخلصة عند اقتراب الملك . لاطف الامير العجوز ليز باسلوب ينقصه التوفيق تدل على قصر باعه في مثل هذه المجاملات ، فربت على مؤخرة رأسها ومس شعرها بيده ثم قال بصوت اجش :

ـ انني سعيد مفتون .

وبعد ان حدّق في وجهها مرة أخرى متفحصاً ، أشاح بوجهه عنها فجأة ومضى الى مكانه على المائدة وهو يقول :

ـ خذوا أماكنكم ، خذوا أماكنكم ، اجلس ياميخائيل إيفانوفيتش

واشار الى زوجة ابنه أن تجلس بقربه ، فهُرع خادم يحمل لها مقعداً الى المكان المعين .

قال العجوز وهو يُشير الى ضخامة وسط زوجة ابنه :

ـ هه ، هه ! هذا يدل على الاسراع في الواجب . في ! في !

وانفجر ضاحكاًضحكته الجافة الباردة المكروهة ، ضحكة تصدر عن فمه فلا تشاطره العينان فيها . اردف بالحاح :

ـ ينبغي السير باسرع مايمكن ، اسرع مايمكن .

لم تسمع الأميرة الصغيرة كلامه ، أم لعلها تظاهرت بأنها لم تسمعه . كانت محتفظة بصمت قلق قطعته مرة لتجيب بابتسامة على سؤال وجّهه الأمير اليها حول صحة والدها . ثم سألها عن معارفها وعندئذ عادت ليز الى انطلاقها المعهود ، فنقلت اليه تمنيات مختلفة وأفرغت مافي جعبتها من هذر العاصمة . تمتمت :

ان الكونتيس آبراكيش ، المسكينة ، فقدت زوجها فبكته بكل ما في عينيها من دموع .

وبينما كانت ليز تزداد حماسة واندفاعا ، كانت نظرة الامير اليها تزداد صرامة وقسوة ، وفجأة اشاح بوجهه عنها وادار لها ظهره وكأنه درسها كفاية ، وراح يُحدث المهندس .

– حسناً ياميخائيل إيفانوفيتش ، إن « بونابرتنا » اضحى الآن في حال سيء! وذلك بالاصغاء الى مايقوله الأمير آندره .

كانت عادته عندما يتحدث عن ابنه ان يشير اليه بالضمير المفرد الغائب . أردف يقول :

– ستنقض عليه زوبعة ثلجية هائلة . ونحن الذين كنا نعتبره مخلوقاً خالياً من الكفاءة والامكانيات !

راح ميخائيل ايفانوفيتش يتساءل في سره عن الوقت الذي استطاع «كلاهما» خلاله التحدث عن هذه الآراء حول بونابرت . لكنه كان يعرف ان الأمير يستخدمه دائماً وسيلة وتكأة لاثارة موضوعه المفضل . لذلك فقد راح ينظر الى الى الامير الشاب بدهشة دون ان يعرف نتائج ذلك الموقف على الضبط .

قال الأمير العجوز لابنه وهو يُشير الى المهندس :

– إه نعم ، انه ماهر جداً في أمور الحرب والخطط الحربية !

وعادت الأحاديث تدور من جديد حول الحرب ، وبونابرت ، والقواد العظام ورجال الدولة المعاصرين . كان يبدو على الأمير العجوز ان كل زعماء العهد الجديد ليسو فقط غلماناً صغاراً يجهلون حتى مبادىء الحرب والسياسة ، بل ان بونابرت أيضاً لم يكن الا فرنسياً حقيراً ، ما كانت انتصاراته لتدوم لوكان

خصومه من طراز بوتيمكين[1] وسوفوروف وكان كذلك مقتنعاً بأنه لم يكن في اوروبا في الوقت الحاضر عدوان ولا حرب جديرة بالاسم الذي يُطلق عليها بل ان الأمر كان مقتصراً على مشهد من مشاهد « كاراكوز » ، حيث الرجال يتظاهرون انهم يقومون بدورٍ جدّي . وكان آندريه يستقبل تلك السخرية اللاذعة بابتسامة مغتبطة ، ويحاول بمكرٍ أن يستزيد أباه منها ، وقال يُثيره :

– نعم اننا نحب دائماً تمجيد الوقت الماضي مع ان « سوفوروفك » سقط في الشرك الذي نصبه له « مورو[2] » ولم يستطع الخلاص منه كما أعلم .

صرخ الأمير العجوز وهو يُزيح صحفته من امامه فيتلقفها تيخون برشاقة :

– من قال لك ذلك ؟ من قال لك ذلك ؟ سوفوروف ! . . . فكر قليلاً يا أمير آندريه ؛ انهما اثنان فقط : فريدريك وسوفوروف ... مورو ! لكن مورو كاد أن يقع سجيناً لو أن سوفوروف كان مطلق الحرية . غير ان يديه كانتا مغلولتين من قبل ضباط القيادة الألمان . سوف ترى هؤلاء الضباط الآن . انهم يخدعون الشيطان نفسه حتى يجعلونه حماراً بليداً . اذا كان سوفوروف لم يستطع أن يتخلص ، فهل تعتقد أن ميخائيل كورتوزوف[3] قادرٌ على ذلك !

---

(١) جريجوار الكسندروفيتش Grégoire Alexandroïtch ، كان « فيلدماريشال» ومقرباً الى جلالة الامبراطورة كاترين الثانية . ولد عام ١٧٣٦ وتوفي عام ١٧٩١ .
– المترجم –

(٢) جان فيكتور مورو Jean Victor Moreau ، جنرال فرنسي ولد عام ١٧٦٣ وتوفي عام ١٨١٣ . قاد جيوش الرين والموزيل الفرنسية عام ١٧٩٦ وحارب في ايطاليا ثم اصبح قائداً عاماً لجيش الرين وانتصر في معركة هوهنلندن Hohenlinden وكاد ان يصبح منافس إبونابرت فنفي الى امريكا اثر مفاوضاته مع الملكيين وقتل بعدئذ في معركة دريسد بينما كان يحارب وطنه في صفوف الروس .
– المترجم –

(٣) ميخائيل كوتوزوف جنرال روسي ولد في بيترسبورج عام ١٧٤٥ وتوفي عام ١٨١٣ كان خصم نابوليون عام ١٨١٢ والمنتصر عليه في معركة كراسنوائي Krasnoié .
– المترجم –

كلا ياصديقي . انكم بكبار ضباطكم الحاليين وحدهم لن تستطيعوا شيئاً ضد نابوليون . انكم اذا شئتم هزيمته ، ينبغي لكم ايجاد فرنسيين « تنكروا نهائياً لأبناء قومهم ، فينقضون على أبناء قومهم » . ولهذا السبب أرسلنا الألماني باهلين[1] الى أمريكا ، الى يورك الجديدة « نيويورك حالياً » للبحث عن الفرنسي مورو .

كان بهذا القول يُلمح الى العرض الذي تقدم الروس به الى ذلك القائد الفرنسي للدخول في خدمة روسيا . أردف يقول :

ــ ياله من ضلال ! هل كان بوتيمكين وسوفوروف وأورلوف[2] وامثالهم من الأجانب ؟ كلا ياعزيزي . لقد فقدتم عقولكم جميعاً او أنني عدت الى عقلية الطفولة ... ليساعدكم الله . وسنرى ... بونابارت عسكري كبير ! هم ! ...

قال الأمير آندريه :

ــ انني لاأزعم ان كل الخطوات التي اتخذت كانت مُجدية وممتازة ، لكن رأيك عن بونابرت يُدهشني . اضحك ما شئت أن تضحك ، ولكنه عسكري كبير حقاً .

صرخ الامير العجوز يستشهد بالمهندس الذي كان يهاجم قطعة الشواء ، معتقداً انه نسي تماماً وأهمل في ذلك الحديث :

---

(١) الكونت بيير دو باهلين Pierre de Pahlen ، حاكم بيترسبورج ورئيس المؤامرة التي ادت الى قتل القيصر بول Poul الاول عام ١٨٠١ ولد عام ١٧٤٤ وتوفي عام ١٨٢٤ .
ــ المترجم ــ

(٢) جريجوار اورلوف Grégoire Orlov ، صفي كاترين الثانية . ولد عام ١٧٣٦ وتوفي عام ١٧٨٣ مصاباً بالجنون اثر طرده من رحمة الامبراطورة . ــ المترجم ــ

– يا ميخائيل ايفانوفيتش ، ألم اقل لك ان بونابارت عسكريٌ كبير ؟ انه هو الآخر يقول ذلك .

فأجاب المهندس :

– تماماً ياصاحب السعادة .

عاد الامير يضحك ضحكته الجافة وقال :

– لقد ولد بونابارت محظوظاً . انه اولاً يملك جنوداً ممتازين . وهو لم يقابل حتى الآن الا الالمان . فمن الذى لم يهزم الالمان ؟ لم يهزمهم الا اولئك الذين ما ارادوا ان يحتملوا عناء ذلك . لان الالمان كانوا منذ ان اصبح العالم عالما يُهزمون ويُغلبّون . انهم لا يُجيدون الا التناحر بينهم . وعلى مثل هؤلاء الحمقى اقام بونابارت مجده .

وراح الامير العجوز يشرح باسهاب الاخطاء الفنية الستراتيجية التي يعزوها الى بونابرت . وراح كذلك ينتقد تصرفاته كرجل دولة . اما الابن فقد كان ممتنعاً عن ابداء اي اعتراض . لكنه كان يبدو على وجهه انه رغم شرح ابيه واقواله ، فانه لم يكن على استعداد لتبديل رأيه حول ذلك الموضوع . وكذلك كان الاب . لكن الامير الصغير كان يتأمل بإعجاب سعة اطلاع العجوز على مجرى الامور من الوجهتين السياسية والعسكرية في كل اوربا ، والطريقة الدقيقه التي كان يُعالج تلك الامور بها رغم انزوائه منذ سنين طويلة في الريف .

قال العجوز مُعقباً :

– لعلك تتصور ان عجوزاً مثلي لايمكن ان يفقه شيئاً في الامور الحاضرة؟ انك مُخطيء . ان هذه الامور لاتني تقلقني حتى انني لا انام الليل بسببها . اذن أين ظهرت بوادر عسكريك الكبير في الآونة الاخيرة ؟

فأجاب الابن :

— ان شرح ذلك يطول .

فهتف العجوز :

— حسناً ، امض اذن الى لقاء بونابارتك ! ...

واستدار نحو الآنسة بوريين وقال :

— يا آنسة بوريين ، هو ذا معجب جديد بامبراطورك القذر .

— انك تعرف تماماً يا أميري انني لست من أنصار بونابارت .

فعاد العجوز يدندن بصوته النشاز :

— الله يعلم متى يعود ...

وأعقبها بضحكة اكثر نشازاً وهو ينهض عن المائدة .

لم تفتح ليزا فمها خلال هذه المناقشة بل كانت تلقي نظرات مذعورة تارة على ماري واخرى على ابيها . فلما انتهى الطعام ، أمسكت بذراع ماري واخذتها الى غرفة مجاورة وقالت لها .

— ان أباك شديد الذكاء . ولعله بسبب ذلك يشعرني بالخوف .

فأجابت ماري .

— نعم ! إنه شديد الطيبة !

* * *

الفصل الثامن والعشرون

الذهاب الى الحرب

كان الأمير آندره عازماً على السفر مساء اليوم التالي . مع ذلك ، فان الأب حرصاً منه على نظام حياته ، انسحب بعد الغداء مباشرة بينما ذهبت ليز الى جناح ماري . أما آندره فانه بعد ان عاين عربته الخفيفة وموضع حقائبه وترتيبها ، وأعطى الأمر بأن يقطر الجواد الى العربة ، راح وهو مرتدياً ثوب السفر وقدنزع الزينةالتي تحلى بها اكتافه ، يهيىء حاجاته الاخيرة بمساعدة خادم غرفته في المخدع الذي خصص له . لم يترك في الغرفة الا الأشياء التي لايتخلى عنها أبداً : صندوق صغير يحوي على أدوات للزينة مصنوعة من الفضة ، وغدارتين تركيتين ، وحسام . وكان أبوه قد قدم له هذه الأشياء هدية بعد ان أتى بها من أوتشاكوف . فكان يحتفظ بتلك الهدية بعناية فائقة محزومة في قطع من القماش السميك .

لقد جرت العادة على ان يفكر كل رجل قادر على التخيل . عندما يطرأ على حياته رحيل مفاجيء او انتقال او تبدل في اسلوب الحياة ، وان تراود عقله

أفكار شتى . لأن مثل تلك الساعة تكون صالحة جدا للبحث في الماضي واقامة خطط للمستقبل . كذلك كان الأمير آندرية في تلك اللحظة . كان عاقداً يديه وراء ظهره يذرع الغرفة من زاوية الى اخرى وهو شاخص البصر يهز رأسه بشرود وتحنان . ترى هل كان يُرهقه الذهاب الى الحرب ويُخيفه ، ام كان تُقلقه هجرانه لزوجته ؟ لعله كان يفكر في كلا الأمرين معاً ... وبينما كان على تلك الحال . تناهى الى سمعه وقع خطوات في الردهة فلم يزعجه ان يفاجأه أحد وهو على تلك الحالة من الشرود والتفكير . توقف قرب المنضدة وراح يتشاغل في عقد غلاف صندوقه ، واستعاد هدوءه وإمارات السكينة المعهودة ، وأسدل على وجهه ذلك الحجاب الكثيف الذي لايمكن للعين ان تستشف خلاله أفكار صاحبه . كانت الخطوات الثقيله تُشير الى مقدم أخته ماري .

قالت لاهثة وكأنها قطعت شوطاً وهي تجري :

– لقد قيل لي انك أمرت بتجهيز العربة . وأنا التي كنت أتحين الفرص للقائك وحيداً . ان الله يعرف متى سنلتقي من جديد . هل أزعجك قدومي ؟

وأضافت وكأنها تُبرر سبب القائها ذلك السؤال :

ذلك أنك تبدلت كثيراً يا آندريوشا .

وابتسمت وهي تنطق باسم التدليل الظريف الذي درجت على اطلاقه عليه . ولعلها وجدت ان من الغرابة ان يكون هذا الشاب الجميل ، ذو الوجه القاسي الصارم ، هـو نفسه آندريوشا ، ذلك الغلام الماكر الهزيل الذي كان رفيق طفولتها .

سألها بعد ان أجاب على سؤالها الأول بابتسامة يسيرة ،

– أين ليز الآن ؟

قالت الأخت وهي تجلس على أريكة قبالة أخيها :

إنها بشديدة التعب حتى أنها نامت من فورها على أريكة في مخدعي . آه يا آندره ! انها امرأة أثمن من كنز ! إنها طفل حقيقي شديد اللطف والدعة. لقد شعرت بميل عنيف نحوها للوهلة الأولى .

لم يُجب آندريه لكن قسماته فضحت سخرية وازدراء ارتسمت على تقاطيعه. فلم يخف ذلك على الأخت . قالت :

— لكن متسامحين حيال هفوات الآخرين الصغيرة يا آندره . من ذا الذي يخلو من هفوات ؟ لاتنس انها نشأت في بيئة صاخبة راقية ، ثم ان حالتها ليست على مايرام . ينبغي ان نضع أنفسنا مكان الآخرين فاذا فهمنا كل شيء صفحنا عن كل شيء ، فكر فيما ينتظر المسكينة عقب لون الحياة الذي ألفته . ستجد ان وضعها الحاضر مؤلم خصوصاً وهي التي ستفترق عن زوجها لتمكث وحدها في الريف .

راح آندريه يبتسم وهو ينظر الى أخته كما يبتسم المرء للشخص الذي يعتقد انه يدرك أفكاره وقال :

— لكنك انت أيضاً تعيشين في الريف ياأختاه ، فلا تجدين الحيـــاة رهيبة بهذا القدر .

— ان أمري يختلف فدع عنك الحديث عني أرجوك ... انني لا أستطيع التطلع الى لون مختلف من الحياة لأنني لا أعرف غير حياتي الحاضرة . فكر قليلاً يا آنـدرية في الحزن الذي تتعرض له امرأة شابة عصرية تدفن نفسها في الريف ، خصوصاً وان « بابا » مشغول أبداً وأنا . . .أنت أدرى بمبلغ عجزي عن توفـــير ماتتطلبه سيدة عاشت في أرقى الأوساط . بذلك لن يبقى الا الآنسة بورين ...

— انني لم أستملح هذه الآنسة بورين أبداً .

ـ لاتقل هذا ! انها فتاة فتانة شديدة الطيبة تستوجب الرثاء والاشفاق . انها محرومة من كل سند في الحياة ، كل سند . واذا شئنا ان نتكلم بصراحة قلت لك أنني في غير حاجة اليها ، بل انها تزعجني أحياناً . لأن طبيعتي المتطيرة لاتتفق مع مزاجها اللطيف المرح . ثم انك لاتجهل ولا شك انني أزداد إغراقاً في تطيّري . انني أحب الوحدة ... ثم ان أبي يحبها كثيراً وهو دائماً معهالطيف حيالها كما هو إزاء ميخائيل إيفانوفيتش . ذلك لأنهما مدينان لفضله . وكما قال ستيرن[1] : « اننا نحب الأشخاص بسبب ماعملناه في سبيلهم من خير ، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا . » لقد التقطها أبي يتيمة في الطريق لكنها ذات ذات قلب طيب . وأبي يحب طريقتها في القراءة . وهي تقرأ له في كل مساء وتقرأ بصورة ممتازة .

سألها آندرية فجأة :

ـ ألا تعترفين يا ماري بأنك تتألمين أحيانا بسبب عقلية أبينا ؟

ألقى ذلك السؤال على الاميرة ماري في حالة من الذهول أقرب الى الرعب والفزع . قالت :

ـ ماذا تقول ؟ . . . أتألم ؟ . .. أنا ؟ ...

ـ لقد كان صارماً قاسياً أبداً ، وقد أصبح كما أعتقد مؤلماً شديدالايلام . لعله كان يريد بتعبيره عن آرائه بهذا الشكل المتحرر وبالتحدث عن أبيه بتلك اللهجة ، ان يربك أخته أو يروّعها .

قالت ماري وهي تتبع سياق أفكارها أكثر مما تصغي الى سير المحادثة :

ـ انك فتى ممتاز ياآندريه ، لكن في احكامك لون من التيه والاغراق ،

---

(١) لاورنس ستيرن ، كاتب انجليزي ولد في كاونمل في ايرلندا ،وهو كاتب فكه مسل حاذق ساخر ورقيق . (١٧١٣ – ١٧٦٨) — المترجم —

وانها خطيئة كبرى . هل يجوز للمرء ان ينتقد أباه ? ولو ان ذلك كان مباحاً، فكيف يمكن ان يوحي رجل مثل ابي بغير شعور الاحترام والتجميل ? ثق أنني مرتاحة تماماً وسعيدة تماماً بقربه . ان غايتي الوحيدة هي ان تكونوا جميعكم سعداء كما انا سعيدة .

فهزّ آندريه رأسه بتشكك وارتياب بينما استطردت ماري :

ـ اذا شئت معرفة الحقيقة يا آندريه ، فثق ان مايعـذبني ويزعجني في أبي هو لا مبالاته حيال الشؤون الدينيـة . لست أفهم كيف يمكن لعقليـة نيرة كهذه ان تتيه الى هذا الحد ، فتمتنع عن رؤية ما هو واضح كنور النهار . ان هذه الناحية هي كل مايؤلمني بل انني في الآونة الأخيرة اكتشفت بعض التقدم عنده : فقد اضحت سخرياته أقل شدة . بل انه وافق على استقبال أحد الرهبان والاستغراق معه في حديث طويل .

فأجاب آندريه بلهجة جمعت بين السخرية والمودة على صعيد واحد :

ـ إه ! ياعزيزتي إنني اخشى ان تحرقي أنت والراهب كل جهد كما عبثاً !

ـ آه ياصديقي ! إنني لا أنفك أبتهل الى الله وآمل ان يتقبل ابتهالاتي ...

ثم أردفت بعد صمت يسير في شيء من الارتباك والخوف :

ـ آندريه ، عندي رجاء حار اتقدم به اليك :

ـ ماهو رجاؤك ياصديقتي ?

ـ عدني اولاً انك لن ترفضه . انه لن يسبب لك اي عناء ولن تخجل منه . ثم انك تسبغ علي بتقبله عزاء وسلوانا .

ثم أردفت وهي تلمس في حقيبة يدها شيئاً كان موضوع رجائها ولا شك ، ولكنها ما كانت تريد اظهاره الا بعد ان تحصل على كلمة اخيها وميثاقه .

ـ عدني يا آندريوشا .

وراحت تنظر اليه بعينين ضارعتين .

فأجاب آندريه وقد ضمن موضوع رجائها .

ــ بل انني اعدك ولو كان فيه كبير عناء . . .

لك ان تفكر كما تشاء لانني أعرف انك وأبي سواء حول هذا الموضوع .

لكنني اتوسل اليك ان تفعل ذلك من أجلي . لقد حمله جدنا الاكبر ، طيلة غزواته وحروبه . . .

واستبقت يدها في الحقيبة لاتخرجها وأعقبت :

ــ اذن هل تعدني ؟

ــ طبعاً أعدك . ماهو الامر الذي تريدين ؟

ــ آندريه ، انني أباركك بهذه الصورة المقدسة فعدني بأنها لن تفارقك أبداً . هل تعد ؟

فقال آندريه مجيباً :

ــ اذا كانت لاتزن ارطالاً ثقيلة وكانت لاتجتذب عنقي بشدة الى الاسفل فأنني اود من صميم نفسي ان ادخل السرور على نفسك .

ولما شاهد ماارتسم على وجه شقيقته من ألم .

أدرك ان دعابته قد جرحت احساسها المرهف ، فاستطرد مستدركاً بلهجة اخرى :

ــ بكل سرور ، بل بسرور عظيم ياصديقتي .

قالت بصوت متهدج من الانفعال وهي ترفع راحتها أمام انظار أخيها بحركة وقورة محترمة ، وعليها صورة مقدسة قديمة مسودة ، يحميها اطار بيضوي جميل ، معلقة بسلسلة فضية دقيقة الصياغة :

ــ سواء شئت ام لم تشأفانه سينقذك ويُعيدك اليه ، لان الحقيقة الوحيدة والفراء الاوحد كامنين فيه .

ثم رسمت اشارة الصليب على صدرها وقبلت «الايقونة» وقدمتها لآندريه وهي تقول :

ــ أرجوك يا آندريه ، اعمل ذلك من اجلي . . .

كانت عيناها الكبيرتان تشعان بذلك الوميض الدافىء الهادىء الذي يجمل وجهها الهزيل الناحل المريض . ولما هم آندريه بأخذ « الايقونة » استوقفته . فهم مرادها ، فرسم اشارة الصليب بدوره وقبل الصورة المقدسة وهو بين ساخر ومنفعل ، وقال وقد رقت عواطفه :

ــ شكراً .

فقبلته أخته في جبينه وعادت تجلس على الأريكه وران صمت عليها .

قالت تقطع الصمت المخيم :

ــ كن طيباً ورحيما كما اسلفت وطلبت منك لانني أعرف انك كنت كذلك أبداً . لاتقسى في حكمك على ليز . انها لطيفة جداً وطيبة جداً . ان مصيرها الحاضر غاية في الحزن :

ــ لم تكررين علي هذا القول ياماري ؟ هل قلت لك انني آخذ على زوجتي مأخذاً ما ، ام انها تسبب في احفاظي وازعاجي ؟

ظهرت على وجه ماري لطخات حمراء فصمتت وكأنها اخذت بخطئها . أردف آندريه :

ــ كلا . انني لم احدثك قط بشيء من هذا ، لكنه نما اليك من بعضهم أليس كذلك ؟ ان ذلك يزعجني ويؤلمني .

اجتاحت اللطخات الحمراء جبين ماري هذه المرة بعد ان صبغت وجنتيها

وعنقها . كانت تريد ان تجيبه ولكن ارتج عليها ، وظلت الكلمات محتبسة في حنجرتها . لقد خمن أخوها حقيقة ماوقع : اذ ان ليز كانت قد حدثت ماري بعد الطعام وسط نوبة من الدموع الهاطلة ، بانها تنتظر ولادة عسيرة تخشى ان لاتنجو منها . ثم شكت سوء مصيرها وشكت من زوجها وأبيه ، وأخيراً أنهكتها الدموع فاستسلمت للنوم . وقد اشفق آندريه على اخته فقال :

— اعلمي جيداً ياماري أنني لاألوم زوجتي على شيء ولم آلمها من قبل ولن ألومها في المستقبل . ولا أستطيع من ناحيتي ان اوجه لنفسي لوماً على سلوكي حيالها ، لان تعرفي منطقي ومعقول ونحن في مثل هذه الظروف الحرجة . مع ذلك اذا شئت ان تعرفي اذا كنت سعيداً وكانت هي الاخرى سعيدة أجبتك بصراحة ان : كلا وكلا و كلا . أما ماهو السبب ؟ لست ادري . . .

ونهض بعد ذلك فاقترب من اخته وقبلها في جبينها ، كانت عيناه الجميلتان تلتمعان ببريق غير معهود ، بريق مفعم بالتعقل وطيبة النفس ، ولكنه ما كان يوجه انظاره الى اخته ، بل كان شاخصاً بها الى الظلمات العميقة البادية خلال الباب المفتوح وراءها .

نهضت ماري فوقفت على العتبة وقالت :

— آندرية ، ليتك آمنت ، لكنت توجهة الى الله طالباً اليه ان يمنحكما الحب الذي لاتشعران به ، ولكانت ابتهالتك قد قبلت :

— نعم ، لعل ذلك صحيح ! . . . اذهبي ياماري سأتبعك بعد حين .

وبينما كان الامير اندريه يجتاز الممشى الذي يجمع بين الجناحين ليدخل الى مخدع اخته ، وجد نفسه فجأة وجهاً الى وجه مع الآنسة بورين الضاحكة

فكانت تلك المقابلة الثالثة من نوعهـــا لذلك اليوم في أمكنة منعزلة . كانت الفتاة تبتسم أبداً ابتسامتها الحية البريئة .

قالت وقد تخضب وجهها بالحمرة وأطرقت بعينيها دون سبب ظاهر :

ـ آه ! لقد ظننتك في مخدعك .

اتخذ آندريه فجأة طابع الغضبان واكتفى بأن حدج الفرنسية بنظرة ثائرة ملؤها الاحتقار ، جعلت الدماء تصعد الى وجهها فتحيد عن طريقة دون أن تهمس بكلمة . فلما بلغ غرفـــة اخته ، بلغ مسمعه صوت ليز العالي ، التي كادت تستيقظ حتى راحت تسرد سلسلة من الحوادث الجديدة ، وكأنها كانت تريـد استدراك الزمن الذي فاتهـا ، والذي قضته في صمت مُطبق . كانت تقول :

ـ تصوري ياماري الكونتس سوبوف العجوز باقراطها المزيفة وفمها المنضد بأسنان صناعية وكأنها تتحدى السنين ... ها ! ها ! ها !

كان آندريه قد سمع زوجته تردد هذه العبارة بالذات وتعقبها بتلك الضحكة بالذات امام غرباء للمرة الخامسة . فدخل دون ضجة . رأى ليزا جالسة على متعد وأشغالها في يدها ، مستديرة متوردة الوجه تثرثر دون توقف وتستوحي ذكريات بيترسبورج وحتى نتفاً من احاديثها . سألها وهو يداعب شعرهـا عما اذا كانت قد استراحت من وعثاء السفر ، فأجابته اجابة مقتضبة وعادت الى ثوثرتها .

كانت عربة مكشوفة تقطرها ستة خيول واقفة امام الباب ، وكان ليل الخريف شديد الحلكة ، حتى ان الحوذي ماكان يستطيع رؤية عريش العربة . وعلى المدشى المؤدي الى المدخل ، كان عدد من الناس يحملون المصابيح ويعملون ، وكانت الاضواء تلتمع خلال كل نوافذ المسكن العليا ، وقدتهافت

الخدم في الممشى ، وكلهم يرغب في تقديم تمنياته للسيد الشاب قبل سفره . . . أما أهل الدار وميخائيل ايفا نيفتش والآنسة بوريين وماري وليز ، فقد كانوا ينتظرون في البهو الكبير عودة الأمير آندريه من لدن أبيه الذي أعرب عن رغبته في لقائة على انفراد لوداعه .

لما دخل آندريه مكتب الامير العجوز ، كان هذا مرتديا معطفاً منزلياً أبيض ، احتفظ به خلال فترة وداع ابنه . وكان يكتب على ورقة وقد أثبت نظارتيه على أرنبة انفه . استدار نحوه وقال :

— هل تذهب الآن ؟

وعاد الى كتابته . فقال الابن :

— لقد جئت اودعك ياأبي :

— حسناً قبلني هنا — وأشار الى وجنته — شكراً شكراً .

— لأي شيء تشكرني ؟

— لأنك تلتحق في الجيش في الوقت المناسب . بالسعادة : انك لاتتعلق بثياب امرأتك . ان الواجب قبل كل شيء فشكراً شكراً .

وظل القلم يجري على الورقة بسرعة حتى أنه كان يغرز فيها أحياناً او يلطخها بالحبر . قال الأمير العجوز :

— اذا اردت ان تقول شيئاً فقله لأنه لن يزعجني .

— ان الموضوع متعلق بزوجتي . . . في الحقيقة أنني خجل إذ أتركها لك وأحملك مسؤولياتها :

— ماهذة الفلسفة ؟ قل ماتريد ان تقوله .

— حسناً . عندما يحين وقت ولادتها ، ارجو ان تستدعي مولداً من موسكو ... انني اصر على ان يكون بجانبها مولد عند ولادتها .

توقف الأمير العجوز وتظاهر بانه لم يفهم ، ثم حدج ابنه بنظرة قاسية فبدا آندريه مرتبكاً . قال الأمير الشاب :

ــ انني أعرف أن الطبيعة اذا لم تساعد نفسها بنفسها فإن الانسان لايستطيع شيئاً حيالها . وانني أعترف أن هناك حالةً سيئةً بين كل مليون حالة ، ولكن ماذا تريد ، تلك هي فكرتها ... وكذلك هو رأي . لقد اداروا رأسها وحلمت أحلاماً مزعجة ، وبالاختصار إنها خائفة .

فغمغم العجوز وهو يُنهى رسالته ويوقع عليها توقيعاً ضخماً .

ــ هم ! هم ! . . . لكن ! ثم التفت فجأة الى ابنه وقال له وهو ينفجر ضاحكاً :

ــ انها مسألة مزعجة أليس كذلك ؟

ــ أية مسألة ياأبي ؟

فأجاب الأب بلهجة مفعمةٍ بالمعاني .

ــ زوجتك !

ــ لست أفهمك .

ــ والأسوأ ياصديقي الطيب هو أنه لايمكن قط تبديل شيء . إنهن جميعاً سواء . فلا تبئس ، لن أتحدث بالموضوع الى احد ، وأنت تعرف كيف تتصرف .

ثم أمسك بذراعه بيده الصغيره النحيلة ، وهزه وهو يحدجه بنظرة قاطعة تكاد ان تخترقه من جانب الى آخر ، ودوت ضحكته الباردة الجامدة من جديد . فأفلت الأبن زفرة أثبتت للأب انه أصاب الهدف في تخمينه ، بينما عاد الأمير العجوز يطوي الرسالة ويختمها بخاتمه حسب طريقته المألوفة وقال :

ــ ماذا تريد ، إنها جميلة ! ... فكن مطمئناً سوف أعمل اللازم .

لم يجب آندريه . لقد كان مسروراً كما كان حزيناً لأن أباه استطاع ان يخترق سريرته ويحدس مافيها . فنهض العجوز ومد الرسالة الى ابنه وقال :

اصغ ، لاتقلق مطلقاً على زوجتك لأننا سنعمل المستحيل من اجلها . والآن هذه رسالة الى ميخائيل إئيلا ريونوفيتش ، لقد كتبت له طالباً اليه ان يستخدمك في احسن المراكز وان لايستبقيك طويلاً في الاركان العامة لان هذه المراكز سيئة مكروهة ! طمئنه بانني لازلت أذكره وأحتفظ له بمودتي القديمة ، واكتب لي عندما يستقبلك . لاتمكث معه الا اذا استقبلك استقبالاً يليق بك . ان ابن نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي ، ليس بحاجة الى ان يطلب منه من احد ، مهما سما مركزه . والآن تعال من هنا .

كان الأمير العجوز يتكلم بطلاقة عظيمة ، حتى انه ماكان يخرج نصف الكلمات . لكن آندريه كان معتاداً على اسلوبه . قاده ابوه الى خزانة فتحها وجذب درجاً فيها أخرج منه دفتراً مكتوباً بخطه الكبير ذي الاحرف الطويلة المشبكة وقال :

ـ لاشك انني سأموت قبلك . فاعلم انني سجلت مذكراتي في هذا الدفتر فينبغي اعطاؤه الى الامبراطور بعد موتي . واليك رسالة ووثيقة ملكية جبل الشفقة Mont de pitié انها جائزة ثمينة لذلك الذي سيكتب تاريخ معارك سوفوروف ، فينبغي ان تنقل هاتين الوثيقتين الى المجمع العلمي . وهذه أخيراً ملاحظاتي الشخصية فاقرأها من بعدي لانك ستفيد من قراءتها .

حاذر آندريه ان يقول لأبيه انه يُنتظر ان يعيش سنوات طويلة أخرى ، لانه كان يعتقد ان ذلك القول خطيئة لايجب الوقوع فيها فاكتفى بان قال ببساطة .

ـ ستنفذ كل رغباتك ياأبي :

ــ حسناً و الآن وداعاً !

وقدم له يده ليقبلها ثم ضمه بين ذراعيه وأردف :

ــ تذكر شيئاً واحداً ياأمير آندريه : اذا ُقتلت فإن ذلك سيكون شديد الوقع والألم على قلبي العجوز ...

ثم أبدل مكانه وقال بعد صمت :

ــ لكنني إذا علمت أنك لم تتصرف جديراً بابن نيكولا بولكونسكي ، فإن ذلك سيكون عاراً عليك !

فأجاب الابن باسماً :

كان يمكنك ياأبي ان لاتقول لي ذلك وان تثق بانني سأكون عند حسن ظنك .

فصمت العجوز بينما استرسل آندريه يقول :

ــ لي رجاء أتقدم به اليك يا أبي . اذا قُدر لي ان أقتل وولدت زوجتي غلاماً ، فأرجو آن لا ُتبعده من هنا . انني اريد ــ كما أسلفت لك أمس ــ ان يترعرع ويشب في ظلالك . انني ارجوك بإلحاحٍ ان لا ُتغفل ذلك .

فقال العجوز مقهقهاً :

ــ آه ، آه ! لا ينبغي ان ادعه لأمه أليس كذلك ؟

لبث الرجلان لحظةً يتبادلان النظر صامتين . كان الأب يحدّق في عيني ابنه وكانت ذقنه ترتعد ارتعادةً خفيفة . قال فجأة :

ــ حسناً ، لقد ودعنا بعضنا فامض الآن !

ثم كرر بصوت آمر وهو يفتح الباب :

ــ إمض ! .

تساءلت الاميراتان وهما تشاهدان آندريه خارجاً ووراءه شبح العجوز

الغاضب المنفعل ، وهو في معطفه المنزلي ونظارتيه وقد غفل عن وضع الشعر المستعار على رأسه :

- ماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟

فلم يجب آندريه الا بزفرة وقال لزوجته بلهجة فيهاسخرية باردة :

- هيا !

كان يبدو أنه يدعوها بتلك الكلمة الى إلقاء مرثياتها التي يتوقع ان تلقيها !

هتفت ليز وقد شحب وجهها وراحت تنظر اليه بارتياع :

- آندريه ، أتذهب !

فأخذها بين ذراعيه . غير ان ليز أطلقت صرخةً وهوت على كتفه مغشياً عليها . فخلص نفسه منها وأسجاها بهدوء على أريكة وقال لأخته بصوت منخفض:

- وداعاً ياماري .

ثم عانقها وقبلها قبلات أخوية قلبية وابتعد بخطوات سريعة .

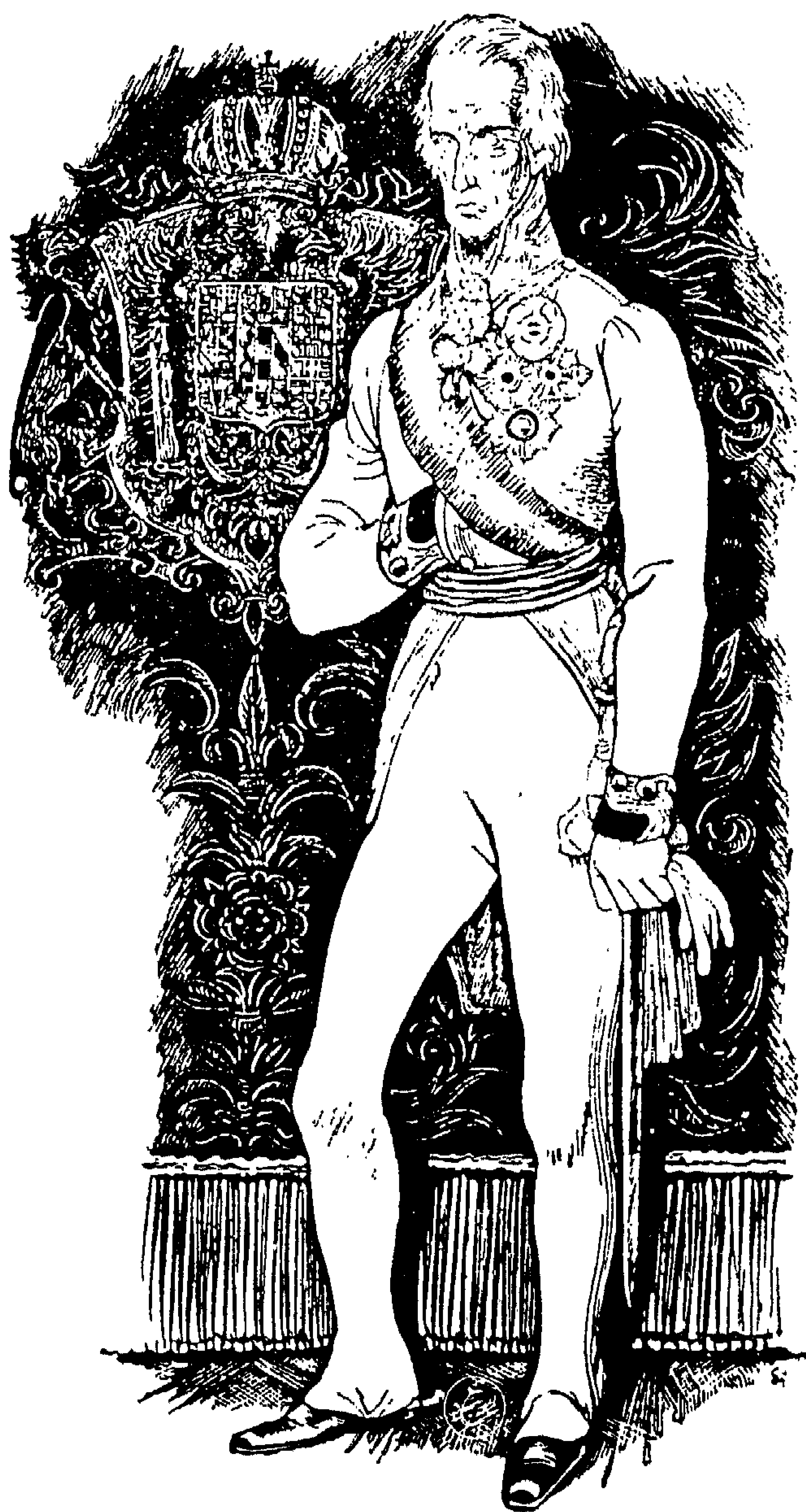
لبثت ليز مُسجاة على الأريكة تغسل الآنسة بورين صدغيها بالماء . اما ماري فكانت تنظر ـ بعينين مُفعمتين بالدموع ـ الباب الذي خرج منه أخوها ، فرسمت إشارة الصليب باتجاهه ، وعادت تهتم بزوجة أخيها . وارتفع صوتٌ من مكتب العجوز الغاضب يشبه طلقة الغدارة ، ينبيء بأن الأمير العجوز المنفعل يتنخّم في منديله . وما كاد آندريه يغادر باب المكتب ويبتعد عنه ، حتى وورب الباب ، وظهر الأمير العجوز بقامته الصارمة وهو في معطفه المنزلي الأبيض وقال :

- هل ذهبت ؟ هيا ، ذلك أفضل !

وبعد ان القى نظرةً غضبى على زوجة ابنه المغمى عليها ، هز رأسه بلوم وتثريب وصفق الباب وراءه .

★ ★ ★

الجزء الثّاني



فرنسيس الثاني

الفصل الأول

(الاستعداد للعرض)

في تشرين الأول عام ١٨٠٥ كانت القطعات الروسية تُشغل عدداً من قرى ومدن الأرشيدوقية النمساوية وكانت قوات روسية أخرى تصل باستمرار وتتمركز قرب حصن برونو Bronnau محدثة أضراراً كثيرةً للسكان . وكان ذلك الحصن مركز القائد الأعلى كوتوزوف .

كانت احدى سرايا الجيش مستقرةً على بعد ربع ميل من المدينـــة تنتظر قدوم الجنرال القائد الأعلى في اليوم الحادي عشر من تشرين الأول . وكانت تلك السرية ، رغم المشهد الطبيعي الغريب الذي يحيط بها البساتين والاسوار الحجرية وسقوف القرميد ، والجبال الرابضة على البعد — ورغم طبيعة السكان التي لاتقل غرابة عن المشهد الطبيعي ، الذين كانوا ينظرون بفضول الى هؤلاء الجنود ، تحمل الطابع التي تتسم به كل فرقـة روسية على ارض الوطن عنـدما تنتظر تفتيش قائدها الاعلى .

أبلغ ضباط السرية مساء اليوم الاسبق ، ان الجنرال القائد الاعلى سيحضر لتفتيش الفرقة المحاربة عندما تصل الى آخر مرحلة من برنامج سيرها المحـدد . وعلى الرغم من ان منطوق الامر اليومي الذي صدر الى قيادة الفرقـة كان قليل الوضوح ، حتى ان قائد الفرقة تساءل عما اذا كان ينبغي للجنود ان يكونوا في ثياب الميدان أم في ثياب الاحتفالات ، فان مجلس ضباط الكتائب قرر ان يكون الجنود في ثياب الحفلات على اعتبار ان هـذا التصرف لاغبار عليه ، وأن استعمال تلك الثياب في الغالب في مثل هـذه المناسبات ، خير من اغفاله . وعلى هذا ، فقد مضت الليلة دون ان يُغمض جفن في المعسكر ، رغم ان الجنود كانوا قد أنهوا رحلةطولها ثمانية اميال . كان الجنود يُلمعون تجهيزاتهم ويُعنون بزيهم العسكري ، والرؤساء ومساعـــدو القيادة يحصون الرجال ويوزعونهم على مراكزهم ، حتى انهم كانوا في الصباح الباكر ، قد جهزوا تلك الفرقة التي كان قوامها الفي رجل ، على شكل دقيق منظم ، فكان كل جندي يعرف المكان الذي سيحتله والعمل الذي سيقوم به ، وكانت كل التجهيزات نظيفة لامعة وكل الازرار في أماكنها على الكسوات العسكرية . ولم يُعن الضباط بظهر رجالهم الخارجي فحسب ، فلو ان القائد الاعلى فكر في النظر الى الالبسه الداخلية ، لوجد ان كل جندي كان يرتدي قميصاً داخلياً نظيفاً ، ولتأكد ان في كيس كل منهم الاشياء النظامية بعددها النظامي . غير ان هناك امراً واحداً كان يُشغل بال الضباط والجنود معاً : ذلك ان أحـذية الجنود كانت ممزقة بالية ، وكان النصف الاكبر منهم لايملك احذية الا « البقايا » التي ظلت في أقدامهم . ولم تكن الخطيئة في ذلك ترجع الى آمر السرية . بل كان الخطأ يقع على كاهل مصلحة الاعاشةالنمساوية « مهمات الجيش » ، التي رغم المطالبات المتكررة والملحة ، لم تُقدم شيئاً الى الجنود الذين كانوا قدقطعوا أكثر من مائة وخمسين فرسخاً قبل ان يصلوا الى ختام المطاف .

كان قائد الفرقة جنرالأ[1] ذا حاجبين وسالفين تطرق اليها المشيب. وكان عريض الصدر ضيق الكتفين منكمش الجسد. كان لباسه الرسمي جديداً يحمل ثنيات ضخمة « وكتافتين » مذهبتين كانتا تساهمان في اظهار كتفيه منتصبتين مرتفعتين. وكان ظهره على شيء من الانحناء، وفي خطوته بعض التراخي. كان يتنزه امام جبهة الفرق، وكأنه سيد اتم لتوه اجل عمل قام به في حياته. كان يبدو فخوراً مظفراً لقيادته فرقة تفانى من أجلها قلباً وروحاً. غير ان مشيته المترددة، كانت تعطي ايضاً فكرة اخرى تدل على تمسكه بنعيم الحياة واغراء الجنس اللطيف.

قال يخاطب احد قواد الكتائب وهو يبتسم ابتسامة كلها رضى.

- حسناً ياعزيزي ميخائيل دميتريش، ايها الباسل! لقد احتمل كلٌ منا نصيب رتبته من اعباء الليلة الفائتة أليس كذلك؟ غير ان السرية كلها تبدو لي في اوجها كذلك ألست من رأي؟

كان ضابط الكتيبة قد اجاب على قائده الاعلى بابتسامة لاتقل انشراحاً وانبساطاً عن ابتسامته. فلما شعر ان الرئيس قد تطرق الى المزاح الجميل اجابه ضاحكا:

- انني اعتقد اننا ما كنا لنقطب وجوهنا ونعبس ولو كنا في ساحة القتال!...

فقال الجنرال مستفهماً:

- هم؟...

وفي تلك اللحظة ظهر فارسان على طلايق برونو، حيث كان قد اقيم عليها مراقبون بانتظار مقدم القائد الاعلى. كان أحدهما ضابط مساعد والآخر

(١) لقد استعملنا في هذا الفصل والفصول التالية الاسماء الاجنبية للرتب العسكرية دون تعريبها لأننا قدرنا انها تغني بالغناية اكثر من مرادفاتها في هذا المضمار — المترجم —

فارس قوقازي ، كانت القيادة العليا قد أرسلتها لقائد السرية ليوضحا له ماغمت من أمر البارحة . أوضح الضابط المساعد للجنرال أن القائد الاعلى يرغب في رؤية السرية على ما كانت عليه حالها عندما وصلت الى مكانها الحالي ، دون أي تعديل أو تبديل . أي أنه كان يريد تفتيش الفرقة بألبسة الميدان .

تلقى كوتوزوف صباح امس ، أحد أعضاء القيادة المتحالفة «هوف كريجران» جاء من فينا يرجوه ويستدعيه للقيام بعملية الالتحاق مع جين ماك[1] وجين الارشيدوق فرديناند[2] . ورأى كوتوزوف ان الالتحاق بذينك الجيشين غير مجد لذلك فقد اراد ان يُظهر للجنرال النمساوي ، بين العديد من الآراء المؤيدة لوجهة نظره الحالة السيئة التي بلغت اليها الجيوش الروسية القادمة من روسيا . ولهذا السبب وحده ، كان يريد استعراض الوحدات القادمة التي كانت ستزيد اغتباطه كلما كانت حالته اكثر سوءً . ولما كان الضابط المساعد يجهل هدف قائد السرية ، فقد نقل اليه رغبة القائد الاعلى في لقاء السرية على حالها التي كانت عليه عند بلوغها مرحلتها الاخيرة ، وانه في حالة عدم تنفيذ تلك الرغبة ، فان القائد الاعلى سيكون شديد الاستياء . فهز الجنرال قائد السرية كتفيه ، وأطرق برأسه وباعد بين ذراعيه ، وقال بلهجة غاضبة يحدث قائد الكتيبة :

— ها نحن في موقف سيء ! لقد قلت لك يا ميخائيل دميتريش ان المعاطف واجبة في الميدان . رباه ، رباه !

وسار بخطى حثيثة وصاح بصوته الآمر :

---

(١) شارل ماك ، جنرال نمساوي ولد في يينسلنجن عام ١٧٥٢ وتوفي عام ١٨٢٨ . طوقه نابليون الاول في معركة اولم فاستسلم دون قتال مع ثلاثين الف محارب . — المترجم —

(٢) فردنياند الأول ، امبراطور النمسا من عام ١٨٣٥ حتى عام ١٨٤٨ ، ولد عام ١٧٩٣ وتوفي عام ١٨٧٥ . كان لازال ارشيدوقاً اثناء حملة نابليون . — المترجم —

ـ ياحضرات قواد الفصائل ! أيها النقباء !

ثم استدار الى الرسول وقال بلهجة امتثالية :

ـ هل سيصل سريعاً ؟

فأجاب الضابط المساعد :

ـ خلال ساعة على ما أظن :

ـ هل نجد وقتا كافياً لتبديل ألبسة الجنود ؟

ـ لست أدري ياسيدى الجنرال .

تقدم الجنرال من الصفوف الأولى وأعطى أمراً بارتداء المعاطف . فجرى ضابط الفصائل بين الصفوف يبلغون الأمر ، واهتم الرقباء واكتأبوا بسبب سوء حالة معاطفهم . ولم يلبث المربع المنظم الذي كان يضم جنوداً صامتين نظاميين ، أن تماوج مدوياً . فالحركة بين الجنود عادت على أشدها : رفعوا أكياسهم عن ظهورهم بضجيج مسموع ، وأخذوا يعدون معاطفهم ، وارتفعت الأذرع تدخل في أكمام المعاطف .

ولم تمض نصف ساعة ، حتى عاد المربع الى الالتئام والصمت بعد ان انقلب لونه من أسود الى أشهب . وعاد الجنرال بخطواته المتثاقلة ، يقف على مقدمه الفرقة ليعاين جنوده عن بعد . صاح بانفعال :

ـ ماهذا أيضاً ؟ مامعنى ذلك ؟

وتقدم بضع خطوات الى الأمام وهتف :

ليحضر رئيس الفرقة الثالثة .

ورددت الصفوف عبارة :

ـ قائد السرية الثالثة مطلوب للمثول امام الجنرال !

بينما راح وضابط تابع يجري باحثاً عن الضابط المتأخر .

فلما بلغت الأصوات المرددة : « ضابط الفرقة الثالثة ، الى الجنرال ! » مشوهة حتى أصبح النداء « الفرقة الثالثة للرئيس! » او « الجنرال للفرقة الثالثة » !، الصفوف الخلفية ، خرج الضابط المعني بالأمر من الصفوف . وعلى الرغم من أنه لم يكن في شرخ الشباب ، ولم تكن من عادته الجري ، فقد راح يسير جريا نحو موقف الجنرال . لكن طريقته في الجري كانت متعثرة حتى ان طرفي حذائيه كانا يصطدمان ببعضهما بين آونة وأخرى . وكانت قسمات وجهه تحمل طابع القلق الذي يتجلى عادة على وجه التلميذ الذي طُرح عليه سؤال في مادة لم يكن قد قرأها . وكانت لطخات بيضاء تُحلي أنفه الأحمر من شدة الدلك ، وفمه المرتعد لايستقر على حال . فلما كاد ان يبلغ موقف الجنرال ، اصبحت انفاسه مبهورة وخطواته تزداد بطأً .

حدجه الجنرال بنظرة من رأسه الى قدميه ، وصاح وهو يقدم فكه الأسفل دلالة على امتعاضه :

— مامعنى ذلك ؟ لعلك تلبس جنودك عباءات بيضاء بعد قليل .

وأشار بإصبعه الى جندي كان يرتدي معطفاً يختلف لونه عن كل ما حوله من معاطف وأردف ،

— وأنت ؟ ... أين كنت ؟ نحن ننتظر القائد الأعلى بينما انت تترك مركزك هم ؟ ... سوف أعلمك كيف تجعل رجالك يبدون بمظهر حسن في أيام العرض!

كانت نظرات رئيس الفرقة شاخصة الى قائده وهو يحّييه باصبعين لبثـــا مسكين . بحافة خوذته وكأنه لايعرف من السلام الا تلك الحركة .

عاد الجنرال يقول بصوت يجمع بين الشدة واللين :

— تكلم أخيراً ! من هو ذا المتنكر ؟ أهو هنغاري ؟

— ياصاحب السعادة ...



استعراض قرب بروثو

ـ ماذا « ياصاحب السعادة » ؟ ياصاحب السعادة ياصـــاحب السعادة ! فسر موقفك . . .

ـ انه ياصاحب السعادة دولوخوف ، الضابط الذي أنزلت رتبته الى جندي .

كان رئيس الفرقة يتحدث بوجل . فهتف الجنرال :

ـ دولوخوف ! لقد جعلو منه جندياً وليس مارشالاً على ما أعتقد . فلمَ اذن لا يرتدي ألبسة كل الجنود ؟

ـ ان سعادتكم أجبرتم له ذلك أثناء المسير .

فقال الجنرال وقد هدأت حدته بعض الشيء :

ـ أجزت ؟ أجزت ؟ انكم جميعاً هكذا أيها الشبان : تُعال لكم كلمة ف. . .

ثم عاد الى الاحتداد من جديد واردف :

ـ تُقال لكم كلمة فتجعلون منها . . . ماذا ؟ هم ؟ إلبس جنودك الكسوة المناسبة .

وعاد الجنرال يقترب من الفرق المحتشدة وهو يجر ساقه كعادته ، دون ان يعقب على قوله الا بنظرة ألقاها على الضابط المساعد . كان من الواضح ان حالة الغضب التي كان عليها ، تُدخل السلوان على نفسه . كان يبدو عليه انه يعتمد البحث بين أفراد السرية عن سبب آخر يُفيء غضبه . وبعد ان تقدم بملاحظة الى أحد الضباط بسبب ياقته المستعارة التي لم تكن شديدة النظافة ، وآخذ آخر لسوء انتظامه في الصف ، وصل الى الغرفة الثالثة .

ـ كان يفصله خمسة رجال عن دولوخوف الذي كان مرتديا معطفاً يميل لونه الى الزرقة . فصاح بصوت مكتئب :

ـ ماهذا الهندام ؟ ساقك ، اين ساقك ؟ .

فعدل دولوخوف وقفته ببطء وحدج الجنرال بنظرة جريئة . أردف الجنرال :

ـ ما معنى هذا المعطف الأرزق ؟ انزع هذا . . . ايها الرقيب ، ليبدل ثيابه هذا ال . . .

فقاطعه دوخولوف بخشونة قائلاً :

– سيدي الجنرال ، انني مُلزم بتنفيذ الأوامر وليس باحتمال ...

– اصمت ! ... لايجب الكلام بين الصفوف ! ... اصمت !

فأتم دولوخوف جملته بصوت مرتفع واضح :

– ... وليس احتمال الاهانات .

تقابلت نظرات الجنرال بنظرات الجندي . فراح الأول يشد على حزامه بغضب دون ان يجرأ على التفوه بجواب واخيراً قال :

– تفضل بتبديل هندامك أرجوك .

ومضى مبتعداً .

★ ★ ★

الفَصلُ الثّاني

كوتوزوف

صاح أحد المراقبين على الطريق : لقد جاء !

تضرج وجه الجنرال فجأة فجرى الى حصانه فأمسك بالسيور بيد مرتعدة واعتلى صهوته . فلما استوي في مكانه ، استل حسامه وأشرقت اساريره وقد علا الحزم عليها ، وفتح فمه على زاوية استعداداً لاصدار الأوامر . وانتفضت السرية كالعصفور الذي ينفض ريشه ، وتجمدت ساكنة كقطعة من الصخر .

صرخ الجنرال بصوت مرعد تتجلى فيه أصداء الرضى الممزوج بالحزم حيال السرية والامتثال للقائد الأعلى :

إس — تا — عد !

وعلى الطريق العريض المغروس بالأشجار ، كانت عربة عالية من عربات فيينا ، مطليه بلون أزرق فاتح ، تقطرها ستة خيول ، تتقدم مسرعة بصرير خافت وصخب مكتوم . وكان يرافقها حرس كرواتي . توقفت العربة أمام

السرية كان كوتوزوف يتحدث بهدوء مع جنرال نمساوي جالس الى جانبه بثيابه البيضاء التي كانت أشبه بلطخه وسط الستار الأسود الذي تشكله ألبسة الروسيين . ولما ترجل من العربة بخطاه الثقيلة ، كان يبتسم الى محدثه دون ان يبدو على وجهه أنه يهتم بالألفين من الرجال الذين كتموا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم اليه والى قائدهم المباشر .

دوّى أمر جديد فتماوجت السرية وارتفع بين الصفوف صليل الأسلحة بالتحية النظامية ، وأعقب ذلك سكون ثقيل قطعه صوت القائد الأعلى الخافت وهو يحيي الجنود ، وصوت الجنود يدوّي مجيباً : « نتمنى لسعادتكم صحة طيبة .. »! وعاد السكون والهدوء من جديد . وبعد ان شهد القائد الأعلى العرض العسكري وهو في مكانه ، راح يجوس خلال الصفوف مع تابعيه وهو يمشي جنباً الى جنب مع الجنرال الأبيض .

كان قائد السرية ، الذي كان منذ حين واقفاً وقفة دقيقة جامدة يحيي بسيفه القائد الأعلى وهو يلتهمه بنظراته ، يجري وراءه في تلك اللحظة منحني الجذع جاهداً في امتثال لأية اشارة تصدر عن القائد الأعلى ، مُبرزاً الدليل الواضح على انه يقوم بكل واجبات المرؤوس حيال الرئيس بسرور يفوق سروره بالقيام باعبائه كرئيس . وكانت السرية تبدو على أحسن حال بفضل جهوده وصرامته حتى أنها كانت أحسن السرايا التي وصلت الى برونو . لم يكن بينها أكثر من مائتين وسبعة عشر مريضاً أو متخلفاً ، ولم يكن فيها مايستحق النقد او القلق الا مسألة الاحذية .

كان كوتوزوف يتوقف بين الحين والاخر ليوجه بضع كلمات رقيقة الى الضباط الذين عرفوه خلال حرب تركيا ، وكان احيانا يتحدث الى بعض الجنود . كان يهز رأسه بحرارة مرات عديدة خلال استعراضه القوات كلما وقع بصره على أحذية

الجنود الحلقة ، فكان يشير الى الجنرال الابيض النمساوي بلهجة من يقول : انه لايوجه اللوم الى احد ، ولكنه لايستطيع مشاهـدة حال رجاله السيء دون ان يشعر بالمضض . وفي كل مرة ، كان قائد السرية يندفع الى الامام محاذراً ان تفوته أتفه ملاحظات القائد الاعلى وكلماته . وكان مرافقو القائد الأعلى يسيرون وراءه على مسافة تسمح لهم بالاصغاء الى كل كلمة يفوه بها بصوت خفيض . وكان تعداد المرافقين يقرب من عشرين رجلا ، كانوا يتحادثون بينهم ويسمحون لانفسهم احياناً بالضحك . وكان ضابط مساعد جميل يسير في أعقاب القائد الأعلى في الصفوف الامامية من المرافقين . ذلك الضابط كان بولكونسكي . وكان الى جانبه صديقه نيسفيتسكي ، وهو ضابط مديد القامة قوي البنيان متينة ، بسّام ضاحك الوجه ، بعينين دائمتي الاغريراق والجذل ، كان يضحكه مايصدر عن ضابط مساعد آخر اسمر الوجه مرح لطيف . ذلك الضابط الأسمر ، يحدج ظهر قائد السرية بنظرة ثابتة ، ويقلد بكل جد ووقار كل انتفاضه وانحناءه تصدر عنه ، فكان نيسفيتسكي يضحك لذلك المشهد الطريف ويلكز رفاقه بمرفقه ينبههم الى حركات ذلك الضحوك المسلي .

أخذ كوتوزوف يقابل بلا مبالاة ألوف العيون التي كانت تتابعه وكانه لاينفصل عن حدقاتها . فلما وصل قرب الفرقه الثالثة ، توقف فجـأة حتى ان تابعيه كادوا ان يصطدموا به بسبب توقفة الفجائي الذي ماكانوا يتوقعونه .

هتف القائد الاعلى محدثاً ضابط الفرقة الذي عرفه ، والذي كاد المعطف الازرق ان يسبب له عناء وتشويشاً :

ــ آه ، آه ! تيموخين !

وبدا مستحيلا ان يستطيع المرء الانتصاب اكثر مما انتصب تيموخين خلال فترة الاستعراض كلها . مع ذلك ، فانه وجد وسيلة مكنته من ان

يضاعف انتصابه عندما سمع القائد الأعلى يوجه الحديث اليه ، وكان باديا عليه استحالة بقائه على ذلك الوضع المستعد زمناً طويلاً ، وفهم كوتوزوف الموقف تماماً . ولما كان لايريد الا خير قائد تلك الفرقة ، فقد سارع بمغادرته ليسمح له باتخاذ وضعية تريحه ، وشاعت ابتسامة على وجهه المكتنز الذي يشوهه جرح قديم .

قال لقائد السرية :

— هو ذا زميل جديد « لاسماعيل » ، انه ضابط باسل ! هل أنت مسرور منه .

فقفز الجنرال قائد السرية إثر انتفاضة ، وخطا الى الامام خطوة وقال :

— شديد السرور ياصاحب السعادة العلية .

بينما نقل الضابط الأسمر المرافق للقائد الأعلى حركات قائد السرية كالمرآة الأمينة التى تعكس الصور الحقيقية للأشياء .

قال كوتوزوف باسماً :

— لكل منا نقاط ضعف في نفسه . أما هو فقد كان يمالق باخوص[1] اكثر من اللازم .

واستمر في تفتيشه .

لم يجرؤ قائد السرية على الاجابة وهو الذي راح يسأل نفسه عما إذا لم يكن مسؤولاً فعلاً عن ذلك الضعف ، وفي تلك اللحظة ، أخذ الضابط المرافق الأسمر ، لدى مشاهدته رأس قائد الكتيبة ذي الأنف الأحمر القرمزي والبطن المنتفخ المتصلب ، يقلد تلك الشخصية تقليداً بلغ من اتقانه ، ان نيسفيتسكي

---

(١) باكوس او باخوص ، إله الخمر عند الرومان . وابن جوبيتر وسيميليه Sémélé وبذلك يتضح المعنى الذي أراده القائد الاعلى بكلمته . — المترجم —

لم يستطيع كبث ضحكة ، مجلجلة . فالتفت كرتوزوف غير ان الضابط الذي كان يتحكم بسحنته على هواه ، اتخذ في تلك اللحظة طابعاً جدياً خطيراً بريئاً ومحترماً ، قل ان يشاهد مثله على وجه من الوجوه .

كانت الكتيبة الثالثة هي الأخيرة في الاستعراض والتفتيش فراح كوتوزوف يجهد فكره لتذكر أمر ماسها عن باله وعندئذ تقدم الأمير آندريه من صفوف المرافقين وقال للقائد الأعلى بصوت منخفض باللغة الفرنسية .

– لقد اوعزتم الي ّان اذكركم بامر « دولوخوف » الضابط الذي أنزلت رتبته في هذه السرية .

سأل كوتوزوف :

– أين دولوخوف هذا ؟

فلم ينتظر دولوخوف أن يستدعى عن طريق التسلسل حتى يمثل بين يدي القائد الأعلى ، بل برز من الصفوف فوراً وجاء ينتصب بوضعية الاستعداد امام القائد الأعلى كان شاباً جميل المحيّا أزرق العينين أشقر الشعر . وكان قبل ذلك قد استطاع استبدال معطفه الأزرق بمعطف الجنود الرصاصي .

سأله القائد الأعلى في شيء من الرقة :

– هل لك سؤال ؟

وقال الأمير آندريه .

هذا هو دولوخوف !

– آه ! . . . حسناً آمل أن يردعك الدرس الذي تلقيته . فكن جندياً طيباً والامبراطور رحيم شفوق ، فاذا تصرفت تصرفاً حسناً فانني أنا الآخر لن أنساك .

فشخص دولوخوف ببصره المشع الى وجه الجنرال القائد الاعلى في كثير

من الجرأة والحزم ، كما فعل منذ حين ازاء قائد السرية ، حتى وكانت تلك النظرة ، قد مزقت حجاب التقاليد التي تجعل البون شاسعاً بين الجندي البسيط والقائد الاعلى الرفيع .

قال بصوت ثابت حازم مسموع :

ـ انني لااطلب من سعادتكم العلية الا أمراً واحداً ، وهو ان تعطى لي الفرصة لاصلاح خطيئتي ، واثبات تفاني لصاحب الجلالة ولروسيا .

عبس كوتوزوف فجأة وأشاح بوجهه ، بينما أطلت من عينيه ، تلك الضحكة الهازئة التي برزت منهما عندما التقتا برئيسه تيموخين منذ حين . ولعله اراد بذلك ان يقول : ان كل ماقاله دولوخوف وكل ما كان يمكن ان يقوله ليس الا أشياء معروفة منذ زمن بعيد ومكررة ومملة بل وفي غير محلها ، ثم مضى متجهاً نحو عربته .

تفرقت السرية الى فرق صغيرة واتجهت نحو المعسكرات التي أقيمت لهـا على مقربة من برونو ، حيث كان افرادها يأملون الحصول عـلى احذية جديدة وألبسة مناسبة ، وخصوصاً على الراحة المنشودة بعد تلك المراحل الطويلة من السير الشاق . ولمـــا راحت الفرقة الثالثة وعلى رأسها تيموخين تنظم صفوفها استعداداً للمشي ، اقترب الجنرال ، الذي جعلته سلامة عواقب التفتيش ميـالا الى المرح ، من الرئيس مُشرق الوجه وقال :

ـ آمل أن لا أكون قد أزعجتك يابروخور اينياتيتش ؟ انك تفهم ... ان خدمة القيصر ... ان المرء عندما يكون على رأس الفرق يفقـد صوابه فلا يستطيع تنميق كلامه أو انتقـائه ... لكنك تعرفني وتعرف أنني على استعداد لتقديم اعتذاراتي عند الاقتضاء ... هيا ، اقدم لك خالص شكري ؟

ومد له يده ، فأجاب الرئيس الذي ازداد انفـــه احمراراً ، بابتسامة

كشفت عن فكه وفضحت نقص نابين تحطما بضربة من عقب بندقية في معركة اسماعيل :

ــ وكيف لاأفهم ياسيدي الجنرال !...

ــ وبهذه المناسبة ، قل للسيد دولوخوف انني لن أنساه وانه يستطيع ان يطمئن الى هـذا الامر ، اخبرني ماوددت منذ زمن طويل ان اسألك عنه : كيف يتصرف ؟ وما رأيك في سلوكه ؟

ــ إنه دقيق جداً في الخدمة ياصاحب السعادة . أما عقليته ...

فقاطعه الجنرال قائلاً :

ــ حسناً ، أما عقليته ؟

ــ ان ذلك يتوقف على الوقت ياصاحب السعادة . فهو شاب ذكي ومهذب أحيانا ، وهو على عكس ذلك وحش ضار أحياناً اخرى . لقد كاد ان يقتل يهودياً في بولونيا ...

ــ انك على حق ... ولكن ينبغي أن نُشفق على الشاب في محنته . ان له علامات عالية هامة ... كذلك يمكنك ...

فأجاب تيموخين وهو يُبرز ابتسامة تعني أنه فهم غاية رئيسه ورغبته :

ــ أمرك ياسيدي الجنرال .

ــ عال ، عال .

سار الجنرال بحذاء الفرقـــة وأوقف حصانه الى جانب دولوخوف وصاح بصوت تعمد أن يسمعه الجنود :

ــ حسناً ان الأمر على ما يُرام ... ليوزع على كل جندي قدحاً من العرق من جانبي . شكراً للجميع وحمداً لله !

ثم تجاوز الفرقـة ليقترب من اخرى ، بينما راح تيموخين يقول الى ضابط مساعد له كان الى جانبه :

ـ انه رجل باسل يمكن التفاهم معه رغم كل شيء .

فأجاب الضابط الصغير :

ـ انه « الملك الكبّا ! » « Roi de cour » (ويقصد انه طيب القلب) .

كان ذلك اللقب قد أطلق على الجنرال من قبل أفراد سريته ، وكان الى جانب ما يحمله من معنى آخر لترجمة العبارة حرفياً ، والذي يمكن القول بمقتضاها انه ملك القلب ، يحمل توريه يتفكّه بها الجنود .

انتشر المزاح بين الجنود بعد ان عم الضباط جميعاً ، فراحت السرية تسير بخطى نشيطة ، والرجال يتبادلون الفكاهات على غرار :

ـ كانوا يقولون مع ذلك ان كوتوزوف معور العين .

ـ لعلك تريد ان تقول انه اعور العينين معاً !

ـ انت مخطىء يافتى . إن عينيه أحدق من عينيك . لقد دقق في الاحذية والجوارب وتفحصها !

ـ آه ! انني يا فتاي ، عندما عاين ساقي حدّثت نفسي بمثل هذا ...

ـ هل رأيت النساوي الذي كان معه ... يبدو كأنه طلي بالحبر . انه أبيض كالدقيق . بالشدة ما قضى من وقت في تلميع نفسه ، ذلك الفتى !...

ـ هه ، يافيديا ، الم تسمعهم يتحدثون عن الوقت الذي سنقاتل فيه بونابارت؟ لقد كنت قريباً منهم . يبدو ان بونابارت في برونوف حالياً ! (يعني برونو)

ـ بونابارت في برونوف ! من أين جئت بهذا أيها الغرّيد ! . انك لاتعرف ان بروسكو Prascot (ويقصد بروسيا) وحده هو المتعند في الوقت الحاضر وان النمساوي يؤدبه ويخرسة . ومتى انتهى منه ، فسيأتي دور بونابارت . مع ذلك تقول انه في برونوف ! انك لست ذكياً يا فتى . ماذا لو انك فتحت أذنيك اكثر من ذلك ؟ .

- آه ، من المشرفين على الاعاشة ! انظر اليهم كيف يستقرون في القرية هناك . انهم لن يهيئوا لنا الطعام قبل وصولنا .

- لن تحصل ولا على « بسكويته » ايها اللعين العجوز .

- ومن الذي اعطاك التبغ البارحة ؟ هل تذكر ذلك ام لا ؟ » . خذ ، خذ مع ذلك ، وليباركك الله ! .

- ليتنا نتوقف فقط . ولسوف نسير هكذا مرحلة طويلة قبل ان نضع لقمة في فمنا .

- هل تريد ان يعطينا الألمان عربات ؟ ان ذلك سيكون حتماً امراً جميلاً .

- اننا هنا يافتاي لسنا الا حفاة الأقدام . لقد كنا حتى الآن فتيان التاج الروسي ... اما الآن فليس في الا الالمان !

هتف الضابط الرئيس :

- ليتقدم المغنون الى الصفوف الأمامية .

فخرج من الفرقة حوالي عشرون رجلا واجتمعوا في الطليعة . والتفت اليهم رئيس الفرقة الموسيقية وهز ذراعه وردد بصوت مدوٍ اغنية الجنود التي تبدأ :

أليس الفجر هذا .

الفجر الذي ينبلج ؟

وتنتهي كما يلي :

نعم حتما سوف نحصل

سوف نحصل على المجد

مع الأب كامانسكي . . .

كانت هذه القصيدة قد نُظمت في تركيا لكنها كانت تردد الآن في النمسا بتبديل بسيط في البيت الأخير ، اذ أستعيض بعبارة « الأب كوتوزوف » عن

عبارة « الأب كامانسكي » التي كانت تنتهي بها في معركة تركيا .

وبعد ان انتهى الجنود من هذا المقطع الأخير ، حركوا أيديهم بعنف وكأنهم يلقون بشيء الى الارض . ونظر قارع الطبل الى المغنيين نظرة قاسية شملتهم جميعاً ، فلما تأكد من ان عيونهم شخصت اليه ، بدا كأنه يرفع شيئاً وهمياً فوق رأسه ، شيئاً ثمينا غير مرئي ، استبقاه لحظة مرفوعاً الى الأعلى ثم ألقاه فجأة . بحركة يائسة الى الأفق البعيد وهتف :

آه ، آه ، ياكوخي .

ياكوخي الجميل ...

ورد عشرون صوتاً بعده :

— ياكوخي الجديد ! ... بينما تقدم الضارب على الصنج الى الأمام مهرولاً وراح رغم ثقل تجهيزاته ، يسير القهقرى وهو يحرك كتفيه بحركة دائرية ويقرع صنوجه بحركة تهديدية . اما الجنود فقدراحو يضبطون الايقاع بحركات اذرعهم ، ويتقدمون بهمة عالية ونشاط ، وهم يقرعون أقدامهم على الأرض . وارتفع بعد قليل صوت عجلات العربة وصريرها ، وصوت خيول تخب . كان كوتوزوف وتابعوه عائدين الى المدينة . أشار الجنرال . القائد الأعلى اشارة طلب فيها ان يمشي الجنود بخطوات حرة وكان وجهه ووجوه تابعيه مشرقة لسماعهم تلك الأغنيه ، ولرؤيتهم تلك القطعة المرحة الصاخبة ، يقودها الراقص الذي يسير في المقدمه . وفي الصف الثاني من ركبه ، على الجانب الأيمن ، كان جندي ذوعينين زرقاوين يُلفت النظر بتصرفه الكيس الحماسي المتفق مع ايقاع الأغنية ، وبنظرة الاشفاق التي كان يُلقيها على كل من الفرسان المتعجرفين المواكبين لركب القائد الأعلى . كان يبدو مشفقاً عليهم لأنهم لايسيرون في صفوف الفرقة . جاء احد أولئك الضباط الفرسان متخلياً عن مكانه في الركب ،

واقترب من ذلك الجندي الذي لم يكن سوى دولوخوف .

كان ذلك المتخلف ، واسمه جركوف ، تابعاً من قبل للعصبة التي كان يقودها ويرأسها دولوخوف . وكان قد لاقاه خلال الطريق وتجاهل وجوده . فلما رأى عطف كوتوزوف ولمس ميله الى ذلك « الضابط المحروم من رتبته » اقترب منه وعلى وجهه آيات من السرور .

سأله بصوت أراده ان يعلو على أصوات المغنين ، وقد نظم خطوات جواده مع مشية دولوخوف :

— كيف الحال ياصديقي العجوز ؟

أجابه دولوخوف ببرود :

— كما ترى .

كانت الأغنية الحماسية التي يسير على خطاها الجنود ، تضفي معنىً خاصاً على لهجة جركوف المتواضعة وبرود دولوخوف المتعمد .

قال جركوف .

— اذن ، هل تسير الحال مع الرؤساء على مايرام ؟

— لست أشكو من شيء . انهم جميعاً أشخاص باسلون .. . كيف بحق السماء تسللت الى الأركان العامة ؟

— لقد نقلوني بصفة ضابط ارتباط

وصمتا فترةً مصغيين الى الأغنية التي كان لحنها يثير الحماس في النفوس :

لقد أطلق الصقر

وطار من اليد اليمنى

ولولا تلك الاغنية ، لكان حديث الصديقين على نمط آخر .

سأل دولوخوف :

— هل صحيح ان النمساويين قد هزموا ؟

ـ الله أعلم . ولكن يبدو لي ذلك حقيقة .
قال دولوخوف بصوت يتفق مع ايقاع الاغنية :
ـ ذلك أفضل .
ـ تعال لرؤيتنا ذات مساء . سوف نلهو على هوانا .
ـ انكم اذن تتمرغون على الذهب ؟
ـ تعال مع ذلك .
ـ مستحيل . لقد أقسمت ان لا ألمس الورق ولا الخمر قبل ان تعاد إليّ رتبتي .
ـ ستعاد اليك في العملية المقبلة .
ـ عندئذ سنرى .
وعاد الصمت بينهما من جديد .
ـ اذا احتجت الى شيء فتعال الى الأركان ، وسنحاول ان نخدمك .
أجاب دولوخوف بابتسامة هازئة :
ـ لاتعذبني انني اذا احتجت الى شيء ماطلبته ولكن أخذته .
آوه ، انك تعلم ان ماأقوله لك ...
وأنا كذلك .
حسناً الى اللقاء .
ـ راقب صحتك ...
وظلت الاغنية ترتفع مقاطعها :
بعيداً ، بعيداً جداً ، نحو الوطن ...
اكز جركوف حصانه فثار هذا ، وبعد ان دار حول نفسه دورتين او ثلاث دورات دون ان يهتدي الى القائمة التي يجب ان يبدأ بها السير ، اندفع خبباً على طول الفرقة على ايقاع الاغنية .

الفَصلُ الثّالِثُ

(هزيمة ماك)

عندما عاد كوتوزوف من الاستعراض ، دخل الى مكتبة يرافقه الجنرال النمساوي ، بعد ان اعطى الامر الى احد تابعيه ، بأن يعرض عليه الاوراق المتعلقة بحالة الجنود القادمين من روسيا ، والمخابرة الواردة من الارشيدوق فرديناند الذي كان على رأس الطليعة . فلما جاء الامير آندريه بالوثائق المطلوبة ، رأى الجنرال القائد الاعلى وعضو القيادة العليا جالسين وراء طاولة يدرسان مخططاً .

قال كوتوزوف وهو ينظر الى بولكونسكي وكأنه يوحي اليه بالانتظار :

— حسناً بينما استمر يتابع الحديث الذي كان دائراً بالفرنسية . كانت لغته المهذبة ونبراته الواضحة ، والعناية التي يبديها لتلفظ كل كلمة بوضوح ، تأسر انتباه سامعه ، وتبرهن على انه يتلذذ بسماع اقواله .

— دعني اقول لك ياجنرال ان الامر لو كان منوطاً بي وحدي ، لكنت منذ زمن بعيد أجريت الاتصال مع الارشيدوق وفقاً لرغبات جلالة الامبراطور

فرانسوا . ثق بشرفي انني سأشعر براحة عميقة اذا اسلمت القيادةالعليا لقائد اكثر دراية مني واستعداداً ومهارة . ومثل هؤلاء القواد كثير في النمسا . انني بذلك اتخلص من مسؤولية جسيمة . غير ان مايحدث يجعل الظروف تقهرنا ياجنرال .

وكانت الابتسامة التي اشفع بها جملته الاخيرةتوحي بالقول : «لك ان لا تصدقني اذا شئت ، ولا يهمني اذا صدقتني ام لا ، ولكن ليس بين يديك حجة تتذرع بها وهنا جوهر المسألة » .

وعلى الرغم من ان الجنرال النمساوي لم يكن شديد السرور ، فقد اضطر ان يدفع الى كوتوزوف من نوع النقد الذي صرفه له . غير ان لهجته الشرسة المتذمرة ، كانت تتنافى مع عروضه المعسولة :

— كلا ، كلا . ان جلالته يقدر تقديراً عالياً مساهمة سعادتكم في العمل العام ، وارجو ان تثق بذلك . لكننا نعتقد فقط ان الامهالات الحالية تحرم الجيوش الروسية المظفرة ورؤساءهم المشاهير أكاليل الغار التي درجوا على اكتسابها والتحلي بها في ساحات الوغى .

كانت تلك الجملة ولا شك جملة مهيأة سلفاً . فانحنى كوتوزوف وهو يبتسم وقال :

— انني اقدر شخصياً — والرسالة التي شرفني بها صاحب السمو الارشيدوق فرديناند منذ حين تؤيد رأيي — اقدر ان الجيوش النمساوية التي يقودها رئيس على جانب كبير من المهارة كالجنرال ماك ، قد حصلت حتى الآن على نصر حاسم يجعلها ولا شك في غير حاجة الى عوننا .

عبس الجنرال ، اذ على الرغم من ان هزيمة النمساويين لم تكن قد اعلنت رسمياً بعد ، فان الاشاعات الكثيرة المزعجة كانت تؤيدها ، حتى ان جواب كوتوزوف بدا لهذا السبب لونا من السخرية . مع ذلك فقد كان وجه القائد الروسي الاعلى يشع بابتسامة بريئة تؤكد براءة قصده . فقد كانت الرسالة

التي ارسلها اليه الارشيدوق فردیناند تصف الحـــالة الستراتيجية بانهـا ممتازة جداً .

قال للامير اندريه :

ــ اعطني الرسالة .

ثم التفت الى الجنرال النمساوي ، فقرأ له المقطع التالي وقد تقلصت شفته بابتسامة تحمل شيئاً من السخرية :

« إن تركز قواتنا التي يبلغ عددها سبعون الف رجل ، قد أعد وانهي على خيز مايرام ، بشكل يجعل العدو يتعرض لهجماتنا اذا حاول اجتياز «ليخ» [1] ويمنى بهزيمة محتومة . اننا باحتلال « الاولم » [2] نحتفظ بارجحية السيطرة على على ضفتي الدانوب ونستطيع بذلك في كل لحظة ان نجتاز الدانوب اذا لم يحاول العدو اجتياز نهر «ليخ» ، لنقطع عليه خط مواصلاته ، وان نعود الى عبور الدانوب مرة اخرى ، لنحول دون نجاح اية محاولة يقوم بها ضد حلفائنا المخلصين سوف ننتظر بجلد وبطولة ان ينتهي الجيش الروسي من استعداداته ، وان يتخذ اهبته . وبعدئذ سوف نجد سهولة كبيرة بتهيء المصير الذي يستحقه العدو باتحادنا معاً . »

وأعقب :

ــ تفضل بالاقتناع بصدق قولي .

---

(١) نهر في بافاريا يمر بمدينة او جسبورج ويصب في الدانوب . طوله ٢٨٥ كم .
ــ المترجم ــ

(٢) اولم ، مدينة المانية على الدانوب سكانها (٧٥٠٠٠) بنأ كاتدرائيتها على الهندسة القوطية . استسلم فيها الجنرال ماك النمساوي مع (٣٠٠٠٠) جندي دون قتال . موطن العلامة انشتاين .
ــ المترجم ــ

وأطلق زفرة ارتياح ونظر الى الجنرال النمساوي . فأجاب هذا وقدرأى أن المزاح قد دام اكثر مما ينبغي ، وأن من الأصوب بلوغ الغاية مباشرة :

ـ لاشك . ولكن ينبغي أن نتوقع دائماً أسوأ العواقب . ان سعادتكم تعرفون ولا شك هذه الحكمة القديمة .

وألقى نظرة بديهية الى مساعد الجنرال . فقاطعه كوتوزوف بقوله :

ـ اعذرني ياجنرال .

واستدار نحو الأمير آندريه وأردف يحدثه :

ـ اسمع ياعزيزي . اذهب الى كوزلوفسكي . واطلب اليه التقارير الوارده من جواسيسنا . هذه رسالة الأرشيدوق فرديناند ، وهاتان رسالتان من الكونت نوستيتز . خذها معك وكذلك هذه الأوراق لخصها جميعها باللغة الفرنسية ، واحمل لي مذكرة واضحة تحمل كل معلوماتنا عن عمليات الجيش النمساوي ... انك تفهمني أليس كذلك ؟ ... وعندما تنتهي من ذلك ، إعط المذكرة الى سعادته .

أشار الأمير آندريه برأسه إشارة يُفهم منها أنه فهم الغاية من الكلمة الأولى ليس ماقاله رئيسه بلسانه فحسب بل كذلك ما كان يُضمره في نفسه . وجمع الأوراق وحيا ثم انسحب بخطوات خفيفة .

على الرغم من ان الامير آندريه لم يكن قد مضى على مغادرته روسيا زمناً طويلا ، فإن سحنته وحركاته وتصرفاته خلت كلها من أثر الانهاك والتفاعل الذي كان مألوفاً عليها . كانت مهماته الجديدة تستأثر بكل انتباهه ، وتفتنه بشدة ، حتى انه ما كان يفكر في الانشغال بما يقوله زملاؤه عنه . وكانت نظرته وابتسامته تمتازان بدعة وود لم يعرفا فيها من قبل .

كان كوتوزوف قد تلقى رسالة الامير بولونسكي العجوز وهو في بولونيا فاستقبل الامير الشاب استقبالاً طيباً ، وعده بان لاينساه . وقد بر بوعده اذ اختصه بين كل الضباط المساعدين ، فأخذه برفقته الى فينا ، وسلمه هناك اكثر المهمات خطورة . وكتب القائد الأعلى كوتوزوف الى الامير العجوز بولكونسكي رداً على رسالته يقول :

« إن ابنك يبشر ان يكون ضابطاً ممتازاً بفضل كفاءاته ودأبه ودقته . واني اعتبر نفسي سعيداً جداً اذ أرى مرؤوساً مثله تحت تصرفي . »

كان زملاء الامير آندريه في الاركان والجيش ، — لما كان الحال في بيترسبورج — يشعرون حياله شعورين مختلفين ، وينقسمون تبعاً لذلك الى معسكرين . الاول وهو معسكر الاقلية ، يعتبره شخصاً بارزاً خلق لمستقبل ومصير عاليين رفيعين . وكان أعضاء هذا المعسكر يصغون اليه ويعجبون به ويسيرون على هداه . فيتظاهرو امامهم بدوره بمظهر البساطة واللطف . والثاني وهو معسكر الاكثرية ، يعتبره بارداً جامداً مكروهاً . وكان اعضاؤه يمقتونه . لكنه كان يتصرف حيالهم بشكل ما كانوا يستطيعون معه الا ان يقدروه بل وان يرهبوا جانبه.

خرج الامير اندريه من مكتب كوتوزوف فمر بطريقه على غرفة الانتظار حيث كان زميله ، المرافق المنوب كوزلوفسكي يقرأ كتاباً قرب النافذة .

سأله هذا :

— حسناً ياامير ؟

— صدر الامير بتحرير مذكرة تفسر سبب بقائنا دون نشاط .

فقال كوزلوفسكي :

– ولماذا ؟

هز الامير اندريه كتفيه دلالة على انه لايعرف السبب ، بينما استطرد زميله :

– هل من اخبار عن ماك ؟

– كلا .

– اذا كان هزم حقيقة فسترد علينا اخباره .

قال الامير اندريه موافقاً :

– بلا شك .

واتجه نحو الباب . غير ان هذا فتح فجأة بعنف وبرز على العتبة جنرال نمساوي مديد القامة في ثوب رسمي يعصب رأسه بوشاح اسود ويحمل حول عنقه صليب ماري تيرنير ، فتوقف الامير منتظراً .

قال الجنرال القادم بلهجة تبرز اصله الالماني :

– الجنرال الاعلى كوتوزوف ؟

ونظر حوله ثم اتجه فوراً نحو باب المكتب .

فاجابه كوزلوفسكي وهو يقف في سبيله بحركة عنيفة :

– ان القائد الاعلى مشغول . فمن يجب ان ابلغه عنه ؟

حدج المجهول ذلك الضابط الصغير من عل وكأنه يقول :

« هل يعقل ان لاتعرف من انا ؟ » . فكرر كوزلوفسكي بهدوء :

– ان القائد الاعلى مشغول .

عقد النمساوي بين حاجبيه وارتعدت شفتاه قليلا، فاخرج دفيتراً من جيبه كتب على ورقة منه بضع كلمات بقلم الرصاص ، ثم قطعها واعطاها لكوزلوفسكي ومضى بخطوات سريعة نحو النافذة ، وتهاوى على مقعد هناك وهو يسرح ناظريه

فيما حوله وكأنه يقول لهم : « لمَ تنظرون اليّ على هذا الشكل ؟ » . وبعد برهة مد عنقه وكأنه يهم بالنطق ، لكنه استدرك نفسه فلم يصدرعن حنجرته الا صوت غريب يشبه الدمدمة ، مالبث ان خنقه ايضاً . وفُتح باب المكتب ، وبدا على عتبته كوتوزوف . وعندئذ نهض الجنرال المعصوب الرأس محنياً ظهره وكأنه يفر من خطر ماحقٍ ، وهُرع بخطوات واسعة وقال بصوت أجش :

— انك ترى ماك التعس !

لبث كوتوزوف للوهلة الاولى جامداً أمام الباب ثم اجتاح وجهه غضن مرّ كموجة على تقاطيع وجهه ، فانبسطت جبهته وانحنى بامتثال مغمض العينين دون ان يتفوه بكلمة ، وتنحى عن طريق ماك ليدخل ثم أغلق الباب بنفسه وراءه .

كانت الشائعات حقيقة : فالجيش النمساوي الذي كان مجتمعاً قرب «الأولم» استسلم كله . لم تمض نصف ساعة حتى كان الضباط المساعدون يحملون الى رؤساء الوحدات تعليمات خاصة تُشير الى ان الجيش الروسي سيخرج عن جمـــوده ويلاقي العدو قريباً .

وفي الاركان العامة ، لم يكن سير العمليات العامة يشغل الا عدداً محدوداً من الضباط ، كان الامير آندريه في عدادهم . منهم هذا بعد أن رأى ماك واضطلع على تفاصيل الهزيمة ، ان الحملة قد فشلت تقريباً وأن النصربات أبعد مما كان يُنتظر . تخيل المصير المزعج الذي ينتظر الجيش الروسي في ذلك الموقف الدقيق الحرج ، والدور الذي سيلعبه شخصياً في ذلك المصير ، فشعر بسرور للاهانة التي منيت بها النمسا ، تلك الدولة المتباهية . كان ذلك الشعور اقوى منه ، وكان يمجد الفكرة التي خطرت بباله ، والتي قدر على أساسها انه سيشهد لأول مرة ، أول لقاء بين الفرنسيين والروس منذ عهد سوفوروف ، بعد ثمانية ايام على الاكثر . لم تكن غبطته لتخلو من شعور بالجزع والخوف من ان تتفوق عبقرية بونابارت

وتتغلب على الجيوش الروسية الباسلة ، لأنه ما كان يتوقع ان يرى بطله في خذلان.
أثارت تلك الأفكار عواطفه وقلبت كيانه وحفزته ، فودّ ان ينسحب الى غرفة ليكتب الى ابيه رسالته اليومية . لكنه بينما كان يجتاز المشى ، اصطدم بزميله في غرفة نيسفيتسكي وبالمداعب جركوف اللذين كانا على حال من البهجة والانشراح على جري عادتهما . استغرب زميله شحوب وجهه والتماع عينيه فسأله قائلاً :
– لمَ انت مكتئب ؟
– ليس هناك مايبهج على ماأعلم .
ومن الجانب الآخر من المشى ، ظهر الجنرال النمساوي عضو القيادة العليا يرافقه الجنرال « ستروخ » ، الملحق بأركان حرب كوتوزوف للاشراف على شؤون تموين الوحدات الروسية . وكان عرض الممشى كافياً لمرور الجنرالين دون عوائق . غير ان جركوف ابعد نيسفيتسكي بذراعه وهتف بلهجة تشف عن المبادرة المصطنعة وهتف :
– هاهما ! ... هاهما ! ... تنحوا ، اخلوا المكان ، تنحوا !
احنقت تلك البادرة من التلطف ، الجنرالين القادمين . غير ان جركوف تقدم خطوة الى الامام وخاطب احدهما بابتسامة بنهاء وبمظهر الرجــل الذي لايستطيع كتمان بهجته :
– لي الشرف بأن اقدم لسعادتكم تمنياتي المخلصة .
وانحنى امامه انحناءة مضحكة وهو ينزلق على قدم ثم على الاخرى شأن الاطفال الذين يتدرجون على الرقص . فحدجه عضو الاركان العامة النمساوي بنظرة قاسية . لكن ابتسامته البلهاء طمأنته ، فلم يستطع الا ان يمنحه لحظة من انتباهه ، فأشار بطرف عينه الى انه يُصغي الى مايريد قوله .

كرر جركوف بوجهه المستبشر :

تهانئي الخالصة . لقد وصل الجنرال ماك في صحة طيبة باستثناء جرح خفيف هنا ...

واشار باصبعه الى جبهته .

فعبس وجه الجنرال وادار له ظهره ومضى . ولم يكد يبتعد بضع خطوات حتى قال بالالمانية بصوت مختنق .

رباه بالحماقة والسذاجة !

كان نيسفيتسكي يتلوى من الضحك ، فامسك بذراع الامير اندريه غير ان هـــذا الذي غدا وجهه ممتقعاً بعد شحوبه ، دفعه عنه بغضب ، واستدار نحو جركوف .

كانت دعابته السمجة بمثابة ضربة قاضية لاعصاب الامير اندرية ، الذي ضعضعت رؤية الجنرال ماك والهزيمة التي مني بها كيانه وروعـة الفكرة التي تمثلها حول مصير الجيش الروسي . قال لجركوف بصوت حازم حاسم وقد ارتعدت ذقنه لفرط انفعاله :

ــ ياسيدي العزيز اذا كانت مهنة المهرج تروق لك ،فإنني لااستطيع منعك من مزاولتها . لكنك اذا سمحت لنفسك مرة اخرى اظهار مثل هذا التهريج في حضرتي ، فسأجد نفسي مضطراً لتعليمك وتلقينك مباديء السلوك .

ذهل جركوف ونيسفيتسكي لاقوال الامير اندريه ، وراحا يتأملانه فاغري الفم متسعي العينين . قال جركوف :

ماذا حدث ؟ لقد قدمت له تمنياتي ليس الا .

فصاح بولكونسكي :

ــ انني لااناقشك فتفضل بالصمت !

واخذ نيسفيتسكي بذراعه وهو تاركاً جركوف جامداً في مكانه لايدري ماذا يقول :

قال له نيسفتيسكي :

هديء روعك ياعزيزي .

قال الأمير آندريه ، الذي توقف لفرط انفعاله عن السير :

ـ أهديء نفسي ؟ ولكن من نحن اذن ؟ أنحن ضباط نخدم قيصرنا ووطنا ونبتهج للنجاح المشترك ونأسف للخسارة المشتركة ام نحن خدم لاتهمنا قضايا اسيادنا الا قليلا ؟ . . .

وأضاف باللغة الفرنسية وكأنه يؤيد وجهة نظره :

ـ ايقتل اربعون الف رجل ويحطم جيش حليفتنا ، ونجد مع ذلك مادة للضحك ؟ ان مثل ذلك يليق بفتىً تافة كهذا الذي اتخذته صديقاً لك ، ولكنه لايليق بك ، نعم لايليق بك . .

واستطرد بالروسية متمما :

ان مثل هذه التسليات لاتليق الا بالاغرار الحمقى .

وانتظر فترة معتقداً ان جركوف سيجيب على اقواله . غير ان هذا انسحب دون ان ينتظر المزيد .

الفَصْلُ الرابعُ

«فرسان بافلوجراد»

كان فرسان بافلوجراد معسكرين على بعد ميلين من برونو . وكانت الكوكبة التي انخرط في عدادها نيكولا روستوف تشغل قرية سالزنك التي خصص خير منزل فيها لرئيسها « الكابتين دينيسوف » المعروف بين كل كتيبة الخيالة باسم « فاسكادينيسوف . كان نيكولا قد التحق بتلك السرية في بولونيا . ومنذ ذلك الحين ، ظل يشاطر الرئيس مسكنه .

وفي الحادي عشر من تشرين الأول ، في اليوم الذي قلب نبأ انهزام ماك القيادة العامة قلباً ، كانت كوكبة الخيالة لازالت تقضي ايامها بهدوء ، وكأن افرادها سادة اطربتهم حياة الريف . وعندما وصل روستوف وهو في كامل ثيابه ممتطياً حصانه الى مسكن الرئيس بعد ان عاد من مهمة توزيع العلف ، وجد أن دينيسوف لم يعد بعدُ من سهرته التي قضاها مقامراً لدى احد

زملائه . ولما وصل الى مرقاة البيت ، اوقف حصانه وطوح بساقه بحركة رشيقة مرنة ، ولبث فترة معتمداً بجسده على الركاب وكأنه يبارح السرج آسفاً ، وأخيراً ترجل واستدعى الحاجب قائلا :

ــ آه ! بوندارانكو ، هذا انت أيها الباسل .

وهرع الجندي عدواً استجابة لنداء روستوف الذي قال معقباً :

ــ خذ الحصان في نزهة ياصديقي الطيب.

كانت لهجته تدل على البهجة اللطيفة التي يستطيع الشبان الراقون المنحدرون من أرومات نبيلة اظهارها في ساعات سرورهم .

قال الجندي الصغير وهو يرفع شعره المتهدل بسبب العدو :

ــ كما تأمر ياصاحب السعادة .

ــ انتبه ، ولتكن النزهة لطيفة .

وهرع جندي آخر في تلك اللحظة استجابة للنداء ، غير ان بوندارانكو كان قد اطبق عنان الحصان . وكان ذلك التبادر والتهافت يدل على ان ذلك الضابط النبيل يعوف كيف يمنح المكافآت السخية ، وان خدمته تعود بالفائدة على من يتولاها . داعب روستوف حارك جواده ثم انتقل بيده الى ردفه يربت عليه ، وظل يتأمله لحظة ثم قال في سره وهو يبتسم : « رائع ! سيصبح حصاناً رائعاً ! » ورفع حسامه وراح يصعد السلالم ورنين مهازيه يرافق كل خطوة من خطواته وبرز صاحب المسكن على باب الاصطبل وهو يحمل مذراة للدمن . كان المانياً يرتدي صـــدارة من الصوف وقلنسوة من القطن . فلما راى روستوف ، طفح وجهه بالحبور ، وغمزه بعينه بمودة وكرر محيياً الشاب بسرور واضح :

عم صباحاً ، عم صباحاً !

فاجاب روستوف بصوت ودود مهذب لطيف :

- هـل بدأت تشتغل ! ليحيا النمساويون ! ليحيا الروس ! ليحيا الامبراطور الكسندر !

كانت تلك العبارات هي ماسمعه بتكرار يردد على السنة الناس هناك ، وكان يجد متعة في ترديدها على مسامع صاحب المسكن .

ضحك الالماني وخرج من اصطبله ، فرفع قلنسوته وراح يلوح بها فوق رأسه ويهتف .

- وليحيا العالم اجمع !

فلوح روستوف بخوذته ضاحكاً وصاح بدوره :

وليحيا العالم اجمع .

وعلى الرغم من ان هذين الرجلين الذين كان ينظف احدهما اصطبله والآخر يعود من مهمة توزيع العلف ، لم يكن لسرورهما اي مبرر خاص ، الا انهما كانا مع ذلك يتبادلان النظر ببهجة وانشراح ، ويتبادلان اشارات قلبية من الرأس واليد ثم ينسحبان الالماني الى اصطبله ، وروستوف الى البيت الذي يقطنه مع دينيسوف .

سأل روستوف خادم دينيسوف ، وهو ماكر خبيث معروف في كل السرية .

اين سيدك ؟

- مختف منذ مساء امس . لاشك انهم نتفوا ريشه . انني اعرفه تماماً : فهو عندما يربح يعود مبكراً منشرح الصدر . اما اذا لم يعد تلك الليلة ، فمعنى ذلك انه افرغ آخر درهم في جيبه وانه سيعود مختنقاً غاضبا ... هـل اقدم لك القهوة ؟

ـ لامانع •

ولما عاد الخادم لافروشكا بعد عشر دقائق بالقهوة هتف قائلا :

ـ هاهوذا ، حذار من غضبته •

نظر روستوف من النافذة ، فرأى دينيسوف عائداً •

كان هذا رجلا قصير القامة احمر الوجه اسود العينين ملتمعها ذا شاربين كثين وشعر غزير اجعد • وكانت سترته مفكوكة الازرار ، وسراويله هابطة بثنيات منسدلة ، وقبعته مشوهة منحدرة فوق مؤخرة رأسه • كان مكتئب الوجه مطرق الرأس ، يتجه نحو مرقاة المنزل •

صاح بصوت غاضب •

ـ لافروشكا ، ارفع لي هذا ياشديد البلادة !

فاجاب صوت لافروشكا •

ـ انني أدأب على رفع ذلك •

ولما دخل دينيسوف قال :

ـ كيف ! هل نهضت ؟

فاجاب روستوف :

ـ لقد عدت من مهمة توزيع العلف ، ومررت على فراولين ماتيل •

هتف دينيسوف وهو يلثغ بشكل ظاهر •

ـ حقاً ! حسناً ياعزيزي ، لقد تعرضت لخسارة فادحة ! ان المرء لايخطر بباله شؤم كهذا ! لقد بدأ الامر فور ذهابك ... هو لا ، اعطني شاباً !

كان وجهه عابساً ، وفمه منفرجاً قليلا تظهر خلال فتحته اسنانه القصيرة

المتينة . راح دينيسوف يخلل شعره الكثيف الاسود ، الشبيه بالغابة الملتفة ، باصبعه القصيرة الغليظة .

عاد يقول بعد ان مسح على جبينه ووجهه بيديه :

ـ يالها من فكرة سيئة تلك التى حملتني على الذهاب الى منزل ذلك الجرذ (والجرذ لقب احد زملائها من الضباط) . تصور انني لم احصل على ورقة رابحة واحدة ، ولاورقة !

واخذ الغليون المشتعل الذي كان الخادم يقدمه اليه ، فعض عليه باسنانه ، ثم ضرب به الارض وهو يتابع شكواه :

انه ما كان يترك لي إلا أتفه الربح أما الصفقات التي كانت تبشر بربح مضاعف ، فقد كان يلتهمها وحده باستمرار .

كان التبغ المشتعل قد تبعثر في الغرفة دخانا ، فحطم الغليون والقاه بعيداً وصمت فترة ثم قال مخاطباً روستوف ، بعد ان خصه بنظرة نشيطة :

ـ ليت كان لدينا عدد من النساء ! ماالعمل في هذا الجحر غيرالشراب؟ آه! ليتنا دخلنا المعارك وحاربنا بشدة !..

وبلغت مسامعه اصوات خطى ورنين مهاميز تقترب من الغرفة ، اعقبها سعال مستكين . فهتف .

ـ من هناك ؟

فأجاب لافروشكا :

ـ انه وكيل الضابط.

فازداد وجه دينيسوف إكفهراراً وقـــال وهو يلقي بكيس نقوده على المائدة وفيه بضع قطع ذهبية :

ـ روستوف ياصغيري ، اعدد مافي الكيس واخبئه تحت الوسادة .

وخرج للقاء القادم . فاخذ روستوف يعد المال الموجود في كيس النقود ويفصل القطع الذهبية القديمة عن القطع الحديثة بحركة آلية . بينما ارتفع صوت دينيسوف من الغرفة المجاورة يقول :

ـ آه ، آه ! تيليانين ! مرحباً ! لقد أصبت بإحدى هذه الخسارات ...

ـ أين ؟ عند بيكوف ؟ عند الجرذ أليس كذلك ؟ لقد كنت واثقاً من ذلك .

ولم يلبث ان دخل الملازم تيليانين صاحب ذلك الصوت الرقيق ، وهو ضابط من كوكبة روستوف .

القى روستوف بكيس النقود تحت الوسادة وضغط على اليد الصغيرة الرطبة التي مدها الملازم اليه . كان تيليانين هذا قد نقل من سلاح الحرس الى سلاح الخيالة لغير ماسبب ظاهر ، وكان اصدقاؤه لايحبونه رغم أنهم لم يكونوا واجدين عليه أي مأخذ . وكان روستوف بصورة خاصة يعجز عن اخفاء كراهيته الغريزية التي كان يُثيرها في نفسه ذلك الضابط ، ولا يستطيع السيطرة على أعصابه .

سأل تيليانين :

ـ حسناً ، أيها الفارس الشاب ، هل أنت راحض عن المهر الذي بعته لك ؟

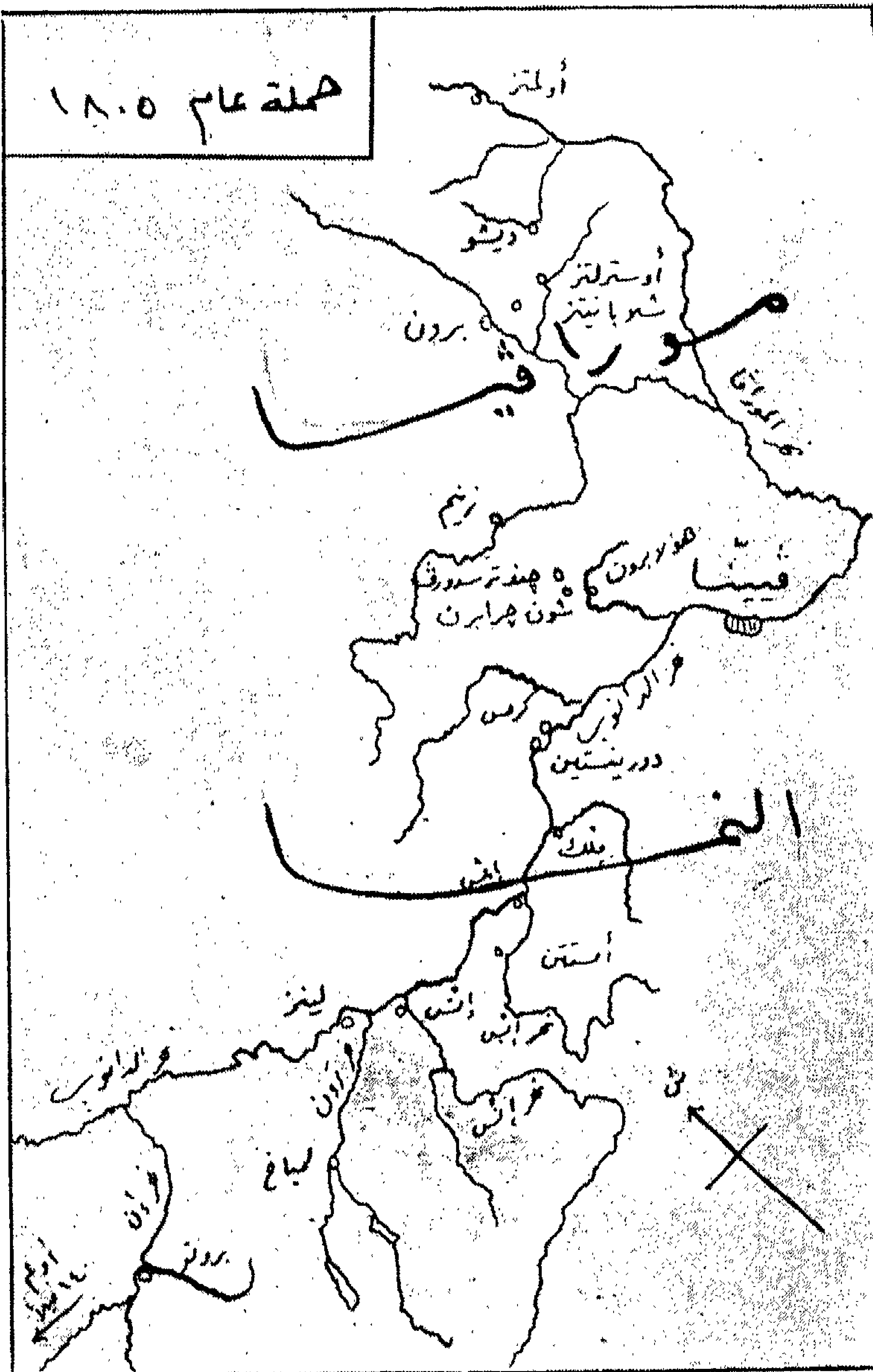
كان تيليانين قد باع الى روستوف حصاناً صغيراً هو الذي شهدنا روستوف ينزل عن صهوته ذلك الصباح .

لم يكن ذلك الملازم ينظر الى الاشخاص نظرة صريحة ، بل كانت عيونه تائهة أبداً من شيء الى آخر مما يكون حوله .

أجابه روستوف :

ـ نعم ، يبدو لي أنه حيوان جيد .

وعلى الرغم من انه اشترى ذلك الحصان بسبعمائة روبل ، رغم انه لايساوي نصف ذلك المبلغ ، فإنه لم يبد إعتراضاً .


حملة عام ١٨٠٥
أولمتز
فيشو
أوسترلتز
شوارتينز
برون
مورافيا
نهر المورافا
زنيم
هولابرون
فينا
جنترسدورف
شون جرابرن
نهر الدانوب
كرمس
دورينشتين
الألب
ملك
أستتن
إنس
نهر إنس
لينز
نهر الدانوب
نهر ترارون
لمباخ
نهر إن
بروناو
ش

أردف يقول :

ــ لكنه يعرج الآن من خلفيته اليسرى :

ــ لعل حافره قد أصيب . إن الامر تافـــه . سأريك كيف تعالج مثل هذه الحالات .

فقال روستوف متلهفاً على التخلص منه :

ــ إذن ، سأستحضر الحصان :

ــ كما تريد . إنه ليس سراً . ولسوف تشكرني من أجل الحصان !

ــ حسناً ، بيّن لي كيف تعالج هذه الحالات .

وخرج الى المشى ليعطي أوامره . أماديبنيسوف، فقد كان واقفاً على عتبة الباب يصغي والغليون في فمه ، الى تقرير وكيل الضابط . فلما رأى روستوف، أشار بإبهامه من فوق كتفه الى الغرفة التي بقي تيليانين وحيداً فيها وقال دون ان يعبأ بوجود وكيل الضابط :

ــ هو ذا فتى لايروق لي !

فهزّ روستوف كتفيه وكأنه يقول : « ولالي ، ولكن ما العمل ؟ »

ولما عاد روستوف بعد برهة الى حيث كان تيليانين ، كان هذا الايزال جالساً في مكانه جلسة اللامبالاة ، يفرك يديه البضتين الصغيرتين ببعضهما . فلما رآه عائداً نهض .

فكر روستوف في نفسه : « حقيقة ان في العالم رؤوساً لاتروق للناظر اليها بل تنفره . »

سأل الملازم وهو يسرح طرفه الشارد حوله :

ــ حسناً ، هل أمرت بإحضار الحصان ؟

ــ نعم .

– لنذهب الى حيث هو . لقدجئت أستفسر من دينيسوف عن أوامر الأمس . هل هي معك يادينيسوف ؟

– ليست جاهزة بعد ... أين تذهبان ؟

– سأطلع هذا الشاب على طريقة معالجة حافر حصان .

مضيا الى الاصطبل ، فأشار الملازم باتخاذ الترتيبات اللازمة لمعالجة حافر الحصان ، ومضى الى غرفته .

لما عاد روستوف ، وجد دينيسوف جالساً والقلم في يده وزجاجة من العرق أمامه ، والى جانبها قطع من المصير المحشو . فنظر الى روستوف نظرة عابسة وقال :

– إنني اكتب « له » .

وبان المرح على وجهه لأنه سيستطيع التعبير بالقول عما كان يود كتابته . واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يعرض على روستوف محتويات الرسالة . قال :

– ألا ترى ياعزيزي أننا عندما نمقت انساناً تخبو قريحتنا ؟ ان الانسان ليس الا حقارة . لكنه عندما يحب يصبح آلهة ويشعر بنفسه أنه نقي نقاه أيام الخليقة الأولى ... من هناك أيضاً ؟

ولما رأى لافروشكا مقترباً هتف به :

– ليذهب القادم الى الشيطان . ليس لدي الوقت لاستقباله !

فأجابه الخادم دون ان يتأثر بلهجته :

– من تريده ان يكون ؟ انه ولا شك وكيل الضابط الذي جاء يسترجع نقوده . لقد استدعيته بنفسك .

عبس دينيسوف وبدا كأنه يهم بالصراخ ، لكنه صمت أخيراً دون أن يتفوه بكلمة . ولم يلبث أن غمغم بين أسنانه :

– آه ، زوت ! كم بقي من مال في كيس نقودي ياروستوف ؟

ـ سبع قطع جديدة وثلاث قديمة .

ـ يالها من حالة قذرة ! ...

ثم صرخ في وجه لافروشكا قائلا :

ـ ماذا تفعل جامداً في مكانك هكذا كجذع الشجرة ؟ ... إبعث إليّ بوكيل الضابط .

قال روستوف وهو مخضب الوجه بالحمرة :

ـ اسمع يادينيسوف . اذا كنت في حاجة الى المال فإنني أستطيع إقراضك ماتريد .

فغمغم دينيسوف :

ـ انني لااحب الاقتراض من أصدقائي . كلا انني لااحب ذلك .

فكرر روستوف :

ـ لكنني اقول لك ان المال متوفر معي . ونحن اصدقاء . انني اعتبر رفضك تجريحاً لي .

ـ كلا شكراً .

واقترب دينيسوف من السرير ليأخذ كيس نقوده .

ـ اين وضعت كيس النقود يارستوف ؟

ـ تحت الوسادة السفلى !

ـ ولكن ليس تحتها شيء .

والقى دينيسوف بالوسادتين الى الارض دون ان يظهر كيس النقود بينهما !

ـ ما معنى هذا ؟

قال روستوف :

ـ انتظر . لعلك تركته يسقط عندما نفضت الوسائد .

ورفع الغطاء وهزه ونقب في كل مكان . لكن الكيس كان قد اختفى .

— هل تُراني نسيت ؟... لكن كلا . بل انني فكرت في أنك تضع نقودك تحت وسادتك وكأنها كنز ... نعم ، لقد وضعت كيس النقود هنا ...

والتفت الى لافروشكا وقال :

— أين الكيس :

— حيث وضعته صدقني . انني لا أعرف عنه شيئاً ولم ادخل قط وحدي الى هنا :

— ولكن ...

— انك دائماً هكذا ... انك تُلقي بأشيائك ذات اليمين وذات الشمال ثم تنسى أين وضعتها .

— نعم لكنني هذه المرة اذكر كانها على الضبط لأنني فكرت في قضية الكنز ... لاشك انني وضعتها هنا ...

رفع لافروشكا كل ما على السرير ونظر اسفله وتحت المائدة وقلب الغرفة رأساً على عقب وسيده يتابع حركاته صامتاً . فلما انتهى الخادم من التفتيش وباعد بين ذراعيه وقال انه لم يجد شيئاً في أي مكان ، التفت دينيسوف الى روستوف وقال له :

— هيا ياعزيزي ، لا تلعب علينا لعب التلاميذ ...

شعر روستوف ان انظار دينيسوف شاخصة اليه . فرفع عينيه فترة ثم عاد فاطرق وقد تخضب وجهه بما تصاعد اليه من دمه ، وبدا صدره يعلو وينخفض انفعالا وكانه عدا شوطاً بعيداً ، وشعر بغصة في حلقه .

اردف لافروشكا قائلا :

— ينبغي ان يكون كيس النقود هنا لان احداً لم يدخل هذه الغرفة إلا كما والملازم تيليانين .

فزمجر دينيسوف وقد عبق وجهه بالدم ورفع يده استعداداً لصفع خادمه :
ـ واذن ، تدبر امرك ايها الخبيث ، اوجد الكيس ! الكيس فوراً والا فاحذر العواقب ! سوف انهال عليكم جميعاً بالضرب ! ...

تحاشى روستوف نظرة دينيسوف ، فزرر سترته وعلق حسامه الى منطقته واخذ قبعته. بينما استمر دينيسوف يصرخ بانفعال متزايد وقد اطبق على كتفي لافروشكا واعتصره بشدة وهو يدفعه نحو الجدار :

ـ الكيس ، اتسمع ، الكيس فوراً!

فقال روستوف :

ـ دعه بسلام ، انني اعرف من اخذه .

واتجه نحو الباب دون ان يرفع ابصاره . فترك دينيسوف الخادم وفكر فترة . فلما ادرك غاية روستوف ، استوقفه بذراعه وصرخ بشدة ابرزت عروق عنقه وجبهته كالحبال المشدودة :

ـ مستحيل ! لن ادعك تقول ذلك . انك تثير فضيحة ياعزيزي ! ... ان الكيس هنا . سأسلخ جلد هذا الحيوان ، لكنه سيجده .

كرر روستوف بصوت متهدج وهو يخطو نحو الباب :

ـ انني اعرف من اخذ الكيس .

فاندفع دينيسوف نحو زميله محاولا ايقافه وهو يصيح :

ـ لاتحاول شيئاً من هذا القبيل ، قلت لك لاتحاول !

غير ان روستوف افلت منه وكأن دينيسوف كان الد اعدائه ، وحدجه بنظرة عميقة في عينيه ، مفعمة بالحقد ، وقال بصعوبة والم :

ـ زن كلماتك جيداً . لايوجــد في الغرفة سواي . فاذا لم يكن الكيس مع الآخر فمعنى ذلك ...

ولم يستطع اكمال عبارته ، فانصرف مهرولا . صاح دينيسوف مشيعاً :

ــ ليركبك الشيطان انت والآخرين معك !

مضى روستوف الى حيث يقيم تيليانين فقال له خادمه :

ــ ان الملازم في الأركان.

ولما رأى وجهه المنقلب المتقلص قال يسأله :

ــ ماذا حدث ؟

ــ لاشيء .

فأضاف الخادم قائلا :

ــ لو انك جئت قبل قليل لوجدته هنا .

امتطى روستوف اول حصان صادفه ، ومضى الى الاركان العامة في قرية مجاورة تبعد ميلا او اقل من سالزنك . وكان في تلك القرية خان يؤمه الضباط فرأي روستوف امام الخان حصان تيليانين . ولما دخل ، رأى الملازم جالساً الى مائدة حافلة بالطعام والخمر . هتف تيليانين وهو يبسم ويرفع حاجبيه :

ــ آه ! ها انت ذا ايها الشاب !

فتمتم روستوف بجهد واضح :

ــ ن ــ ع ــ م .

وجلس الى مائدة مجاورة .

لم يتوجه اليه بأية كلمة لأن الخان كان يضم اثنين من الألمان وضابط روسي آخر غيرهما . وكان السكون مخيما فلا تسمع الا قرع السكاكين على الاطباق وحركة فكي تيليانين وهو يمضغ الطعام . فلما انتهى هذا من طعامه . اخرج من جيبه كيس نقود مزدوج ، ومد اصابعه المرفوعة بتأنق ، فأخرج قطعة ذهبية وقال للندل :

ـ اعد الي الباقي واسرع !

كانت القطعة الذهبية جديدة ، فنهض روستوف واقترب من تليانين وقال بصوت جامد :

ـ دعني ارى كيس نقودك .

فمد تيليانين الكيس الى روستوف وهو حائر البصر مرفوع الحاجبين وقال وقد شحب وجهه فجأة :

ـ انه كيس جميل اليس كذلك؟ ... نعم،نعم ... انظر اليه ايها الشاب

فحص روستوف الكيس والمال الذي فيه ثم راح يحدق في وجه تيليانين الذي راح في تلك اللحظة ، يتظاهر بالدعة وهو لايفتأ يسرح طرفه حوله. قال:

ـ عندما ندخل فيّنا ، فان كل ما في كيسي سيتبخر فيها . امـا في هذه الاحجار الصغيرة القذرة ، فان المال لايفيد في شيء ... هيا ، اعد الي كيسي ايها الشاب لانني سأمضي .

لم يتفوه روستوف بكلمة . فاستطرد تيليانين :

ـ هل تناولت طعامك؟ان المرء يجدطعاماًجيداً هنا ...حسناً ،اعطني الكيس

ومد يده الى روستوف واستعاد الكيس فأعاده الى جيب سراويله بهدوء وهو يرفع حاجبيه بلا مبالاة . وكانت شفتاه المنفرجتان تبدوان كأنهاتقولان « انني اضع كيسي في جيبي وهو امر بسيط لكنه لايخص سواي . »

واطلق زفرة ورفع الى روستوف نظرة مختلسة من تحت حاجبيه المرفوعين وقال:

ـ حسناً ماذا تريد ايها الشاب ؟

فاتصل الرجلان بتيار غير مرئي وبط بين نظريها كالشرارة الكهربائية وانتقل من تيليانين الى روستوف ثم من روستوف الى تيليانين وبالعكس .

ودام ذلك الاتصال حوالي ثانية . وهتف روستوف وهو يمسك الملازم من ذراعه ويسحبه في شيء من القوة نحو النافذة :

ــ تعال الى هنا ...

ولما بلغاها ، همس في اذنه :

ــ ان هذا المال يخص دينيسوف ، ولقد اخذته ....

فاحتج تيليانين :

ــ كيف ! ... كيف !... كيف تجرأ ؟. ...

غير ان ذلك الاحتجاج كان يشبه في لهجته صرخة اليأس ، وطلب الصفح والغفران . فلما سمع روستوف لهجة الملازم ، أحس كأن عبئاً قدأزيح عن كاهله : لم يعد للشك مكان ! شعر بالسرور الغامر وباشفاق على ذلك التاعس الواقف أمامة . غير أنه كان مرغماً على الاستمرار في القضية حتى النهاية .

غمغم تيليانين وهو يأخذ قبعته ويتجه نحو غرفة خالية .

ــ إن الله وحده يعلم ماسيظن الناس فينا . ينبغي أن نتفاهم ...

فقال روستوف :

ــ إنني أعرف ماأقول ، وأنا على استعداد للبرهان عليه .

فتمتم الملازم :

ــ ولكن ... ولكنني ...

كان وجهه ممتقعاً من الخوف ، وعضلات وجهه كلها ترتعد . وكانت نظرته تائهة على سطح الارض لايجرأ على رفعها الى وجه روستوف . اخذ يحاول حبس النشيج في حلقه .

قال وهو يرتمي على مائدة هناك :

ــ كونت ! ... لاتضيّع شاباً ... هاهو ذا المال الملعون خذه .

وألقى على المائدة بالمال ثم أردف :

ـ إن لي أباً عجوزاً وأماً مسكينة ...

أخذ روستوف المال وهو يتحاشى النظر الى وجه تيليانين وهم بالانسحاب دون ان يتلفظ بكلمة . لكنه لما بلغ الباب ، أبدل عزمه فعاد اليه وقال :

ـ رباه ، كيف أمكنك أن ترتكب مثل هذه الفعلة ؟

كانت عيناه مغرورقتان بالدموع . فاقترب منه تيليانين وقال :

ـ كونت ...

فهتف روستوف وهو يتراجع الى الوراء :

ـ لاتلمسني ! ... اذا كنت في عسر فخذ هذا المال . احتفظ به ...

والقي كيس النقود على المائدة وغادر الخان جرياً .

* * *

الفصل الخامس

(الحرب)

مساء ذلك اليـــوم ، اجتمع ضباط الكوكبة عند دنيسوف وراحوا يناقشون بحماس .

كان احد الضباط يقول لروستوف الذي كانت الدماء المتصاعدة الى وجهه قد أحالته قرمزي اللون :

ـــ صدقني ياروستوف انك مخطيء . ينبغي ان تقدم اعتزاراتك الى الكولونيل .

كان المتحدث طويل القامة أشهب الشعر ضخم الشاربين عميق تجاعيد الوجه . وكان قد حرم من رتبته بسبب أعمال تتعلق بالشرف وعاد فاسترجـــع رتبته بعـــد ذلك .

صرخ روستوف :

انني لاأسمح لاحد ان يتهمني بالكذب ! لقد قال لي انني أ كذب وإنني شوهت قوله ، وان الامور ينبغي ان تتوقف عند ذلك الحد . انه يستطيع ان يجعلني على رأس الخدمة كل يوم ، وأن يفرض علي عقوبات عسكرية اذا حلاله

ذلك . لكن احد لن يستطيع ارغامي على تقديم اعتزاراتي . فهو اذا كان بوصفه زعيما يجد من غير اللائق ان يرضى كرامتي فانني ...

فقاطعه الرئيس كيرستن بصوته العريض المنخفض وهو يفتل شاربيه الكبيرين :

ـ اهدأ ياعزيزي واصغ اليّ . انك تقول للزعيم ان واحداً من زملائك قد ارتكب سرقة ، وتقول ذلك بحضور ضباط آخرين ...

ـ وهل هو خطأي اذا كان هناك ضباط آخرون ؟ يجوز ان التحدث في في حضرتهم ما كان ضروريا، لكنني لست مداوراً سياسياً . لقد دخلت في سلاح الفرسان لانني كنت أظن ان الرقة وانتقاء العبارات الملقة ليست في شيء من الحسبان ... لقد اتهمني بالكذب فليسحب كلمته ! ...

ـ ان كل ماتقوله حسن وصحيح ولا يوجد من يشك في شجاعتك ، ولكن المسألة ليست هنا . سل دينيسوف : هـــل شوهد ضابط صغير يطلب اعتذاراً من زعيم ؟ .

كان دينيسوف يقضم شاربه ويُصغي الى النقاش مكفهر الوجه ، عازفاً عن التدخل فيه . فلما سمع سؤال الرئيس أجاب باشارة نفي من راسه . فاستطرد ذلك بإلحاح :

ـ هيا ياعزيزي . لقد كنت تتحدث الى الزعيم عن تلك المسألة اللعينة بحضور ضباط آخرين ، فأشار عليك بوجدانيتش . « وهو الاسم الذي كان يُطلق على الزعيم بين صفوف الضباط ، واسمـــه الكامل كما سنرى هو : كارل بوجدانوفيتش شوبرت » بالصمت ليقطع سياق حديثك :

ـ اي أنه اعتبرني كاذباً :

ـ ليكن . لكنك تفوهت أمامه بحماقات وينبغي ان تعتذر عنها .

فصرخ روستوف :

ـ أبداً !

فأجاب الرئيس بصوت صارم :

ـ ماكنت أنتظر ذلك منك . انك ترفض الاعتذار مع انك ياعزيزي مذنب ذنباً كبيرا حيال الزعيم بقدر ما انت مذنب حيالنا ، وحيال السرية كلها كان يجب ان تفكر في الامر وان تطلب المشورة منا فيما يجب ان تتبعه من تصرف . وبدلا من ذلك ، أفرغت مافي جعبتك دون حذر أمام ضباط آخرين ! فماذا كان يستطيعه الزعيم ازاء ذلك ؟ هل كان يستطيع ان يقدم ضابطاً للعدالة فيشوه سمعة السريه كلها ؟ هذا هو رأيك اليس كذلك ؟ حسناً ، انه ليس رأينا . وقد احسن بوجدانيتش التصرف عندما زعم انك لاتقول الصدق . ان قوله مزعج ولا شك . ولكن الخطأ ليس خطأه ياعزيزي . والآن عندما نرغب في خنق القضية ، نراك على العكس تصيح فوق الأسطح ، وترفض الاعتذار لمجرد الزهو . كيف تجد ان ابقاؤك في الخدمة كل يوم يشكل مهانة . ولا تستطيع ان تقدم اعتذارات الى ضابط عجوز نبيل ! . ان بوجدانيتش لايخلو من عيوب ، لكنه ليس أقل من زعيم عجوز باسل . ومع ذلك فانك تتكدر من قوله . ولكن الا تجد ان تشوية سمعة السرية امر خطير ؟

وراح صوت الرئيس يتهدج وهو يقول :

ـ انك ولاشك يافتاي لست هنا الا لفترة من الزمن لأنك ستنقل يوماً لتكون ضابطاً مساعداً في الأركان ، فلا يهمك والحالة هذه ماسيحدث بعدك ، ولايزعجك على مايبدو ان يقال « ان بين ضباط بافلوجراد لصاً ! » أما نحن ، فان ذلك الأمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة الينا . أليس كذلك يادينيسوف ؟

ظل دينيسوف صامتاً جامدا يلقي على روستوف نظرات من عينيه السوداوين

اللامعتين بين الحين والآخر . فاستطرد الرئيس :

– انك لاتعرف غير الزهو ولا تريدأن تعتذر . لكننا نحن ، معشرالجنود القدماء ، لقد شببنا وهرمنا في السرية ، ونطلب الى الله ان يمنحنا شرف الموت فيها . لذلك فان شرف السلاح ثمين عندنا،وبوجدانيتش لايجهل ذلك . آه ! ليتك تعلم كم نستمسك بشرف السرية ! . . . كلا يا صاحبي ، انك لاتتصرف تصرفاً لائقاً ، انك لاتتصرف تصرفاً طيباً ! انني لن اتفوه بغير الصدق ولو أزعجك ذلك ! انك لاتتصرف تصرف الرجل اللبق ! . . .

ونهض الرئيس وأدار ظهره الى روستوف . فهتف دينيسوف وهو ينهض عن مقعده :

– لعمري انه صواب ! هيا يا روستوف ، هيا !

كان وجه روستوف خلال ذلك يمتقع ويحمر ، ثم يمتقع ثم يحمر منجديد . وكان ينقل الطرف دورياً بين الضابطين . فقال :

– ولكن لا ، ايها السادة ، ماذا ستظنون ؟ . . . لقد كونتم عني فكرة سيئة ... انني أفهم ذلك...ان شرف السريةمتأصل في أعماق قلبي انا الآخر... ولسوف ابرهن علىذلك بالاعمال...وهو عندي بمثابة شرف العلم ... ليكن. إنني اعترف بأنني مخطىء ... – واغرورقت عيناه بالدموع – نعم انني مخطىء، مخطىء تماماً ... فماذا تريدون غير ذلك ؟

استدار الرئيس نحوه وقال وهو يربت بيده العريضة على كتفه :

– مرحى يا كونت . ان هذا هو خير الكلام .

وهتف دينيسوف قائلًا :

– أرأيت ، انه فتى باسل . لقد قلت ذلك لك من قبل .

فاستطرد الرئيس :

- نعم يا كونت انني افضل ذلك. فاذهب ياصاحب السعادة وقدم اعتذاراتك.

كان الرئيس يُعطي روستوف كل ألقابه وكأنه يكافئه على حسن نيته.

فقال روستوف ضارعاً :

- سأعمل كل ما تريدونه أيها السادة . انني لن أتفوه عن هذا الأمر بكلمة . ولكن لاتطالبوني بالله أن اقـدم اعتذاراتي . انني لست طفلاً ايها السادة لأسأل العفو ...

- فانفجر دينيسوف ضاحكا بينما قال كيرستن :

- أنت وشأنك . ان بوجدانيتش حقود . ولسوف تدفع ثمن عنادك غالياً :

- أقسم لكم أنني لست عنيداً ! ... لا أستطيع ان اصف لكم شعوري ... لكن الأمر ، بكل صراحة ، يفوق حدود طاقتي ...

فأعقب الرئيس :

- هيا ، ليكن كما تشاء ! ... أين اختفى ذلك الحقير ؟

فأجابه دينيسوف .

- لقد ادعى بأنه مريض . لسوف يُسرح غداً بعد تبادل التقارير .

- ان المرض وحده يُفسر اعتكافه .

فزمجر دينسوف بصوت ضار :

- سواء أكان مريضاً أم لا ، فإنني سأقتله إذا وقع بصري عليه !

- كيف ، انت !

وفي تلك اللحظة دخل جركوف فهتف الضباط :

- لقد صدر أمر السير ايها السادة . لقد استسلم ماك وأبيد جيشه .

إلى الحرب الى الحرب! قدموا اليه زجاجة لقاء هذه البشرى . ولكن كيف جئت الى هنا ؟

- بسبب ماك اللعين . انني لما رأيته عائداً ، قدمت تهانئي الى الجنرال

النمساوي . فشكاني هذا ، وكانت نتيجة الشكوى ان أعدت الى السرية . . .
ولكن ماذا بك يا روستوف ؟ انني أراك على غير حالك !

ـ آه ! ياعزيزي ليتك تعلم في اي بؤرة تردّينا منذ أمس !

وفي تلك اللحظة جاء الضابط المرافق للزعيم يؤيد الخبر الذي حمله جركوف:
لقد كان أمر الحركة معطى ومحدداً بصباح الغد . هتف الضابط :

ـ الى الحرب ايها السادة !

ـ شكراً لله . كفانا تعفناً حتى الآن !

★ ★ ★

الفصل السادس

(بدء زحف كوتوزوف)

انثنى كوتوزوف على فيينا وهو يهدم الجسور وراءه . جسور الايين"[1] Inn في برونو والـ ترون[2] Traun في لينز .

وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول ، كان الجيش الروسي يعبر نهر إينس[3] . وكانت قطع المدفعية والقطعات العسكريه والأمتعة ، تنقل تباعاً على طول مدينة « اينس » وعلى جانبي الجسر .

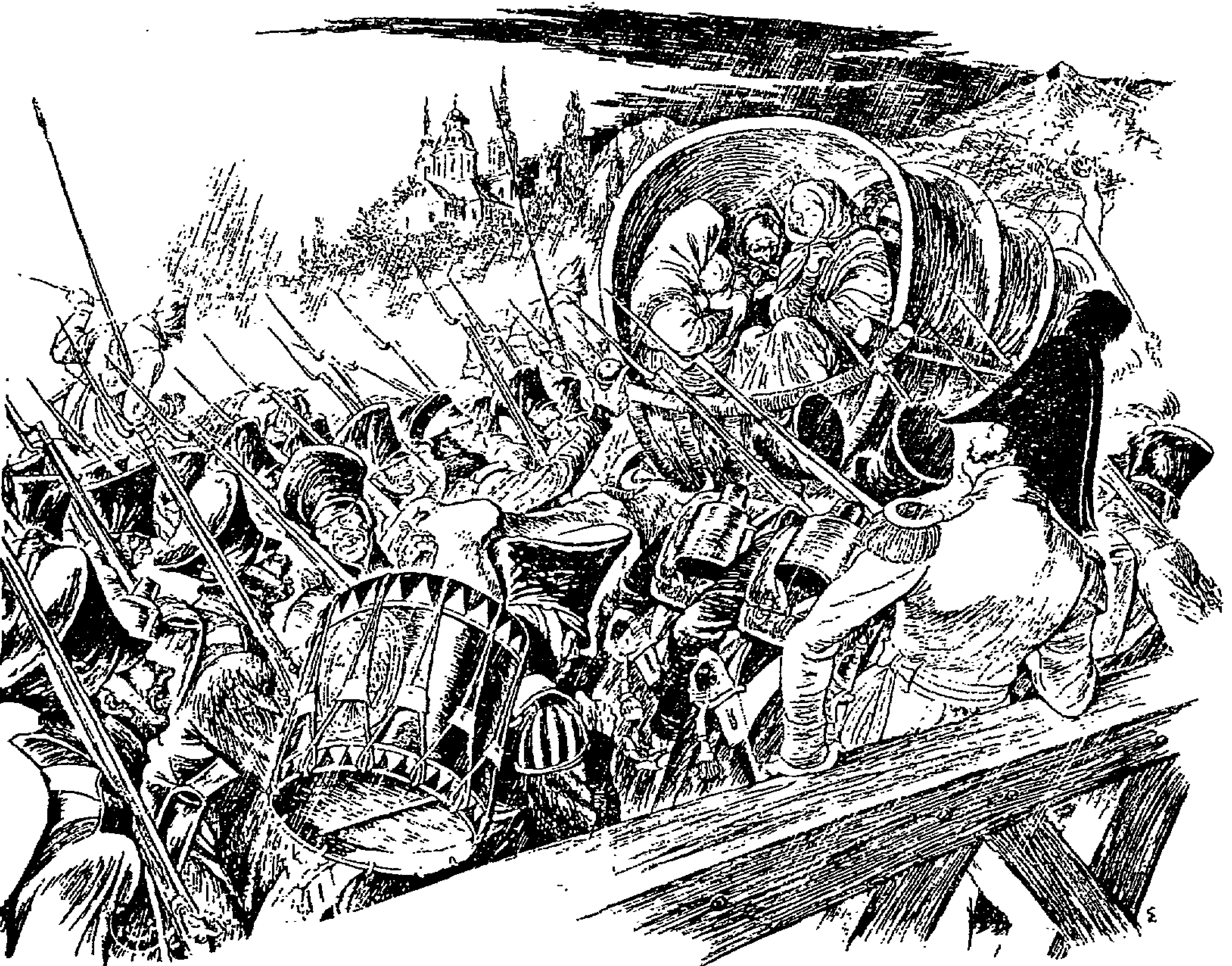
كان الوقت خريفاً والجو معتدلاً وممطراً . وكانت « بطاريات » المدفعية

---

(١) اين : رافد للدانوب ينبع من سويسرا ويروي اينسبورك وباسوا وطوله ٥٢٥ كم .
— المترجم —

(٢) ترون : رافد آخر يمر بعاصمة النمسا العليا — لينز — ويصب في الدانوب .
— المترجم —

(٣) نهر إينس Enns ، احد روافد الدانوب يمر بالمدينة المساة باسمه التابعة للنمسا وسكانها ٤٢٠٠ نسمة
— المترجم —



عبور نهر إين تحت النيران

التي تحمي الجسر وتشغل مرتفعاً مستديرا . وكان المشهد الذي يتيحه ذلك المرتفع، يضيق حينا تحت ستار المطر الغزير الهاطل ،ويتسع حينا آخر تحت أشعة الشمس، فكانت الأشياء البعيدة تبدو عندئذ واضحة براقـة ، وكأنها طُليت بطبقة من الدهان اللامع . وكانت المدينـــة الصغيرة ببيوتها البيضاء وقرميدها الأحمر وكنيستها وجسرها الذي كان الجيش الروسي قابعاعلى جانبيه وموزعا على قطعات كبيرة ، تُرى بوضوح اسفل ذلك المرتفع . وعنـد المنعطف الذي يشكله نهر الدانوب في اندفاعه ، كان المشاهد يرى بعض الزوارق وجزيرة وقصراً منيفا وحديقة يحيط بها الماء، ماء نهر « الاينس »و«الدانوب»معاً . وعلى شاطىء النهر العظيم الأيسر ، كانت مرتفعات خضراء وممرات زرقاء ، قائمة في الابعادالشاسعة المجهولة . وكانت هناك أحراش تشبه الغابات العذراء ، تبرز وراءها أبراج دير كبير ، بينما كان جنود الاعداء يظهرون وراء تلك المرتفعات بوضوح .

وعلى ذلك المرتفع ، أمام « بطارية المدفعية » ، كان الجنرال قائد المؤخرة وضابط من بلاط جلالته ، يرقبان الأرض حولهما بواسطة منظار مقرب . والى الوراء ، كان نيسفيتسكي قابعاً في كمين أقيم هناك . لقد اقامـه القائد الأعلى في عداد ضباط المؤخرة . وكان القوقازي الذي يرافقه ، يقدم له قصعة مملوءة بقطع البسكويت وإناء فيـــه شراب . وكان نيسفيتسكي يطعم ضباط البطارية الذين يحيطون به مرحين ، وبعضهم على ركبتيه ، والبعض الآخر جالساً على الطريقة التركية فوق الأعشاب الندية .

قال نيسفتيسكي :

ـ ان الأمير النمساوي الذي شيد قصره هنا ، ذكي بعيد النظر . يا للمركز الرائع ! ... ماذا ايها السادة ؟ ألا تأكلون ؟

فأجاب احـــد الضباط وهو سعيد اذ يتحدث الى عضو هام في اركان حرب الجيش :

ـ شكراً جزيلاً يا أمير . في الحقيقة إن الموقع رائع . اننا عندما مررنا بالحديقة شاهدنا خادمين . يا له من قصر منيف !

وقال ضابط آخر يتوق الى تناول قطعة اخرى من الحلوى لكنه لايجرأ على ذلك ، فاضطر الى التظاهر بتأمل المشهد :

ـ انظر أيها الأمير ، انظر الى مشاتنا كيف بلغوا القصر . ها ثلاثة منهم هناك في ذلك الحقل ، وراء القرية ، يجرون بينهم شيئاً ما ... انهم يحاولون تطويق ذلك القصر ، فليوفقهم الله .

فقال نيسفيتسكي وفمه الجميل الندي مملوء بالحلوى :

ـ هكذا يبدو لي . اما أنا شخصياً ، فانني افضل ان اقوم بجولة الى هناك .

وأشار بإصبعه الى الدير ذي الأبراج الذي يبدو مرتسماً على الرابيـة . ثم ابتسم ، فضاقت عيناه والتمعتا وأردف :

ـ ان ذلك سيكون رائعاً أليس كذلك ايها السادة ؟

فانفجر الضباط ضاحكين وقال احدهم :

ـ ان القضية قضية تخويف أولئك الراهبات المتدينات . يقال ان بينهن ايطاليات ناعمات رائعات . انني أعطي خمس سنين من حياتي عن طيب خاطر لقاء زيارة واحدة اقوم بها اليهن ! .

فقال احد المدفعيين معقباً وهو يمتاز ببسالته واقدامه :

ـ ثم انهن ينزعجن في وحدتهن .

وفي تلك الاثناء كان ضابط من الحاشية يشير إلى الجنرال بالنظر الى نقطة ما . فسدد هذا منظاره الى حيث اشار الضابط .

غمغم الجنرال وهو يُنزل المنظار :

ـ لقد انتهى الأمر .

ثم هز كتفيه واردف :

– نعم لقد استعدوا . سوف يطلقون قذائفهم علينا خـلال عبورنا . ماذا ينتظر جنودنا ؟

ومن الجانب الآخر للنهر ، كانت العين المجردة تكتشف « بطارية » عدوة ارتفع فوقها دخان كثيف ابيض ، وارتفع بعدذلك دوي بعيد مكتوم ، اعقبته حركة بين الوحدات الروسية . وقف نيسفيتسكي يتنفس ملء رئتيه ، واقترب من الجنرال والابتسامة على شفتيه وقال يسأله :

– هل ترغب سعادتكم في تناول قطعة ؟

فتجاهل الجنرال السؤال وقال :

– يالمسألة اللعينة . ان رجالنا متأخرون .

– هل ينبغي ان نهبط ياصاحب السعادة ؟

فأجاب الجنرال :

– هو ذلك . اذهب أرجوك .

وراح يكرر عليه الأوامر التي كان قد اصدرها من قبل بالتفصيل :

– قل للخيالة ان يعبروا آخر كل الفرق وان يحرقوا الجسر كما أمرت من قبل ، ولتُفتش مرة اخرى المواد المشتعلة التي حددت امكنتها .

فأجاب نيسفيتسكي :

– مفهوم .

ونادى تابعه القوقازي الذي كان يمسك بعنان جواده ، فأمره بحزم الزخيرة والزاد ، واعتلى بخفة ظهر جواده رغم ثقل جسمه .

قال للضباط الذين راحوا ينظرون اليه باسمين :

– إنني ذاهب لزيارة المتعبدات كما ترون .

وسلك الطريق الملتوي الذي كان يصعد الرابية المرتفعة .

قال الجنرال لرئيس البطارية :

ـ حسناً يا كابتين ، أرنا مدى قذائفك ، هيا ! لمجرد خداع العدو .

صاح الضابط آمراً :

ـ أيها المدفعيون ، الى قطعكم !

فهرع المدفعيون والرماة على الفور الى مراكزهم ، وراحو يعبثون المدافع.

ودوى صوت آمر يقول :

ـ القطعة الأولى ، اطلق النار ! فتراجع المدفع الأول بعنف ، وأرعد بصوت معدني يصم الآذان ، ومرت القذيفة فوق رؤوس القطعات الروسية المحتشدة عند سفح التل ، وهي تصفر صفيراً قوياً . لكنها انفجرت على مبعدة من العدو بعد ان اعلنت عن مكان سقوطها بسحابة خفيفة من الدخان .

ابتهجت القطعات الروسية لسماع الدوي ، ونهض الضباط والجنود ليشاهدوا بانفسهم حركات الجنود الآخرين التي كانت واضحة ظاهرة ، تقابلها من الجانب الآخر الوحدات العدوة . وفي تلك اللحظة خرجت الشمس من وراء السحب الأخيرة ، فكانت تلك الطلقة الوحيدة من المدفع ، مختلطة مع بريق الشمس المشع ، توحي للنفس ببهجة حماسية رائعة :

* * *

الفَصلُ السّابعُ

(عبور جسر الاينس)

مرت قذيفتان عبر الجسر حيث كانت الحركة على أشدها . وكان الأمير ينسفيتسكي وسط ذلك الازدحام ، بشخصه الفخم ،مستنداً الى حاجز الجسر ، يضحك وهو ينظر الى تابعه القوقازي،الذي كان واقفاً على مقربة منه الى ورائه ، ممسكاً بأعنة جوادين . وكلما راح يحاول التقدم، كان الجنود والعربات والحركة الدائمة الصاخبة تعيده الى مكانه قرب الحاجز فلم يجد خيراً من الابتسام يعالج به مشكلته .

صاح القوقازي بجندي كان يدفع بعربته الجنود المشاة ويهددهم بسحقهم تحت عجلاتها وسنابك الخيل :

ـ قل ياهذا ألا تستطيع الانتظار قليلا ؟ ينبغي ان تترك المجال لمرور الجنرال هل فهمت ؟

بيد ان كلمة « جنرال » لم تحدث اي أثر في نفس الرجل ، الذي راح يصيح بالجنود الذين يعترضون سبيله قائلًا :

ـ احذروا ياهؤلاء ! خذو يساركم !

غير ان « هؤلاء « كانوا يسيرون كتفاً الى كتف ، تتشابك حرابهم ، ويتقدمون كتلة لاسبيل الى تفريق أفرادها .

كانت أنظار نيسفيتسكي تنتقل من النهر الى الجسر ، فتكتشف هنا وهناك مشاهد متماثلة . والى الاسفل ، كان الاينس يدفع امواهه الصاخبة المتموجة متتابعة متلاحقة ، لتتحطم وتشتبك مع الاوتاد المغروسة في مجراه لاقامة أبنية عليها ، والى الاعلى ، كانت امواج هائلة تصطخب ، أمواج بشرية ، ولكنها متشابهة مع أمواج المياه من حيث النتائج والاتجاه . كانت تلك الأمواج ، سلسلة لاتنتهي من الأكياس والبنادق الطويلة والحراب والخوذات العسكرية بشماراتها وأربطتها الحلقية ، التي تظهر تحتها وجوه ذات خدود ضامرة وأخرى منتفخة ، ثم غابه من السيقان المتخبطة في الأوحال اللزجة . ومن حين الى آخر كانت سحنة احد الضباط بمعطفه المميز ، تظهر بين تلك الأمواج البشرية ، تدفع أمامها فارساً او تابعاً ، او واحداً من سكان المقاطعة ، كما تدفع أمواه النهر قذاة سقطت في تيارها .

ومن حين الى آخر ، كانت العين تقع على عربة من عربات الضباط ، او من تلك التي تخصص لنقل الأمتعة ، وهي محملة ومغطاة بقماش سميك يحمي مافيها ومن فيها فتبدو طافية ، أشبه بجذع شجرة عائم في مجري تيار جارف يتقاذفها على هـــواه .

قال الفوقازي وقد يئس من التقدم :

ـ يُخل للمرء ان الحاجز قد دمر فتدفقت المياه . هل يستمر هـــذا التدفق طويلاً ؟

فأجابه مزاح كان يمر في تلك اللحظة مرتدياً معطفة الممزق وهو يغمز بعينيه :

ـ ان العدد الذي سيمر قوامه مليون الا واحداً !

وكان جندي عجوز ، يسير متعقباً خطى المزّاح هو يقول لزميـــل له بلهجة مفجعة :

ـ اذا راح يطلق نيرانه علينا في هذه الساعة ، فاننا سننسى حتماً ان نعني بقملنا .

والضمير الغائب في هذه الدعاية يرجع الى العدو ،

مضى العجوز وجاء في اعقابه جندي يعتلي عربه ووراءه جندي يعدو على قدر طاقته ليلحق بالعربة السائرة ويبحث في محتوياتها . كان يصخب قائلًا :

ـ أين أخفيت جواربي بحق الشيطان أيها الحيوان السمج ؟

وابتعد هذا كما ابتعدت العربة ، وتبعه جمع من الجنود يبدو عليهم الثمل . وهم يضحكون مبتهجين . كان أحدهم يقول وهو يلوح بذراعيه ، وياقة معطفه مرفوعة تصل الى شحمتي أذنيه :

ـ وفي تلك اللحظة يافتاي الصغير كان بودي لو رأيته كيف أهوى بعقب بندقيته على انفه فحطمها .

فأجابه آخر وهو ينفجر ضاحكا :

لاشك ان وجهه الآخر أصبح كفخذ الخنزير الشهي !

ومرّت هذه الجماعة دون ان يستطيع نيسفيتسكي ان يعرف من الذي أصبح « فخذاً » شهياً .

ومر نقيب وهو يزمجر قائلا :

ـ ليقال ان النار في أعقابهم ! ألانه أرسل قذيفة لم تنفجر ، باتوا يعتقدون انهم سيموتون عن آخرهم .

و « ألأنه » هذه تعني ألأن العدو طبعاً .

فأجابه جندي شاب ذو فم كبير ، في كتمان ضحكته :

ـ لعمري ياصديقى انني عندما رأيت القذيفة تمر أمامي كدت ان أشيح ببصري .

وأردف فخوراً بأنه شعر بالخوف :

ـ نعم ولاشك انني شعرت برعب مريع !

ومر هذان المتحدثان كذلك . وجاءت عربة تختلف عن سابقاتها . كانت عربة محلية يقودها الماني من أهل المنطقة ، يجرها حصانان وقد قطرت اليها بقرة جميلة ملونة ضخمة. كانت العربه تبدو متسعة كمنزل صغير تحمل أفراده ، لأن ثلاثة نساء كن جالسات على فرش فيها : عجوز وامرأة على يدها طفل ، وفتاة متوردة الوجنتين في صحة جيدة . كانت تلك الاسرة واحدة من عـدد كبير أرغم افرادها على اخلاء مساكنهم ، ومنحت لهم تصاريح خاصة بالانتقال . استدارت الأعين كلها تنظر الى تلك الأسرة . وكانت البسمات توجه للمرأتين كلما تقدمت عربتها ببطء شديد بين تلك الجحافل ، حتى انالأمرأتين الشابتين كانتا تبتسمان ابتسامة متشابهة تنم عن أفكار مثيرة بطرة .

صاح احدهم بسائق العربة :

ـ ماذا ايها الأب المنتفخ ، أتجلو عن المكان ؟

وقال آخر يسأل الألماني الذي كان مطرق الرأس مكفهر الوجه يحاول حث الخيول على الاسراع في السير :

ـ هل تبيع رفيقتك حقاً ؟

وانبرى صوت آخر يقول :

ـ رباه كم هي مزينة !

ـ انها خير رفيقه سكن ، أليس كذلك يافيدوتوف ؟

ــ بل اننا رأينا اجمل منها يافتاي .

وسأل ضابط ميدان وهو يقضم تفاحته ويبتسم ابتسامة جميلة لفتاة العربة :

ــ الى اين تمضون هكذا ؟

، فأغمض الالماني عينيه وتظاهر انه لايفقه شيئاً . فقال الضابط وهو يقدم تفاحته للفتاة :

ــ خذيها ، أتريدين ؟

فتقبلتها الفتاة بلطف .

ظل نيسفيتسكي ـ كالآخرين ـ يحدج النسوة بعينيه طيلة الوقت الذي استغرقه مرور العربة . فرأى اولئك الجنود وسمع اقوالهم ثم توقف الرتل كله . كانت الخيول التي تجر العربة الاولى قد توقفت عندنهاية الجسر ، ورفضت كما يحدث غالباً للحصان الحرون . وسبب ذلك التوقف المفاجيء تجمد السيل العرم الذي كان يترى .

توقف الجنود وهم يحدقون في وجوه بعضهم ويتدافعون وكل منهم يحاول ان يتجاوز الآخر . واختلطت الأصوات :

ــ ماذا ينتظرون ؟ أليس هناك نظام ؟ الم تنته من الدفع أيها الأحمق ؟ ألنت على عجلة من أمرك الى هذا الحد ؟ عندما تشتعل النار في الجسر سيكون الأمر أكثر تسلية . ألاترى اننا نكاد نسحق ضابطاً ؟ الخ . . .

وبينما كان نيسفيتسكي مستديراًينظر الىأمواهالنهر ، سمع فجأة صوتا جديداً يختلف عن الأصوات التي الفها سمعه حتى تلك اللحظة . رأى كتلة هائلة تقترب مسرعةوتنقض فتسقط في النهر .

غمغم جندي قريب من هناك وقد استلفتت الضجةانتباهه :

ــ انه الآن يهتم بنا . (العدو)

فأجاب آخر مازحاً :

ـ « انه » يريد ان يجعلنا نسرع في عبور الجسر .

تأكد نيسفيتسكي ان تلك الضجة الهائلة كانت نتجة لقذيفة أطلقها العدو . ولما عاد الركب يسير ، استوقف تابعه القوقازي وصاح به :

ـ الي بحصاني ! هيا ابتعدوا من الطريق ! دعوني امر !

واعتلى صهوة الجواد بجهود كبير وهو يكثر التوبيخ والتأنيب ليشق لنفسه طريقاً ، وراح يدفع حصانه غمار الجنود الذين راحو يفسحون له الطريق مختارين. غير ان تلك الموجة البشرية ارتدت اليه فجأة ، حتى ان أقرب الجنود اليه، كاد ان يسحق ساقية مرغماً بفعل الازدحام .

وصاح صوب أجش من وراء نيسفيتسكي :

ـ هه ! نيسفيتسكي ! هه أيها المنتفخ . !

فاستدار هذا مستجيباً ، واذا به يرى على بعد خمسة عشر خطوة وراءه ، فارساً أحمر اسود أجعد الشعر استرسلت قبعته حتى استقرت في مؤخرة رأسه ، وعلى كتفيه فروة مربوطة عند العنق ، كانت الكتلة البشرية تفصل بينه وبين الفارس . لكنه لم يجد صعوبة في معرفته . كان هذا هـو فاسكا دينسوف . زمجر هذا وهو فريسة الغضب :

ـ قل لهؤلاء الأوغاد ان يفسحوا لنا الطريق ! .

كانت حدقتاه الملتهبتان تدوران في محجريهاو تلتمعان كالشعلة المستوهجة . وكانت يده تهز حسامه في غمده وتلوح به . وكانت اليد حمراء كالوجه .

هتف نيسفيتسكي مرحاً :

ـ آه ! فاسكا ! ماذا بك ؟

فزمجر دينيسوف بصوت مرعد وهو يكشف في غضبته عن أسنانه البيضاء :

- يستحيل امرار الخيالة .

وهمز حصانه الاصيل الاسود بقسوة ، ذلك الحصان العربي الذي يفخر به ، والذي كان ينصب أذنيه كلما اندفع في غمار الحراب المشهورة ، مذعوراً يغمره الزبد ، وكأنه لاينتظر الا اشارة من فارسه ليقفز فوق الحاجز الى النهر :

- ياالقطيع الخراف !... افسحوا الطريق ايتهـــا الحيوانات !... أنت ياسائق العربة ، قف والا مزقتك إربا ؟...

واستل سيفه من غمده وراح يهدد المشاة تهديداً جديا ، فذعروا وراحوا يتدافعون ليفسحوا المجال للضابط الفارس الغضوب حتى بلغ مكان زميله .

سأله نيسفيتسكي

- كيف حدث انك لست ثملاً ؟

- آه ياعزيزي ، انهم لايعطونا الوقت الكافي لغسل المرافق ! انهم ينقلون طيلة النهار بين جانب وآخر . لنحارب اذا كان ينبغي ان نحارب ! والا ، فالله وحده يعلم معنى هذا التصرف !

رأى نيسفيتسكي الفروة الجديدةالتي يتدثرها الفارس ولبادة حصانه فهتف :

- ياللشيطان ! ماهذه الأناقة !

ابتسم دينيسوف وأخرج من جيب منطقته الجلدية منديلا مضمخاً برائحة عطرية دفعه تحت أنف نيسفيتسكي وقال :

- إنك على حق لأننا في يوم المعركة ! لقد حلقت لحيتي وتضمخت بالعطور بل وأكثر من ذلك : لقد غسلت أسناني .

واستطاع هيكل نيسفيتسكي الضخم والقوقازي المرافق يؤذهمـــا تصميم دينيسوف وصيحاته وتوبيخـاته ، ان يحـدث أثره في النفوس ، مما سهل عليهم أخيراً أن يشقوا لأنفسهم طريقاً ويبلغوا الجانب الآخر من الشاطيء حيث لحقوا بموجة المدفعيين والقناصة الصاعدين ، وهناك التقى نيسفيتسكي بالزعيم الذي جاء ينقل الية الاوامر فأتم مهمته ،وعاد على أعقابه.

بعد انشق دينيسوف طريقاً لخيالته بمجهود جبار ، انتحى جانباً ليراقبهم وهم يغادرون الجسر . وكان يضبط حصانه بيد متراخية ، ويمنعه من الاندفاع وراء الخيول الأخرى . ولم يلبث ان ارتفع وقع حوافر جياد على أخشاب الجسر ، واذا بالكوكبة منتظمة على صفوف رباعية وضباطها في المقدمة ، تجتاز الجسر وتصعد الجانب الآخر .

خلال ذلك ، كان المشاة يناضلون بين الاوحال ويرمقون الفرسان الرسميين الأنيقين بنظرة فيها عداء معروف عند أسلحة الجيش المختلفة .

هتف أحد المشاة :

– ان هؤلاء على احسن حال وكأنهم ذاهبون الى عرض عسكري! فأجاب آخر .

– ماذا تريد منهم أن يفعلوا غير ذلك ؟ انهم لايحسنون الا هذا .

صاح أحد الفرسان مازحاً وقد رأى كيف تعثر باحد المشاة فألقاه أرضاً :

– أنت يادافع الحصى بقدميك ، اجهد في ان لاتثير غباراً !

فأجاب الآخر وهو يمسح بكمه وجهه الملطخ بالوحل :

– نعم ، هو كذلك . تظاهر بأنك تنقض وانت على ظهر جوادك . لكنك لو سرت مرحلتين او ثلاث مراحل والكيس على ظهرك لما كنت متبجحاً هكذا !.

وهتف عريف يمازح جنديا نحيلا منحنيا تحت ثقل كيسه :

– قل لي يازيكين ، أهو أنت الذي تليق بامتطاء صهوة جواد ؟ وددت لو رأيتك !

فرد عليه أحد الفرسان قائلاً :

– ان خير ماتعمله هو ان تضع له عصاة بين ساقيه ، وبذلك يصبح فارساً جميلاً !

الفَصْلُ الثّامِنُ

(احراق الجسر)

راحت فصائل المشاة والمدفعية التي كانت محبوسة عند مدخل الجسر ، تدفق منه الآن في عجلة كالسائل الذي يندفع خلال القمع . مرت العربات كلها وخف الزحام . وبلغ الضفة الأخرى آخر جحفل . ولم يبق الا فرسان دينيسوف لمقابلة العدو . كان هذا ظاهراً من أعلى المرتفع المقابل . أما من الاسفل عند الجسر ، فلم يكن مكشوفاً بعد ، لان النهر كان يسير ملتوياً في مضيق كانت جنباته تقطع الأفق على مسافة لاتقل عن خمسمائة متر ، كانت من الأمام ، مساحة غير مأهولة يجوس القوقازيون خلالها . وفجأة ظهرت معاطف زرقاء ومدافع فوق تلك المرتفعات التي راح القوقازيون ينحدرون عنها خبباً . كان ضباط دينيسوف وجنوده لايفكرون الا فيما هو كامن فوق الهضبة وينظرون باستمرار الى تلك النقاط البادية على الأفق والتي كانت في حقيقتها كتائب عدوة منتشرة هناك غير انهم كانوا يحاولون جاهدين ان يشيحوا بأبصارهم

عنها الى ناحية اخرى ، وان يتحدثوا حول موضوعات ثانية .
وبعض الظهر ، تحسنت الحالة الجوية وسطعت الشمس ، وراحت تسدل اشعاعاتها الوهاجة على الدانوب العظيم والهضبات القائمة التي تضمه بينها . وكان السكون شاملا ، ومن حين الى آخر ، كان بعض الخيالة يقطعون المسافة الفراغ الممتدة بين الكوكبة والعدو الذي كان قابعاً في أمكنته لا يند عنه صوت ، الا صيحات تتردد من حين الى اخر ، ونغير يؤكد وجوده . وكان ذلك السكون يزيد في خطورة الخط المخيف الذي يفصل بين الجيشين العدوين ، ذلك الخط الوهمي الذي لم يقطعه احد من الجانبين .

كان كل رجل يفكر : « ان على خطوة وراء ذلك الخط ، تشبه الخطوة التي تفصل بين الاحياء والاموات ، يقبع المجهول الذي يحدث الألم والموت . ولكن ماذا يجد الانسان هناك ؟ ومن يجد ؟ ماذا هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة وذلك السقف التي تسطع الشمس فوقها ؟ ان ما هناك مجهول يرغب كل انسان في معرفته . كان كل انسان يخشى اجتياز ذلك الخط ، ويحس مع ذلك برغبة في اجتيازه . كان كل واحد يعرف انه سيضطر الى اجتياز ذلك الخط آجلا ام عاجلاً ، وانه سيعرف ماهناك ، كما يجب ذات يوم ان يعرف ماذا وراء الموت معرفة لابد منها ، مع ذلك فقد كان كل انسان يشعر أنه صحيح الجسد متقداً حماساً ومرحاً ، وان من حوله كذلك ممتلئون صحة وقوة واندفاعاً . » تلك هي احساسات كل رجل في حضرة العدو . وتلك الاحساسات تعطي صورة خاصة عقب كل حادث ، فتجعل المرء يستقبل ذلك الحادث بنشاط وتعطش .

بدت في تلك اللحظة على قمة المرتفع الذي يعسكر العدو فوقه ، سحابة خلفتها قذيفة انطلقت من فوهة المدفع وراحت تصفر فوق الكوكبة . فتفرق

الضباط الذين كانوا مجتمعين في بقعة واحدة ، وأخذ كل منهم مكانه على رأس فصيلته . وكان الرجال يحاولون جهدهم استبقـاء خيولهم منتظمة الصفوف . وخيم السكون من جديد . كانت عيون الفرسان شاخصة الى العـدو البعيد ، والى الرئيس تنتظر الأمر منه . ومرت قذيفة ثانية وثالثة . كانت تلك القذائف تستهدف الفرسان ولا شك ، غـير انها طاشت بصفيرها الرتيب مادة فوق الرؤوس وسقطت في مكان ما وراء الكوكبة . كان يبدو على الوجوه عدم الأهتمام بتلك القـذائف ، ولكن كلما تردد صوت المقذوف ودوّي ، كان الرجال ذوو الوجوه المختلفة المتباينة في ألبستهم الموحدة ، يمسكون عن التنفس وكانهم ينفذون امراً صدر اليهم ، ويرفعون اجسادهم معتمدين على الركب . كان كل واحد يفحص زميله بزاوية عينه دون ان يدير اليه رأسه ، محاولا معرفة الشعور الذي احدثه مرور القـذيفة في نفسية زميله . وكان كل وجه اعتباراً من وجه دينيسوف وحتى وجه قـارع البوق ، يعبر عن الانفعال والعصبية ، والصراع العنيف ضـد النفس ، فينظر ذلك التعبير في الخطوط الواضحة المرتسمة حول الذقون وعلى أطراف الشفاه . وكان الرقيب الاول ينظر الى رجاله بوجه عابس طافح بالتهديد . أمـا التلميذ الفارس ميرونوف ، فكان يحني ظهره اثر وصول القذيفة ، بينما كان روستوف الواقف في الجناح الايسر على حصانه الضعيف ذي المظهر الجميل مستبشر الوجه ، وكأنه طالب استدعي امام حشد غفير ليجوز فحصاً ، كان متأكداً من أنـه سيؤديه بتفوق وكانت نظرته المشعة المبتهجة تبدو كأنها تشهد الناس على سكونه وهدوئه أمام قصف المدفعية . مع ذلك فان الخط المعلن عن شعور جديد خطير ظهر رغماً عنه عند نهايتي قوس فمه .

صرخ دينيسوف الذي كان يطير من جناح الكوكبة الايمن الى جناحها الايسر متقداً :

ـ ايها التلميذ الفارس ميروتوف ، لمَ تُدير رأسك الى هناك ؟ ينبغي ان تنظر اليّ أنا .

كان فاسكا دينيسوف بوجهه الممتلىء ، ورأسه المتوج بشعر أسود ، وقامته القصيرة الملفوفة ، ويده المعقدة القصيرة المغطاة بالشعر ، المتقلصة على مقبض سيفه المشهر ، لايختلف عمـــا كان يبدو عليه عادة وخصوصاً في الأمسيات ، بعد ان يكون قد أفرغ زجاجتين في جوفه . غـير انه كان أكثر احمراراً من عادته . وكان رأسه منتصباً أشبه بالطيور التي تهم بابتــلاع الماء الذي شربته ، وجسمه ملقى الى الوراء ، تعصف ساقاه القصيرتان في جنبي حصـانه الأصيل لكزاً دون إشفاق ، فيهدب من جناح الى آخر ويلقي بصوت أجش الامر باعداد الغدارات . فجـاء الرئيس الثاني « كيرتين » للقـائد فوق فرسه الضخم . كان كيرستين ذو الشاربين الكبيرين وقوراً كعادته ، غير أن عينية كانتـا تلتمعتان اكثر من المعتاد

قال يخاطب دينيسوف :

ـ ما فائدة اعداد الغدارات . إننا لن نُشتبك مع العدو وسوف ترى .

فغمغم دينيسوف مزمجراً :

ـ يالشيطان ، لست ادري ماذا يعملون ؟

ثم صاح يخاطب روستوف بعد ان لاحظ الحبور الذي على وجهه :

- هه ياروستوف ! ها ان اليوم المنشود قد أزف !

واشفع قوله بابتسامة مشجعة ، وهو بادي السرور لشجاعـة الفتى ، بينما امتلأ قلب روستوف غبطة . وفي تلك اللحظة ظهر ضابط المؤخرة على الجسر ، فهدب دينيسوف للقائد وقال له :

ـ اسمح لي ياصاحب السعادة ان أهاجم . سوف أقذف بهم وأبددهم !

فغمغم الجنرال وقد قطب حاجبه وكأنه يطرد ذبابة وقحة :

ــ ان الامر كذلك ! ماذا تعمل هنا حتى الآن ؟ الا ترى ان المستكشفين ينسحبون . أرجع رجالك .

تراجعت الكوكبة وخرجت سليمة من مدى القذف . وجاءت كوكبة أخرى كانت تستكشف حركات العدو ، فمرت على الجسر يتبعها لفيف من القوقازيين هم آخر من تبقى من الفرسان .

كانت الكوكبتان تنسحبان ، بناء على الأوامر نحو المرتفعات . وكان الكولونيل كارل بوجدانوفيتش شوبيرت ، الذي لحق بكوكبة دينيسوف ، يسير الهوينا على حصانه غير بعيد عن روستوف . وكان لا يلقي بالا الى الفتى ، رغم ان ذلك اللقاء . كان الأول بينهما ، منذ جدالهما بصدد الملازم تيليانين . كان روستوف يشعر انه – بصفته في الخدمة – تحت مطلق تصرف هــذا الرجل الذي أهانه والذي كان يعترف في تلك اللحظة بأخطائه التي ارتكبها حياله . فكان نظره لايفارق كتفي الزعيم العريضتين ورأسه الأشقر وعنقه الأحمر . كان يتصور أحياناً ان بوجدانيتش يتظاهر بالامبالاة ليختبر شجاعته « هو » روستوف فعندئذ يشد قامته ويسرح حوله طرفاً متحمسا متأججاً . وأحياناً يظن ان الزعيم بسيره بالقرب منه ، يريد ان يبرهن له على شجاعته . لكنه كان يتصور في بعض الأحيان ان الزعيم الراغب في معاقبته ، سيلقي بالكوكبة في هجوم جنوني ، ليمد بعدئذالى روستوف الجريح ، يداً مسترضية ويعلن انه نسي مابينهما من خصومة .

هرع أحد الضباط المساعدين على حصانه متجهاً نحو الزعيم . كان ذلك الضابط المقبل هو جركوف الذي أصبح قوامه المشوق معروفاً لفرسان بافلوغراد ، رغم انه منذ اقصائه عن الاركان العامة ، لم يندمج بهم زمناً طويلا . كان يقول

انه ليس شديد الحماقة لينخرط في صفوف الفرسان ، بينما يستطيع تأمين ترقيته وهو في الأركان دون عمل يذكر . لذلك فقد سعى لنفسه حتى أصبح ضابطاً تابعاً للأمير باجراسيون الذي كان يقود مؤخرة الجيش . وكان في تلك اللحظة قادماً من لدنه لينقل أمراً الى رئيسه السابق .

قال بوجه محزون وهو يتبادل النظر مع زملائه القدماء :

ــ أيها الزعيم ، لقد صدر الامر بالتوقف وإحراق الجسر .

فسأل الكولونيل بشراسة مستعملاً اللغة الروسية الركيكة :

ــ من الذي أعطى الأمر ؟

فأجاب الضابط الرسول بلهجة كلها رزانة وجد :

ــ رباه ياكولونيل ، لست أدري من الذي أعطى الأمر . كل ما أعرفه ان الامير كلفني بأن أقول لك ان على الفرسان ان يتراجعوا على الفور وان يضرموا النار في الجسر .

وجاء ضابط آخر من الحاشية بعد جركوف يحمل ذلك الأمر بالذات . وجاء كذلك نيسفيتسكي الضخم الذي كان ثقل جسده الضخم يبهظ الجواد القوقازي الصغير . صاح وهو على مسافة من الزعيم :

ــ رباه ياكولونيل قلت لك ان تحرق الجسر ثم أراك لاتأتي أمراً . انهم على أشد الضيق في الأركان العامة ، ينزعون شعر رؤوسهم من الغيظ ولايفهمون شيئاً من تصرفك .

أصدر الزعيم أمره الى السرية بالتوقف ، دون ان تبدو العجلة على تصرفاته ، وأجاب قائلا :

ــ لقد حدثتني عن الموادالمشتعلة ، أما عن حرق الجسر فانك لم تحدثني به .

كان نيسفيتسكي خلال ذلك الوقت قد أوقف مطيته ورفع خوذته وراح

يمس شعره السابح في العرق بيده السمينة الضخمة . قال دهشاً :

– كيف لم احدثك عن احراق الجسر ياسيدي العزيز ! لم آذن وضعت عليه المواد المشتعلة ؟

– عفواً ياسيدي ضابط الأركان . انني أولاً لست « سيدك العزيز » . وأخيراً انك لم تحدثني بوجوب احراق الجسر ! انني أعرف واجبي ومن عادتي تنفيذ الأوامر حرفياً . لقد قلت ان الجسر سوف يحرق ، أما من سيحرقه ، فانني ما كنت لأعرف ذلك بواسطة روح القدس . . .

قال نيسفيتسكي وهو يشير بيده دلالة على الخضوع والامتثال :

– هيا ان المسألة سيان !

ووقعت أبصاره على جركوف فهتف :

– هه ، جركوف ! ماذا تفعل هنا :

– مثل ماتعمل أنت والفرق أنك مبتل كما ترى ، فهل تريد ان أعصرك ؟

أما شوبرت فقد كان يشعر بجرح في كرامته نتيجة لأقوال ضابط الأركان ، لذلك فقد استمر يناقشه محتجاً :

– لقد قلت لي ياسيد ضابط الأركان ...

فقاطعه ضابط الحاشية قائلا :

لنجعل ياكولونيل والا فان العدو سيقرب قطعاته ونصبح تحت رحمته ...

وصمت شوبرت مرغماً ، وراح ينقّل طرفه بين ضابط الحاشية وجركوف وضابط الأركان الضخم فيزداد وجهه اكفهراراً .

قال باللهجة الوقور التي تشعر بأنه يقوم بواجبه مهما تعرض لمخاصمات وتحرش :

– ليكن ! سأحرق الجسر .

وفثأ غضبه في جنبي جواده ، اذ راح يضغط عليها بساقيه القويتين دون

رحمة ، فطار الجواد به الى المقدمة ، وهناك ألقى الأمر الى الكوكبة الثانية التي كان روستوف فرداً منها تحت أمرة دينسوف ، بالتراجع نحو الجسر .

فقال روستوف في سره وهو يشعر ان قلبه قد أطبقت عليه يدخفية راحت تعتصره : « هو ذاك ، انه يريد اختباري حسناً ، سأرهن له على انني لست جبانا ! » وراحت الدماء تضرج وجهه .

ومن جديد عاد الخط الكئيب على وجوه الخيالة المستبشرين ، ذلك الخط الذي طبع وجوههم بالتجهم عندما دوت طلقات المدافع . وكان روستوف يحدج وجه خصمه وهو يتوق الى اكتشاف أية بادرة تدعم ظنونه . غير ان نظرة الكولونيل الصارمة الوقور لم تلتق مرة بنظرته . ارتفع صوت الزعيم آمراً ، ورددت أصوات حول روستوف تقول :

ــ اسرعوا ! اسرعوا .

وبعجلة فائقة ، وبين رنين المهاميز وصليل السيوف وصلصلة اللجم ، ترجل الفرسان عن ظهور جيادهم وهم حيارى لايدرون ماذا يعملون . راحوا يرسمون اشارة الصليب على أنفسهم ، وقد أخذ منهم الخوف لبقائهم في المؤخرة . ونسي روستوف الكولونيل ، وسلم حصانه الصغير الى الجندي الذي يحرس الخيول ، وشعر ان قلبه يدق بعنف جنبات صدرة . ومر دينيسوف وجسده ملقي الى الوراء على عادته هادئاً جواده صائحاً مشجعاً . غير ان رستوف لم يعد يرى الا الفرسان الذين كانوا يركضون حوله مرتبكين بمهاميزهم قارعين سيوفهم .

صاح صوت من ورائه :

ــ نقالة !

لم يفكر روستوف في معرفة السبب الذي عن أجله تطلب النقالة ، بل راح يعدو بكل قواه محاولاً الوصول قبل سواه . غير ان قدمه زلت في الطين اللزج

عند مدخل الجسر ، فسقط على يديه ومر الآخرون وسبقوه .

سمع صوت الزعيم الذي كان يسير في المقدمة على صهوة جواده قرب الجسر ووجهه الوقور الطافح بالبشر :

– من الجانبين أيها الرئيس ! . . .

التفتت روستوف لينظر الى خصمه وراح يمسح يديه الملطختين بالوحول بسراويله . أراد ان يتابع الجري مقدراً انه كلما تقدم كلما كان ذلك افضل ،غير ان بوجدانيتش صاح بصوت غاضب دون ان يعرفه اوان ينظر الى وجهه :

ـ من ذا الذي يجري في منتصف الجسر ? الى اليمين !الى الوراء ايهاالفارس التلميذ ! ... ما فائدة التعريض للخطر أيها الرئيس ?

و اردف يخاطب دينيسوف الذي راح يتقدم ممتطيـــاً جواده فوق الجسر متباهياً :

ـ ترجل يادينيسوف .

فأجاب فاسكا دينيسوف وهو يستدير في مقعده على صهوة الجواد :

ـ إه ! ان القذائف تجد دائماً من تصطدم به !

خلال ذلك وقف نسفيتسكي وجركوف وضابط الحاشية بعيداً عن مرمى قذائف العدو ، يراقبون تلك القبضة من الرجال بخوذاتهم الصفراء وستراتهم الخضراءذات الأشرطة ، وسراويلهم الزرقاء وهم ينشطون قرب الجسر وينقلون طرفهم عبر النهر ، ليراقبوا المعاطف الزرقاء التي كانت تظهر على البعد والبطاريات المنصوبة التي كان يسهل تمييزها .

كان كل من الجنود الواقفين على الهضبة المطلة على النهر يتساءل بقلق وهو يرقب عن بعد اقتراب المعاطف الزرقاء والحراب وقطع المدفعية : « هل يجد الفرسان الوقت الكافي لاضرام النار في الجسر ? هل سيهاجم الفرنسيون بسرعة ويسحقونهم تحت وابل رصاصهم ? »

قال نيسفيتسكي :

ـ سيتعرض الفرسان لضرب عنيف ! هاانهم باتوا تحت رحمة قذائف العدو .

فقال ضابط الحاشية ملاحظاً :

ـ لقد أخطأ اذا استصحب كل هذا العدد !

ـ حقاً . ان اثنين من الفتيان كانا كافيين .

فاعترض جركوف بلهجته التي تستثير الضحك دون ان يبدو على وجهه انه راغب فيه :

ـ ما هذا القول ياأمير ؟ رجلان ! أتريد اذن ان يمر صليب القديس فلاديمير تحت أنوفنا ؟ سوف يحصل ضحايا بنتيجة هذه العملية ، غيران السرية كلهاستمنح ذلك الوسام ، وسيحمل بوجدانيتش شريطه . انه يدري ماذا يعمل .

صرخ ضابط الحاشية قائلا :

ـ هه ! سيفتكون بهم الآن بطلقات الرصاص !

وراح يشير الى الأسلحة الفرنسية التي شوهدت تسحب من المقدمة وتقطر بسرعة لتوجه نحو فرسان الجسر .

وظهرت فوق الوحدات العدوة التي تضم المدفعية ، ثلاث سحب متتابعة ولما ردد الصدى دوي الانفجار الأول ، ارتفعت فوق القطعات العدوه سحابة رابعة . ودوى انفجاران متتاليان اعقبها ثالث .

زمجر نيسفيتسكي وكأنه يحس بألم محرق :

ـ أوه ! أوه !

وأمسك بذراع ضابط الحاشية وأردف :

ـ انظر ، انظر ! هو ذا واحد قد سقط :

اثنان على ما يبدو لي أليس كذلك ؟

فقال نيسفيتسكي وهو يشيح ببصره عن المشهد :

ــ لو كنت القيصر لما خضت حرباً .

حشيت المدافع الفرنسية بسرعة ، وكذلك البنادق ، وتهافتت المعاطف الزرقاء بخطوات سريعة نحو النهر وارتفعت سحب اخرى ولكن على فترات غير منتظمة . وفرقعت طلقات البنادق . غير ان نيسفيتسكي لم يستطع تمييز مايحدث على الجسر في تلك اللحظة ، اذ ارتفع فوقه غمام كثيف يشعر بأن الفرسان الروسيين هناك قد نجحوا في اضرام النار . لم يعد رماة الأعداء يطلقون النار ليمنعوا انجاز العملية ، بل لمجرد ان اسلحتهم كانت محشوة ، وان أمامهم هدفا يطلقونها عليه . وقد أفرغوا اسلحتهم ثلاث مرات قبل ان يستطيع الفرسان الروس اللحاق بخيولهم وامتطائها ، وطاشت الدفعتان الأولتان ، اما الدفعة الثالثة فقد أصابت فصيلة من الصميم ، فقتلت ثلاثة من رجالها .

توقف روستوف في وسط الجسر لايدري ماذا يعمل ، لان عقله كان مشغولاً بعلاقاته مع بوجدا نيتش . ولم يجد حوله احداً يلقاه بسيفه وهو الذي ما كان يظن ان المعركة يمكن ان تكون خلاف ذلك . وما كان يستطيع المساهمة في اشعال النـــار لأنه لم يكن يحمل المادة الملتهبة كالجنود الآخرين . لذلك فقد وقف في مكانه متردداً حائراً . وفجأة سمع فرقعة تشبه سقوط جوز ناضج ، ورأى الفارس القريب منه يسقط الى الارض مزمجراً قرب السياج ، فهرع اليه مع بعض الجنود وعلا صياح أحدهم من جديد :

ــ نقالة !

أمسك أربعة رجال بالجريح وأنهضوه ، فصاح هذا :

ــ أوه ! أوه !... دعوني بحق السماء :

غير أنهم حملوه ووضعوه على النقالة .

التفت نيكولا روستوف وراح يحدق في النهر الكبير الذي كان يضيع في الابعاد الشاسعة ، وتأمل السماء التي كانت الشمس تبدو فيها كالكتلة المتوهجة بدت السماء لناظرية شديدة البهاء في اشراقها البهيج ! وأعجب بجلال الإشعاع الذي تعكسه الشمس . وبدا له ماء الدانوب المتمع كالمرآة الصقيلة ، بهيا رائعاً ! وبدت له التلال التي تصبح قاتمة اللون كلما ازدادت اغراقاً في البعد وراء الدير ، جذابة بهيجة ، والوديان غامضة وغابات الصنوبر تائهة وسط الضباب الخفيف بمحاذاة الافق البعيد ! . . . هناك كان السلام والسعادة . . . أخذ روستوف يحدث نفسه : « لو أنني كنت هناك فقط ، اذن لما طابت شيئاً ، ولما رغبت في شيء مطلقاً أبداً . كم من سعادة أجدها في نفسي وفي هذه الشمس. . . بينما أصغي الى التأوهات الاليمة المروعة تتردد بقربي ... وهذه العجلة وهذا الارتباك ... رباه ها ان امراً جديداً قد صدر وكل الفرسان ينفرون الى حيث لايعلم الا الله ، فلأركض معهم اذن ... ها هو ذا الموت فوق رأسي وحولي ... لحظة واحدة ولن ارى بعدها هذه الشمس ، وهذه المياه ، وهذا الوادي ... » .

مرت سحابة غطت الشمس ، فرأى روستوف نقالات أخرى أمامه ، وعندئذ اتحد الرعب الذي احدثه في نفسه تخوفه من الموت ، بحبه للشمس والحياة ، وبدت كلها على وجهه في طابع القلق والغم ، فغمغم :

« آه يارب ، أنت يامن علوت في سمائك ، انقذني وصني واغفر لي ! »

هرع الفرسان الى خيولهم ، فاكتسبت أصواتهم ثقة أقوى ، واختفت النقالات من أمامهم . وصاح فاسكا دينيسوف في أذن روستوف :

ـ حسناً ياصغيري ، هل استنشقت رائحة البارود ؟

فقال روستوف في نفسه : « هيا ، لقد انتهى كل شيء ، لكنني لست الا جبانا . نعم إنني جبان . » وزفر زفرة عميقة وأخذ عنان جواده من الجندي

الذي كان يحرس الخيل ووضع قدمه في الركاب .
سأل دينيسوف قائلًا :
ـ ماذا كان نوع السلاح ؟ أهو الرصاص أم القذائف ؟
فأجاب دينيسوف :
ـ لقد كان يجمع بين كليهما ! لقد قمنا بعمل باهر ! ولكن باللمهمة القذره ! حدثني عن هجوم يطربني لأن في الهجوم على الاقل مايستطيع الانسان ان يصب عليه نقمة سيفه . أما عمـــل كهذا ، فانني لست أدري كيف أصفه . يقذفنا العدو برصاصه فندعه يتم قذفه جاعلين من أنفسنا هدفاً لمقذوفاته !
ومضى دينيسوف نحو جماعة غير بعيدة عن روستوف تضم الكولونيل وينسفيتسكي وجركوف وضابط الحاشية .
فكر روستوف في نفسه : « ان احـداً لم يلاحظ شيئاً ، لان كل ممـــا اعتراني ! » والحقيقة ان احداً لم يلاحظ شيئاً ، لان كل واحد كان يعرف بمحض التجربة الشعور الذي يخلعه اللقاء الاول مع النار .
قال جركوف :
ـ سوف نرفع تقديراً بديعاً رائعاً ! لن أدهش اذا رُقيت الى رتبة ملازم .
وقال الكولونيل بلهجة المنتصر :
ـ بلغ الأمير أنني أحرقت الجسر ؛
ـ واذا سئلت عن الخسائر فماذا أقول ؟
فأجاب الزعيم بصوت خافت :
ـ خسارة لاتذكر . لقد أصيب فارسان بجراح وقتل ثالث على الفور !
كان يعجز عن ضبط أعصابه وكتمان سروره . وبدت له الكلمة الأخيرة شديدة الجمال حتى انه فاه بها بلهجة مرعـــدة والابتسامة تشع على شفتيه : قُتل فوراً .

الفصل التاسع

« مهمة بولكونسكي »

انثنى جيش كوتوزوف عبر وادي الدانوب يطارده بونابرت على رأس مائة الف رجل ، بينما كان تعداد الجيش الروسي لايزيد على خمسة وثلاثين ألفاً . وكان السكان يستقبلون المتراجعين المتقهقرين بنظرات عدائية تدل على انهم لايثقون بحلفائهم . شعر الجيش المتراجع بنقص في مؤونته ، فاضطرت القيادة الى استعمال الأساليب المنظورة في مثل هذه الحالات أثناء الحرب . ولم يكن يجيب على ضغط العدو الا بمعارك من مؤخرة الجيوش الغاية منها تغطية انسحاب الجيش ومحاولة انقاذ الامتعة والمؤن ؛ واشتبك الجيشان في « لامباخ » وفي « آمستيتش » و « ميلك » . وبرهن الروس في هذه المعارك عن شجاعة ومقاومة اعترف خصمهم بها . مع ذلك فان تلك المعارك الجريئة اليائسة ما كانت الا لتزيد في سرعة التقهقر . وكانت الجيوش النمساوية التي نجت من هزيمة « أولم » واستسلام جيوش مـاك والتي انضمت إلى الجيوش الروسية في برونو ، قد انفصلت عنها . فوجد كوتوزوف نفسه على رأس وحداته الشخصية المنهوكة

المتعبة ، فلم يجد سبباً للتفكير في الدفاع عن فيينا . وبدلا من الهجوم المرتقب بحسب قواعد الفن الحربي الجديد المسمى « استراتيجية » ، والذي كانت خطته قد عرضت عليه خلال اقامته في فيينا من قبل قيادة الأركان العليا الخليفة ، فان كوتوزوف لم يجد لزوماً لاضاعة جيشه كما أضاع ماك جيشه في « أولم » ، بل رأى ان خير مايعمله لسلامة وحداته ، انما هو الاتصال بالوحدات الروسية التي وصلت من روسيا ، رغم أن تلك الغاية لم تكن سهلة ميسورة وممكنة .

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول ، توقف كوتوزوف على ضفة الدانوب اليسرى ، بعد أن جعل النهر فاصلاً بينه وبين القطعات الفرنسية الرئيسية . وكانت الضفة اليسرى محتلة من قبل الجيش الذي يقوده مورتيه [1] وفي ٣٠ تشرين الاول ، انقض كوتوزوف على جيش مورتية وهزمه . وكسب الجيش الروسي للمرة الاولى أسلاباً : علماً ومدفعين . وأسر جنرالين . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر يوما ، ظل الجيش الروسي خلالها يقاتل ليغطي انسحابه تمكن أخيراً ان يحتفظ بساحة المعركة ، وان يجابه العدو ويُنزل به هزيمة منكرة . كانت وحدات الجيش متعبة ، وقد غدت ثياب الافراد أطماراً مهلهلة ، وخسرت ثلث عددها بين قتيل وجريح ومتخلف ومريض . ولما كانت المستشفيات وأبنية مدينة كريمز Krems الكبيرة المحولة الى مشافي تضيق بالمرضى ، ترك كوتوزوف مرضاه الآخرين والجرحى على الضفة الثانية ، بعد ان سطر رسالة ناشد فيها انسانيه العدو في معاملة الجرحى والمرضى . مع ذلك ، فقد جاء التوقف في تلك المدنية ، والانتصار على مورتيه داعماً لمعنويات

---

(١) مورتيه دو تريفيز ماريشال فرانسا ، ولد عام ١٧٦٨ ومات عام ١٨٣٥ ضحية الآلة القاتلة التي اعدها المتآمر فيشي Fieschi للقضاء على الملك لويس فيليب — المترجم-

الرجال . وراحت الشائعات المشجعة تسري في الجيش حتى بلغت الأركان العامة . فمن قائل ان وحـــدات النجدة تقترب ، الى آخر يؤكد ان النمساويين قد انتصروا بدورهم ، وثالث يروج ان بونابرت قد استولى عليه الذعر فولى الأدبار .

ظل الأمير آندريه قرب الجنرال النمساوي شميدت طيلة المعركة التي قتل فيها هذ الأخير ، وأصيب الأمير برصاصة خدشت ذراعـــه بعد ان قتلت مطيته . وقد أكرمه الجنرال القائد الأعلى ، فخصه بالذهاب الى البلاط النمساوي لينقل خبر الانتصار الى الملك ، الذي انتقل مع حاشيته من فيينا التي كان الفرنسيون يهددونها ، الى برون . لم يكن الامـير بولكونسكي تعباً ، لكنه كان قلقاً مضطرباً مثار العواطف ليله المعركة . كان رغم بنيته الناعمة ، يحتمل التعب اكثر من أي أمتن بنياناً منه . وقد وصل ليلتئذ الى « كريمس » على صهوة جواده يحمل تقريراً من دوختوروف للقائد الأعلى كوتوزوف الـذي أرسله لساعته الى برون . فكان الاختيار الذي يقع عليـه بانتقائه رسولاً يحمل الاخبار المهمة ، يبشر بالاضافة الى الميزات الاخرى التي يمتازبها ذلك الاختيار ، بترقية ومستقبل لامعين للأمير الشاب .

كانت الليلة حالكة ، والنجوم تلتمع على صفحة السماء ، والطريق يرسم خطاً أسوداً على اديم البراري الزاهيـة اللون ، التي تغطيها طبقة من الثلج الذي ظل ينهمر طيلة يوم امس خلال المعركة . وبينما كان يقطع الطريق في عربة البريد الصغيرة ، كانت أفكاره مشغولة في حوادث أمس الرهيبة . كان يستعرض أحيانا أخطار المعركة ، وعبارات الوداع التي خصه بها القائد الأعلى وزملاؤه ، وأحيانا يتمثل الاثر المفرح الذي ستحدثه أخطـار المعركة والنصر الذي أحرز . كان الامير آندريه أمام تلك الأفكار ، يشعر شعور الرجل

الذي شاهد انبثاق الفجر ، فجر سعادة ظـل زمنا طويلاً يمضه الشوق اليها حتى تحققت بعد موجة انتظار مضنية ، كان اذا أغمض عينيه ، خيل اليه انه يسمع صوت الطلقات النارية ودوي المـدافع الذي اختلط بقعقعة العجلات وشعور النصر . و كان احياناً يتصور ان الروسيين يدبرون فراراً . وانه اصيب اصابة قاتلة فمات . لكنه كان يستيقظ منتفضاً ويتضح له بسعادة تداني سعادته في تخيلاته الاولى البهيجة ، ان خيالاته ليست حقيقة ، وأنها على العكس تمثـل صورة معكوسة ، لان الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار . ومن جديد كان يتمثل ظروف المعركة والجرأة الغريبة التي اظهرها خلالها . وأخيراً أغفى وهو يهدهد تلك الافكار الجميلة في مخيلته ...

أعقب ذلك الليل الحالك ساطع النجوم ، صبح بهيج مشع ، ذابت الثلوج تحت حرارة الشمس ، وراحت الخيول تخب مسرعة . بينما كانت الغابات والحقول والقرى المحيطة بالطريق ، تمر أمام ناظريه بتشابه يربط بين مختلف تلك المشاهد . ولحق الامير في احدى مراحل تبديل الخيول بقافلة تضم عدداً من الجرحى الروسيين . كان رئيس القافلة متهالكاً في العربة الاولى ، يسب ويصخب ويشتم جنديا شتائم قبيحة . كان اولئك الجرحى التعساء ، شاحبي الوجوه قذرين تحيط بأعضائهم المصابة الأربطة والضمادات . وكانوا محشورين في العربات الطويلة بمعدل ستةٍ أو أكثر في كل عربة ، تهتز دارجة على الطريق الحجري . كان بعضهم يتحدثون اذ بلغت مسامع الأمير بعض عبارات باللغة الروسية ، والبعض الآخر يأكلون الخبز . أما أولئك الذي كانت إصاباتهم خطيرة ، فقد كانوا يتأملون ـ بصمت وبفضول المرضى المتواضع الصبياني ـ ، عربة البريد التي كانت تمر بهم مسرعة وتتجاوزهم .

اوقف الأمير العربة وسأل أحد الجرحى عن المعركة التي أصيب خلالها مع رفاقه . فأجاب الجندي :

ـ لقد جرحنا اول أمس في الدانوب .

فأخرج الأمير حافظة نقوده ، وأعطى الجندي ثلاث قطع ذهبية وقال للضابط الذي اقترب منه في تلك اللحظة .

ـ ان هذا المال للجميع . تمالكوا قواكم ياأولادي ، فان أمامنا كثيراً مما نعمل .

سأل رئيس القافلة متلهفاً على الدخول في محادثة :

ـ حسناً ياسيدي الضابط ، ماهي آخر الأخبار ؟

فهتف يجيب بعد ان أصدر أمره لسائق عربته بالمسير .

ـ جيدة ...

وراحت العربة تبتعد بالأمير متجاوزة قافلة الجرحى .

كان الظلام مخيما عندما دخل الأمير برون . وكانت فوانيس الشوارع مضاءة والأنوار تشع من واجهات الدكاكين ومن وراء النوافذ المرتفعة على جانبي الطريق . وكانت العربات الأنيقه تدرج على أرض الشارع المبلطة محدثة قعقعة ودياً . شعر الأمير فجأة أنه مندمج في ذلك الوسط الجذاب الذي يأخذ بمجامع قلوب العسكريين الوافدين من ساحات القتال . كانت تلك المرحلة الطويلة التي قطعها ، وليلة الأرق التي مرت به ، عديمة الأثر في أعصابه . فلما اقترب من القصر شعر بنشاط يفوق نشاطه بالأمس . كانت عيناه وحدهما تشعان ببريق محموم ، وأفكاره تترى وتتلاحق بوضوح وسرعة خارقين . استعاد في ذاكرته أدق تفاصيل المعركة ، فلم تكن تلك التفاصيل غامضة مشوشة ، بل كانت واضحة دقيقة وضوح تقرير جدير بأن يرفع الى مقام الامبراطور فرانسوا ،

أخذ يشعر شعورا مُسبقاً بالأسئلة العريضة التي ستطرح عليه ، والأجوبة التي سيقدمها . راح يفكر في انه سيدخل الى حيث الامبراطور فور اعلان اسمه . لكنه عند مدخل القصر ، التقى بموظف هرع للقائه فلما عرف انه رسول يحمل نبأ ، قاده الى باب آخر غير مدخل الشرف الذي ولجه من قبل .

قال له الموظف :

اتبع الممشى واستدر الى اليمين ، فستجد هناك الضابط المساعد المنوط به أمر الخدمة في هذه الساعة ، وهو الذي سيدخلك الى مكتب وزير الحربية .

امتثل الأمير . ورجاه الضابط المنوب ان ينتظر لحظة ريثما يحمل النبأ الى وزير الحربية . وعاد بعد خمس دقائق ينحني أمام الأمير انحناءة عامرة بالاحترام ، ويقوده خلال ممشى الى مكتب الوزير والظاهر ان الضابط المنوب اراد بإبدائه مثل ذلك التأدب حيال الرسول الروسي ، ان يحبط كل محاولة لنبـــذ الرسميات جانباً . وكلما اقترب الأمير من مكتب الوزير ، حلّ شعور الغضب محل التفاؤل والاستبشار . تحول ذلك الشعور بالغضب الى كراهية واشمئزاز ليس لهما ما يبررهما . غير ان شعور الامير المبتكر ، استطاع ان يقدم له اسبابا وجيهة تبرر كراهيته للضابط والوزير . كان يحدث نفسه مبرراً شعوره : «لاشك ان الذين لم يستنشقوا رائحة البارود يجدون ان الظفر سهل المنازل ! » وعلى هذا ، فان لدى المدخل الى مكتب الوزير ، كانت في عينيه نظرة محتقرة ، وكانت خطواته قد أصبحت بطيئة متثاقلة . وازدادت كراهيته عندما وجد ان الوزير لبث دقيقتين كاملتين منشغلاً عنه مغفلا وجوده . كان هـــذا جالساً وراء منضدة كبيرة بين مشعلين ضخمين من الشمع ، ورأسه الأصلع بصدغيه الرماديين يلتمع تحت الضوء . كان يقرأ أوراقاً يسيطر عليها ملاحظاته بقلم الرصاص . ظل منكباً على القراءة عندما فُتح الباب وعلت خطوات الداخلين وباتت مسموعة .

قال الوزير لضابطه المساعد :

— خذ هذا وانقله الى من يلزم .

ولم يبد عليه انه شاعر بوجود الرسول .

شعر الأمير آندريه ان عمليات كوتوزوف لم تكن موضع عناية الوزير الرئيسية ، وان هذا كان يتعمد استصغار شأنه . فقال الأمير في سره : « مع ذلك ، انني لا أبالي . » أزاح الوزير الأوراق الأخرى وسوى منها رزمة بعنايه، ثم رفع رأسه . كانت سحنته الساطعة بالذكاء تنبيء بشيء من العبقريه . لكنه عندما استدار نحو بولكونسكي ، اختفت تلك المعالم العبقريه الصارمة بحكم عادة مصطنعة : شاعت ابتسامة بلهاء على وجهه ، ابتسامة طافحة بالخبث ، عاجزة عن اخفاء ذلك المكر رغم مهمة صاحبها التي تجعله يستقبل يومياً عديداً من الملتمسين .

سأل الوزير :

— أأنت قادم من قبل الجنرال فيلدمارشال كوتوزوف ؟ هل وراءك أخبار طيبة ؟ هل تقابلتم مع مورتيه ؟ وانتصرتم ؟ لقد كان الانتصار في حينه !

وفض الرسالة التي كان كوتوزوف قد أرسلها اليه شخصياً . وبدا فجأة فريسة لكرب شديد فهتف بالألمانية :

— آه يارب ، رباه ! « شميدت » ! يا للتعاسة ! ياللتعاسة !

وبعد ان قرأ الرسالة وضعه على المنضدة ، وراح يتأمل الأمير آندرية بنظرة ساهمة . قال :

— آه ياللتعاسة ! أتقول ان المسألة حاسمة ؟ مـــع ذلك فقد استطاع مورتيه الافلات .

وصمت فترة مستغرقاً في تفكيره ثم أردف :

— سرني ان حملت أخباراً طيبة . غير ان موت شميدت يجعلنا نعتبر اننا

دفعنا ثمن الانتصار غاليا . . . ان جلالته سيرغب في لقائك حقاً ولكن ليس اليوم . انني أشكرك . إذهب واسترح ودعني أراك بعدالاحتفال عند المخرج . على كل حال سوف أخطرك .

واستعاد ضحكته البلهاء التي أفلتت منه خلال الحديث وقال وهوينحني انحناءة خفيفة :

ـ الى اللقاء وألف شكر . ان جلالته سيرغب في رؤيتك ولاشك.

ولما خرج الأمير آندرية من القصر ، شعر ان كل اهتمامه وابتهاجه بالنصر الذي أحرزته القوات الروسية قد تبخر . لقد أعطى ذلك الكنز الى وزيرالحربية ومساعده المتكلف . نعم لقد إئتمن على الكنز أيد لاتستحقــــه. اتجهت افكاره وجهة أخرى ، واصبحت المعركة في خيالة ذكريات شاحبه قديمة .



الفصل العاشر

(بيليبين)

حل الأمير آندريه في برون عند صديقه الدبلوماسي الروسي بيليبين . قال هذا وهو يستقبله :

ـ آه ، عزيزي الامير ، لاشيء أمتع عندي من لقائك !

وأمر خادمه فرانز أن يحمل أمتعة الامير الى غرفة نوم السياسي . استطرد يخاطب الامير :

ـ اذن ياعزيزي ، لقد جئت تحمل نبأ النصر ؟ رائع . أما انا فإنني مريض كما ترى .

وبعد ان اغتسل الامير آندره وأبدل ثيابه ، دخل الى مكتب الدبلوماسي الفخم حيث كانت تنتظره أكلة خفيفة . جلس الى المائدة بينما انتحى بيليبين مكاناً قرب الموقد .

كان بولكونسكي يشعر بانطلاق بهيج عندما عاد الى الجو الناعم الرائع الذي

اعتاد على مثله منذ نعومة أظفاره . خصوصاً وانه كان محروماً من كل وسائل الرفاه والراحة طيلة سفره وخلال مختلف مراحل الغزوة . ثم إن ذلك أثر في نفسه أبلغ الأثر ، خصوصاً بعد اللقاء الذي وقع بينه وبين الوزير. فكان التحدث باللغة الروسية . او على الاقل التحدث مع روسي ولو كان باللغة الفرنسية، روسي يشاطر مواطنيه ولا شك الكراهية العامة التي يحسون بها نحو النمساويين ، يخفف بعضاً مما في نفسه .

كان بيليبين في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً ، عزباً ، ومن بيئة الامير آندريه ووسطه . وكانت علاقاته في المجتمع الراقي في فيينا تماثل العلاقات التي كانت له في بيترسبورج . وقد شعر بولكونسكي بذلك أبان زيارته لفيينا بصحبة القائد الأعلى كوتوزوف . فإذا كان الأمير آندريه يتوقع لنفسه مستقبلا باهراً في الجيش ، فإن بيليبين كان ينتظره مستقبل رائع كذلك في مضمار السياسة . كان شاباً حقيقة ، لكنه لم يكن فنياً في أجواء السياسة ، اذ انه مارس هذا العمل وهو في السادسة عشرة من عمره ، وبدأ في باريز ثم « كوبنهاج » وهو الآن يشغل مركزاً لامعاً في فيينا ، مركزاً حساساً مهما وكان السفير الروسي والوزير المفوض للامبراطورية الروسية يقدر انه حق قدره . ذلك أن بيليبين لم يكن من أولئك السياسيين الكثيرين الذين يعتقدون ان النجاح في الحياة السياسية رهين بالصفات السلبية التي يجب ان يتمتع بها الدبلوماسي ، وبالامتناع عن بعض الأمور ، والتحدث باللغة الفرنسية بطلاقة . بل كان من اولئك الذين يحبون العمل ويجيدونه. وكان رغم كسله ، يُمضي ليالي عديدة وراء طاولة العمل . كان ينجز عمله ويتمه بنجاح مهما كان لون ذلك العمل ونوعه . وكان ما يهمه في الأمور ما يجيب منها على « كيف » وليس على « لماذا » . وكان الفن الدبلوماسي يشغل حيزاً ضيقاً في نفسه، لكنه كان دؤوباً على اعداد مذكرة بدقة ، وبعبارات منتقاة وفن ، حريصا

على ابراز هذه الصفات في كل المخابرات والعلاقات الخطية . فكان الى جانب براعته في الانشاء ، يشعر من حــولــه بتفوقه في تصرفــاته وعلاقاته مع الأوساط الراقية المرموقة .

كان بيليبين ولوعاً بالحديث ولعه بالعمل ، شريطة ان يكون ذلك الحديث فكرياً عالياً . فكان في المجتمعات لايتحدث الا اذا اتيحت له الفرص لابراز ملاحظاته العبقرية على موضوع ما . فلا يتحدث الا اذا سار الحديث وفق هواه. وكان يرصع حديثه بعبارات بديعية متقنة الصياغة سهلة الفهم ، كان يهيؤها عامداً في مكتبه كما يبدو ، لتصبح سهلة النقل ، فيتاح للاشخاص البارزين في المجتمع وللمزهوين منهم ، نقلها من بهو الى آخر . والحقيقة ان كلمات بيليبين كانت تؤخذ في كل انحاء فينا بحيث كان تأثيرها شديد الوضوح في «الامور الهامة».

كان وجهه هزيلا اصفر وهناً ، تقطعه غضون عميقة . وكان شديد العناية بنظافة وجهه وجسده . وكانت حركات تلك الغضون هي ابرز صفات ذلك الوجه فكانت تارة تقطع جبينه افقياً بينما يكون حاجباه في اقصى مايستطيعا نبلوغه من ارتفاع ، واحياناً اخرى تظهر على خديه بينما يكون حــاجباه هابطين . وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان في محجريهما ، تنظران الى المتحدث نظرة صريحة وديعة .

قال يحدث الامير :

ــ حسناً قص عليّ الآن مشاريعك .

فقص بولكونسكي بتواضع تام ودون ان يشير الى دوره مطلقاً ، تفاصيل المسألة التي ساهم فيها واللقاء الذي خصه به وزير الحربية ، وقال معقباً :

ــ لقد تلقوني مع الخبر الهــام الذي احمله كما يستقبل الكلب العائد من لعبة المطاردة .

فابتسم بيليبين وانبسطت اسارير وجهه وقال وهو يتأمل اظافره عن بعد ويغمز بعينه اليسرى .

ـ مع ذلك ياعزيزي ، فانني رغم الحب الذي اكنـــه للجيش الروسي الاورثوذوكسي ، اعترف بأن انتصاركم لم يكن من اروع الانتصارات .

واستمر يتحدث بالفرنسية مستعملا احيانا بضع كلمات من لغته الاصلية ، كلما اراد ان يضفي على جملة ما طابعاً خاصاً من الاحتقار . اردف يقول :

ـ قل لي ، لقد انقضضتم بكل جيشكم على فيلق مورتييه التعس . مع ذلك فقد استطاع مورتييه ذاك ان يتسلل من بين اصابعكم ! ثم انكم تسمون هذا نصراً

فاجاب الامير اندريه :

ـ انه على كل حال احسن من موقعة « اولم » ، اذا جاز لنا ان نقول ذلك دون تبجح :

ـ لم َلم تأسروا ماريشالاً واحداً ، واحداً فقط ؟

ـ لأن كل شيء لايحدث في الحـــرب كما يتوقعه الانسان . والحـــرب والاستعراضات لايمكن ان يتساويا . لقد كنا نفكر ان نهاجم مؤخرته حوالي الساعة السابعة صباحاً ، مع اننا لم نبلغ مكانه في الخامسة مساء .

سأل بيليبين بابتسامة :

ـ ولماذا لم تصلوا في الساعة السابعة ؟ كان ينبغي ان تصلوا في الوقت المقرر ، نعم في الوقت المقرر .

فأجاب الامير آندريه بمثل لهجته :

ـ ولماذا اذن لم تقنع بونابرت عن طريق الدبلوماسيات بإخلاء جينس ؟

فقاطعه بيليبين قائلا :

ـ نعم ، انني اعترف بأن أسر َ الماريشالات من اسهل الامور في نظر من

لايبارح زاويته قرب النار . أليس هذا ماتفكر فيه ؟ انك على حق في تفكيرك مع ذلك لم َلم تأسروا ماريشالاً ؟ لا تُندهش اذا قلت لك ان وزير الحربية وصاحب الجلالة الامبراطور والملك فرانسوا لايبدون سرورهم بغير ذلك . اما انا ، وأنا الموظف البسيط في السفارة الروسية ، فإنني لاأسر بل ولا اجد حاجة لاظهار سروري اذا اعطيت خادمي فرانز ثلاثة ماركات ، وأرسلته للقاء صديقته في حديقة الألعاب ... ذلك ان المبلغ لايمكن ان يكون كافياً لتأمين حاجات فرانز.

وبينما كان جبينه يبدد الأخاديد التي ارتسمت عليه ، كانت عيناه تتغللان في أعماق الامير آندريه . فقال هذا :

ــ دعني ياعزيزي القي عليك بدوري سؤالاً واحداً . ان دقائق الدبلوماسية تفوق فهمي الضعيف واستيعابي للأمور . فكيف يخسر ماك جيشاً كاملا ، ولا يعطي الارشيدوقان فيرديناند وشارل أية دلالة على حسن تصرفهما ، بل يجمعان الخطأ الى الخطأ ، في حين ان كوتوزوف وحده يتفوق ، فيعكر صفو الفرنسيين ، ومع ذلك لايجد وزير الحربية سبباً يدفعه للتعرف على تفاصيل المعركة ؟ !

ــ إن هذا صحيح . ولكن ياعزيزي : اهتف ماشئت للقيصر ولروسيا وللدين! ان كل هذا جميل وبديع . لكن أية مصلحة لنا نحن في انتصاراتكم ؟ وأقصد أية مصلحة وفائدة يجنيها البلاط النمساوي ؟ احمل اليهم خبر انتصار واحد من الأرشيدوقين شارل او فرديناند ــ وكل ارشيدوق يساوي الآخر ــ حتى ولو كان انتصارهم على فريق من رجال الاطفاء الذين يرافقون بونابرت ، وعندئذ تراهم يحتفلون بالخبر بقصف المدافع . بينما يبدو انكم في انتصاركم هذا لم تنتزعوا الغار الا لتزعجوهم به . ان الارشيدوق شارل لايتحرك والارشيدوق فيرديناند تغمره المهانة . وأنتم تتركون فيينا لمصيرها المحزن وكأنكم تقولون : « ان الله الرحيم يحميكم وذلك يكفي ... فليبارككم وليبارك عاصمتكم ! » وكان

لديهم جنرال واحد عزيز عليهم وهو شميدت . فعرضتموه للرصاص الذي قتله وجئتم بعد ذلك تزعمون أنكم انتصرتم ! فكر في الامر ، فكر وأيدني في القول: ان رسالتك كانت شديدة الاسى، اليمة الوقع اليس كذلك ؟ انها تشبه العمل المقصود ، نعم العمل المقصود . ثم لو أنكم ربحتم معركة او ربحها الارشيدوق شارل بنفسه ، فإن ذلك لن يغير سير الامور العام . اذ ما فائدة هذا النصر ؟ لقد قضي الامر وأصبحت فيينا الآن محتلةً من قبل الفرنسيين :

ـ كيف محتلة ؟ هل دخل الفرنسيون فيينا .

بلا شك: وبونابرت يقطن الآن في قصر شونبرون بينما سيأخذ عزيزنا الكونت « واربنا » أوامره قريباً .

شعر بولكونسكي بعجزه عن إدراك حقيقة الامور التي تعرض على مسامعه ، اذ كانت وعثاء السفر وبرودة اللقاء الذي استقبل بها ، والطعام الفاخر الذي التهمه، كافية لاخماد شعوره . استرسل بيليبين قائلا :

ـ لقد قابلت هذا الصباح الكونت ليشتنفلس فأعطاني رسالة جاء فيها وصف مسهب لدخول الفرنسيين الى فيينا دخول الظافرين . لقد دخلها الامير مورا[1] وكل الحاشية ... لذلك فإن انتصاركم كما ترى فقد طابعه ، فلا يمكن والحالة هذه ان تستقبل استقبال المنقذين .

فقال الامير آندريه الذي فهم أخيراً ضآلة أهميـــة معركة كريـــز ازاء احتلال العاصمة :

---

(١) يواكيم مورا ، صهر بونابرت وزوج كارولين بونابرت . كان ماريشال فرنسا . ولد عام ١٧٦٧ واصبح ملك نابولي عام ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٥ . واضطر ان يتخلى عن ملكه، فلما حاول استعادته ، سجن واعدم رميا بالرصاص عام ١٨١٥ . ـ المترجم ـ

ـ ان ذلك سيان عندي شخصياً ، ولكن كيف أخذت فيينا ! اين الجسر وأقصد رأس الجسر العتيد ، والامير دو يوسبيرج العظيم ؟ أعتقد أنه كان يدافع عن المدينة اذا آمنا بالشائعات التي راجت عندنا :

ـ ان الامير دويوسبيرج من هذا الجانب من النهر وهو يدافع عنا نحن . صحيح انه اسوأ دفاع ولكنه مع ذلك يحمينا . اما فيينا، فإنها من الجانب الآخر. صحيح ان الجسر لم يسلم بعد ، لكني لا أميل الى الظن بأنه سيظل في أيدينا ، مع العلم ان الالغام مبثوثة فيه وأن الامر بنفسه قد صدر . ولو أن الامور سارت على غير ذلك لكنا نحن في جبال بوهيميا منذ زمن طويل، ولأخذ جيشكم بين نارين ، ولقضي عليه اسوأ قضاء .

فقال الامير آندريه :

ـ إن ذلك لا يعني على أية حال انتهاء الغزوة :

ـ بل إنها انتهت اذا شئت ان تصدق رأيي المتواضع . وهذا هو رأي ذوي الرؤوس الضخمة هنا وإن كانوا لا يجرأون على الافصاح عنه . سوف يقع ما تنبأت بوقوعه من قبل : ان مذبحتكم في دورنستين لن تبدل من الامر شيئاً، وبصورة عامة لن يكون البارود والنار صاحب الكلمة الأخيرة ... بل ان الكلمة ستكون للذين اخترعوا البارود والنار .

وبسط بيليبين جبينه بعد ان نجح في تحرير واحدة من عباراته المنتقاة، وصمت برهة ثم أردف :

ـ إن كل شيء متوقف على مفاوضات برلين بين ملك بروسيا والامبراطور الكسندر . فإذا دخلت بروسيا في حلفنا ، شددنا ازر النمسا وعادت الحرب من جديد . اما اذا رفضت ، فلا يبقى الا الاتفاق على انتقاء المدينة التي ستسلم للعدو المكتسح .

هتف الامير آندريه فجأة وهو يقبض أصابع يده الرقيقة ويضرب بها المائدة:

ـ ياللعبقرية المدهشة . ويا للرجل السعيد !

قال بيليبين وقد عاد جبينه يتجعد دلالة على أن كلمة أخرى من كلماته ستجد مكانها المفضل في سياق الحديث :

ـ بونابرت ؟

ثم كرر القول وهو يضغط على المقطع الأول :

ـ بونابارت ؟ انه الآن يشرع في قصر شوبنرون قوانين جديدة لتطبق في النمسا . وأرى أن يحذف من اسمه حرف « الياء » الذي كان في المقطع الاول ليصبح اسمه بونابارت فقط بعد ان كان يدعى بيونابارت .

فقال بولكونسكي :

ـ دعك من المزاح . هل تعتقد حقيقة ان هذه الحرب ستنتهي ؟

ـ اليك رأيي . ان النمسا التي لم تعتد مثل هذه الحال ، ستحاول الانتقام لكرامتها . اذ يقال ان المقاطعات قد دمرت ، لان الجيش الارثوذوكسي مخيف في أعمال السلب ، ثم ان الجيش قد هزم ، والعاصمة سلمت ، كل ذلك اكراماً لجمال عيني جلالة ملك سردينيا . لذلك ياعزيزي ـ وأرجو ان يكون الحديث بيننا ـ اعتقد انهم يخدعوننا ، لانني اشم رائحة مفاوضات بين النمساويين والفرنسيين ، ومشاريع سرية للسلم وللصلح المنفرد .

فقال الامير آندريه :

ـ إن ذلك شديد البشاعة ! لايمكن ان يكون ذلك !

فقال بيليبين :

ـ من يعش ير .

وبسط نهائياً تجاعيد جبينه معرباً بذلك عن رغبته في انهاء الحديث .

ولما اعتكف الامير آندريه في غرفته التي وضعت تحت تصرفه ، واستلقى على الاغطية النظيفة وفراش الريش والوسائد المعطرة ، شعر ان المعركةالتي حمل أخبارها قديمة العهد عريقة في القدم . كان ما يشغل ذهنه هو التحالف معبروسيا وخيانة النمسا وانتصار نابوليون الجديد ، واستعراض الغد الذي سيمثل بعده بين يدي الامبراطور فرانسوا ...

لم يكد يطبق عينيه حتى عاد الى اذنيه قصف المدافع وقعقعة البنادق ودوي العجلات . ومن جديد عاد يرى القناصة ينحدرون من أعلى التل وهم يطلقون بنادقهم ، وشعر بقلبه يدق عنيفاً وأنه تقدم الى الامام مع «شميدت» والرصاص يصفر حول رأسه صفيراً جميلاً ، فاستسلم للنوم بسرور عنيف متأجج مضاعف لم يشعر به منذ طفولته .

واستيقظ بعد ذلك ... فقال لنفسه بابتهاج والابتسامة البريئة مرتسمة على شفتيه : « إه نعم ، لقد حصل كل هذا ! » وعاد يستغرق في نوم عميق .



الفصل الحادي عشر

(الملك فرانسوا)

استيقظ متأخراً وراح يرتب ذكرياته . تذكر بادىء الأمر ان عليه ان يتقدم ليمثل بين يدي الامبراطور فرانسوا ، ثم تذكر وزير الحربية وتابعه البشوش الأنيس ، وبيليبين وحديثهما امس . ارتدى ثوبه الأنيق الذي لم يستطع منذ زمن طويل ان يرفل فيه لافتقاره للمناسبة الملائمة ، فبدا جميلا انيقاً نشيطاً رغم ذراعه المعصوب الى عنقه . ودخل على بيليبين ، فرأى هناك اربعة رجال من السلك السياسي ، عرف منهم الامير هيبوليت كوراجين ، وهو احد امناء السر في السفارة . فقدمه بيليبين الى الآخرين .

كان اولئك السادة الشبان الأرسقراطيون الأغنياء الانيقون ، يشكلون في برون كما كانوا في مشينيا ، حلقة خاصة كان بيليبين يتزعمها ويسميها : « جماعتنا . » كانت تلك الجماعة تضم السياسين وحدهم . مع ذلك فقد كان افرادها لا يأبهون بالسياسة ولا بالحرب ، كانوا يكرسون جهودهم للحياة العامة الراقية ، ولبعض

العلاقات النسائية ومشاكل المستقبل . استقبلوا الامير اندريه كواحد منهم في الظاهر . وهو الشرف الذي قل ان يضفوه على احـــد . وجهوا اليه عدداً من الاسئلة المهذبة عن حالة الجيش وعن المعركة الاخيرة ، مما مهد الحديث بينهم وبين الامير ، ثم تشعب الحديث وتطرق الى نواحي عديدة ، حتى اصبح ثرثرة ولغطاً كالذي يدور عادة في الابهاء والاندية .

قال احدهم يتحدث عن خطب نزل بأحد زملائه :

– ان اجمل مافي الموضوع هو ان الوزير المفوض قال له بالذات : ان نقله الى لندن يعتبر ترقية ، وان عليه ان ينظر الى الموضوع من تلك الزاوية . ولكم ان تتصوروا ما اعترى قسمات وجهه من تغييرات وهو يرى السخرية تقذف في وجهه على هذا الشكل !

فقال آخر :

– كلا ، ان اخطر ما في الامر هو تصرف كوراجين بالمقابل . انني اسلمكم ايها السادة هذا « الدون جوان » انه يرى صديقاً في البؤس فينتهز تلك الفرصة ليجر الى نفسه نفعاً ! يا له من رجل مخيف !

ان الامير هيبوليت كان قابعاً خلال ذلك على اريكة من طراز فولتير ، وقد رفع ساقيه فوضعها على مسندي الاريكة . قال وهو ينفجر ضاحكا :

– حدثني عن هذا ...

فهتفت اصوات متعددة تقول :

– أوه يادون جوان ! أوه ايها المغوي !

قال بيليبين :

– انك تجهل ولا شك يابولكونسكي ، ان كل الفظاعات التي ارتكبها الجيش الفرنسي – كدت اقول الجيش الروسي – ، لاتعتبر امراً مذكوراً اذا قيست

بالتدمير الذي يحدثه هذا الرجل بين الجنس اللطيف

فقاطعه الامير هيبوليت قائلا وهو يحدق في ساقيه المرفوعتين على جانبي الاريكة خلال نظارته :

ان المرأة هي رفيقة الرجل .

فانفجر بيليبين و« جماعتنا » ضاحكين . وأدرك الأمير آندره ان هيبوليت هذا ، الذي كانت تصرفاته حيال زوجته عند انتهاء حفلة انيت شيرر قد أثارت — ولشدة خجله — دوافع الغيرة في نفسه ، ليس الا مهرجاً يسخر منه اصدقاؤه المجتمعون .

قال بيليبين يهمس في اذن الأمير اندره :

— ينبغي ان اسليك على حساب كوراجين . انه لايقدر بثمن عندما يتحدث عن السياسة . سوف ترى بنفسك مسحة الوقار التي ستعلو وجهه .

وجلس قرب هيبوليت ، واستجمع غضون جبهته ودفع الشاب بلباقة نحو حديث السياسة . بينما تجمهر بولكونسكي والآخرون حولهما .

شرع هيبوليت يقول وهو يلقي نظرة دائرية شملت من حوله كلهم :

— ان مجلس وزراء برلين لايمكن ان يعبر عن رغبة في التحالف ، دون ان يعبر ... كما جاء في تعليماته الاخيرة ... انهم تفهمون ... انهم تفهمون ... ثم اذا كان صاحب الجلالة الامبراطور لايناقض مبدأ تحالفنا ...

— انتظر ، انني افرغ بعد ... انني اميل الى الاعتقاد ان التدخل اقوى من عدم التدخل ... و ... — وصمت برهة — ، لايمكن ان يعزا الأمر الى عدم تلقي برقيتنا المؤرخة في ٢٨ تشرين الاول . ان الامر سينتهي هكذا .

وترك ذراع بولكونسكي دلالة على انه قال كل ما كان يريد قوله .

هتف بيلبين وقد انتصبت ذؤابة شعره دلالة على الرضى وانبساط أساريره :

– آه ياديموستين [1] ، انني اعرفك من الحصاة التي خبأتها في فمك الذهبي .

أغرق السامعون في الضحك ، وقد سبقهم هيبوليت نفسه وطغت قهقهته على ضحكاتهم . كان يضحك بانشراح غريب يكاد يكتم انفاسه رغم محاولاته الفاشلة في كتم تلك الموجة المحمومة الهوجاء من الضحك ، التي ابدلت اساريره الجامدة في اغلب الأحيان .

قال بيلبين بعد ان خفت حدة الضحك :

– والآن ايها السادة ، اصغوا الي بولكونسكي ضيفي ، وانني عازم على اشراكه معنا في مباهج مدينتنا الطيبة . ولو اننا كنا في فينيا ، لاختلف الامر وكان ميسوراً . اما هنا ، في هذا الحجر الملعون الكئيب ، فان الأمر اكثر

---

(١) ديموستين ، اشهر خطباء اثينا (٣٨٤ – ٣٢٢) قبل الميلاد . كرس نفسه طيلة خمسة عشر عاماً لمقاومة فيليب الماسيدواني الذي كان يريد استعباد وطنه ، فألقى خطابات شهيرة خالدة ضده ، وساهم في معركة شيرونية واستمر يكافح بشجاعة بعد موت فيليب . وله تاريخ حافل يشهد ببلاغته وبيانه الرائع . وقد اضطر – سعياً وراء تحسين صوته وتقوية صدره – ان يكافح ضد نفسه كفاحاً رائعاً ، فكان يمضي الى شاطىء البحر فيحشو فمه بالحصى ويتحدث بصوت مرتفع وكأنه يخطب في جمهور محتشد ! ومن هنا وردت التورية في جملة بيليبين في النص ، والمراد بها التهكم على كوراجين . – المترجم –

صعوبة مما يحملني على طلب العون منكم . ينبغي ان نطلعه على اجمل ما في حياة برون من جمال ومتع ؛ تعهدوا تطويفه على المسارح واتعهد انا بتعريفه على الطبقات الراقية . وانت ياهيبوليت ، فانك ـ بديهياً ـ ، ستقوم بواجبك حياله من الناحية النسائية .

قال واحد من «جماعتنا» وهو يطلق قبلة على اطراف اصابعه :

ـ ينبغي ان تقدمه الى اميلي ، انها درة نادرة !

فأردف بيليبين :

ـ والخلاصة ، ينبغي ان نعيد هذا الجندي الدموي الى حظيرة العواطف الانسانية .

فقال اندره وهو يلقي نظرة على ساعته :

ـ اعذروني ايها السادة ، انني لن استطيع ولاشك ان افيد من حسن التفاتتكم اذ ينبغي ان اغادركم الآن .

ـ والى اين تذهب ؟

ـ الى الامبراطور .

ـ اوه ! اوه ! اوه !

ـ حسنا ، الوداع يابولكونسكي ! الوداع ايها الامير ! عدمبكراً لتناول الطعام ، اننا سننتظرك .

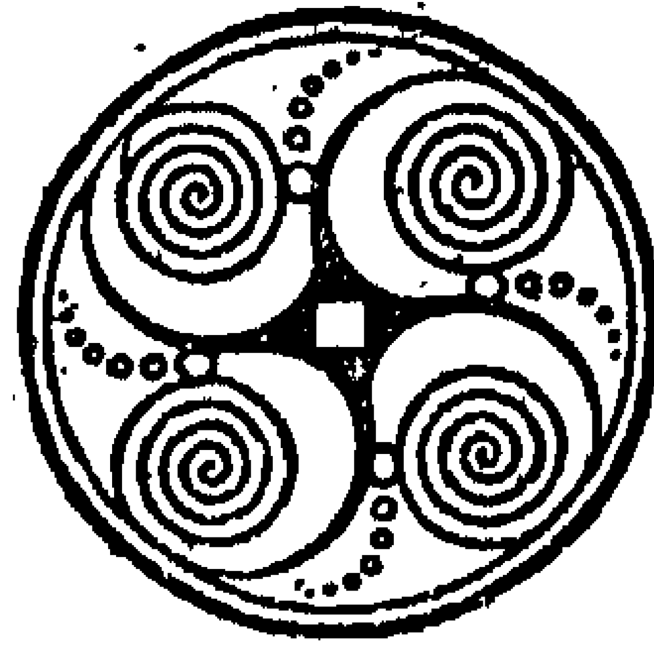
ورافقه بيليبين الى الردهة وقال له :

ـ حاول اثناء مقابلتك مع الامبراطور ان تضفي اكبر قسط ممكن من المديح على مصلحة التموين وادارة المراحل .

فاجاب الامير باسماً :

ـ انني اود ذلك من صميم نفسي لكنني عاجز عن ذلك لان ضميري والحقيقة يأبياه •

ـ على كل حال ، إبذل مابوسعك وتحدث اطول مدة ممكنة • انه مغرم بالمقابلات لكنه لايحب ان يتحدث بنفسه لانه لايتقن الحديث • سوف تتأكد من ذلك بنفسك •



الفصل الثاني عشر

(جسر تابور)

اكتفى الامبراطور فرانسوا خلال العرض العسكري بالقاء نظرة مترددة مختلسة على الأمير آندريه الذي كان يشغل مكاناً احتجز له في عداد مقاعد الضباط النمساويين أعقبها بايماءة من رأسه الطويل . غير أن الضابط المساعد الذي استقبل الأمير بالأمس بتلك الحفاوة والبشاشة ، جاءه بعد تلك الحفلة وحمل اليه بمزيد من التأدب نبأ رغبة جلالته في مقابلته . واستقبله الأمبراطور وهو واقف في منتصف مكتبه وقبل ان ينطق بكلمة ، تبين الأمير آندريه مدى صدق أقوال صديقه ببليبين ، واذهله مظهر الامبراطور المرتبك الذي كان لايعرف ما يقول ولا يستطيع منع الدماء من التصاعد الي وجنتيه .

سأله الامبراطور أخيراً بشيء من التلهف :

– قل لي ، متى بدأت المعركة ؟

فأجابه الأمير آندريه على سؤاله . وأعقب الجواب عدد من الأسئلة التي

لاتقل تفاهة عن السؤال الاول ! « كيف حال كوتوزوف ؟ هل ترك « كريمز » منذ زمن طويل ؟ » الخ ... وكانت لهجة الامبراطور تنبىء بأن همه الأول هو طرح عدد كبير من الاسئلة . أما الأجوبة ، فقد كان واضحاً أنه لايأبه لها ولا يهتم بهـا .

سأل من جديد :

-- في أية ساعة بدأت المعركة ؟

فأجاب بولكونسكي بحماس :

– لا أستطيع ان احدد لجلالتكم بالدقة الساعة التي بدأت فيها المعركة على طول جبهة القطعات . لكنني متأكد من أن القتال في « دورنستن » ، حيث كنت ، بدأ في السادسة مساءً .

وأمل بولكونسكي في أن يستطيع سرد وصف حقيقي للمعارك التي حضرها ، وأن يعيد على مسامع الامبراطور ما هيأه من قبل من جمل لهذه المناسبة . غير ان الامبراطور قاطعه باسماً وقال :

- كم من الأميال ؟

— من اين ياصاحب الجلالة والى أين ؟

— من درونستن الى كريمز ؟

— ثلاثة أميال ونصف يا صاحب الجلالة .

— هل ترك الفرنسيون الشاطىء الأيسر ؟

— ان تقارير رقبائنا تفيد بأن آخر الفرنسيين اجتاز النهر ليلًا على نقالات . .

— هل هناك علف كافٍ في كريمز ؟

— لم يقدموا لنا الكمية التي ...

فقاطعه الامبراطور مرة ثانية ليطرح سؤالاً جديداً :

ـ في أية ساعة قتل الجنرال شميدت ؟

ـ في السابعة على ما أظن .

ـ في السابعة ؟ إنه لأمر محزن ! شديد الحزن !

ثم شكره الامبراطور وانحنى اشارة بانتهاء المقابلة . ولم يكد الأمير آندريه يغادر مكتب الامبراطور حتى هاجمه الاتباع ورجال البلاط ، فأحاطوا بـــه وأمطروه وابلاً من الاسئلة .كانت نظرات أنيسة تحدق به كل من مكان ، والكلمات المعسولة المتوددة تقرع أذنيه . فالضابط المساعد أخذ عليه عزوفه عن الحلول في القصر وقدم له مسكنه الشخصي لينزل فيه ؛ ووزير الحربية أبلغه بشيء كثير من التأدب وفي فيض من عبارات التهنئة ، أن الامبراطور أنعم عليـــه بوسام ماري تيريز من الدرجة الثالثة . ودعاه حاجب من حجاب جناح الامبراطورة للمثول بين يدي جلالتها . وانهى اليـه كذلك ان الارشيدوقة ترغب كذلك في رؤيته . فما كان يدري لمن يعير أذنه ، ومن يجيب . اخذه سفير روسيا . وانتحى به جانباً ليتاح له التحدث اليه بحرية أكثر .

أحدث نبأ انتصار الروس – على عكس تنبؤات بيليبين – صدى قوياً في نفوس أفراد الحاشية ورجال البلاط الذين استقبلوه بكثير من السرور . فأقيمت الصلوات ابتهاجاً بالنصر ، وأنعم على كوتوزوف بصليب ماري تيرز الأكبر ، ومنح جيشة عدداً من الهبات وكيلت له الاطراءات . وتوالت الدعوات على الأمير آندريه ، فاضطر هـــذا الى قضاء نهاره كله متنقلاً من مكان الى آخر ، استجابة لدعوات كبار الشخصيات المرموقة . واخيراً ، ذهبت الى احـــدى المكتبات ليشتري منها ذخيرة نافعة يفيد منها في حياة الريف التي سيعود اليها عند عودته الى مركزه في الجيش . فلما عاد الى مسكن بيليبين ، وهو يعد في مخيلته الرسالة التي سيخطها لأبيه ، متضمنة الوصف الدقيق للمعركة والشرح الكافي عن

رحلته الى برون" ، وجد أمام الباب عربة نقل كبيرة محملة الى نصفها بالامتعة .

سأل فرانز ، خادم بيليبين ، الذي ظهر في تلك اللحظة أمام الباب يجر وراءه حقيبة ضخمة :

ـ ماذا هناك ؟

فأجاب الخادم بالألمانية وهو يرفع الحقيبة الى العربة بمجهود كبير .

ـ آه ياصاحب السعادة ! اننا نرحل من جـــديد ان اللعين على أعقابنا من جــــديد .

فهتف الأمير مستغرباً :

ـ ماذا ! كيف ! ماذا جرى ؟ ...

جاء بيليبين في تلك اللحظة يستقبله . فقرأ الأمير على وجهه ـ وهو الذي كان منبسطاً في اكثر الاحيان ـ شيئاً من الارتباك .

قال بيليبين :

ـ هيا ، إعترف معي أن ذلك روائع ! واعني قصة جسر تابور ـ احـــد جسور فيينا ـ . لقد مروا فوقه دون أي عناء!

فلم يفقه الأمير شيئاً من هذا القول . فسأله بيليبين :

ولكن ، من أين قدمت إذن حتى تجهل مثل هذا الأمر الذي بات يعرفـه كل حوذي في المدينة ؟

ـ لقد خرجت لتوي من لدى الارشيدوقة . لم يحدثني أحد عن شيء من هذا هناك .

ـ ألم تلاحظ أن كل الناس كانوا يعدون حقائبهم ؟

أجاب الأمير مستغرباً :

ـ كلا ، أبداً ... ولكن ما الخبر ؟ ماذا هناك ؟

ـ ماذاهناك ؟ هناك انالافرنسيين اجتازوا الجسر الذي كان «اويرسبيرج» يدافع عنه . فلم ينسفه ، بل ترك مورا يمر فوقه بسلام فجاء هذا يسعى على طريق برون . سوف يصل الفرنسيون الى هنا اليوم أو غداً .

ـ الى هنا ؟ ولكن ، لمَ لم ينسفوا الجسر خصوصاً وان الألغام مبثوثة فيه من قبل لهذه الغاية ؟

ـ انني أسألك ذلك بنفسي . على كل حال ، ليس هناك من يعرف السبب ، حتى ولا بونابرت بالذات .

فهز بولكونسكي كتفيه وقال معقباً :

ـ اذا كان الجسر قد اجتيز من قبل الفرنسيين فقد ضاع الجيش . ان جيشنا اذن يوشك أن يُشطر الى قسمين .

فأجابه بيليبين قائلاً :

ـ تماماً . إصغ الي . لقد دخل الفرنسيون الى فيينا كما حدثتك بذلك . حسنا . وفي اليوم التالي ، أعني البارحة ، اجتمع السادة الماريشالات مورا ولان ، وبيليار ، وامتطوا صهوات جيادهم واتجهوا صوب الجسر . لاحظ ان الثلاثة غانيكونيين (من غاسكونيا في فرانسا) ، واذكر ذلك . قال احدهم : « أيها السادة ، إنكم تعرفون ان جسر تابور مليء بالألغام وأن رأس جسر متين جداً يتقدمه وان خمسة عشر الف رجل يدافعون عن رأس الجسر ذاك . وقد تلقى هؤلاء المدافعون أمراً بنسف الجسر ومنعنا المرور فوقه . غير ان احتلالنا هذا الجسر سيسر صاحب الجلالة الأمبراطور نابليون سروراً عظيما . فهيا بنا نحن الثلاثة إذن ، ولنحتل الجسر » فأجابه الآخران : « هيا بنا » . ثم جاؤوا فاحتلوا الجسر ، وهاهم الآن يجتازونه مع كل جيشهم فيتجهون نحونا ، ونحوكم أنتم ليقطعوا خطوط مواصلاتكم .

فقال الأمير آندريه بلهجة شديدة الخطورة .

ــ يا للدعاية الفظة !

غير ان بيلبين أعقب يقول :

ــ أبداً ، انني لا أمزح . انني أروي لك أصدق الأنباء وأشدها وقعاً على النفس . لقد وصل اولئك السادة اذن وحدهم الى الجسر يلوحون . بمناديل بيضاء ، فأيدوا ان هدنة قد وقعت وأنهم ــ هم الماريشالات جاؤوا يتباحثون بدورهم مع الأمير اوبرسبرج . تركهم ضابط الحرس يمرون ويدخلون رأس الجسر . أنهوا اليه آلافاً من الأخبار المثيرة : انتهت الحرب ، حدود الامبراطور فرانسوا موعداً لمقابلة بونابرت ، انهم يرغبون في رؤيه الأمير اوبرسبرج ... والخلاصة أنهم لم يتركوا مما اشتهر عن الغاسكونيين من مكر وحيـــلة الا واستعملوه في تلك المناسبة . فأرسل ضابط الحرس يستشير اوبرسبرج ويطلعه على ماسمعه ، بينما راح أولئك السادة يعانقون الضباط ويداعبونهم ويجلسون على المدافع . وخلال ذلك الوقت ، جاءت فرقة الفرنسية فاحتلت الجسر متسللة فألقت بأكياس المواد المحرقة الى النهر واقتربت نحو رأس الجسر . وأخيراً وصل الجنرال الثاني بشخصه وأعني عزيزك الامير اوبرسبرج فون ماتيرن . فراح أولئك السادة يحدثونه : « أيها الخصم العزيز ! يازهرة الجيش النمساوي! يابطل الحروب التركية ! لقد انتهت المعارك ونستطيع الآن ان نمد لبعضنا أيدينا التي امتشقت السيوف حتى الآن . . . ان الامبراطور نابليون يتحرق شوقاً للتعرف بالامير أوبرسبرج ... » والخلاصة ان اولئك السادة ليسوا من أهالي غاسكونيا عبثا ، إذ أغدقوا على اوبرسبرج معسول كلامهم وعباراتهم حتى ان الرجل العزيز أخذ بالغرور والمديح ، وذلك الرد المفاجيء مع المارشالات

الفرنسيين ، وبهرته ألبسة مورا وريش النعام الذي يزين خوذته ، حتى انه نسي واجبه والنار التي كان يجب ان يصبها على العدو ...

وقطع بيليبين حديثه عند هذه الجملة رغم الحماس الذي كان يلهب لسانه ويزيد في بلاغته . كان معجباً بتلك « الكلمة » التي استطاع ان يقحمها في حديثه . ولما تأكد من ان الامير آندره قد استوعب قوله أردف متمماً :

- زحفت الفرقة الفرنسية حتى بلغت رأس الجسر ، فعطلت المدافع واستولت على الجسر ....

صمت بيليبين برهة ثم أعقب وهو فريسة انفعال ظاهر :

غير ان اجمل مافي الموضوع هو ان احد صف الضباط الذي كان منوطاً به اعطاء اشارة نسف الجسر واحراقه من مدفعه . اقترب من اوبرسبرج وقال له : « انهم يخدعوك ياأمير ، هاهم اولاء الفرنسيون ! » ولما رأى مورا - وهو الغاسكوني القح - انه اذا ترك ذلك الضابط الصغير يسترسل في حديثه ، فان الخطة كلها ستحبط ، قال موجهاً حديثه الى اوبرسبرج متصنعاً الدهشة البالغة : « كيف هذا ! أتسمح لمرؤوس ان يحدثك بهذه اللهجة ؟ انني لاأرى في هذا التصرف ما اشتهر عن النظام والطاعة في الجيش النمساوي العتيد ! » ... الا ترى ان هذا القول يدل على عبقرية رائعة ؟ لقد أثير الامير اوبرسبرج ، فأمر بتوقيف الضابط الصغير وسجنه ! اعترف معي ان قصة جسر تابور قصة ممتعة رائعة ! ان ماعملة اولئك السادة ليس نذالة ولا سخفاً ....

قال الامير آندرة الذي تاه خياله في تلك اللحظة ليستعرض المعاطف الرمادية والجرحى ودخان البارود وقعقعة البنادق وأزيز الرصاص والمجد الذي ينتظره :

- لعلها خيانة ...

- كلا ليست خيانة . ان ذلك سيجعل البلاط في موقف شيء للغاية ...

وتوقف بيليبين وكأنه يبحث عن الكلمة المناسبة وأعقب :

انها « ماكية » . أي على طريق ماك ... وبذلك نستطيع القول اننا قد « تمكوكنا » ...

وشاعت على وجهه امارات السرور لأنه توفق في ايجاد الكلمة الفنية المناسبة : « تمكوك » . انها كلمة جديدة كل الجدة ، ولسوف يعيدها الناس من بعده ويكررونها .

إحمت التجعدات والغضون التي استنفرها على جبهته دلالة على قناعته ورضاه ، فابتسم ابتسامة خفيفة واستغرق في تأمل أظافره المصقولة .

وفجأه نهض الامير آندره فسأله بيليبين بلهفة :

— الى أين تمضي ؟

— انني عائد !

— الى أين !

— الى الجيش .

— لكنك كنت تريد البقاء هنا يومين آخرين ؟

— صحيح لكنني الآن ذاهب الى الفور .

وبعد ان اعطى الامير التعليمات المتعلقة برحيله ، انسحب الى غرفته . ولم يلبث بيليبين ان دخل عليه . قال له :

— أتدري ما الأمر ياعزيزي ؟ لقد فكرت في امرك . لمَ يحق الشيطان ترحل ؟

وأخفى كل تجاعيد جبهته ليقنعه بأن قوله ذاك لايقبل الجدل . غير ان الامير اكتفى بنظرة استفهامية طافت بوجهه جواباً على كلماته .

اردف بيليبين :

— نعم ، ماهي حاجتك الى الذهاب ؟ انك تقدر ولاشك ان واجبك

يدعوك الى مكانك في صفوف الجيش ، خصوصاً وانه الآن في خطر . انني أفهم ذلك ياعزيزي ، انه من صميم البطولة .

فأجاب الامير آندريه :

– أبداً . لاشأن للبطولة في الموضوع .

بلى . غير انك فيلسوف كذلك . فكن اذن فيلسوفاً كما يجب تصور الامور وعانيها من زاوية اخرى . وسترى ان واجبك يقضي عليك بالبقاء وبعدم تعريض نفسك للخطر على عكس ماترى الآن . دع التعرض للخطر لاولئك الذين لايصلحون لشيء ... لم تؤمر بالعودة ولم يُسمح لك هذا بالانسحاب . فيمكنك اذن البقاء معنا ومرافقتنا الى حيث يقودنا مصيرنا السعيد. يبدو أننا سننسحب الى اولموتز . انها مدينة جميلة جداً سنسافر اليها معاً وبراحه تامة في عربتي .

– كف عن المزاح يابيليبين .

– بل انني احدثك كصديق شديد الاخلاص . فكر في الأمر لمَ يا ترى تفضل الذهاب في حين أن باستطاعتك البقاء هنا ؟

واسترسل بعد أن استجمع غضونه على جبهته :

هناك أمران سيستحق أحدهما : اما ان يوقع صلح عاجل قبل ان تلحق بقطعتك واما أنك ستشهد انسحاق الجيش كله .

واقتنع على مايبدو بأن نظريته لاتقبل الرد ، فانبسطت أساريره وزال الغضون عن جبينه .

أجاب الأمير آندريه بترود :

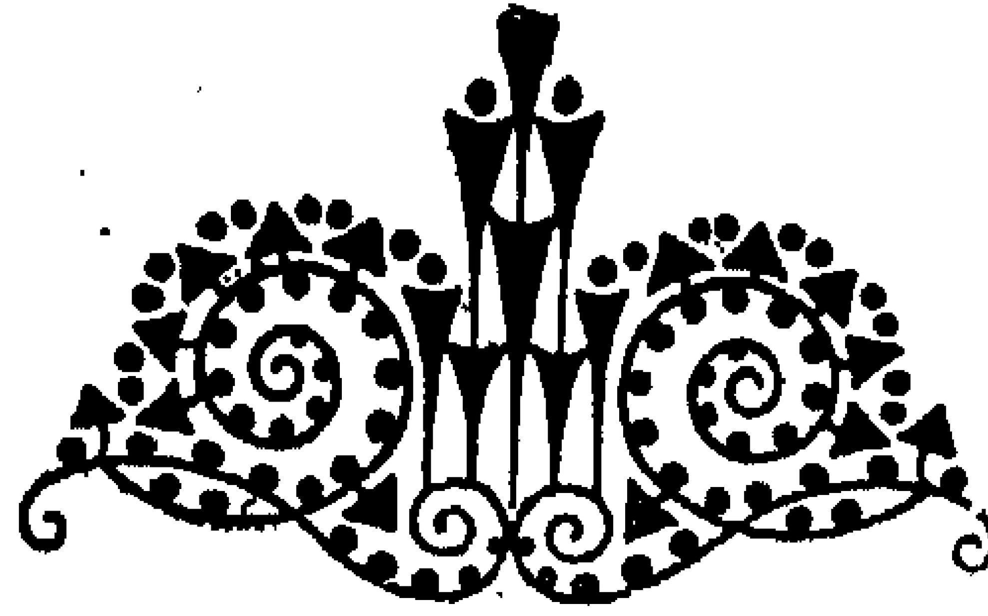
– ليس لي أن أحكم على هذا الموضوع .

بينما كان يحدث نفسه قائلاً !

– انني اذا كنت أذهب فان غايتي هي انقاذ الجيش !

قال بيليبين مجيباً :

– إنك بطل ياعزيزي .



الفَصْلُ الثّالِثُ عَشَرْ

(ذهب انكلترا)

في تلك الليلة بالذات ، استأذن بولكونسكي وزير الحربية للالتحاق بجيشه وعاد في طريق الأوبة دون ان يعرف على الضبط المكان الذي سيجد الجيش فيه . وكان أكثر مايخشاه ان يقع ـ دون أن يدري ـ بين يدي الفرنسيين على طريق كريمز . أما في برون ، فقد كان رجال البلاط جميعهم يعدون الحقائب الصغيرة بعد ان ارسلت الامتعة الثقيلة الضخمة في طريقها الى اولموتز . ولما اجتاز اتزلسدورف ، سلك الطريق التي كانت الوحدات الروسية تسلكه في انسحابها السريع وهي على حال من الفوضى والبلبال . كانت العربات الضخمة تسد الطريق على رحبه ، وتمنع مرور أية فصيلة منظمة فاضطر الامير المنهوك الجائع الى طلب حصان من أحد الضباط القوقازيين ، فلبي هذا طلبه وأرفقه بتابع . ومضى الأمير متجاوزاً خط العربات ، يبحث عن الجنرال القائد الأعلى وعن عربته . وكان الضجيج والصخب يصمان الآذان خلال الطريق تؤيدهما تلك الوحدات المتفككة المشتته المنسحبة .

تذكر في تلك اللحظة مقطعاً عن خطاب بونابرت الذي وجهه الى جنوده في بداية تلك الحرب ، وراحت الكلمات تتراقص أمام عينيه : « ان هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب انجلترا من أقاصي المعمورة ، يجب أن نمنيه بمثل مامنيت به جيوش أولم . » وكانت تلك الجملة - رغم مافيها من تجريح لكرامته واهانة لكبريائه - توقظ في نفسه شعوراً بالاعجاب بذلك الرجل العبقري الذي قالها ، فراح يفكر : ولو لم يبق الا الموت ؟ حسناً ، سأعرف كيف أموت كالآخرين اذا دعت الضرورة ذلك !

راح الأمير ينظر باشمئزاز الى تلك القطعات مختلة النظام متداخلة الافراد والوحدات ، والى العربات المبعثرة هنا وهناك وقطع المدفعيه التي تسد منافذ الطريق الزراعية ، ويتأمل ذلك الرتل الطويل عن عربات النقل التي كانت تسير في اتجاه واحد وبصفوف متراصة انتظمت في كل ثلاثة منها أو اربعة ، فكانت تشتبك وتتسابق وتصطدم بعضها ببعض وتغوص عجلاتها في الاوحال . كانت الاذن لاتلتقط في غمار تلك الفوضى الا صرخات وصخب ينبعثان من كل مكان : من الامام ومن الخلف ، يمتزج بهما صرير العجلات وارتجاج الاعتدة المحملة ووقع حوافر الجياد المضطرب وفرقعة السياط في الهواء . وكان هذا المزيج العجيب من الضجيج يختلط بسباب الجنود والضباط وصيحاتهم وتذمرهم وصراخهم ، بين مستنهض للهمم وناقم على سير الامور . وعلى جانبي الطريق ، كانت العين لاتنفك تقع على افراس نافقة بعضها سلخت جلودها ، وعلى عربات محطمة جلس بالقرب منها كل من كان من قبل راكباً متنها ، ينتظرون بفارغ صبر ان يحصلوا على وسيلة نقل جديدة . وكان هؤلاء المتخلفون خليط من جنود تأخروا عن اللحاق بصفوفهم ومغامرين جاؤوا يحومون بغية الافادة الافادة من مخلفات الجيوش المنسحبة ، فكانوا يداهمون القرى القريبة

فيسلبون منها الدجاج والخراف والعلف وكثير من المسلوبات والمؤن . وكان الازدحام يزداد اشتداداً في كل مرتفع من الطريق او منحن حتى ان الناظر الى ذلك الحشد الهائل يخال ان الارض كلها قد انبتت جنداً أو ان يوم الحشر قد ازف وكان الجنود غارقين في الوحول حتى ركبهم يحاولون بشق الانفس زحزحة عربة غائصة العجلات او نقل قطعة من المدفعية الثقيلة . وكلما تكرر هذا المشهد تكرر قرع السياط وصهيل الخيول المنهوكة ، وتـــدفق سيل السباب والشتائم ممزوجاً بالاوامر والارشادات من جديد . وينجلي المشهد عن عـدد آخر من العربات المحطمة المهشمة وعـديد من الخيول النافقة . وكان الضباط المكلفون بحفظ النظام اثناء هذا الانسحاب الصاخب ، يروحون ويغدون على خيولهم ، فيخترقون صفوف العربات الصغيره والكبيرة ، يوزعون اوامرهم ويزعقون ، فتضيع اصواتهم وسط هـــذا الهدير المخيف من اصوات الانسان والحيوان ، فتبدو على وجوههم المنقلبة المكفهرة خيبة الأمل المريرة في ايقاف هذه الفوضى او الحد منها .

كان بولكونسكي ينظر الى كل هذا الخليط . فتعاوده كلمة بيليبين حينما تحدث عن الجيش الروسي بقوله : الجيش الاورثوذوكسي العزيز . قال يخاطب نفسه : « هذا هو اذن الجيش الروسي العزيز ! »

كان يأمل في تسقط بعض الانباء التي تمكنه من تحديد مكان القيادة العامة . لذلك اقترب من احدى القوافـــل معتزماً الاستفسار من قائدها . وفي تلك اللحظة ، لمح عربة غريبة الشكل يقطرها جواد واحد ، تتقدم في الاتجاه العام . كان يبدو على العربة أنها صنعت محلياً بأيدي الجنود ، فكانت خليطاً غريباً من عربة النقل وعربات الركوب الخاصة . رآى الامير جندياً آخذاً بمقاود الحصان يوجهه ، وقد جلست في داخل العربة سيدة ملتفة بالشيلان ، تحملها صدارة من

الجلد ، قابعة منطوية على نفسها . كاد الامير ان يتوجه بالسؤال الى الجندي سائق العربة حينما لفت انتباهه الصراخ الحاد الذي كان ينبعث من صدر المرأة . كان ضابط القافلة المتقدمة ، ينهال بالسوط على الجندي الذي يقود العربة لأنه كان يحاول تجاوز قافلته وتخطيها . فاصاب السوط الصدارة الجلدية التي تحمي ثياب المرأة من المطر ، فراحت هـذه تصيح وتزمجر . فلما وقع بصرها على الامير ، ازاحت الحاجز الجلدي وراحت تلوح بذراعيهـــا الناحلين مستلفتة انتباهه وهي تصيح :

ـ هه ، ياسيدي الضابط المساعد ... احملني بحق السماء ... ماذا سيحصل لي ؟ . . . اني زوجة طبيب فيلق القناصة السابع . . . لقد ظللنا في المؤخرة وهم الآن يمنعوننا من المرور .

بينما راح ضابط القافلة الثائر يزعق بالجندي قائلا :

ـ انتح جانباً او امزقك ! اذهب الى الشيطان انت وهذه المتأخرة !

وكررت زوجة الطبيب القا ئد :

ـ احملني ياسيدى الضابط المساعد . ما معنى هذا ؟

فاقترب الامير من الضابط وقال :

دع هذه العربة تمر . الا ترى ان فيها امرأة ؟

فألقى هذا نظرة على الامير ، لكنه لم يتنازل بالرد عليه بل عاد الى الجندي يصيح فيه :

ـ استدر وانصرف والا فأنك ستشعر بما يخترق جسدك !

فأصر الامير وهو يضغط على اسنانه :

ـ قلت لك دعها تمر .

وفجأة استدار الضابط نحوه وصرخ يعميه الغضب :

ـــ وانت ، من أنت حتى تصدر اليّ الأوامر ؟ هه من انت ؟ انني أنا القائد هنا وليس أنت . انصرف عن وجهي او امزقك! .

كان يخاطبه بلهجة المفرد ويضغط على مخارج كلماته مبالغة في الازدراء . وبدا ان العبارة الاخيرة التي تفوه بها راقت له خصوصاً وبعد ان تعالى من ورائها صوت يقول :

ـــ لقد لقي الضابط المساعد ماحطم كبرياءه .

وشعر الامير ان الضابط قد فقد سيطرته على اعصابه وبالتالي على كلماته بسبب الغيظ والغضب الشديدين المستوليين عليه . ولما كان في موقف المدافع عن امرأة ، فقد بات يخشى ان يؤدي به الأمر الى عاقبة تجعله اضحوكة للجنود والضباط ، الامر الذي كان يتحاشاه ويتجنبه . لكن غريزته تفوقت على عقله في الصراع الباطن الذي قام بينهما : فلم يكد الضابط يتم حديثه حتى كان بولكونسكي ينقض عليه مشرعاً سوطه وقد انقلبت سحنته من الغضب . هتف الامير:

ـــ دع ... ها ت .. مر ، هل سمعت !

فندت عن الضابط حركة قنوط وبادر الى اخلاء المكان وهو يزمجر :

ـــ ان كل الفساد وسوء التدبير مبعثه هؤلاء السادة، هؤلاء الغيد الحسان التابعين للأركان العامة !

سارع الامير آندريه بمغادرة المكان دون ان يرفع عينيه الى زوجة الطبيب التي أطلقت عليه اسم منقذها . وبينما كان يستحث جواده لبلوغ القرية التي اجمعت أقوال الجنود على ان الجنرال القائد العام وهيئة أركان حربه يقيمون فيها ، راح يستعرض في ذاكرته بازدراء واحتقار تفاصيل الحادث المخجل الذي وقع له منذ حين .

ولما وصل الى القرية ، ترجل عن ظهر جواده وقصد المنزل الاول سعياً وراء نيل قسط ضئيل من الراحة يكون خلالها قد تناول طعاماً ونسق افكاره

المتزاحمة المضطربة ، تلك الأفكار الأليمة التي كانت تمر في نفسه . كان يفكر في سره : « ان ما رأيته ليس جيشاً بل عصابة من قطاع الطريق والسفاكين » ! وقبل ان يبلغ باب المنزل الذي يقصد اليه ، سمع صوتاً مألوفاً يناديه . التفت مستطلعاً ، فاذا بعينيه تقعان على نسفيتسكي الجميل واقفاً في فراغ نافذة صغيرة يمضغ شيئاً في فمه الرطب . كان يهتف به ويداه لا تنفكان عن التلويح والتأشير :

- بولكونسكي ، بولكونسكي ، هل أنت أصم ؟ تعال الى هنا !

قصد الامير اليه فوجده مع زميل له من الضباط المساعدين يتناولان طعامهما . ابتدره كلاهما قبل كل شيء مستفسرين عما وراءه من أخبار ، وكانت علائم القلق والترقب مرتسمة بوضوح فوق وجهيهما . بل ان وجه نيسفيتسكي الضاحك عادة ، كان دليلا جازماً في تلك اللحظة على مدى القلق الذي ينهش فؤاد صاحبه .

سأل بولكونسكي :

أين الجنرال القائد الاعلى ؟

فأجابه الضابط المساعد :

- هنا ، في البيت .

وسأله نيسفيتسكي بلهفة :

- واخيرا ، هل حقيقة اننا الآن في سبيل الاستسلام وعقد الصلح ؟

انني اسألك انت ايضاح ذلك لأنني لا اعرف عن الامر شيئاً باستثناء المشاق والمتاعب التي لا تحصى والتي نالتني قبل ان استطيع الوصول الى مكانكم .

فقال نيسفيتسكي :

- ليتك تعرف ماذا يجري هنا ياعزيزي ! انني احرق الارم ياعزيزي ! لقد كنا نهزأ من « ماك » وها نحن في موقف اشد بشاعة من موقفه ! هيا اجلس واشترك معنا في الأكل !

وقال الضابط المساعد الآخر :

ـ انك الآن ياأمير لن تجد هنا شيئاً حتى ولا مركبة أو أي شيء آخر . أما « بيوتر » فان الله وحده يعرف أين مضي .

ـ لكن أين مقر القيادة العامة ؟

ـ اننا في زنائيم .

وأردف نيسفيتسكي :

ـ أما انا ، فقد حزمت كل امتعتي على ظهر جوادين . لقد صنعوا من أجلي برادع ممتازة ساعدت على تحميل تلك الامتعة على ظهور الجياد . وبذلك استطيع الفرار عند الاقتضاء عبر جبال بوهيميا . آه ياعزيزي ، ان الموقف ليس مشجعاً ... لكن مابك ترتعد وكأنك مريض ؟

نطق نيسفيتسكي بملاحظته الأخير حينما رآى الامير ينتفض فجأة وكأن زجاجة من محلول « اليود » قد سكبت فجأة على جرح غائر عميق في جسده . فأجاب بولكونسكي :

ـ كلا ، لست مريضاً .

عادت الى ذاكرته صور مزعجة تمثل زوجة القائد الطبيب ولقائه معها واشتباكه مع ضابط القافلة .

وفجأة سأل :

ـ ماذا يعمل القائد العام هنا ؟

فأجاب نيسفيتسكي :

ـ لا أدري عن أمره شيئاً .

فانبرى الامير آندريه يقول :

ـ اما أنا ، فانني افهم فقط ان كل هذا يثير اشمئزازي واحتقاري .

ونهض من مكانه متجهاً نحو جناح الجنرال القائد الاعلى . وقعت ابصاره وهو في طريقه على عربة كوتوزوف ، وخيول الضباط المساعدين التي اضناها التعب ، ومر بجماعة من القوزاق المرافقين للجنرال وهم يثرثرون . كان كوتوزوف في تلك الاثناء يتشاور في مقره مع الامير باجراسيون والجنرال النمساوي ويروذر الذي جاء يحل محل زميله القتيل شميدت . وفي الردهة ، شاهد الامير آندريه ، كوزلوفسكي الصغير وأمامه أحد ضباط الاعاشة جالساً على نصف برميل مقلوب رافعاً اطرافه ثوبه العسكري ، يكتب بسرعة مايمليه عليه وكانت تقاسيم وجه كوزلوفسكي المتقلصة تدل بوضوح على انه لم ينعم بالنوم منذ وقت طويل . ولما وقع بصره على الامير ، حياه بنظرة ساهمة دون ان يرفقها بحركة ما من رأسه وعاد يملي من جديد .

- ماذا جاء في السطر الثاني ؟ ... قطعة كييف المهاجمة وقطعة بودولي ..

- عفواً ياصاحب السمو ، لااستطيع متابعتك اذا ظللت تملي بمثل هذه السرعة .

كان ضابط الاعاشة يغمغم بهذه الجملة بلهجة منقبضة وهو يرفع عينيه الى رئيسه .

وفي تلك اللحظة ، ارتفع صوت كوتوزوف الغاضب من وراء الباب المغلق يقاطعه صوت مجهول . كانت لهجة تلك الاصوات التي ما كان كوزلوفسكي يعبأ بها وجواب ضابط الاعاشة الخائر الذي يدل على شدة تعبه وانهاكه ، ومظهر كوزلوفسكي الجالس على الارض مع ضابط الاعاشة حول نصف برميل مقلوب على بعد خطوات معدودة من الجنرال القائد الاعلى ، بالاضافة الى اصوات القوقازيين الذين كانوا يضحكون صاخبين تحت النافذة التي كان كوزلوفسكي يجلس بالقرب منها ، كل هذا اثار اشمئزاز بولكونسكي وامتعاضه وجعله يترقب احداثا مثيرة . لذلك فقد راح يمطر كوزلوفسكي بالأسئلة . فقاطعه هذا بقوله :

- لحظة واحدة يأمير . . . . . واسترسل في املائه : . . . . موجودات الامير باجراسيون . . .

ولكن ماذا عن الاستسلام ؟

ـــ لااستسلام هناك ، لقد اعطيت الأوامر باستئناف القتال .

تقدم بولكونسكي من الباب الذي تعالت الاصوات وراءه . غير ان هذه سكنت فجأة وفتح الباب ، وبدا على عتبته كوتوزوف بانفه الاقنى الذي كان يشطر وجهه الممتلىء الى شطرين . وجد الامير نفسه وجهاً لوجه مع القائد العام . غير ان تعابير عين الجنرال القائد الاعلى الوحيدة التي لم تصب بأذى بعد كانت تدل على ان خطورة الحالة وأهوالها والتطورات المزعجة التي كانت تتلاحق في تلك الساعة قد أظلمت نظرة القائد الاعلى وخففت من قوة ابصاره . لقد نظر الى مرافقه الخاص نظرة صريحة دون ان يبدو عليه انه عرفه .

سأل كوزلوفسكي قائلاً :

ـــ حسناً ، هل انتهى ؟

ـــ لحظة واحدة ياصاحب المقام الرفيع .

لم يلبث ان ظهر وراء الجنرال القائد الأعلى ، رجل ذو وجه جامد قاس ، قصير القامة اعجف العود ، لم يزل في سن الشباب ، له شخصية تحمل طابعاً شرقياً . ذلك هو الأمير باجراسيون .

ولم يشأ الأمير آندريه الوقوف جامداً ازاء نظرة القائد الاعلى المتجاهلة فقال بصوت مرتفع وهو يمد يده اليه حاملة غلافاً :

ـــ لي الشرف بأن اقدم نفسي .

ـــ آه ، هل عدت من فيينا ؟ حسناً ، ساراك فيما بعد ، فيما بعد .

وخرج القائد الاعلى يصحبه باجراسيون . قال له يودعه :

ـ وداعاً يا أمير ،وداعاً وليحفظك الله . سوف تقوم بمهمة شاقـــة فتقبل تباريكي .

وتمددت قسمات وجه كوتوزوف فجأة وتلألأت عبرات في عينيه . فجذب بيسراه الأمير باجراسيون اليه بينما راح يرسم بيمناه ـالذي يزينها خاتم ثمين ـ، اشارة الصليب على جسد الأمير . كان يبدو أن تلك المهمة مألوفة لديه . ولما فرغ ، قدم خده المنتفخ لباجراسيون ليقبله . لكن هذا قبله في عنقه .

كرر كوتوزوف قوله وهو يسعى الى عربته :

ـ ليحفظك الله !

ثم استدار نحو بولكونسكي وقال له :

ـ اصعد معي .

ـ ياصاحب السعادة ، وددت لو استطعت القيام بعمل نافع هنا ! اسمحوا لي بالبقاء في معسكر الامير باجراسيون .

فكرر كوتوزوف القول :

ـ اصعد !

ولما رأى أن بولكونسكي لازال متردداً أردف يقول :

ـ انني انا الآخر في حاجة الى ضباط ممتازين ، نعم انا أيضاً في مثل حاجته.

واحتوتهما العربة التي راحت تدرج بهما فترة طويلة دون أن يتبادلا كلمة واحدة . واخيراً قال كوتوزوف :

ـ ان امامنا الكثير مما يجب انجازه ، نعم الكثير .

كانت لهجته تدل على انه بثاقب نظره قد خمن مايعتلج في نفس بولكونسكي. واردف بعد برهة وكأنه يحدث نفسه :

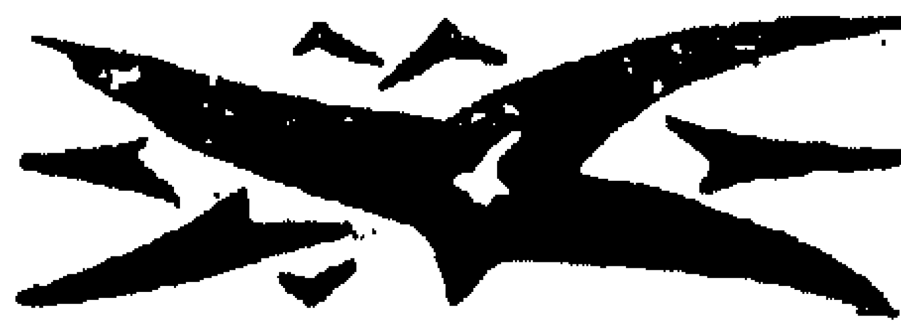
ـ اذا أعاد غداً عُشر فيلقه سالماً اكون لله من الشاكرين .

وبينما كان بولكونسكي يرفع عينيه الى وجه رئيسه مستفهماً ، استلفت نظره محجر عين الجنرال الفارغ وآثار الجرح الغائر العميق التي احدثته الرصاصة التي اخترقت رأسه في معركة اسماعيل ، والتي كان الجنرال يعني بنظافتها ومداراتها ، فلم يتمالك ان قال في سره : « لاشك أن من حقه ان يتحدث بمثل هذا الهدوء عن اولئك الذين قُضي عليهم بالموت ! »

واعقب بصوت مرتفع :

ـ ومن اجل هذا بالذات ياصاحب السعادة ارجوكم ان توسلوني الى هناك .

لم يجب كوتوزوف . كان غارقاً في خواطره وتفكيره وكأنه نسي جملته الأخيرة وآثارها في نفس مرافقه ، فترك نفسه مسترخياً تؤرجحه اهتزازات العربة وهي تدرج في الطريق المليء بالأخاديد . ولما استدار نحو بولكونسكي ، وكان قد مضى على استغراقه خمس دقائق ، لم يكن بادياً على وجهه ظل من الاضطراب او التحنان . وبدأ يستجوبه بلهجة ضمنها سخريه رقيقة ، ويسأله عن تفاصيل مقابلته مع الامبراطور ، وما دار في البلاط حول مسألة كريمس . ولم يفته أن يستفسره عن عدد من السيدات ممن كانت تربطه بهن أواصر معرفة .



الفصل الرابع عشر

« جسر فيينا »

في اليوم الاول من تشرين الثاني ، حمل احد الرسل الى كوتوزوف خبراً على جانب كبير من الخطورة . لقد أكد الرسول ان الجيش بات في حالة شديدة اليأس لا أمل في انقاذه منها . والواقع ان الخبر كان صحيحاً اذ ان الفرنسيين كانوا قد اجتازوا جسر فيينا بقوات ضخمة وباتوا يهددون بقطع خط اتصال كوتوزوف بالقطعات الآتية من روسيا. فاذا ظل في كريمس ، فان رجال نابوليون المائة وخمسين الفاً، قادرون على قطع كافة خطوط مواصلاته والاحاطة بوجاله الاربعين الفاً احاطة مطبقة خصوصاً وان اولئك الرجال كانوا في حالة من الانهاك والتعب يتعذر عليهم معها القيام بمحاولات مجدية . واذن ، فان المصير الذي ينتظر كوتوزوف لايختلف عن مصير « ماك » في « أولم » . اما اذا ترك طريق اولموتز وابتعد عنه ، فان معنى ذلك أن يتخلى كذلك عن آخر أمل له في الاتصال بجيوش « بوكزويفدن » وان يتوغل في مسالك مجهولة غير معبدة عبر جبال بوهيميا الوعرة ، ملاقياً مع ذلك عدواً يفوقه عدداً وعُدداً واستعداداً ومعنوية . وكان هناك احتمال ثالث وهو ان يتراجع بجيوشه المنهوكة

المحطمة عن طريق كريمس قاصداً « اولموتز » للتلاقي مع قطعات نشيطة مستريحة قادرة على بعث النشاط في الصفوف . غير ان هـذا المحاولة ايضاً كانت تحتمل خطراً جسيماً . اذ كان يخشى ان يسبقه الفرنسيون على تلك الطريق وان يضطروه على الدخول في معركة غير متكافئة ، لانهم سيكونون على تمام الاهبّة لها بينما تكون جيوشه في حالة الانسحاب والمسير ، ينوء الرجال تحت اعباء مـا يحملونه وينقلونه ، ويكونون محاطين باعداء من كل الجهات يفوقونهم عدداً وعُدة ويبلغ عددهم ثلاثة اضعاف رجاله أو أكثر .

ولم يكن لكوتوزوف ان يختار . لذلك فقد قرر الأخذ بالمبدأ الأخير .

كان تقرير الرسول المخبر ـ اذا صدق في تقريره ـ ينص على ان الفرنسيين يحثون خطاهم في سير سريع لبلوغ « زنائيم » ، وهي مـدينة واقعة على خط انسحاب كوتوزوف ، على بعـد اكثر من خمسة وعشرين مرحلة الى الامام فلو استطاع ان يبلغ هذه المدينة بجيوشه قبل ان يصلها الفرنسيون ، أمكنه ان يهيء لرجاله أملاً كبيراً في الخلاص والنجاة . أما اذا سمح للفرنسيين ان يتقدموه، فان معنى ذلك أن جيوشه سيحل بها اذلال وخسران يعادلان ما حل بماك في أولم ان لم يكن فيها معنى الانهيار التام . لقد كان في بلوغ الفرنسيين تلك المدينة قبل جيوش كوتوزوف ،وصمة عار تلحق بشرف الجيش الروسي،وصمة لا يمكن غسلها . غير ان الموقف كله كان في جانب الفرنسيين . لقد كان من المستحيل على كوتوزوف ان يبلغ بكل جيشه مـدينة « زنائيم » قبل الاعداء ، اذ ان الطريق التي كان هؤلاء يسلكونها من فيينا اليها ، كانت أقصر من المرحلة التي عليه اجتيازها ، وكانت الى جانب ذلك احسن تعبيداً وأيسر تمهيداً من طريق الجيش الروسي الذي كان عليه السير في طريق كريمس لبلوغ تلك الغاية .

اصدر كوتوزوف خلال الليل أمراً الى جيش باجراسيون (وهو مقدمة

الجيش الروسي وتعداده اربعة آلاف جندي) ، ان يتقدم بخط مستقيم عن يمينه ميمما شطر طريق كريمس - زنائيم ليبلغ طريق فيينا - زنائيم عبر الجبل . وكان على الامير باجراسيون ان يقطع تلك المسافة على مرحلة واحـدة وان يتوقف باتجاه فيينا وان يحـاول بقدر مايستطيع ايقاف الفرنسيين اذا التقى بهم . اما كوتوزوف فقد اتجـــه مباشرة نحو زنائيم مع المعدات والذخائر والمؤن وبقية الوحدات .

وصل باجراسيون الى « هولابرون » بعد ان قطع عشرة مراحل عبر الجبل في ليلة ممطرة عاصفة ، وفي معيته اربعة الاف رجل انهكهم التعب واضناهم البؤس ، حفاة عراة ، ضاع ثلثهم في الطريق . وكان وصوله الى ذلك المكان على طريق فيينا - زنائيم ، قبل وصول الفرنسيين اليها بساعات معدودة . اما كوتوزوف ، فقد كانت مشيته البطيئة لما ينوء به رجاله من احمال واثقال ، تتطلب منه يوماً كاملاً ليبلغ زنائيم . ولم يكن ذلك خافياً على باجراسيون . لقد كان يعرف أن عليه ان يوقف الجيش العدو بكامله طيلة اربع وعشرين ساعـة بتلك الشرذمة القليلة من الرجال المنهوكين المحطمين . وكان يعرف ان ذلك ضرباً من المحال . غير ان القدر الساخر شاء ان يجعل المستحيل ممكناً . ذلك ان الخدعة الحربية التي مكنت القائد الفرنسي مورا من احتلال جسر فيينا دون ان يطلق رصاصة واحدة ، شجعته على اجراء محاولة مـمـــاثلة مع كوتوزوف . فلما قابل قوات باجراسيون الضئيلة على طريق زنائيم ، اعتقد انه ازاء الجيش الروسي بأكمله . فأراد ان يسحقه بضربة واحدة ، الأمر الذي كان متعذراً قبل وصول بقية الجيش الفرنسي الذي كان يصل تباعاً من فيينا . ومن أجل ذلك ، عرض على باجراسيون هـــدنة مدتها ثلاثة أيام شريطة ان تحتفظ قطعات كلا الجانبين بمراكزها الحالية . وادعى ان هناك محادثات حول عقد الصلح تدور في تلك

الاثناء بين الحكومتين ، وان أي اهراق للدماء في تلك المرحلة يعتبر عمـلاً غير حكيم . واقتنع الجنرال النمساوي الكونت نوستيتزالذي كان على رأس الخطوط الأمامية الروسيه بادعاءات مورا وانسحب من فوره كاشفاً بـــذلك جناح باجراسيون . وجاء متحدث آخر يعرض على الجنرال الروسي ذات العرض الذي تقدم به مورا للقائد النمساوي .غير ان باجراسيون أكر انه لايملك صلاحيات البحث في هذا الأمر ،وان عليه الرجوع الى رأي الجنرال القائد الاعلى . واشفع قوله بالعمل ، اذ بادر لفوره الى ارسال احد مساعـديه من الضباط الى مركز القيادة العليا حاملاً معه العرض الفرنسي .

كانت الهدنة بالنسبه الي كوتوزوف هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من اكتساب الوقت الكافي واعطاء فترة استراحة لوحدات باجراسيون المنهوكة القوى . وكانت كذلك تساعده على اجراء نقل المهمات وما اليها وابعادهامرحلة اخرى خصوصاً وان الفرنسيين كانوا يجهلون كل شيء عن هـــذه التحركات . خلاصة القول : ان ذلك العرض الغريب جاء يحمل لكوتوزف املاً ضخماً في تحسين اوضاعه ومراكز رجاله وانقاذ الجيش الروسي من الفناء. لذلك فقد ارسل كوتوزوف الى معسكر الأعداء مساعده العام ـ وينتزنجيرود ـ وكلفه الى جـانب تقلبه عروض الهدنة المؤقتة ، بمناقشة شروط الانسحاب الروسي والاستسلام . وفي نفس الوقت ارسل ضباطاً مساعدين آخرين الى الخطوط الخلفية ليعملوا على حث الوحدات المكلفة بنقل المهمات على الاسراع بنقلها في اتجاه زنائيم بما أمكن من سرعة . وكان على جيش باجراسيون المحطم المنهوك ان يبقى في مكانه رغم مانال من وصب وانهاك ليخفى عن أعين الاعداء الذين يفوقونه بالعدد والعُدد تفوقاً ساحقاً حركة نقل مهمات جيش كوتوزوف وقطعاته الاخرى . وبعبارة اخرى ، كان على باجراسون ان يصمد باربعة

الاف رجل أمام ثمانية اضعاف هذا العدد من الاعداء في سبيل انقاذ الاجزاء الكبرى من جيش كوتوزوف .

وقع ماحدسه كوتوزوف . فقد امكن للعرض الذي تقدم به للجانب الفرنسي ببحث شروط الاستسلام ، ذلك العرض الذي لم يكن يربط كوتوزوف بأية التزامات ، ان يشغل الانظار فترة مكنته من نقل المهمات الحربية ، او على الاقل جانب منها ، الى حيث يجب ان تكون . غير ان خطيئة مورا تجلت لعيني نابوليون بونابرت . كان بونابرت في تلك الاثناء معسكراً في شونبرن على مبعدة ست مراحـــل من هولا"برون . فلما تلقى تقرير مرؤوسه مرفقاً بمشروع الهدنة ، ادرك الخدعة الكامنة وراء ذلك وكتب للقائد مورا الرسالة التالية :

الى الأمير مورا

شونبرن ، في ٢٥ برومير عام ١٨٠٥ الساعة الثامنة صباحاً .

يستحيل عليّ ايجاد العبارات الملائمة لأظهر لك شدة استيائي . انك لاتأمر الا قطعاتي الأمامية وليس من صلاحياتك ان تعقد أية هدنة دون امري . انك بذلك تفوت علي ثمرة حرب بأكملها ، فاخرق الهدنة على الفور وسر على العدو . اعلن لهم ان الجنرال الذي سيوقع على شروط الانسحاب لايحق له اتخاذ هذه الخطوة وان امبراطور روسيا هو وحده صاحب هذا الحق .

مع ذلك فان امبرطور روسيا اذا وافق على مثل هذا التصرف فانني بالمثل ساوافق عليه . غير ان المسألة لاتتعدى حدود الخدعة . فسر الى الامام وحطم الجيش الروسي ... انك في موقف يمكنك من الاستيلاء على مهماته ومدفعيته .

ان المساعد العسكري للامبراطور الروسي ليس الا . . . . فالضباط لاوزن لهم عندما لايملكون صلاحيات معترف بها ، وليس مع هذا أية صلاحية . .

لقد انطلت الخدعة على النمساويين عندما سهلوا لك عبور جسر فيينا وها انك تخدع الآن من قبل احد مساعدي الامبراطور !

نابليون .

وبينما كان احد ضباط بونابرت المساعدين يحمل هذه الرسالة الرهيبة الى مورا طائراً على جواده ، كان بونابرت ،الذي كان في طبعه عدم الركون الى جنرالاته، يتقدم مع كامل فرقته الى موقع العمليات العسكرية كيلا يتيح لضحيته فرصة الافلات من الافناء الكامل الذي يدخره لها . اما رجال باجراسيون الاربعة الآف ، فقد كانوا في تلك الاثناء يوقدون النيران ويجففون ثيابهم بهدوء ودعة على لهيبها المتصاعد . لقد أتيح لهم للمرة الاولى منذ ايام ثلاث ان يصنعوا لانفسهم حساء ساخناً . ولم يكن احد من هؤلاء الرجال المساكين يشك ابداً فيما يخبئه له القدر .

* * *

الفصل الخامس عشر

تقدم بولكونسكي

وصل الامير اندريه الى جرانت حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر بعد ان وافق القائد الاعلى كرتوزوف على ارساله للحاق بجيش باجراسيون بعد الحاح شديد ، وقدم نفسه لهذا الأخير . وكان الضابط المساعد الذي اوفده بونابرت برسالته السالفة الى مورا لم يصل بعد والمعركة لم تدر رحاها بين الفريقين . اما الحالة العامة فلم يكن أحد يعرف عنها شيئاً ، اذ بينما كان بعضهم يتكلم عن الصلح دون ان يؤمن به كان البعض الآخر يتحدث عن المعركة دون ان يصدق ايضاً بوقوعها أو جدواها . ولما كان باجراسيون يعرف مكانة بولكونسكي عند كوتوزوف ، فقد استقبله بحفاوة بالغة وترحاب خاص لم يخل من بعض التحفظ ، اعلمه بأن ساعة المعركة باتت قريبة وترك له ملء الحرية في ان يشهدها الى جانبه او ان يشرف على انسحاب المؤخرة وهي مهمة تعادل في خطورتها المهمة الاولى . واردف قائلا وكأنه يطمئن الامير آندرة :

— وعلى كل حال ، لااعتقد ان قتالا ماسينشب اليوم .

بينما راح يحدث نفسه بقوله :

ـ « اذا كان هذا الضابط من أذناب القيادة العامة الذين يسعون الى نيل وسام ، فانه على ايه حال سينال مايريد في المؤخرة . اما اذا اراد على العكس ان يبقى معي ، فله ان يبقى لأن ضابطاً شجاعا مثله لابدوان يفيد في شيء .. » .

لم يجب الأمير آندريه على تعليق باجراسيون بل طلب الأذن منه في ان يتحرى وضع الجنود وان يقوم بجولة تفتيشية على جواده . لقد كان يريد معرفة كافة الاوضاع وتفاصيل المواقع التي يحتلها الجنود الروسيون ليكون على بينة من الاتجاه الذي يجب عليه سلوكه عندما يستدعيه الموقف القيام بواجبه في المستقبل . وتقدم ضابط مرافق ليسير في صحبته . كان هذا شاب جميل الطلعة انيق الهندام يحلي سبابته بماسة كبيرة يتحدث اللغة الفرنسية بركاكة وتقليد رديء .

رآى في كل مكان ضباطا ساهمين غارقين في تخيلاتهم بوجوه حزينة قلقة ، يبدو عليهم انهم يفتشون عن شيء ما ، وجنوداً عائدين من القرية حاملـــين ابوابا ومقاعد وحواجز .

قال الضباط المرافق وهو يشير الى اولئك الجنود :

. انظر الى مايفعله هؤلاء الرجال ايها الامير . من المستحيل ان نتخلص من مثل هذه التصرفات ! ان الرؤساء يتركون لهم الحبل على الغارب .

ثم اردف مشيراً الى خيمة أقامها احد الخمارين :

ـ انظر الى حيث يصرفون جل اوقاتهم . لقد عنيت دائماً بطردهم من هذا المكان . غير انني واثق الآن ان الخيمة تعج بهم لنقترب أيها الامير ولنعمل على اخافتهم . ان الامر لن يستغرق اكثر من دقيقة صغيرة .

فقال بولكونسكي الذي لم يكن قد اتيح له من الوقت ماسمح له بشراء بعض المؤن وتناول الطعام :

ـ ليكن ، وسأنتهز الفرصة لشراء بعض الخبز والجبن .

لمَ تقل لي ذلك ايها الامير من قبل ؟لو انني عرفت انك لم تتناول طعامك بعد لاصطحبتك الى خيمتي قبل ان نقوم بهذه الجولة .

ترجل كلاهما ودخلا الخيمة فوجدا فيها عدداً من الضباط جالسين الى موائد مبعثرة في المكان ووجوههم محمرة ومهزولة .

قال الضابط المرافق بلهجة الرجل الذي تعب من كثرة تكرار امر بعينه دون جدوى :

ـ ما هذا ايها السادة ؟ كيف يحق لكم ترك مراكزكم وقد اصدر الامير ـ ويقصد باجراسيون ـ أمراً بحظر وجودكم هنا ؟ وانت يا كابتين توشين ، الا تخجل من تصرفك ؟

كان الكابتين توشين احد ضباط المدفعية ، وكان قصير القامة هزيل العود يرتدي ثوبا عسكرياوسخاً . وكان في تلك اللحظة حافي القدمين الا من جواربه لأنه اعطى حذاءه قبل دخولها الى الخمار ليجففه له . لذلك فقد نهض مرتبكا دون ان يند عنه حرف واحد .

اردف الضابط المرافق :

نعم كيف لاتخجل من تصرفك ؟ انك ضابط مدفعية وكان عليك ان تعطي الباقين امثولة طيبة . هذا عدا عن انك حافي القدمين ! (وهنا ابتسم ضابط المدفعية ابتسامة تائهة) .

واضاف وقد اتخذ صوته مسمة الامر :

ـ تفضلوا ايها السادة بالعودة الى مراكزكم جميعاً دون استثناء .

ظل الضابط توشين صامتاً والابتسامة منطبقة على شفتيه وراح يقفز تارة على ساقه اليمنى واخرى على الساق اليسرى وعيناه تتفحصان تاره الضابط

المرافق وطوراً الامير بولكونسكي . كانت عيناه كبيرتين طافحتين باذكاء وتوقد الذهن ، فلم يتمالك الامير ورفيقه من الابتسام . واخيراً غمغم الكابتين توشـــين :

ــ يقول الجنود ان حافي القدمين يستطيع ان يقفز أحسن من غيره !

كان الضابط المرتبك يعتقد ان مثل تلك الدعاية خير ما يلجأ اليه للتخلص من ذلك الموقف الحرج . غير أنه ما كاد ينتهي من جملته تلك حتى ادرك انه لم يكن موفقا في مزاجه لذلك فقد تضاعف ارتباكه .

كرر الضابط المرافق جاهداً ان يتخذ صوته لهجة جدية :

ــ تفضلو بالعودة الى مراكزكم .

ظل بولكونسكي يتابع الضابط توشين بنظرته . كان مظهره لايدل على شيء من وقار الجندي بل انه يستطيع القول ان في تصرفاته وحركاته شيئا مضحكا غير انه كان بنفس الوقت ذا شخصية شديدة الجاذبية .

عاد الضابط المرافق والامير آندريه الى حصانيهما يحتطيان صهوتيهما ويتابعان طريقهما .

بلغا مخرج القريةوهناك راحا يلتقيان في كل لحظة بضباط وجنود من مختلف الاسلحة والقطعات ويتجاوزانهم . شاهدا الى يسارهما أكواما من الطين الاحمر حديثه الصنع ، ورأيا جنوداً كثيرين يسترون اجسامهم بقمصانهم البيضاء فحسب رغم لفحات الريح القارصة ، يقيمون بسرعة فائقة المتاريس الضرورية عسكريا . وكان الناظر الى ذلك المشهد يخيل اليه انه ازاء حشر من النمل الابيض العامل كان عدد كبير من الايدي غير المنظورة تطرح من الخنادق المحفورة الاتربة اللزجة المتراكمة ، اتربة حمراء لاتنفك تلك الايدي الخفية تقـذف بها بانتظام رتيب وعلى دفعات متساوية . اقترب الضابطان من الجنود العاملين وعاينا

تلك الخنادق ثم تابعا طريقهما . وفجأة التقيا بعدد من الجنود كانوا ينحدرون من اعلى مرتفع يتردد الجنود كلهم عليه لازالة ضروراتهم ، فاضطرا الى حث جواديهما اللذين راحا يتسابقان هدباً لينقذا نفسيهما من الرائحة الكريهة المنبعثة في الجو حول ذلك المرتفع .

قال الضابط المرافق وهو يسد أنفه باصابعه كما فعل الأمير :

ـ ان اقذار المعسكرات والنفايات كلها تجمع هنا ياسيدي الأمير .

ولما بلغا المرتفعات التي كانت قبالتها والتي كان يمكن رؤية الفرنسيين من فوقها ، توقف الأمير آندريه وراح يعاين خطوط العدو .

قال مرافقه ودليله وهو يشير الى نقطة مرتفعة تشمخ على التلال المجاور لها :

ـ لدينا هنا « بطارية » من المدفعية . انها تحت امرة ذلك الضابط المضحك الحارحافي القدمين . من هنا ، يمكن للمراقب رؤية كل شيء هيا بنا ايها الأمير .

فقال بولكونسكي محاولاً التخلص من تطفل المرافق :

ـ لك مزيد شكري . لكنني أستطيع الآن العودة منفرداً الى المعسكر ، فلا تبتئس من أجلي .

فعاد الضابط المرافق ادراجه بينما مضي بولكونسكي قدماً الى الأمام .

كان كلما ازداد اقتراباً من خطوط العدو ، كلما ازدادت ملاحظته للترتيب البديع والمعنويات الطيبة التي ينعم بها الجنود الروسيون في الخطوط الأمامية كان صباح ذلك اليوم قد لاحظ على قوافل المهمات والعتاد التي توقفت قرب « زنائيم » على بعد حوالي ثلاث مراحل من الفرنسيين ، الشيء الكثير من الفوضى والازدحام . وكذلك كان الحال في جرانت ، حيث كان المراقب لايحس الا بالقلق والكآبة . أما هنا ، فان الأمر كان على النقيض من ذلك . فقد كانت الثقة والاعتداد بالنفس يشعان من وجوه الرجال رغم انهم كانوا على

قيد خطوتين من العدو . كان احد الضباط برتبة رئيس ، يرافقه احد الرتباء يقوم باحصاء جنوده الذين كانوا في ألبسة الميدان منتظمين صفاً منسقاً أمامه . فلما وصل الى نهاية احدى الفصائل ، ضغط باصبعه على صدر الرجل الأخير منها طالباً اليه ان يرفع ذراعه . وهنا وهناك ، كان مئـــات من الجنود ينقلون الاخشاب والحشائش الطفيلية ليبنون بها اكواخاً لهم ، وهم يضجون بالضحك والانشراح ويتبادلون الدعابات والطرف . ومئات اخرى ملتفون حـول نار موقدة ، بعضهم نازعاً ثيابه يجففها والبعض الآخر في كامل هندامه العسكري الا من جواربهم أو احذيتهم التي كانوا يرتقونها أو يخسفونها ، ويلتفون حول حلل الطعـــام والطهاة من حولها . وفي كتيبة اخرى ، كان الطعام جاهزاً والجنود يعطرون القلل بنظرات نهمة ويرمقون الصحفة التي كان « عريف » الطعام يحمل فيهـا عينة من الحساء ليتذوقها رئيس الكتيبة قبل توزيعها على الجنود . فكانت عيونهم تتابع الصحفة وحاملها حتى بلغ الى حيث كان الرئيس جالساً على جذع شجرة أمام كوخـــه . وفي كتيبة اخرى أحسن حالاً من غيرها ـ لان كل الفرق لم تكن لتتساوى في توزيع الكحول عليها ـ كان الجنود يحاصرون احد صف الضباط ، وكان عريض الكتفين شوه الجدري ادمة وجهه، الذي كان ينحني في كل مرة ليملأ اباريق الجنود خمراً . فكانوا فور استلامهم حصتهم ، يرفعون الاناء الى افواههم ، ويفرغون محتوياته في اجوافهم دفعـة واحدة ، ثم يمضون في طريقهم الى مراكزهم ووجوهم مشرقة منشرحة . وكان بعضهم يتمضمض بالجرعة الأخيرة ثم يمسح شفاهه بطرف كمه . كان يبدو عليه مزيد من اللامبالاة حتى ليخيل للنـــاظر اليهم أنهم جنود في اجازة أو أنهم يعسكرون في أمكنة هادئة من بلادهم لايتوجسون خيفة من شيء ، وليس

على مقربة من العدو وفي امسية يوم ينتظر في اصباح اليوم التالي ان يرقد اكثر من نصفهم على تلك الارض بلا حراك .

كان معسكر رماة كيف مقاماً الى جانب مسكر القناصة ، وكان جنود رماة كيف من الشبان الاقوياء النشيطين ، وكانوا جميعم منصرفين بالمثل الى مهمات سلميه لاعلاقة للحرب بها . رأى الأمير آندريه ، قرب الكوخ الكبير الذي يأوي اليه الزعيم (كولونيل) قائد الفرقة والذي كان يمتاز عن الاكواخ الاخرى بحجمه وارتفاع سقفه ، فصيلة من الرماة وقد تمدد أمامهم رجل عار عن الثياب . كان اثنان من زملائه يمسكان به بينمار اح الباقون ينهاون على ظهره العاري ضرباً بعصي مرنة بايقاع موزون ، كان الجندي التعس يصرخ ملء حنجرته من الألم . بينما كان أحد القواد « ماجور » يذرع الارض في مقدمة الفرقة وهو يردد دون ان يبالي بصرخات الجندي المعاقب :

ـ من العار على الجندي ان يسرق . على الجندي ان يكون نزيهاً نبيلاً باسلا . فاذا سرق رفاقه ، فانه يكون عديم الشرف ، واذن ، فانه يصبح حقيراً محتقراً . تابعوا ، تابعوا ، اضربوا !

وتتابع صفير العصي المرتفعة الهابطة ممزوجة بتأوهات الضحية المصطنعة التي لم تكن لتخلو مع ذلك من شيء من الشراسة .

انفصل ضابط شاب عن موقع الجندي المعاقب وعلى وجهه أيات الاشفاق والارتباك ، ورفع الى الضابط المساعد نظرة متسائلة .

وهل الأمير آندريه الى الخطوط الأمامية وراح يستعرض خط الجبهة كله . لاحظ ان ذلك الخط كان يتباعد تباعداً محسوساً عن العدو في الجناحين الايمن والايسر . أما في الوسط ، في المكان الذي جرت فيه المفاوضات لعقد الهدنة ذلك الصباح ، فقد كان ملامساً لخطوط العدو لدرجة كان يمكن للجنود من

الجانبين ان يروا بعضهم وان يتبادلوا الحديث . وكان هناك ـ قلب الجبهة ـ الى جانب الجنود المكلفين بحماية الخطوط ، عدد كبير من الفضوليين الذين جاؤوا من كلا الجانبين ، يعاينون العدو الغريب الشكل ، ويتأملون ملابسه وتجهيزاته التي لم يكونوا قد رأوا مثلها من قبل .

لم يفلح الضباط منذ ذلك الصباح في صد المتطفلين رغم الاوامر الصريحة التي تحظر عليهم الاقتراب من الخطوط الأمامية . وكان الحراس ينتظرون بفارغ صبر ان يحين موعد استبدالهم . لم يعودوا يأبهون بالفرنسيين ، بل اصبحوا في مراكزهم اشبه الشيء بمن يشرف على عرض منظر نادر ، يبدون الملاحظات على اولئك الوافدين . توقف الأمير آندريه يتأمل الفرنسيين .

قال احد الجنود وهو يشير الى احد الرماة الروس الذي كان في صحبة احد الضباط يناقش احد الرماة الفرنسيين بحرارة :

ـ انظر الى هذا . ان لسانه مديد جداً ، وهذا الفتى ! ان الفرنسي لايستطيع متابعته أو التفوق عليه ! دورك الآن ياسيدوروف .

فأجاب سيدوروف الذي كان يمر قرب الجنود ليتكلم بالفرنسية الصحيحة :

ـ بل دعني استمع . لعمري انه يحسن التخلص مع هذا الفرنسي .

كان الجندي الذي راح الجنديان المازحان يشيران اليه هو دولوخوف لقد جاء مع رئيسه من الجناح الأيسر للجبهة الروسية حيث كانت سريته معسكرة هناك ، لينعم بالحديث مع الفرنسيين . عرفه الأمير آندريه ، فأصاخ السمع محاولاً التقاط مايدور بينهما من حديث .

كان الكابتين ـ رئيس دولوخوف ـ يهيب به ان يستمر في الحديث ، بينما كان ينحني على قدر طاقته كيلا تفوته كلمة واحدة من ذلك النقاش

الذي لم يكن يفهم من اللغة الذي كان يدور بها ، حرفاً واحداً . كان يهتف بدولوخوف :

ـ استمر ، استمر ، ولكن بسرعة ! اسرع في النطق اكثر من هـذا ! ماذا يقول ؟

غير ان دولوخوف كان منصرفاً بكليته الى نقاشه مع الجندي الفرنسي ، فلم يكن عابئاً برئيسه وملاحظاته . كان الحديث يدور في تلك اللحظة حول المعركة والحرب ، وكان ذلك منتظراً . وكان الفرنسي المتحدث ، وهـو الذي كان يخلط بين النمساويين والروسيين ، يزعم ان الجيش الروسي قـد هزم في « اولم » وانـــه استسلم هناك ولا زال يفر ويتراجع . بينما كان دولوخوف يؤكد له عكس ذلك ، ويجزم ان الروس هزموا الفرنسيين وانهم لايفكرون في الاستسلام مطلقاً ، وأردف يقول :

ـ ان لدينا امراً بطردكم من هنا ، ولسوف نطردكم !

فأجاب الفرنسي باستخفاف :

ـ ولكن حاذروا ان لانأسركم جميعاً والقوقازيين معكم « على البيعة » !

وانفجر كل من كان في المعسكر الفرنسي ضاحكا .

ردّ عليه دخولوف قائلاً :

ـ بل اننا سنجعلكم ترقصون كما رقصتم من قبل أمام سوفوروف !

قال احد الفرنسيين متسائلاً :

ـ بماذا يخرف هذا الووسي ؟

فأجابه آخر وقد خمن ان الأمر متعلق بحادثة قديمة سابقة :

ـ بالتاريخ القديم ... ثم التفت الى دولوخوف واردف :

ـ سوف يرى ـ وفارا « ك » هذا وكل الآخرين ماتخبئه له الامبراطور .

هم دولوخوف بمتابعة الحديث فقال :

ــ بونابرت ....

غير ان الفرنسي لم يمهله بل قطع عليه الطريق الاستمرار مغضبا :

ــ ليس هناك بونابرت ، بل الامبراطور .

ــ ليحل الشيطان امبراطوركم !

واعقب بالغة الروسية شتائم قبيحة شائعة على السنة الجنود ، ثم تنكب بندقيته وابتعد .

قال يخاطب رئيسه :

ــ هيا يا إيفان لوكيتش .

وقال الجنود الروس :

ــ هكذا الحديث بالفرنسية والا فلا ! والآن امضي انت ياسيدوروف !

غمز سيدوروف بعينيه ثم راح يتمتم بكلمات مبهمة وهو يخاطب الفرنسيين ، متظاهراً بالالمام بلغتهم :

ــ كاري ، مالا ، تافا ، سافي ، موتي ، كاسكا ، ...

كان صوته ولهجته لايدعان مجالا للسامع الجاهل للشك في أنه ملم باللغة الفرنسية وقواعدها ، وانه يتحدث عن اشياء دقيقة حساسة .

وانفجر الجنود الروس بضحكة بهيجة صريحة بلغ من تأثيرها ان انتقلت الى صفوف الفرنسيين المتجهمين . كان يخيل للناظر الى ذلك المشهد ، ان الجانبين باتا على وشك اطلاق بنادقهم في الهواء وتفجير ذخائرهم استعداداً للعودة الى بلادهم . غير ان البنادق لبثت محشوة ونوافذ اطلاق القذائف ظلت مهيأة معدة ، والخنادق والمتاريس محافظة على مظهرها العدائي المهدد ، والمدافع موجهة من الجانبين الى المعسكرين المتحاربين بعد ان سحبت عن العربات التي تجرها .

الفَصلُ السَّادِسُ عَشَر

« مدفعية توشين »

بعد ان استعرض الأمير آندريه الجناحين الروسيين الأيمن والأيسر ، صعد الى حيث اقيمت المدفعية التي قال الضابط المرافق عنها منذ حين : انها اقيمت في مكان يشرف على ساحة المعركة كلها . فلما بلغ المرتفع الذي نصبت المدافع فوقه ، ترجل عن جواده بالقرب من المدفع الرابع والأخير في ذلك العش الذي كانت مدافعه مهيأة كلها للانطلاق . وكان احد الجنود يقوم بالحراسة هناك فهم بتحية الأمير بسلاحه ، لكن هذا اشار اليه أن يتابع عمله ، فعاد الجندي الى سيره الوتير الممل في مركز حراسته .

كانت العربات التي تحمل عليها تلك المدافع قريبة من المكان ، يليها المزرب الذي تحفظ فيه الخيول ثم مركز المدفعيين . والى اليسار ، قريباً من القطعة الأخيرة ، اقيم كوخ صغير حديث البناء ، كانت اصوات الضباط واحاديثهم ترتفع منه .

كان الضابط المرافق على حق في قوله عندما اكد ان موقع المدفعية يشرف على الساحة كلها ويسيطر عليها : لقد لمس الامير بولكونسكي هذه الحقيقة بنفسه وتأكد من ان المدافع قد نصبت بشكل جعلها تهيمن على كل المواقع الروسية وعلى جانب غير قليل من معسكر الاعداء . كان الى الامام ، على خط افقي ممتد من احد التلال ، يرى قرية شوينجرابن ، والى اليمين والى اليسار منها ، كانت الادخنة المنبعثة من ثلاثة اماكن ، مراكز الضباط الفرنسيين ، مبينة ان جزءاً كبيراً من جيشهم يحتل القرية المذكوره وسفح التل الموازي لها . والى اقصى اليسار ، كان هناك شيء يشبه عشاً للمدفعية ، لم يكن الدخان المتصاعد ليسمح للعين المجردة ان تتأكد من صحة الرؤية . وكان الجناح الروسي الأيمن يحتل مرتفعاً صعب التسلق مسيطراً على المراكز الفرنسية . وكان فرسان الدراجون – وهم فصيلة من فرسان الخطوط الاولى مهمتها الحرب في حالتي الركوب والترجل – ووحدات المشاة تعسكر هناك . اما المنحدر ميسور التسلق ، فقد كان يبدأ من الوسط او على ادق تحديد من حيث قامت وحدة توشين المدفعية ، ويتصل بانحداره بالنهير الذي كان يفصل الروسيين عن قرية شوينجرابن . اما الجناح الروسي الايسر ، فكان يرتكز الى غابة كان المشاة بالقرب منها قد اشعلوا النار ليصطلوها وهم في عملهم المنظم ، يقطعون الأخشاب اللازمة لعمليات المعسكر . كان خط العدو اكثر اتساعاً من الخط الروسي وابعد امتداداً . وكان واضحاً انه قادر على تطويق الجنود الروس بسهولة عندما تحين الساعة . اما في مؤخرة الجيش الروسي ، فقد كان واد عميق صعب المسالك يقف حائلا بينه وبين الأنسحاب المنظم ، وخصوصاً بالنسبة لسلاحي المدفعية والفرسان.

اخرج الامير آندريه دفيتره واتكأ على أحـــد المدافع وراح يرسم

لنفسه مخططاً عن الوضعية العامة ، واضاف بعض الملاحظات بالقلم الرصاص في موضعين من مخططه ، كان يهدف منها الى انارة سبيل الامير باجراسيون عند الحاجـــة . وكانت تلك الملاحظات تنص على ان تجمع كل المدفعية في الوسط وان ترسل وحدات الخيالة الى ماوراء الوادي وراء الخطوط الخلفية . كان بولكونسكي مرافقاً للجنراليسيم بصورة مستمرة ، وكان مكلفاً بتدوين النواحي التاريخية في المعارك . لذلك فقد كان اهتمامه منصباً على التدابير العامة بصورة خاصة وعلى حركات الكتل الكبيرة من الجيوش . ولهذا السبب ، وجد نفسه في مهمته الحالية مهتماً بصورة خاصة بالخطوط الرئيسية للعملية المتعلقة بالمعركة المقبلة ، مغفلا التفاصيل ، مبيناً طارئين او ثلاثة مما يتوقع حدوثه خلال استعار نار المعركة . كان يحدث نفسه بقوله : « اذا هاجم العدو الجناح الايمن فان على رماة كييف وقناصه يودو لي ان يصمدوا في اماكنهم حتى تصلهم الامدادات التي ستؤخذ من الوسط ، وفي هذه الحالة ، يستطيع فرسان الدراجون ان يهاجموا جناحه وان يقذفوا به بعيداً . اما اذا بدأ الهجوم على الوسط فاننا سنركز المدفعية الوسطى على هذا المرتفع وبذلك نغطي انطواء الجناح الايسر ثم ننسحب بتراجع منظم حتى نصل الى الوادي . »

كان خلال هذا الوقت كله ، لاينفك يصغي الى نقاش الضباط في كوخهم دون ان يتفهم شيئاً من احاديثهم كما يقع غالباً لكل من ينصرف بكليته الى امرما دون ان تشاركه فيه كل حواسه العاملة الاخرى . وفجأة ، ارتفع احد الاصوات بشكل جعله ينصت مرغماً الى مايقوله ويرهف حاسة السمع لالتقاط المعاني وتجريدها عن الكلمات . كان ذلك الصوت ذي الايقاع الجميل مألوفاً على مسامع الامير ، وكان يقول :

كلا ياصغيري . لو كان في حدود المستطاع معرفة مايحدث بعد الموت لما

شعر احد منا بالخوف . نعم ، أنه كذلك ياصفيوي .

فارتفع صوت آخر اكثر فتوة من الاول يقاطعه :

ـ سواء اخاف المرء ام لم يخف فان من الواجب ان يمر الانسان بهذه التجربة .

فقال صوت ثالث متفجر بالرجولة ، أجش خش :

ـ ان ذلك لايمنع المرء من الشعور بالخوف ! هيه ! ايها العلماء المتفذلكون يبدو ان علمكم كله ناتج عن انكم تستطيعون ابداً ابتلاع الطعام وشرب قطرات من الماء بعده !

وانفجر صاحب ذلك الصوت الضخم ـ وهو ولاشك من صفوف المشاة في الخطوط الاولى ـ بضحكة مدوية . بينما عاد الصوت الاول يقول :

ـ نعم ، ان ذلك لايمنع المرء من الشعور بالخوف ان المرء يخاف من المجهول . نعم انه لكذلك . لأنه مهما حدثونا عن صعود الروح الى السماء ، فاننا نعلم ان السماء ليس الا ظاهرة خداعة ليس فيها الا الفضاء .

ومن جديد قاطع الصوت الاجش ذلك المتحدث ليقول :

ـ هيا ياتوشين ، ماذا اصابك . ذوقنا طعم العرق الذي عندك .

وتمتم الامير آندريه محدثاً نفسه : « آه ! انه الكابتين الذي كان حافي القدمين عند الجزار ! » تأكد الآن ان الصوت الذي كان مألوفاً على سمعه كان صوت توشين ، فلذ له الاصغاء الى ذلك الصوت اللطيف الذي يملكه ذلك الرئيس الفيلسوف .

قال توشين :

ـ ساقدم لكم عرقا ماشئتم الاغتراف والنهل ؛ ولكن فيما يتعلق بمعرفة الحياة المقبلة ...

لم يتح له الوقت لاتمام جملته . ذلك ان صفيراً عالياً شق الفضاء وراح يقترب ويتضح ويزداد حدة ، ولم تلبث القذيفة تخترق الارض بشدة قرب كوخ الضباط ، وكأنها آسفة على عدم امكانها التحدث بكل ما كانت تعنيه بذلك الصفير المزعج . وارتفعت من اطراف المكان الذي سقطت فيه شظايا واتربة ووحول ، واهتزت الارض لتلك الصدمة القاسية فبدت وكأنها تطلق زمجرة ارتياع .

وكان توشين في تلك اللحظة بالذات ، يضع غليونه القصير في زاوية فمه ، فاندفع خارج الكوخ . كان وجهه المتقد الذكي شاحباً بعض الشيء . اندفع وراءه ذو الصوت الاجش الخش ، وكان ضابط مشاة متين البنيان ، هرع جارياً ليلحق بسريته وهو يزرر معطفه على عجل .



الفَصْلُ السَّابِعُ عَشَرْ

(الامير باجراسيون)

اعتلى الامير آندريه صهوة جواده ووقف به قرب « بطارية » المدفعية . راحت عيونه تتفحص الرقعة الشاسعة المتاحة للنظر محاولا اكتشاف مكان القطعة التي اطلقت تلك القذيفة استناداً الى الدخان الذي تخلفه عادة بعد كل طلقة. رأى القطعات العسكرية الفرنسية التي كانت حتى تلك اللحظة في جمود تام ، تنشط بالحركة ، ورآى كذلك ان هناك عشاً للمدفعية العـــدوة الى يسارهم . كانت سحابة رقيقة من الدخان لاتزال تحاق فوق ذلك المكان . ورآى فرنسيين على صهوة الجياد ، ولاشك انهما من الضباط المساعدين في الاركان ، يتسلقان التل وفي اسفل التل ، قرب السفح ، شاهد فصيلة من الجنود تتحرك صاعدة فقدر انها ولاشك اوفدت لتعزيز الجناح القائم هناك . ولم تكد سحابة الدخان المنبعثة عن القذيفة الاولى تتبدد حتى ارتفعت سحابة ثانية اعقبها دوي عنيف . كانت المعركة قد نشبت ! حول بولكونسكي جواده ومضى مسرعاً في طريق «جرانت» للقاء باجراسيون ، بينما ازدادت المدفعية حـدة من ورائه . كانت الاصوات

الجبارة هي رد المدفعية الروسية على الاعداء ، وفي الاسفل ، في المكان الذي قامت فيه المباحثات الاولى ، جن جنون البنادق من الجانبين .

كان لوماروا قد سلم منذ لحظات كتاب بونابرت الرهيب الى مورا الذي اصيب في كبريائه ، فاراد اصلاح الخطأ الذي تورط فيه . وهكذا اصدر الماريشال مورا أمره الى جنوده بمهاجمة صدر القوات الروسية والقيام بحركة التفاف حول الجناحين . كان يأمل ان يسحق الجيش الروسي الهزيل قبل ان يحل الظلام ويصل الامبراطور الى مكان المعركة .

راح الامير آندريه يحدث نفسه قائلا : « هاهي ذي اذن المعركة المنتظرة ! ولكن في أية لحظة يقدر لي ان اجد « طولوني[1] » ؟ وماذا سيكون نوعها على وجه الدقة ؟

شعر بالدم يتدفق بغزارة في قلبه . ولما مر امام السرايا التي شاهد افرادها قبل ربع ساعة يتناولون طعامهم هانئين ويشربون الفودكا مستبشرين ، رأى الحركة الدائبة السريعة المحمومة عامة في كل مكان ، والجنود يصطفون حسب نظام المعركة ويعاينون بنادقهم . تأكد من ان الاستفزاز الذي تعتلج به نفسه ، يصطخب في كل القلوب من حوله ويبدو واضحاً على الوجوه . كان يبدو على الجنود والضباط على السواء انهم ينطقون بلسان حال موحد قائلين : « ها هي ذي المعركة أخيراً ! انها مخيفة لكنها مع ذلك مسلية ! »

---

(١) طولون مدينة فرنسية على ساحل المتوسط سكانها ١٢٥٧٤١ وهي منطقة بحريـة كان الملكيون قد سلموها للانجليز عام ١٧٩٣ لكن بونابرت استرجعها منهما وطردهم عنها فكانت بداية شهرته العسكرية . ولما كان بولكونسكي يعتقد في نفسه انه سينقذ الجيش الروسي ، لذلك فقد اراد بكلمة « طولوني » القول : – وانا متى تبدأ الموقعة التي ستخلد شهرتي ؟ – المترجم .

وقبل ان يصل الى الاكواخ التي كانت قيد البناء ، شاهد في غسق تلك الامسية من أيام الخريف ، كوكبة من الفرسان تقترب من مكانه . كان في طليعة الفرسان ، فارس متدثر بفروة قوقازية وقلنسوة من جلد الخروف ، يعتلي صهوة جواد أبيض . كان ذلك الفارس الامير باجراسيون ، فتوقف بولكونسكي بانتظار قدومه . عرفه باجراسيون الذي توقف بدوره على مقربة واشار له برأسه ان يقترب وظل يراقب ساحة المعركة وهو يصغي الى تقرير مساعده .

كانت فكرة : «تلك هي اذن المعركة !» مرتسمة بالمثل على وجه باجراسيون البرونزي القاسي ، الذي كانت عيناه المذبذبتان نصف المغمضتين تبدوان وكأن صاحبهما مستغرق في سبات عميق ، اوأنه لما يستيقظ من غفوته بعد . راح الامير آندريه يتفحص بفضول قلق ذلك الوجه الجامد . أخذ يحدث نفسه : « ترى بماذا يفكر هذا الرجل الآن وما هي مشاعره؟ هل هناك شيء وراء هذا الوجه المغلق الجامد ؟ هذا اذا كان صاحب مثل هـــذا الوجه قادراً على التفكير والشعور! »
كان باجراسيون يومىء برأسه بعد كل فقرة من تقرير بولكونسكي ويقول : « حسناً ! حسناً ! » وكأنه كان يعرف من قبل كل مايفوه به مساعده وكل مايجري في ساحة المعركة . وكان بولكونسكي لاهثاً من جريه على حصانه ، فكانت الجمل تخرج من فمه متلاحقة متعاقبة اما باجراسيون فعلى العكس . لقد كان يلقي كل كلمة من كلمات بتمهل وبطء شديدين ، بتلك اللهجة الشرقية المعروفة لديه ، وكأنه كان يقول ان لا حاجة الى الاسراع والعجلة . مع ذلك فقد ترك جواده ينهب الارض هدباً ليصـــل الى حيث يقوم توشين بمدفعيته ، فالتحق بولكونسكي باعضاء معيته وبينهم ضابط من حاشية جلالة الامبراطور الروسي ، والمساعد الخاص لباجراسيون وضابط تابع وضابط ركن كان راكباً حصانا جميلا مولداً من اب انجليزي العرق ، واخيراً موظف مدني ، وهو احد المتشئين

طلب السماح له بمتابعة المعركة يدفعه حب التطلع والفضول . كان ذلك المدني ، رجل ضخم الجثة منتفخ الوجه ، لايعرف الاستقرار على سرج الجواد ، يلقي حوله نظرات يشفعها بابتسامة ساذجة بريئة ، ويشكل في مجموعه منظراً غريباً مضحكاً وهو في معطفه الرث على السرج المخصص للضباط الفرسان ، وسط تلك المجموعة من الفرسان والقوقازيين والضباط المساعدين .

قال جركوف لبولكونسكي ،

– هذا هو السيد الذي يريد مشاهدة المعركة . انه بدأ يشعر الآن بألم في فجوة معدته .

فأجاب المدني بابتسامة مشعة جمعت بين المكر والسذاجة :

– ولكن كلا ، ياللدعابة !

كان يبدو عليه انه شديد الابتهاج لاعتباره هدفاً يسدد اليه جركوف دعاباته ، وكان يتظاهر بالبلاهة اكثر من الحد الذي كان حريا به ان يكون بالغه .

قال الضابط الركن بفرنسيته الركيكة :

– مضحك جداً ياسيد الامير .

كان يعرف كلمة أمير بالفرنسية تسبقها عادة كلمة اخرى . وكان على حق في هذا . لكنه ما كان يوفق قط في معرفة تلك الكلمة .

بلغ باجراسيون وافراد حاشيته عش مدفعية توشين ، في اللحظة التي سقطت قذيفة على مقربة منهم .

سأل المدني بلهجته الساذجة :

– ماذا الذي وقع ؟

فأجابه جركوف :

– فطائر فرنسية !

– آه ! باه ! ابهذه الفطائر يقتلون اذن ؟ ياللفظاعة !

كان لسانه ينطق بهذه الاقوال بينما كان جسمه الضخم على استعداد للاهتزاز تحت وطأة ضحكة مدويه . ولم يكد ينجز جملته حتى سقطت قذيفة ثانية يصحبها صفير مريع قطعته صدمة لينة مرنة . واذا بالقوقازي الذي كان قرب الرجل الضخم الى الوراء قليلا ، يهوي مع حصانه محطمين . انحنى جركوف والضابط الركن على عنقي جواديهما وابتعدا بهما . اما المدني ، فقد اوقف حصانه وراح يفحص القوقازي بنظرة متطفلة : كان الرجل قد فارق الحياة بينما كان الحصان لازال يختبط في النزع الاخير .

القى باجراسيون الى الوراء نظرة طارقة . ولما شاهد سبب الاضطراب الذي حدث ، استدار بلامبالاة وكأنه يقول: « هل تستحق مثل هذا التفاهات شيئاً من الاهتمام ؟ » اوقف حصانه برزانة الفارس المقتدر الخبير وانحنى قليلا ليمتشق حسامه الذي كان بين طيات « فروته » . كان السيف من طراز قديم مختلف عما درجت العادة على حمله في تلك الايام . تذكر بولكونسكي ان سوفوروف كان قد اهدى سيفه الى باجراسيون خلال الحرب الايطالية ، فكان لتلك الذكرى في ذلك الموقف العصيب اثراً جميلا في النفوس . وفي تلك الاثناء ، الاثناء ، اقترب صحب الامير من النقطة التي راح يتأمـــل منها المعركة الدائرة .

سأل باجراسيون جندي « الحرّاقة » الذي كان يقوم بواجبه امام صناديق البارود :

– من اية « بطارية » ؟

كان سؤاله يهدف في حقيقته الى القول : « آمل ان لاتكون خائفا . » وقد ادرك جندي الحراقات – وهو شاب ممشوق القامة احمر الشعر خلف الجدري

آثاراً باقية على وجهه ـ مضى السؤال كما يريده الامير فأجابه وهو يأخذ وضعية الاستعداد ، بصوت منطلق نشيط :

ـ من بطارية الكابتن توشين ياصاحب السعادة ! .

فأجابه باجراسيون بلهجة متزنة :

ـ حسناً ، حسناً .

ثم مر امام عربات جر المدافع واقترب من المدفع الاخير .

وبينما كان في طريقه اليه ، دوى انفجار هائل صم اذنيه وآذان اتباعه . ان المدفع الرابع كان في تلك اللحظة قد قذف مافي جوفه من حمم . ورآى الامير وصحبه خـلال الدخان الذي ارتفع من حوله ، جماعة من المدفعيين يمسكون بالمدفع المنطلق محاولين اعادته الى مكانه قبل الانطلاق . وكان المكلف رقم ١ ، وهو فتى عريض الكتفين مباعد مابين ساقيه يمسك بيده الفرشاة المصنوعة من قطع اللباد والمخصصة لتنظيف « سبطانة » المدفع ، يقفز جانباً قرب عجلة المدفع ، بينما وضع المكلف رقم ٢ في فوهة القطعة القذيفة الثانية وكان توشين ـ وهو قصير القامة كما اسلفنا مربوع الجسم ينـدفع الى الامام مستنداً الى حاجز العش ، يراقب العدو واضعاً يده على جبهته ليركز انظاره في النقطة التي يحدق فيها ؛ فلم يشعر بدنو الامير باجراسيون .

ـ هتف توشين بصوته الرقيق الذي كان يسعى لجعله خشناً ماستطاع :

ـ اضف خطين آخرين الى مدى الرمي وعندئذ سنصيب الهدف !

كان صوته لاينسجم مع شخصه . مع ذلك فقد صاح بقوة :

ـ القطعة الثانية : نار ! هيا ياميدفيديف !

استدعاه باجراسيون ، فاقترب توشين ورفع الى حاجز خوذته اصابعه الثلاثة بحركة مضطربة غير موفقة ، تشبه حركة الراهب عندما يبارك المصلين المؤمنين اكثر مما تبدو تحية عسكرية .

وعلى الرغم من ان وظيفة « بطاريته » كانت محصورة في دك صفوف الجنود الزاحفين فانه كان يطلق نيران مدفعيته بضراوة على قرية شوينجرابن التي كانت ظاهرة امامه والتي كانت اعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتحرك حولها ناشطة . ولما لم يجد احداً يمده بالتعليمات حول الهدف ونوع القذائف التي يجب ان يستعملها ، لذلك فقد استشار صف الضابط المساعد له واسمه زاخارتشنكو الذي كان يقدره ويحترم رأيه ، وقرر أخيراً ان من الاصوب قصف القرية واشعال النار فيها . فقال باجراسيون على عادته بعد سماعه تقرير ضابط المدفعية : « حسناً . حسناً ! » واستغرق في تأمل ساحة المعركة التي كانت ممتدة بأكملها تحت ابصاره ، وبدا كأنه يضع خطة ما .

كان الفرنسيون قد نشطوا في التقدم على الجناح الأيمن اكثر من أي خط آخر من خطوط القتال . وكانت نيران البنادق على اشدها في الوادي حيث تجري النهر ، على مقربة من الربوة التي كانت سرية كييف معسكرة عليها . وكان صوت الرصاص المعلعل يقبض القلب . اشار الضابط الركن ملفتاً انتباه باجراسيون الى فصيلة من الفرنسيين كانت قد انتهت من التفاف حول الجناح الأيمن الاقصى ، وراء فرسان الدراجون « التنين » . والى اليسار ، كانت غابة قريبة جداً تقطع الافق البعيد . أصدر باجراسيون الأمر لسريتين من الوسط بالتوجـــه الى الجناح الأيمن لتعزيز قواته . وتجرأ الضابط الركن وابدى ملاحظته على هـذا التصرف مبيناً ان سحب السريتين من الوسط سيجعل « البطارية » دون تغطية غير ان باجراسيون التفت اليه وراح يحدق في وجهه بعينيه الكامدتين دون ان يتفوه بكلمة . وبدا للأمير آندريه ان مـــلاحظة الضابط الركن سديدة لايمكن الجواب عليها او نبذها . لكن في تلك اللحظة ، جاء احد الضباط التابعين يعلن أن : قائد السرية « الكولونيل » التي تحارب في منحدر النهر ، يعلم

القيادة ان الجيوش الفرنسية كثيرة العدد التي هاجمته ، ارغمته على الانطواء الى الى حيث يعسكر رماة كييف . فأومأ باجراسيون برأسه وارسل الضابط على جناح السرعة الى فرسان الدراجون يحمل اليهم الامر بالقيام بالهجوم ، بينما مضى سيراً على قدميه نحو الجناح الأيمن . ولم تمض نصف ساعة حتى عاد الضابط التابع يقول بان الزعيم قائد السرية اضطر للانسحاب الى الجانب الآخر من الوادي بسبب النيران الحامية التي استقبله بها المهاجمون الفرنسيون في حركة انطوائه على مركز رماة كييف ، وانه وجد ذلك الانسحاب اكثر تعقلاً خشية ان يخسر عدداً كبيرا من جنوده دون جدوى . لذلك فانه ارسل قناصة الى الغابة ينتشرون فيها ليفاجئوا العدو من مراكزهم الجديدة .

فقال باجراسيون :

ـ حسناً !

وفي اللحظة التي ابتعد فيها عن « البطارية » لعلع الرصاص بشدة الى اليسار في الغابه . ولما كان الجناح الايسر بعيداً جداً يتعذر عليه الوصول اليه شخصياً ، فقد ارسل جركوف يحمل امراً للجنرال الذي يقود ذلك الجناح ـ وهو ذلك الجنرال الذي قدم جنوده الى كوتوزوف في برونو كما يذكر القراء ـ ، يقضي بالتقهقر باقصى سرعة الى وراء الوادي نظراً الى أن الواقع يدل على ان الجناح الأيسر لن يستطيع الصمود طويلاً امام العدو . اما توشين ولواء التغطية فلم يعد يفكر فيها احد . لاحظ بولكونسكي ، وكان يتابع بمزيد من الاهتمام المواضيع التي كان باجراسيون يتبادلها مع الضباط القادة والتعليمات التي كان يصدرها اليهم ، ان الامير لم يكن في الحقيقة ليصدر أي امر ، بل انه كان يتعمد ايهام مساعديه وضباطه بان كل ما كان يحدث بفعل ضغط الظروف وتطوراتها أو بمحض الصدفة أو نتيجة للاوامر التي كان ضباطه يصدرونها لرجالهم ، لم

يكن خافياً عليه من قبل ، بل انه وقع وسيقع بناء على رغبته ومعرفته التامة به . مع ذلك ، وعلى الرغم من ان الاحداث كانت متروكة للظروف دون ن يكون لمشيئته اي أثر فيها ، فان مجرد وجود باجراسيون كان يعطي نتائج مدهشة بفضل الاسلوب الذي كان يتبعه وشخصيته الكيسه .

كان القواد الذين يلاقونه بوجوه منقلبة متقلصة قلقة ، يتركونه مشرقي الوجه متفائلين. وكان الضباط والجنود يحيونه بهتافات بهيجة عند مروره وقد رب النشاط في اوصالهم فجأة بقدرة قادر ، ويجدون متعة كبيرة في اظهار براعتهم وشجاعتهم في حضرته .

* * *

الفصل الثامن عشر

« الهجوم »

وصل الأمير باجراسيون وحاشيته الى النقطة القصوى من الجناح الأيمن ، وراحوا يهبطون الطريق المتعرج الذي كان الرصاص يلعلع بشدة عند سفحه وسط سحاب داكن من دخان البارود . وكلما توغلوا في تقدمهم ، كلما ساءت شروط الرؤية . لكنهم كانوا يشعرون جميعاً شعوراً عميقاً باقترابهم السريع من مكان المعركة الحقيقية . ولم يلبثوا أن التقوا بطلائع الجرحى . كان احدهم عاري الرأس تغمره الدماء ، متكئاً على ذراعي رفيقين له . كان يشهق ويبصق دماً ، ولعل الرصاصة اصابته في فمه أو في حنجرته . وآخر كان يمشي وحيداً بشجاعة فائقة ، وهو أعزل من السلاح ، يزمجر وهو يرفع ذراعه التي كان الدم ينزف منها على معطفه وكأنه يتدفق من اناء طافح . كان وجهه يدل على الذهول اكثر مما يحمل من معالم الألم ولا شك انه قد اصيب منذ هنيهة فلم يشعر بعد بالالم. قطع الامير وجماعته طريقاً معترضاً ثم اصبح المنحدر شديد الوعورة صعب المسلك . وكانت جثث القتلى مبعثرة فوق المنحدر الذي كانت جماعة من الجنود تتسلقه

بصعوبة بالغة ، لاهثة الانفاس ، دون ان يكونوا جميعهم مصابين بالجراح . ولم يمنعهم التقاؤهم بالجنرال عن القاء المواعظ وتحريك الاطراف تبعا للحديث . والى الامام ، كان الامير وجماعته في وضع يساعدهم على تميز صفوف من ذوي المعاطف الرصاصية اللون . ولما اطل باجراسيون ، هرع احد الضباط يقطع الطريق على الهاربين يأمرهم بالعودة الى صفوف المعركة . اقترب باجراسيون من الصفوف حيث ازيز الرصاص يطغي على اصوات الاوامر والصيحات. كان الهواء مشبعاً بالدخان والجنود منقلبي الوجوه وقد تراكم دخان البارود ورشاشه على وجوههم فسوّدها . وكان بعضهم يحشو بندقيته مستعيناً بعصي خاصة ، والبعض الآخر يضع « الكبسولات » في اماكنها ويخرج الرصاص من جيب الذخيرة الجلدي المتدلي الى نطاقه ، بينما كان الفريق الآخر يتولى مهمة اطلاق تلك البنادق . ولكن على من كانوا يطلقون ؟ ذلك ما كان لا يمكن معرفته لان الدخان الكثيف كان يقف حائلا دون رؤية الابعاد خصوصاً وان الريح كانت هادئة ساكنة ، مما ساعد الدخان الكثيف على البقاء على ارتفاعه الخفيض فوق الرؤوس . ومن حين الى آخر ، كان نوع من الصفير او الدندنة المكتومة تطرق الاسماع . راح الامير آندريه يتساءل وهو يقترب من القطعة المحاربة : « ما هذا على وجه الضبط ؟ انه ليس هجوماً لأن الجنود كانوا جامدين في أماكنهم ، وليس تشكيل مربعات منظمة . لقد كان الامر خلافاً لكل ذلك . »

كان رئيس السرية ، زعيم عجوز هزيل ، كانت أجفانه نصف المغلقة تضفي على وجهه طابع الدماثة والحلم . اندفع بحصانه الى حيث كان باجراسيون واستقبله بما يليق به من حفاوة ، اشبه بصاحب بيت كريم عندما يحتفي بضيف رفيع الشأن . . أطلع الامير على ان سريته تعرضت لهجوم من قبل فرسان الفرنسيين ، فصدت الهجوم لكن سريته خسرت نصف تعدادها من الرجال

على اقل تقدير . ولجأ الزعيم في بيانه عن صد هجوم الفرسان الى تعبير فني ليبين ما وقع في سريته من الأضرار ، والحقيقية انه كان يجهل كلياً مدى الاضرار التي لحقت برجاله خلال نصف ساعة وما وقع اثناءها ، وهل صمدت للمهاجمين ام تنحت لهم عن مراكزها . كل ما كان يعرفه هو ان القذائف والقنابل راحت تمطر بغزارة على سريته عند بدء المعركة ، ففقد عشر رجاله ، وان بعضهم صاح بعد ذلك قائلا « الخيّاله ! » ، فراح الروس يطلقون النار وماز لو يطلقون نيرانهم باستمرار وإن لم تكن في تلك اللحظة على الفرسان الذين تراجعوا قبل ذلك ، بل على المشاة الذين اقتربوا من الوادي دون ان يقتصدوا هم الآخرون برصاصهم وبارودهم . أومأ باجراسيون برأسه اشارة يفهم منها ان كل شيء قد وقع طبقاً لمـــا كان يتوقعه وينتظره . ثم التفت الى ضابطه المساعد وامره ان يصعد الى ذروة التل فيأتي بالسريتين التابعتين لفرقة القناصة السادسة ، اللتين مر بهما منذ قليل . بدا على وجه باجراسيون تحول مفاجىء دهش له الامير آندريه أسما دهشة . كانت قسماته في تلك اللحظة توحي بالعزم المتيقظ المركز شأن الرجل الذي عزم أخيراً على القفز الى الماء للخلاص من حرارة يوم قائظ محرق . اختفت نظرته الجامدة الخاملة وتبدد ذلك المظهر الخداع الذي كان يسلكه في عداد المفكرين الهادئين المتعمقين واتقدت عيناه ببريق حماسي مشبع بالازدراء ، فحاكت عيناه المستديرتان القاسيتان عيون الجوارح التي تهم بالانقضاض فتشخص ببصرها الى الفرنسية غير عابئة بكل ماحولها . وراح باجراسيون ينظر الى الامام محدقاً غير حافل بما يدور حوله . كان هذا التحول المفاجىء متنافياً مع الهدوء المتزن الذي كان يرافق حركاته من قبل تنافياً غريباً .

راح الزعيم قائد السرية يتوسل الى باجراسيون بالابتعاد لأن المكان خطير جداً . وكان يكرر قوله : « رحماك ياصاحب السعادة ، ناشدتك الله »، ويبحث

عن عينيه بانظاره محاولاً التقاءهما على الامير يقرأ في عينيه مايهيب به ان يبتعد عن المكان . لكن باجراسيون كان شاخص البصر الى الامام فلم يكن يسمع قول الزعيم ولاتأييد الضابط الركن لهاخذ الزعيم يلح على الامير قائلا : « رباه، تبين ماحولك ارجوك ، » ويحاول لفت اهتمامه الى الرصاص الذي كان يئز فوق الرؤوس ويصفر ويدندن كانت لهجته مشبعة باصرار البنّاء المتذمر الذي يريد ان يمنع « معلمه » من استعمال فأسه الخاصة . كان يقول : « ان هذا ليس من عملك ياصاحب السعادة ، اننا بلونا هذا العمل فألفناه اما سعادتك فانك لن تربح من ذلك الا اصابات وجراح . » وكان من يصغي الى حديثه يكاد يظن ان تلك الرصاصات المتطايرة المنتشرة في كل مكان حوله ، عاجزة عن الاضرار ومسه بسوء ، وكانت عيناه نصف المغلقتين تضفيان على حديثه وتوكيدانه لونا من القناعة الصارخة . وانضم مندوب الاركان العامة الى الزعيم مؤيداً . فكان كل رد باجراسيون ان اصدرأمراً بالتوقفعن اطلاقالرصاص وبانسحاب الأحياء من سرية الزعيم لتحل محلهم السريتان الجديدتان . وفي تلك الاثناء هبت الريح فأزاحت ستار الدخان الكثيف الى اليسار وكأن أيدٍ خفية دفعت به بعنف في ذلك الاتجاه ؛ وانكشفت لابصار باجراسيون وصحبه الرابية المقابلة وقد غطاها الجنود القرنسيون الزاحفون اتجهت الانظار كلها بصورة عضوية الى ذلك الحشد الزاحف . كان العدو يسير في خطوط ملتوية على الطريق الدائرية. كان الناظرون يميزون القلانس ذات الريش بل ويفرقون بالعين المجردة بين الضابط والجندي ، ويرون بوضوح العلم الذي كان يخفق على الصاريه .

قال واحد من الاتباع ملاحظاً :

— انهم يسيرون سيراً حسناً منظماً .

بدأت مقدمة الزاحفين تنحدر الى الوادي فكان تقابل الفريقين متوقع عند سفح المراكز التي يحتلها الروسيون .

عادت فلول السريه المشتتة الى الاصطفاف بسرعة والانسحاب الى اليمين باتجاه المؤخرة ، دافعة امامها المتسكعين والمتخلفين من الجنود ؛ واقتربت سريتا فيلق القناصة السادس بنظام جميل . بدأ وقع اقدامهم الاجماعي الثقيل يتردد ويصك المسامع بايقاع موزون رتيب تشترك فيه اقدام القادمين دون استثناء . وصل الجنود الجدد الى المستوى الذي كان يقف فيه باجراسيون ، فكانت السريه اليسرى اقرب من الاخرى الى حيث وقف الأمين . فاتيح لمرافقيه رؤيه قائدها الشاب الجميل الذي عرف فيه بولكونسكي ذلك الضابط الذي افلت جارياً من كوخ توشين عند انفجار القذيفة الاولى . كان وجهه المستدير مطبوعاً بطابع البلاهة والغبطة معاً . ولعل سعادته في تلك اللحظة كانت راجعة الى شرف استعراضه من قبل الامير وهو على رأس فرقته . ولم يكن احساس الجنود الآخرين ليختلف عن مشاعر ذلك الضابط الشاب . كان ذلك الضابط يراقب حركاته ووضعيته ولا شيء سواهما ، فكان منصرفاً بكليته الى هذه الناحية . كان يرفع ساقيه القويتين دون ان يبذل اي عناء ، شأن العسكري المحترف ، ويضرب بقدميه الأرض حتى ليخيل للناظر اليه أنه يسبح في بركة ماء ويطفو عليها جسده ، فكانت مشيته الرشيقة الخفيفة غير منسجمة مع ايقاع اقدام الجنود الذين كانوا يسيرون على هدى مشيته . وكان يتدلى الى منطقته سيف بدون غمد رقيق النصل ضيقه — وهو واحد من تلك السيوف المحدودبة التي لاتشبه الاسلحة في شيء ، ويدير بصره نحو رؤسائه حيناً والى الوراء صوب جنوده أحياناً ، وهو يلوح بساعديه القويين فيتأرجح جسمه المتين على ايقاعها . كان يبذل كل قواه ليبدو العرض الذي يرأسه في أوج الدقة والانسجام . ولاشك

أنه كان سعيداً لنجاحه في مسعاه وفوزه في اداء واجبه على الوجه الأكمل ، فكان مظهره يوحي بأنه يهتف بانتظام : « شمال... شمال ... شمال ...» وهو يدق الارض بيسراه فيتحرك الجدار الحي وفق ذلك الايقاع الرتيب . وهكذا كانت تسير مئات من النفوس ، رجال ذوو وجوه صارمة متشابهة رغم اختلاف مشاربهم ، أحنوا ظهورهم تحت ثقل اكياسهم العسكرية وبنادقهم ، بدا كل منهم مستجيباً اثر كل خطوة الى النداء الخفي المتردد بانتظام : « شمال . . . شمال ... شمال ... »

بهرت انفاس ضابط سمين برتبة ماجور وفقد الايقاع المنظم ، فاستدار حول دغل صغير ليصحح من خطوه ، وجرى جندي متعب متخلف أجفل رعباً من تأخره ، فالتحق بسريته راكضاً منتظماً في الصف الأخير . وسقطت قذيفة مرت فوق رأس باجراسيون قبل ان تنقض على السرية المتحركة ، فأحدثت اضراراً جسيمه . غير ان الجدار المتحرك لم يتوقف ولم يضطرب في مشيته الايقاعية : « شمال . . . شمال ... » . . . وكل ما في الأمر ان الضابط الجميل اصدر أمره قائلاً : «تراصوا ! » . كان لصوته وقع بليغ ؛ فراح الجنود يرسمون قوساً حول المكان الذي سقطت فيه القذيفة ليعودوا الى نظامهم البديع بعد تخطي ذلك العائق غير المنتظر . تخلف احد رؤساء الأفصال ، وكان صف ضابط مسن يزين صدره بالأوسمة ، ليحصي عدد القتلى والجرحى ، وما لبث ان هرع يلتحق بالسرية في مكانه المقرر على الجناح ، فبدل خطوته لتنسجم مع الايقاع ، واندمج كلياً مع السائرين وهو يلقي وراءه نظرات غاضبة حانقة . وعاد صوت الخطى : « شمال ... شمال . . . » يتردد من جديد معكراً السكون الثقيل الكثيف الذي كانت الخطى الاجماعيه الرتيبة تقرع الارض فتبدده ،

قال الامير باجراسيون للجنود :

– هيا ياأبنائي . تصرفوا تصرف الابطال البواسل

فأجاب الجنود بصوت واحد :

– سنعمل خير ما في وسعنا ياصاحب السعادة !

وبينما كانوا يهتفون جميعاً ، حدج احدهم – وهو فتى عابس الوجه كان يسير الى اليسار – الأمير باجراسيون بنظرة قاتمة ، وكأنه يقول : « اننا نعرف ما يجب ، ياللشيطان ! » . وكان آخر يصيح ملء حنجرته هاتفاً دون ان يدير رأسه الى حيث كان الامير ، وكأنه يخشى ان ينسيه ذلك انتظام خطواته مـــع المجموعة السائرة .

صدرت الاوامر بالتوقف وبنزع الأكياس عن الظهور .

استعرض باجراسيون الصفوف ثم ترجل عن جواده وسلم أعنته الى احد القوقازيين بينما القى « بفروته » الى قوقازي آخر ، وحرك ساقيه ليعيد اليها النشاط وسوّى من وضع قلنسوته . كانت الكتيبة الفرنسية الزاحفة وعلى رأسها ضباطها قد بلغت في تلك اللحظة حدود المنحدر .

دوى صوت باجراسيون الحازم آمراً :

– الى الأمام وبعناية الله !

واستدار فترة نحو جنوده ، ثم رفع ساقه اليسرى ، وهي ساق فارس لم يحسن قط السير المنظم ، وقرع بها الارض متقدماً ، ملوحاً بذراعية ، وراح يتقدم نحو العدو فوق ارض مليئة بالاخاديد ،شعر الأمير آندريه بقوى خفية تدفعه الى الأمام ، فاندفع لاحقاً بالامير باجراسيون والسعادة ملء اهابه

كانت تلك المعركة هي التي قال عنها تيير[1] : « لقد تصرف الروس ببسالة.

---

(١) ادولف تيير ، سياسي ومؤرخ فرنسي ولد فيمرسيليا عام ١٧٩٧ وتوفي عام ١٨٧٧ مؤلف تأريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القنصلية والمملكة الخ ... وبدأ محامياً في ايكس XA عام ١٨١٩ ثم جاء الى باريس فاشتغل في الصحافة وأسس جريدة الناسيونال عام ١٨٣٠ وساهم في اقامة الدولة في تموز عام ١٨٣٢ واصبح وزيراً ثم رئيس وزراء عام ١٨٣٦ فنائبـــاً ١٨٤٠ وقام بأعمال مجدة لوطنه . – المترجم –

وقد شوهدت في تلك المعركة – الأمر الذي يندر وقوعه في الحروب – كتلتان من المشاة تسير كل منها بحزم وعناد وتصميم نحو الاخرى ، دون ان تتفكك وحدة صف احداهما قبل التقائها بالاخرى . » وكتب نابليون عن هذه المعركة في القديسة هيلين – منفاه – «لقداظهرت بعض القطعات الروسية شجاعة خارقة . »

اصبح الفرنسيون على مسافة قريبة جداً ، واستطاع بولكونسكي الذي كان يسير الى جانب باجراسيون ان يرى بوضوح حمالات اسلحة الجنود والأشرطة الحمراء التي تزيّن الأكتاف بل والوجوه ايضاً . ولاحظ كذلك ان ضابطاً فرنسياً حسناً ذا ساقين ملتويتين ، يتسلق المرتفع بمشقة بالغة . لم يصدر باجراسيون أي أمر بل ظل في تقدمه بخطاه المنتظمة على رأس الجنود. وفجأة انطلقت رصاصة من صفوف الفرنسيين اعقبتها ثانية فثالثة ... ، ولعلع

الرصاص على طول صفوفهم المتفرقة بين سحب من الدخان الكثيف. سقط بعض الجنود الروس ، وكان الضابط الجميل الذي كان منذ حين يسير على رأس جنوده يستخفه الفرح ، فيضبط الايقاع بنظام مكين ، في عداد الساقطين . وكان باجراسيون ، اثر انطلاق الرصاصة الأولى ، قد توقف والتفت الى جنوده وهتف بصوت قوي :

– هورّا !

فرددت الحناجر كلها مثل ترديد الصدى :

– هورّآ .. آ .. آ . !

واندفع الجنود يتخطون الجنرال ويتدافعون ، يتفرجون بالحيوية والحماس ، فانحدروا الى أسفل التل دون نظام ، وارتموا على الفرنسيين الذين تفرقت صفوفهم بالمثل .

الفصل التاسع عشر

(جرح روستوف)

اتاح هجوم فيلق القناصة السادس انسحاباً منظماً للجناح الايمن بينما كانت مدفعيه توشين المغفلة حتى تلك اللحظة ، تعرقل تقدم الفرنسيين على الخطوط الوسطى لأنهم اضطروا الى الانشغال باطفاء الحريق الذي احدثته مدفعيته في القرية ، مما أعطى الروسيين الفرصة المواتية للانطواء . وتم الانسحاب عبر الوادي بعجلة صاخبة ولكن دون ان يكتسح البلبال والفوضى صفوف الجنود . وبالمقابل ، فقد شتت «لان(١)» الجناح الأيسر الذي كان يضم فيالق كيف وبودولي وفرسان الدراجون . فقد كانت القوة التي تحت امرته ، متفوقة بالعدد والعُدد على الروسين ، فهاجمتهم وأحاطت بهم من كل جانب . فارسل باجراسيون الضابط المساعد جيركوف ليحمل الامر الى قائد تلك الفيالق – وكان برتبة جنرل – بالانسحاب فوراً دون تأخير .

---

(١) جان لان دوق دو مونتوبيلار duc de Montebello ، ماريشال فرنسا ولد عام ١٧٦٩ وجرح جرحاً مميتاً ادى الى وفاته في معركة اسلنج Essleing في ٢٢ ايار عام ١٨٠٩ . ساهم في غزوة مصر وساعد بونابرت في انقلابه وتنصيبه امبراطوراً في ١٨ برومير .
– المترجم –

اندفع جركوف دون تردد ، ويده ملتصقة بحاجز قلنسوته بتحية محترمة ، يحث جواده باتجاه الجناح الأيسر . لكنه لم يكد يغيب عن انظار باجراسيون حتى خانته قواه واستحوذ عليه رعب قاتل جارف ، جعله يمضي للبحث عن الجنرال وزملائه القادة في الامكنة التي لايمكن ان يكونوا فيها ، متنكباً المكان الذي الذي كانت اصوات الرصاص والقذائف تشق فيه عنان السماء . وهكذا ، لم يبلغ الأسر بالانسحاب !

كانت قيادة الجناح الايسر مناطة بفعل القدم الى الجنرال الذي قدم قواته لكوتوزوف قرب برونو ، حيث كان دولوخوف في تلك الاثناء جندياً بسيطاً بعد ان عوقب بنزع رتبة الضابط التي كان حاصلا عليها . وكان اقصى الجناح يأتمر بأمر كولونيل بافلوجرادو هو الفيلق الذي يضم في عداده الكونت روستوف . فكان التناحر بين القائدين سبباً في جر سوء تفاهم مدمر ، لأن كلًا منهما كان شديد الحقد على الآخر . وبينما كانت العمليات دائرة بنشاط على الجناح الأيمن ، والفرنسيون على وشك التحول للهجوم على الجناح الأيسر وفق خطة آنية ، كان القائدان المتنافسان منهمكين في جدال ونقاش لم يكن في جوهره الا تبادل عبارات التقريع والتعنيف . اما قطعاتها ، فانها لم تكن معدة اعداداً طيباً للقتال ، خصوصاً وانهم ماكانا يتوقعان قتالا في ذلك اليوم بالذات . فكان الضباط والجنود منصرفين الى اعمالهم العادية السلمية ، بين فرسان يقدمون العلف لخيولهم ومشاة يجمعون الحطب للوقود .

كان الزعيم قائد الفرسان يقول لضابط تابع للجنرال ، ووجهه شديد الاحمرار من الغيظ :

— اني اعترف بأنه أقدم مني بالرتبة فليعمل مايشاء . لكنني لن اسمح له بالتضحية بفرساني . أيها البوّاق ، اقرع نداء الانسحاب !

غير ان الموقف كان شديد الحرج ، والسرعة الكلية متطلبة ولازمة . فالمدفعية العدوة وطلقات البنادق كانت تتد خل وتمتزج محدثة دوياً مريعاً الى اليمين وفي الوسط ، ومعاطف المشاة الفرنسين التابعين للماريشال لان" اصبحت واضحة وقد بلغ لابسوها سد" المطحنة القريبة ووجهتهم الجناح الأيسر . وبات العدو على صفف مرمى البندقية فقط . فمضى قائد المشاة بمشيته المترددة ، الى جواده فاعتلاه ، واتجه مرفوع الجذع متصلبة ، الى زعيم بافلوجراد . وتقابل القائدان بعد ان تبادلا تحية مهذبة لم تخل من غضب عنيف يحاول كل منهما حجبه ، وقال الجنرال :

– اسمع ياكولونيل ، انني لن استطيع ابقاء نصف رجالي في الغابة دائماً . فارجوك ، هل تسمع ، ارجوك ان تهاجم وان تحتل المكان الملائم في المعركة .

فأجاب الزعيم محتداً :

– وانا أرجوك ان لاتتدخل فيما لايعنيك . لو كنت فارساً ...

– انني ايها الكولونيل في رتبة جنرال دون ان اكون فارساً ، واذا كنت تجهل ذلك ...

فصاح الكولونيل وقد غدا وجهه بلون الدم :

– انني اعرف ذلك تماماً ياصاحب السعادة . تفضل وتنازل برافقتي الى الى الخطوط الاولى وسترى ان المكان الملائم الذي تتحدث عنه لايجدي فتيلا . انني لن اضحي برجالي لارضيك انت .

انك تنسى نفسك ياكولونيل . انني هنا افكر في كل شيء الا رغبتي ورضائي . لذلك فانني لا أسمح لك بالتكلم على هذا الشكل .

لكز الكولونيل حصانه ، فتقبل الجنرال التحدي ، وعطف جذعه وزوى بين حاجبيه ، وتقدم مع غريمة الى الخطوط الاولى ، وكأن خلافهما لايمكن ان

بجسم الاهنا ، تحت وابل المقذوفات النارية . وبينا هما في طريقهما الى المراكز الأولية ، مرت بعض رصاصات الى جانب رأسيها ، فتوقفان دون ان يتفوها بكلمة . لم يجدهما فحص الساحة والأماكن التي تدور فيها المعركة فتيلا . لقد كان واضحاً لهما ، في المكان الذي كانا فيه من قبل ، ان هجوم الفرسان متعذر بسبب الادغال والوديان والمنحدرات ، ولأن الفرنسيين كانوا يقومون بحركة التفاف حول اليسار . فراح الجنرال والكولونيل ، يتبادلان نظرة صارمة مفعمة بالخطورة ، وكل منهما يترقب عبثاً أن تبدر عن الآخر أية بادرة تدل على الخوف او التخاذل ، اشبه بديكين شرسين قبل المعركة . اجتاز كل منهما الفحص بنجاح ، فلم يجد احدهما ما يقوله للآخر ، وكان كل منهما يتحاش ما استطاع اليه سبيلاً ، ان تبدر عنه بادرة او حركة يستدل الآخر منها على رغبته في مبارحة خط النار قبله . وكانا على استعداد للبقاء وقتاً طويلاً في مكانهما يختبران شجاعتهما المشتركة ، لولا ان انفجرت في الغابة وراءهما مئات من طلقات البنادق رافقها ضجيج وصياح مكتوم . كان الفرنسيون قد انقضوا في تلك الاثناء على جنود روسيين يجمعون الاحطاب للوقود ! كانت فرصة الفرسان في الانطواء مع المشاة والانسحاب قد فاتت . وكان خط انسحابهم قد قطعه العدو من اليسار ، فكان عليهم ان يشقوا لأنفسهم طريقاً بالقوة بين صفوف العدو في ارض لا تصلح لجري الخيل .

لم تجد كوكبة روستوف الا الوقت الكافي فقط لجمع الصف والوقوف في وجه العدو . وعادت ظروف جسر « الأنز » تمثل في تلك اللحظة ، اذ لم يكن بين المتحاربين من المعسكرين شيئاً يفصلهما الا ذلك الخط المجهول المخيف والرعب الكاسح ، ذلك الخط الذي يشبه كل الشبه . الخط الذي يفصل بين الأموات والأحياء . كان كلٌ من جنود الفريقين يشعر بذلك الخط الخفي ويتساءل متردداً

هل يجتازه ام يحجم عن اجتيازه ، وكيف السبيل الى الاقدام والاحجام .

هرع الكولونيل ، فأجاب غاضباً على اسئلة ضباطه الذين اقبلوا عليه مستفسرين ، والقى بعدد من الاوامر الغامضة ، شأن الرجل الذي يستمسك بيأس مريع بعقليته ورأيه . وعلى الرغم من أن أمر الهجوم لم يؤكده أحد فقط ، فان الاشاعه راجت بين الصفوف مؤكدة ان الفرسان يقومون بالهجوم.

صدر الأمر :

— اسـ . . . تعد !

واعقب ذلك صليل السيوف وقد اشهرت من اغمادها . غير أن الأمر بالتقدم لم يصدر حتى تلك اللحظة ، فلم يتحرك احد قيد انملة . كانت قطعات الجناح الايسر كلها ، بين فرسان ومشاة ، تشعر ان الضباط انفسهم عاجزين عن معرفة ما يجب عمله في ذلك الموقف ، فسرت عدوى تردد الرؤساء الى الافراد انفسهم .

راح روستوف يحدث نفسه وهو يرى ان اللحظة التي سيختبر فيها لذة الهجوم التي طالما حدثه زملاؤه عنها قد ازفت : « ليقع ذلك بسرعة ! بسرعة ! » .

صاح دينيسوف فجأة :

بعناية الله ايها الفتيان ، خبباً سر !

تماوجت اعناق خيول الصف الأول ، وجذب الحصان شوكا الأعنة ومضى تلقائياً .

شاهد روستوف على مبعدة من صفوف الفرسان الاولى ، خطاً داكناً قائماً الى اليمين ، لم يتبين معالمه تماماً ، لكنه قدر ان يكون هو العدو . كانت اصوات البنادق تسمع بوضوح وان كانت لازالت بعيدة بعد . وعلا أمر جديد:

— خبباً سريعا سر !

شعر روستوف ان شوكا قد مالت مؤخرته ومضى هدباً ، فكان مغتبطا لتتبعه حركات حصانه ومعرفة مؤداها ونتائجها ، وازداد انشراحـــه . شاهد شجرة ضخمة منتصبة بعناد على طريقه ، وكانت تلك الشجرة تحتل منتصف ذلك الخط القائم الذي كان يعتقد أنه العدو . وها هو قد اجتاز ذلك الخط المخيف فلم يحس بالرعب ولا بالخوف بل على العكس : لقد ازداد اطمئنانه وانشراحـــه ، فراح يتمتم وهو يضغط على مقبض سيفه : « آه ، سوف اعمل فيهم طعناً وتقتيلاً ! »

انبعث هتاف « هورّا » داوٍ . فحدث روستوف نفسه : « هيا ليصدفوني الآن أياً كانوا ! » ، ولكز جوادة بمهازيه فاندفع شوكا يسابق الريح ويبتعد عن كل الفرسان . وفجأة ظهر العدو ، وتساقط على الكوكبة وابل من الرصاص أشبه بلسعات سوط ذي شعب . رفع روستوف حسامه متأهباً للضرب ، وفي تلك اللحظة انفصل عنه فارس آخر كان قـد خرج عن الصفوف مثله وسار معه في المقدمة ، اسمه نيكيتنكو ، وشعر روستوف بأنه محمول باندفاع سرعـــة وهمية ومسمّر في مكانه بآن واحد ، وكأنه في حلم مخيف . واصطدم به الفارس بوندارتشوك الذي يتبعه ، فألقى عليه نظرة غضبى ، وجمع جواده ثم مضى مبتعداً .

تساءل روستوف : « ولكن ماذا بي لا اتحرك ؟ » وجاءه الجواب على الفور : « لقد سقطت ، لقد مت . » اصبح وحيداً في ساحـة المعركة ، فلم يعد يرى غير الارض الساكنة وعليها اكواخ مبعثرة ، وغابت عن ابصاره الخيول الجارية وفرسانها المنحنون على ظهورها . شعر بدم حار يغسل جسده فقال يحدث نفسه : « كلا ، انني لست جريحاً ، ان شوكا هو الذي قتل . » والواقع كان كذلك . فقد حاول شوكا النهوض على قائمتيه لكنه لم يفلح ، وعاد يسقط من جديد ساحقاً تحت ثقله ساق فارسه . كان رأس الجواد مخضباً بالدم وكان الحيوان يتخبط دون ان يستطيع الوقوف على قوائمه . اراد روستوف ان ينهض ولكنه

اخفق بالمثل لأن جزءاً من ثوبه كان مشبكاً بالسرج . أما أين مضى الجنود الروس ؟ وأين الاعداء في تلك اللحظة ؟ ذلك ما كان يجهله لأنه لم يكن يرى احداً حوله .

وأخيراً استطاع تخليص ساقه والنهوض بعد عناء شديد . راح يتساءل : « في أية جهة يقوم ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين ؟ » لكنه اخفق في الاجابة على ذلك السؤال . عاد يناجي نفسه بقلق : « ألا يحتمل ان يكون قد وقع لي حادث مؤسف محزن؟ هل ينتظر أن يقع مثل ذلك الحادث ؟ واذا وقع فكيف اتصرف ؟ » كان سبب هذا التساؤل ما لاحظه على ذراعه الأيسر المشلول من ثقل اضافي في وزنه . كانت يده تبدو غريبة ، غريبة عنه . مع ذلك فقد راح يفتش عبثاً عن آثار الدماء . شاهد فرقة من الرجال يقودها رجل يلبس معطفاً أزرق ويضع على رأسه قلنسوة غريبة ، اسمر الوجه غامق اللون اقني الانف فهتف مستبشراً : « آه ! أخيراً لقد اقبل بعضهم ! سوف يغيثونني ! » كان ذلك الرجل متبوعاً باثنين فقط ثم ما لبث ان انضم اليه عدد آخر كبير . كان احد القادمين يغمغم اقوالاً لم تكن في نبراتها ومخارجها تشبه اللغة الروسية . وكان اولئك الذين يتبعون الثلاثة المتقدمين ، قابضين على فارس روسي كانوا يقودون حصانه من أعنته .

فكر روستوف : « لاشك أنه واحد من جنودنا وقد أخذ أسيراً . . . نعم ، ان الأمر كذلك . . . هل سيأخذونني أنا الآخر ؟ . . . ولكن من هم هؤلاء ؟ . . . أهم الفرنسيون ؟ . . . مستحيل ! » كان يرى الفرنسيين يقتربون منه وكان يحس – وهو الذي كان يتحرق للقيام منذ حين – برعب طاغ كلما ازدادوا دنواً حتى انه لم يعد يصدق عينيه . « ترى من هم هؤلاء ؟ . . . ولماذا يجرون ؟ . . . هل يتجهون نحوي ؟ . . . ترى هل سيقتلونني ؟ . . . يقتلونني انا الذي يحبني كل الناس حباً جماً ؟ » راح يفكر في حب امه له وعطف اسرته عليه وفي اصدقائه الخلص

فبدا له مستحيلًا ان يعمد العدو الى قتله « ولكن ، ما العمل اذا كانت تلك هي غايتهم ؟ » لبث جامداً اكثر من عشر ثوان دون ان يفقه عن الموقف شيئاً . كان الفرنسي المتقدم ، ذو الانف الافني ، شديد القرب من روستوف حتى ان هذا كان يستطيع تمييز تقاطيع وجهه . كانت سحنة هـــذا الرجل المتقلصة وهو ينقض عليه وحربته على فوهة بندقيته ، قد احدثت في نفس روستوف هلعاً شديداً فاشهر مسدسه ولكن بدلاً من ان يطلقه على الفرنسي ، رماه به ومضى يعدو هاربا نحو الادغال ، وكأنـــه ارنب بري وفي آثاره كلاب الصيد . لم يكن في تلك اللحظة متقداً حمـــاسة للقتال كما كان شأنه في معركة جسر « اينز » ، بل كان الرعب القاتل مستولياً على كيانه كله . الرعب من فقد حياتـــه ، تلك الحياة الفتية الحافلة بالبهجة والمرح . راح يركض عبر الحقول ويقفز فوق الحفر فيتخطاها ، بمثل الاندفاع الذي يحرك اللاعب الذي يحاول الفوز في مسابقة الحواجز . كان يلتفت بين الحين والحين بوجهه البريء الفتي الذي كساه شحوب الموت ، فتجتاح فقرات ظهره قشعريرة باردة ويخاطب نفسه بقوله : « كلا ، من الخير لي أن لا التفت . » . لكنه قبل ان يبلغ الدغل ، التفت مرة اخرى . كان قد اضحى بعيداً عن الفرنسيين ، ورآى فى تلك اللحظة ، الرجل الذى كان في المقدمة ، يسرع الخطى وينادي زميلًا له بصوت جهير . توقف روستوف وقال لنفسه : « كلا ، لاشك انني مخطيء ، يستحيل أن يكونوا راغبين في قتلي! » شعر أنه عاجز عن السير الى ابعد مما سار اليه ، لأن ذراعـــه اليسرى اصبحت شديدة الثقل وكأن ثلاثين رطلاً قد اضيفت الى زنتها الطبيعية . كان الفرنسي قد توقف بالمثل وصوب بندقيته اليه . فاغمض روستوف عينيه وانحنى على الارض وانطلقت رصاصة ثم اخرى مرتا فوق رأسه تصفران . فاستجمع آخر قواه ، وحمل ذراعه اليسري بيده اليمنى ومضى راكضاً متوغلاً في الدغل حيث كان القناصة الروسيون لازالوا منتشرين فيه .

الفَصْلُ العُشْرُون

(بسالة توشين)

كانت سرايا المشاة التي هوجمت في الغابة على غير انتظار ، تفر أمام العدو دون نظام ولا ترتيب وقد اختلطت الافصال والوحدات فغدت اشبه بقطعان الماشية. القى احد الجنود في جنون الرعب الذي استولى عليه ، صرخة سخيفة ضمنها جملة مرعبة شديدة الوقع في الحروب : « لقد قطع خط تراجعنا ! » . . فأحدثت هذه الكلمات الغبية رعباً وذعراً شديدين في الصفوف ، وانتشرت بين الجنود انتشار النار في الهشيم . فراح الفارون يصيحون :

— لقد احيط بنا ! لقد طوقنا ! لقد ضعنا !

وكان الجنرال الذي بلغت اصوات الرصاص مسامعه فجاء مسرعاً من الخطوط الخلفية ، وقد وصل في تلك اللحظة ، فقدر أن خطباً جللا قد وقع في سريته . أقلقه ان يُعزى اليه ، وهو الضابط القديم المثالي ، اهمال في القيادة أو خطأ فيها . وبلغ من اضطرابه وبلباله ان نسي عصيان « كولونيل » الفرسان

ونسي كرامته كجنرال ، فثبّت نفسه فوق السرج واندفع بحصانه غير مبال بالخطر ولا شاعر به . اخترق ستاراً كثيفاً من الرصاص المتطاير دون ان يصاب لحسن الحظ بأذى . كان جلّ همه منصرفاً الى شيء واحد : معرفة ما يدور في تلك اللحظه بين رجاله مهما غلا الثمن ، واصلاح الوضع ما استطاع الى اصلاحه سبيلا ، وانقاذ نفسه والترفع بها عن مزالق الخطأ وهو الذي امضى اثنين وعشرين عاماً في الخدمة دون ان يتعرض لأي نقد أو لوم .

وبعد أن اخترق صفوف الفرنسيين دون ان يصاب بأذى ، وصل الى حدود الغابة التي كان جنوده ينحدرون منها متصامين عن سماع الأوامر وكأن في آذانهم وقرا . كان ذلك الموقف ، من تلك الفترات النادرة التي تنتصر فيها البلادة الفكرية وعدم الروية على الرصاص المتطاير المتلاحق . فهل كانت تلك الشراذم المتداخلة المضطربة من الرجال تصغي الى اوامر رئيسها وتلبي نداءه أم انها ستلقي عليه نظرة لامبالاة وتستمر في فرارها ؟ كان الجانب الأخير من هـذا التساؤل هو الاكثر توقعاً . ذلك ان الجنود ، رغم نبرات ذلك الصوت الآمر الذي طالما رهبوه وخشوه ، ورغم ذلك الوجه المصطبغ بحمرة قانية لاندفاع الدماء الثائرة فيه ، ورغم تهديدات السيف المشرع وقسمات ذلك الوجه العاتي ، ظلوا في فرارهم ، يطلقون النار في الفضاء ويتصايحون ويرفضون الانصياع للأوامر . لقد كان اتجاه الترددالنفسي منصباً نحو الذعر والافلات .

بح صوت الجنرال من الصراخ ، وامتلأت حنجرته بدخان البارودالمحترق ، فتوقف يائساً تماماً . بداله انه فقد كل شيء . ولكن فجأة ، ودون سبب ظاهر ، استدار الفرنسيون الذين كانوا يطاروون فلوم الهاربين ، وغادروا حدود الغابه التي ظهرت عليها بمايشبه المعجزة ، فصيلة من القناصة الروسيين . كانت تلك الفصيلة ، فصيلة تيموخين هي وحدها التي حافظت على النظام في

صفوفها ، فكمنت في الغابة حتى اذا بلغ العدو مقربة منها ، انقضت عليه فجأة ، وكان ان ارتد العدو مؤخوذاً بالمفاجأة . وكان تيموخين مسلحاً بسيفه الصغير فقط ، فارتمى على الفرنسين . بجرأة السكير الجنونية ، وراح يطلق صرخات مرعبة مروعة ، حتى ان هؤلاء لم يجدوا الوقت الكافي لتعرف اوضاعهم ، فالقوا ببنادقهم على الارض وولو الادبار . وكان دولوخوف في تلك اللحظة متجهاً نحو تيموخين . فقتل فرنسياً في طريقه من مسافة جد قريبة ، وكان اول من اطبق على عنق ضابط فرنسي وأخذه أسيرا . وكان لهذه المفاجأة وقعها ، فارتد الروسيون الهاربون وعادت صفوفهم تنتظم ، وبذلك رُدّ العدو الذي كان يقطع الجناح الايسر الى قسمين ، على اعقابه مؤقتاً . وهكذا اجتمعت القوات الاحتياطية التي بقيت قريبة في متناول يد الجنرال وعاد الفارون الى صفوفهم .

كان الجنرال باجراسيون مصحوباً بالماجور ايكونوموف يشرف بنفسه قرب الجسر على انسحاب قطعات جيشه . وفجأة رآى جندياً يقترب منه فيمسك بركابه ويعتمد بجسمه عليه . كان ذلك الجندي مرتدياً معطفاً حائل اللون ميالاً الى الزرقة من قماش ثمين ، ولم يكن يحمل كيسه ولا قلنسوته . لكنه كان يتمنطق بجيب عتاد فرنسي ويحمل في يده سيف الضباط . كان شاحب الوجه معصوب الرأس ، وكان يحدج رئيسه بعينين زرقاوين تشع من زرقتها الباهتة نظرة صافية ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة . وعلى الرغم من شدة انصراف الجنرال الى اعطاء أوامره الى الماجور المرافق ، فان اهتمامه تحول الى ذلك الجندي الغريب المظهر .

قال دولوخوف بصوت متقطع وهو يعرض جيب العتاد الجلدي والسيف .

— هاتان غنيمتان ياصاحب السعادة وقد أسرت ضابطاً ... والفضل لي في صمود سريتنا وجميعهم يشهدون لي بذلك . فأرجوا ان تتفضل سعادتك بتذكر ذلك .

فقال الجنرال :

ـ حسناً ، حسناً .

واراد العودة الى اصدار اوامره للضابط الركن . غير ان دولوخوف لم يتراجع ، بل نزع رباط رأسه وحسر عنه مظهراً الدم المتجمد بين شعره وقال :

ـ هاهو ذا جرح اصابني من حربة . مع ذلك فانني لم اخرج من الصفوف . فعسى ان تتذكروا سعادتكم ذلك !

كانت مدفعية توشين قد نسيت تماماً ولم يتذكر الأمير باجراسيون امرها الا عندما لاحظ في آخر المعركة ان قذف المدافع لازال مستمراً في الجبهة الوسطى . فأرسل الضابط الركن ثم اعقبه بالأمير آندريه ليحمل الأمر الي توشين بالانسحاب بأقصى السرعة . وكانت المدفعية مستمرة في قصف العدو رغم ان ان جنود التغطية كانوا قد اختفوا بنتيجة أمر لايعلم الا الله من أصدره . واذا كان العدو لم يستول عليها بعد ، فذلك لأنه ماكان يعتقد او يتوقع ان اربعة مدافع فقط دون جنود للهجوم والدفاع ، يمكن ان تظل تقصف خطوطه بمثل تلك البسالة دون انقطاع . وكان رد الفعل الطبيعي لهذا الوضع ، ان اعتقد الفرنسيون ان معظم قوى الروسيين متركزة في الجبهة الوسطى فهاجموا تلك النقطة مرتين وفي كل مرة كانوا يتراجعون مندحرين ، تصيبهم حمم اربعة مدافع منعزلة مقامة على ذلك المرتفع .

افلح توشين في اشعال النار بقرية شوينجراين بعد ذهاب الامير باجراسيون بفترة وجيزة .

أخذ الجنود المكافون بحشو المدافع وتنظيفها يصيحون :

ـ انظر ، هاهم يميدون ! لقد شبت النار ! انظروا الى الدخان ! انه لهدف محكم ! رائع ! يالدخان الكثيف ، هم ، يالدخان !

كانت المدافع الاربعة تقذف حممها دون انقطاع دونما حاجة الى اصدار الأمر الى المشرفين عليها ، الذين عرفوا واجبهم وعرفوا ان الهدف هو النار المشبوبة . وكان المدفعيون يعقبون على كل قذيفة يطلقونها بعبارات مشجعة وكانهم يهيبون بحماستهم ويحثون المدافع على الاستمرار . : « هيا ، هيا !... هو كذلك ! بديع ، لقد اصاب صميم الجمع ! » وساعدت الريح على سرعة انتشار النار وامتداد رقعتها وراحت الوحدات الفرنسية التي كانت تسد مداخل القرية تتقهقر متراجعة . غير ان العدو انتقم لهذا الخذلان الذي اصابه بأن نصب الى يمين القريه عشرة مدافع راحت تصب حممها على مركز توشين .

كان الفرح الصبياني الذي أحدثه حريق القرية في نفوس جماعة توشين ، ودقة تصويبهم نحو الهدف ، قد الهياهم عن المدفعية القوية التي نصبها العدو ضدهم . ولم يشعروا بخطرها الا عندما سقطت قذيفتان تبعتها اربع أخرى فوق مركزهم ، فقتلت احداهما حصانين واطاحت الاخرى بساق أحد سائقي عربات البارود والقذائف . غير ان هذه المفاجأة المزعجة لم تفل من عزم توشين ورجاله الذين سرعان مااستبدلوا الجوادين النافقين بآخرين من الحظيرة القريبة ، واخرجوا الجرحى من الميدان ، بل جعلتهم يحولون الهدف الذي كانوا يهاجمونه ، ويصبون نيران مدافعهم الاربعة على « البطارية » العشرية . كان ضابط توشين الملازم قد قتل منذ بدء المعركة . ولم تمض ساعة حتى كان سبعة عشر جندياً من الجنود الاربعين المكلفين بالعناية بالمدافع قد اخرجوا من ساحة المعركة لاصابتهم بجراح قاتلة او عادية . مع ذلك فان الرجال الباقين لم يفقدوا مرحهم وحماسهم . لقد شاهدوا الفرنسين يهاجمونهم مرتين متعاقبتين . وفي كلتا المرتين ردوهم على اعقابهم بقصف شديد حصد صفوفهم .

كان ذلك الرجل القصير ذو الحركات الفاشلة المبتسرة ، يطلب الى تابعة

في كل لحظة « ان يوافيه بغليون آخر جزاءاً له » ويهرع اثر كل قذيفة تطلقها مدافعه الاربعة ، الى الحاجز الأمامي ليطمئن بنفسه الى سلامة القذف ودقته ، ومعاينة صفوف الفرنسيين وحركاتهم ، وهو يظلل عينيه بيده الصغيرة .

كان يصيح !

ـ النار أيها الفتيان !

ويمسك بنفسه المدفع المتراجع بعد الانطلاق ليعيده بمساعدة رجاله الى مكانه الملائم ، ويحل بيده سلم التصويب والتركيز .

كان توشين يمضغ ابداً غليونه القصير بين أسنانه ، ويجري من مدفع الى الى آخر يسدد هذا ويحصي مايخشى به ذلك ، او يأمر بابدال الخيول المقتولة المصابة بجراح ، ويلقي أوامره هنا وهناك بصوته الرفيق الاجوف ، وقد أصمه الدوى المتتابع من المدافع ، وأعماه الدخان الكثيف . وكان وجهه يزداد اشراقاً وابتهاجاً كلما استمر في دك صفوف العدو وتحصيناته وكان اذا جرح احد رجاله اوقتل ، يقطب حاجبيه ويصب جام غضبه على رجاله السالمين الذين كانوا يتأخرون ـ كالعادة ـ في اخلاء الساحة من القتلى والجرحى . وكان الجنود ـ ومعظمهم من الفتيان الوسيمين كما درجت العادة في المدفعية ، حيث الجنود يمتازون عن ضباطهم بالطول الفارع والاكتاف العريضة والصدور العامرة القوية ـ يستشيرونه بابصارهم ، كالأطفال الواقعين في مأزق حرج ، وينقلون على وجوههم بكل اخلاص الامارات التي تبدو على تقاطيعه اثر كل استشارة .

ولعل الفضل ان توشين لم يشعر بخوف مطلقاً راجع الى الدوي المصم الذي كان يرتفع حوله ، والحاجة الى مجابهة كل خطر . فكان احتمال اصابته اومقتله لايخطر على باله مطلقاً . بل ان بشاشته وخفته كانتا على العكس بازدياد مستمر . كانت الدقيقة الاولى التي اطلق خلالها قذيفته الاولى على العدو ، تبدو بعيدة

جداً عن ذاكرته . ولعله كان يعتقد انها بدأت البارحة ، اذ ان تلك البقعة من الارض التي وجد نفسه فيها ولم يعرفها الا منذ وقت قريب ، بدت لناظرية مألوفة لديه وكأنه يعرفها منذ الازل . وعلى الرغم من انه كان يحس بكل شيء ويذكر كل شيء ويفكر في كل شيء ، وانه كان يتصرف على أحسن مايمكن لضابط ممتاز ان يفعله في مثل ذلك الموقف ، فان حالة كانت أقرب الى الهذيان أو الثمل أو الحمى .

كانت الانفجارات المدوية التي تحدثها « بطاريته » الناشطة ، وصفير القذائف العدوة ، وحركة الجنود المكلفين بصيانة المدافع الدائمة السابحين في عرقهم بوجوههم الارجوانية ، ومنظر دماء الرجال والخيول ، ومشهد الدخان الكثيف المرتفع من الاسفل ، دلالة على انطلاق قذيفة أو أكثر باتجاههم ، قذيفة قد تصيب مدفعاً او رجلاً او حصاناً او ترتطم بالارض ، كل ذلك كان يغذي خياله بشتى المرئيات ، ويخلق في رأسه جواً خيالياً وعالماً سحريا غريباً ، كان يرى نفسة متلذذاً بالعيش فيه . وبذلك لم تعد المدافع الاجنبيـــة في نظره مدافع بالمعنى المعروف ، بل غلايين يدخنها مدخن خفي غير منظور ، يلذ له بين الحين والآخر ان يطلق منها سحابة نحو السماء .

هتف مغمغما :

ــ خذ ! تلك نفحة جديدة !

كانت تلك النفحة سحـابة من الدخان ارتفعت فوق موقع مدافع العـدو وانجابت عنه الى اليسار تدفعها الريح ...

اردف يقول :

ــ انتظر الآن الكرة لنلتقطها ونعيدها !

سأل الحراق الذي سمعه يزمجر :

– ماذا ينبغي ان نعيد ياحضرة الضابط ؟
– لاشيء ، قذيفة !
واردف قائلًا :
– دورك الآن ياماتفييفنا Matvéievna
كان هذا هو الاسم الذي كان يطلقه مجازاً في خياله على القطعة الاخيرة من مدافعه الاربعة ، وهي قطعة قديمة . اما المكلف الاول بالقطعه الثانية ، وكان فتى جميلًا يساعده جندي مدمن ، فقد عمّده في خياله باسم « العم » . لقد كان ينظر الى ذلك الفتى اكثر من سواه ، وكانت حركاته ترضيه وتطربه . وكان الفرنسيون المنشغلون حول مدافعهم على مرمى بصره ، يبدون في ناظريه اشبه بالنمل الدائب . اما لعلعة البنادق التي كانت ترتفع تارة وتخبو اخرى على سفح التل ،فكانت في زحمة تنفس مخلوق حي . فكان يصيخ السمع الى ايقاع ذلك التنفس.
هتف ملاحظاً :
– هه ! هاهو ذا يعاود الكرة .
كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة عملاقاً جباراً يلقي بيديه الاثنتين القذائف على الفرنسيين .
صاح وهو ينحرف عن مدى تراجع المدفع المنطلق :
– هيا ياماتفييفنا ، جميل جداً ايها العجوز العزيز .
وفجأة ، سمع صوتاً آتياً من ورائه يصيح :
– كابتين توشين ! كابتين !
فروعه ان رأى الضابط الركن الذي طرده من جرانت ، واقفاً في تلك اللحظة يناديه بصوت لاهث ويهتف به :
– ولكن ماذا تعمل ؟ ... هل أنت مجنون؟ ... هذه هي المرة الثانية التي يصدر اليك فيها الامر بالانسحاب ومع ذلك ...

فكر توشين وهو يرفع الى رئيسه نظراته الوجلة : « ماذا يريدون مني ايضاً ؟ » وتمتم وهو يرفع اصبعيه الى حافة خوذته :

ــ انا ؟ ... ابداً ... انني ...

غير ان الزعيم لم يستطع القيام بمهمته على الوجه الاكمل . ذلك ان قذيفة مرت فوق رأسه فكادت تلامس شعره ، جعلته يغطس على ظهر جواده مرغماً ، ولما استعاد وضعيته وهم بالكلام ، قاطعته قذيفة ثانية . وعندئذ حول عنان جواده وفر هربا .

راح يصيح وهو يبتعد :

ــ انسحبوا انسحبوا جميعكم !

راح الجنود يضحكون . ولم تمض دقيقة واحدة حتى وصل ضابط مساعد يحمل امراً مماثلا . كان ذلك الضابط هو الامير آندريه .

كان اول شيء وقعت ابصاره عليه ، حصان يصهل قرب المكان والدم ينفر من قائمته المحطمة وكأنه يخرج من قناة جارية . ورأى الجثث متناثرة على الارض بين عربات جر المدافع ، والقذائف تمر الواحدة تلو الاخرى فوق رأسه. سرت في ظهره قشعريرة باردة محمومة ، غير ان تلك الفكرة التي اخافته هي ذاتها التي ألهمته الصبر وامدته بالشجاعه . قال في سره وهو يترجل عن جواده : « لاأستطيع الشعور بالخوف . » نقل الامر للضابط توشين وقرر البقاء للاشراف بنفسه على انسحاب المدفعية برجالها . فراح توشين والأمير آندريه، يتخطيان الجثث تحت وابل النيران ويشرفان على عملية الانسحاب .

قال الحرّاق للأمير آندريه :

ــ يالحسن الحظ ، ان نبالتكم تختلفون عن السيد الذي كان هنا منذ حين . لقد فر ذاك باسرع من الريح !

لم يتبادل الامير اندريه كلمة واحدة مع توشين . كان كل منهما شديد الانهاك

والانصراف الى مهمته حتى ليقال انهما ما كانا يستطيعان النظر حولهما . واضطر الجنود الى ترك مدفع معطل وقاذفة القنابل ، وبعد ذلك قُطر المدفعان الباقيان وبدأ الموكب يسير . وعندئذ دفع الامير اندريه حصانه نحو توشين وقال له :

ـ هيا ، الى اللقاء ياصديقي .

ومد اليه يده مصافحاً . فاجابه توشين :

ـ الى اللقاء ياعزيزي وياصديقي الباسل .

واردف بعد حين وقد شعر بالعبرات تندفع من عينيه دون سبب ظاهر وتسيل على وجنتيه :

ـ الوداع ياعزيزي !

★ ★ ★

الفصل الحادي والعشرون

« هدوء موقت »

هدأت الريح وراحت سحب من الغيم الاسود تتداعى منخفضة على ساحة المعركة وتختلط عند الافق بدخان البارود الكثيف . وكان اقتراب الظلام يزيد الحريقين المشتعلين في مكانين مختلفين حدة وظهوراً . خفت قصف المدفعية وتضاءل تدريجاً ، غير ان لعلعة الرصاص ظلت على أشدها عند الخطوط الخلفية وتزداد عنفاً واقتراباً الى اليمين . ولم يكد توشين يخلص بمدفعيته متخطياً خطوط الجرحي منحدراً الى الوادي مبتعداً عن منطقة النار حتى التقى برؤسائه وبالضباط المساعدين الذين عرف بينهم جركوف والضابط الركن . كان جركوف قد أرسل مرتين الى عش المدفعية الذي يقوده توشين واخفق في تينك المرتين في بلوغ الغاية فلم فلم يصل ولم يبلغ توشين شيئاً . راح رؤساؤه يعنفونه بحدة ويقاطع بعضهم حديث البعض الآخر وهم يوجهون اليه الملاحظات دون ان يغفلوا مع ذلك عن اصدار الاوامر وتوجيهها الى حيث يجب ان تصل . ولم يجرأ توشين على الاعتراض ولم يرد على اللوم الموجه اليه خصوصاً وانه كان يخشى ان يفتح فمه استعداداً للنطق

بشيء لأنه كان يحس برغبة في البكاء عند اول كلمة تصدر عنه . لذلك فقد اكتفى بالصمت وراح يسير في مؤخرة « بطاريته » ممتطياً « كديشته » شأن كل ضباط المدفعية . وعلى الرغم من أن الاوامر قد صدرت بترك الجرحى في اماكنهم ، فإن عدداً غير يسير منهم راح يزحف في اعقاب الجيش المنسحب طالبين ان ينقلوا على عربات المدافع . وكان ذلك الضابط الجميل طويل القامة الذي افلت قبل بدء المعركة من كوج توشين محاولاً اللحاق بوحدته ، مسجى على عربة ماتفييفنا وفي أحشائه رصاصة . وعند سفح التل ، كان احد الفرسان التلاميذ يحمل ذراعه بيده السليمة ، يبتهل الى توشين ان ينقله وهو شاحب الوجه خائر القوي . هتف ذلك الفارس الشاب متوسلا بصوت خجل :

ايها الكابتن ، ناشدتك الله ! لقد رضت ذراعي ولا أستطيع متابعة المشي . استحلفك الله !

كان صوت ذلك الشاب الضعيف الشاحب بما كان عليه من خور وضعف يدل على ان صاحبه قد لقي حتى الآن رفضاً متكرراً من كل من استنجد بهم . أردف يقول :

ــ دعني اجلس أتوسل اليك .

فهتف بوشين :

ــ خلوا له مكاناً ، خلوا له مكانا !

واستدار نحو جنديه المفضل وهتف به آمراً :

ــ هه انت ايها « العم » ، افرش معطفاً . ولكن أين الضابط الجريح ؟

فأجاب أحدهم :

ــ لقد نقل اذ أنه مات .

ــ هيؤا له مكانا ، هيؤا له مكانا ، اجلس ياصغيري ، اجلس . افرش المعطف يا انتونوف .

لم يكن ذلك الفارس التلميذ الا روستوف . كان ممتقع الوجه ترتعد ذقنه من الحمى ، وكان يحمل يده المصابة بيده الاخرى . وضعه الجنود على عربة ماتفييفنا ، على تلك العربة بالذات حيث رفع عنها الضابط الميت منذ حين . كان المعطف ملطخاً بالدماء ، فتلوثت به سراويل روستوف ويديه .

قال توشين

ـ لكنك جريح ياصغيري .

ـ كلا بل مصاب بكسر أو رض .

ـ اذن لم هذه الدماء على المعطف ؟

فأجاب احد المدفعيين وكأنه يعتذر عن المكان القذر الذي هيأه للفارس الشاب :

ـ انه الضابط ياصاحب النبالة . لقد ترك دماءه هنا .

وراح يمسح الدماء بكم معطفه .

استطاع توشين بعد جهد خارق وبعد اللجوء الى مساعدة المشاة ، ان ينقل مدافعه الى ضفة الوادي المقابلة حيث بلغ الجيش المنسحب ضواحي جونتر سدورف Ganthersdorf وهنا توقف عن السير . كان الظلام قد هبط بحلكته حتى تعذر على الرجال تمييز ثوب الجندي على بعد عشر خطوات . وكانت طلقات البنادق قد خمدت نهائياً . ولكن لم تمض فترة حتى عاد الرصاص يئز فجأة على الجناح الأيمن مصحوباً بصياح وضجيج . وكانت النيران المنطلقة تضيء الظلام كلما قذفت البنادق ما في اجوافها . كان سبب ذلك الرصاص المفاجيء الهجوم الأخير الذي قام به الفرنسيون والذي اجاب عليـــه الجنود الروسيون المحتمون في المنازل . هرع الجنود كلهم خارج القرية باستثناء توشين ومدفعيته . ذلك ان توشين اضحى عاجزاً عن الحركة لشدة الاعياء الذي اصابه ذلك اليوم . راح الضباط والمدفعيون والفرسان يتبادلون نظرات قلقة دون ان يتفوهوا بكلمة .

ولم تلبث البنادق ان صمتت ، وارتفع صخب وضجيج مرتفعين أحـــدثه سيل عرم من الجنود العائدين عبر زقاق في القرية وهم يتناقشون باحتداد ويتدفقون على شارع القرية الرئيسي .

كان احدهم يسأل زميله !

ـ ألست جريحاً يابيتروف ؟

وآخر يقول :

ـ يالها من ضربة أليمة تلك التي انزلناها بهم . انهم لن يعودوا بعدها الى الاحتكاك بنا .

وثالث يقول :

ـ لايرى المرء شيئاً في هذا الظلام ... لسنا ندرى كم ذبحنا منهم ! ياللشيطان أليس مزعجاً ان لايرى المرء شيئاً ؟ ... هل من سبيل الى شرب جرعـة خمر أيها الرفاق ؟

رد الفرنسيون نهائياً على أعقابهم ، ومن جديد راحت مدفعية توشين تحف بها اطارات متراصة من المشاة ، تشق طريقها وسط ذلك الليل البهيم اشبه بملكة النحل وسط ثول حافل كبير !

كانت تلك الرحـلة في ذلك الظلام ، تشبه تدفق ميـاه نهر عرم ، بما تحدثه حوافر الجيادو لفظ الحديث ، وعجلات العربات ووقع الاقدام من ضجيج مكتوم ، وكانت تأوهات الجرحى وزمجراتهم تطفي على كل ذلك اللفـظ الاصم ، فكانوا لوحدهم يشكلون مع تلك الظلمات وحدة متينة العرى ، وكأنهم خلقوا منها وفيها . وفي فترة ما ، وقع صخب بين جماعة من السائرين . ومر فارس على صهوة جواد ابيض يتبعة حرس مواكب وهو يتلفظ بكلمات غير واضحة . فانتثرت الاسئلة من كل مكان ، أسئله متلهفة طافحة بالتساؤل والفضول : « ماذا قال الفارس ؟

هل وجه الينا التهاني على ماعملناه ؟ الى أين نمضي الآن ؟ هل نتوقف هنا ؟ »
واعقب ذلك تدافع وازدحام دل على ان الصفوف الامامية قد توقفت ، فشاعت بين الصفوف همسات تقول ان الامر قد صدر بالتوقف ، وعندئذ توقفت الكتلة البشرية الكبيرة وسط ذلك الطريق الموحل .

اوقدت النار في مكانين ووضحت الاصوات . وبعد ان اصدر الكابتين توشين التعليمات اللازمة لاتخاذ التدابير الملائمة المتعلقة بقضاء الليل في ذلك المكان ، ارسل من يستقدم عربة اسعاف او طبيب لمعالجة الفارس التلميذ ، وجلس قرب نار اوقــدها الجنود على الطريق . فزحف روستوف حتى بلغ مكان توشين . كان قشعريرة الحمى تجتاح كل جسده بسبب الكسر الذي اصيب به ذراعه والبرد والرطوبة اللذان تعرض لهما . وكان ذراعه يؤلمه ألماً شديداً أطار النوم عن عينيه رغم شديد حاجته اليه . فكان يغمض عينيه حيناً ويحدق بالنار المشبوبة التي كان يخيل اليه انها مصبوغة باللون القرمزي حيناً آخر . وبين الحين والحين ، كان ينقل بصره الى توشين الجالس على الارض على الطريقة التركية محدودب الظهر ، ينظر اليه بعينيه الكبيرتين المتوقدتين الطيبتين نظرات مفعمة بالعطف والاشفاق كان روستوف يشعر في قرارة نفسه ان توشين يود من صميم فـؤاده لو يستطيع مساعدته وانه يتألم لعجزه عن ذلك .

جلس الجنود المشاة في حلقة دائرية حول النار ، فكانت خطواتهم واصواتهم ترتفع من كل مكان ممتزجة بوقع حوافر جياد الفرسان الذين كانوا يمرون بالقرب منهم . كانت تلك الاصوات والخطوات ، ورديان الخيول في الوحول ، وفرقعة الاخشاب المشتعلة في النيران المشبوبة القريبة منها والبعيدة ، تشكل الى حد ما صوتاً أشبه بتلاطم الموج في محيط لجب في ليلة عاصفة . توقف السيل الخفي العرم عن التدفق وسط ذلك الظلام الحالك ، واصبح الحال في تلك الاثناء اقرب شبهاً

بالبحر الزاخر المعتكر الذي يعود الى السكون والتاوج الهادىء بعد عاصفة عاتية هوجاء .

راح روستوف ينظر ويسمع مايدور حواه وأمامه دون ان يفقه منه شيئاً. واقترب أحد المشاة فقعى بالقرب من النار ومد يديه يصطلي الدفء وهو يشيح بوجهه قائلا لتوشين :

ـ أتسمح نبالتك ؟ انني كما ترأني نبالتك قد أضعت سريتي فلا ادري اين تركتها . آمل أن لايزعجك وجودي !

وفي تلك الاثناء ، جاء رئيس من سلاح المشاة معصوب الوجه يوجه الحديث لتوشين . طلب اليه ان يبعد مدافعه قليلا لأنها كانت تعرقل سير عرباتمهماته. ثم أعقب ذلك مقدم جنديين يتنافسان على ملكية حذاء يدعي كل منهما أنه له ويكيل للآخر السباب .

كان أحدهم يصيح بصوت أجش :

ـ هل التقطته انت ؟ ... انكولا شك أسوأ منذلك حتى تدعي ملكيته !

وجاء جندي هزيل شاحب الوجه يلف عنقه بجورب ملطخ بالدم يطلب ماء للمدفعيين بلهجة غاضبة . كان يغمغم بانفعال :

ـ انكم لن تدعوني على كل حال انفق ككلب حقير !

أمر توشين أن يجاب طلبه . وجاء بعدئذ احد المهزارين جاء يطلب شعلة نار بقوله : « اريد ناراً صغيرة شديدة الاحمرار لفتيان الصف » فلما اجيب الى طلبه قال :

ـ شكراً يا ابناء البلد ، ابقوا في أماكنكم دافئين . اما النار فلا تقلقوا من اجلها ، سوف نردها لكم ... عندما تلد اطفالاً صغاراً ! .

وابتعد مازحاً وهو يلوح بيده قطعة من الخشب المشتعل . وبعد قليل مر

أربعة من الجنود كانوا يحملون شيئاً ثقيلاً في معطف تعاونوا على حمله . فتعثر احدهم وتمتم محنقاً :

ـ لابأس ؟ ها هم قد زرعوا الطريق كلها بقطع الحطب ، يا للملاعين !

فقال آخر :

ـ طالما أنه ميت ، أية فائدة نجنيها في نقلة ؟

ـ إه ! ليحملك الشيطان ... !

وابتلعتهم الظلمات وحملهم الثقيل .

سأل توشين روستوف بصوت خفيض :

ـ واذن ؟ هل تؤلك ذراعك ؟

ـ نعم .

تقدم احد الحرّاقين في تلك اللحظة يقول :

ـ ان الجنرال يطلب من نبالتك المثول بين يديه . إنه هنا في الكوخ على مقربة .

فنهض توضين وزرّ معطفه وهو يقول :

ـ على الفور ياصديقي .

وابتعد وهو يصلح هندامه على قدر استطاعته .

كان الأمير باجراسيون يتحدث مع قواد الاسلحة المتفرقة في كوخ اقيم على عجل لايوائه قرب حظيرة المدفعيين . كان هناك ذلك الكهل قصير القامة ذو العينين نصف المغمضتين ، يلتهم ضلع خروف مشوي بنهم ، والجنرال الذي أمضى في الخدمة اثنين وعشرين عاماً وهو في أحسن هندام ،وقد اشرق وجهه اثر العشاء اللذيذ الذي تناوله واقداح الفودكا التي تلذذ بارتشافها بعد ذلك ، وكان هناك كذلك الضابط الركن ذو الخاتم الماسي وجركوف الذي كان يجعل حوله

نظرات كئيبة قلقة والأمير آندريه ممتقع الوجه تلتمع عيناه ببريق محموم .

وفي زاوية من المسكن المتواضع ،أسند علم اغتصبه الروسيون من العدو، كان المدني الضخم يلمس القماش الذي صنع منه ويهز رأسه بسذاجة على عادته ، لم يكن واضحاً اذا كان مهتماً حقيقة بتحسس قماش العلم ام انه كان مرغماً على ذلك بسبب حرمانه من ذلك العشاء الشهي الذي لم يدع للمشاطرة فيه . وفي الغرفة المجاورة ، كان الضباط الروسيون يتفحصون بشوق ضابطاً فرنسياً برتبة زعيم اسره فرسان الدراجون . كان الأمير باجراسيون يهنىء قواد القطعات ويسألهم تفاصيل المعركة التي دارت رحاها ذلك اليوم ويستعلم عن الخسائر التي مني الجيش الروسي المنسحب بها . وكان قائد السرية التي استعرضها كوتوزوف قرب برونو يروي للأمير أنه عند بدء المعركة أخلى الغابة من جنوده الذين كانوا يجمعون الاخشاب وانـــه نظم صفوفهم حتى اذا مر الفرنسيون ، انقض عليهم بلوائين كاملين فقذف بهم الى الوراء ضرباً بالحراب . واعقب قائلاً :

ما كدت ارى لوائي الأول في حالة بلبال وفوضى حتى قلت لنفسي : « دعهم يمرون واستقبلهم بعد ذلك بنار حامية الوطيس . » وهـــذا ما عملته يا صاحب السعادة .

والحقيقة ان ذلك كان ماير يد صنعه ، فكان شديد الاسف لأنه لم ينجح في مسعاه حتى انه كان مؤمناً كل الايمان بصدق تقريره عن الحوادث . ولعله لم يكن مخطئاً كل الخطأ : اذمن الذي كان يستطيع في مثل ذلك الظرف العصيب من الفوضى والاختلاط تمييز الحقيقة عن الخيال ؟

اردف القائد الكبير معقباً وقد تذكر لقاءه القريب مع دولوخوف وماقصة هذا عليه من عطف الامير باجراسيون عليه :

- ولا يفوتني في هذه المناسبة ان اشيد ببسالة الضابط السابق دولوخوف ،

تلك البسالةالنادرة التي شهدتها بأم عيني. لقد اسرضابطاً فرنسياً ياصاحب السعادة .

وتدخل جركوف في الحديث قائلا وهو يجيل حوله نظراته القلقة :

– وفي تلك اللحظة ياصاحب السعادة اتيح لي ان اشاهد باعجاب هجوم الفرسان – فرسان بافلوجراد – .

كان على حق في قلقه لأن في ذلك اليوم لم يليق بأي فارس من الفرسان بل كان يعتمدفي حديثه بكل سذاجة على اقوال احد ضباط المشاة .اردف يقول :

– لقد رأيتهم يشتتون مربعين من الاعداء !

ابتسم بعض الحاضرين عندما شرع جركوف في الحديث متوقعين منه دعابة مستملحة يطلقها على عادته . لكنهم عندما سمعوه يعقب بجملته الاخيرة مضفياً أكليل غار جديد على هامة الجيوش الروسية ، عاد الاتزان الى قسمات وجوههم رغم ان معظمهم كان يعرف سلفاً ان تقرير جركوف لم يكن الا كذبة صارخة جريئة وقحة .

قال باجراسيون وهو يختص الكولونيل العجوز بمعظم ثنائه :

– اشكركم جميعاً ايها السادة . لقد تصرف الجنود من مختلف الاسلحة ، بين مشاة وفرسان ومدفعية تصرفاً يدل على بطولتهم . . .

ثم اجاب الطرف حوله باحثاً عن شخص ما وقال :

– ولكن كيف حدث ان تركنا قطعتين من مدفعيتنا في الجبهة الوسطي ؟

لم يكن باجراسيون يستفسرعن مدافع الجناح الايسر كلها لأنه كان يعرف من قبل انها سقطت جميعها في ايدي العدو منذ بدء المعركة . لذلك فقد اعقب موجهاً حديثه الى الضابط الركن :

– الم أكلفك بالاشراف على انسحاب المدفعية من الجناح الأيمن ؟

فأجاب الضابط الركن :

– لقد كان احد المدافع معطلا ، اما الآخر فانني لاادري على الضبط

سبب تركه ... لقد اتخذت كل الاجراءات اللازمة ، ولم اترك « البطارية » الا في اللحظة الأخيرة ....

واردف بشيء من التواضع :

الحقيقة ان المدفع كان شديد الحرارة ...

فهمس بعضهم ان الكابتين توشين آمر المدفعية في الجناح الأيمن يعسكر قريباً من مركز القيادة وانهم ارسلوا في طلبه . وعندئذ قال باجراسيون للامير آندريه :

– ولكن انت ؟ لقد كنت هناك ايضاً على ما اعتقد !

فبادر الضابط الركن يقول مشفعاً كلامه بابتسامة لطيفة وجهها الى بولكونسكي :

– بلاريب ياصاحب السعادة لقد مررنا ببعضنا .

فأجاب الامير آندريه ببرودة :

– لم يحصل لي شرف رؤيتك !

واعقب ذلك صمت عام . وفي تلك اللحظة ظهر توشين على عتبة الباب ، فبدا شديد الاضطراب كعادته كلما التقى برؤسائه . وبينما كان يتسلل بخجل وراء الجنرالات في تلك الغرفة الضيقة ، تعثر بساريه العلم التي لم يكن قد لاحظ وجودها لشدة ارتباكه . فتعالت بعض الضحكات .

سأله الامير باجراسيون وهو يقطب حاجبيه برسم الضاحكين الذين كان جركوف اشدهم ضوضاء ، اكثر مما عنى توشين بذلك التقطيب :

– كيف حدث ان أعفل مدفع في ساحة المعركة ؟

وفي تلك اللحظة فقط ، ازاء جبين القائد العام المقطب ، ادرك توشين انه ارتكب خطيئة كبرى ، واحس بالعار يلحقه لأنه فقد مدفعين وظل بعدهما على قيد الحياة . لقد كان شديد الاضطراب حتى انه لم يفكر في هذا الموضوع

قبل تلك اللحظة . وقد سببت ضحكات الضابط الساخرة انهيار تجلده التام،فلبث واقفاً دون حراك مرتجف الذقن ينظر الى باجراسيون بارتباك. واخيراً استطاع بعد عناء شديد ان يغمغم :

ــ لست ادري ياصاحب السعادة ... لم يبق لدى عدد كاف من الرجال ياصاحب السعادة :

ــ كان يمكنك ان تأخذ حاجتك من جنود التغطية .

وعلى الرغم من ان الحقيقة الصارخة كانت تفسر السبب ، فان توشين لم يجرأ على القول انه لم يكن هناك جنود تغطيه قط كان يخشى اذا صرح بتلك الحقيقة ان يسيء الى بعض الروساء الذين امروا بانسحاب التغطية . لذلك فقد راح يتأمل باجراسيون بصمت دون ان ينطق بحرف واحد ، شأن الطالب الذي لايعرف كيف يجيب على اسئلة فاحصة .

ران الصمت فترة غير قصيرة . كان باجراسيون ولاشك يتجنب الظهور بمظهر القاسي الصارم ، لذلك فانه لم يجد مايقوله . وكذلك المجتمعون الآخرون فانهم لزموا الصمت المطلق متحاشين الشروع في الحديث . وكان الامير آندريه يختلس النظر الى وجه توشين ويداه ترتعدان . وفجأة شق صوته الصارم السكون المخيم فوق الرؤوس وقال :

ــ لقد تفضلتم سعادتكم بارسالي الى « بطارية » توشين . ولما ذهبت الى هناك وجدت ان ثلثي رجاله وخيوله بين قتيل وجريح ، وان مدفعين من مدافعه الاربعة كانا معطلين ولم يكن لديه جندي واحد من جنود التغطية .

راح باجراسيون وتوشين يحدقان معاً في وجه بولكونسكي الذي كان يتكلم بحماس متئد اردف هذا يقول :

ــ واذا تفضلتم سعادتكم بالسماح لي بابداء رأيي قلت ان جانباً كبيراً من

نجاح معركة اليوم راجع الى تدخل بطارية توشين والى البطولة والبسالة والحزم التي ابداها الرئيس توشين ورجاله في هذا اليوم .

لم ينتظر بولكونسكي جواباً ، بل نهض واقفاً وانسحب عن المائدة . فعاد باجراسيون بابصاره الى توشين . ولما كان راغباً عن اظهار تشككله في حكم بولكونسكي الحاسم فقد اشار برأسه الى توشين وقال انه يستطيع الانسحاب. فخرج الأمير اندريه في اعقابه .

قال له توشين :

ـ شكراً لك ياصديقي . لقد انقذتني .

فشمله بولكونسكي بنظرة حاله وغادره دون ان يتفوه بكلمة . كان يشعر بحزن يوقر صدره ويعصف بقلبه . لقد كان مارآه وسمعه شديد الغرابة مخالفاً كل المخالفة لآماله واحلامه .

راح روستوف يسائل نفسه وهو يراقب الاشباح التي كانت تمر امامه : « من هم هؤلاء الناس ؟ماذا يعملون هنا ؟ ماذا يبتغون ؟ ومتى ينتهي كل هذا ؟ » كان الألم يزداد عنفاً في ذراعه ، وكان جفناه مثقلان بنعاس قاهر ، فراحت عيناه تريه حلقات حمراء آخذة في الاتساع ، تتراقص امامة بين دنو وابتعاد . كانت تلك الاصوات المتلاحقة وتلك الوجوه المختلفة وذلك الشعور بالوحدة القاتلة تتحد في نفسه فتزيد من آلامه واوصابه . كان اولئك الجنود ، بين جريح وسليم ، هم الذين يثقلون عليه ويسحقونه ويقطعون اعصابه ويرهقونها ، ويحرقون بشرته بنار وئيدة تلتهم ذراعة المحطمة وكتفه . كان يشعر انهم أس البلاء . ولما كان يود من صميم نفسه الابتعاد عن ذلك الخيال المخيف الذي يعذب تفكيره فقد ظن ان من الخير له ان يغمض عينيه .

لم يفقد حواسه الالحظة خاطفة . مع ذلك فقد حلم خلال تلك اللحظة بعدد

لايحصى من الوجوه والاشخاص . رآى امه بيديها البضتين الكبيرتين ، وسونيا بكفيها الناحلين وناتاشا بعينيها الباسمتين ، ودينيسوف بصوته الخشن وشاربيه الكبيرين وتيليانين وكل قصته الطويلة التي وقعت له مع تيليانين وبوجدانيتش. كانت تلك الحادثة اللعينة متحدة مـــع الجندي ذي الصوت القاسي وذينك الشبحين اللذين حطما ذراعه دون رحمة ولبثايشدان عليها في اتجاه واحد ،تشكل معهم وحدة لاتتجزأ . بذل جهداً خارقاً للتخلص من الجندي والشبحين الغامضين القاسيين وتلك القصة كلها . لكنهم لم يفلتوا كتفه ولا ذراعه دقيقة واحدة ولم يبدلوا مواقع ايديهم على تلك الذراع قيد انملة . ولعل الشفاء كان قريباً لو انهم يحطموا ذراعه بتلك الوحشية ، اما وانهم لازالو يجذبونها ، فان كل امل بالشفاء بات وهماً وكل محاولة للخلاص من ايديهم اصبحت فاشلة .

فتح عينيه وراح ينظر الى الفضاء . كانت حلكة الليل البهيم مخيمة بشدة على المكان حتى ان النار المشبوبة ما كانت لتبدد من الظلمة الا على ارتفاع قدمين او ثلاثة اقدام فوقها وحولها . رآى منفذاً من الثلج تتدافع فوق تلك الشعلة الملتهبة . اما توشين فانه لم يعد بعد وكذلك الطبيب فانه لم يصل . لم يكن امامه الا جندي واحد عار عن الثياب يجففها على النار . كان شاحب الوجه هزيـل البنية ضعيف التكوين اصفر اللون .

فكر روستوف في سره : « لن اجد احداً يهتم بشأني . لا يوجد احد يسعفني ويطببني او يشفق على مصابي كيف يمكن ان أنسى انني منذ وقت جد قصير كنت في منزلي ممتلئاً حيوية وبشراً ، يحبني كل من حولي ! »

اطلق زفرة انقلبت بالرغم عنه الى زمجرة قبل ان تتبدد في الهواء . فسأله الجندي وهو ينفض قميصه فوق النار :

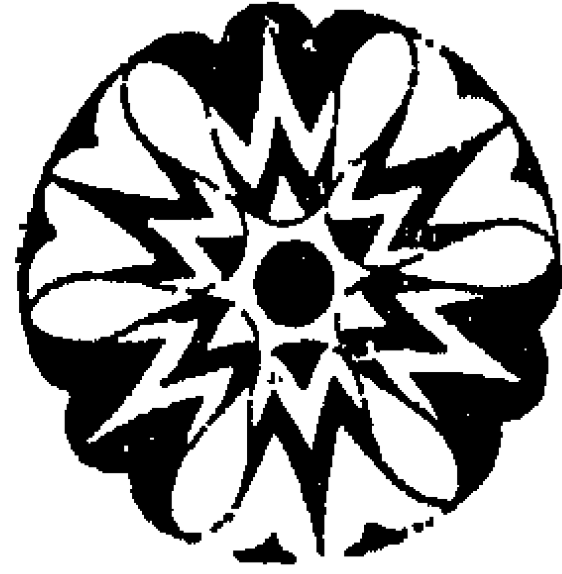
— هل تشعر بألم ؟

ولم ينتظر جواباً اذ اضاف وهو يكح :

ـ لقد اصابوا اناساً كثيرين اليوم ! آه يالتعاسة !

لم يكن روستوف يصغي الى قوله . كانت عيناه شاخصتين الى نتف الثلج المتراقصة فوق اللهب ، فتذكر شتاء روسيا والمنزل الدافىء المضيىء والفراء الناعمة والزحافات السريعة . كان يرى نفسه بعين الخيال ممتلئاً صحة ، محاطاً بالعطف والحب ورعاية أسرته فتمتم يخاطب نفسه : « يالها من فكرة ، تلك التى قادتني الى هنا . »

لم يجدد الفرنسيون هجومهم صبيحة اليوم التالي ، وهكذا استطاع الناجون من جيش باجراسيون بلوغ مواقع كوتوزوف والالتحاق بجيشه الناجي .





الكسندر الاول قيصر روسيا

الجزء الثالث

الفصلُ الأوّل

« الكونت بيزوخوف »

لم يكن الأمير بازيل من اولئك الذين يعدون خططاً مسبقة للمستقبل ، ولا من زمرة الذين يفكرون في الاضرار بالناس لجني ربح شخصي . كل ما في الأمر أنه كان من زمرة النبلاء ، لاقى نجاحاً في حياته واعتاد على النجاح في كل اعماله . لقد كانت تدابيره كلهـــا على اختلاف الوانها ، تدين بوجودها وترتيبها للظروف الطارئة وللون العلاقات التي تربط كلاً منها بما يجانسها . فكان مسرح الصخب والتناحر قائمـاً في رأسة ، فكان يتبع الظروف في اتجاهاتها غير مفكرٍ في ان ذلك كان سر كل وجوده . كان يحتفظ دائمـاً بخطط كثيرة تهدف كل منها الى غاية معينة . وكان تفكيره لايكاد يخلو من عشرات من هذه الخطط . فكان بعضها يخفق وبعضها ينجح والبعض الآخر يتبخر قبل البدء في تنفيذه . لم يكن يحدث نفسه مثلاً : « ان فلاناً أو فلانا قـــد بلغ مبلغ السطوة والنفوذ ، فلأكسبن ثقته علني اصل بها الى نفع ما . » أو مثلاً : « ها ان بيير قـد أصبح

غنياً ، فعليّ اذن ان ازوجه ابنتي لأقترض منه الاربعين الف روبل التي انا في حاجة اليها . » لكنه ما يكاد يلتقي بتلك الشخصية القوية صاحبة النفوذ حتى تحـــدثه غريزته بأن ذلك الرجل يمكنه ان يكون ذا نفع عميم له ، فيربط بينهما علاقة متينة منتهزا أول فرصة تعرض له دون تصاميم مسبقة ، ويمتدحه ويرضي غروره مستعملاً معه لهجته الانيسة التي تشعر السامع أنـــه يعتبره من افراد اسرته ، ثم يلمح الى غايته بكلمة عابرة .

ولما كان بيير في تلك الاثناء قريباً من متناول يده في موسكو ، فقد عمل الأمير بازيل على ابلاغه رتبة تعادل رتبة مستشار دولة ، واصر على ان يرافقه الشاب الى بيترسبورج وان ينزل في ضيافته هناك . لم يكن الأمير بازيل قـد نوّه بغايته امام بيير بعد ، لكن كيانه كله وقناعته الشخصية استلزما منه ذلك التصرف ، الذي كان الامير بازيل يبذل كل استطاعته وامكانياته ليبلغ به الى نتيجة يرتضيها ، وهي تزويج ابنته بالشاب بيير . ولو انه كان متدبراً أمره من قبل لما استطاع ان يبدو طبيعياً في تصرفاته الى ذلك الحد ، صريحاً في تصرفاته مع رؤسائه ومرؤوسيه كما كان عليه حينذاك . لقد كان بازيل مدفوعاً بقوى خفية الى الاحتكاك بأشخاص اوسع منه نفوذاً وغنىً . وكان يعرف بغريزته وحواسه الفطرية كيف يستخلص من هؤلاء مغنماً مهما كان تافهاً .

شعر بيير ، وهو الذي اضحى بين عشية وضحاها « الكونت بيزوخوف واسع الغنى » ، انه اصبح فجأة محاطاً بصفوف متراصة كثيفة من الناس ، شديد المشاغل والاعمال وهو الذي كان الى امس القريب في عزلة حياة العزب البريئة المريحة . لذلك فانـه لم يكن يشعر بالراحة الحقيقية الا عندما كان يأوى الى سريره ، حيث يجد نفسه وحيداً مع نفسه . كان عليه ان يوقع على اوراق كثيرة وان يقوم باعمال المكتب ، اعمال ماكان يدري عن فائدتها شيئاً . وكان عليه

ان يحضر الحفلات الراقية المتألقة وان يهرع الى استشارة مسجله الرئيسي ، او يزور املاكه في ضواحي موسكو ، ويستقبل عدداً لايحصى من الناس كانوا الى عهد قريب يتجاهلون وجوده واصبحوا الآن يشعرون بمرارة الخيبة اذا رفض مقابلتهم . وكان كل هؤلاء الناس ، بين رجال اعمال واقارب ومعارف عاديين ، يظهرون استعدادهم القوي لخدمة الوارث الشاب بما يشبه الاجماع ، ويعلنون عن قناعتهم المتينة واعجابهم العميق بصفاته النادرة . كان لاينفك يسمع اقوالاً تشبه : « بطيبتكم النادرة » ، « نظراً الى قلبكم النبيل » « انت الذي تتمتع بروح عالية » ، لو انه كان على قدر من ذكائكم » الخ ... ولما كان يشعر بهاتف داخلي يؤكد له أنه شديد الطيبة جم الذكاء ، فقد راح يصدق مايغدقه عليه اولئك الناس من عبارات الاطراء والمديح ويؤمن بصحتها ، كما يؤمن « بطيبته النادرةوذكائه النادر » . وكان اولئك الذين كانوا من قبل يعاملونه بلا مبالاة واهمال بل وبشيء من الشراسة يعربون له الآن عن ميلهم وشعورهم الحاني الرقيق . فكبرى الاميرات مثلاً ، وهي تلك المشاكسة العابسة ذات الجذع الطويل والشعر المنسدل الأملس كشعر اللعب ، جاءت اليه بعيدالجنازة تدخل الى غرفته لتعلن عن أسفها الشديد لتنافرهما السابق ، وهي خافضة البصر متضرجه الوجه . ولم تقف عند ذلك الحد بل اعترفت امامه انه ليس من حقهامنذ الآن ان تطلب شيئاً لكنها تلتمس منه السماح لها فقط بالبقاء بضعة اسابيع اخرى في ذلك البيت الذي كان عزيزاً على قلبها حتى انها ضحت فيهبكل مافي طوقها . ولم تستطع الامتناع عن البكاء فانفجرت منتحبة . وكان ذلك التحول الغريب من جانبها كافياً ليحدث اثره في نفس بيير الذي كان يعرف الأميرة شخصية باردة جامدة كالمرمر . فامسك بيدها وسألها الصفح دون ان يدري عن أي شيء يطلب اليها ان تصفح . وراحت كبرى الاميرات اعتباراً من ذلك اليوم ،

تحيك له « لفحة » مخططة من الصفوف وتعامله معاملة مختلفة كل الاختلاف عما درجت عليه عادتها .

وجاء الأمير بازيل يوماً يحمل اذناً مصرفياً بمبلغ ثلاثين الف روبل باسم الأميرة وطلب الى بيير ان يوقع عليه وهو يقول :

ـ اعمل ذلك من أجلها يا « عزيزي » . ينبغي ان نعترف ان المرحوم جعل حياتها قاسيه جداً .

كان الأمير بازيل يخاف ان تفضح الأميرة الدور الذي لعبه في قضية حافظة الاوراق . لذلك فقد راح يسعى لالقاء تلك العظمة امام تلك الفتاة المسكينة ليشغلها بها . فوقع بيير على اذن الصرف المخصص للأميرة وتظاهرت هذه بالمزيد من التودد. اما اختا الأميرة فانهما لم تختلفا في سلوكهما عن سلوك شقيقتها الكبرى . اصبحتا شديدتي الحماسة والاندفاع في سبيل مرضاته حتى ان صغراهما ، تلك التي كانت جميلة وعلى وجنتها حسنه ، اقلقت بيير اكثر من مرة بابتساماتها المعبرة والارتباك الذي كانت تتظاهر به كلما وقع بصرها عليه .

وكان بيير من جانبه يعتقد أن حب الناس ، كل الناس له ، امر طبيعي جداً وأن عكس ذلك مستحيل حتي انه ما كان يفكر لحظة واحدة في الارتياب باخلاص الاشخاص المحيطين به . اضف الى ذلك انه لم يكن يجد متسعاً من الوقت للتساؤل عن صراحة المحيطين به او أنانيتهم . لم يكن لديه الوقت ليعمل شيئاً ما . لقد كان يعيش في لون من ثمل دائم فيه نشوة وفيه نشاط . كان يشعر انه محور حركة عامة دائبة مهمة ، وانهم ينتظرون دائماً معلومات جديدة عنه ويتوقعون منه امراً اذا لم يفعله ، فانه يسيء الى عديد من الناس ويحزنهم ويخدعهم فيما ينتظرونه منه ، وانه اذا فعل ذلك الامر ، فان كل شيء ـ على العكس ـ يسير في الطريق الصحيحة التي يجب ان يسير فيها ، فتعم السعادة ويعم الرخاء .

لم يشرف احد على رعاية شؤون بيير رعاية مستمرة متيقظة كما اشرف عليها الأمير بازيل في بدء المرحلة . ولم يتوقف ذلك الاشراف عند حل المصالح، بل بل تعداه الى بيير نفسه . ذلك انه منذ ان توفي الكونت ، لم يترك بيير لحظة واحدة . كان يتظاهر بمظهر الرجل الذي توقر الاعمال والمشاغل كاهله ، وينهكه التعب ويضنيه ، ومع ذلك ، لا يستطيع لشدة حدبه على بيير ، ان يترك مصيره للأقدار تتلاعب به وفق هواها ، ويترك ذلك الشاب البريء الطيب فريسة سهلة لكل نصاب زنيم ، وهو المحروم من كل اسلحة الخبث والدهاء ، خصوصاً وانه ابن صديقه الودود ومالك ثروة هائلة لاتقدر . واستمر طيلة الأيام التي قضاها في موسكو عقب الجنازة ، يستدعي بيير او يذهب بنفسه الى جناحه ليشير عليه بما ينبغي عمله . وفي كل مرة كانت لهجته المعبرة عن انهاك شديد تكاد تحدثه قائلة : « انك تعرف انني مغمور بالعمل والمشاغل وانني اذا كنت اهتم بشؤنك فما ذلك الا على سبيل الاحسان الصرف . ثم انك تعلم ان ماعرضه عليك هو الامر الوحيد الذي يمكن عمله في هذه المناسبه . »

وذات يوم ، اعلن الامير بازيل قراره وهو يربت على ذراع بيير ويسدل جفنيه على حدقتيه :

– وعليه ياصديقي ، سنرحل غداً ولن يكون رحيلنا قبل أوانه .

كانت لهجته تدل على ان الأمر الذي اتفقا عليه منذ امد طويل لايحتمل اي اعتراض . اردف يقول :

– نعم ، سنرحل غدا واسوف احملك في عربتي . وسأكون مرتاحاً لوجودك معي . لم يعد لدينا هنا عمل هام يستبقينا وكان علينا ان نغادر موسكو منذ فترة طويلة ... آه ! لقد تلقيت جواباً من مستشار الدولة الاول لقد سميت بناء على طلبي نبيلا اداريا وستكون مرتبطاً بالسلك السياسي . لقد اصبح المستقبل مفتوحاً امامك الآن .

وعلى الرغم من الحزم الذي كان في لهجة الأمير المنهكة المترفعة ، تلك اللهجة التي فاه بها بتلك الكلمات ، فان بيير ، الذي كان قد فكر طويلا في مستقبله ، كاد ان يصبح محتجاً . غير ان الامير بازيل قاطعه ملتجئاً في تلك المرة ، الى لهجته الغريدة المنخفضة ، تلك اللهجة التي ما كان يعمد اليها الا في الضرورات القصوى عندما يريد اجتناب كل امكانيات للرفض :

– ولكنني ياعزيزي لم اعمل ذلك الا من اجل نفسي ، من اجل ارضاء ضميري ، فلا اطلب منك ان تشكرني على صنيعي ثم انني لم ار بعد احداً يشتكي من كثرة محبة الناس له ثم انك حر وليس هناك مايمنعك من طرد كل الناس ورفض كل شيء منذ صباح الغد ، اذا راق لك ذلك بنفسك عندمـــا نبلغ بيترسبورج . كذلك فانني أعتقد ان الوقت قد ازف لتبتعد نهائياً عن هذه الذكريات الأليمة .

أنهى الأمير بازيل كلامه بتلك الجملة واشفعها بزفرة واردف :

– لقد اتفقنا أليس كذلك ياصديقي ؟ سوف يركب تابعي في عربتك ... آه ! كدت انسى : انك تعلم انني كنت على علاقات مالية مع المرحوم . ولقد ولقد قبضت مبلغاً على اجور املاكك في ريازان . لست في حاجة الى ذلك المبلغ ، سوف نتفاهم عليه .

كان ذلك المبلغ الذي تحدث عنه الأمير بازيل موهماً انه مبلغ تافه ، اجور مزارع الكونت التي تبلغ عدة آلاف من الروبلات استملكها الأمير بازيل معتبراً ان من حقه التصرف بها .

رأى بيير نفسه في بيترسبورج قبلة انظار الناس كما كان شأنه في موسكو . لم يلق الا كل من يغدق عليه الاطراء ويمتدحه ويتدلسه . ولما كان لايعمل شيئاً فانه لم يستطع رفض المركز الاجتماعي الذي اوجده له الامير بازيل . وتهافتت عليه

الدعوات وكثرت واجباته الاجتماعية حتى فاقت على ماأحاطت به في موسكو . لذلك فانه احس من جدد انه يطير في دوامة هائلة تبشر بسعادة عميقة تبدو قريبة منه وان كانت في كل مرة تنآى عن متناول يديه .

لم يجد في بيترسبورج عدداً كبيراً من اصدقاء مرحه السابقين ، فقد كانت فرقة الحرس في جبهة القتال وكان دولوخوف قد نزعت رتبته وآناتول في الجيش . اما في الضواحي ، فان الأمير آندريه كان كذلك متغيباً . لذلك فان بيير لم يستطع قضاء ليال جميلة كما كان يفعل عندما كان اولئك الاصدقاء مجتمعين ، ولا ان يكشف عن دخيلة نفسه من حين لآخر لذلك الصديق الذي يكبره سناً والذي كان يحترمه ويقدره كل التقدير . كانت كلها تتبدد بين الولائم والحفلات الراقصه ، وفي معظم الاحيان لدى الأمير بازيل في صحبة الأميرة الضخمة وهيلين الجميلة .

ولم تتخلف آنا بافلوفنا شيدر عن تتبع الركب . فأظهرت لبيير ان تحولاً كلياً قد طرأ على وجهة النظر التي كانت تتمسك بها بصدره . كان يشعر من قبل ان كل ما كان يتفوه به في حضرتها ، يعوزه الاحكام وتنقصه اللباقة او المناسبة او التجانس . فكانت كل كلماته ، رغم ما كان يحس به في قراره نفسه من وجاهتها واحكامها ، تبدو سخيفة حالما ينطق بها بصوت مرتفع . بينما كانت بلاهات هيبوليت وحماقاته تعتبر مقبولة ومعبرة عن بديهة وتوقد ذكاء . اما الآن فقد

فقد انعكست الآية . لقد اصبحت اتفه كلمة يفوه بها « رائعة » . حتى ان آنا بافلوفنا اذا لم تعرب عن ذلك بتهافت ومبادرة ، فانه كان يلاحظ ان صمتها ليس الا عزوفاً منها عن اخجال تواضعه .

تلقى بيير في مطلع شتاء عام ١٨٠٥ — ١٨٠٦ ، بطاقة آنا بافلوفنا المعهوده ، تدعوه فيها الى وليمية اقامتها ، وقد ذيلت البطاقة بالملاحظة التالية : « لسوف

ترى عندي هيلين الجميلة التي لايمل احد من طول التحديق في فتنتها . »

شعر بيير لأول مرة عند قراءته تلك الجملة ان علاقة ماقامت بينه وبين هيلين ، علاقة تقبلها كل الناس ولكنها كانت ترهبه وتخيفه لأنها تفرض عليه التزامات لايستطيع تأديتها . مع ذلك فان تلك الفكرة كانت تروق له على اعتبارها طارىء مسلٍ .

لم تختلف حفلة آنا بافلوفنا عن سابقتها الا في الوجه الجديد الذي راحت تفكه به مدعويها . لم يكن في تلك الليلة مورتمارث كما كان في المرة السابقه ، بل دبلوماسي وصـــل حديثاً من برلين يحمل معه آخر الأخبار عن اقامة الامبراطور الكسندر في بوتسدام وتفاصيل التحالف المتين الذي تعاهد عليه العاهلان الصديقان للدفاع عن قضية الانسانية وحقوقها ضدعدو الجنس البشري. استقبلت آنا بافلوفنا بيير وعلى وجهها سحابة من الحزن سببتها ولاشك الخسارة القاسية التي مُني بها الشاب ، اذ ان كل الناس كانوا يتظاهرون بايمانهم الشديد بحزن الشاب على ابيه الذي لم يعرفه ولم يقض معه الا طفولة قصيرة . كان ذلك الحزن البادي على وجهها يشبه الى حد بعيد الخطورة الكئيبة التي تعلو وجهها كلما تحدثت عن سيدتها الجليلة الامبراطورة ماري فيودوروفنا . فشعر بيير بشيء من التيه لهذا الاستقبال. وزعت آنابافلوفنابيراعتهاالمعهودة مدعويها على جماعات فكانت الجماعة الرئيسية تحيط بالأمير بازيل والجنرالات الذين كانوا يتلذذون بالتندر والبحث في الشؤون السياسية . وكانت جماعة اخرى تحيط بمائدةللشاي. وكان بيير يود من صميم قلبه لو انضم الى جماعة المتحدثين بالسياسة غير ان آنا بافلوفنا لم تكد تراه وتقدر عزمه حتى هرعت اليه مبتهجة مستبشرة وكأنها رئيس في ساحة معركة اشتهر بحسن توجيهاته ودقة آرائه ، فلمست ذراعه بيدها وقالت وهي تلقى نظرة الى هيلين وتبسم له بنفس الوقت :

ـ انتظر ، انني اشملك هذا المساء بعنايتي .

وقالت تخاطب هيلين :

ـ ياهيلينتي الطيبة ، ينبغي ان تكوني محسنة لـ « ماتانت » ، فما قولك في الذهاب اليها والبقاء معها بضع دقائق ؟ انني اقدم لك عزيزنا الكونت الذي لن يرفض صحبتك خلال هذا الوقت كي يبعد عنك السأم .

مضت هيلين للقاء « ماتانت » ، بينما امسكت آنابافلوفنا بذراع بيتر من جديد واستبقته برهة متظاهرة بأن عليها قبل ان تطلق يده ان تزوده بنصائحها وتوصياتها الضرورية .

قالت وهي تشير الى الجمال الصارخ المتجسم في شخص هيلين التي كانت تتجه باعتداد ناحية « الماتانت » بخطوات جليلة مهيبة :

ـ الست تراها رائعة الحسن ؟ ثم بالجمال هندامها ! وبالكياستها ووفرة علمها واتزانها رغم سنها الصغيرة وشبابها المتدفق ! ان هذه الميزات طبيعية عندها وهي تدل على جمال قلبها . كم هو سعيد ذلك الذي سيمتلكها . ان اقل الازواج خبرة في الاوساط الراقية لن يجد نفسه معها الا وقد اصبح في اوج المجتمع . ألست من هذا الرأي ؟ . . .

واطلقت آنا بافلوفنا بيير الذي راح ينعم النظر باخلاص في مظهر هيلين الانيق ولهجتها الجانبية المتزنة . لم يكن يفكر ـ اذا اراد التفكير فيها ـ الا في جمالها فحسب ، في ذلك الفن النادر الذي تمكنت منه حتى راحت تتخذ مظهراً هادئاً صامتاً ومعتداً في كل الاندية .

استقبلت « ماتانت » الشابين وهي في زاويتها بتصرف كان يوحي بشديد خوفها من ابنة أخيها آنا بافلوفنا اكثر مما ينبيء بحبها وتقديسها لهيلين الجميلة اختلست نظرة الى ابنة اخيها كأنها تستشيرها في السلوك الذي يجب ان تسير

عليه معها . ولما انسحبت آنا بافلوفنا ، لمست كم بيير من جديد وقالت ملمحة وهي تنظر الى هيلين :

– آمل ان تكف عن القول بأن الانسان يشعر بالسأم في حفلاتي !

اما هيلين فقد اعربت بابتسامة وادعة عن انها لاتتوقع ان لايُعجب كل من يراها ويفتتن بجمالها . سعلت « ماتانت » برهة وابتلعت ريقها ثم اعلنت لهيلين عن سرورها لرؤيتها ثم وجهت الى بيير مثل ذلك القول بعد ان سعلت وابتلعت ريقها كذلك . وسلك الثلاثة في حديث لاطائل تحته ولا معنى له ، راحت هيلين خلاله تلتفت نحو بيير وتقطعه ابتسامتها المشرقة الصافية ، تلك الابتسامة التي كان من عادتها منحها للجميع . وكان بيير قد ألف تلك الابتسامة حتى انه لم يعد يشعر بها لأنها كانت غير معبرة بالنسبة اليه ، واذا كانت تعبر عن شيء ، فانما عن تفاهة لاطائل تحتها . وفي تلك اللحظة راحت الماتانت تمتدح علب السعوط التي كان الكونت بيزوخوف المرحوم يقتنيها . وبتلك المناسبة ، اخرجت علبتها تعرضها على الشابين . فطلبت هيلين رؤية صورة زوج السيدة الفاضلة التي كانت منقوشة على غطاء العلبة تزينه .

قال بيير :

– انها ولاشك من صنع فينيس (ويقصد بذلك النقاش اليدوي الشهير)

وانحنى على المنضدة لالتقاط العلبة وهو يصيخ السمع الى الحديث الدائر حول المائدة المجاورة .

هم بالنهوض ليدور حول المنضدة ويلتقط العلبة ، غير ان « ماتانت » مدت يدها بها من وراء ظهر هيلين التي رأت من واجبها ، تسهيلا لحركة العجوز ، ان تنحني قليلا نحو بيير . فانحنت والتفتت نحوه باسمه . كانت ترتدي ثوب سهرة حاسر العنق يبرز الصدر وجزءاً كبيراً من الظهر كما كانت عليه ازياء ذلك

العصر . فكان جذعها اللدن الذي كان بيير يتخيله دائماً منحوتاً في الرخام ، شديد القرب منه حتى انه رغم قصر بصره ، لم تغب عن عينيه حركات الجيد العاجي والكتفين المرمريين كان شديد القرب حتى انه كان يكفي ان ينحني قليلا حتى يلامس بشفتيه ذلك الجسد الشي . أحسن بدفء ذلك الجسد الفتي واستنشق عبيره ، واصغي الى فرقعة حمالة النهدين الخفيفة . وبدلاً من ان يرى ذلك الجمال والتكوين المرمري الذي كان متحداً مع الزينة الخارجية ، أتيح لبيير بتلك الانحناءة ان يرى ويخمن ماتحت ذلك الستر الرقيق من الثياب ويقدر ان وراءه سحر جسد رائع شديد المفاتن . ومنذ ان وفق الى ذلك الاكتشاف ، استحال عليه ان يرى شيئاً آخر كما يستحيل على كل انسان التعلق بخيال مرة ثانية بعد ان يكتشف حقيقته .

كان يبدو على وجه هيلين تعبير من تقول : « انك ما كنت ترى انني غدوت امرأة ناضجة ? نعم امرأة تريد ان تصبح ملكا لهذا او لذلك ، لك كما لسواك من الناس . » وعندئذ احس بيير ان هيلين لايمكنها ان تكون زوجته فحسب بل انها يجب ان تكون زوجته ولاشيء غير ذلك .

لقد ادرك ذلك منذ تلك اللحظة بمثل التأكيد والاطمئنان الذي يشعر بها لو كان واقفاً معها بين يدي القس يبارك زواجها . اما كيف سيتحقق ذلك ومتى سيتحقق ? فانه كان يجهل التفاصيل . بل انه ما كان يعرف اذا كانت تلك النهاية المنتظرة ستكون حدثاً سعيداً أم عكس ذلك — وكان ينتظر الحل الثاني بشكل غامض مبهم — لكنه كان متأكداً من ان ذلك سيتم بالفعل .

خفض بيير ابصاره ثم رفعها وهو يتمنى لو أنه رآها كتلة جمال صارخ حي ناء عنه صعب المنال كما كان يراها في الايام السابقه . لكنه ماستطاع اقناع نفسه بوجاهة ذلك وما قنع بة . بل انه كان يستحيل عليه رؤيتها كذلك كما يستحيل

على المرء الذي ظن تحت تأثير الضباب الكثيف ان حزمة من الحشيش ان هي الا شجرة سامقه ، ان يرى بعد انقشاع الضباب الشجرة حزمة من الحشيش او ان يخدعه نظره من جديد . لقد كانت شديدة القرب منه وقد اثرت في شخصه واستولت على لبه . فلم يبق بينهما منذ ذلك الحين من عقبات الا ماتفرسه في في طريقها ارادته الشخصية .

ارتفع صوت آيا بافلوفنا يقول :

– حسناً ، سادعكما في زاويتكما . ارى انكما على احسن مايرام فيها .

وعندئذ راح بيير يتساءل بشيء من الارتياع عما اذ لم يكن قد ارتكب فعلا مشيناً يستوجب اللوم ، فاحمر وجهه وراح يسرح الطرف حوله بنظرات مكتئبة قلقة . كان يخيل اليه ان كل المدعوين باتوا يعرفون ما وقع له في تلك اللحظة مثل معرفته تماماً .

ولما انضم بعد فترة الى الجماعة الرئيسية قالت له آنا بافلوفنا :

– يقال انك تجمّل منزلك في بيترسبورج وتدخل عليه تحسينات جديدة .

والواقع كان كذلك . اذ ان بيير – دون ان يعرف السبب لذلك – نزل عند رأي مهندسه الجازم ، فأمر باجراء أصلاحات وادخال تحسينات جمة على قصره الفخم المنيف في بيترسبورج .

اردفت وهي تبسم :

– ان هذا حسن . ولكن لاتترك منزل الامير بازيل . ان من الخير ان ان يكون للمرء صديق كالامير بازيل . ألا تراني أعرف شيئاً ما ؟ ثم انك شاب في مقتبل العمر ولازلت بحاجة الى النصح « ارجو ان لاتغضب اذا كنت اسيء التصرف في الحقوق المخولة الي بوصفي من العانسات المسنات ...

وتوقفت قليلا بانتظار عبارة الاحتجاج المألوفة في مثل هذا الموقف عندما تعترف سيدة بتقدمها في السن ، ثم اردفت :

- لكنك اذا تزوجت فان الأمر يكون مختلفاً .

واشفعت قولها بنظرة شملت الشابين معاً .

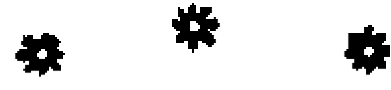
لم ينظر بيير الى هيلين ولم تنظر هذه اليه كذلك ، لكنها كانت ابداً شديدة الالتصاق به لدرجة مرعبة . غمغم بضع كلمات غير مفهومة وقد اندفعت الدماء الى وجهه .

ولما عاد الى غرفته ، جفاه الكرى طويلا ونآى النوم عن عينيه . ظل يفكر فيما وقع له . ترى ماذا حدث له ذلك المساء ؟ لاشيء . لقد فهم وادرك ان تلك المرأة التي كان يعرفها منذ طفولتها والتي كان يقول بلا مبالاة كلما تحدث عنها او رد على اولئك الذين يطرون جمالها : « آه نعم ، انها لابأس ! » ،ادرك ان تلك المرأة يمكن ان تصبح له .

راح يحدث نفسه قائلا : « لكنها حمقاء ، لقد اعترفت بنفسي بذلك مراراً . هناك شيء من الانحطاط والرداءة في الشعور الذي تلهمينه . لقد زعموا ان آناتول اخاها قد أغرم بها وانها كانت كذلك مغرمة به تعشقه ؛ وقد يكون ابعاد آناتول راجع الى هذا السبب . ثم هناك اخوها الآخر هيبوليت وابوها الامير بازيل ... هم ! ان كلا هؤلاء لايروقون لي .... »

وبينما كان يناقش نفسه على هذا النحو دون ان يندفع باحكامه الى المدى الأقصى احس بابتسامة تلعب على شفتيه ، واعترف ان هناك مناقشات اخرى كانت تتغلب في نفسه على تلك الاعتراضات . لقد كان يحلم في جعل هيلين زوجة له رغم اعترافه بتفاهة شأنها ومعرفته الاكيدة لذلك . لعلها كانت تستطيع ان تحبه في المستقبل ، لعلها كانت خلافاً لكل ماظن بها من سوء ،

ولعل كل ماقيل عنها ليس مرتكزاً على اسس متينة وتعود ابنة الامير بازيل تخطر في خياله ليس بوصفهاابنته بل على اعتبارها المرأة التي لايكاد الثوب الاشهب يغطي جسدها الفاتن . « ولكن لم َلم تراودني افكار مماثلة من قبل ؟ » ومن جديد راح يؤكد لنفسه استحالة ذلك وان ذلك الزواج لن يخلو من شيء مقيت كريه ، شيء ينقصه الشرف وتأباه الطبيعة . تذكر كلماتها ونظراتها كما تذكر كلمات اولئك الذين كانوا يرونهم معاً ونظراتهم . تذكر عبارة آنا بافلوفنا عندماحدثته عن منزله في بيترسبورج وتذكر الف تلميح وتلميح صدرت كلها عن الامير بازيل في مناسبات متعددة وعن اشخاص آخرين . وعندئذ استولى عليه ارتياع شديد : الم يقذف بنفسه في مغامرة تجلب عليه النقد واللوم دون شك ، وعليه تحاشيها والتخلص منها ؟ لكنه في ذات الوقت ، في احلامه الكثيرة تلك الليلة كانت صورتها هي تبعث بين الوف الاشياء الاخرى وتطالعه بكل اغرائها الانثوي البديع .



الفصل الثاني

«خطوبة مدبرة»

عزم الأمير بازيل في تشرين الاول عام ١٨٠٥ على القيام بجولة تفتيشية في اربع مقاطعات . وكان قد اعتزم القيام بتلك الرحلة ليتسنى له زيارة ممتلكاته التي كانت اوضاعها المتزعزعة تثير قلقه باستمرار . وكان ينتظر ان يصطحب ابنه اناتول من المدينة التي كانت فرقته مستقرة فيها لزيارة الامير بولكونسكي العجوز الذي كان يأمل بالفوز بيد ابنته ، تلك الوارثة الغنية ، لابنه المهتار . لكنه كان مصمماً — قبل الاندفاع في تدابيره الجديدة — على الانتهاء من مشكلة بيير . والحقيقة ان هذا لم يكن يغادر مسكنه منذ اسابيع ، تبدو عليه في حضرة هيلين الجميلة بوادر الاضطراب والبلاهة والحياء الشديد ، وهي الصفات المعروفة عن العاشقين ، لكنه ما كان بعد قد حزم أمره على التصريح بواقع حاله خلافاً لما كان ينتظر الامير بازيل .

وفي صباح ذات يوم ، حدث الامير بازيل نفسه بقوله : « ان كل هذا جميل ورائع ولكن ينبغي ان افرغ منه » . وندت عن صدره زفرة عميقة سويداوية والواقع ان بيير ذاك ، الذي كانت له عليه التزامات متعددة ليباركه الله ! – لم يكن يتصرف تصرفاً سليما في تلك المسألة. كان يحدث نفسه بقوله : «الشباب.. الطيش ... ليباركه الله ! – ويلذ له اشعار نفسه بطيبة المتزايدة بتلك البركات التي يستمطرها عليه – ولكن ينبغي ان نفرغ من هذا . ان عيد ليوليا – وهو تحريف وتدليل لاسم هيلين ابنته – سيحل بعد غد . ولسوف ادعو بعض الاشخاص . فاذا لم يفهم واجبه فانني سأقوم بواجبي . انني على كل حال ابوها!. »

كانت ستة اسابيع قد انقضت على حفلة آنّا بافلوفنا الأخيرة وليلة الارق تلك ، التي قرر بيير فيها ان ذلك الزواج سيسبب له التعاسة وان عليه تنكب سبيل هيلين والفرار منها مهما كان الثمن . لكنه مع ذلك لم ينفك عن السكنى في منزل الامير بازيل طيلة تلك المدة متطلعاً خلالها برعب وذعر الى ان كل يوم يقضيه هناك يزيده تعلقاً بهيلين وقربا منها في عيون الناس، وان عودته الى نفوره السابق منها امر مستحيل . لقد شعر بعجزه التام عن انتزاع نفسه من بين يدي هذه المرأة التي كان يعتبر ربط مصيره بمصيرها مجازفه خطيرة عليه ان يتحاشاها ولعله كان يستطيع رغم ذلك ان ينجو بنفسه من ذلك الخطر لولا ان الأمير بازيل راح يحيي كل يوم – خلافاً لجري عادته – حفلات كان على بيير الظهور فيها إلا اذا كان معتزما تشويه متعة المدعويين بتخلفه وتبديدا ملهم وما ينتظرون. وفي المناسبات النادرة التي كان بيير يجد نفسه فيها في منزله ، كان الامير يهرع اليه فيضغط بقوة على يده مصافحا ويقدم له وجنته المجعدة لتقبيلها وهو يقول له: « الى الغد » أو : « تعال لتناول طعام الغذاء معنا والا فلن أعود الى رؤيتك» او كذلك : « انني سانتظرك وابقى خصيصا من اجله » فانه ما كان يوجه الى

بيير اكثر من كلمتين اثنتين خلال الجلسة كلها . ولم يكن هـــذا قادراً على مشاكسته او الصمود له . وفي كل يوم كان بيير لا يفتأ يردد في سره : «ينبغي ان افهمها رغم كل ذلك وان اصل الى حقيقتها لأعرف هل كنت مخدوعاً من قبل او انني اخدع نفسي الآن ؟.. كلا انها ليست حمقاء ، كلا ، انها فتاة رائعة انها لا تأتي قط امراً منكراً ، انها تتكلم نادراً ، لكن ما تقوله يكون دائما مصيباً وواضحاً ، فهي اذن ليست غبية حمقاء . انها ذات مزاج متزن لأنني لم أرها مرة مضطربة مرتكبة ، فهي اذن شخصية ممتازة » . وكان غالباً يتورط في التفكير بصوت مرتفع امام هيلين فيلقي ببعض الاراء فكانت تجيبه اجابة قصيرة تدل – رغم ما فيها من وفرة المعاني – على استخفافها بتلك الامور الا اذا اعربت خلافاً لذلك بنظرة او بابتسامة صامتة ، عن تساميها وتفوقها. ولقد كانت على صواب اذ ماذا تجدي تخرصات الناس واراؤهم امام تلك الابتسامة التي تنطق ببيان فصيح لاتعبرعنه الاحرف والكلمات ؟

كانت هيلين تخصه بابتسامة فريدة مرحة مطمئنة تحمل من المعاني ما لاتحمله ابتساماتها التقليدية الفارغة التي ترسمها على شفتيها في كل المناسبات . وكان كل الناس ينتظرون ان ينطق بيير بكلمة أو أن يتخطى حدوداً معينه . وكان يعرف ذلك تماماً كما يعرف انه سوف يتخطى ذلك الحد آجلا أم عاجلاً . لكن رعبا غامضا كان يستولي عليه لمجرد التفكير في تلك الخطوة الآتية . حدث بيير نفسه الف مرة خلال تلك الاسابيع الست وهو يشعر انه يجذب كل يوم اكثر من اليوم الاسبق الى تلك الهاوية الرهيبة : « ولكن عجباً ، ان الامر لا يعدو وجوب اتخاذ قرار ، فهل اكون عاجزاً عن اتخاذ خطوة حاسمة ؟ »

كان بيير – رغم اصراره على اتخاذ قراره النهائي – يحس دائما بذعر كلما رأى ان التصميم الذي كان يعتقد انه جازم وفي طاقته التمسك به ، يتبدد ويهجره في

موقفه الحاضر . كذلك هو الحال لدى بعض الاشخاص الذين لا يشعرون بحقيقة قواهم الداخلية الا اذا كان لهم ضمير نقي شديد الصفاء. لذلك فانه منذ ذلك اليوم الذي استولت فيه الرغبة الجامحة عليه بينما كان يعاين علبة السعوط عند آنا بافلوفنا شل الخبث والمقصد السيء اللذين نبتا في ضميره كل حركات ارادته .

لم يستقبل الامير بازيل في يوم عيد هيلين الا لفيفاً من الاقرباء والاصدقاء او بعبارة اصح « الحلقة الصغيرة » كما كانت تسميهم الاميرة ، وقد أشعر هؤلاء المدعوون بشكل غير مباشر ان مصير ابنة الامير يتوقف على تلك الحفلة. كانت الاميرة كوراجين ، وهي سيدة ضخمة مهيبة الطلعة ذات جمال لم تعصف الايام بكل آثاره ، تترأس المائدة وحولها المدعوون الارفع شأناً ومقاماً : جنرال عجوز وزوجته ، آنا بافلوفنا شيرر الخ .. وعلى طرف المائدة ، انتظم عدد من المدعوين ممن كانوا أقل شأناً أو أصغر سناً ، وكان بيير وهيلين بين هؤلاء يجلسان جنباً الى جنب . لم يشترك الامير بازيل في تناول الطعام مع ضيوفه . لقد كان مزاجه شديد الصفاء ، فكان يحوم حول المائدة فيجلس تارة قرب هذا وطوراً قرب ذاك ، هامساً كلمة مجاملة في اذن هذه او عبارة شيقة تطري تلك لكنه لم يقترب قط من بيير وهيلين ، وكأنه لم يكن يشعر بوجودهما على الاطلاق كان يثير حماس الموجودين وشهيتهم . وكانت الفضيات والكؤوس « الكريستالية » تلتمع تحت نور الشموع القوي وكذلك حلي النساء والصفائح الدقيقة الذهبية او الفضية التي تزين اكتاف الرجال . وكان الخدم بأثوابهم الحمراء ناشطين في خدمة المدعوين وتلبية رغباتهم، ورنين السكاكين وقرع الاقداح واحتكاك الملاعق بالاطباق تختلط بالجدل. ارتفع من احد اطراف المائدة صوت حاجب عجوز يوجه الى بارونة عجوز تصريحاً منمقاً يطري جمالها بلغة البلاط ، الامر الذي جعلها تنفجر ضاحكة من ذلك البيان الهزلي . وفي جانب آخر كان

القوم يتندرون بضائقات من تدعي ماري فيكتورفنا . اما في الوسط فقد كان الامير بازيل محور الانتباه · كان يقص على السيدات تفاصيل آخر جلسة لمجلس الدولة الاستشاري وعلى شفتيه ابتسامة هازئة . قال ان تلك الجلسة عقدت يوم الاربعاء الفائت وان حاكم بيترسبورج العسكري الجديد ، سيرج كوزميتش فيازميتينوف ، قرأ خلالها « فرمانا » بخط الامبراطور الكسندر ، تسلمه عن طريق الجيش . كان الامبراطور في كتابته الشريفة يخاطب فيازميتينوف قائلا انه يتلقى من كل مكان كتبا تعرب عن ولاء مرسليها واخلاصهم وان تلك التي ارسلت اليه من بيترسبورج كانت تلقى عند جلالته عناية وتقبلا فائقين ، وانه يحس بفخار لانه رئيس أمة عظيمة كالامة الروسية وانه يعمل ما في وسعه ليكون جديراً بها . وكان الكتاب الشريف يبدأ بهذه الكلمات :

« سيرج كوزميتش ، تصلني من كل مكان ...»

فسألت احدى السيدات :

ـ اذن ، انه لم يستطع الاسترسال في قراءته أبعد من عبارة « سيرج كوزميتش »؟

فاجابها الامير ضاحكا :

- كلا « بل « سيرج كوزميتش ، من كل مكان ... من كل مكان ، سيرج كوزميتش ... » لم يستطع التاعس الفكاك من هذه الجملة . لقد هم اكثر من مرة بمتابعة القراءة . لكنه كان في كل مرة لا يكاد يتفوه بكلمة « سيرج » حتى ينفجر باكياً . وعند « كوز ... ميتش » يزداد انتحابا . اما عند « من كل مكان » فقد يختنق بالعبرات ، فيخرج منديله من جديد ويعاود القراءة : « سيرج كوزميتش ، من كل مكان » غير ان نحيبه كان لا يلبث ان يتعالى اكثر فاكثر ... حتى انه اضطر اخيراً الى تكليف سواه بقراءة الكتاب الشاهاني !

كرر احدهم ضاحكا :

– كوزميتش ... من كل مكان ... وكان يبكي ويرتفع نحيبه !

فهتفت آنافلوفنا من الجانب الآخر من المائدة بسبابتها :

– اعقلوا ، ان « فيازميتنوفنا » الطيب رجل باسل ممتاز !

فعم الضحك المائدة كلها ، ذلك الضحك الذي ما كان ينفك يتردد لاتفه الاسباب . وكان بييروهيلين الوحيدان اللذان ظلا في مكانيهما صامتين وعلى شفاههما طيف ابتســـامة لم تستكمل بعد . لم تكن ولتلك الابتسامة اية عـــلاقة بموضوع سيرج كوزميتش ، بل كانت ابتسامة احتشام منبعثة عن عواطفهما الخاصة . وعلى الرغم من ان المدعوين لبثوا يتحدثون ويتضاحكون ويتفكهون متلذذين بتذوق خمرة الرين واطايب الطعام ، متظاهرين بعدم الاهتمام بالشابين ، فان نظراتهم المختلسة التي كانوا يوجهونها اليهما من حين الى آخر كانت تدل دلالة واضحة على ان فكاهة سيرج كوزميتش والضحكات المدوية والوليمة الحافلة وكل مايحيط بها ليس الاخدعه او ظاهرة يراد بها التمويه وان الاهتمام العام منصب بكليته على الشفع : هيلين وبيير . وبينما كان الامير بازيل يقلد سيرج كوزفيتش في انتحابه ، شمل إابنته هيلين بنظرة محيطه ، وعندما كان ينقلب على قفاه ضاحكاً مقهقهاً كان وجهه ينطق بصراحة : « ان كل شيء على مايرام وان كل شيء سيقرر هذا المساء » وكانت آنا بافلوفنا تـــدافع عن « فيازميتينوفها الطيب » وهي تتخذ مظهر المتوعد . غير ان الأمير بازيل كان يقرأ في عينيها خلال تلك النظرة الحدة التي سلطتها على بيير ، انها تهنئه بصهره الجديد المنتظر وبسعادة ابنته المرتقبة . اما الاميرة ، فكانت وهي تقدم الخمر لجاراتها ، تلقى على ابنتها نظرة غاضبة وتزفر زفرة كئيبة وكأنها تقول : «بلى ياعزيزتي ، لم يبق لنا الآن الا ان نشرب النبيذ الحلو ، لأن الدور قد اصبح لهذه الشبيبة وعليها ان تنشر سعادة شديدة السفاهة والوقاحة ! » وكان هناك

سياسي يرقب وجهي العاشقين المشرقين ويقول لنفسه متسائلا : « لماذا اتظاهر بالاهتمام بكل ماأروي وما أقص ؟ ان كل هذا ليس الا سخافات ! والواقع ان هذا وحده هو السعادة الحقيقية ! »

وفي غمار ذلك التشاغل التافه الحقير الذي يصطنعه الموجودون ليربط بينهم في تلك الحفلة ، انبثق فجأة شعور جديد طبيعي غريزي . كان ذلك الشعور هو الرغبة التي يحس بها أحدهما في الآخر ، مخلوقان فتيان نبيلان ! كان ذلك الشعور مهيمناً على كل شيء ، وكان متفوقاً على الثرثرات العرضية التي علت جلبتها في ذلك المكان . فقدت الدعابات ملاحتها والانباء الجديدة طرافتها وأهميتها ، وظهرت الحماسة العامة على حقيقتها مفتعلة مصطنعة . ولقد امتد ذلك الشعور الي الخدم انفسهم الذين كانوا رغم اغفالهم خدمة الشابين متعمدين ، لا ينوا يتأملون وجه هيلين المشرق الوضاح ووجه بيير المضرج بالحمرة بقسماته الكبيرة التي امتزج البشر والقلق في الظهور عليها .

كان بيير يحس انه أضحى محط انظار الجميع فكان يشعر بارتياح يشوبه الاضطراب والارتباك . كان لا يصغي الى شيء ولا يفقه او يسمع شيئا شأن الرجل المستغرق في مشاغله . لولا أنه من حين الى آخر كانت بعض الفكر او المشاعر البتراء الغامضة تعيده الى الحقيقة دون سابق انذار .

كان يفكر في سره « إذن لقد انتهى كل شيء . . . ولكن كيف وقع كل هذا ؟ أبمثل هذه السرعة ! انني أرى الآن ان هذا الأمر ينبغي أن يتم ليس من أجلها هي او من أجلي أنا ، بل من أجل هؤلاء جميعاً لانهم ينتظرون حدوثه بتلهف . انهم ينتظرون كلهم حدوث « هذا الشيء » بمزيد من القناعة حتى انني لا أجد ما يبرر خيبة أملهم . أما كيف سيتم ذلك ؟ فانني لست أدري . غير أن ذلك سيتم ، نعم ، سيتم حتماً » .

وبينما كان مستغرقاً في خواطره ، كانت نظراته تجوب رحاب ذينك الكتفين العاجيين الرائعين القريبين من عينيه النهمتين . لكن لوناً من الخجل استولى عليه فجأة عندما فكر في أنه يحتكر اهتمام الموجودين جميعاً وانه يبدو أمامهم بمظهر الرجل السعيد ، وانه بوجهه البعيد عن منازل الجمال ، يلعب دور باريس[1] في غزو قلب هيلين الجميلة .

راح يحدث نفسه مواسياً : « مع ذلك فان الأمر دائمـــاً يبدو كذلك ولا يمكن ان يكون على شكل آخر . . . ثم انني ماذا عملت في سبيل ذلك؟ متى بدأ هذا الشيء ؟ انني عندما غادرت موسكو مع الامير بازيل ، لم يكن في الأمر شيء من كل هذا . ثم انني ولا شك ما كنت استطيع رفض النزول في ضيافته ، ثم لعبت معها الورق والتقطت حقيبة يدها مرة ، ورافقتها في نزهة . . . فمتى اذن بدأ هذا ؟ متى وقع كل هذا ؟ » وها هو الآن يجلس بقربها وكأنه خطيبها ، انه يسمعها ويراها ويحس بوجودها ، يشعر بتنفسها وحركاتها وجمالها. جمالها ؟ او ليس جماله هو — وليس جمالها — الذي يجذب كل هـذه الانظار ؟ واعتد بنفسه حين بلغ من مناقشته هذا الحد ، فاستوى بجذعه ورفع رأسه مغتبطاً بسعادته . وفجأة خيل اليه ان صوتاً مألوفاً لديه ارتفع مرتين . لكنه كان مستغرقاً في احلامه فلم يفهم ماقيل له . ولما كرر الأمير بازيل سؤاله للمرة الثالثة قائلا :

---

(١) باريس او ألكسندر ، هو ابن بريام وهيكوب (اخر ملوك مدينة في آسيا الصغرى صمدت لحصار اليونان عشر سنين وخلدها هومير في اشعاره) وهو زوج اونيون ومغوي هيلينا زوجة مينيلاس . وهو الذي أعطى جائزة الجمال للآلهة فينوس (فاستحقت مدينته حقد الآلهتين الاخريين مينرفا وجونون . — اسرة الترجمة —

– انني اسألك متى تسلمت رسالة بولكونسكي . كم انت ساهم البال ياعزيزي !

وابتسم الامير فرآى بيير ان الآخرين جميعهم يشاركونه في الابتسام وعيونهم شاخصة الى هيلين واليه . فقال في سره : « ماذا بعد ، طالما انكم جميعاً على علم بالحقيقة ... ثم انها هي الحقيقة الواقعة . » وافتر ثغره كذلك عن ابتسامته الهادئة ، ابتسامة الطفل البرىء التي استجابت لها هيلين بابتسامة مماثلة .

الح الأمير مستفسراً وقد بدأ عليه انه في حاجة الى الجواب ليضع حداً لنقاش معين :

– الا تتكلم ، متى تلقيت تلك الرسالة ؟ هل كانت واردة من اولموتز ؟

فاسر بيير في نفسه قوله : كيف يمكنهم الاهتمام بتفاهات كهذه ؟ » واجاب بصوت مرتفع مشفوع بزفرة :

– نعم ، من اولموتز .

وانتهى العشاء فرافق بيير رفيقته الى البهو اسوة بالآخرين . وأخذ المدعوون ينسحبون تباعاً فكان بعضهم لايودع هيلين مطلقاً والبعض الآخر يتظاهر بعزوفه عن ازعاجها في انشغالاتها الجدية ، فيقترب منها قليلا ثم يستأذن مسرعاً ملحفاً عليها بالبقاء مكانها معفيها من واجب التشييع . فالسياسي انسحب انسحاباً صامتاً ضجراً لأن حياته كلها بدت لعينيه تافهة اذا قيست بهناء بيير وسعادته والجنرال العجوز اقتاد زوجته التي كانت تشكو الماً في ساقها وهو يحدث نفسه قائلًا : « هه ! ايها الحيوان العجوز ، انظر الى هيلين فاسيلييفنا ، هاهي ذي امرأة تظل محتفظة بجمالها ولو تخطت الخمسين . » أما آناپافلوفنا فقد همست في اذن الاميرة الأم قائلة :

- اعتقد انني استطيع تقديم تهاني منذ الآن .

وانحنت عليها تعانقها واردفت :

- لولا اصابتي بالبرد لبقيت وقتاً اطول .

فلم تجب الأميرة ، لقد كانت تغبط ابنتها بل وتحسدها على سعادتها .

وبينما كان الامير وزوجه يقودان الضيوف الذاهبين ويشيعونهم ، بقي بيـــير منفرداً بهيلين في البهو الصغير دون رقيب . لقد ظل وحيداً معها عدة مرات خلال الاسابيع الستة المنصرمة لكنه لم يحدثها قط عن الحب . لكنه كان يشعر ان مثل هذا الحديث اصبح الآن ضرورة ملحة . غير انه ما كان يعرف كيف يبدأ الخطوة الاولى . كان يشعر بالخجل ، لقد كان يرى انه يحتل مكاناً قرب هيلين معداً لغيره من الناس . وكان هاتف داخلي يهيب به قائلا : «ان هذه السعادة لم تخلق من اجلك ، انها خلقت لاولئك الذين لايملكون ماتملكه في نفسك من مشاعر . »

مع ذلك فقد شعر بضرورة التحدث بشيء ما ، أي شيء ، وحزم امره على الكلام . سألها عما اذا كانت مسرورة من تلك الحفلة . فأجابته بطهرها وبراءتهـــا المعهودين ان ذلك اليوم كان اجمل اعياد الاعياد في حياتها كلها .

كان بعض الاقرباء المقربين لازالوا يجالسون الأميرة الام في البهو الكبير ، فجاء الأمير بازيـــل الى حيث جلس الشابـــان يسترق الخطى . فنهض بيير عند قدومه واعرب عن تأخره لأن الوقت قد اصبح متأخراً . غير ان الامير أطهر بنظرة قاسية مستفسرة ان مثل ذلك القول غريب وفي غير محله . لكنه تمالك نفسه على الفور وامسك بذراع بيير فأجلسه وابتسم له ابتسامة وديعة باشة .

قال يسأل ابنته بلهجة ماجنة طبيعية لدى الآباء الذين انشأوا اولادهم في النعيم والدلال ، لهجة كانت غير واضحة لديه كما ينبغي :

ــ واذن يالوليا؟

ثم التفت الى بيير وقال وهو يفك ازرار صدارته :

ــ « سيرج كوزميتش ، من كل مكان »

ابتسم بيير. لكن ابتسامته ــ والتي تعني ــ للامير على انه يفهم تماماً ان اقصوصة سيرج كوزميتش ليست هي التي تستأثر بانتباهه الى هذا الحد في تلك اللحظة . وفهم الامير كذلك ان بيير لم يكن غبياً كما كان يعتقد ، فانسحب وهو يمضغ كلمات غير مفهومة . ولم تفت بيير اضطراب هذ النبيل العجوز ذي الوجه الجامد ، واثر ذلك الارتباك فيه ، فالتفت الى هيلين فبدت هي الاخرى مرتبكة تنظر اليه نظرة ناطقة تقول : « انها خطيئتك على اية حال ! »

خاطب بيير نفسه قائلا : « لاشك ان علي ان اسرع في بلوغ النتيجة لكنني لااستطيع ، لااستطيع . » وعاد يتحدث في امور تافهة . سألها عن حقيقة اقصوصة سيرج كوزميتش التي لم يكن قد استوعبها . فاعترفت له هيلين باسمة انها هي الاخرى لاتعرف عنها اكثر مما يعرف .

ولما عاد الامير بازيل الى البهو الكبير ، كانت الأميرة تتحدث عن عن بيير مع سيدة في سن ناضجة :

ــ صحيح انها صفقة موفقة ، لكن السعادة ياعزيزتي ...

فأجابتها السيدة المسنة :

ان امر الزواج بيد الله ...

بدا على الامير بازيل انه لم يسمع تلك المحاورة ، وراح يتهاوى على اريكة

في احد الاركان ولم يلبث ان اغمض عينيه وكأنه اغفى. ولما سقط رأسه على صدره تمالك نفسه وقال لزوجته :

ـ آلين ، اذهبي وانظري ماذا يفعلان .

نهضت الأميرة واجتازت الباب وعلى وجهها طابع الخطورة واللامبالاة ، فألقت نظرة على البهو الصغير حيث كان بيير وهيلين يتحدثان . فقالت لزوجها :

ـ انهما لازالا ينسجان على منوال واحد : الحديث !

قطب الامير بازيل حاجبيه فتقلص جانب من فمه واهتزت وجنتاه وانطبع وجهه بذلك الطابع البشع الفظ وانتفض ونهض واقفاً ، والقى برأسه الى الوراء ومر بالسيدات غير عابىء بهن ، واتجه نحو البهو الصغير بخطوات مصممة ثابتة . مضى من فوره الى بيير الذي ما ان شاهد خطورة قسمات وجهه حتى انتصب واقفاً مذعوراً .

قال الامير :

ـ حمداً لله لقد حدثتني زوجتي بكل شيء .

ثم طوق بيير باحدى ذراعيه وهيلين بالاخرى واعقب :

ليوليا ، يافتاتي ، انني سعيد ، شديد السعادة ... واختلجت نبرات صوته من الانفعال ... وانت يابيير ، لقد كنت احب اباك ... لسوف تكون رفيقة جديرة بك... ليبارككما الله !

وضم ابنته الى صدره ثم عانق بيير الذي شعر بانفاسه الكريهة تحجب وجهه ومن الغريب ان دموعاً حقيقية كانت تبلل جفنيه .

هتف متابعاً :

ـ تعالي ياأميرة .

وهرعت الاميرة وراحت بدورها تبكي ثم تبعتها السيدة المسنة التي راحت تمسح دموعها بمنديلها ايضاً . معانقين بيير الذي قبل بدوره يد هيلين اكثر من مرة وبعد قليل خرجوا نساء ورجالا تاركين الشابين وحدهما .

راح بيير يحدث نفسه : « كان لابد من وقوع هذه الكارثة ، فمن العبث اذن ان اتساءل عما اذا كان الأمر حسناً ام سيئاً . والآن وقد حلت القضية فقد تخلصت من شكوكي المتزايدة المقلقة . ولعل في هذا وحده ربحاً كافياً » امسك بيد مخطوبته بصمت وراح يمعن النظر في حنجرتها البديعة التي كانت تهتز بانتظام .

شرع يقول فجأة :

— هيلين ...

وارتج عليه . راح يفكر : « ان الانسان ينبغي ان يقول شيئاً في مثل هذه المناسبات . » لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب ان يقال . حدق في وجهها ، فاقتربت منه متضرجة الوجه . قالت وهي تشير الى نظارتيه :

— آه ! ارفع هذه الـ ... هذه الـ ...

فاطاعها بيير ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين الى جانب التعبيرات الاخرى التي كانت مرتسمة فيها ، تلك التعبيرات المألوفة الاخرى التي كانت مرتسمة فيهما ، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها . اراد ان ينحني ليقبل يدها ، لكن هيلين ، بحركة عنيفة من رأسها ، سريعة غير منتظرة ، قربت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما . انقلبت سحنتها بشكل غريب حتى ان بيير شده لذلك التحول .

قال في نفسه : « ليكن ، لقد توغلنا كثيراً حتى تتيسر لنا العودة او التراجع ثم انني احبها بعد كل شيء ! » نطق بقوله :

ـ احبك .

لقد تذكر اخيراً ان هذه الكلمة ومثيلاتها جديرة بالترديد في تلك المناسبة. لكن تلك الكلمة التي تفوه بها خلفت صدى مؤثرا مخزيا حتى انه خجل من تلفظه بها .

وبعد ستة اسابيع اخرى تزوج بيير، لقد اصبح المالك السعيد لاجمل امرأة ولعدة ملايين ـ او على الاقل هذا ما كان يشاع عنه ـ ، فانتقل الى قصره المنيف الذي ادخل عليه الكثير من التحسينات والاصلاحات، قصر كل كونت من آل بيزوخوف .

* * *

الفصل الثالث

(زيارة غير منتظرة)

في تشرين الثاني من عام ١٨٠٥ ، تلقى الأمير العجوز نيكولا آندريئتين بولكونسكي رسالة من الأمير بازيل يخطره فيها بعزمه على زيارته برفقة ابنه . كانت الرسالة تقول : « انني ساقوم بجولة تفتيشية ولا شك ان خمساً وعشرين مرحلة لا تعتبر بالنسبة الي شيئاً مذكوراً اذا كان المقصود من قطعها زيارتك يا محسني شديد النبل والاحترام . ان « آناتولي » يرافقني في هـذه الزيارة . انـه سيلتحق بالجيش واني آمل ان تسمح له ان يعبر الك شفهياً عن شديد الاحترام الذي يشعر به ازاءك كما يكن مثله لأبيه . »

ولما أطلعت الأميرة الصغيرة على تلك الرسالة قالت بطيش :

ــ هه لم يعد من حاجة لدفع ماري في الاوساط . ها ان الراغبين يتبعونها الى حيث تقيم .

اما الأمير نيكولا آندريئيتش فقد عبس بوجهه ولم يعقب .

وبعد خمسة عشر يوماً ، جاء رجال الامير بازيل يعلنون أن سيدهم سيصل صباح اليوم التالي .

كان بولكونسكي العجوز يشعر دائماً بتقدير تافه لعقلية الامير بازيل وشخصه وقد ازدادت تلك الفكرة قوة في نفسه عندما بلغ بازيل مركزاً لامعاً على عهد العاهلين بول والكسندر . وقد ادرك من التلميحات التي وردت في الرسالة من التنويه الذي فاهت به « ليز » الغرض الذي يسعى اليه بازيل ، فامتزج الحكم السيء الذي كان يصدره عليه بشعور بالازدراء والنفور منه . لم يكن يتحدث عنه الا مغمغماً مغضباً . وبلغت شراسته ذروتها في اليوم الذي كان ينتظر فيه وصول الأمير بازيل . فهل كان سيء المزاج لأن الأمير سيصل ذلك اليوم ام انه كان مستاءً بصورة خاصة من مجيء الأمير لأنه كان سيء المؤاج ؟ على كل حال ، لقد كان في وضعيه نفسية سيئة حتى ان توخين اشار على المهندس بعدم تقديم تقريره ذلك اليوم للأمير الغاضب الساخط .

قال له وهو يدعوه الى الاصغاء الى وقع خطوات سيده !

ـ اسمعه كيف يمشي . ألا يضرب الارض بكعبيه ؟ اننا نعرف معنى هذه المشية .

مع ذلك ، فقد قام الأمير بنزهته اليومية المألوفة في الساعة التاسعة صباحاً . كان يلبس قلنسوته المعروفة وفروته المبطنة بالمخمل ذات الياقـــة المصنوعة من فراء السمور . وكان الثلج قد انهمر بغزارة في الليلة السابقة . لكن الممشى الذي كان الامير يسير فيه كان خالياً من الثلج . لقد كانت الآثار تشير الى ان الخدم قد ازالوا الثلج عن الممشى وكنسوه ، وكانت آثار المكانس والرفوش واضحة ، بل ان مجرفة كانت مفروشة في مرتفعات الثلج التي تحيط بجانبي الطريق . تجول الأمير الصامت العابس في حديقة البرتغال وفي الزرائب والاصطبلات وبيوت

اتباعه وتفقد الابنية والدور المشيدة. سأل وكيله الذي كان يرافقه حتى القصر:

ـ هل تستطيع الزحافات المرور ؟

فأجاب الوكيل ، وهو رجل وقور تكاد سحنته وتصرفاته ان تكون صورة طبق الاصل عن تصرفات سيده وسحنته :

ـ هناك طبقة كثيفة من الثلج يا صاحب السعادة . لكنني أمرت بتنظيف الممر .

كان الامير قد بلغ عتبة القصر . فأومأ برأسه اشارة على الموافقة . فهمس الوكيل في سره : « حمداً لله » لم تهب العاصفة !

اردف معتباً :

ـ ولولا ذلك لما كان من السهل على الزحافة ان تمر ياصاحب السعادة ... ولما كان هناك وزير كما يقال آت لزيارة سعادتكم ...

وهنا وقع المحذور ، فقد التفت الأمير بغتة وحدج وكيله بنظرة ملتهبة وهتف بصوته القاسي الثاقب :

ـ ماذا قلت ؟ وزير ؟ أي وزير ؟ من اعطاك هذه الاوامر ؟ لاتنظف الأرض من اجل الأميرة ومن اجل ابنتي ، ولكن من اجل وزير ! انا لااعرف وزراء ! ...

ـ كنت اعتقد يا صاحب السعادة ...

فصرخ الامير وهو يقذف بكلمات لاحصر لها بسرعة متزايدة :

ـ كنت تعتقد ! كنت تعتقد ... آه ، ايها الحشرات ، يا لكم من اوغاد!.. سأعلمك كيف تعتقد !

ورفع عصاه فوق رأس آلباتيتش واهوى فدفعت بهـا الغريزة الرجل الى تفادي الضربة ...

استرسل الأمير يقول :

ـ لقد كنت تعتقد اذن ! ... ايها القذر !

وعلى الرغم من ان آلياتيتش ـ الذي روعه ان يجد في نفسه الجرأة على تفادي الضربة التي وجهها اليه سيده ـ ازداد اقتراباً من سيده وهو يحني رأسه الاصلع، فان الامير لم يعاود رفع عصاه ليضرب بها الرجل . ولعل اقتراب الوكيل من سيده بتذلل كان السبب في منع تلك المحاولة . غير انه لم يتوقف عن الصراخ واغراق المسكن بوابل من السباب :

ـ أيها القذر السافل ! ... دعهم يعيدوا الثلج على الطريق ! واندفع الى الداخل مغضباً .

وفي ساعة الغداء انتظرت الأميرة ماري والآنسة بوريين مقدم الأمير وهما واقفتين . كانتا مطلعتين على حالته النفسية طيلة ذلك اليوم . كانت الآنسة بوريين مشرقة الوجه يخيل للناظر اليها انها تقول : « لا اريد معرفة شيء ، انني كما أنا دائماً » اما الأميرة ماري فقد كانت ممتقعة الوجه خافضة البصر مروعة . كانت ماري تعرف انه يجدر بها في مثل هذه الازمات ان تتخذ مظهر الآنسة بوريين دريئة فتبدو باسمة مشرقة الوجـــه مثلها . لكنها ما كانت لتستطيع النجاح في تصنع ذلك المظهر . وكان عجزها يملأ قلبها حزناً ويأسا . كانت تقول في سرها : « انني اذا تظاهرت بأنني لم الاحظ عليه شيئاً فانه يظن انني لا أعبأ به ولا أحفل بما يصيبه . واذا عبست واكتأبت فانه سيقول من جـــديد أنني حزينة كجلباب الليل ! »

وما كاد الأمير يطالع سحنة ابنته المستطيلة حتى انفجر مغمغماً :

ـ إما انك عديمة القلب أو حمقاء !

ولما لاحظ اختفاء كنته عن المائدة حدث نفسه قائلاً : « ها ان الاخرى

ليست هنا ! لعلهم ثرثروا امامها بحديث ما !

سأل :

- ترى أين الأميرة ؟ هل هي مختبئه ؟

فاجابت الآنسة بورين باسمة :

- انها ليست على ما يرام لذلك فقد احتجبت في حجرتها . ان مثل هذه الامور منتظرة لمن كانت على مثل حالها .

فغمغم الأمير وهو يجلس الى المائدة :

- هم ! هم !

بدت احدى الصحاف على غير مايشتهي ، وحدث انها غير مستوفية النظافة ، فاشار بأصابعه الى « المنطقة » المشبوهة وألقي بالصفحة بعيداً ؛ فالتقطها تيخون قبل ان تسقط وأعطاها لرئيس الخدم .

لم تكن الاميرة الشابة منحرفة المزاج بالفعل ، لكنها أعلمت بحالة الامير العقلية المتوترة ، ففضلت التزام حجرتها لأنها كانت تشعر برعب لايوصف من مقابلته وهو في مثل تلك الحالة المعتكرة .

همست في اذن الآنسة بورين قائلة :

- انني اخاف على الطفل الذي في احشائي لأن الله وحدة يعرف ماذا سيترك مثل هذا الرعب في نفسي وماذا سيخلف من نتائج .

كانت منذ وصولها الى ليسّيياكوري تشعر بلون من الخوف من حميها، خوف بمزوج بنفور لم تكن تتبينه بوضوح لشدة ماكان الرعب مستولياً على نفسها . اما الأمر ، فان نفورة منها انتهى بكراهية . ولما تآلفت ليز مع محيطها الجديد ، خصت الآنسة بورين بكثير من عطفها ومحبتها . فلم تقنع بقضاء ساعات النهار في صحبتها بل رجتها ان تنام الى جوارها . وبذلك فإنها ما كانت

توفر حماها في احاديثها الكثيرة التي كانت تقطع الوقت بها مع الآنسة بورين .

قالت الآنسة بورين وهي تطوي منشفتها الناصعة البيضاء باناملها الوردية :

– سوف نستقبل ضيوفاً ياأميري . ان سعادة الأمير كوراجين وابنه هما اللذان سيصلان على مانمي الي . أليس كذلك ؟

وعلى لهجتها الاستفسارية المرحة اجاب الأمير :

– هم ! ... ان صاحب هذه « السعادة » عديم الشأن . انني انا الذي ادخلته في الوزارة ! ... ثم انني لست افهم ماذا جاء يعمل عندي الابن . لست افهم . لعل الاميرة اليزابيت كارلوفنا والاميرة ماري تعرف السبب ... اما انا ، فانني لست في حاجة الى هذه الشخصية ...

وألقى نظره على ابنته ماري التي تضرج وجهها فجأة واردف :

– هل انت مريضة ? لعله الخوف من الوزير كما يقول آلياتيتش السخيفة !

كلا يا أبي .

وعلى الرغم من ان الآنسة بورين اثارت الحديث دون كبير مقصد فانها لم تتقبل بالهزيمة . راحت تتحدث عن بيوت البنات الشتوية وتبدي انشراحها وافتتانها بهزيمة تفتحت أكمامها مؤخراً ، حتى ان الامير لم يكد يفرغ من الحساء حتى لانت اسارير وجهه وانبسطت .

مضى الى جناح كنته يعودها قبل انتهائه من الطعام فرآها جالسة على مقعد منخفض تثرثر مع ماشا وصيفتها . فلما وقع بصر ليز على حميها ، شحب وجهها . طرأ على وجهها تحول كبير فغارت وجنتاها وبدت بشفتها الناتئة وعينيها الشاخصتين أميل الى البشاعة . اجابت على سؤال الامير الذي جاء يستفسر عن صحتها :

– انني اشعر بشيء من التثاقل فحسب .

– ألست في حاجة الى شيء ؟
– كلا شكراً يا أبي .
– ليكن . حسناً .

وانسحب من الغرفة . وبينما هو يجتاز الردهه وجد آليانيتش مطرق الرأس .

– هل اعادوا الثلج على الممشى ؟

لقد اعيدت ياصاحب السعادة . ارجو ان تتفضل سعادتك بالصفح عن خطيئتي . لقد تصرفت بحماقة ...

غير ان الامير قاطعه وهو يضحك ضحكته المغتصبه :

– هيا ، إنس هذا ، حسناً ، حسناً .

ومد يده الى وكيله الذي هرع اليها يقبلها ، ومضى الى مكتبه .

وصل الأمير بازيل قبل المساء . هرع عدد من الخدم والسائقين لاستقباله عند طرف الممشى الذي نثر عليه الثلج عمداً . فلم يتمكنوا من ادخال زحافتـه وامتعته الى جناح القصر الا بعد عناء شديد .

خصص للأمير بازيل وولده غرفتين مستقلتين .

نزع اناتول سترته وجلس الى منضدة راح يحدق في زاويتها بعينيه الكبيرتين الجميلتين ، ويداه الى وركيه والابتسامة مرتسمة على شفتيه . كانت حياته كلها في نظره عيداً مستمراً دائماً يشرف على تنسيقها منظم خفي تنحصر مهمته في اعدادها وترتيبها . ومن خلال هـــذه الزاوية ، ، راح آناتول ينظر الى زيارته الى ذلك العجوز النكد ووارثتـــه البشعة . فكر في ان المهزلة قد تكون مسلية « وطالماهي على هذا القدر من الغنى ، فلماذا لاأتزوجها ؟ ان المال ووفرته لايفسدان شيئاً . »

ازال لحيته وتعطر بعناية وتدقيق باتا عادة مألوفة لديه ثم رفع رأسه الجميل

باعتداد مضفياً على نفسه ـ كعادته ـ مظهر الفاتح الغازي والشاب الهادىء الوسيم ودخل الى حجرة ابيه . كان ابوه منشغلا في زينته وحوله وصيفاه ، الملازمان له يستجيبان لطلباته . اجال الأب نظرة فيما حوله ، نظرة ارتياح واطمئنان ، واستقبل ابنه بحركة رشيقة من رأسه تدل على مدى سروره وانشراحه وكأنه يقول له : « رائع ، بديع ، كذلك كنت اريد ان اراك اليوم ! »

سأل آناتول مناقشاً موضوعاً قتله بحثاً وتمحيصاً مع ابيه من قبل كما يبدو !

ـ دعك عن المزاح يا أبي . قل لي هل هي حقيقة شديدة البشاعة ؟

ـ يالغباء ! المهم هو ان تبدو معقولاً ومحترماً حيال الأمير العجوز .

ـ لكنه اذا تسبب في شيء لايروق لي فانني سانسحب على الفور . انني شديد الخوف من مثل هؤلاء العجائز !

ـ فكر في ان مستقبلك كله متوقف على سلوكك ورضاه .

وفي تلك الاثناء ، كانت الوصفيات في غرفة الخدم على علم بوصول الوزير وولده حتى ان ادق تفاصيل مظهريهما بات معروفاً منهن ، يتناقش فيه ويتجادلن حوله . اما الأميرة ماري ، فانها انسحبت الى غرفتها محاولة عبثاً السيطرة على اعصابها وطرد ارتباكها . كانت تحدث نفسها وهي تنظر الى وجهها في المرآة قائلة : لماذا كتبوا الي ، ولماذا حدثتني ليز بالأمر ؟ ان ذلك لايمكن ان يقع . ثم ان علي ان اظهر في بهو الاستقبال ! انني لن استطيع الظهور أمامه على حقيقتي بعد علمي بما يضمره حتى ولو نال اعجابي ورضاي ! » كان مجرد تفكيرها في انها قد تضطر الى مجابهة نظرة ابيها ، تشل اطرافها من الخوف .

هرعت ماشا ، وصيفة لويز ، الى سيدتها تنقل اليها والى الآنسة بوريين تقريراً مفصلاً عن الوزير وابنه وآخر الاخبار المتعلقة بهما : لقد وجد الأب صعوبة تذكر في ارتقاء السلم اما الابن ، وهو شاب جميل نضر الوجه اسود الحاجبين ،

فقد ارتقاه وراء ابيه كالنسر وراح يتخطى كل ثلاث درجات دفعة واحـدة . ولما حصلت الصديقتان على هذه المعلومات ، راحتا تتناقش حول هذا الموضوع نقاشاً حامياً حتى ان صوتيها كانا مسموعين من الردهة . ولما قصدتا الى حجرة الأميرة ماري ، لم تكونا قد انتهتا من الجدل .

قالت ليز وهي تتهاوى على اريكة لأن انتفاخ بطنها كان يجعل مشيتها عسيرة صعبة :

ـ لقد وصلا يا ماري ، هل علمت بذلك ؟

كانت ليز قد نضت عن جسمها ثياب الصباح وارتدت واحداً من اجمـل أثوابها وعنيت عناية فائقة بزينتها وشعرها . لكن انفعال وجهها ما كان يخفي التعب والشحوب القاتل المتجليين على قسماته . وكان ذلك الثوب الذي لاترتديه الا اذا كانت مدعوة الى حفلة رسمية او اجتماع للنبلاء ، يزيد في مظاهر بشاعتها . اما الآنسة بوريين ، فقد كانت هي الاخرى قد ادخلت على زينتها تجميلاً خيل اليها انه لن يكون واضحاً او ظاهر الافتعال . ولقد بدت حينذاك اكثر جمالاً من عادتها واشد فتنة .

قالت الآنسة بوريين :

ـ ماذا ، هل تبقين كما انت يا أميرتي العزيزة ؟ لن يلبثوا حتى يعلنوا لنا ان هؤلاء السادة قد انتقلوا الى البهو ، فيجب عندئذ ان نلحق بهم . ومع ذلك فانني ارى انك لم تصلحي شيئاً من زينتك !

نهضت ليز من مكانها وقرعت الجرس تستدعي الوصيفة ، وراحت تجهد نفسها في تزيين سلفتها . كانت ماري تشعر بجرح في كبريائها لانها كانت مضطربة لمجرد قدوم خطيب خصوصاً وان صديقتيها ما كانتا تعتقدان غير ذلك الاعتقاد . ولم تكن تريد الافصاح عن مشاعرها باظهار ارتباكها في حضرتها . ثم انها اذا

رفضت اصلاح زينتها ، فانها ستتعرض لالحاحها ودعاباتها التي لا تنتهي . لذلك فقد انطفأ وميض عينيها الجميلتين وتضرج وجهها بالاحرار ، واتخذت مسحة الضحية المستسلمة التي لطالما ألفتها ، واسلمت امرها لعناية الصديقتين : ليز والآنسة بوريين .
وشرعت المرأتان في تجميلها « بكل اخلاص » رغم ان بشاعتها كانت تفوق كل منافسة . راحتا اذن تنصرفان الى عملها بصراحة تامة تستلهمان عزيزتها النسوية الساذجة المتأصلة في نفوس كل النساء ، تلك الغريزة التي تجعلهن يعتقدن ان الزينة هي السلطة التجميلية الوحيدة !

قالت ليز جازمة بعد ان تأملت جانب وجه سلفتها على مسافة معينة :

ـ كلا ياصديقتي الطيبة ، ان هذا الثوب لايلائمك . مري ان يأتوك بالثوب الماساكا (وهي كلمة كانت تطلق على اللون الباذنجاني الذي كان يعتبر آخر مبتكرات ذلك العصر) ... ان الامر مهما كما تقدرين . لعل مصيرك كله سيقرر اليوم ... ان لون هذا الثوب فاتح فاقع . أؤكد لك انه لايلائمك ، كلا ، لايلائمك .

والواقع ان الثوب لم يكن غير ملائم بل ان الوجه هو الذي كان غير متجانس ، وليس الوجه وحده ، بل الجسد كله ، جسد الاميرة ماري . غير ان لا الآنسة بوريين ولا ليز ما كانت تعرف ذلك . كانتا تعتقدان انهما اذا ثبتتا شريطاً سماوي اللون في شعر ماري المرجل المرفوع الى اعلى واحتاطتا الثوب الثوب الاسمر بغلاله من ذلك اللون الخ ... فان كل شيء يكون على خير مايرام . لكنهما كانتا تنفيان من حسابهما ان الوجه الهزيل لايمكن ان يخضع لأي تحويل . بل انهما كانتا تنسيان انهما مهما بالغا في تجميل الاطار وتبديله ، فان ذلك الوجه سيبقى ابداً على بشاعته تلك التي تنتزع العبرات والحسرات . وبعد تجربتين ثلاث تجارب استسلمت ماري لها بكل خضوع ، وبعد ان عكفت ليز شعر

سلفتها ورفعته الى الاعلى ، ـ رغم ان ذلك كان يشوه منظر وجهها ـ وبعد ان اثبتت اصابع الآنسة بوريين الغلالة الزرقاء على ثوب الماساكا الجميل ، حامت ليز حولها مرة او مرتين فاصلحت ثنية هنا ، وجذب الغلالة من هناك ، ثم احنت رأسها وراحت تتأملها من جانب ثم من آخر . واخيراً قالت بلهجة الواثقه .

ـ كلا ، مستحيل . كلا ولا شك ياماري ، انه لايلائمك . انني أراك اكثر جمالا في ثوبك الاشهب الذي ترتدينه كل يوم . كلا رحماك ، اعملي ذلك من أجلي .

وضربت كفاً بكف وهتفت تقول للوصيفة :

ـ كاتياً ، ائتني بثوب سيدتك الأشهب .

واردفت تخاطب الانسة بوريين :

ـ انظري يا آنسة بوريين كيف سأجعلها تبدو في ذلك الثوب .

وراحت تتلمظ شأن الفنان الذي يتذوق فنه سلفاً .

ولما جاءت كاتيا بالثوب ، كانت ماري لاتزال جالسة دون حراك تتأمل تفاسيم وجهها . فرأت ليز في المرآة ان عيني سلفتها ممتلئتان بالدموع وان رعدة خفيفة كانت تهز شفتيها شأن من كان على وشك البكاء .

قالت الأنسة بوريين :

ـ آه ياعزيزتي الاميرة ، ابذلي مجهوداً صغيراً آخر .

أخذت ليز الثوب من يدي الوصيفة واقتربت به من ماري . قالت :

ـ والآن ، سوف نقوم بتجربة بسيطة وفتانة معاً .

واختلط صوتها بصوتي الآنسة بوريين وكاتيا الوصيفة اللتين شاطرتاها الضحك، فتعالت ضجة مرحة مؤنسة .

قالت ماري :

ـ كلا ، دعيني ياليز .

كانت لهجتها شديدة الخطورة مشبعة بالألم حتى ان زقزقة العصافير البهيجة انقطعت على الفور . ولما نظر ثلاثتهم الى تعبير تينك العينين الكبيرتين الجميلتين المليئتين بالدموع والمقاصد ، ادركن ان الالحاح غير مجدٍ هـذا اذا لم يكن اغراقاً في القسوة والتجني .

قالت ليز :

ـ ابدلي اذن ترتيب شعرك .

ثم خاطبت الآنسة بوريين بلهجة عتاب ولوم !

ـ لقد نبهتك من قبل الى ان لماري وجهاً لاتلائمه هذا النوع من «التسريحة» المرتفعة . نعم انها لاتلائم وجهها ابداً ابداً . ابدليها فديتك !

فأجابت ماري بصوت مخضل بالدموع :

ـ لا بل اتركني ، اتركنني . سيان عندي ذلك .

واضطرت ليز والآنسة بوريين الى الاعتراف في سرهما ان ماري كانت ـ وهي على تلك الزينة ـ بادية البشاعة ، بل اكثر بشاعة من ذي قبل . لكن فات الوقت الذي يمكنها من تلافي الخطأ . نظرت اليهما تلك النظرة الكئيبة الحالمة ، تلك النظرة التي كانتا تعرفانها لدرجة انها ماعادت تخيفهما ـ رغم ان ماري ما كانت تُشعر احداً بالرهبة او بالخوف ـ والتي كانت مع ذلك تجعلهما في مثل هذه الحالة تنطويان على نفسيهما وتلتزمان الصمت .

ظلت ماري وحيدة . لم تتبع نصيحة ليز بل انها لم تلق نظرة واحدة على على وجهها في المرآة . لبثت كالحة الوجه صامتة مطرقة الرأس متصلبة اليدين ، وراحت تحلم في يقظتها . اخذت تتصور زوجها المقبل شخصاً قوياً مسيطراً ، ذا جاذبية غامضة معقدة تساعده على حملها الى عالمه هو ، عالم سعيد مختلف كل الاختلاف عن عالمها . وتتصور طفلها « هي » شبيها لذلك الذي

شاهدته أمس لدى ابنة مربيتها . كانت تراه مضموما الى صدرهـــا وتتصور زوجها ينظر اليها بحنان . لكنها قالت تحدث نفسها فجأة : « ولكن كلا ، ان هذا مستحيل ، انني شديدة البشاعة » .

علا صوت الوصيفة من وراء الباب تقول :

ــ لقد اعد الشاي ياسيدتي وسيصل الأمير فوراً .

انتزعت ماري نفـها من احلامها وروعت لاستسلامهـــا الى مثل تلك التخيلات . وقبل ان تبارح غرفتها ، عمدت الى مصلاها حيث حدقت طويلاً في الوجه الاسود الماثل في صورة كبيرة للمخلّص يضيؤها قنديل ، ويداها مضمومتان الى صدرها . كان يعذبها شك مريع : ترى هل كانت مدعوة الى تذوق مباهج الحب ، الحب الارضي المكرث لرجل؟ كانت كلما فكرت في الزواج تخيلت السعادة التي يشعر بها المرء في الاسرة ، سعادة الاطفال والبيت . لكنها كانت في قرارة نفسها تشعر انها منذورة لاشواق ارفع من مباهج الارض . وكان ذلك الاحساس في نفسها شديد الوضوح والصخب حتى انها راحت تحاول اخفاءه عن عيون الآخرين بمثل القوة التي كانت تصرفها لمغالطة نفسها في هذا الصدد تمتمت : « رباه » كيف أستطيع ابعاد هذه الوساوس الشيطانية ، خنق هذه الافكار السيئة الى الابد ، وانجاز ارادتك المقدسة بسلام وهدوء ؟ » لم تكد تنتهي من هذا الابتهال حتى شعرت في قرارة نفسها بالجواب العلوي السامي : « لاترغبي في شيء من اجل نفسك ، لا تبحثي عن شيء ولا تقلقي روحك ، لاتحسدي انسانا . ينبغي ان يظل مستقبلك مجهولا منك كما هو الحال في آخرتك . ولكن نظمي حياتك بشكل تكونين معه مستعـدة لكل شيء . فاذا شاء الله ان يبلوك بالتزامات الزواج فاطيعي مشيئته على الفور دون تردد . »

وازاء هذه الفكرة المطمئنة ـ وكذلك في أمل تحقق حلمها المحرم المتعلق

بالحب الملتهب ـ رسمت ماري اشارة الصليب على صدرها وهي تزفر، وهبطت السلم دون ان تفكر في زينتها او في شعرها ، او ان تهتم بالطريقة التي ستسلكها للظهور في البهو . بل انها لم تعد تفكر كذلك في المواضيع التي قد تثار وتصبح موضوعاً للبحث . إذ ما معنى هـــذه التفاهات اذا قورنت بمشيئة الله القدير ؟ ذلك الاله الذي لا يمكن ان تسقط شعرة عن رأس مخلوق الا بإذنه !



الفَصلُ الرابعُ

« احلام بورين »

عندما دخلت ماري الى البهو ، كان الامير بازيل وابنه يتحدثان الى الاميرة الصغيرة والآنسة بورين . دخلت متمهلة بتثاقل تسير على كعبها بحكم العادة . فلما اقتربت نهضت الآنسة بورين وكذلك الامير وابنه بينما راحت ليز تهتف مشيرة اليها : « ها هي ذي ماري ! » شملتهم ماري بنظرة عامة لم تترك شيئاً الا واحاطت به . رأت ان الامير بازيل عاد الى الابتسام بعد ان حافظت قسمات وجهه فترة وجيزة على تعابير الخطورة المصطنعة التي اسدلها على وجهه ، وان ليز كانت تحاول ان تقرأ على وجهي الضيفين الأثر الذي احدثه رؤيتها لماري على تلك الصورة ، وان الآنسة بورين – وكانت نظرتها اكثر اتقاداً من اي وقت مضى – في اوج زينتها وبهائها ، تشخص بابصارها محدقة في وجهه « هو » . اما « هو » فقد كان الشخص الوحيد الذي لم تره رغم وجوده . غير انها حدست انه طويل القامة جميل جداً شديد الجاذبية . وقد تقدم نحوها ملاقياً مستقبلا .

انحنى الامير بازيل باديء ذي بـدء فقبل يدها ، فلمست بشفتيها جبهته الجرداء واجابت على عبارات المجاملة التي بادرها بها بأنها لا زالت تحتفظ له في نفسها بذكرى ممتازة ، ثم اتبع آناتول اباه ، لكنها لم تحدق في وجهه . شعرت بيد ناعمـة قوية تمسك بيدها وان الجبين الذي تحسسته بشفتيها كان ابيض يعلوه شعر اشقر مضمخ بشكل معقول . فلما نظرت اليه اخيراً ، ادهشها ان يكون على ذلك القدر من الجمال . كان محنياً رأسه قليلا ، واضعاً ابهـام يده اليمنى في احدى عرى سترته ، عاطفاً صدره وظهره معاً ، مستويا على احدى ساقيه ، يتأمل ماري بصمت بينما كانت افكاره منصرفة عنها بشكل واضح . وعلى الرغم من ان اناتول لم يكن حاذقاً ولا متحدثا لبقاً ولا مؤثراً ، فانه كان يتمتع بميزة ثمينة في المجتمع هي بروده واعتداده اللذين ما كانا يزعزعهما حدث مهما كانت قوته . وقـــد درجت العادة على ان صمت الخجول امام شخص يقابله للمرة الاولى وقناعته بانه غير لبق يضفيان على المقابلة بروداً ملحوظاً يكون خلاله مجهداً نفسه في التنقيب عن الكلمات المناسبة والعبارات المقبولة . اما آناتول فكان على العكس ، يصمت دون اي ارتباك ويتبختر امام ماري متفحصاً زينتها بدعة . وكان واضحاً انه يستطيع البقاء زمناً غير قصير على حاله تلك وكان سلوكه يشعر بأنه : « اذا كان سكوتي يؤلمك ، فتحدثي على هواك . اما انا ، فانني لست راغباً في الحديث » ثم ان اناتول كان يتخـذ حيال النساء موقف الترفع والتكبر الذي يوقظ فيهن الفضول والانفعال بل والحب . كانت مواقفه المترفعة تنطق بصراحة قائلة : « انني اعرفك ، انني اعرفك . فما الفائدة من تهافتي على الترحيب والاهتمام بك؟ انني لو فعلت ذلك لكنت شديدة السرور ! » لقد كانت قسمات وجهه وتصرفاته توحي بذلك حتى ولو لم يكن يفكر مثل هذا التفكير بالفعل ، وهو الذي عرف عنه ان التفكير ليس من مزيته وخصائصه ! شعرت ماري بتلك المعاني والمقاصد

التي تبرزها مظاهر ذلك الشاب وحركاته ، ولكي تشعره بانها لاتريد احتكار صحبته ، انخرطت في حديث مع الامير العجوز ولم يلبث ذلك الحديث ان اصبح عاماً قوياً متشعباً بفضل ثرثرة ليز التي كانت شفتها ذات الزغب تكشف باستمرار عن اسنانها البيضاء . كانت تخاطب الامير بازيل بتلك اللهجة الماجنه التي يستعملها الثرثارون الوادعون والتي تقضي بايهام المستمعين انبينهما ذكريات مشتركة لا يعرفها سواهما والتي تكون فيحقيقتها وهماًوخيالاً مطلقين . استطاب الامير بازيل تلك اللعبة فاشترك فيها . وراحت ليز تقص على الحاضرين نوادر من محض ابتكارها وتوهمهم انها حقائق ثابتة ، واشركت في تلكالنوادرالامير الشاب اناتول الذي لم تكن تعرفه من قبل الا قليلا وتاهت الآنسة بورين في تلك الذكريات المبتكرة المختلقة حتى انماري نفسها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها من تيار تلك الذكريات السعيدة !

قالت ليز بالفرنسية طبعاً :

ـ هنا على الاقل يا اميري العزيز ، يمكننا ان ننعم بوجودك كلياً . ان الامر يختلف عما كان عليه الحال في حفلات انيت حيث كنت تنسحب فرارا . هل تذكرها ، تلك العزيزة انيت ؟

ـ لكنك لن تحدثيني في السياسة كما كانت تفعل انيت !

ـ وماذا عن ذكرياتنا حول مائدة الشاي ؟

ـ اه ! نعم . . .

وسألت أناتول :

ـ لماذا لم اكن أراك عند انيت ؟ آه ! نعم ، انني اعرف ، انني اعرف !

وغمزت بعينيها واردفت .

ـ لقد حدثني اخوك هيبوليت عن اعمالك ومشاريعك .

وهددته بسبابتها واعقبت :

ــ انني اعرف حتى مغامراتك الباريسية .

فقال الامير بازيل لولده وهو يستوقف ليز بامساكها من ذراعها ، وكأنه يجد صعوبة في منعها عن الفرار :

ــ غير ان ما لم يكن جديرا بهيبوليت ان يحدثك به هو انه كان يحوم حول اميرتنا الفاتنة التي طردته بلطف ...

واردف مخاطبا ماري :

ــ آه ! انها لؤلؤة النساء يااميرة .

اما الانسة بوريين فانها لم تفلت الفرصة التي اتيحت لها عندما سمعتهم يتحدثون عن باريس . فانبرت تسأل اناتول عماإذا كان قد غادر تلك المدينة منذ زمن طويل ، وعن الشعور الذي خلفته في نفسه . فأجابها اناتول بسرور جلي وهو ينظر اليها باسما ، وراح يحدثها عن وطنها . كان اناتول بمجرد ان وقع بصره على تلك الحسناء الفرنسية ، قد حدث نفسه بأنه لن يسأم النزول في ليسياجوري ما دامت هذه فيها . كان يتفحصها مدققاًويقول لنفسه « انها ليست رديئة ، كلا ، في الحقيقة انها ليست رديئة ، هذه الانسة المرافقة انني آمل ان تحتفظ ماري بها بعد زواجنا . ان هذه الصغيرة لطيفة للغاية . »

كان الامير العجوز في تلك الاثناء يرتدي ثيابه في مخدعه دون تعجل . كان يتساءل في شيء من السخط عن الخطة التي سيسلكها مع ضيفيه . لقد كان قدومهما يزعجه . كان يغمغم : « ما حاجتي الى الامير بازيل وفرخه ؟ ان الاب دعيٌّ مأفون اما الابن فلا شك انه سر ابيه . » لكن سبب سخطه الحقيقي انما يرجع الى ان تلك الزيارة تثير مسألة معينة كان يخنقها كلما انطرحت على بساط فكره ، مسألة كان دائما يفكر فيها ويدرسها من كل وجوهها : هل

يقرر ذات يوم الافتراق عن ماري بايجاد زوج لها ؟ تلك كانت المسألة التي لم يفكر مرة في حلها بصراحة او درسها باقدام ، خصوصاً وانــه كان يعرف سلفاً ان العدل وحده سيملي عليه الجواب وان العدل في هـذه المسألة يتناقض وعواطفه الشخصية بل ويتنافى مع شروط وجوده وحياته . لقــد كان رغم البرود الذي يتظاهر به ، لا يطيق الحياة دون وجود مـاري . راح يفكر : «ولمَ ازوجها ؟ لسوف تكون تعيسة حتما في حياتها الزوجية؛ هذه ليز التي تزوجت آندريه، وهو ولا شك أحسن الازواج ، ومع ذلك فإنها غير راضية عن مصيرها! ثم من ذا الذي سيتزوج ماري عن حبه لها ؟ انها بشعة وغـير لبقة اجتماعياً . لسوف يتزوجونها من اجل علاقاتها وثروتها . فهل يتعذر فعلا بقاؤها فتاة عزباء ؟ ابداً، وانها ستعيش بذلك في سعادة أعم واوسع ! » وبينما هو يضرب اخماساً باسداس ويستكمل ارتداء ثيابه ، شعر ان المسألة التي ظلت متفاوته زمناً طويلا لن تكون اليوم اكثر تعقيداً . واذا كان الامير بازيل قد اصطحب ابنه فما ذلــك الا ليتقدم بطلب يد ماري . ولا بد من اعطائه جواباً نهائياً سواء أكان ذلك اليوم او غداً . نعم ، ان الاسم والمركز مناسبان ولكن ينبغي ان يعرف كذلك اذا كان الخطيب نفسه جديراً بابنته . وهذا ما سيتأكد منه بعد حين .

وأنهى الأمير مناجاته بصوت مرتفع قائلًا :

ــ هذا ما سنراه الآن ، نعم ، هذا ما سنتأكد منه بعد حين !

دخل الى البهو بخطاه السريعة الرشيقة وشمل الحاضرين بنظرة سريعة اتاحت له ملاحظة زينة ليز المحدثة والاشرطة التي كانت الآنسة بوريين تثبتها في شعرها وعلى ثوبها ، وابتساماتها التي كانت تتبادلها مع آناتول ، وشعر ابنته في ذلك الوضع الكئيب وانطوائها وسط النقاش العـام ، فحدث نفسه بغضب قائلا :

« لقد أظهرت نفسها كأغبى الحمقاوات ! لقد فقدت كل حياتهـــا بينما الفتى لا يعيرها التفاتا ! »

اتجه نحو الأمير بازيل وقال له :

ــ مرحباً ، مرحبا ، سرتني رؤيتك .

فأجابه الأمير بازيل بتلك اللهجة الأنيسة الفكهة المتزنة المألوفة لديه :

ــ ان مرحلتين لاتعتبران مشقة في سبيل لقاء صديق طبيب قديم. هاهو ذا أصغر ابنائي أقدمه بين يديك .

تأمل الأمير نيكولا آندريئيتش وجه اناتول وقال :

ــ لعمري انه فتى . تعال وعانقني !

وادار له خده تسهيلا لمهمته . . . .

عانق اناتول الأمير العجوز وهو يتأمله بفضول متحرر منتظراً أن يبادره باحدى ثوراته الغريبة الشاذة التي حدثه أبوه عنها .

جاس الامير نيكولا في مكانه المألوف على الاريكة وجذب اليه مقعـداً دعا الامير بازيل الى الجلوس عليه وراح يستفسر منه عن الاحداث الاخيرة . وكان يتظاهر بالاصغاء للامير بينما كانت ابصاره لاتنفك تلاحق ابنته وتراقبها .

قال مكرراً كلمات الامير بازيل الاخيرة ، وقد نهض فجأة واتجـــه نحو ماري مباشرة :

ــ اذن ، فان الاخبار اصبحت ترد الآن من بوتسدام ؟

سـألها :

أمن أجل الضيوف عملت هـذه المهزلة ؟ لعلك تريدين اظهار نفسك بمظهر الجميلة . ولما كنت قدرت ان من المناسب ترجيل شعرك بطريقة جديدة اكراماً للضيوف ، فانني اسرك الامر امامهم بان لا تعمدي الى تبديل « تسريحتك »

بعد الآن دون موافقتي واذني .

فتدخلت الاميرة الصغيرة وقد تضرج وجهها :

ــ انها خطيئتي ياأبي .

فأجاب العجوز :

ــ انك حرة التصرف على هواك . اما هي ، فلا حاجة بها لأن تبدو اكثر بشاعة مما هي عليه .

وعاد يجلس في مكانه دون ان يعير ابنته التفاتاً وهي التي بلغ بها الخجل مبلغ البكاء .

قال الامير بازيل :

ــ على العكس ، ان هذه الطريقة تتلاءم تماماً مع الأميرة .

لكن العجوز كان في تلك الاثناء ملتفتاً الى اناتول . قال له :

ــ هيا يافتاي ، او ايها الامير الشاب ــ لست ادري على الضبط كيف ينادونك الآن ــ تعال الى هنا . ينبغي ان نتحدث وان نتعارف .

فجلس اناتول قرب الأمير باسماً وهو يفكر في سره : « ها ان المهزلة قد بدأت ! »

اردف الامير العجوز :

ــ اذن ياعزيزي ، لقد نشأت في الخارج كما قيل لي أليس كذلك ؟ طبعاً ان امرك يختلف عن امرنا انا وابيك ، لاننا لم نجد الا واحداً من جرذان الكنيسة ليعلمنا الكتابة والقراءة !

ثم سأله وهو يحدق في وجهه عن قرب :

ــ قل لي ، هل انتظمت الآن في عداد الحرس الراكب ؟

فقال هذا وهو يكبت ضحكته بجهد بالغ :

– كلا ، بل انني في عداد الجيش العامل .

جميل جداً ، اه ، حسن جداً ياصديقي . انك تريد خدمة القيصر والوطن ؟ اننا في حالة حرب ، وان شاباً مثلك يجب ان يساهم في الخدمة . اذن هل تذهب الى الجبهة ؟

– كلا ياأمير . ان فرقتي في الجبهة فعلا ، لكنني اشغل مركز ملحق ..

وتوجه الى ابيه بالسؤال قائلا وهو يضحك :

– انني ملحق بأي شيء ياابى ، ياللشيطان

فتضاحك الامير العجوز وقال :

– هذا مايسمى خدمة الوطن !... بأي شيء انا ملحق بحق الشيطان ؟ ها ! ها ! ها !

وانفجر اناتول ضاحكاً بكل نفسه . غير ان الامير العجوز قطب حاجبيه فجأة وقال له :

– حسناً ، ... اذهب .

فمضى اناتول الى السيدات والابتسامة لازالت على شفتيه ، بينما تحول الامير العجوز الى ابيه يقول :

– لقد انشأتها نشأة ممتازة في الخارج أليس كذلك ؟

– لقد عملت مافي وسعي . والحق يقال ان الثقافة الاوربية خير من ثقافتنا المحلية ...

– آه لاشك ، كل جديد جميل ... لامجال للبحث في هذا ، انه فتى!... هيا ، لننتقل الى مخدعي .

وامسك بذراع الامير بازيل وقاده الى مكتبه . وما أن اصبحا وحيدين حتى اطلعه الزائر على رغبته وآماله .

قال الامير العجوز غاضباً :

ــ اتعتقد مثلا انني اعترض سبيلها وانني لااستطيع الحياة بدونها ؟ هراء ياعزيزي ... خذها منذ الغد ، فإنني لن اتصدى لها . بيد أني اريد معرفة صهري على حقيقته . انك تعرف مبادئي : كل شيء في وضوح كامل ! سوف اطرح عليها السؤال غداً بحضورك ، فاذا وافقت ، دعه يبقى هنا . نعم دعه يبقى وقتاً ما هنا لأدرسه .

واعقب بصوت ثاقب يشبه ذلك الذي صرف به آناتول عن نفسه .

لتتزوجه ، لتتزوجه ، لست ابالي !

فقال الامير بازيل بلهجة صريحة شأن الماكرين الذين يعرفون عقم الخداع مع مستمع نابه ذكي :

ــ سأحدثك بكل صراحة . ان من السهل عليك اختراق نفوس الناس وسبر اغوارهم . وان آناتول لم يخترع البارود ، لكنه فتى نبيل وطيب وابن ممتاز

ــ حسناً ، حسناً ، سوف نرى .

وكما هي العادة لدى النساء اللواتي حرمن عشرة الرجال زمناً طويلا ، فان نساء ليسيا جوري شعرن عند حلول آناتول بينهن ، ان الحياة التي عشنها حتى ذلك اليوم لم تكن حياة بالمعنى الصحيح . لذلك فقد تضاعفت ملكات التفكير والشعور والملاحظة في اشخاصهن حتى بلغت عشرة اضعافها وبدت حياتهن التي كانت حتى ذلك الحين مدفونة في الظلام ، منتعشة براقة تخطف الابصار .

نسيت الاميرة ماري « تسريحتها » اللعينة ووجهها الهزيل . كان ذلك الشاب الجميل ، ذو الوجه الباش ، الذي قد يصبح زوجاً لها ، يحتكر كل انتباهها كانت واثقة من انه طيب باسل كريم وثابت العزم . وراحت الوف الاحلام احلام الهناءة الزوجية المقبلة التي كانت تطردها من مخيلتها عبثاً ، تزدهر في خيالها .

قالت تهمس في سرها « ألست شديدة الجمود حياله ؟ انني اذا كنت ابذل ما في وسعي لاسيطر على مشاعري فما ذلك الا لأنـــني احس في قرارة نفسي بانني اصبحت شديدة القرب منه. لكنه يجهل كل ما افكر به ولعله يعتقد انه لم يعجبني »

وراحت ماري تحاول الظهور بمظهر الانيسة المرحبة بالقادم الجديد ، بينما كان اناتول يفكر في نفسه ! « يا للفتاة المسكينة ! انها شديدة البشاعة ! »

اما الانسة بوريين فقد نبتت في راسها افكار من لون آخر . لقد كانت هي الاخرى مثارة اقصى الاثارة بقدم هـــذا الفتى الجميل . كانت تنتظر منذ وقت طويل ان يتقدم منها امير روسي ، يشعر للوهلة الاولى بتفوقها على لداتها الروسيات البشعات الغبيات اللواتي لا يجدن ارتداء ثيابهن واظهـار فتنتهن ، فيقع صريع غرامها للنظرة الاولى . وها أن ذلك الامير الفتان قد جاء في تلك اللحظة . كانت تعرف أن فتاة مثلها ، محرومة رغم جمالها من أي مركز ممتاز في المجتمع ، محرومة من الاقارب والاصدقاء حتى من الوطن ، لا يمكن ان تقبل البقاء ابداً حيث هي ، تكرس حياتها للامير نيكولا آندريئيتش ، وان تظل الى الابد رفيقة الاميرة ماري ومقرئتها . وكانت الانسة بوريين شـديدة التعلق باقصوصة حفظتها عن عمتها ، كانت قد حاكت لها نهاية من محض ابتكارها وخيالها . كانت قصة فتاة جميلة اغراها رجل فاستسلمت له دون ان يجمعهما زواج رسمي . وكانت الانسة بوريين تذرف الدمع السخي كلما فكرت في خيالها انها ستروي هذه القصة بالذات للفارس الذي سيغريها في المستقبل وينالها . اما الآن فان ذلك الفارس لم يعد خيالا . بل « انه » موجود بالفعل امامها . انه امـير روسي عريق ، ولسوف يختطفها وينالها وينتهي الامر اخـيرا بالزواج . تلك كانت خطوط المغامرة التي كانت تبدو في الافق امام ناظري الانسة بوريين التي كانت تتحدث مع اناتول عن باريس . لقد انقلبت القصة الخيالية الى حقيقة بدأت

خيوطها تبزغ عند الافق . لم تكن تخضع في نفسها لأي حسبان وهي التي لم تفكر قط فيما كان يجب عليها صنعه ، لكنها كانت قد رتبت اقصوصتها منذ زمن بعيد حتى ان كل التفاصيل بدأت تجتمع تلقائياً في تلك اللحظة وبشكل طبيعي تماماً ، وراحت خيوطها تلتف حول اناتول ، ذلك الفتى ، فتى احلامها الذي طالما تاقت اليه ، والذي كانت تبرز امامه كل فتنتها وروعتها .

وكانت ليز ، كالحصان المدرب الذي يقفز عند سماعه البوق يقرع بالنداء ، متحفزة للاندفاع في سباق الرشاقة ، متناسية حالتها الصحية ، متجاهلة ما قد يترتب على ذلك خصوصاً وانها ما كانت تغذي اية فكرة او تهدف الى اية غاية من وراء ذلك التهافت ، اللهم الا تلك الرغبة البريئة الساذجة التي تدفعها الى الظهور بطيش وتهور .

وكان اناتول ـ وهو الذي درج في حضرة النساء على اتخاذ مظهر الانسان الذي انهكته ملاحقاتهن وتعلقهن ـ يشعر بلذة فائقة وهو يرى نفسه محور التفاف كل نساء البيت ومدار اهتمامهن . اضف الى ذلك انه لم يلبث حتى شعر نحو بورين الجميلة المثيرة برغبة من تلك الرغبات الهوجاء الملحة التي كانت تستحوذ احياناً على كيانه . وتقسره على التصرف تصرفاً طائشا وارتكاب اقسى الخطيئات واكثرها تهوراً .

انتقل الضيوف وصحبهم الى البهو الصغير بعد تناول الشاي . وهناك طُلب الى ماري ان تعزف على الارغن . واتكأ اناتول بالقرب منها على مرفقيه بجانب الانسة بورين وراح يصوب الى وجهها نظرات وادعة بسامة . وكانت ماري تشعر بارتباك مصدره السرور الذي تحس به والقلق من احساسها المرهف بتلك النظرة المسلطة عليها . وكانت القطعة الموسيقية المفضلة عندها التي كانت تعزفها قد حملتها الى عالم سري شاعري ، ازداد بهاؤهُ التماعا وفتنة بتلك النظرة

المغضبة عليها . والحقيقة ان تلك النظرة ـ رغم ما كان يبدو عليها من انها موجهة إليها لم تكن متوقفة عند ماري ، بل كانت تراقب بدقة حركات قدم الانسة بوريين الصغيرة التي تعمد اناتول الاحتكاك بها تحت المعزف . وكانت الانسة بوريين تنظر بدورها الى ماري ، غير ان عينيها الجميلتين كانتا تحملان مسحة واضحة من السرور الكئيب ، واملا في أن لا تراها ماري وهي في وضعها ذاك مع اناتول .

كانت الاميرة تفكر في سرها : « كم تحبني بوريين ! كم انا سعيدة الآن ، يا للهناء الذي ينتظرني في حياتي الزوجية المقبلة مع صديقة كهذه وزوج كهذا ! ولكن هل سيصبح زوجي حقيقة ؟ » كانت تشعر بعيون اناتول وهي تتفحصها ، لكنها ما كانت تجرأ على اختلاس نظرة واحدة اليه .

ولما حان الوقت للافتراق بعد العشاء ، قبل آناتول يد ماري . وبوغتت هذه من جرأته فنظرت الى وجهه الجميل القريب منها بعينيها الضعيفتين نظرة كلها تساؤل . وببساطة مفاجئة كان لها الاثر في تخفيف حدة تلك الحركة النابية ، هم اناتول بتقبيل يد الآنسة بوريين ايضاً . فتضرج وجهها خجلاً وراحت تستشير ماري بنظرة ذاهلة .

حدثت ماري نفسها : « يا للرقة المتناهية ! هل تعتقد أميلي ـ وهو الاسم الاول للآنسة بوريين ـ انني اغار منها او انني لا اقدر حنانها واخلاصها حق قدرهما ؟ » واقتربت منها فعانقتها بحرارة لتزيل شكوكها .

واقترب اناتول من الاميرة الصغيرة فهتفت هذه نافرة وهي تلوح باصبعها مهددة :

ــ كلا ، كلا ، كلا ! لن اعطيك يدي لتقبلها قبل ان يكتب لي ابوك مؤكداً انك اصبحت تسلك سلوكاً حسناً . اما الآن فلا .

وافلتت خارجة .

الفَصلُ الخَامِسُ

(جواب ماري)

نام اناتول وحده نوماً هانئاً تلك الليل . اما الاخرون ، فقد قضوا جميعهم ليلة مضطربة قلقة .

كانت ماري لاتفتأ تتساءل : « هل سيصبح زوجي ، هذا المجهول الذى يبدو لي شديد الطيبة رائع الجمال ؟ » ويستولي عليها جزع مفاجىء ، وهي التى ما كانت تشعر بالخوف من قبل . ما كانت تجرأ على النظر الى زاوية حجرتها . كان يخيل اليها ان بعضهم كامن هناك في الزاوية المعتمة وراء الحاجز ، وان ذلك المختبيء كان الشيطان المتقمص في جسد رجل أبيض الجبهة اسود الحاجبين قرمزي الشفتين . فقرعت الجرس مستدعية وصيفتها وطلبت اليها أن تنام معها .

وظلت الآنسة بوريين فترة طويلة تتنزه في حديقة النباتات الشتوية منتظرة عبثاً قدوم فارس ما ، فكانت تبتسم تارة للقادم الموهوم واخرى يأخذها التحنان حتى تطفر دموعها من عينيها وتتصور اللوم العنيف الذي ستتعرض له مثلما تعرضت فتاة اقصوصتها المسحورة بفتنة فارسها الجذاب .

اما الاميرة الصغيرة، فقد وجدت سريرها غير منسق كما يجب فعنفت خادمتها . لم تكن تستطيع النوم على جنبها ولا على صدرها . وكانت كل وضعية او استلقاءة تسبب لها الماً وشكوى . كان حملها يبهظها ويربكها ، ويزيد في ازعاجها ما اثاره مقدم اناتول في تلك الليلة من ذكريات عهد كانت فيه بعيدة عن مشاكل الحمل ، تتذوق المتعة وهي هيفاء القد متأودة العود منشرحة الصدر . غرقت في اريكة لينة وهي في جلبابها وقلنسوة النوم على رأسها وراحت تنظر الى وصيفتها كاتيا التي كانت تسوي وتقلب الفراش الكبير الثقيل المحشو بالريش للمرة الثالثة وهي مشعثة الشعر يثقل النوم في اجفانها .

كررت احتجاجها بصوت متهدج كالطفل الذي يهم بالبكاء :

– لقد قلت لك انه مليء بالاخاديد والنتوءات . انني في اشد الحاجة الى النوم وأؤكد انه لو كان الأمر مقتصراً علي وحدي ....

اما الامير العجوز فقد ظل ساهراً وقتاً طويلاً من خلافاً لمألوف عادته . وكان تيفون الذي ينام بعين واحدة ويسهر بالاخرى ، يسمع وقع خطوات سيده الغاضبة وتنهداته الحارة العميقة . كان الأمير يعتقد انه اهين في شخص ابنته . وكانت تلك اشد الاهانات وقعاً على نفسه لأنها لم تكن موجهة اليه مباشرة ، بل كانت تلك أشد الاهانات وقعاً على نفسه لأنها لم تكن موجهة اليه مباشرة ، بل كانت تستهدف شخصاً يحبه اكثر من حبه لنفسه . وعلى الرغم من انه دأب يكرر في سره انه سيجد لهذه المسألة حلاً مرضياً بالتفكير العميق فيها، فان انفعاله كان في تزايد مستمر .

كان يغمغم قائلاً : « لايكاد اول طالب زواج يظهر على الباب ،حتى تتناسى الآنسة الفاضلة ابيها وكل ما تبقى ، فيضيع رشادها وتهرع الى المرآة لتتبرج وترتمي متهالكة ! اه ، انها سعيدة بتركها ابيها ! لقد كانت تعرف انني لن اغفل

عن رؤيته ... ذلك الغبي الذي لم يرفع انظارة عن بوريين ! هذه واحدة ينبغي طردها على الفور ! ... كيف لم تلاحظ ماري تصرفها ! كان عليها ان تخجل مني اذا كانت لاتخجل من نفسها . ينبغي أن اطلعها على ان هذا المخاتل المتصنع لا يفكر فيها مطلقاً ، بل يفكر في بوريين ... ولما كانت لاتملك شيئاً من الاعتـــداد والكرامة ، فان من واجبي ان ادلها على ما تعمل وان افتح عينيها ... »

كان الامير العجوز يدرك تماماً انه اذا اثبت لابنته أن اهتمام آناتول كان منصباً على الآنسة بوريين وحدها فانه بذلك يدمي كرامتها وبذلك ينجح في في مبتغاه ، فترفض الابتعاد عنه . فلما بلغ من مناقشته هذا المبلغ ، قرع الجرس مستدعياً توخين الذي راح يعد له ثياب النوم .

وبينما كان توخي يحجب جسده الاعجف النحيل ذا الصدر المغطى بالشعر الأشهب ، كان الأمير يحدث نفسه : « ما كنت في حاجة الى زيارتها! لقد جاءا يقلبان حياتي كما لو كنت مستغنياً عنها ! »

صرخ ورأسه لازال محجوباً بالقميص الذي لم يتخلص منه بعد :

– ليذهبوا الى جهنم وكل الشياطين !

كان يحدث احيانا ان يعبر الأمير عن أرائه بصوت مرتفع ، وكان تيخون يعرف عادات سيده ، لذلك فقد جابه نظرته المستفسرة الغضبى التي ظهرت خلال فتحة القميص بوجه مشرق خلي .

سأل الأمير :

– هل ناموا ؟

كان تيخون خادماً ممتازاً وكان يفهم مرامي سيده من كلماتـــه الاولى . لذلك فقد ادرك على الفور انه يعنى بذلك السؤال الأمير بازيل وولده . فقال :

نعم يا صاحب السعادة ، وقد اطفأوا الانوار في حجراتهم .

غمغم الأمير مزمجراً :

ـ لكأنني كنت في حاجة الى أمثالهم !

ثم انتعل خفه ولبس معطفه المنزلي ومضى يستلقي على الاريكة التي كانت كانت تقوم عنده مقام السرير .

وعلى الرغم من ان آناتول والآنسة بوريين لم يتبادلا كلمة واحدة حول شعورهما ، فقد فهم كلاهما ان لديها كثيراً مما يودان التحدث به في جلسة هادئة لاثالث فيها . لقد ادرك كلاهما خطوط الرواية التي يفكر فيها الآخر ، او على الاقل الجزء اول منها ، الاغراء والاستسلام . لذلك فان الصباح التالي ما كاد يكتحل طرفه بالضياء حتى راح كل منهما يبحث عن الآخر ليختلي به . ولما كانت ماري تذهب عادة في ساعة معينة كل صباح لتحيي اباها تحية الصباح ، فقد اتيح لبوريين ان تقابل اناتول في الحديقة الشتوية .

كانت ماري ترتعد ذلك الصباح لدى ولوجها باب غرفة ابيها اكثر من عادتها . كانت تعتقد ان كل من حولها اصبحوا يعرفون ليس أن مصيرها على وشك التقرير فحسب ، بل كذلك افكارها الشخصية واحلامها المكتومة . بدا وجه تيفون لعينيها يعكس تلك الاحاسيس بكل صراحة وكذلك خيل اليها ان خادم الامير بازيل ، الذي قابلته حاملا اناء ممتلئاً بالماء الحار ذاهباً به الى غرفة سيده ، مطلعاً على كل شيء بدليل التحية العميقة التي ابتدرها به لما مر بقربها في سبيله .

استقبل الأمير العجوز ابنته بترحاب وبشاشة تنذر ـ كما عرفت ماري لطول خبرتها ـ بأسوأ النتائج . كان وجهه منطبعاً بمثل التعابير التي كانت تقرأها عليه أبان دروس الرياضيات عندما كان يثيره عدم استيعابها للشروح التي كان يفسر بها الدرس اليومي . كان يطبق قبضته وينهض من مكانه مبتعداً عنها

ويكرر الكلمة نفسها مرات عديدة بصوت اجوف جامد .

هاجم الموضوع فوراً باستعماله كلمة « انتم » بدلاً من « انت » . قال بصوت هادىء والابتسامة المغتصبة تداعب شفتيه :

ـ لقد تقدم بعضهم بعرض يتعلق « بكم » لاشك « انكم » عرفتم ان عيني الجميلتين لاوزن لهما في زيارة الامير بازيل وقاصره (والله وحده يعرف السبب الذي من اجله وصف اناتول بكلمة قاصر !) . واذن فقد تقدموا الي بعرض يتعلق « بكم » كما قلت . وبمـــا « انكم » تعرفون مبادئي الشخصية ومثلي فقد عدت بالموضوع الى قرار « كم » ؟

تمتمت ماري وهي تمتقع تارة ويتضرج وجهها تارة اخرى :

ـ كيف يجب ان افهم قولك يا ابي ؟

فهتف الامير مستنكراً :

ـ كيف تفهمين ! ان الامير بازيل يجدك مناسبة لتكوني كنة ويتقدم اليك بالعرض نيابة عن قاصره . هذا ما يجب ان تفهمينه ! ... كيف تفهمين !.. ولكن عليك انت اعطاء الجواب .

فعادت ماري تتمتم :

ـ لست ادري يا ابي كيف تنظر ...

ـ كيف أنظر ؟ ... ان الامير غير متعلق بي ! لاتهتمي بشأني . لست انا الذي سأتزوج . لكن « انتم » ، ماذا تفكرون « ون » ؟ هذا ماأريد معرفته .

فهمت ماري ان العرض لم يرق لابيها . لكنها أدركت كذلك ان مصيرها كله متوقف على هذه الدقيقة من الزمن . اطرقت برأسها لتتحاش نظرة ابيها المسيطرة ، تلك النظرة التي كانت تخنق في نفسها كل ابواب التفكير فلا تترك لها الا الخضوع المطلق ، وقالت :

ـ انني لاأرغب الا في شيء واحد : تنفيذ رغبتك . وبما انك تريد معرفة رأيي حول هذا الموضوع ....

لم تجد فرصة لاتمام حديثها لأن الامير قاطعها قائلاً :

- حسناً ، لسوف يأخذك انت وبائنتك والآنسة بوريين « على البيعة » انها هي التي ستكون زوجته وليس انت ....

لكنه توقف عندما رأى ماري خافضة الرأس على وشك البكاء وقد زعزعت تلك الكلمات كيانها . قالت مستدركا :

ـ لاتراعي ، لقد كنت امزح . كنت امزح . انك تعرفين مبدئي : على الفتاة ان تنتقي شريكها . وعلى ذلك فانني اعطيك ملء الحرية . تذكري فقط ان سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك . ولا تجعلي مني حجة تقوم عليها اعتباراتك .

ـ لكن في الحقيقة لست ادري ياأبي ....

ـ انني لاعلاقة لي بهذا الامر ! اما هو فقدأمر أن يتزوجك ، وانه لفاعل. وان لم يكن انت فانه لابد وان يتزوج اول من تُقدم له . اما انت ، فانك حرة في الانتقاء. اذهبي الى غرفتك وفكري في الامر ملياً ثم عودي بعدساعة. وسوف تتحدثين امامه إما سلباً وإما ايجابا . انني اعرف انك ستتركعين مصليه فور اعتكافك . فليكن . صلي ولكن فكري كذلك . هيا اذهبي الآن ...

واستمر يصيح وراءها :

ـ نعم أو لا ، نعم أو لا !

بينما كانت تغادر ابيها وهى تترنح في مشيتها وكأنها تائهة في ضباب .

كان مصيرها قد تقرر وكان ذلك القرار على خير مايرام لانها كانت تملك ناصيته . غير ان تلك الملاحظةالعابرة الخشنة التي ابداها ابوها حول مسألة الآنسة

بورين وعلاقتها مافتئت تشغل بالها . عبرت الحديقة الشتوية على خط مستقيم دون ان ترى او تسمع شيئاً . لكنها فجأة سمعت همسات الآنسة بورين المألوفة على سمعها فانتشلتها من شرودها . رفعت ابصارها فرأت على بعد خطوتين منها الامير أناتول ضاماً الفرنسية بين ذراعيه يهمس في اذنها كلاماً ، ولما وقعت عيناه على ماري ، اكتسى وجهه الجميل بطابع الذهول الشديد وكأنه كان يقول : « ماذا ؟ ماذا يريدون مني ! انتظري لحظة . » لم يفلت بورين لفوره خصوصاً وان هذه لم تكن قد رأتها بعد . اخذت ماري تتأملها بصمت دون ان تتقبل ماترى او ان تفهم مايراد منه . وفجأة اطلقت الفرنسيه صرخة قصيرة وافلتت هاربة . أما أناتول فقد استعاد ابتسامته وانحنى امامها وكأنه يدعوها . الى مشاطرته الابتسام والضحك من هذه المناسبة الفريدة . ثم هز كتفيه ومضى الى الباب المؤدي الى الجناح الذي نزل فيه مع أبيه .

وانقضت ساعة جاء توخين بعدها يعلن للأميرة ماري ان اباها ينتظرها وبصحبته الامير بازيل سير جيئيتش . وكانت هذه جالسة على اريكة تضم بين ذراعيها الآنسة بورين وتمر بيدها على شعرها بعطف وحنان . كانت عيناها الجميلتان على هدوئها واشعاعها السابقين ، وكانت تحدق في وجه الآنسة بورين ، ذلك الوجه الجميل الذي كان مبللا بالدموع . كانت تنظر الى الفرنسية ببشاشة وعطف حقيقيين . وكانت بورين تقول :

ـ كلا ياأميرة ، لقد هلكت الى الابد وفقدت مكاني في قلبك النبيل .

فتجيبها ماري :

ـ ولماذا ؟ انني احبك اكثر من اي وقت مضى وسأسعى بكل مااوتيت من قوة في سبيل سعادتك .

ـ لكنك تحتقرينني . انت الطاهرة النقية ، لايمكنك ان تفهمي هذه

الخطيئة الغريزية ، خطيئة الرغبة ! آه ! انه خيالي واقصوصتي ...

فاجابتها الاميرة بابتسامة حزينة :

ـ بل اني افهم كل شيء ، اطمئني ياصديقتي ...

ثم أعقبت وهي تنهض من مكانها ...

ـ ولكن يجب ان الحق يأبى .

كان الامير بازيل جالساً على مقعده وقد لف ساقاً على ساق وأمسك بعلبة سعوطه في يده وعلى وجهه آيات الهياج والانفعال ، وكانت الابتسامة الحانية المطلقة على شفتيه عند دخول ماري تبدو وكأنها استخفاف بذلك الانفعال والاضطراب. بادر الى الهجوم فقال وهو يستقبلها ناهضاً ويمسك بيديها الاثنتين :

ـ آه ! ايتها الطيبة ، ايتها الطيبة !

ثم اطلق زفرة واردف :

ـ ان مصير ولدي بين يديك. فقرري ياماري ، ايتها الطيبة ، ايتها العزيزة الرقيقه التي احببتك دائما كأبنتي .

وبينما هو يفسح لها الطريق ، ظهرت دمعة حقيقية في زاوية عينه بين الجفن والاهداب .

هتف الامير العجوز بعد ان أخذ نفساً عميقاً :

ـ ان الامير باسم قاصره لابل باسم ابنه يطلب يدك للزواج . فهل تريدين ان تصبحي زوجة اناتول كوراجين ؟ أجيبي بنعم أو لا . قولي نعم أو قولي لا وانني احتفظ فقط بحقي في ابداء رأيي بعدذلك ... رأيي فقط ولا ، ولاشيء سواه.

وكرر هذه الجملة حينما لمس امارات التوسل التى انطبعت على وجه الامير بازيل وأردف :

ـ حسناً ؟ ماهو رأيك ؟ نعم أو لا ؟

فقالت ماري بثبات وهي تنظر بشدة في عيني الأمير بازيل ثم تنقل بصرها الى وجه ابيها :

ــ ان رغبتي يا أبي هي ان لا افارقك ابداً ، ان لا افصل حياتي عن حياتك. انني لا اريد ان اتزوج .

فغمغم الأب حانقاً وقد اكفهر وجهه :

ــ ياللغباء ، ياللغباء ! سخافات ، سخافات !

لكنه جذب ابنته نحو ولامس وجنتها بوجنته دون ان يقبلها وضغط على يدها بشدة حتى ان ماري لم تتمالك ان اطلقت صرخة خافتة اشفعتها بحركة دالة على شدة الألم .

اما الأمير بازيل فقد نهض واقفاً وقال :

ــ يا عزيزي ، استطيع القول انني لن انسى هذه اللحظة ابداً ولكن ألا تعطين مجالاً للأمل في ان قلبك شديد الطيبة شديد الكرم قد يعيد النظر في قراره ؟ قولي يجوز ... ان المستقبل كبير فسيح قولي : يجوز .

ــ كلا ياأميري . لقد تحدثت بكل صراحة وليس لدي ما اضيفه على ما قلت . انني اشكرك للشرف الذي اسبغته علي لن اكون زوج ابنك ابداً .

وعندئذ قال الأمير العجوز :

ــ حسناً ياعزيزي بازيل ، لقد انتهينا من هذا . سرني ان رأيتك بعد طول فراق ... سرني ... وانت ايتها الأميرة يمكنك الانسحاب ...

وعانق الأمير بازيل للمرة الثانية واروف :

ــ سرني ان شاهدتك يا عزيزي ...

كانت ماري تحدث نفسها بقولها : « ان مهمتي في الحياة تختلف عن كل هذه الامور ، انها تنحصر في التضحية في سبيل الحياة الآخرة . ولسوف امكن

اميلي المسكينة من سعادتها مهما غلا الثمن . انها تحبه بشغف وهي آسفة شديدة الندم على زلتها . سأعمل كل ما في وسعي كي يتزوجها . انه اذا لم يكن غنياً فانني ساقدم له بائنة . سوف ابتهل الى ابي واتوسل الى اخي آندريه . سأكون شديدة السعادة عندما تصبح زوجته ! ... انها غريبة مسكينة لا اقرباء لهـــا ولا سند ... آه ! رباه ، هل كان ينبغي ان تتعلق به الى هذا الحد حتى تنسى نفسها وتغفل عن شأنها فتستسلم له ! لعلني كنت اتصرف على غرارهـا ! . . . انها لا تلام . »

* * *

الفصل السادس

(رسالة نيكولا)

مضى زمن طويل على آل روستوف لم يتلقوا خــلاله شيئاً من اخبار نيكولا . وعندما انتصف الشتاء ، سلم للكونت رسالة كان العنوان مخطوطاً بخط ولده . حركت تلك الرسالة عواطف الكونت واثارتها حتى انه جرى على اطراف قدميه محاذراً تنبيه احد اليه واغلق على نفسه باب مكتبه ليختلي برسالة ابنه ويكتم الخبر عن الآخرين ، وكانت آنا ميخائيلوفنا ، رغم تحسن احوالها وانتعاش مواردها ، لاتزال تقيم لدى آل روستوف . وكان من عادتها الاحاطة بكل ما يدور حولها . وهكذا فانها لم تلبث ان اكتشفت الأمر فتسللت بخطى حذره الى مخدع الكونت وهناك وجدته يضحك وينتحب والرسالة في يده .

سألته بلهجة فيها قلق واستفسار ، وبلهفة تتقن ابرازها كلما ارادت المساهمة في الاطلاع على موقف معين :

ـ ماذا يا صديقي الطيب ؟

فتضاعف نحيب الكونت وتمتم خلال دموعه :

ـ رسالة ... من صغيري نيكولا ... لقد جرح يا عزيزتي ... نعم، نعم، لقد جرح صغيري العزيز ... ولقد بشروه برتبة ضابط ... حمــــداً لله ! ... كيف انقل هذا الخبر ... الى عزيزتي الكونتيس الصغيرة ؟ ...

جلست آنا ميخائيلوفنا قرب الكونت وراحت تمسح عينيه بمنديلها وتجفف الورقة التي تساقطت عليها بضع عبرات واخيراً تمسح دموعها هي الاخرى . ثم قرأت الرسالة ، فطمأنت الكونت وقررت ان تهيء الكونتيس لتلقي النبأ قبل موعد الطعام معانة انها ستنهيه اليها بعون الله ومشيئته بعد تناول الشاي .

ظلت آنا ميخائيلوفنا تتحدث طيلة الوقت الذي استغرقه الطعام عن الانباء والاشاعات المتناقلة على الالسن المتعلقة بسير القتال • وعلى الرغم من المامها التام بالوقت الذي تلقت فيه الاسرة آخر انباء نيكولا ، فانها عادت تسأل عن الوقت ملمحة الى انه لايستبعد ان يصل منه كتاب في ذلك اليوم بالذات • وكانت تلك التلميحات والتنويهات تسبب للكونتيس قلقاً واكتئابا • فكانت تتفحص وجه زوجها بنظرة صارمة تارة ووجه صديقتها تارة اخرى ، وعندئذ كانت هذه تحول الحديث ببراءة وبساطة الى موضوعات تافهة • غير ان ناتاشا الحساسة المتفوقة في الحس المرهف على كل افراد الاسرة ، ادركت منذ أن بدأ الطعام ان في الجو شيئاً جديداً ، لذلك فقد راحت تصغي بانتباه عميق الى كل التنويهات وتسجل كل التحولات التي تطرأ على قسمات وجوه الجالسين محاولة اختراق الستور ومعرفة ما وراء تلك النفحات الصوتية الغامضة • فهمت بسرعة ان هناك سراً ، وان ذلك السر يتعلق بنيكولا وانه كامن بين ابيها وبين آنا ميخائيلوفنا بل وادركت ان هذه تمهد السبيل للافضاء بذلك السر • ولما كانت تعلم ان كل ما يتعلق بنيكولا يثير امها ويزعجها، فانها لم تجرأ رغم جرأتها

وطيشها ، على طرح أي سؤال . لكنها كانت في غمار لهفتها ناسية الطعام الذى بين يديها فلم تصب منه الا قليلا . لم تكن لتستقر على كرسيها متجاهلة ملاحظات مربيتها . وما ان نهض افراد الاسرة عن المائدة حتى هرعت الى آنا ميخائيلوفنا كالمجنونة فلحقت بها قرب المخدع وهناك قفزت الى عنقها فتعلقت به وهتفت :

ــ ياعمتاه ، ياعمتي الصغيرة العزيزة ، نبئيني بالخبر !

ــ ليس من خبر ياعزيزتي .

ــ بلى ، بلى . انني واثقة من انك تلقيت شيئاً جديداً . آه ياعزيزتي ، ياجميلتي ، يامعبودتي ، قولي لي فوراً ماالخبر واسرعي لأنني لن أفلتك قبل ان تنهيه الي .

فقالت السيدة الطيبة وهي تهز رأسها :

ــ انك مرهفة الحس ياطفلتي ...

فهتفت ناتاشا :

ــ انها رسالة من نيكولا أليس كذلك ؟

ولما قرأ على وجه آنا ميخائيلوفنا مايدعم هذا الرأي اردفت :

ــ بلى ، رسالة من نيكولا ، بالتأكيد !

ــ كوني حكيمة بحق السماء . انك تعرفين مبلغ مايعتري امك من انفعال لهذا النبأ .

ــ نعم ، نعم . ولكن نبيني بالخبر . حدثيني . الا تريدين ؟ حسناً ، انني ذاهبة من فوري الى امي اخبرها ...

فاضطرت انا ميخائيلوفنا الى ايجاز فحوى الرسالة الواردة في بضع كلمات وناشدتها ان تكتم الخبر عن الجميع . فقالت ناتاشا وهي ترسم اشارة الصليب على صدرها :

ـ اعدك وعد شرف ان لاأقول ذلك لأحد !

وهرعت لفورها الى سونيا وقالت لها وهي تكاد تطير من الفرح :

ـ سونيا ، ان نيكولا ... جريح ... هناك رسالة منه ...

فامتقع وجه سونيا ولم تستطع النطق الا بكلمة واحدة :

ـ نيكولا !

وادركت ناتاشا من اضطراب ابنة عمها مبلغ ما في الخبر الذي وافتها به من شجن وحزن . فارتمت على عنقها وذابت في دموعها .

راحت تطمئنها خلال نحيبها بقولها :

لقد جرح جرحاً خفيفاً وسيصبح ضابطاً بعد قليل . ان حاله بتحسن مستمر ولقد كتب الرسالة بنفسه وبخط يده .

وهنا اعلن بيتيا ، الأخ الصغير وله من العمر تسع سنين ، وكان يـــذرع الغرفة بخطوات ثابتة :

ـ ان كل النساء ولا شك لسن الا نائحات منتحبات . اما انا ، فانني سعيد جداً ، نعم سعيد حقاً ان يكون اخي قد ابرز شجاعته على هذا الشكل . انكن نائحات سخيفات ، لاتفقهن شيئاً من شيء .

فابتسمت ناتاشا رغم دموعها بينما سألتها سونيا :

ـ هل قرأت الرسالة ؟

ـ كلا ، لكنها انبأتنى بأنه شفي تماماً وانهم رقوه الى رتبة ضابط

فقالت سونيا وهي ترسم اشارة الصليب على صدرها :

ـ حمداً لله ! ولكن ، لعلها لم تنبئك بالصدق . هيا بنا الى « ماما » .

وكان بيتيا لايزال في تجواله صامتاً . قال :

ـ لو انني كنت بدلاً من نيكولا ، لقتلت مزيداً من اولئك الفرنسيين ،

يا للأوباش ! كنت قتلت منهم عـــدداً كبير وكتلت جثثهم حتى يبلغ ارتفاعها هكذا !

واشفع ذلك باشارة من يده مبيناً الارتفاع المنشود .

قالت اخته :

ـ حتى يا بيتيا ، يالك من غبي !

ـ لست انا الغبي بل أنتن ، يا من تبكين لأتفه الحماقات .

سألت ناتاشا بعد فترة صمت :

ـ هل تذكرينه يا سونيا ؟

فقالت سونيا باسمة :

ـ تسألينني اذا كنت اتذكر نيكولا ؟

فألحت ناتاشا وهي تؤيد خطورة سؤالها بحركة من يدها :

ـ كلا يا سونيا ، هل تذكرينه بشكل يجعلك تذكرين كل شيء ؟ انني اتذكر كل تقاسيمه أما بوريس فقد نسيته تماماً ...

فهتفت سونيا مذهولة :

ـ كيف ، أنسيت بوريس !

ـ أقصد انني لم أنسه كما تدل الكلمة عليه ، انني اعرف كل تقاطيعه بالطبع ، لكنني لا اذكره كما اذكر نيكولا . انني عندما اغمض عيني ـ واغمضتها فعلاً ـ اراه امامي . اما بوريس ، فعلى العكس ، انني لا اراه ، ابداً .

قالت ناتاشا وهي تنظر الى صديقتها بخطورة وجلال وكأنها قدرت انهـا لاتستحق الاصغاء الى ما تقول ، فراحت تخاطب شخصاً آخر لم يكن دأبـــه المزاح والهذر :

ـ آه ! ناتاشا ، آه ! ناتاشا، انني احب اخاك . ومهما حصل له أو لي ، فانني لن انقطع عن حبه طليلة أيامي .

ـ ارتج على ناتاشا وحارت في الجواب الذي تقدمه ، فاكتفت بالتحديق في وجه ابنة عمها بنظرة حافلة بمعاني الدهشة . كانت تشك وترتاب في صدق قول سونيا وفي امكانية وجود غرام من هذا النوع . ولكنها لم تجد مندوحة عن الاعتراف بجواز مثل هـذا الأمر خصوصاً وانها لم تكن بعد قد شعرت بشيء من هذا القبيل واجتازت اختباراً من هذا النوع . وأخيراً سألت :

ـ هل ستكتبين له ؟

استغرقت سونيا في التفكير . كانت منذ وقت طويل تتساءل بقلق عما اذا لم يكن من الواجب عليها ان تكتب لنيكولا ، وعن العبارات التي تتلاءم مع هذه الغاية . اما الآن وقد غدا بطلاً واصبح ينتظر ترقيته الى رتبة ضابط ، فهل من النبل في شيء ان تعيد الى ذاكرة الفتى ذكراها ؟ ألن يفسر رسالتها بأنها نداء وتذكير بالعلاقة والالتزام الذي تعهد به حيالها ؟

قالت وقد تضرج وجهها خجلاً :

ـ في الحقيقة لست ادري . ولكن يبدو لي انني استطيع ان اكتب له طالما انه يكتب لنا بدوره .

ـ وهل ستشعرين بالخجل ان أنت كتبت ؟

فقالت سونيا باسمة :

ـ ابداً ، لماذا اخجل ؟

ـ لست ادري . هكذا ... ان ذلك قمين بارتباكي .

وهنا تدخل بيتيا من جديد وقال وهو شديد الألم لملاحظة اخته الاخيرة:

ـ اما انا فأعرف لماذا تشعر بالخجل . ذلك لأنها بعد ان احبت بوريس

وتعلقت به ، عادت تعشق ذلك الضخم ذا النظارات ـ ويقصد به الكونت بيزوخوف الجديد الذي لم يجد بيتيا وصفاً آخر ينطبق على مظهرة الطيب الساذج ـ وها هي الآن مفتونة بالمغني ـ وكان يقصد ذلك الايطالى الذي يقوم بدور استاذ الموسيقى بالنسبة لناتاشا ـ . هذا هو سبب خجلها .

قالت ناتاشا :

ـ كم انت غبي يا بيتيا !

ـ لست اكثر غباء منك يا صديقي الطيبة !

نطق الطفل بهذه الجملة بثبات الكهل المحنك الخبير .

تذكرت الكونتيس وهي في غرفتها بعد الطعام الى التلميحات التي فاهت بها آنا ميخائيلوفنا على المائدة ، فغرقت في اريكتها واستغرقت في تأمل صورة ابنها الصغيرة المنقوشة على غطاء علبة سعوطها . تلألأت الدموع في عينيها وطفرت تبلل اهدابها . وفي تلك اللحظة ، كانت آنا ميخائيلوفنا تقترب من غرفة صديقتها بخطوات متسللة والرسالة في جيبها . قالت للكونت الذي كان يريد اللحاق بها :

ـ كلا ، لاتدخل ... انتظر برهة ...

واغلقت الباب وراءها .

الصق الكونت اذنه بثقب الباب منصتاً وانتظر اللحظة المناسبة لدخوله .

لم يسمع بادىء الأمر الا موضوعات تافهه ثم خطبة مطولة من آنا ميخائيلوفنا اعقبتها صرخة وبعدها سكون . ولم يلبث ذلك السكون ان مزقته هتافات البشر والفرح المتبادلة بين الصديقتين . وعلى وقع خطوات ظهرت آنا ميخائيلوفنا تدعوه الى الدخول . كانت تعابير وجهها تشبه تعابير الجراح الماهر الذي جاء

يفتح الباب للجمهور الراغب في عيادة المريض بعد ان فرغ من اجراء عملية خطيرة له بنجاح خارق ، استحق عليها الثناء والتقريظ .

قالت للكونت بفخار وهي تشير الى الكونتيس التي كانت ممسكة بعلبة السعوط في يد ورسالة نيكولا في الاخرى ، تقرأهـا بشغف وتقبلها دورياً بتحنان :

ــ لقد انتهى الأمر .

ولما وقع بصر الكونتيس على الكونت ، مدت ذراعيها نحوه واحاطت بها رأسه الاصلع وقدرت انها مستطيعة اعادة تلاوة الرساله وهي على ذلك الوضع والتأمل في الصورة المنقوشة على غطاء علبة السعوط . بل انها اضطرت الى تضيق الخناق على الرأس وصاحبه ليتسنى لها تقبيل تلك الاشياء بكل راحة . ودخل الاولاد : فيرا ، ناتاشا ، سونيا وبيتيا بدورهم واعيدت تلاوة الرسالة على مسامعهم أيضاً . كان نيكولا يورد في رسالته وصفاً موجزاً للجبهة والمعركتين اللتين اشترك فيها ، ثم يخبر ذويه انه رفع لرتبة ضابط . واخيراً قال في رسالته انه يقبل يدي ماما وبابا ويلتمس بركاتها ودعاءهما ، ويقبل وجنات فيرا وناتاشا وبيتيا ويبعث بتحياته الى السيد شيللنج والسيدة شوس والى المربية . ويطلب اليهم ان يقبلوا سونيا العزيزة نيابة عنه مؤكداً انه لازال يحبها كسابق عهده ويحتفظ بذكراها بكل اخلاص . ولما بلغت الكونتيس في القراءة هذا المقطع اندفعت الدماء في وجنتي سونيا وتلألأت الدموع في عينيها . ولما اخفقت في الصمود للنظرات التي راحت تحدق في وجهها ،جرت هاربة بكل قواها فدخلت البهو الكبير واستدارت حول نفسها من الفرح فانتفخ ذيل ثوبها وغدا كالكرة الضخمة ، وجلست على الارض مضرجة الوجه باسمة الثغر .

كانت الكونتيس تبكي لذكرى ابنها فقالت لها فيرا :

ـ لماذا تبكين يا أماه ؟ ان رسالته تستحق ان يفرح الانسان لها بدلا من البكاء •

كانت الملاحظة في محلها . مع ذلك فقد راح الكونت والكونتيس وناتاشا والآخرون يحدجونها بنظرات اللوم والعتاب . كانت امها تتساءل : « بمن هي متعلقة اذن ؟ »

تليت رسالة نيكولا مرات ومرات غير ان اولئك الذين رُؤي انهم يستحقون الاصغاء الى ماجاء فيها ، كانوا يحضرون الى حيث كانت الكونتيس لتقرأها عليها لانها ماكانت توافق على التخلي عن رسالة ابنها . وهكذا فقد مرّ امامها رؤساء الخدم والمربية وميتانكا وعدد من الاصدقاء . وفي كل مرة كانت الكونتيس تعيد التلاوة بشغف جديد ، وبعد كل تلاوة جديدة ، كانت تكتشف في نيكولا من الصفات مافاتها ادراكه في المرة السالفة • وهكذا فان ذلك الابن ، الذي كان في احشائها قبل عشرين عاماً ، يتحرك بجسده الضئيل الضعيف ، ذلك الابن الذي تشاجرت بسببه مع الكونت الذي كان يدلله بكثرة ذلك الابن الذي كان اول مانطق به من الكلام هو : « اجاصة » ثم تعلم بعدها كلمة « سيدة » ، ذلك الابن بالذات قد اصبح الآن بعيداً عنها في بلاد غريبة ، وحيداً دون مساعدة ولا دليل ، يقوم باعمال الرجال ! يالها من فرحة ، لكن الموضوع يستوجب كذلك الدهشة والذهول ، اصحيح ان العالم كان لا يكاد يجهل ان الاطفال يصبحون بالتدريج رجالاً وربما ابطالاً • غير ان هذا التدرج الطبيعي العام الذي ينطبق على كل البشر ، ماكان معروفاً من الكونتيس قبل ذلك اليوم • نسيت الكونتيس ان الملايين من البشر قد مروا في هذه المراحل من التطور ، فراحت ترفض الاقتناع بأن ولدها « ذاك » قد بلغ مبلغ الرجال . منذ عشرين عاماً ، عندما كانت تحمل هذا الصغير قرب قلبها ، ماكانت تصدق

انه سيرضع ثديها يوماً ويتعلم الكلام بعد ذلك. وكذلك الآن ، فانها لاتصدق ان ذلك الصغير بالذات قد اصبح - كما كانت تنبيء رسالته - رجلا باسلا جديراً بأن يكون مثالاً يقتدي به الابناء كلهم ، بل والجنس البشري بكامله !

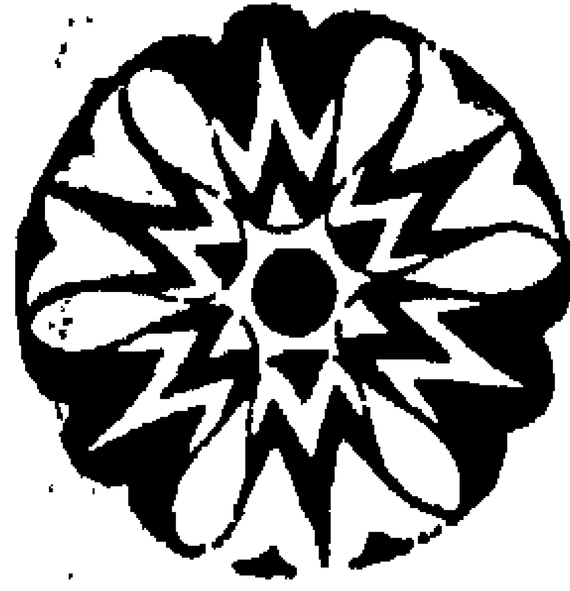
كانت تقول وهي تعيد تلاوة المقاطع الانشائية الوصفية في الرسالة :

- ياله من اسلوب جميل ! ياللبراعة في وصف الاشياء ! ثم يالله من قلب الذي له ! انه لم يتحدث بكلمة واحدة عن آماله ، ولا همسة ! انه لايتحدث الا عن واحد اسمه دينيسوف . مع ذلك فانني واثقة من انه اشدهم بسالة واكثرهم اقداماً . ثم انه يهمس بكلمة واحدة عن العنت الذي لاقاه والمشقة التي احتملها . يالقلبه الكبير ! انني اتعرف على ذلك القلب من خلال الاسطر ! ثم انه عني عناية خاصة بابلاغ تحياته وتمنياته للجميع فلم ينس احداً ولم يستثن احداً ! لقد كنت اقول دائماً انه نبيل كبير القلب ، نعم ، منذ ان كان هكذا في طوله ! ...

وانقضت ثمانية ايام لم يكن للأسرة من هم خلالها الا كتابة الرسائل ثم تمزيقها لعدم صلاحيتها ثم اعادة كتابتها من جديد .

هيأ الكونت تحت اشراف الكونتيس كل التجهيزات اللازمة للضابط الجديد ، ولما كانت آنا ميخائيلوفنا قد احاطت ابنها بكثير من الرعاية واسلمت امره الى عدد من المتنفذين . فان الاسرة استطاعت بفضل هذه التدابير المسبقة ان تتصل بابن آنا بكل سهولة ، خلافاً لما كان عليه حال نيكولا . وهكذا فقد كان رسول الغراندوق كونستانتان بافلوفيتش ، قائد الحرس العام ، يتعهد ايصال الرسائل بامانة . وبدت عبارة : « الحرس الروسي في الخارج » المطبوعة على الاوراق والغلافات ، كافية بنظر آل روستوف لتكون عنواناً مضموناً . كانوا يقولون : طالما البريد يصل الى يدي الغراندوق قائد الحرس العام ، فانه ليس هناك مايبرر عدم وصوله الى سرية بافلوجراد التي ينبغي ان لاتكون

بعيدة جـداً عن مكان وجوده وهكذا قرروا ارسال ماينبغي من المال مع رسالة في بريد الغراندوق باسم بوريس وتكليفه بتسليمها : المـال والرسالة الى نيكولا . وجمعت الرسائل ، من الكونت والكونتيس وبيتيا وفيرا وناتاشا وسونيا ، واضيف اليها مبلغ ستة الاف روبل قدرت انها كافية لشراء التجهيزات اللازمة ، وارسلت جميعها في البريد ، بريد الغراندوق ، مع عدد من الاشياء المختلفة التي قدر الكونت العجوز انها ضرورية يجب ايصالها لولده نيكولا .



الفَصْلُ السَّابعُ

(نقولا في الحرس الامبراطوري)

في الثاني عشر من تشرين الثاني، كان جيش كوتوزوف الذي كان معسكراً في ضواحي اولموتز ، يستعد للقيام باستعراض كبير غداة اليوم التالي امام الامبراطورين الروسي والنمسوي . وكان الحرس الروسي ، الذي وصل مؤخراً ، يقضي الليل على بعد اربعة اميال من المدينة وكان عليه الظهور في ساحة العرض في الساعة العاشرة صباحاً .

في ذلك اليوم بالذات ، تلقى نيكولا روستوف كلمة من بوريس ينبئه فيها بان فيلق اسماعيل معسكر على مسافة اربعة اميال خارج اولموتز وانه ينتظر قدومه اليه ليسلمه رسالة ومبلغاً من المال ارسلهما ذووه . وكان نيكولا في مسيس الحاجة الى المال لأن معسكره كان محاصراً بعدد كبير من الباعة اليهود النمساويين الذين كانوا يقدمون للضباط والجنود سلعاً مختلفة مغرية ومتاعاً وتسلية. وكانت أيام ضباط بافلوجراد تمضي في سلسله متصلة من الولائم والحفلات

والشرب ، وهي ميزات خصصت لهم ابان انتقالهم ، فكانوا لايفتأون يترددون الى اولموتز ، الى حانة اسستها امرأة اسمها كارولين الهنغارية، جعلت مستخدميها كلهم من الجنس الناعم . وكان روستوف قد احتفل منذ ايام بترقيته الجديدة واشترى حصان دينيسوف (بيروان) ، فتورط في ديون كثيرة موزعة في غير عدل بين الباعة وزملائه . لذلك فانه ما كاد يتلقى كتاب بوريس حتى بادر الى الذهاب الى اولموتز وهناك تناول طعامه وجرع زجاجـــة من الخمر بصحبة زميل ، وراح يبحث عن صديق طفولته . لم يكن قد أتم تجهيزاته بعد، لذلك فقد كان ممتطياً صهوة جواد روسي استعاره من احد القوقازيين ، ومرتديا سترة الجندي القذرة وقد التمع عليها صليب يمنح للجنود ، وسراويل ركوب مرقعة ، وتمنطق بحسام ضابط في فرسان الدراجون وغطى رأسه بقلنسوة مشوهة أمالها على اذنه بمجون . ولما اقترب من معسكر الحرس ، راح يفكر في الاثر الذي سيحدثه مظهره العسكري وحركاته التي انطبعت بطابع فرسان الجيش على بوريس والسادة افراد الحرس .

والحقيقة ان فرقة الحرس كانت قد التحقت بالجيش المحارب وكأنها ذاهبة الى نزهة خلوية . لقد كان افرادها على اوفر حظ من التنظيم وشموخ الانف ، والبستهم نظيفة انيقة لاتقبل النقد . ولقد كانت المراحل الذي قطعها رجال الحرس قصيرة جدا والأمتعة والمهمات والاكياس وماالبها كانت تنقل على عربات اضف الى ذلك انهم في كل مراحل الطريق ، كانوا يطعمون افخر الطعام الذي كانت السلطات النمساوية تجهزه خصيصاً من اجلهم ، فكانت السرايا عند دخولها الى المدن ، تسير على ايقاع الموسيقى وصداحها وتخرج منها على تلك الحال . وكان مقرراً ان يقطع رجال الحرس تلك المراحل بنظام السير الايقاعي، الأمر الذي كان يجعل الافراد شديدي الفخار والاعتداد ، فكان الضباط في اماكنهم

المقررة بين الصفوف والى جانبيها ، يتيهون في اثوابهم الانيقة . وكان بوريس قد قطع المرحلة كلها الى جانب بيرج الذي اصبح قائد سرية بفضل دقته وعقليته النظامية . وكان يتمتع بكل ثقة رؤسائه بوصفه من النوع الذي لا يجب ان يهمل شانه . وكان بوريس من جانبه قد ارتبط بعلاقات مجدية نافعة نذكر منها تعرفه الى الامير آندريه بولكونسكي الذي تلقى من بييربيزوخوف توصية خاصة تدعوه للعناية ببوريس . وكان يعتمد على دعم الامير وحمايته ليلتحق باركان حرب القائد العام كوتوزوف .

كان بيرج وبوريس في ابهى زينتهما ، ينعمان بالراحة بعد المرحلة الاخيرة ، ويقضيان الوقت بلعب الشطرنج حول مائدة مستديرة في النزل المريح الذي عُين لهما ، وكان بيرج مودعا غليونه المشتعل بين ركبتيه ، بينما كان بوريس يبني اهرامات بالبيادق التي ربحها من صديقه ، منصرفا اليها باهتمامه على عادته ، يسويها بيديه الناعمتين الدقيقتين وهو لا يني يراقب زميله الذي كان عليه ان يجيب على حركته . وكان بيرج — وهو المخلص لمبدئه القاضي بعدم الاهتمام الا بعمل واحد حتى انجازه — منصرفاً بكليته الى اللعبة غافلا عن كل ما حوله .

سأله بوريس :

- هيا ، دلني على المخرج الذي ستجده لورطتك الآن .

فاجاب بيرج وهو يلمس بيدقا لا يلبث حتى يفلته :

— سوف نعمل ما في وسعنا .

وفي تلك اللحظة فتح الباب . هتف روستوف .

— آه ، ها هو ذا أخيرا ! ها ان بيرج موجود كذلك !

واردف مقلداً لهجة مربيتهم العجوز التي كانت كثيرا ما تضحكهم من قبل :

- هيا يا اطفالي ، اذهبوا لتستلقوا وتناموا !

ونهض بوريس لاستقبال روستوف وهو يقول :

ــ رباه ، كم تبدلت !

تخلص من وراء المائدة وهو يسعى بابقاء اهراماته على حالها ، واندفع يريد معانقة روستوف . غير ان هذا تنحى عن طريقه ممتنعاً . لقد درج الفتيان الشباب على تنكب العادات المألوفة ، لانهم يفضلون اللجوء الى اساليبهم الخاصة التي لا تتفق غالباً مع ما هو مألوف بين الكبار من عادات لعلها لا تخلو احيانا من الانانية والاصطلاح وهكذا فضل نيكولا ان يحيي رفيق صباه على طريقتها السالفة معربا له عن سروره بلقائه ، تلك الطريقة التي درجا عليها والتي لاتخرج عن نكعة او قرصة في الاذن . اما بوريس فعلى العكس لقد اندفع نحوه وقبله ثلاثا دون خجل مصطنع ، وبمحبة قلبية واضحة .

لقد مضى على افتراقهما اكثر من ستة اشهر ، لذلك فقد راح كل منهما يتأمل التغييرات التي نالت من رفيقه ، تلك التغيرات التي يعود الفضل فيها للوسط الذي عاش فيه كل منهما ، واخذ كل منهما يبين للاخر المعالم البارزة في تلك التغيرات الجديدة .

قال روستوف بصوته الذي لم يألفه بوريس ، وبلهجة عسكرية صحيحة ، وهو يشير الى سراويله :

ــ إه ايها الملاعين ، ها انكما على اجمل زينة وكأنكما في نزهة ، خلافاً لحالنا نحن جنود الجبهة التعساء !

واطلت صاحبة المسكن الالمانية خلال الباب الموارب مستغربة مثل هذه الصيحات . فغمز لها نيكولا بعينه وقال :

ــ ماذا هناك ياجميلتي ؟

فقال بوريس :

ــ لاتصرخ هكذا ، سوف تخيفهم . في الحقيقة انني ماكنت انتظر قدومك

اليوم لانني لم ارسل اليك رقعتي الاالبارحة بواسطة احد ضباط كوتوزوف المساعدين الذي عرفه . ان اسمه بولكو نسكي . وما كنت اظن انك ستتلقى الرقعة بمثل هذه السرعة ... ليكن ، كيف حالك ؟ لقد بلوت القتال اذن اليس كذلك ؟

فحرك روستوف صليب سان جورج المعلق فوق سترته العسكرية المخرجة ، وابرز ذراعه المعلقة الى عنقه ونظر الى بيرج باسماً دون ان يجيب . واخيراً قال :

– اظن ان نعم !

فاستطرد بوريس وهو يبسم بدوره .

– طبعاً ، طبعاً . بديع . اما نحن ، فاننا قمنا كذلك برحلة بديعة . انك تعرف ان سموه ظل يقطع الطرق تواكبه كتيبتنا ، وبذلك اتيحت لنا كل انواع المتعة . ففي بولونيا لم نشعر بالوقت يمضي ونحن نتنقل من حفلة راقصة الى وليمة حافلة الى حفلات استقبال فخمة . ولقد كان التسيزاريفيتش لقب يعطي رسمياً لابن القيصر البكر الذي سيخلفه في تسنم العرش – شديد العطف على الضباط جميعاً .

وراح الصديقان يطريان اعمالهما ، الاول يمتدح الفرسان ويطنب في وصف شجاعتهم في الحرب ويثني على حياة التقشف التي يحيونها والآخر يعدد الميزات والاعتبارات الكثيرة التي ينعم بها اولئك المنتسبون الى سلاح يكون قواده محط انظار الناس واحترامهم .

قال روستوف :

– آه ، اننا نعرفكم معشر رجال الحرس ! ماذا ياعزيزي لو ارسلت من يأتينا بزجاجة ؟

فعبس بوريس ثم قال :

– اذا كنت تصر فلا بأس .

واخرج كيس نقوده المخبأ تحت الوسائد النظيفة واصدر امره باحضار الشراب وقال :

وبهذه المناسبة ، ساعطيك الرسالة الواردة باسمك والمال .

اخذ روستوف الرزمة فألقي بكيس النقود على الاريكة واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يقرأ الرسالة . ولم يكد يطالع الاسطر الاولى حتى راح يحدق ببيرج بنظرات التضجر . لقد شعر ان عيون بيرج شاخصة اليه فجعل من الرسالة ستاراً يحجب نفسه وراءه .

قال بيرج وهو ينظر الى كيس النقود الفارغ في الاريكة :

– انهم ارسلوا اليك مبلغاً كبيراً على ما يبدو . مساكين نحن يا كونت لاننا لانملك الا راتبنا الحقير نتبلغ به . وانا من افراد هذا الحرس .

فهتف روستوف :

– اسمع يا بيرج ، اذا وقع لك ان تسلمت أمامي رسالة من ذويك وكان الى جانبك احد المقربين اليك يرغب في ان يطرح عليك الف سؤال وسؤال فثق بأنني اكفيك مؤونة التخلص من بقائي . فاعمل اذن كما كنت ساعمل لو كنت في مثل موقفك واذهب الى حيث تشاء ... وليكن الى الشيطان ! ...

وعلى حين فجأة استدرك نفسه وخفض صوته وقام الى بيرج يمسك بذراعه ويصلح بنظرة متوردة ما افسده بكلماته القاسية . اردف بلطف :

– لاتغضب ياعزيزي ، ارجو ان تعذر صراحتي . لكنني اعاملك معاملة الصديق القديم الودود .

فقال بيرج بصوت محتبس وهو ينهض :

– لاتبتئس يا كونت ، انني افهم شعورك .

وقال بوريس من جانبه :

– اتدري ان مضيفينا دعوك الى البقاء .

حمل بيرج سترته النظيفة الخالية من كل شائبة واصلح شعره امام المرآة

وسواه فوق صدغيه على طريقة الامبراطور الكسندر وخرج باسماً راضياً بعد ان دلته نظرة القاها على روستوف أن مظهر ثوبه الانيق قد احـــدث الأثر المطلوب في نفس الفارس المخشوش .

تنهد روستوف وهو يعود الى قراءة رسالته :

- آه ! يا لي من حيوان !

- كيف ؟ ماذا هناك ؟

فكرر مزمجراً وقد احمر وجهه بغتة :

- آه ! يا لي من حيوان اذ لم اكتب لهم مرة من قبل ان اسبب لهم كل هذا الخوف . آه ! يالي من حيوان ! ولكن ايها الغليون المحترق ، هل ارسلت تابعك يأتينا بالخمر ؟ نعم . اذن من الخير ان نتناول قدحاً .

كانت الكونتيس روستوف قد اضافت الى رسالتها الشخصية الى ابنها ، رسالة توصية للأمير باجراسيون حصلت عليها بواسطة صديقتها آنا ميخائيلوفنا . وكانت تتوسل الى ابنها ان يستفيد منها الى اقصى حدود الفائدة .

هتف روستوف وهو يلقي بكتاب التوصية اسفل المائدة :

- يا للغباء ! لست في حاجة الى مثل هذا ابداً !

سأله بوريس :

- لماذا القيت بهذه الرسالة ؟

- انها كتاب توصية ! ياللوسيلة المناسبة ! لست ابالي بها !

فقال بوريس وهو يلم الرسالة ويقرأ ما جاء فيها :

- كيف لاتبالي ! يمكن ان تفيدك هذه الرسالة كثيراً .

- لن تفيدني في شيء فلن اكون ضابطاً مساعداً لأحد .

- ولماذا من فضلك ؟

ـ لأن هذا من عمل الخدم لا الجنود !

فقال بوريس وهو يهز رأسه :

ـ لازلت ذلك الحالم الساهم كما ارى .

ـ وانك لازلت ذلك « الدبلوماسي » المعهود . ولكن دعنا من هذا . قل ماذا اصبحت وما هي اخبارك .

ـ الواقع انني بخير حتى الآن . لكنني اعترف لك بأنني لاارغب في البقاء في الجيش العامل لفترة طويلة . لك ان تثق بأنني لن اخجل ابداً لو اصبحت ضابطاً مساعداً .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنني اذا كنت اخترت الجندية سبيلاً فما ذلك الا لأخلق لنفسي مركزاً لامعاً .

فقال نيكولا الذي كانت افكاره تبدو في مكان آخر :

ـ صحيح !

كانت عيناه تحـــدقان في عيني صديقه وكأنه يبحث عبثاً عن جواب لسؤال معين .

وجاء التابع العجوز بالخمر فقال بوريس :

ـ لعلنا نستطيع استدعاء الفونس كارليتش . سوف تفرغ الزجاجة معه لأنني امتنعت عن الشراب أخيراً .

فسأل نيكولا مشفعاً سؤاله بضحكة مزدرية :

ـ لابأس ، لابأس ... قل لي اي نوع من الناس هو هذا الألماني ؟

ـ انه فتى باسل لطيف جداً وعظيم الاستقامة .

حدج روستوف صديقه بوريس فترة واطلق زفرة طويلة .

لم يلبث بيرج ان عاد . وكانت الخمر قد حلت عقد اللسان فراح الحديث يتشعب بحماسة . اخذ ضابطا الحرس يرويان لروستوف الحوادث التي وقعت لهم خلال الطريق وينهيان اليه تفاصيل الاستقبالات التي نظمت لهم في روسيا وبولونيا والخارج . وصفاله تصرفات رؤسائهم وحركاتهم وبصورة خاصة تصرفات الغراندوق وقصا عليه عديداً من النوادر والفكاهات حول سلامة طويته وثورات غضبه . ومن الطبيعي ان بيرج لم يكن يتحدث الا اذا كان الموضوع يتعلق بشخصه بالذات ، ولكن ما ان دار البحث حول الغراندوق ونوبات غضبه ، اعرب عن فخاره اذ استطاع ان يتحدث معه في جاليسيا[1] ، خلال جولة تفتيشية قام بها سموه للقطعات في الميدان ، وبدا عليه انه غير راض عن تحركات الجنود . قال بيرج موضحاً وعلى شفتيه ابتسامة منتصرة ان التسيزاريفيتش اندفع بحصانه نحوهم وصاح : « يالكم من عصبة باشيبوزوك – وهي السبة المفضلة لدى سموه عندما يكون غاضباً – » وسأل بالحاح ان يتقدم قائد السرية منه . واردف :

– لعمري ايها الكونت انني لم اشعر قط بالخوف لأنني كنت اعرف عدم مسؤوليتي في الأمر . انا لا امتدح نفسي ياكونت ، لكنني اؤكد لك انني احفظ عن ظهر قلب كل الأوامر اليومية الصادرة واتمسك بها ، كما احفظ عن ظهر قلب صلاة « ابانا الذي ... » . وهكذا فانني في سريتي لا اتحول قط عن النظام . ولهذا السبب كنت دائماً مرتاح الضمير هادىء البال . واذن فقد تقدمت ممتثلاً – ونهض بيرج يمثل حركاته حينما تقدم من الغراندوق رافعاً يده بالتحية الى حافة خوذته ، فاتخذ وجهه طابعاً امتزجت فيه اللامبالاة بالاعتداد

(١) جاليسيا ، مقاطعة بولونية كانت حتى عام ١٩١٨ جزءاً من النمسا وكانت مركز الحكومة وتضم كراكوفيا ولوو Lwow وستانيسلاوو وتارنوبول وعدد سكانها ٨ ملايين نسمة وقد اصبح الجزء الشرقي : لوو Lwow ، تابعاً لاوكرانيا عام ١٩٤٥ . – المترجم –

بالنفس والرضى عنها الى اقصى حدودها ـ . فبدأ يشتمني ويكيل لي السباب حتى غسلني فيها غسلاً كما يقال . وتحدث فوصفني بكل الصفات وادرجني في كل الفئات : « منحط !باشيبوزوك ! طريدةسيبيريا ! »فلم يترك كلمة الا وقالها.

وهنا ابتسم بيرج واعقب :

ـ ولما كنت واثقاً من براءتي مما ينسب الي فانني لم اتفوه بكلمة . ألست على صواب يا كونت ؟ فصرخ لي : « هل انت ابكم يا هذا ؟ » لكنني لبثت صامتاً لا اجيب . لك ان تصدقني اذا شئت يا كونت حينما اقول لك انه في صباح اليوم التالي عند اجتماع الصباح لم يذكر شيء عن حادثة امس في التقرير اليومي ولم اعاقب . وهذا يرجع الى تمالكي اعصابي في ذلك الموقف ...

وجذب من غليونه نفساً عميقاً وراح يطلق حلقات الدخان من فمه بانتظام وابتسامة الظفر لا تفارق شفتيه .

قال روستوف مبتسماً ابتسامة غامضة :

ـ نعم ، هذا عن الصواب وفيه كل الكمال !

شعر بوريس أن روستوف على وشك جعل بيرج هدفاً لسخريته وهزئه ، فقطع عليهما الطريق بمهارة بأن سأله أين ومتى وكيف جرح . وكان هـــذا الموضوع طلباً . وعلى روستوف الذي راح يتحدث بحماس آخذ في التزايد كلما اوغل في سرد التفاصيل . قص عليهما مسألة شوينجرابن كما درج الجنود عادة على التحدث عن مجيد الافعال التي قاموا بها ، أي واضعاً الامور كما كان يريدهـا ان تكون لا كما كانت في واقع الأمر أو كما سمعوا غيرهم يصفها . ولا شك ان روستوف ، وهو الذي تعتبر الصراحـه جزءاً من طبعه ، كان يتحاشى تشويه الحقيقة ومع ذلك ، فان روايته التي بدأت صحيحة تماماً ، لم تلبث ان اختلطت وتداخلت تدريجاً دون ان يشعر حتى اصبحت ادعاء واضحاً ومبالغات تبهر

العيون . كان يتعذر عليه التصرف على غير ذلك الشكل . وكان رفيقاه قد سمعا من قبل وصفاً لبعض المعارك وكونا على ضوء ما سمعا فكرة حول الموضوع فباتا ينتظران منه ان يأتي وضعه مصداقاً لفكرتهما . فلو انه لم يوش قصته ولم يزينها لاعتقد كلاهما انها بعيدة عن الحقيقة أو ـ وهنا أخطر ما في الامر ـ لعزوا الى خطيئة ما صادرة عنه بالذات ، تلك المخالفات الواضحة في روايته عن حملة يقوم بها سلاح الفرسان . لذلك فانه ما كان يستطيع القول ان سريته قنعت بالادباء بأقصى ما في طاقه الخيل وانه سقط عن جواده اثناء الجري فتحطمت ذراعة وفر بعدها بكل ما اوتيت ساقاه من قوة هرباً من الفرنسيين . ثم انه لايمكن في سرد قصة طويلة ان يتحاشى المتحدث الخروج عن جادة الصدق الا اذا بذل مجهوداً خارقاً لكبت عواطفه ، الامر الذي قلّ ان استطاع شاب حديث العهد بالجندية . كان بيرج وبوريس ينتظران منه ان يحدثهما بأنه انقض على فيلق كامل من فيالق العدو وهو يتقد حماساً واندفاعاً فراح يفتك بهم ويضرب بحسامه يمناً وشمالاً ، والاشلاء تتناثر في كل حدب وصوب حتى اعياه التعب فسقط اخيراً الخ ... الخ ... وقد رسم لهما روستوف لوحة مماثلة تقريباً عن بطولته وسبب جرحه !

وبينما كان في غمرة تحمسه لحـديثه يقول : « لايمكنك ان تتصور السعار الغريب الذي يصيب المرء خلال الهجوم . » دخل الامير آندريه بولكونسكي الذي كان بوريس ينتظره . وكان بولكونسكي يحمي الشباب الجـدد مرضياً بذلك نزعته الشخصية التي كان يرضيها لجوء هؤلاء الى حمايته ، خصوصاً وانه كان على اتم استعداد لخدمة بوريس الذي راق له أمس واستلطف صحبته . فلما كلفه كوتوزوف ان يحمل اوراقاً معينـة الى التسيزاريفيتش ، انتهز الفرصة لزيارة بوريس وهو يعتقد انه سيجده على انفراد . غير انه انزعج عندما شاهد فارساً

يتبجح ويروي طرائف شجاعته ، وهو الأمر الذي ما كان يطيق احتماله .فابتسم ببشاشة لبوريس وحيا روستوف بتقطيبه خفيفة مشفعة بطرفة من عينيه اعقبها سلام مقتضب ومضى يجلس بارهاق على الاريكة . كان يخشي ان يحتك مع اشخاص ويتناقش معهم بلغة غير مناسبة . وقد حدس روستوف ما في خاطره فتضرج وجهه خجلاً . لكنه ما عتم ان حدث نفسه قائلا : « ولكن ماذا يهمني منه ؟ انني لاأعرف هذا المخلوق ! » معذلك فانه ما كاد يرفع انظاره الى بوريس حتى شعر انه هو الآخر مرتبك من تصرفاته المقتبسة عن فرسان الجيش . وعلى الرغم من ان مظهر الأمير آندريه الفاتر المتهكم ، وعلى الرغم من ازدرائه الشخصي العميق الذي يحس به بوصفه من الجنودالمحاربين حيال كل هؤلاءالأدنياء الحقيرين التابعين للاركان ، والذي لابد أن يكون هـــذا الوافد الجديد منهم ، فان روستوف لم يتالك نفسه عن الاضطراب أو يكبح اندفاع الدم الغزير الى وجهه . وهكذا فقد صمت مرغماً وعندئذاستفسر بوريس عنحوادث الاركان العامـــة واخبارها . غير ان الأمير بولكونسكي ما كان يستطيع التصريح امام هؤلاء الغرباء بامور على جانب كبير من الخطورة والاهميـة . لذلك فقد أجاب :

ـ اعتقد اننا سنسير الى الأمام .

وامتنع عن التعقيب على هذا القول بأية كلمة .

وانتهز بيير الفرصة ليسأل بلهجة ملؤها الاحترام عما اذا كانت النية منصرفة حقاً الى زيادةالعلف ومضاعفته لرؤساء السرايا كما كان يشاع . فأجاب بولكونسكي بأنه لايستطيع احتمال البت في امور على مثل هذه الاهميه ، مما جعل بيرج يتقبل هذا الرد بضحكة مرحة .

وقال بولكونسكي لبوريس وهو يختلس نظرة الى حيث جلس روستوف .

ـ اما قضيتك انت ، فستتحدث فيها في مناسبة اخرى . لانني بعدالعرض ولسوف نعمل جاهدين على ارضائك .

واجال بصره في انحاء الغرفه ثم اوقفه على روستوف متظاهراً بأنه لم يدرك بلباله وارتباكه الصبوي المشوب بالغيظ وقال له :

ـ اعتقد انك كنت تتحدث عن مسألة شوينجران . فهل كنت هناك ؟

فأجاب روستوف معتقداً انه سيجرح شعور الضابط المساعد باجابته :

ـ نعم ، لقد اشتركت فيها .

لكن ذلك الجواب لم يأت بالمفعول المنتظر . لقد تلقاه الأمير بابتسامة ساخرة . كان يجد متعة في مراقبة مزاج هذا الفارس الشاب . قال معقباً :

ـ نعم . ثم انهم يروون عن هذه الموقعة صنوفاً من الروايات .

فهتف روستوف وهو يلقي على بولكونسكي تارة وعلى بوريس تارة اخرى نظرة نارية مشتعلة بغضبة مفاجئة :

ـ صنوفاً من الروايات ! نعم ، بالطبع . لكن روايتنا نحن الذين بلونا نار العدو هي وحدها الحقيقة . وليس الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء السادة الانيقين الذين يحشرون انفسهم في زوايا الاركان والقيادة وينالون الاوسمة وهم مكتوفو الايدي .

فأعقب بولكونسكي بلهجته الهادئة وابتسامته الوديعة متمماً :

ـ والذين تعتبرني واحداً منهم أليس كذلك ؟

خلق ذلك الهدوء الذي اتسم به بولكونسكي احتراماً في نفس روستوف نحوه رغم انه ضاعف سخطه وغضبه فقال :

ـ انني لااقول هذا عنك . انني لااعرفك ولا اريد بكل صراحة ان اتعرف عليك . انني اتحدث عن رجال القيادة العامة بصورة عامة ...

فأجاب بولكونسكي بثبات وبلهجة حازمة :

ـ وانا اقول لك ببساطة انك تهدف الى اثارتي واهانتي . الأمر الذي لن يعيبك فعله اذا توقفت عن احترام نفسك . ولكن اعترف معي ان المكان والزمان غير ملائمين لمثل هذا العمل . لسوف ندخل جميعاً بعد أيام قريبة آتية في مبارزة جدية من نوع آخر . ومن جهة اخرى اذا كان وجهي لم يرق لك – وهذا من سوء حظي ـ فان دروبتسكوي الذي يدعي انه من اصدقائك القدماء ، لا دخل له في الموضوع .

واردف وهو ينهض واقفاً :

ـ ثم انك تعرف اسمي وتعرف اين تجدني . مع ذلك حاذر ان تعتقد بانني اعتبرك مهاناً اكثر مما تقدر انت نفسك الموضوع ... اتفقنا اليس كذلك يادروبتسكوي ؟ انني انتظرك يوم الجمعة بعد العرض .

وانسحب بعد ان حيا الشابين .

لبث روستوف مذهولاً فترة ما ، ولما وجب الجواب المناسب كان الآخر قد خرج ، الأمر الذي ضاعف غضبه الجامح . فاستقدم جواده وسلم على بوريس بلهجة جافة تقريباً وعاد الى معسكره . كان صراع داخلي مرير يستعر في نفسه طيلة الرحلة . كان يتساءل : هل يجب عليه الذهاب في الغد الى مقر القيادة ليتحدى ذلك الصعلوك ؟ هل كان من الافضل الامتناع عن مثل هذا الأمر ؟ .. كان يتذوق احياناً اللذة التي تنظره لرؤية ذلك الدعي مذهولاً أمام فوهة مسدسه المصوب الى صدره ، واحياناً اخرى كان يعترف ، رغم كل ما في نفسه ، إنه لم يجد بين كل معارفه ، رجلاً جديراً بصداقته ، كهذا الضابط المساعد الهزيل اللعين .

* * *

الفَصْلُ الثّامِنْ

(الاستعراض الحماسي)

غداة اليوم الذي جرت فيه المقابلة بين روستوف وبوريس ، كان الجيشان الحليفان ، وتعدادهما ثمانون الف رجل - لان فرقاً جديدة مرسلة من روسيا التحقت مؤخراً بجيوش كوتوزوف العائدة من حملتها الاوربية - يقومان باستعراض ضخم يشاهده العاهلان. كان امبراطور روسيا مصحوبا بولي عهده التسيزاريفيتش والامبراطور النمساوي يصحبه الارشيدوق .

ولم يكد يبزغ فجر ذلك النهار حتى أخذت القطعات تنتظم صفوفاً في ساحة القلعة وهي على أحسن حال . فكانت الوف من الاقدام والحراب تمر حيناً وأعلامها خافقة فتقف تحت امرة ضباطها وتتراص شاغلة كل فراغ مقام بين كتل اخرى من المشاة ، في أثواب مختلفة ، واحياناً يمر ألوف الفرسان على ايقاع سنابك الخيل وقعقعة السلاح وصليل السيوف ، فيخطرون على خيول زرقاء وحمراء وخضراء تسبقهم موسيقاهم الصداحة يعزفها موسيقيون على صهوات جياد دهماء او صهباء او شهباء. واحياناً ، كانت المدفعية تدرج بجلبتها المعهودة تنبعث

رائحة المشاعل المضاءة في الجو ، بوحداتها البراقة اللامعة تقطرها الجياد ، فتختلط في صفوف المشاة والفرسان . وكان الجنرالات ، وكلهم في أبهى زينة وعلى صدورهم الاوسمة والاوشحة ، مضرجو الوجوه لاحتقان اعناقهم ـ الهزيلة منها والضخمة ـ في الياقات القاسية ، والضباط المعطرون المضمخون ، والجنود وقد اغتسلوا حديثاً وعنوا بألبستهم عناية فائقة واجهزتهم وعتادهم نظيفة ولامعة ، والخيول نفسها ، وقد نظفت وغسلت حتى راحت اعناقها وقوائمها تلتمع تحت اشعاع الشمس وكأنها عوينت شعرة فشعرة ، كانوا كلهم يشعرون بخطورة موقفهم ويدركون اهمية تلك الساعة الرهيبة الجليلة . وكان كل من المحتشدين من الجنرال وحتى الجندي البسيط يحس بأنه ذرة من الرمل في صحراء اومحيط من البشر . لكنه كان معتداً بنفوذه وسطوته وسلطانه نظراً الى انه جزء لايتجزأ عن هذا المجموع الجبار الهائل .

كانت الاستعدادات قد بدأت منذ الفجر . فلم تبلغ الساعة العاشرة تماماً حتى كانت كل الامور على اهبة تامة . فالجيش كله ، الفرسان في الطليعة والمدفعية في الوسط والمشاة في المؤخرة ، كان منتظما في ثلاثة صفوف ضخمة متراصة على الساحة الكبرى الفسيحة . وكان يفصل بين كل قطعة وقطعة فراغ على شكل شارع فسيح مستوٍ . كانت تلك الكتلة الهائلة المؤلفة من عناصرها الثلاثة الهامة ، تشمل على قطعات كوتوزوف التي خاضت الحرب وفي مقدمتها فيلق بافلوجراد في ثياب العرض ، ثم القطعات التابعة للحرس او للجيش التي وصلت حديثاً من روسيا واخيراً الوحدات النمساوية . وكانت هذه الكتل البشرية كلها ، محتشدة على صف واحد وفق تشكيل موحد ، تخضع في قيادها لقائد واحد .

وارتعشت الشفاه بدمدمة هاتفة : «هاهم إهاهم ! » وسرت تلك الدمدمة في الصفوف سريان النار في الهشيم والريح بين الاغصان وقام الجنود بحركتهم الأخيرة

استعداداً للساعة الحاسمة ، فكانت تلك الحركة اشبه بموجة هادئة اجتاحت اديم محيط زاحز .

ظهر موكب مقبل عندا ابواب اولموتز . وفي تلك اللحظة ، مرت نسمة خفيفة فوق رؤوس الجندرغم السكون المطبق الشامل، فتدبدبت نيران المشاعل وارتعشت الاعلام في اعلى صارياتها . خيل للناظر ان انتفاضة عامة شملت الجنود كلهم سروراً لمقدم العاهلين . وردد الصدى صيحة مدوية تكررت منطلقة بالترتيب من افواه مسؤولة متعددة ، كصياح الديك عند الفجر :

اس . . تعد . . ؟

تلك كانت الصيحة فأعقبها سكون القبور .

لم تعد الاسماع تصغي الا لوقع اقدام الجياد القادمة . ولما وصل العاهلان الى الحشد ، صدحت موسيقى فيالق الفرسان الاولى منبهة . وبدت تلك الاصوات الموسيقية صادرة عن الجيش كله وليس عن فرقة موسيقية بعينها . كانت موسيقى معبرة عن سعادة الجند وفرحهم بالاحتفال والحفاوة بمقدم العاهلين الفجائي. مع ذلك ، فان الصخب الموسيقي لم يحجب صوت الامبراطور الكسندر ، الفتي الجياش ، الذي كان يرد التحية للجنود . واجاب الفيلق الاول على التحية بنداء راعد : «هورا ! » طويلة تصم الآذان ، « هورا » اخافت الجنود انفسهم مبينة لهم كبير عددهم وعظيم قوتهم وبأسهم .

استعرض الامبراطور بادىء الامر جيش كوتوزوف . وكان روستوف واقفاً في الصفوف الاولى ، فشعر شعور كل الجنود الآخرين : انكار للذات ، وايمان عنيف بقوته ، وحماس منقطع النظير لبطل تلك اللحظة . كان يدرك ان كلمة واحدة من هذا البطل تكفي لكي تتحرك هذه الكتلة الهائلة من البشر الذي لم يكن بنفسة الا ذرة حقيرة من ذراتها ، فتلقي بنفسها الى الماء او الى

النار ، وتندفع نحو الموت ، وتجري وراء الجريمة او الافعال الاكثر بطولة وتمجيداً. وعلى ذلك فقدشعر انه على وشك السقوطعندما اقترب الرجل صاحب تلك الكلمة .

ترددت صيحات « الهورا » من كل مكان تختلطباصداء الموسيقى واستقبلت الفيالق ، الواحد تلو الآخر ، الامبراطور بالهتاف وقرع الطبول التي تراجعت اصداؤها على شكل زمجرة هائلة مريعة متداخلة مشوشه تصم الآذان وتخبل العقول .

كان كل فيلق ـ قبل وصول الامبراطور ـ يبدو جامداًو كأنه لاحياة فيه . حتى اذا اقترب منه وبات على حدود جناحه ، دبت الحياة فيه على اعنف الصور واقواها ، فيلحق صيحاته وهتافاته بصيحات الآخرين وهتافاتهم المدوية ، وفي جحيم تلك الاصوات المرعدة وذلك الصخب العنيف ، وفي وسط ذلك البحر الزاخر من الجنود ، كانت بضع مئات من خيول الحرس المواكب ، تبدو اقل الجميع مبالاة بالنظام وقد روعتها الصيحات . لكن فرسانها كانوا قادرين ابداً على كبح جماحها دون ارتباك بل وفي شيء من اللامبالاة ، وجعلها تقف متباعدة حسب ترتيبها الاصيل . وكان فارسان اثنان ـ الامبراطوران ـ يسيران في مقدمة الموكب وقد تعلقت فيها ابصار جميع الجنود دون استثناء

كان الامبراطور الكسندر الجميل الشاب يرتدي ثياب الحرس الراكب وقد احال قبعته المثلثه الاطراف قليلا على اذنه . وكان يستأثر بالاهتمام العام بوجهه الوديع المشرق وصوته الداوي القوي في غير قسوة .

استطاع روستوف في مكانه قرب فصيلة الموسيقى ، ان يتعرف على الامبراطور عن بعد ، فراح يتابع حركاته كلها بعينيه الحادتين . فلما اضحى الكسندر على بعد عشرين خطوة ، لم يعد يرى شيئاً او يميز تقاطيع ذلك الوجه

الفتى الجميل البشير . لقد استسلم لشعور لم يشعر بمثله من قبل ، شعور امتزج فيه الحنان بالحماس والاندفاع . بدا له ذالك الرجل ، في كل حركة من حركاته وكل قسمة من قسمات وجهه ، جذابا يأخذ بمجامع القلوب .

توقف الكسندر امام فيلق بافلوجراد وتحدث الى الامبراطور النمسوي ببضع كلمات بالفرنسية ثم اخذ يبتسم . اثارت تلك الابتسامة ابتسامة مماثلة على شفتي روستوف الذي اخفق في كبتها ، وازداد تعلقه وحنينه حتى انه شعر برغبة لاتوصف في ان يعرب لامبراطوره عن حبه العميق واخلاصه ! ولما ادرك عقم تلك الرغبة واستحالة تنفيذها ، شعر بحزن عميق كاد ان يفجر الدمع من مآقيه .

وفي تلك الاثناء، استدعى الامبراطور قائد الفيلق وراح العاهلان يتحدثان معه فترة من الزمن .

اخذ روستوف يناجي نفسه قائلا : « رباه » ماذا يكون حالي لو أنهما تحدثا معي انا : انني سأموت حتما ! .

لم ينس الكسندر ضباط الفيلق من شكره فقال لهم :

– ايها السادة ، انني اشكركم من اعماقي .

وكانت كل كلمة من هذه الكلمات تبدو لروستوف لحناً صادراً عن السماء باتجاه الارض . آه ، كم كان سيشعر بالسرور لو انه مات في تلك اللحظة في سبيل القيصر !

كان الامبراطور يقول مسترسلاً :

– لقد استحقيتم بنود القديس جورج واسوف تظهرون جدارتكم بها .

ففكر روستوف : « نعم الموت ، الموت من اجله ، هو اقصى ما اتمناه! »

واضاف الكسندر كلمات اخرى لم يتبينها روستوف ، ولم يلبث الجنود ان هتفوا ملء حناجرهم : هورا !

انحنى روستوف على سرج جواده وراح يهتف كالجنود . كان مستعداً لتفجير رئتيه اذا كان في ذلك دليل كافٍ على حبه للامبراطور !

لبث الكسندر كالحائر فترة امام فيلق الفرسان لايتحرك . فتساءل روستوف : « كيف يمكن ان يحار الامبراطور ؟ » ولكن تلك الحيرة لم تلبث ان بدت لناظريه ـ لكل حركات العاهل وتصرفاته ـ مليئة بالجلال والعظمة والوقار .

غير ان ذلك التردد لم يدم الا لحظة سرعان ماتبددت تحركت قدم الامبراطور المغيبة في احذية ضيقة عالية الساق دقيقة المقدمة كالتي كانت سائدة في ذلك العصر ، فمست برفق كشح الفرس المحجل القوائم المولد من عرق انجليزي وجمعت يده المقفزة الصروع ، وعاد الى سيره يتبعه سيل زاخر من الضباط المساعدين ، راح يبتعد اكثر فأكثر ليتوقف امام فيالق اخرى حتى لم يعد يرى منه اخيراً الا الريشة البيضاء التي تزين قبعته ، طافيه فوق ذلك المحيط المتلاطم من البشر .

شاهد روستوف بين المواكبين للامبراطور ، الامير بولكونسكي يختال على جواده بمرونة ووقار . وعادت الى ذاكرته حوادث البارحة وتصور خصامهما بالامس فعاد السؤال الذي ظل دون جواب يراود مخيلته : « هل اتحداه ؟ » واخيراً قرر في سره : « ابداً ، ان الوقت في الواقع لايسمح بمثل هذه الامور ، ثم ماقيمة خصوماتنا الصغيرة في هذا الظرف الحافل بالاخلاص والحماس والتضحيات ؟ نعم ماقيمة التوعك الذي يصيب كراماتنا في مثل هذا الظرف ؟

اني احب كل الناس الآن واصفح عن الجميع ! »

وبعد ان استعرض الامبراطور كل الفيالق تقريباً ، راحت الصفوف تمر امامه بخطوات الاستعراضات الموزونة ، كان روستوف ممتطياً صهوة حصان « بيدوان » الذي عاد فاشتراه من دينيسوف ، يسير وحيداً في مؤخرة كوكبته ، اي انه كان وحيداً يلفت انظار العاهل ، وقبل ان يصل الى حيث كان الامبراطور ، همز روستوف ـ وهو الفارس البارع ـ بيدوان عدة مرات ونجح في جعله يسير بذلك الجنب الهائج الذي كان مشهوراً بـــه عندما يثار ويغضب ، خفض فمه المكسو بالزبد حتى كاد ان يلامس جؤشوشه ، ونصب ذيله ، وراح يطرح قوائمه على التوالي على ارتفاع متناسق وكأنه يطير في الفضاء دون ان تطأ قوائمه الارض ، وهكذا مرّ بيدوان الذي احس بأنظار العاهل تتعلق به امام الامبراطور بفارسه الشاب على ذلك النمط الرائع البديع . حتى ان روستوف نفسه ، الذي كان ضامر البطن مضموم الساقين مبعدهما الى الخلف ، متقلص الوجه منشرح الخاطر ، بدا كأنه قطعة لاتنفصل عن حصانه الاهوج ، فمر به امام الامبراطور وكأنه « شيطان من الجحيم » على حد قول دينيسوف .

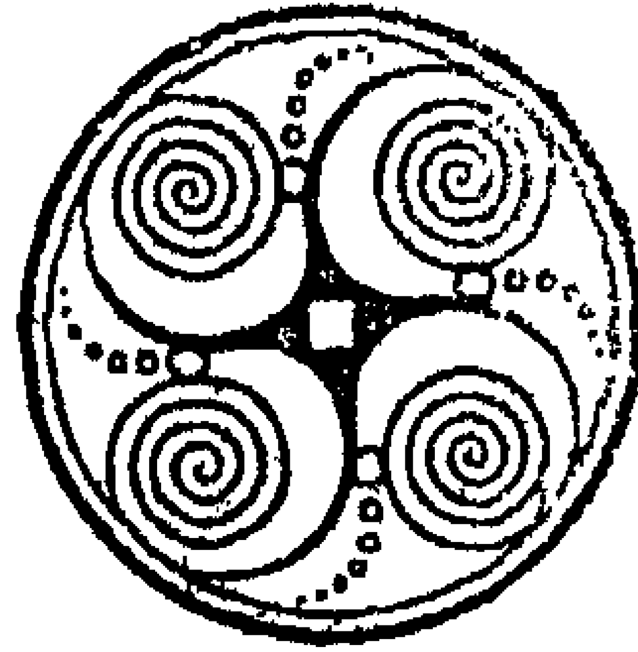
قال الامبراطور :

ـــ مرحى يافرسان بافلوجراد !

فناجى روستوف نفسه بقوله : « رباه بأية سعادة القي بنفسي الى النار لو أمرني بذلك في هذه اللحظة ! » .

ولما انتهى العرض ، اجتمع الضبــاط الروسيون : ضباط كوتوزوف والوافدون حديثاً من روسيا ، في حلقات متفرقة واستغرقوا في الحديث الذي كان يدور بصورة خاصة حول المكافآت المنتظرة والنمساويين والبستهم وحول بونابارت الذي كان موقفه الخطر قد ازداد خطورة بعد وصول فيالق ايسّن

Essen وانضمام بروسيا الى الحلف ،غير ان الحديث كان يدور حول الامبراطور الكسندر بصورة عامة ، فكانت كل حركة من حركاته او اشارة من اشاراتـه تفسر بحماس وتوقد، كانوا جميعاً لايطلبون الا امراً واحداً : الهجوم على العدو ، كان روستوف ومعظم الضباط يفكرون في انه من المستحيل ان يهزم جيش يأتمر بامرة عاهل كهذا القيصر ، فكانوا يشعرون بدنو النصر المبين ويؤمنون به ايماناً يتوافر مثله عقب معركتين ظافرتين متتاليتين .



الفَصلُ التّاسِعُ

(طموح بوريس)

غداة اليوم التالي للعرض ، ارتدى بوريس اجمل ثيابه ومضى الى اولموتز ترافقه تمنيات صديقه بيرج الطيبة . كان يهدف الى الافادة من مركز بولكونسكي ليصل الى خير المراكز واحسنها ، وكان المركز الذي يهدف اليه ويتمناه هو ان يكون ضابطاً مساعداً لشخصية قوية واسعة النفوذ يغبطه الآخرون على سطوته ويحسدونه على قوته . كان يناجي نفسه بقوله : « يستطيع روستوف الذي يرسل له ابوه كل مرة عشرة آلاف روبل ، ان يترفع ويأبى الانحناءات والاحترامات ، اما انا ، الذي لا أملك شيئاً باستثناء نفسي . فإنني مرغم على شق طريقي والاطباق على الفرصة بأيد قوية » .

لم يجد الامير آندريه في اولموتز ذلك اليوم . غير ان معالم المدينة ، حيث اقيم فيها مركز القيادة العامة والسلك السياسي واقام فيها الامبراطوران مع حاشيتيهما بين مقربين واقرباء ، كل هذه الاشياء زادت في نفسه لهيب الشوق الى المركز المنشود استعاراً ، وحببت اليه الدخول في ذلك العالم الجديد الرفيع .

ماكان يعرف احداً في المدينة . وأحسّ – رغم ثوبه الانيق – ان كل هؤلاء الرجال العسكريين ، المزوقة قلنسواتهم بالريش ، المزينة اثوابهم بالصفائح الذهبية والخرج ، الذين يخطرون بتيه وترفع في صخب وضجيج ،يبدون ارفع منه مقاماً وقدراً ، حتى انه لم يتفكر لوجوده فحسب بل شعر انه لايستطيع الا ان يتنكر لذلك الوجود التافه . ففي مركز القيادة حيث استعلم عن الامير بولكونسكي ، شعر من لقاء الضباط المساعدين والحجاب ايضاً الذين عاملوه بلا مبالاة ، انهم يستقبلون كل يوم عشرات من أمثاله حتى أنهم متبرمون من كثرتهم . وفي اليوم التالي ، رجع بوريس الى اولموتز مرة ثانية . ولعل لقاء الأمس والمهانة التي شعر بها كانا الدافع المحفز له على معاودة الكرة . مضى الى الفندق الذي ينزل فيه كوتوزوف وضباطه التابعون له ، وكان ذلك بعد ظهر يوم ١٥ تشرين الثاني . قيل له أن الأمير موجود،وادخلوه الى حجرة فسيحة كانت من قبل صالةللرقص كما بدت لبوريس الذي شاهد «بياناً» باقياً في ركن فيها الى جانب خمسةاسرة. مؤسسة الى جانب أسرة ، بمائدة وبعض المقاعد . وكان أحد الضباط المساعدين جالساً قرب الباب في معطف منزلي فارسي يكتب . وكان آخر،وهو نيسفيتسكي الضخم الأحمر الوجه ،مكوماً على أحد الأسرة معتمداً رأسه على يديه المضمومتين ، يمازح زميلاً له جالساً بالقرب منه . وثالث يوقع على « البيانو » لحن فالس شاع عن فيينا بينما انحنى الرابع على الآلة الموسيقية يرافق العازف بالغناء. لم يبدل أحد من الأربعة من سلوكه لدى رؤيتهم بوريس. إستدار الذي كان يكتب ،والذي سأله بوريس عن بولكونسكي ، باستياء واضح وأفهمه ان بولكونسكي كان يؤدي وظيفة معينة وانه اذا كان يرغب في لقائه حقاً ،عليه ان يذهب الى قاعة الاستقبال ماراً بالباب الذي الى اليسار ! فشكره بوريس ومضى الى القاعة التي عينها له الضابط فرأى فيها عدداً من الاشخاص بين ضباط وجنرالات ينتظرون.

شاهد عند دخوله جنرالاً روسياً تملأ الأوسمة صدره، واقفاً في وضعية أقرب الى وضعية الاستعداد العسكرية ، ينهي تقريره الى بولكونسكي وعلى وجهه الناطق بالتبرم امارات الاكرام المعروفة عند الجنود وكان الأمير يصغي اليه وعلى وجهه امارات الارهاق المهذب وفي عينيه ومضة ساخرة ، توحي للآخرين انه لولا مستلزمات الواجب وضروراتها لما اصاخ السمع لحظة الى كل مايقولون. وسمع الأمير يقول له :

ــ حسن جداً ، حسن ، تفضل بالانتظار .

وكانت لهجته واسلوب نطقه باللغة الروسية على الطريقة الفرنسية توحي بالسخرية والتهكم .

وقعت عيناه في تلك اللحظة على بوريس ، فاغفل شأن الجنرال الذي راح يلاحقه ويتابعه متوسلا اليه ان ينصت الى ما يقول ، واتجه نحو الشاب يخصه على البعد ببسمة بهيجة وبإيماءة من رأسه .

فهم بوريس عندئذ بجلاء ما توقعه من قبل دون ان يلمسه تماماً ، واعنى ان في الجيش شيئاً اسمه درجات التسلسل ، وان هذا الشيء اكثر أهمية جوهرية من الطاعة الواردة في الانظمة والمعروفة منه كما هي معروفة من كل رفاقه . وكان ذلك الشيء الجوهري هو الذي كان يضيق على الجنرال ذي الوجه القرمزي المحشور في ثوبه العسكري ، ان ينتظر بكل احترام ان يفرغ الرئيس الأمير بولكونسكي من محادثة حامل العلم دروبتسكوي على حديثه هو ، وان يصفو مزاجه ليصغي اليه ... احس بوريس اكثر من كل مرة سبقت انه ينبغي له ان يخضع لذلك الترتيب الضمني اكثر من خضوعه للنظم المدونة . ذلك أنه رأى بنفسه ان مجرد حصوله على توصية لدى الأمير بولكونسكي جعله - وهو حامل العلم البسيط في فيلق الحرس - يتفوق دفعة واحده على جنرال قادر على محقه في الصف وسحقه .

قال الأمير وهو يمسك بذراع بوريس :

– انني آسف لأنك لم تجدني امس. لقدذهبنا باتجاه فيرورهر نعاين الاوضاع ونتفحصها . لقد أضاع هؤلاء الألمان عليّ كل يومي. انهم عندما يتوخون التدقيق والتمحيص لاينتهون بسهولة !

علت شفتي بوريس ابتسامة العارف بالأمر رغم انه لم يسمع بذلك الاسم الا لأول مرة بل ولم يسمع كلمة « اوضـــاع » كذلك الا للمرة الاولى اردف بولكونسكي :

– اذن ياعزيزي ، انك لازلت ترغب في ان تكون ضابطاً مساعداً اليس كذلك ؟ لقد فكرت فيك خلال هذا الوقت .

فاجاب بوريس وقد تضرج وجهه بجمرة شديدة دون ان يعرف السبب :

– نعم . انني عازم على تقديم طلب للجنرال القائد الاعلى الذي اوصاه لي الامير كوراجين .

وأضاف وكأنه ينتحل عذراً لسلوكه :

– انني اذا كنت انهج على هذا النحو فما ذلك الا لخوفي من أن لا يخوض فيلق الحرس في معركة حقيقية .

قال الأمير :

– جميل جداً ! سوف نتحدث عن كل هذا. لكن اسمح لي الآن أن أدخل هذا السيد ولسوف أكون بعد ذلك رهن تصرفك .

وبينما مضى بولكونسكي ليعلن عن وجود الجنرال ذي اللون القرمزي ، راح هذا ، وهو الذي لم يكن ولا شك يشاطر بوريس رأيه حول تفوق الترتيب النظامي لاتثناءات بروتوكوليه ، يحدج بالحاح مرير ذلك الصعلوك – حامل العلم البسيط الذي حرمه متعة التحدث براحة الى الضابط المساعد وشعر بوريس

بالارتباك فاشاع بنظره وراح ينتظر عودة الأمير بفارغ صبر .

قال الأمير وهو يقوده الى البهو ذي الاسرة والآلة الموسيقية (الارغن) :

ـ اليك ياعزيزي الفكرة التي خطرت لي: اعتقد أنه من العبث تقديم طلب الى القائد الاعلى. انه سيسمعك الف مجاملة ومجاملة ولعله يدعوك أيضاً الى تناول الطعام على مائدته .

فكر بوريس في سره معقباً : « الامر الذي لن يكون تافهاً اذا قورن بفروض الاحترام لدرجات التسلسل ! » بينما استرسل الأمير :

ـ غير ان هذا لن يبدل من الأمر شيئاً ، لأننا معشر الضباط المساعدين والاتباع اصبحنا طابوراً كبيراً . اليك اذن ما سنعمله: لي صديق، وهو الأمير دولجوروكوف، وهو فتى رائع يشغل مركز ضابط مساعد عام لجلالته. ولعلك تجهل اننا أصبحنا جميعاً ، كوتوزوف وهيئة أركانه ونحن معهم ، عديمي النفوذ الآن لأن كل شيء اصبح الآن منوطاً بجلالة الامبراطور . لذلك فانني سأقابل دولجوروكوف هذا ، فهيا رافقني اليه. لقد حدثته من قبل عنك ولعله قادر على أخذك في معيته او ايجاد مركز مناسب لك حول الشمس !

كان حماس الامير آندريه يزداد تباعاً كلما اتيحت له الفرصة لحماية شاب ناشيء ودعمه وتقويم خطاه الاولى وتوجيهها في الحياة . وكانت تلك الحجة ، حجة مساعدة الآخرين التي لم يسمح له كبرياؤه قط باستثمارها في سبيل نفسه ، كان بولكونسكي يختلط بالاوساط الرفيعة التي تؤمن النجاح وتمهد له ، ويتقرب من المتنفذين . لذلك فقد اعتبر ان مصالح بوريس التي اوكلت اليه ، بادرة طيبة ترضي نزعته، وهكذا اصطحبه معه لزيارة الأمير دولجوروكوف بكل طيبة خاطر.

عندما دخل الصديقان قصر اولموتز ، كان الليل قد افنى جانباً من عمره وغطى الظلام ذلك المكان الذي يقيم فيه الامبراطوران وحاشيتها . .

اقيم ذلك اليوم مجلس حربي حضره الامبراطوران وكل اعضـــاء القيادة النمساوية والروسية ، وقرر المجتمعون ، خلافاً لآراء العجوزين كوتوزوف وشوارزنبرج[1] المبادرة الى شن هجوم عام ضد بونابارت . وكان المجلس قد أنهى اجتماعه تواً حينما دخل بولكونسكي ورفيقه يستفسران عن دولجوروكوف.

كان اولئك السادة ، سادة المجلس الحربي ، في حبور كبير بسبب الفوز الذي احرزه حزب « الشباب » على الكهول في ذلك الاجتماع . لقد خنقوا اصوات المستمهلين المسوفين باجماع رائع واحبطوا كل اعتراضاتهم بمنطق بليغ سديدحتى ان المعركة او بالأحري النصر المنتظر الذي توقعوا الحصول عليه اثناء مناقشاتهم في المجلس الحربي ، بدا وكأنه وقع وانطوى في صفحات الماضي . كانت كفة الحلفاء – الروس والنمسويين والالمانيين – هي الراجحة: فقواتهم هائلة متفوقة بالعدد – دون أدنى شك – على قوات بونابارت . وهي جميعها متمركزة في نقطة واحدة . وكان الجنود ، قـــد أنشطهم ودب العزيمة في نفوسهم وجود الامبراطورين ، يتحرقون شوقاً الى القتال ، والارض التي تقرر شن الهجوم عليها ، أرض معروفة مدروسة يعرف الجنرال فيروزر كل التفاصيل المتعلقة بها حتى أقلها شأناً . وهذا الجنرال هو الذي اوحى بفكرة الهجوم لأن الجيش النمساوي كان أجرى في العام الاسبق مناورات كبيرة في تلك البقعة بالذات التي تقرر لقاء الفرنسيين عليها وحدد على خرئط حديثة الوضع كل الاماكن والمرتفعات والمنحدرات . اضف الى ذلك ان بونابارت كان – ولا شك – ضعيفاً بل وعاجزاً عن خوض معركة كبيرة !

---

(١) شوازرنبرج وتلفظ شواتزنبرج اسمه الكامل شارل فيليب اميرشواتزنبرج.وهوجنرال وسياسي ألماني كان على رأس الجيش الذي داهم فرانسا عام ١٨١٤ واكتسحها . ولد في فيننا عام ١٧٧١ وتوفي عام ١٨٢٠ . – اسرة الترجمة –

كان دوجْو روكوف ، وهو اكثر المتشيعين لفكرة شن الهجوم حماسة ، يخرج في تلك اللحظة من قاعة الاجتماع منهوك القوى على آخر رمق من الجلد . لكنه كان ذلك ممتلئاً حماسة واندفاعاً فخوراً بالنصر الذي احرزه فريقه منذ قليل. قدم له بولكونسكي «محميه» الذي اكتفى دولجوروكوف بان شد على يده بتأدب دون ان يوجه اليه كلمة . لكنه لم يلبث ان وهنت عزائمه امام رغبته الملحة في الاعراب عما يجيش في صدره . فالتفت الى الامير آندريه وقال له بالفرنسية بلهجة عنيفة متهدجة :

ـ آه ! ياعزيزي . يالها من معركة تلك التي شنناها منذ حين ! عسى ان يريد الله ان تكون المعركة التي ستنشأ عنها قريباً مكللة بالظفر ! أتدري ياعزيزي انني كنت مؤيداً مشرفاً للنمساويين وخصوصاً فيروزر ؟ ياللدقة ، يالاحكام ، ياللمعرفة التامة بالارض ، وياللخبرة المستبقة بكل الامكانيات ، بل ياللعلم المفرط بكل التفاصيل ! صدقني ياعزيزي انه لايمكن ان يتصور المرء مناسبة اكثر ملاءمة من التي نحن في صددها . لقد اجتمعت الشجاعة الروسية بالدقة والاحكام النمساويين ، فماذا تريد خيراً من ذلك ؟

فسأله بولكونسكي :

ـ اذن فقد تقرر الهجوم بالفعل ؟

فأجاب دولجوروكوف بابتسامة هازئة :

ـ وخسر بونابارته ـ تسمية ساخرة لبونابارت ـ كل شيء . هل تعرف ان الامبراطور قد تلقى أخيراً رسالة منه ؟

ـ حقاً ! وماذا جاء فيها ؟

ـ ماذا تريده ان يكتب ؟ ترهات بقصد كسب الوقت ... اننا نتحكم الآن في مقدراته ، ثق بقولي ! ...

ثم اضاف ضاحكا بطيبة قلب :

— غير ان مايثير الفضول في الموضوع هو ان احداً حتى الآن لم يوفق في تدبيج الجواب على تلك الرسالة بسبب العنوان . ان النية منصرفة الى عدم استعمال كلمة «قنصل» (١) فكيف بكلمة «امبراطور» .

ولقد اقترحت ان يرسل الجواب بإسم « الجنرال بونابارته » !

فقال بولكونسكي :

- اسمح لي ، يجوز ان لا يُعترف به كامبراطور . ولكن تسميته «بالجنرال بونابارته» ... !

فقاطعه دولجوروخوف ضاحكاً :

— تماماً ، وقد اصبح الامر اكثر تسلية ... انك تعرف بيليبين ولا شك ، أليس كذلك ؟ حسناً ، لقد اقترح هذا الساخر الصامت ان نعنون الرسالة الى « المعتدي عدو الجنس البشري ! » .

واستغرق دولجوروخوف في قهقهة مدوية . سأله بولكونسكي :

— أهذا كل شيء ؟

— كلا ، لقد اوجد بيليبين اخيراً اللقب المناسب . ان هذا الساخر يتمتع كذلك بذكاء ألمعي .

-- وماذا كان ذلك اللقب ؟

فقال دولجوروخوف بلهجة جدية رزينة :

— الى رئيس الدولة الفرنسية . أليس لقد مخرج لهذه الورطة ؟

فأجاب بولكونسكي :

---

(١) المعروف ان بونابرت سمى نفسه قنصلا عاما لفرنسا قبل ان يصبح امبراطوراً لها وهو الامر الذي ما كان اعداؤه يعترفون به رسمياً . — المترجم —

ـ رائع ، ولكنه لن يروق له .

ـ بل على العكس ! ان اخي يعرفه. نعم انه يعرف ذلك الامبراطور المرتجل. لقد تناول الطعام معه مرة في باريس وانبائي بأن لم ير في حياته دبلوماسياً اريباً داهية مثله . لقد اجتمع فيه الدأب الايطالي بالرقة الفرنسية. هل تعرف الاقاصيص التي تشاع حول علاقاته بالكونت ماركوف . الرجل الوحيد الذي عرف كيف يتصرف معه بجدارة وحق ؟ هل تعرف قصة المنديل مثلا ؟ انها رائعة .

وراح دولجوروكوف يتبسط في سرد الاحدوثة ملتفتاً تارةالى بولكونسكي واخرى الى بوريس . قال ان بونابارت كان مرة مع سفيرنا ماركوف في مقابلة رسمية . فأراد ان يختبره ليعرف قيمه الشخصية .

وبينما هما واقفان ، ترك بونابارت منديله يسقط على الارض وراح ينظر الى الكونت ماركوف نظرات ملؤها الامل في ان يبادر هذا الى التقاط المنديل واعادته اليه . فما كان من سفيرنا الا ان القى منديله بجانب منديـــل بونابارت وانحنى فالتقطه دون ان يمس منديل هذا الاخير .

قال بولكونسكي :

ـ رائع ! ولكن اسمح لي ياأميري ، لقد جئتك ملتمساً أمراً . انه يتعلق بهذا الشاب الذي ...

لم يتمم حديثه ذلك ان احد الضباط المساعدين جاء يسأل عن دولجوروخوف ليسأله المثول بين يدي الامبراطور .

قال الامير وهو ينهض بنشاط ويضغط على يدي بولكونسكي وبوريس مصافحاً :

ـ آه ، يالها من مضايقة ! كنت ساكون سعيداً بتلبية كل رغباتك ياأمير في كل مايتعلق بك وبهذا الشاب الجميل . وانك تعرف حقيقة مشاعري نحوك .

وعاد يضغط على يديهما ويخص بوريس بابتسامة مرحبة لم يكن الاخلاص فيها الا طلاء ظاهري واردف :

ـ لكنك ترى بنفسك ... فإلى المرة القادمة !

كانت مجاورة بوريس للسلطة العليا تحرك مشاعره بانفعال . كان يشعر في قرارة نفسه انه في تلك اللحظة قريب من تلك السلطة التي تستطيع تحريك الكتلة الهائلة من البشر التي كان في عدادها صباح ذلك اليوم ، والذي لم يكن فيها الا ذرة طيعة سلسلة القياد . تبع مع بولكونسكي الممشى الذي سار فيه دولجوروخوف ، وعندما بلغا مكتب الامبراطور الذي دخل اليه المساعد العام، التقيا برجل قصير القامة في ثوب مدني ذي ذقن نائتة تضفي على مظهره لوناً من الحيويه الماكرة دون ان تكسب وجهه بشاعة ، كان خارجاً من حضرة الامبراطور . شاهدا ذلك الرجل يومىء برأسه الامير دولجوروكوف وكأن من معارفه ، ثم يصوب الى بولكونسكي نظرة باردة منتظراً ولا شك ان يبادره هذا بالتحية او يتنحى عن طريقه . لكن بولكونسكي خيب امله وعبس وقطب حاجبيه مما جعل ذلك المدني يستدير متابعاً طريقه .

سأل بوريس :

ـ من هذا ؟

ـ انه من اكثر الرجال رفعة في المركز وخطورة في الدولة . لكنه من اشدهم مقتاً في نفسي . انه الامير آدم تزارتوريسكي وزير الخارجية . ان امثال هذا الرجل يقررون مصير الشعوب ...

وبينما كانا خارجين من القصر ، ندت عن صدر بولكونسكي زفرة عميقة لم يستطع كتمانها .

وفي اليوم التالي ، زحفت الجيوش . ولما لم يستطع بوريس لقاء بولكونسكي او دولجوروخوف قبل معركة اوسترليتز ، فإن بقاءه في فيلق « اسماعيل » كان يمضه ويضنيه .

الفَصْلُ العَاشِرُ

«افراح النصر»

في فجر اليوم السادس عشر من تشرين الثاني ، بارح نيكولا روستوف الذي كان في عداد كوكبة الفرسان التي يقودها دينيسوف والمربوطـة بجيش باجراسيون ، الثكنة مع كوكبته للدخول في العمليات المدبرة ، او على الاقل هذا ما كان يشاع حينذاك ، ولكن لم تكد الفرقة تقطع ربع مرحلة حتى صدر اليها الامر بالتوقف حيث هي على الطريق ، رآى روستوف الجنود القوفاز يمرون امامه ثم الكوكبتين الاولى والثانية للفرسان ، ففيالق كاملة من المشاة مصحوبة بعدد من المدافع ، واخيراً الجنرالان باجراسيون ودولجوروكوف يتبعهما الضباط المساعدون ، وفي تلك المرة ايضاً ، بذل روستوف ، الذي شعر بالخوف يتسرب الى نفسه ، جهداً جباراً للتغلب على مخاوفه ، لقد حلم للمرة الثانيه في ان يتصرف تصرف الابطال ، تصرف الفرسان الحقيقيين ، لكن حلمه تبدد لأن كوكبته تركت لتكون في عداد الاحتياطي من الجيوش ، لذلك فقد قضى سحابة يومه في قلق واكتئاب عميق . وفي الساعة التاسعة ، ترامى الى

سمعه صوت طلقات ناريه حامية اعقبها هتاف مدو ، ولم تلبث ان مزت مواكب الجرحى عائدة الى الصفوف الخلفية وفي اعقابها كوكبة من القوفاز تعدادها مائة فارس تحيط بحشد من الفرسان الفرنسيين الأسرى ، وبدا ان المسألة قد انتهت نهاية سعيدة تتناسب مع اهميتها ، كان العائدون الى الصفوف الخلفيـة ينبئون زملاءهم بأخبار الانتصارات الرائعة التي احرزتها القوات الروسية التي احتلت ويسشو واسرت كوكبة كامله من الفرسان ، وكان الصقيع الذي كسا الارض خلال الليل بدثاره اللامع ، ينعكس بريقه تحت اشعاع شمس الخريف الخابية فيزيد في ضيـاء ذلك الاصباح الجميل متناسقاً مع النصر السعيد الذي احرزته القوات الروسية ، والذي لم تقتصر الروايات وحدها على تمجيده ، بل اعربت عنه كذلك كافة الوجوه ، وجوه الجنود الضباط والجنرالات التي كانت تفيض بشراً وحبوراً كما خطر اصحابها تحت ابصار روستوف الملتاع . وازاء تلك المظاهرة البراقة المغرية ، ازدادت نفس نيكولا اكتئاباً وغما واشتدسخطه لقضائه يوماً آخر في جمود مزعج وهو الذي كان يتوق للقتال .

هتف دينيسوف يحدثه :

— تعال ياروستوف نغرق احزاننا في الخمر .

وكان دينيسوف مقيماً على جانب الطريق وامامه اناء وبعض الارزاق .

راح ضباط الكوكبة يشكلون حلقة حول صندوق دينيسوف الحافل بالأرزاق يتبادلون الحديث وهم يتناولون طعام الافطار .

هتف احدهم مشيراً الى احد فرسان الدراجون الفرنسين الذي كان يسير على قدميه بين اثنين من القوقازيين :

— هه ، هاهو ذا آخر يعودون به من جديد .

كان حصان الاسير ، وهو حصان ضخم جميل التكوين ، يسير في اعقاب

صاحبه وقد أمسك القوقازي بأعنته .

قال دينيسوف للقوقازي :

ــ هل تبع الحصان ياهذا ؟

ــ قد ابيعه ياصاحب النبالة ...

تها فت الضباط حول القوقازيين واسيرهما . كان هذا الألزاسي الشاب ،تكاد الدماء تتفجر من وجهة من شدة انفعاله فلما سمع الضباط يتحدثون باللغة الفرنسية، راح يحدثهم بطلاقة واندفاع شديدين ، متوجهاً تارة الى هذا واخرى الى ذلك، معلناً انه لولا عناد العريف قائد مفرزته ، لما وقع في الأسر . قال انه اخطر رئيسه مراراً بان الروسيين قد احتلوا المدينة ، مع ذلك فان ذاك ارسله للبحث عن لبد اغفلت هناك . وكان بعد كل جمله يلاطف عنق جواده ويقول متوسلاً : لكن ارجو ان لاتسيؤا الى جوادي المسكين . كان يبدو على ذلك الرجل انه لايدري عن امره شيئاً ، فكان يعتذر احياناً لأنه استسلم وأسر ، واحياناً اخرى يعتقد انه في حضرة رؤسائه فيتبجح امامهم مبيناً غيرته ودأبه في الخدمة . وبفضله امكن للقوات الروسية المرابطة في الصفوف الخلفيه ان تفهم الجو الذي يعيش فيه الجيش الفرنسي بكل تفاصيله ، ذلك الجو الذي لم تكن لديهم اية فكرة عن حقيقته

باع القوقازيان الحصان لقاء قطعتين ذهبيتين الى روستوف الذي كان اكثر زملائه ثروة . فقال الاسير الالزسي لروستوف الذي قبض على اعنة الحصان :

ــ ارجو ان لا يعامل حصاني الصغير معاملة سيئه !

ابتسم روستوف وطمأن الاسير ثم اعطاه بعض المال . وهتف احد القوقازيين بالاسير وهو يدفعه الى الأمام :

ــ هيا ، هيا ! تقدم .

وفجأة صاح احدهم :

ـ الامبراطور ! الامبرطور !

هرع الجميع لهذا النداء . واستدار روستوف فرقعت ابصاره على بعض الفرسان القادمين وعلى قلنسواتهم الريش الابيض . وفي طرفة عين ، كان كل في مكانه من الصف ينتظر القادمين .

مضى روستوف كذلك الى مركزه واعتلى صهوة جواده دون أن يشعر بما يفعل . تبدد اسفه العميق لعدم اشتراكه في المعركة ، وتبخر اشمئزازه العنيف من اللفظ اليومي الوتير الذي كان يطالعه ابداً على تلك الوجوه المعروفة منه ، واصبح لايشعر حتى في وجوده . لقد كان الفرح الذي شمله عند سماعه بان الامبراطور بات قريباً منه ، يستأثر بكل اهتمامه . كان سعيداً كالعاشق الذي ينتظر لقاء حبيبته للمرة الاولى . مع ذلك فانه لم ينس مقتضيات النظام الذي تفرض عليه عدم الالتفات . لكنه لم يكن في حاجة للالتفاف ليعرف « انه » اقترب . ولم يكن اقتراب الامبراطور يُعلن بارتفاع اصوات سنابك الخيل وتقدمها فحسب ، بل بالاشراقــــة التي احس بها روستوف تغمر الجو والجلال الذي راح يستولى على النفوس . وكانت تلك الشمس التي اضفت ذلك النور الرائع الهاديء تقترب تدريجياً وتلف روستوف باشعاعاتها الدافئة المهدهدة . وتبينت اذنه ذلك الصوت الجليل الهاديء الدافيء البسيط الذي راح يتعالى كلما ازداد صاحبه قربا .

لم تخدع روستوف احساساته . لأن سكوناً مطبقاً شمل المكان فجأة ، وتردد صوت الامبراطور يمزق ستره بقولة :

ـ فرسان بافلوجراد ؟

فأجابه صوت بدا لسمع روستوف ان لهجته تدل على أن صاحبه ليس الا من بني البشر بقدر ما كان الصوت الاول ملائكي علوي :

ـ الاحتياط من الفرقة ياصاحب الجلالة .

توقف الكسندر امام روستوف الذي شعر ان وجهه أشد جمالاً مما بدا له في الاستعراض العام قبل ثلاثة ايام . كان ذلك الوجه يطفح بالشباب والوداعة، شباب بريء جعله يبدو رغم جلاله وهيبته ، اشبه بوجه وديع بهي لطفل في الرابعة عشرة من عمره . وبينما كان يجيل بصره في وجوه فرسان الكوكبة ، التقت انظاره فترة بانظار روستوف وتوقفت برهة معها . فهل تراه فهم ما كان يجول في خاطره كما توقـــع روستوف ؟ المهم انه تأمله حوالي ثانيتين بعينيه الزرقاوتين اللتين ينبعث منهما نور حانٍ وديع . وفجـأة ، رفع حاجبه وهمز جواده بمهمازه الايسر واستمر في طريقه هدباً .

تصامم الامبراطور الشاب عن رجاء اتباعه وافراد حاشيته ، ولم ينجح في التخلي عن رغبته في المساهمة في الهجوم ، حتى انه حوالى الظهر ، انفصل عن الصف الثالث من الجيش وهرع الى الصفوف الاولى . لكنه لم يكد يصل الى حيث كان الفرسان منقضين على العدو حتى ابلغه ضباطه المساعدون بنبأ النصر الذي احرزوه .

كان ذلك النجاح الذي لم يكن الا اسر كوكبة فرسان فرنسية فحسب قد رسم للامبراطور الشاب على لوحة تظهره بمظهر النصر الرائع ، حتى ان الامبراطور والجيش كله ـ كما اشيع في حينـه ـ ظنوا ان الفرنسيين قد دحروا وانهم يتراجعون مرغمين . وكان الدخان الكثيف الذي غطى ساحة المعركة يكاد هوالاخر يثني على ذلك . ولم تمض دقائق على مرور الامبراطور ، حتى صدرت الاوامر للجيش الذي كان الاحتياطي من فرسان بافلوجراد تابعاً له ، بالحركة . وقد قدر لروستوف ان يشاهد الامبراطور مرة ثانية في مدينة ويسشو وكانت بعض الجثث ، جثث الجرحى والقتلى ، لازالت في مكانها في ساحة تلك المدينة

التي لعلع الرصاص فيها منذ حين خلال المعركة، لم ترفع بعد . وكان الامبراطور ممتطياً صهوة جواد آخر غير ذلك الذي استعرض القطعات على صهوته ، لكنه كان مولداً ايضا من اصل انجليزي ومحجل الاطراف . وكانت حاشية كبيرة تحيط به . كان منحنيا على جنبه حاملا بيده عوينته الذهبية ، ينظر الى جندي مستلق على صدره مضرج بالدماء التي تخضب رأسه وسترته . كان ذلك الجريح كريه المنظر منفره ، شديد القذارة ، حتى ان روستوف شعر بألم شديد لوجود الامبراطور بالقرب منه . اجتاحت قشعريرة ظاهرة كتفي العاهل المحنيين قليلا ، فهمز جواده بعصبية بساقه اليسرى . غير ان الفرس المطهمة المدربة تدريبا ممتازاً ، لوت عنقها بشيء من اللامبالاة ولم تتقدم خطوة واحدة . وكان روستوف يراقب كل حركات الامبراطور حتى اتفهها شأنا . واخيراً ، ترجل احد الضباط المساعدين فحمل الجريح من تحت ابطيه ووضعه على نقالة جيء بها في تلك اللحظة . فاطلق الجريح زمجرة .

وقال الامبراطور الذي كان يتنفس بصعوبة اكثر من المحتضر نفسه :

ــ رويدكما ، احملاه بلطف . الا يمكن نقله بعناية اكثر وهدوء أشد ؟

شاهد روستوف الدموع تملأ عيني مليكه وسمعه يقول لكزاركوريسكي وهو يبتعد :

ــ يالها من امر مروع هذه الحرب : يالها من امر مريع !

كانت مقدمة الجيش تحتل مراكزها خارج المدينة تلقاء العدو الذي مافتىء ازاء أحقر هجوم ويتخلى عن مساحات من الارض . اعرب الامبراطور عن شكره للقطعات المحاربة ووعد بمكافئات وفي ذلك النهار وزعت على الجنود جرايه مضاعفة من العرق . كانت نيران المعسكرات اكثر بهجة في تلك الليالي عن الليالي السابقة وكذلك اغنيات الجنود فانها كانت اشد حماسة . واحتفل دينيسوف تلك

الليلة بترقيته الى رتبه ماجور . وقبل نهاية الحفل ، رفع روستوف يده بقدحه وكان قد ثمل لكثرة ماعب من شراب ، واقترح ان يشربوا نخب الامبراطور. قال مفسراً :

ـ اصغوا الي لتفقهوا غايتي . انني لااقترح ان نشرب نخب « صحة الامبراطور » كما درجت عليه العادة في الحفلات الرسمية ، بل اطلب ان نشرب نخب الامبراطور الكسندر ، الرجل الطيب الفتان الرائع . نخب صحته اذن ، نخب انتصارنا على الفرنسيين ! ان النصر أكيد ايها السادة . فنحن الذين حاربنا ببسالة من قبل وطوحنا بالفرنسيين في شوينجرابن ، ماذا يكون موقفنا اليوم والامبراطور على رأسنا ؟ سوف نموت جميعا وبسرور بالغ اليس كذلك ايها السادة ؟ لعلني لم انجح في التعبيرعن شعوري وعواطفي كما يجب ، لكنني اوجزت في ذكر احساساتي واحساساتكم ايضا . فاشربوا نخب صحة الكسندر الاول ! هورّا !

ورددت الحناجر صيحة هورّا ! حتى إن الرئيس العجوز كيرستن اودع في تلك الصيحة من الحماس الساذج مثل ماأودعها روستوف .

وبعد ان افرغ الضباط اقداحهم وحطموها ، ملأ كيرستن اقداحا اخرى. حمل كأسه وراح يلوح بها وتقدم وهو في قميصه الابيض الى حيث يعسكر الجنود ، وتوقف امامهم وقفة جليلة قريباً من المعسكر ، وشارباه الاشهبان الطويلان وصدره الابيض البارز خلال فتحة قميصه ، بارزة واضحة تحت اضواء النيران .

هتف بصوته الاجش الخطير ، صوت الفارس العجوز المحنك :

ـ هيا ايها الفتيان ، اشربوا نخب صحة جلالة الامبراطور ، ونخب انتصارنا على العدو ! هورّا !

والتفت الفرسان حوله وراحوا يرددون باصواتهم القوية هتافاته المدوية! هورا!

وفي ساعة متأخرة من الليل ، حان وقت الانفصال . فربت دينيسوف بيده الصغيرة على كتف روستوف صفيه وقال :

ـ اذن ، انك لم تجد من تتعلق به في السرية فانصرفت الى عشق الامبراطور!

ـ آه يادينيسوف . لاتمزح هكذا . انه شعور جميل رفيع شديد التسامي شـــديد . . . .

ـ لاشك ، لاشك . وانني اشاطرك هذا الشعور وأؤيده .

ـ كلا . بل انك لاتفهمني !

ونهض روستوف وراح تياها بين المعسكرات ، يحلم في السعادة التي ينشدها في الموت ليس في سبيل انقاذ حياة الامبراطور التي كان يؤمن انه غير جدير في في نيل شرف انقاذها، بل في الموت تحت ابصاره . كان مأخوذا بمليكه وبعظمة الجيوش الروسية ، يسمو ويحلق مع الامل في احراز نصر قريب . ولم يكن روستوف وحده يحس هذا الأحساس في تلك الايام الخالدة التي سبقت معركة اوسترليتز بل ان تسعة اعشار الجنود على الاقل كانوا مثله مأخوذين بروعة شخصية مليكهم وبعظمة الجيوش الروسية .

* * *

الفصل الحادي عشر

مفاوضات فاشلة

اقام الكسندر في اليوم الثاني في مدينة فيسشو وأمر باستدعاء طبيب جلالته المرافق فيلبير ، فشاع خبر الوعكة الصحية التي المت بالامبراطور في القيادة العامة وبين الوحدات القريبة من المكان . كان خلص العاهل الروسي يزعمون ان روحة الحساسة المرهفة تأثرت بمشاهد القتلى والجرحى ، فضعفت شهيته الى الطعام وامضى ليلة شديدة الازعاج .

وفي فجر اليوم السابع عشر[1] ، تقدم ضابط فرنسي يحميه علم ابيض ، الى الخطوط الروسية الامامية وطلب مقابلة الامبراطور ، فنقل الى فيسشو . ولما

---

(١) ينبغي ان لايغرب عن البال ان التقويم الروسي تقويم شرقي وهو يتأخر عن التقويم الميلادي الغربي بثلاثة عشر يوماً . لذلك اذا شاء القراء تتبع هذه الحوادث حسب التقويم الشائع عندنا ، عليهم ان يضيفوا هذا الفرق . وعلى هـذا الاساس فان السابع عشر من تشرين الثاني حسب التقويم الشرقي يوافق الثلاثين منه عندنا وهكذا ... — المترجم —

كان الامبراطور نائما ، فقد اضطر ذلك الضابط الذي لم يكن الا سفاري [٢] ، ان ينتظر حتى يستيقظ جلالته . وحوالي الظهر ، مثل بين يدي الامبراطور حيث لبث ساعة كاملة خرج بعدها يصحبه الامير دولجوروكوف ، وسرت بين الصفوف شائعة مفادها ان نابليون ارسل يلتمس مقابلة الامبراطور الكسندر الذي رفض الذهاب بنفسه واناب عنه الاميردولجوروكوف ، المنتصر في معركة فيسشو ليبحث مع نابليون في شؤون السلام اذا رغب هذا ، خلافا لما كان ينتظر منه ، وقد قوبل رفض العاهل الكسندر من قبل الجنود بسرور بالغ واثار في الجيش روح الكرامة والاعتداء .

وحوالي المساء ، عاددولجوروكوف ، فمضى قدماالى مكتب الامبراطور حيث لبث في حضرته على انفراد وقتاً طويلا .

وفي يومي ١٨ و١٩ (اي ١ و٢ كانون الاول كما اسلفنا) ظلت الوحدات الروسية تتقدم والخطوط الامامية للعدو تتراجع إثر مناوشات بسيطة تافهة . غير ان حركة كبيرة دبت في الصفوف اعتبارا من بعد ظهر يوم ١٩ (٢ - ١٢ - ١٨٠٥) حركة هائلة بلغت في مداهـــا الى اعلى مراتب الجيش واستمرت دائبة حتى صباح يوم ٢٠ تشرين الثاني ، وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة اوسترليتز التاريخية[١] الخالدة .

---

(٢) رونيه سافاري ، دوق دو روفيجو ، جنرال فرنسي ولد عام ١٧٧٤ وتوفي عام ١٨٣٣ . ظهرت مواهبه في معركة اوسترولنكا ، وتقلد منصب وزير البوليس في عهد بونابرت .
— المترجم —

(١) Austerlit مدينة في مورافيا اسمها بالتشيكية : سلافكوف . هزم نابليون النمساويين والروس فيها يوم ٢/١٢/١٨٠٥ هزيمة منكرة . وقد ظل ذلك الانتصار اروع نصر حصل عليه نابوليون في حياته العسكرية حتى ظل ذكر تلك المعركة يواكب اسم نابليون حتى اليوم . ومما يروى عنها ، ان نابوليون صاح بجنوده صبيحة يوم معركة موسكوفا التي وقعت عام ١٨١٢ : «ايها الجنود ، انها شمس اوسترليتز!» وقد سميت تلك المعركة ايضاً بمعركة الاباطرة الثلاث . — المترجم —

كانت الحركة الصاخبة والاحاديث الحارة والسعي الدائب ، ومهام الضباط المساعدين ، محصورة كلهـــا حتى ذلك اليوم بين حدود مركز القيادة العامة الامبراطورية . اما في يوم ١٩ تشرين الثاني ، فقد تعدت الحركة تلك الحدود فبلغت مركز قيادة كوتوزوف ومركزار كان حرب قوادالكتائب والوحدات. ولم يحل المساء الا وكانت الصفوف كلها في شغل شاغل بفضل مساعي الضباط التابعين . وفي ليل ١٩ - ٢٠ تشرين الثاني ، اهتزت الكتلة الهائلة التي كان قوامها ثمانين الف رجل والتي كانت تنبسط على جبهة طولهـــا يناهز العشرة كيلومترات

كانت الحركة المركزية التي بدأت ذلك الصباح من مركز القيادة الامبراطوري والتي دب بسببها النشاط في كل القطعات ، تذكر المرء بالعجلة المحركة التابعة لساعة جبارة كبيرة . بدأت احدى العجلات تدور ببطء ثم اعقبتها ثانية فثالثة ولم تلبث حتى استجابت لها المشابك والعجلات الفرعية وما اليها ، فراحت تهتز بدورها تزداد مشيتها سرعة دقيقة بعد دقيقة ، فيدوي الجرس وتتحرك التماثيل الصغيرة وتتقدم الابر بانتظام الى الامام كما هي النتيجة المحتومة للعملية كلها .

كذلك كانت الآلة العسكريه ، تشبه آلة الساعة في كل شيء حتى في الغاية فاذا ما قامت الحركة الاولى ، لبثت كل الآلات الاخرى جامدة حتى يصل اليها النشاط الدوري الرتيب . فتصر العجلات على الحوامل وتتشابك اسنانها وتتحرك المشابك بفعل السرعة والروتين بينما تظل العجلة المجاورة ساكنة بانتظار دورها في الحركة وكأنها تستطيع البقاء في سكونها وجمودها مئات السنين . ولكن عندمـــا تحين اللحظة المواتية ، وتشتبك اطرافها في مخلب مشرشر مدبب تخضع لنظام الحركة فورا فتدور ويرتفع صريرها هي الاخرى متماشية مع الحركة العمومية التي تبقى النتائج المرجوة مجهولة منها .

وكما ان الحركة المعقده في الساعة لاتنتهي الا بانتقال الابرة المشيرة الى الوقت من مكانها على الميناء ببطء وانتظام ، فان النشاط الذي دب في اعصاب مائة وستين الف رجل بين روسي وفرنسي ، واصطدام تلك الرغبات واختلاط تلك الشهوات ، والحسرات والمخاوف والآلام وبوادر الكبرياء والذعر والحماس ، لم يكن لها من نتيجة الاخسارة معركة اوسترليتز بالنسبة الى احد الجانبين المتحاربين ، تلك المعركة التى اطلق عليها اسم معركة الاباطرة الثلاثة ، امبراطور روسيا والنمسا وفرنسا . وبمعنى أصح ، لقد كانت حركة ابرة التاريخ العام على ميناء تاريخ الانسانية .

كان الامير آندريه في الخدمة ذلك اليوم ، فلم يفارق الجنرال الاعلى كوتوزوف لحظة واحدة . وفي الساعة السادسة مساء ، وصل كوتوزوف الى مقر القيادة الامبراطورية ، وبعد لقاء قصير مع الامبراطور ، قصد الى الكونت تولستوى ، الذي كان ماريشال البلاط الاكبر . شعر بولكونسكي ان كوتوزوف لم يكن على مايرام . بل انه لاحظ عليه الاغتمام والاستفزاز الذين كان مردهما الاستقبال الفاتر الذي قوبل به من قبل السادة اعضاء الحاشية في القيادة العامة ، واللهجة التي يخاطبونه بها والتي توحي بأنها يعرفون اشياء يجهلها الآخرون . واراد بولكونسكي معرفة كلة السر في هذه المعضلة ، فمضي الى دولجوركوف منتهزا فرصة الفراغ القصير الذي عرض له اثناء مقابلة كوتوزوف للكونت تولستوي .

قال له الامير ، وكان يتناول الشاي مع بيليبين :

— إه ! مرعباً ياعزيزي . نعم ان غداً موعد العيد . ترى مـاذا يقول عجوزك ؟ انه ليس حسن المزاج اليس كذلك ؟

— ليس الامر مقتصراً على مسألة مزاج ، انني اعتقد ان الجنرال يطلب ان يُصغى الى مايقول .

— لقد اصغينا الية عندما انعقد المجلس الحربي . ولسوف نصغي اليه كلما عزم على التحدث بتعقل . اما ان نتمهل في حين ان بونابارت لايخشى شيئاً مثل خوفه من معركة عامة لتشن على قواته ، فذلك مستحيل .

— صحيح ، بمناسبة الحديث عن بونابارت ، حدثني عن انطباعاتك . لقد رأيته وتحدثت معه . ماذا وجدت فيه ؟

— لقد رأيته واستخلصت من تلك المقابلة ان ما من شيء يخيفه اكثر من معركة عامة تشن عليه !

كرر دولجو روكوف هذا القول وهو شديد الفخار اذاستطاع استخلاص ذلك الرأي . اردف يقول :

— لو انه لم يكن خائفاً من المعركة ، فلماذا اثار هذه المباحثات ورغب في المفاوضة ؟ ثم لماذا يتراجع باستمرار وهو الذي عرف عنه ان التراجع ليس في براجه ؟ صدقني انه خائف . انه يخاف المعركة العامة . لقد دقت ساعته اؤكد لك فثق في قولي .

لكن بولكونسكي الح يسأله :

— لكن خبرني ، كيف وجدته ؟

— انه رجل يرتدي « الرود نجوت » الرمادي ويرغب من كل قلبه ان يناديه الناس بـ « ياصاحب الجلالة » . لكنني ـ لشديد حزنه واكتئابه ـ لم اطلق عليه اي لقب . هذا هو الرجل ولا شيء اكثر من هذا .

وابتسم دولجوروكوف لبيليبين ابتسامة شيقة واردف :

— انني مع مزيد احترامي لكوتوزوف العجوز ، اعتقد اننا لو تمهلنا وترددنا فاننا نعطي فرصة كبيرة لنابوليون تمكنه من الافلات ، وبذلك نكون من اكرم المحسنين . انه الآن بين ايدينا . لاتنسى مبدأ سوفوروف العتيد :

لاتسمح لخصمك بمهاجمتك بل كن انت المهاجم . صدقني ياعزيزي ان حيوية الشباب في الحرب تمتاز ببعد نظر يفوق خبرة المخضرمين العجائز .

فقال بولكونسكي معترضاً على نظرية دولجوروكوف ، راجياً ان تتاح له في هذه المناسبة فرصة عرض خطته الشخصية التي وضعها لذلك الهجوم :

– ولكن في اي اتجاه سنهاجم وعلى اية وضعية ؟ لقد ذهبت بنفسي منذ حين الى خطوطنا الامامية وتأكدت من استحالة تحديد مركز قواته الرئيسية .

فأجابه الامير وهو ينهض واقفاً ويبسط خريطة على المائدة :

وماذا يهم ذلك ؟ اذا كانت في برون.

وراح دولجوروكوف يشرح بسرعة وبوضوح حركة الالتفاف التي وضع خطوطها فيروذر .

شرح بولكونسكي اعتراضاته وعرض خطته الشخصية التي كانت تبدو في مثل قيمة الخطط التي وضعها فيروذر ، مع فارق واحد في غير صفه ، وهوانها جاءت متأخرة . ومنذ ان حاول ابراز محاسن خطته ومساوىء الاخرى ، توقف دولجوروكوف عن الاصغاء اليه ، فلم يعد يلقي اليه الا بنظرة ساهمة دون ان ينظر الى شروحه على الخريطة .

واخيراً قال له :

– حسناً ، سيقام هذا المساء مجلس حربي في مكتب كوتوزوف ، وبامكانك الدفاع عن وجهة نظرك هناك .

فقال بولكونسكي وهو يبتعد عن الخريطة :

– وهذا ما انوي عمله .

وهنا تدخل بيليبين الذي ظل صامتاً حتى تلك اللحظة ينظر الى المتحدثين

بهدوء مترقباً الفرصة الملائمة للالقاء باحدى كلماته المأثورة :

– ماذا يفيدكم مثل هذا القلق الذي تسومونه أنفسكم ايها السادة ؟ سواء جاءنا الغد بالهزيمة او بالنصر ، فان عظمة الجيوش الروسية لايمكن ان تمس انا اذا استثنينا كوتوزف ، فاننا لن نجد قادة روسيين على رأس جيوشنا . ان القواد هم كالتالي : هر جنرال ويمبفن ، الكونت دولانجيرون الامير دوليشتنشتاين ، الامير دو هوهنلوه ، واخيراً برشد ... برشد ... وهلمجرا كما هو حال كل الاسماء البولانية .

فصاح به دو لجوروكوف :

– اصمت يالسان السوء ! ثم ان هذا غير صحيح . فهناك قائدان روسيان هما ميلوراد وفيتش ، ودوختوروف وكان يمكن ان يكون هناك ثالث ايضاً وهو آر اكتشيئيف لكن اعصابه ضعيفة قليلاً .

قال بولكونسكي :

– اعتقد ان مقابلة ميخائيل ايلاريونوفيتش قد بلغت نهايتها . فالى اللقاء ايها السادة وحظاً سعيداً .

وصافحهما وخرج . .

وبينما كان عائداً بصحبة كوتوزوف الى مقر القيادة العامة دون ان ينطق هذا بكلمة ، لم يستطع كبح جماح نفسه ، فالقى عليه سؤالاً ينشد رأيه في معركة صبيحة الغد .

فحدجه كوتوزوف بنظرة صارمة واجابه بعد لحظة صمت :

– انني اعتقد اننا سنخسر المعركة . وهذا ماقلته للكونت تولستوي راجياً ان يبلغ الامبراطور رأيي . فهل تعرف ماذا كان جوابه ؟ لقد قال لي : « إيه ياعزيزي الجنرال، انني لا اهتم الا بالرز والضلع المحشي فاهتموا انتم بالحرب».. نعم هذا هو الجواب الذي حصلت عليه منه !

الفصل الثاني عشر

(اجتماع القادة)

انتقل فيروذر حوالي الساعة العاشرة مساءً الى مسكن كوتوزوف ، حاملاً معه اوراقه ومخططاته ، حيث كان مقرراً ان يعقد هناك جلسة أخيرة مع قواد الجيوش قبل الشروع في المعركة . ولقد دُعي الى ذلك الاجتماع كل القواد فحضروا باستثناء الأمير باجراسيون .

كان فيروذر وهو صاحب الخطة التي ستسير على هداها المعركة المقبلة ، على نقيض كوتوزوف من حيث المظهر والمزاج كان الاول شديد الحماس والاندفاع على نقيض كوتوزوف العابس المتشائم ، الذي كان يقوم بدور الحكم ، ومدير الجلسة رغم نفوره من تلك المهمة . وكان من الواضح ان فيروذر كان يشعر بانه يرأس عملية من اخطر العمليات واوسعها . كان اشبه بالحصان الذي ينحدر من علٍ ، لا فرق لديه بين ان يكون هناك من يدفعه او ان يكون مدفوعاً بثقل عربة يجرها وراءه . بل ان همه كله كان محصوراً في الانحدار وتخطي

المسافة بسرعة ، بصرف النظر عما يمكن ان يكون فيها من اخاديد وحفر قد تورده مورد الهلاك بسبب سرعته الجنونية . مضى ذلك المساء مرتين يتفقد شخصيا مراكز الجيش الامامية ، عله يستكشف مواقع العدو . وفي كل مرة ، كان يقدم لكل من الامبراطورين تقريرا ضافيا . ثم مضى بعد ذلك الى مكتبة حيث عكف على وضع خطته باللغة الالمانية . فلما بلغ الى مسكن كوتوزوف لعقد المؤتمر الاخير ، كان يقف على قدميه بصعوبة لفرط تعبه وحاجته الى الراحة. لقد كان مشغول الفكر لدرجة أنسته واجب الاحترام حيال الجبراليسيم . لقد كان يقاطعه ويتحدث بسرعة وبشكل غير واضح دون ان ينظر اليه او ان يجيب على الاسئلة الموجهة اليه . لقد كانت الاحوال تغطى ثوبه وكان مظهره يوحي بشرود ذهنه ونفاذ جلده . مع ذلك فقد كان ممتلئا اعتداداً واستعداداً وتجهها .

كان كوتوزوف يشغل قصراً صغيراً بجوار اوسترالتز . وكان الضباط المدعوون الى ذلك المجلس العسكرى ، مجتمعين في البهو الكبير تينا ولون الشاي. وكان المجتمعون ينتظرون وصول الامير باجراسيون لتفتتح الجلسة . ولم تنقض دقائق بعد الساعة السابعة ، حتى وفد احد ضباط باجراسيون يقدم اعتذارات الامير لعجزه عن حضور الاجتماع وحمل الامير آندريه اعتذارات باجراسيون الى القائد الاعلى كوتوزوف ، واستغل فرصة وجوده في البهو لحضور اجتماع القادة مستندا الى رغبة كوتوزوف بالذات في ابقائه بقربه .

قال فيروذر وهو ينهض وكأنه آلة تدفعها قوة رافعة :

ـ بما ان الامير باجراسيون لن يستطيع حضور الاجتماع ، فاننا نستطيع البدء فيما نحن بصدده .

واقترب من المائدة وبسط فوقها خريطة ضخمة تبين ضواحي برون بتفصيل دقيق .

كان كوتوزوف ذو العنق الضخم البارز خلال فتحة الثوب العسكري ، جالسا على مقعد من طراز « فولتير » ويداه السمينتان مرتكزتان على ذراعيه في وضع متناسق . وكان النعاس يداعب عينيه فلما علا صوت فيروذر ، فتح عينه الوحيدة بعناء وقال :

-- نعم ، نعم ، لاشك ان الوقت متأخر .

وأومأ برأسة دلالة على الموافقة ثم عاد يغمض عينيه ويترك رأسه يسقـــط على صدره .

ولو ان اعضاء المؤتمر العسكري اعتقدوا للوهلة الاولى ان كوتوزوف يتظاهر بالنوم استخفافا بما يدور ، فان شخيره الذي علا بعد لحظات بددالظنون والريب ، واكدان الجنرال السيم لم يكن يتعمداظهار الاحتقار بما يدور ،اوبالخطة الموضوعة او بأي شيء اخر ، بل انه كان يرضي حاجة قاهرة غريزية في النفس البشرية واعني النوم الذي كان في نظره لايقل اهمية وخطورة عما هو بصدده لقد كان نائما تماماً . فألقى فيروذر نظرة على كوتوزوف ليتأكد من انه نائم فعلا ، ثم اتى بحركة تشعر انه لايستطيع اضاعة دقيقة واحدة في امر خارج عن موضوع الخطة ، واخذ ورقة راح يقرأ مافيها بصوت رتيب قوي ، تفاصيل الخطة العتيدة ، دون ان ينوه الى اي فضل او مساعدة لزملائه .

كانت الورقة معنونة كالآتي : « خطة الهجوم على موقع العدو وراء كوبلنيتز وسوكولنيتز في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥ » .

وكانت الخطة شديدة التعقيد صعبة الفهم تبدأ كالآتي : « لما كان العدو يرتكز بجناحه الايسر على هضبة حرش ، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوبيلينتز وسوكو لينتز ، وراء المستنقعات الموجودة هناك ، وكنا نحن على العكس ، نتجاوز بجناحنا الايسر امتداد جناحه الأيمن تجـــاوزا كبيراً ، فمن الارجح

بالنسبة الينا ان نهاجم جناح العدو الأيمن، خصوصاً اذا احتللنا القريتين: سو كولينتز وكوبيلينتز، الأمر الذي سيسمح لنا الانقضاض على جانب العدو ومطاردته في السهل بين شلابانيتز وغابة توارس، متحاشين بذلك قوات شلابانيتز نفسها والقوات المعسكرة في بلوتيز، التي تغطي جبهة العدو. وللوصول الى هذا الهدف النهائي، من الضروري ... الخ . . . تمشي الفرقة الاولى . . . وتمشي الفرقة الثانية ... الخ ...

كان الجنرالات غير مبتهجين لسماع تلك الجمل المركبة المعقدة. فالجنرال بوكسوفدن، وهو طويل القامة اشقر اللون، كان واقفاً قرب الجدار يحدق في شمعة، وكأنه لا يصغي او حتى لا يريد ان يُعتقد أنه يصغي الى ذلك الشرح. والجنرال ميلورادوفيتش، وهو احمر الوجه ضخم الشاربين معقوفهما متهدل الكتفين، جالساً قبالة فيروذر جلسة عسكرية مهيبة ويداه على ركبتيه ومرفقاه الى الجانبين، يحدق في وجه بعينين شاخصتين وهو صامت بعناد واضح. ولما انتهى رئيس الاركان النمساوي تلاوة التفاصيل، نقل ميلوراد وفيتش نظره بين زملائه. غير ان أحداً منهم لم يستطع ان يتبين شيئاً في تلك النظرة المفعمة بالخطورة، أو أن يخمن لونها: أهي تحمل معنى الموافقة على الخطة او الاعتراض عليها. وكان الكونت دو لانجرون، الجالس الى جانب فيروذر مباشرة، يتأمل أصابعه الطويلة الانيقة التي كانت تداعب علبة السعوط الذهبية ذات الصورة اليدوية التي تزين غطاءها. وكانت الابتسامة مطلة على وجهه الفرنسي الذي يشهد بأنه من اهل الجنوب، والعلبة الانيقة ترسم حلقات مركزية بين اصابعه. وفي احد المواقف الدقيقه الشديدة التعقيد، أوقف حركة علبته الرتيبة ونصب رأسه ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان عن اعتراض بلهجة مهذبة باردة. غير ان الجنرال النمساوي لم يتوقف عن القراءة، بل قطب حاجبيه بغضب وحرك مرفقيه حركة

تشبه القول : « بعد حين ، بعد حين ، سوف تحدثني بكل رأيك . اما الآن ، فارجو ان تصغي الى الشرح وان تتتبع المراحل على الخريطة » فرفع لانجرون رأسه وقد حملت عيناه تعبيراً حائراً مضطربا وتطلع الى وجه ميلوراد وفيتش وكأنه يسأله شرحاً وتفسيراً ، لكنه لما تقابلت نظرته بنظرة الجنرال الروسي الخطيرة الخالية من كل معنى ، اطرق بعينيه بكآبة وعاد الى علبته يديرها بين انامله .

غمغم بصوت مرتفع متعمدا اسماعه للاخرين .

ـ درس جغرافيا !

وكان برزيبيسزوسكي ، يوجه صيوان اذنه بيده ، بحركة مهذبة وقوره ، نحو فيروذر ، شأن الرجل المستغرق في الاصغاء الى محاضرة ممتعة يخشى ان تفوته كلمة منها . أما دوختوروف القصير ، فكان منحنياً فوق الخريطة قبالة فيروذر ، يدرس بدقة مشروع الهجوم والمواقع التي يجهلها ، وعلى وجهه أيات الاهتمام والتواضع . وبلغ من شديد عنايته أن قاطع زميله النمساوي مراراً طالباً اليه ان يتفضل باعادة جملة لم يستوعبها او مقطع لم يسمعه جيداً ، أو بعض اسماء القرى الصعبة . فكان فيروذر يستجيب لرغباته ودوختوروف يسجل ملاحظاته في دفيتره .

ولما انتهت القراءة بعد ساعة على البدء فيها ، اوقف لانجيرون دوران علبة سعوطه وأعرب ـ دون ان ينظر الى فيروذر او الى احد زملائه بصورة خاصة ـ عن رأيه قائلاً انه سيكون من الصعوبة بمكان القيام بمثل هذه المناورة التي ترتكز اسسها على معرفة مواقع العدو ، بينما ان الحقيقة لاتؤيد هذه المعرفة لأن تحركات هذا العدو مجهولة منا لاتسمح لنا بمعرفة مواقعه . وكان ذلك الاعتراض ، رغم وجاهته ، يهدف الى إشعار فيروذر الدعي المتبجح ، بان هؤلاء العسكريين

المحترفين الذين يعاملهم معاملة الجهلة الحمقى ، على استعداد لتلقينه دروساً في فنون القتال . وفي تلك الاثناء ، فتح كوتوزوف عينه الوحيدة بعد ان انقطع صوت فيروذر الرتيب ، وكأنه طحان نام على صوت مطحنته الممل الرتيب ليستيقظ فجأة عند توقف الصوت . أصغى بشرود الى وجهة نظر لانجيرون وبادر الى اغلاق عينه وكأنه يقول : « باه ! ألا زلتم تناقشون هذه التفاهات ! » وعاد رأسه يسقط على صدره مثقلاً بالنعاس .

كان لانجيرون يرغب في النيل من شعور فيروذر والحط من كبريائه وغروره الذي يصور له انه يستطيع وضع الخطط المنسقة الموفقة . لذلك فقد راح يبين أن بونابارت يستطيع ان يتحول بسهولة الى الهجوم بدلاً من ان يكون مهاجماً ، الأمر الذي يجعل تلك الخطة عديمة الفائدة غير ان فيروذر ما كان يجيب على كل تلك الانتقادات الا بابتسامة ملؤها السخرية ، ابتسامة مهيأة من قبل ولاشك لتجيب على كل الاعتراضات من اي نوع كانت .

قال مؤيداً رأيه :

ــ لو كان قادراً على مهاجمتنا ، لقام بذلك اليوم .

فاعترض لانجيرون بقوله :

ــ هل انت واثق من عجزه ؟

فاجاب فيروذر جازماً وعلى شفتية ابتسامة الطبيب الذي يُطالب باستعمال علاج النساء المخرفات :

ــ انه لايملك اكثر من اربعين الف رجل على ابعد تقدير .

فابتسم لانجيرون ابتسامة ساخرة وقال معقباً :

ــ انه اذن يسعى الى حتفه بظلفه !

وعاد من جديد يبحث بنظره عن تأييد جاره ميلوزاد وفيتش . غير ان

هذا ـ كما كان واضحاً ـ لم يكن قط يفكر في الموضوعات التي يناقشها زملاؤه.
قال :

ـ لعمري ، ان كل هذا سيقرر في ساحة المعركة .

عاد فيروذر يدلل بابتسامة جديدة على وقاحة هؤلاء الجنرالات الروسيين وسفاهتهم الذين يسمحون لأنفسهم بمعارضته ـ هو ـ ومطالبته ببراهين حول امور لم يكن مقتنعاً من وجاهتها قناعة تامة فحسب ، بل انه كذلك اقنع الامبراطورين بتلك الوجهة . قال :

ـ لقد اطفأ العدو نيرانه والجلبة المستمرة ترتفع من معسكره دون انقطاع فماذا يعني ذلك ؟ هل يبتعد ام يحول مراكزه ؟ ان الاحتمال الأول هو وحده الذي نخشاه .

ثم اعقب وابتسامته تلك لاتفارق شفتيه :

ـ فاذا افترضنا جدلاً انه يبتعده وانه سيتمركز في توراس ، فانه سيوفر علينا كثيراً من المتاعب . على كل حال ، فان تفاصيل خطتنا حتى اصغر خطوطها وأتفهها تبقى نافذة بدقة .

فسأل الأمير آندريه الذي كان يتحين منذ زمن طويل فرصة اظهار مخاوفه وشكوكه :

ـ كيف ذلك ؟ ..

وفي تلك اللحظة ، استيقظ كوتوزوف فسعل واجال حوله نظرة دائرية استعرض فيها وجوه الجنرالات وقال :

ـ ايها السادة ، ان خطة غد ، او على الأحرى اليوم لأن الساعة قد جاوزت منتصف الليل ، لايمكن تعديلها . لقد سمعتم تلاوتها وعلينا أن نقوم بواجبنا .

وصمت فترة ثم اعقب :

ـ غير أن لاشيء يضاهي النوم في اهميته قبل أية معركة . . . فاذهبوا الى اسرتكم .

وتناهض فحذا المجتمعون حذوه وانسحبوا . وتبعهم الأمير آندريه وكانت الساعة تشرف على الواحدة .

لم يستطع الامير آندريه الافصاح عن رأيه في المؤتمر الحربي الذي عقد قبل بدء المعركة ، الامر الذي ترك في نفسه شعوراً عميقا بالانزعاج والقلق . ترى من كان على حق ؟ أكان دولجوروكوف وفيروذر الذين كانا يحملان لواء فكرة الهجوم ويمتدحانها ، أم كوتوزوف ولانجيرون والآخرون الذين كانوا ينتقدون الفكرة وينادون بعدم ملاءمتها ؟ ما كان يعرف! ولكن ، أما كان كوتوزوف قادراً على اطلاع الامبراطور مباشرة على تلك الخطة ؟ ألم يكن ذلك التصرف قميناً بتبديل الامور ؟

كان يحدث نفسه بقوله : « هل من الواجب التضحية بعشرات الالوف من البشر ، ولعله يكون في عدادهم ، لارضاء حفنة من افراد بطانته المتملقين ؟ نعم ، حياتي انا ايضاً ، لأنه لايستوغب ان اقتل غداً . » وفجأة اكتسح مخيلته فيض من الذكريات ازاء فكرة الموت التي واتته . ذكريات بعيدة حبيبه أخذت تمر في خياله . رأى نفسه بعين الخيال يودع اباه الوداع الاخير ويترك زوجه ،وتذكر ليز الحبلى واستعاد فترات غرامها الاولى فشعر بعطف واشفاق عليها وعلى نفسه . كان فريسة اضطراب عنيف لايستطيع الاستقرار ، لذلك فقد خرج من مسكنه الذي كان يشغله مع نيسفتسكي وراح يذرع الطريق .

كان الضباب الخفيف يلف القرية في ردائه الشفاف الرقيق ، واشعاع هزيل من القمر يخترق ذلك الحجاب فيضفي على الجو طابعاً غامضاً . راح يحدث نفسه : « نعم ، غداً ، غداً . . . غداً قد ينتهي كل شيء من جانبي . غداً ولا شك ، بل وبالتأكيد ،

لأن هاتفاً خفياً يؤكد لي ذلك،سيتسنى لي أن اظهر كفاءتي وقدرتي . » تصور المعركة واحتدامها وامتدادها المحزن وارتكاز القتال في نقطة واحدة ، وبلبال الرؤساء كلهم وتشوش القادة . وعندئـــذ ، تعرض له الفرصة الذهبية لتحقيق « طولونه[1] » المنشود : عرض على كوتوزوف بصوت واضح حازم تفاصيل خطته وكذلك على فيروذر ثم على اسماع الامبراطورين ، وذهل هؤلاء جميعاً بدقة خطته وحسن سبكها ووضعها ، لكنهم لم يتعهدوا مجتمعين أو فرادى باحتمال نتائجها وتطبيقها ... وعندئذ ، وبعد ان تأكد من ان احداً لن يتدخل في خطته فيعترض عليها أو يدعمها ، ترأس سرية ، بل جيشاً ، وقاده الى حيث كانت المعركة في ادق المراحل واخطرها ، فأنقذ الموقف وانتصر . وهنااعترض صوت داخلي قائلا : « والموت ، والآلام ؟ » لكن الامير آندريه لم يتعشم مشقة الجواب ، لقد كان يتتبع خطوط فوزه وخطى انتصاراته . لقد وضع بمفرده خطة المعركة المقبلة ، رغم انه لم يكن يحمل أي لقب باستثناء لقب الملحق العسكري بقيادة كوتوزف ، وكان هـذا المركز هو كل ذخر لديه ، فقد قاد العملية الناجحة . ثم انه هو نفسه ووحده الذي سينتزع النصر من براثن الهزيمـة وعندئذ ، يقال كوزتوف من مركز القيادة وتسند هـذه اليه ، فيصبح القائد هو ، بولكونسكي . واعترض الصوت مرة ثانية قائلاً :وبعدئذ ؟ هذا على فرض إنك لم تقتل او تجرح عشرات المرات او تمنى بخيانـة منتظرة ، وبعدئذ ؟ ماذا سيكون ؟ » فأجاب الامير آندريه : «وبعدئذ؟ حسناً ، وبعدئذ ! لست ادري ماذاسيحدث بعدئذ. لا استطيع ولا اريد معرفة مايأتي بعدئذ. لكنني اذا كنت حقيقة اسعى وراء هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم المجد ، او الشهرة او ... ، فانني لا أدان لأنني اردته وعملت من اجله . نعم من اجل هـذا وحده ! لن

---

(١) سبق ان بينا المقصود بهذا التعبير عند البحث عن نفسية بولكونسكي في الفصول السابقة ، — المترجم —

اعترف لأحد بهذه الحقيقة ، ولكن ، رباه ! ماذا استطيع ان افعل اذا كنت لاأحب الا هذا ، المجد والشهرة العظيمة بين الرجال ؟ ان الموت والجرح وفقد اسرتي ، كل هذه المصائب لاتخيفني . صحيح ان لدي عدداً كبيراً من الاعزاء وعلى رأسهم أبي واختي وزوجتي ، مع ذلك فانني مهما بدوت مخيفاً ومنافياً في تفكيري للطبائع البشرية ، فانني على استعداد للتضحية بهم دون تردد في سبيل دقيقة مجد ولحظة فوز ، وفي سبيل حب الاشخاص الذين لااعرفهم والذين لن اعرفهم قط وسلامتهم ... اشخاص مثلهم ! » واصاخ السمع الى لغط اصوات كان يرتفع في تلك اللحظة من فناء مسكن الجنراليسيم ، فأعقب قائلاً : «اشخاص مثل هؤلاء ! ... »

كان التابعون والخدم في قصر كوتوزوف يتأهبون ولا شك للنوم . وكان احدهم ـ ولعله الحوذي ـ يريد اثارة « تيت » طاهي كوتوزوف الذي كان آندريه يعرفه حق المعرفة . سمع السائق يقول :

ـ تيت ، هه ، تيت ؟

فأجاب الرجل مستفسراً :

ـ ماذا تريد ؟

فعاد الاول يقول مازحاً :

ـ امض الى صغيرتك الفتانة !

فارعد الصوت الآخر وقد طفت عليه اصداء الضحكات المتعالية .

ـ ليحملك الشيطان !

واعقب آندريه في سره : « رغم كل ذلك ، فانني اتعلق بزغبة الفوز من اجلهم جميعاً ، انني لااجد الا هذه القوة الغامضة ، هـــذا المجد الذي اشعر به محلقاً فوق رأسي في هذا الضباب ! »

الفصل الثالث عشر

(احلام روستوف)

كانت كوكبة روستوف تستكشف ذلك المساء لصالح جيش باجراسيون. كان الفرسان مقسمين الى فصيلتين ومنتشرين على طول خطوط الجيش الامامية. وكان روستوف يطوف على فرسانه مفتشاً ، يغالب النعاس الذي يثقل جفنيه ورأسه . كان يميز في الفراغ الشاسع الممتد امامـــه ، اضواء الجيش الروسي الخافتة ، لكنه ما كان يرى في الرقعة التي يشغلها العدو الا الظلام الدامس . لم يستطع اختراق تلك الحجب المدلهمة الصفيقة بنظراته . لقد كان يظن تارة انه رآى اشكالاً سوداء تتحرك واحياناً يعتقد انه طالع بنظره نيران العدو المخيفة باحكام . لكنه كان يقنع نفسه بان هذه المرئيات ليست الا اوهاماً خدع بها خياله . اطبق جفناه من التعب ، وصور له خياله الامبراطور تارة ودينيسوف وذكريات موسكو تارة اخرى ، فكان يفتح عينيه بسرعة ، فلا يرى الا رأس جواده واذنيه واحياناً اشباح الخيالة عندما كان يقترب من بعضهم ، بينما ظل

الظلام الكثيف يخيم على الابعاد التي يربض فيها العدو . وراح يفكر في سره : « لم لا ؟ لعلني اذا قابلت الامبراطور ، حصلت منه على احـــدى المهام التي يسندها الى الآخرين . لعله يقول لي مثلاً ! « اذهب واستطلع ما يحدث هناك!» انه كما يبدو ، كثيراً ما يقع بصره على احد الضباط فيلحقه بخدمته . ولكن ماذا لو حصل لي مثل ذلك ؟ اواه ، كم ساضحي في سبيل حمايته ، كم سأبذل لاحدثه بالحقائق وكم ساعمل لأفضح الخونة واكشف عن المارقين ! » ويجسد له الخيال هذه الآمال فيرى نفسه بعين الواقع مشتبكاً مع عدوأو خائن الماني ، فيطرحه ارضاً ويضربه ويصفعه في حضرة معبوده الامبراطور ليبين له مبلغ حبه وتفانيه في سبيل شخصه المبجل . وفجأة اعادته صرخة ثاقبة بعيدة الى الحقيقة ، فانتفض وفتح عينيه .

تساءل : « أين انا ؟ آه ! نعم ، في الخطوط الامامية . ان كلمة السر هي تيمون ، اولموتز . . . ياللضنك ببقاء كوكبتنا في عداد الاحتياط غداً ! ساطلب الاشتراك في العمليات . لعل بذلك فرصتي الوحيدة لرؤية الامبراطور . لقد ازفت ساعة تبديل الحرس . ساقوم الآن بجولة جـديدة وبعدها اقدم ملتمسي للجنرال . » انتصب على ظهر جواده وهمز كشح الجواد للقيام بجولته الاخيرة. بدا له الظلام أقل حلكة ، فاستطاع ان يرى الى يساره منحدراً خفيفاً مضيئاً ومن الجانب الآخر تلاً مظلماً ، بدا لعينيه منتصباً كالجدار القائم . شاهد على ذلك التل بقعة بيضاء لم يتمكن من تحديد نوعها ومنشئها . ترى هل كانت بقعة جرداء يضيؤها القمر ، ام ذراعا من الثلج أم صفا من المنازل ؟ خيل اليه انـه يرى تلك البقعة تتحرك . راح يحلم : « ينبغي ان تكون هـذه البقعة كتلة من الثلج . . . بقعة ، البقعة ، بقعتي . . . آه ! نعم ، ناتاشا ، اختي وعينها السوداوين . . . هل ستدهش عنـــدما أروي لها أنني شاهدت الامبراطور ! . . . ناتاشا . . . حاولي ان لاتسقطي . . . »

هتف احد الفرسان الى يمينه فجأة ، وكان روستوف قد مر به وهو بين النوم واليقظة :

– احذر نبالتك من الادغال .

استيقظ من حلمه فرآى ان رأسه كان يتهدهد فوق ذؤابة الجواد . انتصب على السرج وتوقف قرب الفارس . لقد كان النوم ، النوم البريء الذي يثقل عيون الاطفال ، يطغى على حواسه .

عاد يحدث نفسه : « هيا ، بماذا كنت افكر ؟ لالاينبغي ان انسى ، آه ، نعم ، كنت افكر فيما سأقوله للامبراطور اليس كذلك ؟ كلا ، ان هذا لن يكون الا غدا ... آه انعم ، كنت افكر في ناتاشا ... بقعة ، بقعة ، بقعة .. أية مهمة [1] تنتظرنا غداً ؟ ... من هذا ؟ الفرسان ؟ ... آه ! نعم الفرسان ذوو الشوارب . أين ياترى شاهدت واحداً من هؤلاء الفرسان ذوي الشوارب؟ آه ! نعم . لقدكان ذلك في شارع تفير Tver قبالة منزل العجوزجوربيف... ياله من باسل هذا ال : دينيسوف ! ... لكن هذه الافكار كلها ليست الا حماقات. المهم هو ان الامبرطور موجود هنا ! ... عندما نظر الي ، خيل الي انه اراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يجرأ على قوله ... كلا ، بالطبع انه لم يجرأ ... حماقات كل هذه ايضاً ! المهم هو ان لاانسى ... ترى ماذا كان ذلك الشيء المهم الذي كنت اريده ? ... ناتاش ، لطخة ، لطخة ... بقعة ... »

ومن جديد عاد رأسه الى الانحناء فوق حارك الجواد . وفجأة خيل اليه ان هناك من يطلق النار عليه . فهتف منتفضاً :

---

(١) ان كلمتي بقعة ومهمة تتشابهان من حيث النطق بهما باللغة الفرنسية ، ولا تختلفان كتابة الا باشارة «^» تضاف الى الثانية ، ومن هنا كان انتقال افكار الضابط النعس من احداهما الى الاخرى رغم تباين المعنى (Tâche, Tache) – المترجم –

ـ ماهذا ؟ ماذا هناك ؟ اعمل السيف ! اعمل السيف !

وفي تلك اللحظة التي فتح فيها روستوف عينيه ، سمع من جانب العدو جلبة طويلة صادرة عن الوف من الاصوات . فنصب جواده وجواد الفارس القريب منه اذانهما . وفجأة اضيء نور على المرتفع واعقبه آخر ، ولم تلبث النيران أن التمعت على طول الجبهة الفرنسية ، بينما ظلت الجلبة تزداد امتداداً واتساعا . وعلى الرغم من ان روستوف لم يستطع ان يميز تلك الاصوات لسبب وفرة عددها وكثرتها ، فان الاحرف التي التقطها أكدت له انها صادرة عن خناجر الفرنسيين .

سأل الفارس الذي كان الى جانبه :

ـ مامعنى هذا ؟ ماذا تظن ؟ انه صادر عن معسكر العدو أليس كذلك ؟

فلم يجب الفارس . وعاد روستوف يسأله بعد ان انتظر جوابه عبثاً :

ـ ماذا ؟ ألا تسمع ؟

فأجابه الفارس بتذمر :

ـ الله يعرف ما الخبر ياصاحب النبالة .

قال روستوف فلحاً :

ـ اذا استهدينا بموقع العدو ، فان هذه الاصوات صادرة ولاشك عنه !

فقال الفارس بلغته الرعاعيه :

ـ قديكون كذلك وقد لايكون . ليس من السهل معرفة ذلك في الظلام .

واردف يهيب بجواده الذي حاول التراجع ان يقف :

ـ هه ، كفاك حماقة قف !

كان حصان روستوف ايضاً نافذ الصبر لايكاد يستقر على الارض المغطاة بالجمد . كان ينصب اذنيه ويضرب بقوائمه الارض ويميل نحو الاضواء . اما

الصيحات فقد اخذت تزداد وتتعالى وتذوب في جلبة عامة لاتستطيع القيام بمثلها الا الالوف المؤلفه من الرجال . وكانت النيران منتشرة في تلك اللحظة عـــلى طول خط متنـاه في البعد ، لاشك انه كان خط العدو الأمـامي . واتضحت اخيراً معالم الاصوات واستطاع روستوف ان يتبين فيها هتافاً مؤداه : « ليحيا الامبراطور ، الامبرطور ! » ، فشعر كأن ذلك الهتاف سوط ينهال على جلده.

قال يحدث الفارس :

– لايمكن ان يكون هذا بعيداً ، لعله على الجانب الآخر من النهير . أليس كذلك ؟

فسعل الفارس بعد ان زفر زفرة غاضبة . وكان هذا كل الجواب . وفجأة علا وقع حوافر جياد قادمة ، وانبعث من ذلك الضباب الليلي شبح وكيل ضابط مازال يقترب حتى وصل الى حيث كان روستوف . قال القادم :

– ياصاحب النبالة ، لقد قدم الجنرالات .

تبع روستوف وكيل الضابط واذنه تصغي الى الهتـافات والصيحـات . واستطاع رؤية مفرزة من الفرسان تقترب ، ورأى ان احدهم يمتطي جواداً ابيضاً . كان القادمون هم الامراء : باجراسيون ودولجوروكوف ومعهما افراد حاشيتهما . لقد جاء الاميران يستطلعان سبب تلك البادرة الغريبة : النيران والاصوات بعد الظلام والصمت المطبق . قدم روستوف تقريره لباجراسيون وانتظم في عداد الضباط المساعدين يصغي بشغف الى مايقوله الجنرالان .

قال دولجوروكوف بتأكيد :

– صدقني انها مجرد خدعة حربية . انه بينما ينسحب متراجعاً ، يضع جنود المؤخره ويأمرهم بابقاء النيران والهتاف على هذا الشكل لايهامنا بأنه في مكانه . انها خدعة .

فأجابه باجراسيون :

- انني اشك في هذا القول . لقد رأيتهم هذا المساء فوق هذا النتوء. لاشك ان جيشهم لوكان ينسحب كما تقول لما ظل هؤلاء فوق التل ....

واضاف يسأل روستوف :

- ياسيدي الضابط ، هل لازال مشاتهم المكلفون بحماية الجناحين في أمكنتهم ؟

- لقد كانوا هناك هذا المساء ، اما الآن فلا استطيع الجزم . فاذا اصدرتم لي سعادتكم الأمر ، مضيت مع فرساني لمعرفة ذلك .

توقف باجرسيون محاولاً تمييز وجه روستوف وسط الضباب واخيراً قال :

- حسنا ، اذهب واستطلع !

- كما تأمرون سعادتكم .

همز روستوف كشح جواده واستوقف وكيل الضباط فدتشنكو واثنين من رجاله واصدر اليهم الأمر بمواكبته ؛ وانحدر عن المرتفع وراح يقطع المسافة باتجاه الأصوات بأقصى ماتستطيعه الخيول من جري . كان يشعر بقلق مشوب بالسرور لذهابه وحيداً مع ثلاثة من الفرسان نحو ذلك الافق المليء بالضباب ، حيث يكمن السر الرهيب والخطر الجسيم ؛ الذي لم يستطلعه قبله انسان ، ومن اعلى المرتفع ، صاح به باجراسيون يأمره ان لايتجاوز النهير . لكنه تصامم عن الأمر واوغل في جريه رغم العوائق الكثيرة والاخطاء التي كان يقع فيها . لقد كان يرى الدغل اشجاراً والحفر رجالاً . ولما بلغ اسفل المنحدر ، لم يعد يرى ناراً ، سواء أكانت النار الروسية أونيران العدو . لكن الاصوات اخذت تزداد اقتراباً ودوياً ووضوحاً . خيل اليه انه يرى نهيراً اسفل الوادي لكنه لما اقترب منه ، رأي انه كان طريقاً ممهدة ، فأوقف جواده وهو لايدري

أيتبع الطريق ام يسير في الاتجاه المعاكس ؟ أيخترق الحقول التي تحاذي الطريق في ذلك الظلام ام يعود الى نقطه انطلاق اخرى ؟ واخيراً قدروان سلوك الطريق كان اقل خطراً لأنه كان اشبه باللطخة المضاءة وسط ذلك الضباب فكان يمكن تمييز الاشباح عليها بأكثر سهولة . هتف بفرسانه : « اتبعوني ! » وعبر الطريق محاولاً تسلق التل الذي شاهد الرقباء الفرنسيين فوقه مساء ذلك اليوم هدباً .

قال احد فرسان دينيسوف :

ـ ها هوذا ياصاحب النبالة !

انتصب ظل في ذلك الضباب . ولم يجد رستوف وقتاً كافياً لتبينه ، اذ التمع شهاب ناري اعقبه دوي طلقة نارية ، ومرت الرصاصة تشق الضباب فوق رؤوس الفرسان الاربعة بزمجرة صاخبة . لم تنطلق رصاصة ثانية ، لكن وميض « الكبسولة » فضح رغبة صاحبها . لوى روستوف عنان جواده وجرى بأقصى سرعة عائداً من حيث اتى . دوت اربع طلقات اخرى خلال فترات متقطعة وعلى ابعاد مختلفة ، ومرت الرصاصات تصفر وسط الضباب . فاوقف روستوف حصانه الذي كان شديد الانفعال كفارسه وراح يسيره الهوينا بخطوات وئيدة كان صوت بهيج يغمغم في اعماقه : « هيا ، طلقة اخرى ! » غير ان الرصاص توقف .

وقبل ان يصل روستوف الى حيث كان باجراسيون ببضع خطوات ، هدب حصانه ورفع يده اليمنى الى حافة خوذته بالتحية . كان دولجوروكوف لايزال يصر على ان الفرنسيين ينسحبون وان تلك الاصوات ليست الا خدعة حرب . كان يقول :

ـ على مَ تدل هذه النيران ؟ انهم يستطيعون ترك بعض الحراس حتى بعد انسحابهم لمجرد الخداع .

فيجيبه باجراسيون :

– صدقني ياأمير انهم لم يذهبوا جميعاً . سوف تتأكد من ذلك غداً صباحاً .

وكان روستوف قدوصل فقال :

– لايزال هناك نقطة مراقبة على التل ياصاحب السعادة . انهم لازالوا حيث رأيتهم هذا المساء .

كان منحنياً الى الامام ويده الى قبعته بالتحية ، يستخفه الفرح الذي احدثته تلك المهمة في نفسه وخصوصاً لعلعه الرصاص الذي تطاير فوق رأسه ، فما كان يستطيع كتمان ابتسامته المشرقة .

قال باجراسيون :

– حسن ، حسن جداً ، اشكرك ياسيدي الضابط .

قال روستوف :

– هل تسمحون لي سعادتكم بتقديم ملتمس ؟

– ماموضوعه ؟

– ان كوكبتنا ستبقى غداً في عداد الاحتياط ، وانني ارغب في الالتحاق بالكوكبة الاولى .

– ما اسمك ؟

– كونت روستوف .

– آه ! حسنا ، ابق معي كضابط تابع .

وسأله دولجوروكوف :

– أأنت ابن ايليا آندريئيتش ؟

غير ان روستوف لم يجب على هذاالسؤال بعد أن خاطب باجراسيون قائلاً :

– اذن ؟ هل آمل ان يحقق ملتمسي ؟

– ساصدر اوامري !

فقال روستوف في سره : « غداً ، يجوز ان أكلف بحمل رسالة او تقرير الى الامبراطور . حمداً لله وشكرا ! »

كان سبب تلك النيران المشتعلة في صفوف العدو وتلك الهتافات المدوية في معسكراته ، حضور نابوليون بنفسه ، الذى راح يستعرض القطعات على ظهر جواده ، بينما كان القواد يقرأون على الجنود الكلمة التي وجهها اليهم . فلماوقعت أعين الجنود عليه ، اشعلوا النيران ، نيران مشاعل من التبن وراحوا يجرون وراءه هاتفين : « يحيا الامبراطور ! » اما الكلمة التي وجهها اليهم فكانت كمايلي :

« ايها الجنود !

« ان الجيش الروسي ينتصب الآن اما منا لينتقم لهزيمة حلفائه النمساويين في أولم . ان وحـــداته هي نفسها التي هزمتموها في هولا "بروون والتي ما فتئتم تتأثرون خطاها في هزيمتها منذ ذلك اليوم .

« ان المواقع التي نحتلها رائعة ممتازة : سوف يكشفون لي عن جانبهم حين التفـــافهم حول جناحي الأيمن . ايها الجنود ! سوف ادير بنفسي كتائبكم . وسأظل بعيداً عن خطوط النار اذا قدرتم بشجاعتكم المعهودة ان تزرعوا الفوضى والارتباك في صفوف العدو . ولكن ، اذا رأيت ان النصر بات مهدداً في أية لحظة ، فسترون امبراطوركم يعرض نفسه للرصاصات الاولى ، لأن النصر لن يعرف التردد ، خصوصاً في هذا اليوم الذي يتوقف فيه شرف الجيش الفرنسي على الانتصار ، ذلك الشرف الذي يدعم شرف الامة الفرنسيه بأسرها .

« لايجب ان تفرغ الصفوف بحجة ابعاد الجرحى . وليكن نصب عين كل منكم انه يجب الحاق الهزيمة باجراء الانجليز هؤلاء ، الذين يضمرون حقداً هائلاً على امتنـــا !

« ان هذا النصر سينهي هذه الحملة ، وسنستطيع بعدها اقامـة معسكرات الشتاء ، وستلحق بنا القطعات الجـديدة التي تشكل الآن في فرنسا ، وعندئذ سيكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبنا وبكم وبي كذلك .

* * *

الفَصْلُ الرابعُ عَشَر

(نابوليون)

كان الظلام لازال مخيماً رغم ان الساعة كانت قد جاوزت الخامسة . وكان جناح باجراسيون الايمن والوسط والقوات الاحتياطية لازالت في مواقعها لم تتحرك . اما الجناح الأيسر ، فقد كان موجوده من المشاة والفرسان والمدفعية ، الذين كان عليهم الهبوط اولاً ومهاجمة جناح العدو الأيمن حسب الخطة المرسومة والالقاء به باتجاه جبال بوهيميا ، على اتم استعداد للعمل ، يجهزون آخر ما هم في حاجة اليه . وكان دخان المهاجع التي كانت النار تلتهم فيها كل ما كان يلقى اليها به من اشياء غير ذات اهميه ، يمض العيون ويحرقها ، والوقت مظلماً بارداً . وكان الضباط يتناولون طعامهم على عجل ويشربون الشاي ، والجنود يلتهمون قطع البسكويت ويضربون الارض بأقدامهم استجلاباً للدفء ، أو يحيطون بالمواقد التي كانت تغذي نيرانها اخشاب جدران المهاجع والكراسي والموائد والعجلات والعلب وكل ما كان يتعذر حمله ونقله . ولما وصل الادلة النمساويون

الذين كان عليهم ارشاد الوحدات الروسية في زحفها ، كان وصولهم ايـذاناً ببدء الحركة . ما كان واحد من اولئك الضباط يمثل امام احد قواد الكتائب او السرايا ، حتى كانت تلك الكتيبة تتحرك وفق الخطة المرسومة . فالجنود يغادرون مضاجعهم مسرعين فيحشرون غلايينهم في سوق احـذيتهم العالية ، ويلقون بأجربتهم في العربات ، ثم يتنكبون بنادقهم ويقفون في صفوف منظمة ، والضباط يزرون ستراتهم ، ويربطون نطقهم وخرجهم ، ويطوفون بالصفوف ليصدروا اوامرهم « والخفراء والتابعون يقطرون الخيول الى العربات ويكدسون الامتعة عليها ويشدون السيور ، والزعماء « كولونيل » والعقداء والضباط الملحقون يمتطون خيولهم ويرسمون اشارات الصليب على صدورهم ويعطون تعليماتهم الاخيرة للحوذيين والخفراء الذين سيمكثون في الخطوط الخلفية احتياطاً . ولم يلبث الصوت الرتيب - صوت الوف الاقدام التي تقرع الارض - حتى علا . كانت الصفوف تسير دون ان تعرف الهدف او ان تميز طبيعة الارض التي كان الازدحام والدخان والضباب المتكاثف تتحد لاخفائها وحجب الهدف الذي تسعى تلك الصفوف اليه عن الابصار .

ان الجندي في تسياره محاط ومساق في صفوف وحدته كالبحار السجين في حدود زورقه . انه مهما توغل وابتعد ، ومهما ازداد الخطر المحدق به وتعاظم ، فان عينيه تقعان ابداً على رؤسائه انفسهم وزملائه انفسهم ، وعلى الرقيب الأول ايفان ميتريش « اياه » وكلب السرية « نوار » ، تميمة الفرقة . وكذلك البحار الذي يجد نفسه ابداً يواجه الصاريات ذاتها والحبال ذاتها والمنظر المألوف دون تبديل . ان الجنود لا يطلبون معرفة الامتداد الذي يجري فيه زورقهم الا نادراً لكنهم في يوم المعركة ، يشعرون جميعهم في قرارة نفوسهم بصوت خطير ، بهاتف لا يعرف الا مصدره ، يوقظ فضولهم السادر وينبئهم بقرب حلول لحظة حاسمة

رهيبة . وعندئذ ، يحاولون اختراق افقهم المحدود ،فيصغون الهمسات ويراقبون الحركات ويطرحون الاسئلة تلو الاسئلة ، وهم في مزيد الشوق الى معرفة مايدور حولهم .

اصبح الضباب شديد الكثافة حتى ان الجندي ما كان يستطيع رؤية ابعد من عشر خطوات امامه رغم ان النهار كان قد انبلج . كانت الادغال ونباتات العوسج تبدو للنظر اشبه باشجار ضخمة شامخة والاخاديد المتقاربة ، اودية سحيقة . وكان خطر الاحتكاك بالعدو والاصطدام به كامنا في كل مكان من على اليمين وعلى الشمال . وكانت الرؤية المحدودة تزيد في وقع ذلك الخطر . مع ذلك فقد راحت الوحدات تتسال عبر ذلك الضباب الكثيف فترة طويلة ، وسط تلك الاراضي المجهولة ، فتنحدر الى الاودية او تتسلق المرتفعات ، وتسير بحذاء الاسوار والحظائر والبساتين ، دون ان تلتقي بالفرنسيين . بينما كانت الوحدات الروسية تتبع ذلك الاتجاه آتية من كل حدب وصوب ، تطالع العين صفوفها في كل لحظة . وكانت تلك البادرة وحدها تطمئن الجندي الذي يرى ان عدداً كبيراً من بني قومه وزملائه يتقدمون معه نحو هدف واحد ، هدف مجهول منهم جميعاً .

كانوا يتحدثون بين الصفوف قائلين :

ــ هه ، ها هم اولاء جنود روسيون من كورسك[1] .

فيجيب مغضباً :

ــ ذلك انهم كثر . انهم يعدون الالوف المؤلفة يا اخي . لم اجد وسيلة للاحاطة بعددهم أمس عندما اوقدت النيران . حقيقة يمكن القول ان المرء ليخال نفسه في موسكو !

كان رؤساء الوحدات متأخرين قليلاً عن وحداتهم . لقد كان هؤلاء

---

(١) كورشك مدينة روسية تقع جنوبي الاورال سكانها (١٢٠٠٠٠) نسمة ، المركز الاداري لمقاطعة تبريت . ــ المترجم ــ

السادة ، كما نوهنا في جلسة المؤتمر الحزبي ، على أسوأ مزاج ، وكانوا شديدي الاستياء لرؤيتهم العمليات في بدايتها ، فكانوا ينفذون الاوامر باخلاص ولكن لايبالون بمعنويات الجنود . وكان هؤلاء يسيرون بوداعه وابتهاج شأنهم كلما مضوا الى المعركة وخصوصاً في حالات الهجوم. غيران معظم القطعات اضطرت الى التوقف بعد مسير ساعـــة كاملة في ذلك الضباب الكثيف . واكتسحت الصفوف احساسات مؤلمة بالفوضى والبلبال . صحيح انالانسان ليعجز عن تبيان الاسلوب الذي تتصل فيه تلك المشاعر وتنتقل من فرد الى آخر ، غير ان امتدادها بسرعـة مدمرة هائلة ، وانتشارها كما تكتسح المياه ارضاً منخفضة ، أمر مؤكد ثابت . ولو ان الجيش الروسي كان وحيداً لايعضده حلفاء ، لكان ممكناً ان يمر وقت طويل قبل ان يصبح ذلك الشعور مؤكداً محققاً وعاماً شاملاً . أو في تلك الاثناء ، فقد راح كلٌ من القادة والجنود على السواء ، يلقون تبعة هذا الأمر على عاتق اولئك « الالمان البلهاء » واولئك الملاعين « أكلة النقانق » ، بمكر وتشف مألوفين عند البشر .

ـ هه ماذا ؟ الانتحرك ؟ هل الطريق مقطوع ؟ ام ترانا وقعنا على فرنسيين ؟

ـ كلا ، لو كان كذلك لأطلقوا النار علينا ونحن لم نسمع بعد شيئاً .

ـ واذن ، ألكي يوقفونا في العراء جروا بنا ركضاً منذ الصباح ؟ ان كل هذا نتيجة خطأ اولئك الالمان الملاعين ! عصبة الحمقى !

ـ لو ان الامر كان راجعاً اليّ لارغمتهم على السير في الطليعة ، وهاها ! لاشك انهم في احسن حال في المؤخرة ، يلتهمون مايشاؤون ، بينما اوقعونا هنا ومعدنا فارغة خاوية !

وزمجر ضابط :

ـ اللغة ... ! ألن ننتهي من هذا ؟ انهم يزعمون ان الفرسان يقطعون الطريق .

فأجابه آخر :

ماذا تعمل بمثل هؤلاء الألمان الاغبياء ؟ انهم لا يعرفون حتى بلادهم وهتف احد الضباط المساعدين وكان وصل لتوه :

— من أية فرقة انت ؟

— من الثامنة عشرة .

— اذن ماذا تفعل هنا ؟ كان ينبغي ان تكون في الطليعة منذ زمن طويل. اما الآن فانك تتعرض للانتظار حتى المساء .

فقال الضابط وهو يبتعد :

— هل الامر على مثل هذا السخف ! انهم لا يعرفون انفسهم ماذا يعملون.

ووصل جنرال بعد ذلك وصاح بصوت مرتفع بلغة اجنبية . فقال احد الجنود وهو يشير الى الجنرال الذي كان يبتعد :

— تافا ، لافا ! ماذا يعني ؟ اننا لا نفقه شيئاً . كان يجب قتل هؤلاء السفلة رمياً بالرصاص !

ومن كل مكان كان هناك من يزمجر :

— كان علينا ان نحتل مواقعنا قبل الساعة التاسعة مع ذلك فاننا حتى الآن لم نقطع نصف الطريق ...! الا ترى مبلغ العظمة في ترتيبهم واعدادهم !

حلّ الخور محل العزيمة التي بدأ الجنود بها يومهم ، وتطور الى لون من الغضب القاصر عن بلوغ مداه ، غضب على سخف الاساليب المتبعة وخطيئة الالمان الفادحة .

وكان سبب ذلك البلبال مرده قراراً اتخذته القيادة العليا : لقد وجدت ان وسط الجيوش قد اصبح متباعداً عن الجناح الايمن ، فاصدرت الاوامر بايقاف زحف المشاة ، وانتقال الفرسان النمساويين الذين كانوا حتى ذلك الوقت

يحمون الجناح الايسر ، الى الجناح الايمن لحمـــايته ، الامر الذي جعل المشاة يتوقفون وقتاً طويلا ريثما تلك الموجة الزاخرة من الفرسان الذين يعدون بالألوف .

وفي تلك الاثناء ،كان الجنرال الروسي ثائراً على الدليل النمساوي في مقدمة الجيوش . كان الروسي يرغي ويزبد مطالباً بايقاف الفرسان ليعود المشاة الى سيرهم ، بينما كان النمساوي يحتمي وراء اوامر القيادة العليا . وخلال ذلك ، كانت القطعات متوقفة مغيظة تفقد شجاعتها وحماسها ، وانقضت ساعة كاملة قبل أن تعاود المشي والنزول الى اعماق الوادي ، حيث الضباب الذي كان قـد انجاب فوق المرتفعات ، لايزال كثيفاً مظللا . ازت طلقتان ناريتان في مقدمة الجنود ، وسط ذلك الضباب ، ثم تبعتها طلقات اخرى بدأت غير متابعة اول الامر ، وما لبثت ان زادت حدة على ضفاف جولدباخ .

وكان الجنود الروسيون لايتوقعون الالتحام مع العدو هنا ، لذلك فقد اخذوا على حين غرة ، دون ان يسمعوا عبارة تشجيع واحدة . والأدهى في الأمر انهم ماكانوا يرون شيئاً امامهم أوحولهم . اقتنعوا في تلك اللحظة انهم وصلوا متأخرين ، فراحوا يجيبون على نيران العـدو بتراخ ، فيتقدمون تارة ثم يتوقفون ، دون ان يتلقوا أي أمر من القواد الكبار او بواسطة ضباطهم الملحقين الذين كانوا يضلون في ذلك الضباب دون التعرف على الوحدات التي يريدون الاتصـال بها . وهكذا بدأت المعركة بالنسبة للفيالق الاول والثاني والثالث ، التي انحدرت من هضبة براتزن التي لم يبق فوقها الا الفيلق الرابع الذي يقوده كوتوزوف بالذات .

وفي الاعماق ، حيث بدأت العمليات ، كان الضباب كثيفاً ، اما عـــلى المرتفعات فقد باتت الرؤية ميسورة حتى ان المرء كان يستطيع معرفة مايدور أمامه . لم يكن احد يعرف اذا كانت قوات العدو الرئيسية كامنة على بعد ميلين او ثلاثة اميال كما كان الروسيون يتوقعون ، ام أنها تنتظرهم وراء هـذا الخط من الضباب الكثيف . نعم ، لم يكن احد يستطيع تحديد ذلك .

بلغت الساعة التاسعة . وبحر الضباب لازال متلاطما في الاعماق ممتداً على مسافات شاسعة . اما باتجاه قرية شلابانتز حيث كان نابوليون يرقب على مرتفع هناك ، محاطاً بماريشالاته ، فقد كان منقشعاً تماماً . لقد كانت السماء الزرقــاء الصافية المشرقة تمتدفوقه ، وقرص الشمس الأحمد يغمر باشعـاعـاته الوردية الفاقعة سطح ذلك البحر الابيض من الدجنة . لم يكن الجيش الفرنسي بكامله ، ونابوليون بالذات مع كامل اركان حربه على الطرف الآخر من النهير وفي تخوم مستنقعات سوكولينتز وشلابانتز ، حيث كان يزمع الجيش الروسي وحلفاؤه مهاجمته هناك بعد ان يعدوا له العدة اللازمة ، بل كان هنا ، على هـذا الجانب من الضابط النهير ، شديد القرب من القطعات الروسية حتى ان نابوليون كان يستطيع بعينه المجردة ان يفرق بين الضابط والجندي ، وبين الفـــارس والرجل . كان الامبرطور متقدماً ماريشالاته قليلاً ممتطياً صهوة جواد عربي اشهب ، مرتدياً المعطف الازرق الداكن الذي خـاض به حملة ايطـاليا . كان يراقب بصمت المرتفعات التي كانت تبدو كأنها ناتئه من خضم من الضبــاب ، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البعد . وكان يصيخ السمع الى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأة في الوادي . لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لايزال هزيلاً حينذاك ، بل ظلت عيناه اللامعتان تحدقاق في نقطة واحدة . لقد صدق حدسه ووقع ما كان ينتظره . كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر الى الوادي باتجاه المستنقعات بينما راح الجزء الآخر يتهيـأ لاخلاء مرتفـع براتزن ، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه . لقد كان يتطلع الى ذلك المرتفع تطلعه الى مفتاح العملية الحقة . كان يرى الوحـــدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب ، فتختفي احداها في أثر الاخرى في محيط الدجنة الكثيف الرابض في اعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية

براتزن . لقد كانت المعلومات التي تلقاها مساء أمس ، والضجة التي اطلعـه خفراؤه في الخطوط الاولى عليها ، وقعقعة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي امكن تميزها في صفوف الروسيين ، كل ذلك كان يؤكد له بان الحلفاء يعتقدون انه بعيد عنهم ، ويثبت ان الفيلق الذي كان يتحرك قرب براتزن ان هو الاوسط الجيش الروسي ، فتأكد من ان هذا الوسط كان شديد الضعف حتى ليعجز عن مهاجمته بنجاح . مع ذلك فقد ظل لايوعز بالبدء بالهجوم .

كان ذلك اليوم بالنسبة اليه يوماً جليلاً مجيداً لقد كان عيد تنصيبه الأول امبراطوراً لفرنسا . لقد اختلس سويعات نوم قليلة كفتة فنهض بعدها نشيطاً خفيف الحركة . وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق الذي بدا له فيه كل شيء ممكناً وكل شيء ناجحاً ، اعتلى بونابارت صهوة جواده وقصد الى ساحة القتال . اما الآن ، فقد كان جامداً شاخص العينين الى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه ، ووجهه الجامد يشع بالسعادة والاطمئنان ، سعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعاً من عشيقاتهم . وكان ماريشالاته منتظمين صفاً وراءه لايجرؤن على تعكير سكونة . كـــان ينطر الى هضبة براترن تارة وتارة اخرى الى الشمس التي كانت تخترق الضباب .

ولما انقشع الضباب عن الشمس تماماً ، واانارت هذه البرية بضيائها الوضـاء ، خلع نابوليون قفازه عن يده البيضاء الرقيقة ، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظـة بالذات ، لأصدار الأمر الى ماريشالاته ببدء الهجوم . وجرى هؤلاء وضباطهم المساعدون في انحاء مختلفة لادارة العمليات . فلم تمض دقائق معدودة ، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسيه تتجة بسرعة نحو هضبه براتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتنحدر الى اعماق الوادي و نحو اليسار !

الفصل الخامس عشر

(الامبراطوران)

امتطى كوتوزوف جواده في الساعة الثامنة واتجه نحو براتزن . ولما بلغ الفيلق الرابع ـ الذي يقوده ميلورادوفيتش الذي جاء يحل محل فيلقي برزيبيسزوسكي ولانجيرون اللذين كانا في سيرهما المقررة ـ تبادل التحية النظامية مع جنود اللواء واعطى الأمر بالمسير دلالة على ان سيقود هذا الفيلق بنفسه . ولما وصل قرية براتزن توقف . كان الامير آندريه في عداد ضباط المساعدين . وكان فريسة ذلك النوع من الانفعال المكبوت الذي يستحوز على كل من يرى أخيراً ان الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ صبر باتت على وشك السنوح . كان قانعاً بأن يوم « طولونه » قد أزف أو يوم « جسر اركول » . [1] ماكان

(١) Areole ضاحية ايطالية قائمة على شاطىء نهر آلبون Alpone الذي يصب في نهر آديج ، سكانها (٣٦٦٠) نسمة . كان نابوليون قد هزم النمساويين هناك عندما استولى على جسر آركول ، وكان ذلك يوم ١٧/١١/١٧٩٦ ، معرضاً نفسه للخطر ، ومتقدماً قناصته حاملاً العلم .

ـ المترجم ـ

يعرف كيف سيقع ذلك الحدث الذي سيحقق حلمه ، لكنه ماكان يشك قط في وقوعه . نسي خطته الستراتيجية الخاصة التي اصبح تحقيقها ضرباً من المستحيل وتبني خطة فيروذر ، وهو الذي يعرف المواقع اكثر من أي آخر من مواطنيه الروسيين . كان في تلك اللحظة يفكر في الصدف التي يمكن ان تعرض ، وفي مختلف الخطط التي ستساعده على التحقق من وجهة نظره وسرعة تقديره ودقته .

كان الرصاص يلعلع بين فرق غير منظورة في اعماق الوادي الى اليساريين ستر الضباب الكثيفة . ففكر بولكونسكي في سره : « ان المعركة كلها سوف تتركز هناك . فليظهر أي عائق ولأرسل على رأس وحدة أو جيش ، وعندئذ ، سوف اندفع على رأس الجيش والعلم في يدي ، وساحطم كل مايظهر أو يقوم في سبيلي . » لبهجته رؤية الاعلام ترفرف في مقدمة كل قطعة سائرة . غمغم وعينه تحصي الاعلام التي راحت تترى : « لعلني سارسل حاملاً هذا العلم ، وسيتاح لي ان اقود الوحدات تحت لوائه . » .

خلّف الضباب الليلي على المرتفعات صقيعاً راح يتحول الى ندى تحت وطأة الحرارة ، اما في الوادي ، فقد كان البحر الابيض الكثيف على حاله يعرقل السير ويعترض نطاق الرؤية ، مما جعل القوات الروسية لاتعرف العدد الذي يهاجمها وموقع المهاجمين على الضبط . وفي اعلى الهضبة ، كانت السماء زرقاء داكنة ، اما الى اليمين فقد كان قرص الشمس الضخم واضحاً مرئياً . والى الامام ، على الشاطىء الآخر من خضم الضباب ، كانت تقوم هضاب محرشة تشكل مشاوف مناسبة تصلح لاختباء العدو فيها . وقد أيد هذا الظن الأشباح التي كانت ترى بشكل غامض نظراً الى بعد المسافة . اما الى اليمين ، فقد كانت قعقعة العجلات وصدى الخطى الكثيرة المتزاحمة ووقع حوافر الجياد وبعض الانعكاسات الضوئية على الحراب ، تدل على ان الحرس يشق عباب الضباب التي كانت

سرايا كاملة من الفرسان تسير فيه على اليسار وراء القرية . أما في المقدمة وفي المؤخرة فقد كانت التحركات مقتصرة على المشاة . كان كوتوزوف يراقب زحف القطعات وهو في مكانه عند مخرج القرية . كان يبدو متعباً منهوكاً سيء المزاج مغضباً . ولما رأى ان المشاة ، التي اعترضها ولاشك معترض ، توقف زحفهم دون أن يصدر اليهم الامر بالتوقف ، راح كوتوزوف يناقش الحساب ، الجنرال الذي كان يقود فرق المشاة . هتف به :

– ماذا تنتظر بالله لترتب صفوف لوائك وتجعله يدور حول القرية ؟ هيا ياسيدي العزيز ، اقصد يا صاحب السعادة ، هل يتمدد الجنود على هذا الشكل على طول طريق عندما يسيرون نحو العدو ؟

فاجابه الجنرال :

– لتعذرني سعادتكم العلية . لقد كنت افكر في تنظيم الصفوف عند الجانب الآخر للقرية .

هتف كوتوزوف وهو يضحك ضحكة خشنة :

– حقاً ؟ انك تريد ان تكشف جبهتك على مرآى من العدو ؟ لعمري ان هذا جميل !

– لازال العدو بعيداً يا صاحب السعادة العلية . ان الخطة ...

قال كوتوزوف مستنكراً بلهجة غاضبة :

– الخطة ! من الذي قال لك هذا ؟ ... تفضل بالتقيد بما تؤمر به .

– كما تأمرون .

وهمس نيسفيتسكي في اذن الأمير آندريه قائلاً :

– ان العجوز ياعزيزي متعكر المزاج مخيفه .

وفي تلك الاثناء ، اقترب ضابط نمساوي في حلة بيضاء ، والريشة الخضراء

مغروسة في قبعته ، ليقول لكوتوزوف على لسان الامبراطور ان جلالته يسأل عما اذا كان الفيلق الرابع قد دخل في الحركة .

فالتفت كوتوزوف دون ان يجيب . ووقع بصره صدفـــة على الأمير آندريه ، فهدأت ثائرته وخفت حدته ، وكأنه ادرك ان ضابطه المساعد لم يكن على علاقة بكل تلك الحماقات التي ترتكب . قال لبولكونسكي بلهجة هادئة وهو يغفل عامداً الضابط النمساوي :

ــ اذهب ياعزيزي وانظر اذا كان الفيلق الثالث قـد اجتاز القرية ام لا . قل لضباطه ان يتوقفوا بانتظار اوامري .

ولم يكد الامير آندريه يتحرك نحو الوجهة التي اوفده اليها حتى عادفاستوقفه ليضيف مزمجراً بين اسنانه مغفلاً النمساوي دائماً :

ــ واسألهم اذا كان الرماة قـد احتلوا مراكزهم . استعلم عما يفعلون ، عما يفعلون !

هرع الأمير آندريه لأداء مهمته . ولما تخطى الألوية السائرة ، استوقف الفيلق الثالث ولاحظ ان أي خط من خطوط القناصة لم يقم بعدعلى طول جبهته ولا لحماية الفيالق السائرة . اظهر الكولونيل الذي يقود الفيلق الثالث بليغ دهشته للأمر الذي يحمله الأمير . كان يعتقد جازماً ان قطعات اخرى كان ينبغي ان تتقدمه وان مرحلتين او ثلاث مراحل على الاقل تفصله عن العدو . وكان محقاً في وجهة نظره لأنه لم يكن يرى أمامه الا امتداداً شاسعاً للسهل المقفر الذي يسبح في الضباب . وبعد ان اوعز اليه باسم الجنرال القائد الأعلى . بتلافي الخطأ الواقع ، عاد الأمير آندريه الى مركزه . كان كوتوزوف في مكانه ذاك لم يبرحه ، وقد استرخى جسمه الضخم على سرج الجواد ، وكان يتثاءب مغمض العينين . أما القطعات فقد كانت هناك متوقفة واسلحتها عند اقدامها .

قال كوتوزوف وهو يلتفت نحو الجنرال الذي كانت ساعته مفتوحة في يده يتطلع اليها وكأنه يلمح الى ان لحظة الزحف قد أزفت :

ـ حسن ، حسن . لدينا الوقت الكافي ياصاحب السعادة ، لدينـــا الوقت الكافي !

وعاد يتثاءب من جديد . كانت وحدات الجناح الأيسر كلها قد انحدرت الى الوادي حسب الخطة المرسومة .

وفي تلك اللحظة ، تجاوبت وراء كوتوزوف هتافات تحية ترددها اصوات بعيدة اخذت تقترب شيئاً فشيئاً ، فاستدل من ذلك على ان الذي توجه اليه تلك التحيات يتحرك بسرعـــة نحوه مستعرضاً الفيالق هدباً . فلما راح جنود كوتوزوف على رأسهم يرددون الهتاف ، تراجع هذا قليلاً الى الوراء والقى نظرة مستفسرة . شاهد كوكبة كاملة من الفرسان تتجه نحوه مسرعة قادمة من براتزن . ورآى ان البسة اولئك الفرسان غير موحدة . وكان فارسان يهدبان في المقدمة ، احدهما يرتدي حلة سوداء وفي قبعته ريشة بيضاء ، يمتطي جواداً محجلاً مستولداً من اصل انجليزي ، والآخر ، في زي ابيض معتلياً صهوة جواد أدهم . كان الامبراطوران قادمين مع افراد حاشيتها . اسبغ كوتوزوف على وجهه قسمات الجندي العجوز الذي يخضع للقوانين والانظمة العسكرية وصرخ يأمر الجنود الواقفين :

ـ استا . . . عد !

تبدلت وضعيته وتبدلت اساليبه فغدت في طرفة عين اساليب المرؤوس الذي لايفكر ولكن يطيع . وباحترام واضح متزايـــد ، اقترب من الامبراطور يحييه .

بدت تلك الحفاوة البالغة على غير ما يتمنى الامبراطور . لكن ذلك الشعور

المقبض لم يكن الا سحابة عابرة ظللت وجهه فترة وجيزة ثم تبددت ، اشبه ببقية من ضباب خفيف في سماء شديد الاشراق . كان الامبراطور يبدو في ذلك الصباح اكثر نحولاً من مألوف عادته ، ولعل لانحراف صحته في الأيام الأخيرة دخل كبير في هـــذا الشأن . لقد رآه بولكونسكي يوم استعرض « اولموتز » وكان على حال احسن من حاله اليوم . مع ذلك فقد كان ذلك المزيج من الفتنة الطاغية والجلال والعظمة متركزاً في عينيه الجميلتين الشهلاوين ، وذلك الاسلوب المعبر مرتسماً على شفتيه الرقيقتين . وكان شبابه يطغي على كل هذه الصفات ، ذلك الشباب البريء النبيل . صحيح انه كان اقل هيبة مما كان عليه في اولموتز ، فقد كان اكثر ابتهاجاً وحيوية .

كان وجهه متضرجاً بتأثير تلك الرحلة القصيرة على الجياد . فاسترد انفاسه والتفت يتفحص وجوه بطانته التي كانت تضم كل شاب متوقد الوجه مضرجه مثله . وكان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم باسمين . وكان بينهم كزارتوريسكي . ونوفوسيلتسوف والأمير فولكونسكي وستروجانوف ، وعدد آخر وكل منهم طلق المحيا مرتدياً ثياباً فاخرة تفصح عن شرف محتده ، وكلهم مبتهجين ، على صهوات جياد مطهمة ، مجهزة بسخاء واسراف ، ونظيفة كل النظافة . توقف افراد الحاشية على مبعدة من الامبراطور الذي لبث وحده الى جانب زميله النمساوي الامبراطور فرانسوا . وكان هـذا شاباً ذا وجه طويل مشرب بالحمرة ، منتصباً فوق صهوة جواده الادهم الاصيل ، يسرح الطرف ببطء حوله وعيناه تشعان بنظرات قلقة . نادى احد مساعديه ، وكان مثله في ثياب بيضاء وطرح عليه سؤالاً . فقال الأمير آندريه في سرة : «لاشك انه يسأله عن ساعة مغادرتهم القصر » ، ولم يستطع كتمان ابتسامة طافت على شفتيه حينما تذكر مقابلته الشخصية معه . كان افراد حاشية الامبراطورين منتخبين من اشهر

الفرسان الروسيين والنمساويين المنخرطين في أسلحة الجيش . وكان بعض فرسان الركاب ممسكين بأعنة خيول البدل ، وهي من صافنات الجياد التي تحفل بمثلها اصطبلات الامبراطور .

كانت تلك الكوكبة المتألفة من الفرسان الانيقين ، اشبه بالنفحة المنعشة التي تهب على الحقول وتدخل الى غرفة كئيبة عبر النافذة المفتوحة . لقد كان لها اثر عميق في نفس اعضاء حرب كوتوزوف المتطيرين ، الذين شعروا بنفحة من الشباب والحيوية والثقة في النجاح تتغلل في دمائهم .

سأل الامبراطور الكسندر والجنراليسيم كوتوزوف بصوت حي وهو يلقي نظرة امتثال على الامبراطور فرانسوا :

– هه ياميخائيل لاريونوفيتش ، ألا تشرع ؟

فأجاب كوتوزوف وهو يحييه تحية عميقة :

– انني انتظر ياصاحب الجلالة .

قطب الاسكندر حاجبة وانحنى فوق الجواد مدللا على انه لم يسمع الجواب . فكرر كوتوزوف الذي كانت شفته السفلى ترتعد بشكل غير مألوف لم يغب عن دقة ملاحظة الامير آندريه :

– انني انتظر ياصاحب الجلالة. ان تركيز القطعات لم ينته بعد ياصاحب الجلالة.

فهم الامبراطور ، لكن الجواب بدا على غير ماكان ينتظر . فهز كتفيه المقوستين وألقى نظرة على نوفوسيلتسوف وكأنه يشكو اليه كوتوزوف. أردف :

– ولكن ياميخائيل لاريونوفيتش ، لسنا في ساحة المناورات في تساريتسينو حيث ينتظر المرء هناك ان لم يتم تجهيز كل القطعات لبدء العرض .

ومن جديد عاد الكسندر يختلس النظر الى الامبراطور فرانسوا وكأنه يدعوه للانتباه على الاقل اذا كان لايرغب في المشاركة في الحديث . غير ان الامبراطور فرانسوا كان يجيل ابصاره بشرود دون ان يسمع شيئاً .

قال كوتوزوف بصوت قوي رزين يبلغ مسامع الامبراطور :

ـ انني اذا كنت لاأبدأ ياصاحب الجلالة فذلك لانني في الحقيقة لست في ساحة المناورات ولا في عرض عسكري ...

ومن جديد عادت الرعدة الخفيفة تقلص تقاطيع وجهه .

تبادل ضباط البطانة نظرات تنبيء باللوم و لانزعاج . كانت وجوههم تنطق قائلة : « مهما كان عجوزاً مسناً ، فانه ماكان يجوز له ان يتحدث بهذه اللهجة ، كلا ، ماكان يجوز له ذلك . »

راح الامبراطور يتفحص وجه كوتوزوف بدقة وعناية ، منتظراً منه المزيد من التفسير . لكن هذا كان منحنياً بكل احترام يبدو وكأنه ينتظر بدوره . وران الصمت حوالي دقيقة .

اردف كوتوزوف بعد ان استعاد طابع الجندي القديم الذي لايعرف غير الطاعة دون مناقشة ولاسؤال :

ـ على كل حال ، اذا كنتم جلالتكم تأمرون ...

وهز جواده ليصدر الامر بالهجوم الى ميلورادوفيتش .

ومن جديد تحركت الكتل البشرية : تحرك لواءان من فيلق نوفوجورود ليمر امام الامبراطور وما لبث ان تبعه لواء من فيلق ابشيرون . وبينما كان هذا اللواء يسير تحت انظار الامبراطور وحاشيته ، انقض ميلورادوفيتش على صهوة جواده ، بوجهه القرمزي ، دون معطف ، تزين صدره الاوسمة الكثيرة ، والريشة الفاخرة الضخمة تنبت من قبعته ، واوقفه فجأة امام الامبراطور وهو ينحني محيياً بحركة رشيقة عريضة واسعة .

قال له الاسكندر :

ـ ليحفظك الله ياجنرال !

فأجاب هـذا بمرح واتزان لم يمنع افراد الحاشيـه الابتسام ضاحكين من ركاكة لغته الفرنسية :

ـ لعمري ياصاحب الجلالة، سنعمل كل ماسيكون في وسعنا ياصاحب الجلالة!

لوى ميلورادوفيتش عنان جواده بحركة فجائية وتوقف وراء الامبراطور على بعد عدة خطوات اما لواء الجنود ، فقـد مر امام العاهل يستخف افراده الفرح لوجوده ، وهم يخطرون بخطوات عسكرية جبارة تدعو للاعجاب .

نسي ميلورادوفيتش وجود الامبراطور وهتف بجنوده :

ـ هيا ياشجعاني ، ابرزوا مقدرتكم من جديد ، انها ليست اول مرة !

كان صوت الرصاص المتطاير وقرب وقوع المعركة ، بالاضـافة الى جنوده البواسل الذين خاض معهم معارك سوفوروف من قبل ، قد اثارت حميته واندفاعه حتى غفل عن كل ماحوله .

وهتف الجنود يرددون :

ـ سنعمل مافي وسعنا !

شب حصان الامبراطور اثر ذلك الهتاف المدوي غير المنتظر الذي انبعث من مئات الحناجر . كان هذا الحصان الذي درج الامبراطور على امتطـائه في الاستعراضات في روسيا ، يحمل سيده الآن الى ساحة المعركة ويحتمل لكز مهماز قدمه اليسرى ، فينصب اذنية عند سماع اصوات العيارات النارية كما كان يفعل في ساحة مارس (ساحة العرض) ، دون ان يدري شيئاً عما تعنيه تلك الطلقات وجواره مع حصان الامبراطور فرانسوا الادهم . كذلك فقد كان كل ماكان فارسه يفكر فيه ذلك اليوم أو يقوله او يشعر به ، غير ذي اهميـة بالنسبة اليه :

التفت الكسندر نحو أحد خلصـائه وأشار الى لواء آبشيرون الباسل وأسر له شيئاً وهو يبتسم .

الفصل السادس عشر

(تولون بولكونسكي)

راح كوتوزوف وضباطه المساعدون يتبعون الفيلق مشياً على اقدامهم يتقدمهم حاملوا الغدارات. فلما قطع خمسمائة متر ، توقف قرب منزل منعزل مهجور يبدو انه كان خاناً قبل ان يهجره اصحابه . وكان ذلك المنزل قائماً عند ملتقى طريقين ينحدر كلاهما من الهضبة وتغطيها الفرق الزاحفة في تلك الاثناء.

كان الضباب قد اخذ ينقشع واصبح بالامكان رؤية قطعات عدوة على التل المقابل في غير وضوح ، على بعد نصف مرحلة . وكانت طلقات البنادق تزداد وضوحاً في الجهة اليسرى المطروقة من قبل الجنود السائرين الى الهدف المقرر . تبادل كوتوزوف بضع كلمات مع الجنرال النمساوي . وكان الامير آندريه متخلفاً قليلاً يرقبهما بانتباه . طلب من احد زملائه الضباط ان يعيروه منظاره . هتف :

— انظروا ، انظروا ،

وأشار بيده ليس الى الابعاد البعيدة بـــل الى اسفل الهضبة التي كانوا عليها واضاف :

ــ هاهم الفرنسيون !

تنازع المنظار جنرالان وعدد من الضباط المساعدين ، وكلهم تبدلت اسارير وجوههم وعـلا الخوف قسماتهم . لقد كان العدو الذي اعتقدوا أنه بعيد عنهم منتصباً امامهم بغتة ، كانت الاصوات المتداخله تقول :

أهو لعدو ؟ . . . مستحيل ! . . . لكن بلى ، انظر ، انه هو . . . ما معنى هذا ؟ . . .

استطاع الأمير آندريه ان يرى بعينه المجردة فيلقاً كبيراً من الفرنسيين يتقدم للقاء لواء آبشيرون على اقل من خمسمائة خطوة من المكان الذي وقف فيه كوتوزوف .

قال الأمير آندريه في سره : « ها ان الدقيقة الحاسمة قد ازفت ! » همز حصانه واقترب من كوتوزوف . هتف :

ــ ياصاحب السعادة العلية ، ينبغي ايقاف لواء آبشيرون !

لكن المشهد كله في تلك اللحظة وسط سحابة كبيرة من دخان البارود . ولعلع الرصاص قريباً جداً . وفجأة ارتفع صوت على بعد خطوتين من الامير آندريه يهتف بذعر :

ــ لقد قضي عليها ايها الفتيان !

كان دلك الصوت اشبه بالأمر حتى ان كل من سمعه لم يلبث حتى لاذ بالفرار .

وقع ازدحـــام متزايد عكسي ، متجه الى حيث استعرض الامبراطور الجنود الذين مروا أمامه منذ خمس دقائق . وكان يستحيل ايقاف ذلك السيل العرم بل ويستحيل كذلك ان يتفادى المرء الانقياد اليه . اما بولكونسكي فـكان يجهد على عدم البقاء في المؤخرة ويجيل حوله نظرات حيرى دون ان يفقه

مايجري . اما نيسفيتسكي ، فقد كان غاضبا ملتهب الوجه خارجا عن طوره ، يصيح بكوتوزوف قائلا انه اذا لم يتراجع فانه سيسقط في يد العدو . غير ان كوتوزوف لم يبارح موقفه ، ولم يجب . بل اخرج منديله من جيبه ليمسح الدماء التي كانت تلطخ وجهه . فشق الأمير آندريه لنفسه طريقاً محاولاً الوصول اليه .

سأله وهو لايكاد يسيطر على ارتعاد ذقنه من العصبية والانفعال :

– هل انت جريح ؟

فأجاب كوتوزوف :

– ان الجرح ليس في وجهي بل هنا !

واشار بيده الى الجنود الفارين بينما كانت يده الاخرى تمسح الدم بالمنديل . هتف :

– اوقفوهم !

لكنه اقتنع على الفور باستحالة تنفيذ ذلك الأمر وبطلانه ، فهمز جواده محاولاً بلوغ الجانب الأيمن . غير ان موجة اخرى من الهاربين اكتسحته واجبرته على العودة الى الوراء .

كان الجنود يفرون جماعات جماعات بلغ من كثافتها وشدة اندفاعها ان كل من يقع في سبيلها كان مصيره السحق اذا حاول المقاومة . كان احدهم يصيح : « انج بنفسك ، اسرع ، تحرك ، ماذا تنتظر ؟ » وآخر يطلق النار في الفضاء وهو مول الأدبار وثالث . يضرب حصان كوتوزوف . فلما استطاع كوتوزوف ومن بقي معه من معاونيه ، وكان عددهم قد تقلص الى اقل من النصف ، بمعجزة خارقة ان يتخلصوا من ذلك السيل الجارف ، راحوا يستهدون بقصف المدافع القريب الذي كان يدوي في الجانب الايسر . وكان بولكونسكي

يسعى بكل ماأوتي من قوة ان يلحق بكوتوزوف . لاحظ وهو في سبيل التخلص من الازدحام ، مدفعية روسية تقصف حشداً فرنسياً لايني يهاجم مواقعها . كان عش المدفعية مقاماً في منتصف المسافة بين السفح والقمة . وكان الدخان يعلو في السماء كثيفاً . وفي الأعلى ، شاهد فيلقاً من المشاة متوقفاً لايحاول مد يد العون الى المدفعية ولا يلتحق بالهاربين الى المؤخرة . دفع الجنرال الذي كان يقود ذلك الفيلق ، حصانه نحو كوتوزوف الذي كان مساعدوه لايتجاوز عددهم الاربعة ، وكلهم ممتقعوا الوجوه ينظرون الى بعضهم بصمت .

هتف كوتوزوف باعياء وهو في اقصى درجات الاعياء :

ـ اوقف هؤلاء السفلة !

واشار بيده الى الهاربين . غير ان برداً من الرصاص تساقط في تلك اللحظة على الفيلق الجامد وعلى كوتوزوف وحاشيته وكأن الغاية منه الاستهزاء بالأمر الصادر . كان الفرنسيون الذين يهاجمون عش المدفعية ، قد شاهدوا ذلك الفيلق وهم في هجومهم ، فجعلوا منه هدفاً لنيران بنادقهم . قبض الجنرال على فخذه وتساقط عدد من الجنود . أما حامل العلم ، فقد افلت العلم من يديه ، فتأرجح هذا وهوى فوق بنادق الجنود الذين حوله . وانطلقت رصاصات اخرى دون دون ان يصدر أي أمر الى الفيلق المنتظر .

زمجر كوتوزوف بلهجة يأس :

ـ آوه ! اوه !

ثم ادار بصره حوله وهمس بصوت مرتعد متهدج صادر عن قناعته بعجزه وهو في شيخوخته :

بولكونسكي ، بولكونسكي ، مامعنى هذا ؟

واشار باصبعه الى الفيلق المبعثر والعدو المتقدم الزاحف .

لم يكد كوتوزوف ينهي جملته حتى كان بولكونسكي يقفز على ظهر جواده وقد جرض بدموع الخجل والغضب ، فاندفع نحو العلم يحمله وصاح ملء رئتيه :

ـ الى الامام ايها الفتيان !

فكر وهو يمسك بصارية العلم : « هاهي ذي اللحظة الحاسمة ! » كان يسمع صفير الرصاص وازيزه حول رأسه بغبطة حقيقية وابتهاج .

هتف من جديد :

ـ هورّا !

وعلى الرغم من ثقل العلم الخفاق الذي كان يربكه ، فقد كان متأكداً من ان الفيلق كله سيتبعه .

والواقع انه لم يكد يقطع بضع خطوات منفرداً حتى لحق به جندي ثم تبعه آخر وبعد ئذ انحدر الفيلق كله وكأنه سيل يصخب منحدراً نحو الاعماق . أخذ الجنود يلقون صرخات الحرب ويعدون ولم يلبثوا ان تجاوزوه . ولما كان العلم يترنح بين يديه ، فقد اقترب احد صف الضباط ليأخذه منه . غير انه قتل على الفور . فعاد الأمير يجر العلم من صاريته ويتابع الزحف مع الفيلق . كان يرى المدفعيين الروسيين امامه وقد ترك بعضهم مدافعه بينما استمر الآخرون يطلقونها ورآى الفرنسيين يستولون على المدافع فيحولون اتجاهها ليطلقونها على رجاله . لم يبق بينه وبين عش المدفعية الا عشرين خطوة ، والرصاص يتطاير حول رأسه دون هوادة بينما الجنود يزجرون حوله ويسقطون . لكنه لم يكن مبالياً بكل هذا . كان كل همه منصرفاً الى المدفعية . تبين مدفعياً احمر الوجه وعلى رأسه قلنسوة مائلة الى الجانب ، يتنازع ملكية جهاز تفريغ المدفع مع جندي من الاعداء . كانا كلاهما باديي الغضب والزيغ ، لايدركان شيئاً مما يعملان .

تساءل الأمير آندريه : « ماذا يعملان ؟ لماذا لايفر « الاحمر » طالما انه

لم يعد يملك سلاحاً ؟ ولماذا لايخرق الفرنسي صدره بحربته ؟ لو ان الفرنسي فكر في حربته لما وجد الآخر متسعاً للفرار . »

وفي تلك اللحظة ، اقبل فرنسي آخر وحربته على فوهة بندقيته ، واقترب من المتخاصمين . كان مصير « الاحمر » الذي لم يكن حتى تلك اللحظة مدركاً مايفعل ، يحاول بكل طاقته تخليص الجهاز من يد خصمه ، غير ان الأمير آندريه لم ير كيف انتهى النزاع . أحس بأنه تلقى على رأسه ضربة من عصا أهوى بها بعض من حوله بكل ما في طاقة البشر من قوة . لم يكن الألم شديداً ، لكن ما اثاره وأزعجه ، كان انصرافه بسبب تلك الضربة عن متابعة المشهد الذي كان يرقبه .

قال يحدث نفسه : « ماهذا ؟ أأسقط ؟ أتخونني ساقاي ؟ » وهو على ظهره من فوق الحصان . عاد ففتح عينيه آملاً ان يتابع النظر الى العراك العنيف الدائر بين الفرنسيين والمدفعيين ، متعطشاً لمعرفة ما اذا كان « الأحمر » قد قتل واستولي على « البطارية » أم لا . لكنه لم يعد يرى شيئاً . لم يكن فوق رأسه الا السماء ، سماء غائمة ولكن شديدة الارتفاع والتسامي تخفق على اديمها غيوم قاتمة . فكر في نفسه : « ياللهدوء ، ياللجلال ، ياللسلام ! ياله من فرق شاسع بين جرينا المجنون وسط الهتافات والمعركة ، والغضبة السخيفة التي كانت مستولية على رجلين يتنازعان عصا تنظيف المدفع ، وبين مشية هذه الغيوم البطيئة على اديم هذه السماء العالية اللامتناهية ! كيف لم الاحظ هذا حتى اليوم ؟ كم انا سعيد لأنني اكتشفت ذلك أخيراً ! نعم ، ان كل شيء غرور وعدم ، كان كذب ونفاق باستثناء هذه السماء التي لاتحدها حدود . لا يوجد شيء مطلقاً ، أي شيء ، باستثناء هذا ... ولعل هذا المشهد ايضاً ومضة خداعة ، لعله لا يوجد شيء اطلاقاً ، باستثناء السكون والراحة . والحمد لله العظيم ! ... »

الفصل السابع عشر

« مهمة روستوف »

بلغت الساعة التاسعه والجناح الأيمن لم يدخل بعد في القتال رغم الحاح دولجوروكوف ومطالباته . كان باجراسيون لايشاطره الرأي ، لكنه كان يريد نزع المسؤولية عن كاهله . لذلك فقدعرض عليه أن يرسل من يأتي بالاوامر من لدن القائد الأعلى . وكانت تفصل بين الجناحين مسافة لاتقل عن ثلاثةاميال فاذا لم يقتل الرسول ـ وهو احتمال ممكن ـ واذا استطاع بلوغ مكان الجنرال القائد الاعلى ـ وهو أمر شديد الصعوبة ـ فانه لايمكن ان يعود الى حيث كان الجناح الأيمن الا حوالي المساء . ولم يكن باجراسيون يجهل ذلك .

راح يجيل في ضباط حاشيته نظرات كئيبة نعسة ، فاجتذب انتباهه وجه روستوف الصبياني المشع بالانفعال والأمل . فانتقاه ليقوم بالمهمة المطلوبة .

سأل روستوف ويده لازالت على حافة خوذته بالسلام :

ـ واذا لاقيت صاحب الجلالة قبل التقائي بالجنرال القائد الاعلى ؟

فأجابه دولجوروكوف دون ان يتيح لباجراسيون مجالاً للرد :
- يمكنك اخذ الاوامر من جلالته .

كان روستوف قد نال قسطه من الراحة حينما انتهت نوبته حوالي منتصف ليلة أمس ، فكان يشعر بالراحة والدعة والاطمئنان ، ممتلئاً حماسة مؤمنا في حسن مصيره ، وباختصار ، لقد كان في عقلية تجعل كل شيء هيناً وميسوراً في نظره .

وكانت كل رغباته تتحقق ذلك الصباح . فهناك معركة كبيرة على وشك النشوب وسوف يساهم في خوضها ، وها هو ذا تابعاً لواحد من اكثر الجنرالات بسالة وشجاعة ، واخيراً ها انـــه يكلف بمهمة الى كوتوزوف ، لعله يقابل فيها الامبراطور كذلك . كانت الصبحية جميلة وحصانه ممتاز ، وروحـــه مبتهجة نشيطة . فما ان تلقى الأمر ، حتى اندفع بحصانه مبتعداً . وبعد ان حاذى في جريه جيش باجراسيون الجامد ، بلغ المكان الذي كان فرسان اوفاروف يرابطون فيه استعداداً لاشتراكهم في العمليات العامـة . ولما تخطى هؤلاء ، طرقت اسمـاعه ضجة غير واضحة لم تلبث ان وضحت ، فاذا هي قصف عنيف من المدفعية تصحبه فرقعة عالية تحدثها طلقات البنادق . وكان القصف والرصاص يزدادان وضوحاً كلما ازداد اقتراباً .

كان جو الصباح المنعش الهادىء الذي لم يكن يعكره منذ حين الا صوت انفجارات متباعدة منفردة ، وقـــد استحال في تلك اللحظة الى ارعاد مستمر يتعالى فوق منحدرات براتزن ، ارعاد مخيف تساهم فيه المدافع والبنادق ، فتجعل من الجو جحيماً . وكانت ادخنة الانفجارات تتوالى على طول سفح الهضبة ، بينما كانت الغيوم الكثيفة التي تخلفها طلقات المدافع تتناثر وتختلط بعضها ببعض . كان لمعان الحراب وسط ذلك الدخان يدل على كتل المشاة المتحركة ، أما

الخطوط الدقيقة التي كانت تتخللها ، فقد كانت تدل على مكان المدفعين وصناديق ذخيرتهم الخضراء .

اوقف روستوف حصانه برهة ليكون لنفسه فكرة عن المعركة الدائرة . لكنه اخفق في مسعاه . كانت كتل المخلوقات تتحرك وسط الادخنة وستائر من الفرق تنتشر في الامام وفي المؤخره . ولكن من كان اولئك الجنود ؟ والى اين كانوا ذاهبين ؟ ماذا كانت نواياهم ؟ يستحيل معرفة ذلك . غير ان هذا المشهد لم يثبط عزيمته بل على العكس ، لقد أضفى عليه مزيداً من الشجاعة والعزم . كان يهيب بالانفجارات قائلاً : « كرر ! كرر ! بمزيد من القوة ! بمزيد من القوة ! »

همز جواده فبلغ به جانب الجبهة الذي كان الجنود فيه قد بدأوا في المساهمة في المعركة .

راح يتساءل : « ماذا سيحدث هناك ؟ لست ادري . مع ذلك فانني واثق من ان كل شيء سيكون على ما يرام . »

تجاوز فيلقاً نمساوياً وبلغ المراكز التي يشغلها جنود الحرس . غير ان هؤلاء كانوا يخوضون المعركة عند وصوله .

فكر في سره : « ذلك احسن ! سوف اشاهد المسألة عن قرب . »

كان يسير في محاذاة الخط الاول تقريباً ، فوقعت ابصاره على عدد من الفرسان ظهروا في تلك اللحظة . تبين انهم كانوا بعض رماحي الحرس الذين كانوا عائدين من المعركة مفككي الصفوف . ولما مروا بجانبه ، رأى بوضوح ان احدهم كان مغطى بالدم . فقال يحدث نفسه : « ماذا يهم ! » ولما قطع بضع مئات من الخطوات ، شاهد مفرزة كبيرة من الفرسان ، كانت ثيابهم البيضاء تتعارض بشدة مع لون جيادهم الدهماء . بدأ ظهور تلك المفرزة على يساره وقد انتشر افرادها على خط طويل يقطع الاتجاه الحلوي الذي كان يسير فيه ، ولم

يلبثوا ان اندفعوا نحوه هادبين . وكان روستوف يرغب في تحاشي الاصطدامات والاشتباكات ليقوم بمهمته ، لذلك فقد ارخى لجواده العنان ، فراح هذا يسابق الريح . لكن الفرسان بدورهم قاموا بحركة مماثلة حتى ان بعضهم راح ينهب الارض نهباً بجواده يطارده . واصبح وقع الحوافر اكثر وضوحاً وصليل الاسلحة قريباً وراءه . بل انه اخـــذ يتبين اشكال الفرسان واصبحت معالم وجوههم تتضح . عرف فيهم فرسان الحرس الذين كانوا يقومون بهجوم معاكس ضد الفرسان الفرنسيين .

ازدادت سرعتهم رغم ان جيادهم ما كانت مطلقة الأعنة . سمع روستوف ضابطاً يصيح : « هدباً سر ! » ورأى الفرسان يطلقون الاعنة لخيولهم الأصيلة ، فتندفع هذه وكأن بطونها تلامس الارض . وخشي روستوف ان تطأه سنابك الخيل او ان تقتحمه في هجومهـــا ، فراح يحث جواده على طول امتداد خط هجومهم حتى انه لم ينج من الاصطدام بهم الا باعجوبة .

كان آخر فارس من الحرس الراكب ، وهو عملاق ذو وجـه منقوش بالجدري ، يعلو وجهه الغضب لمرآى هذا الفارس الغرير الذي جاء يعرض نفسه للسقوط بين حوافر جواده . وكانت نهاية روستوف محتومة ـ وقد شعر بنفسه بضآلته ازاء هؤلاء الفرسان العمالقة ـ لولا انه ظل محتفظاً ببداهته ، فاهوى بسوطه بضربة قوية على وجه الجواد الهائج المندفع ،الذي يعتليه العملاق . فشب الحيوان على قائمتيه وارخى اذنه وادار وجهه . لكن الفارس لم يمهله ، بل همزه بشدة ، فعاد على احسن ما كان عدوا ، ممدود العنق مشرع الذيل ، لكن روستوف كان قد نجا .

لم يكن فرسان الحرس يبتعدون عن روستوف حتى سمع هـــذا هتافات قريبة . ولما استدار ، رآى ان صفوفهم الاولى قد اشتبكت بصفوف العدو ،

ذوي شعارات الكتف الحمراء. ودّ لو يتابع مشهد المعركة ، لكن مدفعاً انطلق في تلك اللحظة وتبعه آخر ، وعلت سحب الدخان فحجبت الفرسان عن انظاره. تردد فترة وهو بين راغب في الانضمام الى ذلك الهجوم ومحجم عنه . لقد كان هجوماً عنيفا مستميتاً تجلت فيه البسالة النادرة ، حتى ان الفرنسيين انفسهم لم يسعهم الا الاعجاب باعدائهم الفرسان . ولقد علم بعدئذ ان كل اولئك الميامين الابطال ، زهرة الفرسان وزينتهم ، كل اولئك الشبان المتأججة حماستهم ، قد هلكوا في تلك المعركة باستثناء ثمانية عشر فارساً نجوا .

فكر روستوف : « لمَ اغبطهم ؟ سوف يأتي دوري ولعلني اجد فرصة مواتية اشاهد فيها الامبراطور للحظة خاطفة ! »

تابع طريقه ، فلما اقترب من الحرس الراجل ، لاحظ من تعابير وجوه الضباط التي يمتزج فيها الجلال بالعطف والخشونة العسكرية ، انهم كانوا هدفاً لنيران مدفعية العدو الهائجة . لقد كانت تعابير الوجوه ابلغ في معانيها ومراميها من اصوات القنابل وازيز الرصاص المتطاير فوق الرؤوس .

وبينما كان يمر خلف احد الفرق ، سمع بعضهم يناديه :

ـ روستوف .

اجاب دون ان يعرف صوت بوريس :

ـ ماذا هناك ؟

فقال بوريس وابتسامة السعادة التي تنطبع على وجوه الشبان الذين خاضوا نيران المعركة للمرة الاولى ، مرتسمة على وجهه :

ـ هه ، ها نحن اولاء في الخطوط الاولى !

توقف روستوف وقال :

ـ حقاً ! وماذا بعد ؟

فقال بوريس وهو شديد الانفعال :

ـ لقد دحرناهم !

وفجأة حلا له ان يثرثر . فراح يقص عليه نبأ فيلق الحرس الذي ما كاد رجاله يبلغون الاماكن المخصصة لهم حتى شاهدوا جنوداً آخرين كانوا يحتلونها . لقد ظنوا بادىء الأمر انهم النمساويين . غير ان اولئك الجنود الغرباء امطروهم وابلاً من قذائف المدفعية . وعندئذ ادركوا انهم ازاء العدو ، ورأوا انفسهم بغتة في الخطوط الاولى وهم الذين ما كانوا يتوقفون لقاء العدو . . . غير ان روستوف لم ينتظر نهاية القصة ، بل همز جواده ومضى . صاح به بوريس :

ـ أين تقصد ؟

ـ عندي مهمة الى جلالته !

وخيل لبوريس انه يقول الى سعادته[1] ، فقال :

ـ ها هو ذا .

واشار الى الغراندوق الذي كان على بعد مائة خطوة منها ، مرتدياًخوذة الفرسان وسترتهم ، مقطب الحاجبين مرفوع الكتف ، يصرخ محدثاً احدالضباط النمساويين ، الذي كان شاحب الوجه في ثوبه الابيض .

ـ لكن هذا هو الغراندوق ! ان مهمتي محصورة بين الامبراطور الجنرال القائد الا على:

وهم بالابتعاد ، لولا ان هرع بيرج من الجانب الآخر ، وكان على مثل انفعال بوريس وحماسة . هتف وهو يريه رسغه الملفوف بمنديل تخضب بالدم .

ـ كونت ،كونت ، لقد جرحت في يدي اليمنى ، مع ذلك فقدلبثت في

---

(١) اورد المترجم عن اللغة الروسية ملاحظه حول هذا الالتباس فقال ان كلمتي جلالته وسعادته متقاربتان لفظاً في اللغة الروسية . وهما : Vysstchestvo, Vélitchestvo

الصف . انني امسك سيفي بيدي اليسرى يا كونت . لقد كان كل آل «فون بيرج» ابطالاً في اسرتي .

اضاف بيرج كلمات اخرى ، لكن روستوف لم يسمعها لأنه كان قد ابتعد فعلاً .

وبعد ان قطع قفراً خالياً ، قرر الابتعاد عن الصفوف الاولى ليتجنب الوقوع في طريق هجوم جديد . راح يسير على طول جبهة الاحتياطي من القطعات ، مبتعداً اكثر فأكثر عن المكان الذي كانت المعركة فيه على اشدها . وفجأة ، رأى امامه ـ على مؤخرة الفرق الروسية ، ـ في المكان الذي لم يكن يحلم ان يجد فيه العدو ، رأى العدو يصلي الجنود الروسيين ناراً حامية . تساءل : « مامعنى هذا ؟ هل التف العدو حولنا ؟ مستحيل ! » وارتعد فجأة خوفاً على مصير المعركة . اردف يقول لنفسه : « مهما بلغ الأمر ، لا يمكن الافلات منه ! ينبغي ان اكتشف الجنرال القائد الأعلى هنا ، واذا كان كل شيء قد فقد وانتهى . فان واجبي يدعوني الى الموت مع الآخرين . »

كان في تلك اللحظة قد بلغ حدود قرية براتزان حيث كانت تتزاحم أعداد هائلة مختلطة من مختلف القطعات الفارة المتقهقرة دون نظام ولاترتيب . وكلما توغل في السير كلما ازداد شعوره القاتم بالنهاية المحزنة .

سأل في طريقه بعض الجنود الروسيين والنمساويين الذين كانوا يقطعون الطريق لكثافة اعدادهم :

ـ ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟ على من تطلق النار ؟

فأجابه الفارون بالروسية والألمانية والتشيكية ، وهم لا يدرون من امرهم شيئاً :

ـ الشيطان وحده يعرف ! لقد قضي علينا ! لقد فقدنا كل شيء !

وصاح احدهم :

– الموت للألمان !

– ليحملهم الشيطان ، اولئك الخونة !

بينما غمغم الماني في لغته :

– الى الشيطان هؤلاء الروس !

كان بعض الجرحى يجرون انفسهم على جوانب الطريق ، الشتائم والصحيات والزمجرات تخلط في بعضها فترتفع عنها جلبة هوجاء تصم الآذان . وكان صوت البنادق قد خبا . وقدفهم روستوف أخيراً أن تلك الطلقات الكثيرة كانت متبادلة بين الروسيين والنمساويين حلفائهم !

فكر روستوف : « رباه ، ما معنى كل هذا؟ وهنا ، حيث يمكن للامبراطور ان يراهم بين لحظة واخرى؟ ... لا يمكن ان يكون ذلك ... ان هؤلاء ليسوا الاعصبة من السفلة ... لأسرع في الابتعاد عنهم ... »

لم يفكر قط في هزيمة ساحقة يصاب بها الروسيون . لقد شاهد القطعات الفرنسية متمركزة على هضبة براتزن ، ورأى المدفعيه العدوة منصوبة تصب وابل قذائفها على مواطنيه ، لكنه لم يفكر في الهزيمة . كانت مهمته محصوره في ايجاد القائد الاعلى ، فكان كل همه منحصراً في تلك المهمة ، ولم يكن مباحاً له ان يقدر الواقع بل ان ما كان يريد ولا يستطيع مجابهة ذلك الواقع .

★ ★ ★

الفصل الثامن عشر

(هزيمه منكره)

ـ كان روستوف يتوقع ايجاد الامبرطور والقائد الاعلى كوتوزوف في جواريراتزن ،حسب المعلومات التي حصل عليها اثناء الطريق . لكنه لم يعثر على هذا ولا على ذاك بل انه لم يجد هناك أي قائد مسؤول . اندفع بحصانه الذي بدأت حوافره تؤلمه ، محاولاً تخطي زمر الفارين من مختلف الأسلحة والجنسيات . لكنه كلما توغل في سيره ، كلما ازدادت الوحدات الهاربة كثافة . شاهد على الطريق الأيسر الذي استطاع بلوغه ، عدداً من العربات بين كبيرة وصغيرة ومن كل الانواع ، وحولها جنود روسيون ونمساويون بين سليمين من الجراح ومصابين . وكان هذا الحشر المخيف الذي تموج فوقه الاصوات والصرخات المتنافرة في صخب مريع ، يختلط مع مشهد العدو المتمركز فوق هضبة بارتزن وسفوحها ، الذي يمطر الروسيين وحلفاءهم وابلاً من حممه ، فيعطي صورة تحطم المعنويات وتغمر النفوس باليأس .

كان روستوف يسأل الجنود عبثاً :

ـ أين الامبراطور ؟ اين كوتوزوف ؟

واخيراً استطاع ان يطبق على ياقة احد الجنود ليرغمه على الجواب . فقال الجندي مازحاً وهو يحاول التملص من قبضته :

ـ آه يا أخ ! لقد كانت اللعبة حامية حتى انهم هربوا جميعاً !

شعر روستوف ان ذلك الجندي كان ثملاً . فتركه ليتصدى لفارس كان يبدو عليه انه تابع أوخفير في خدمة احدى الشخصيات البارزة . ضيق عليه روستوف بالأسئلة ، فاجاب الفارس ان الامبراطور قد جرح جرحاً بليغاً ادى الى حمله في عربة اسجي فيها على صدره ، وان العربة درجت على هذا الطريق منذ ساعة كاملة .

فقال روستوف معترضاً :

ـ انك مخطىء . انك الجريح ليس الامبراطور ولاشك .

فقال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة الواثق :

ـ كيف اخدع وقد شهدته بنفسي . اتعتقد انني لااعرف الامبراطور ! لقد شهدته مرات عديدة في بيترسبورج على ماأعتقد . لقد كان شاحباً كالأموات . لقد مرت العربة امامنا يقطرها اربعة اجياد دهماء . كان ينبغي ان ترى ذلك ! انني أعرف خيول القيصر واعرف سائق عربته ايليا ايفانيتش على ما اعتقد . لعل ايليا هذا يقود عربة غير عربة القيصر او يحمل في عربة القيصر شخصاً آخر غيره !

افلتت يد روستوف عنان الجواد . راح يتابع طريقه . وفجأة ناداه احد الضباط الجرحى وقال له :

ـ عمن تبحث ؟ عن القائد الاعلى ؟ لقد قتل ... نعم لقد اصابته القذيفة ملء صدره وهو على رأس فيلقنا .

فصحح ضابط آخر قول زميله :

– لم يقتل بل جرح .

فسأل روستوف :

– لكن من الذي قتل او جرح ؟ اهو كوتوزوف ؟

– كلا ليس كوتوزوف ، بل الآخر ... آه ، لقد نسيت اسمه ! ... على كل هذا غير مهم ، اذ لم يبق منه الا الأشلاء ... هل ترى تلك القر هناك ؟ اذهب الى هناك وستجد القادة كلهم مجتمعين .

واشار الضابط الى قرية جوستبيراديك وابتعد .

سار روستوف الهوينا على حصانه وهو مرتبك متردد . ترى هل جرح الامبراطور ؟ هل خسرنا المعركة ؟ ما كان يصدق كل هـذه الاقوال . وراح يسير نحو القرية التي كان جرس كنيستها يرتفع فوق الابنية على البعد . مافائدة العجلة ؟ ماذا كان يستطيع ان يقوله الآن للامبراطور أو لكوتوزوف ؟ هـذا اذا افترضنا جدلاً انهما كانا سليمين !

هتف به احد الجنود :

– انعطف من هنا نبالتك . ان المكان خطير حيث تسير ، وستقتل حتماً .

فقاطعه آخر :

– ماذا تقول ؟ أين يقود هذا الطريق ؟ ان هـــذا الذي يسلكه اقرب من ذاك !

وبعد فترة تردد ، توغل روستوف في الطريق الذي انبأه الجندي بأنه سيقتل اذا سار عليه . قال يحدث نفسه : « ماذا يهمني ان اقتل الآن ؟ اذا كان الامبراطور جريحاً ، فلمَ اوفر نفسي واحميها ؟

كانت الارض التي يجتازها في تلك اللحظة ، هي التي مُني عليها الفارون

من جبهة بارتزن بأفدح الخسائر . ولم يكن الفرنسيون يحتلونها بعد، رغم ان الروسيين ، او على الاصح ، الاحياء من الروسيين والجرحى الذين سمحت لهم جراحهم بالانتقال ، قد اخلوها منذ زمن طويل . كانت جثث القتلى مبعثرة على عشرة او خمسة عشر متراً على سفح الهضبة ، وكأنها حشائش نابتة في ارض خصبة. وكان الجرحى الخطيرون يزحفون مثنى او ثلاثاً وهم يطلقون زجرات وصيحات مصطنعة احيانا ، كانت تترك في نفس روستوف اسوأ الأثر . دفع جواده الى السير خبباً ليتفادى رؤية هؤلاء المصابين المتألمين ، وشعر بالخوف يستولي على فؤاده : لقد كان يخشى على شجاعته اكثر مما كان يخاف على حياته . كان في حاجة ماسة الى تلك الشجاعة التي كانت تزايله كلما وقع بصره على جماعة من اولئك المناكيد .

عزف الفرنسيون عن قصف ذلك الحقل المغطى بالجثث بعد ان خلا من كل ما يستحق القصف والضرب . لكنهم ما ان رأوا الضابط المساعد حتى سددوا نحوه احد المدافع واطلقوا عليه عدداً من القذائف ، احدث صفير القنابل ورؤية الجثث المبعثرة ، لوناً من الذعر في نفس روستوف الذي احس باشفاق على نفسه تذكر رسالته الأخيرة الى امه وجوابها عليها . فكر في نفسه : « ترى ماذا كانت تقول لو شاهدتني هدفاً لهذه المدافع ؟ ! »

كانت القطعات الروسية التي شاهدها في « جوستييراديك » تفر كغيرها من ساحة المعركة ولكن في شيء من النظام . وكانت قنابل الفرنسيين لا تصل الى هناك واصوات البنادق تصل مكتوفة مختلطة ، كان كل المحتشدين هناك على مختلف رتبهم يعلنون بصوت مرتفع أن المعركة قد انتهت بخسرانهم . ولم يستطع أحد ان يعين لروستوف مكان كوتوزوف ولا مقام الامبراطور. كان بعضهم يؤكد له ان الامبراطور جريح ، والبعض الآخر يكذبون تلك الشائعة قائلين ان الرجل الشاحب الذي حملته عربة الامبراطور لم يكن الا



قد جرح الأمير اندرو

الكونت تولستوي ، ماريشال الحاشية الملكية الأكبر الذي رافق سيده الى ساحة المعركة . وزعم احد الضباط انه شاهد شخصية كبيرة على يسار القرية . فاتجه روستوف حيث اشار الضابط ليريح ضميره . ولما قطع مرحلة صغيرة ، وتجاوز آخر فلول الجنود الروسيين ، شاهد فارسين يقفان قرب حفرة تحد بستان خضار . كان احدهما يضع على رأسه قبعة غرست فيها ريشة بيضاء بدت أليفة في نظر روستوف ، والآخر كان مجهولاً منه ، يمتطي صهوة جواده محجل القوائم بديع الشكل ، خيل لروستوف انه شاهده من قبل في مكان ما . لكن هذا الأخير جواده ، فقفز فوق الحفرة بسهولة وان كانت قائمتاه الخلفيتان قد احتكتا قليلاً بحافتها . ثم استدار الى حيث كان ذو الريشة البيضاء ، واجتاز الخندق من جديد ليحدثه بلهجة شديدة الاحترام ، قدر روستوف انه يدعوه الى تخطي الخندق . غير ان هذا ، وكان روستوف شاخصاً بابصاره اليه بدافع غريزي ، ابدى اشارة من يده ورأسه تدل على رفضه الدعوة . وعندئذ فقط ، ادرك روستوف انه ازاء امبراطوره المعبود ، الذي كان يحس بألم شديد للمصير السيء الذي بلغت اليه قواته في هذه المعركة .

لكنه عاد يقول لنفسه : « ولكن مستحيل ، كلا ، لا يمكن ان يكون الامبراطور وحيداً هنا ، في هـــذا السهل المقفر . » وفي تلك اللحظة ، ادار الكسندر رأسه ، فشاهد روستوف تقاطيع وجهه النبيل ، المنقوشة على صفحة ذهبية ، وعرفها . لقد كان الامبراطور ممتقع الوجه ، لكن شحوبه ، وخديه الغائرين ، وعينيه الخابيتين ، كانت تجعل وجهه اشد فتنة ، واكثر وداعـــة ورأفة . ورأى روستوف بسرور بالغ انه لم يكن جريحاً فكان سعيداً برؤيته سليماً . شعر انه يستطيع ان يخاطبه مباشرة ، بل أنه يجب ان يخاطبه ليحمل الية رسالة دولجوروكوف .

ولكن ، كما ان العاشق يرتعد ساعة اللقاء ويغلبه الخوف فيطفي على احساساته الحادة الجارفة التي طالما استقرت في اعماق نفسه ، ويجعله يلقي حوله نظرات مذعورة شاردة ، باحثاً عمن يساعده ويدعمه ويمنحه فرصة يسترد فيها روعه ، كذلك كان روستوف في تلك اللحظة التي تحققت فيها اغلى امنياته واعزها على نفسه . لقد كان يخشى الاقتراب من الامبراطور ويقنع نفسه بألف حجة وحجة ان سلوكه سيكون معيباً غير صحيح ، بل ويستحيل تقبله .

كان يهمس لنفسه : « هه ! ماذا ؟ انني سابدو اشبه بذلك الذي استغل فرصة وجوده وحيداً محطم المعنويات! لا شك انه سيتألم لرؤية غريب يقترب منه في هذه اللحظات الكئيبة . ثم ماذا استطيع ان اقول له وانا الذي تكفيني نظرة منه لتسلبني القدرة على النطق والسلطة على الاعصاب ؟ »

لم تحضره جملة واحدة من الجمل التي هيأها من قبل لمثل هذه المناسبة ، عندما كان يفكر في لقاء الامبراطور وتوجيه الكلام اليه . خصوصاً وان معظم تلك الجمل كانت موضوعة لتلائم مناسبات تختلف عن هذه كل الاختلاف . كانت متعلقة بساعات النصر والمجد وبصورة خاصة ، باللحظات التي سيتقبل فيها تهاني ملكيه ، وهو جريح تحت اقدامه جرحاً بليغاً ، فيعرب له بدوره عن حبه العميق وتعلقه الشديد الذي برهن عليه بالتضحية بحياته .

واردف يقول : « ثم ما هي الأوامر التي سأطلب اليه اصدارها بخصوص الجناح الايمن والساعة الآن الرابعة مساء والمعركة قد ضاعت ؟ كلا لا يجب ان اقترب . ليس من حقي ان اقلق تأملاته وتفكيره . انني افضل الموت الف مرة على ان اوحي اليه فكرة سيئة عني ، او أن اراه يصوب الى نظرة عدم رضاء»

فلما بلغ روستوف هذا الحد من تقريره ، ابتعد واليأس يملأ قلبه ، وهو يلتفت بين الحين والآخر الى حيث كان يقف امبراطوره المفدى وهو لا يزال متردداً جامداً في موقفه .

وبينما كان روستوف يعود كسير الفؤاد حزين النفس وهو يفكر على ذلك الشكل، مر من هناك رئيس يدعى فون تول ، فاقترب من الامبراطور وعارضاً عليه خدماته ، وساعده على تخطي الخندق راجلاً « وكان الكسندر مرغماً بسبب انحراف صحته على نيل قسط من الراحة ، فجلس في ظلال شجرة تفاح بينما لبث فون تول واقفاً بالقرب منه . شاهد روستوف كل هذه الحركات عن بعد والمرارة ملء حنجرته ، ورأى فون تول يحدث الامبراطور بحرارة وطلاقة ورأى هذا الاخير يمد اليه احدى يديه بينما حجب بالاخرى وجهه ليخفي عن عينيه مرآى الدموع التي سالت على خديه ولا شك .

فكر روستوف : « تأمل ، انني كنت سأحل محل هذا في اداء هذه الخدمة ! » كان الغضب يعصف بكيانه حتى انه كان على وشك البكاء تحناناً على الامبراطور المرزوء . تابع طريقه وهو لا يدري الى اين يتجه . كان يأسه يزداد عمقاً كلما اعترف بينه وبين نفسه بأن ضعفه الشخصي ادى الى فقدان الفرصة الجوهرية التي كان يتلهف اليها .

كان يستطيع ان يقترب من الامبراطور . بل كان يجب عليه ان يقترب منه لقد كانت تلك هي المناسبة الفريدة التي تمكنه من اظهار تفانيه في سبيل مليكه . لكنه افلت الفرصة من يده ... قال يحدث نفسه : « ماذا عملت ؟ » لوى عنان جواده وعاد هدبا الى حيث وجد الامبراطور . لكنه لم ير هناك احداً قرب الخندق ولا حوله . كانت عربات النقل والامتعة والمهمات تملأ الطريق على رحبه . انبأه أحد الجنود ان كوتوزوف وار كان حربه كان على مقربة من القرية التي يسيرون بجذائها . فتبع روستوف الموكب الزاحف .

كان « سائس » كوتوزوف يقود خيولاً مسرجة ويسير في طليعة الموكب وكان عجوز من الخدم يسير وراءه على ساقيه الملتويتين ؛ لا يفصل بينهما الا عربة نقل .

هتف السائس :

ـ تيت ، هه ! تيت !

فاجابه الرجل العجوز ذو القبعة الوحيدة الجانب والسترة المبطنة بالفراء والساقين الملتويتين ، ببساطة وسلامة طوية :

ـ ماذا تريد ؟

ـ اذهب للقاء حبيبتك !

فزمجر العجوز وهو يبصق من الغيظ :

ـ ايها الغبي !

وراحا يتابعان طريقهما صامتين ، ولكن الدعابة عادت تتكرر والعجوز يؤخذ بالنداء فلا يتحاشى الجواب .

لما بلغت الساعة الخامسة مساء ، كانت المعركة قد ضاعت على كل النقاط والجهات . استولى الفرنسيون على اكثر من مائة قطعة من قطع المدفعية واستسلم « بوزيبيسزوسكي » وفيلقه وخسرت الفيالق الاخرى اكثر من نصف رجالها فراحت تنسحب بفوضى وصخب ، بينما كانت بقايا فيالق لانجيرون ودوختوروف تتزاحم بجنون واضطراب على شواطىء مستنقعات اوجويزد وعلى مداخل السدود .

ولم تمض ساعة اخرى ، حتى كانت المدفعية الفرنسية تستهدف هذا المكان وحده . كان الفرنسيون حينذاك يقصفون الجيوش الروسية المنهزمة من اعشاش مدفعيتهم التي نصبوها على مرتفعات هضبة براتزن .

وفي الخطوط الخلفية ، كان دوختوروف وآخرون يحاولون اعادة ترتيب بعض الالوية ليوقفوا قصف مدفعية العدو ومطاردة الفرسان الفرنسيين الفلول الهاربة . وكان الظلام قد اقبل . وعلى السد الضيق ، سد اوجويزد ، حيث

امضى الطحان العجوز ذو القلنسوة القطنية سنوات طويلة يصطاد السمك بهدوء بسنارته ، بينما كان حفيده يداعب الاسماك الفضية الحبيسة في صفيحة من التنك ، وهو حاسر الكم ؛ على ذلك السد الذي عبر فوقه المورافيون بستراتهم الزرقاء وقلنسواتهم المصنوعة من القطيفة ، طيلة اعوام طويلة ، يقودون عرباتهم المحملة بالقمح الذي كانوا يعيدونه وقد استحال دقيقاً ابيض ، وعلت أثوابهم طبقة خفيفة من الطحين بالمثل غطت رؤوسهم واقدامهم ، على ذلك السد بالذات ، كانت تتزاحم في تلك الساعة عشرات من عربات النقل وجر المدافع ، تسحق عجلاتها الصماء رجالاً شوه الرعب وجوههم وشل حركتهم ، وتعجن سنابك الخيول جثث القتلى والمحتضرين ، ويتقاتل الجنود فيما بينهم سعياً وراء الفوز بالعبور ، الذي ماكان يتم قط ، لأن القتلة كانوا بدورهم يقتلون ولما يتجاوزوا بعد خطوات معدودات .

وبين كل عشر ثوان ، كانت قذيفة تشق الفضاء لتتفجر وسط ذلك الازدحام المخيف ، فتقتل وتجرح وتبعثر مئات من الانفس وتلطخ بالدماء ثياب العشرات من الناجين . كان دولوخوف — وقد اعيدت اليه رتبته السابقة — يسير على قدميه على رأس قبضة من رجاله الناجين ، والكولونيل قائد السرية على صهوة جواده . وكان هذا النفر القليل هو كل من بقي على قيد الحيـــاة من فيلق دولوخوف . كانوا يدفعون دفعاً من قبل كتل الفارين نحو مدخل السد : اضطروا الى التوقف لأن حصانا كان قد سقط تحت عجلات عربة مدفع ، وكان الجنود المذعورون يحاولون اخراجه ليفسح لهم طريق العبور . فسقطت قذيفة وراءهم فقتلت رجلا وجرحت اخر ، فسقط هذا الى الامام ، فتخضبت ثياب دولوخوف بالدماء . واندفعت الزمر بمجهود خارق خطوات الى الامام . لكنها لم تلبث ان توقفت .

كان كل منهم يقول لنفسه : « مائة خطوة اخرى وبعدها الخلاص . لكننا اذا لبثنا هنا دقيقتين ضعنا ! »

استطاع دولوخوف المحصور في صميم الازدحام وسط السد ، أن يصل الى الجانب الآخر بعد ان طرح جنديين ارضاً . وهناك تزحلق على جليد المستنقع الذي كان يغطي معظم سطحه .

صرخ وهو يقفز قفزات خفيفة فوق الجليد الذي كان يتحطم تحت وطأة اقدامه :

– هاتوا المدفع الى هنا ، ان الجليد هنا يحتمل الثقل . هاتوه !

كان سطح المستنقع يحمل ثقل جسمه ، لكنه كان واضحاً انه سيتحطم تحت ثقله بعد قليل ، فكيف اذا اضيفت اليه ثقل مدفع وعدد كبير من الجنود ! راح الجنود المجتمعون قرب الشاطىء ينظرون اليه دون ان يستجيبوا لأمره . وكان الجنرال منتصباً عند مدخل السد فوق صهوة جواده فرفع يده يحيط بها فمه ، محاولاً التحدث اليه . غير ان قذيفة مرت فجأة على ارتفاع خفيض ، حتى ان كل الموجودين اضطروا الى احناء رؤوسهم لتفاديها . وارتفع صوت تخبط مكتوم ، وشوهد الجنرال يسقط مع حصانه في بحيرة من الدم . لم يقلعه احد نظرة ، ولم يفكر أحد في رفعه .

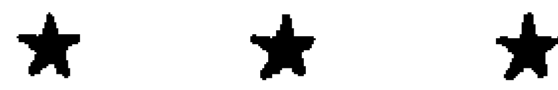
صاحت الوف الاصوات بعد اصابة الجنرال دون ان يعي أصحابها شيئاً مما يقولون :

– على الجليد ! على الجليد ! هاتوا المدفع ! هل انت أصم ؟ الى الأمام ، الى الأمام فوق الجليد !

وكان المدفع الذي يطلب الجنود المخبولون من الذعر سحبه فوق الجليد ، قد وصل الى مدخل السد . وكان الجندي الذي يقود عربته محجماً عن تلك

المغامرة . غير ان الجنود الفارين كانوا متجمهرين بالمئات على ضفاف المستنقع المتجمد . اندفع احدهم فوق الجليد ، فتحطم تحت وطأة قدمه . ولما حاول تخليصها ، سقط حتى وسطه في الماء المتجمد . وتوقف الصف الاول متردداً . لكن الاصوات ظلت تصيح من الوراء قائلة : « على الجليد ! لماذا تتوقفون ؟ الى الأمام ! » وهكذا لم يجد سائق عربة المدفع بداً من السير خصوصاً وان مئات الايدي اخذت تلوح وتحث الجواد على السير ، مصحوبة بزمجرات الفزع والرعب العنيف الذي كان مستولياً على كل النفوس . جلد الجنود الأقربون جواد العربة ليرغموه على التقدم ، وقرروا أخيراً مغادرة الضفه والسير فوق الجمد . فتقدموا ولكن ، لم تلبث ان ارتفعت فرقعة هائلة مكتومة ، ندت عن الجليد المتحطم ، وسقط اربعون رجلاً في الماء وهم يجرون معهم الى الهاوية ، رفاقهم الذين تشبثوا بهم ليستعينوا بهم على النجاة من الغرق .

وراحت قذائف المدفعية تترى وتسقط على الجليد وفي الماء وغالباً على الكتل البشرية المتزاحمة فوق السد وعلى ضفاف المستنقع وجوانبه !



الفصل التاسع عشر

(بعد المعركة)

لبث الأمير آندريه ملقى فوق هضبة بارتزن في المكان الذي سقط فيـــه والعلم في يده . وكان الدم ينزف من جراحه بغزارة ، وهو يزمجر متألماً بصوت ضعيف ناحب دون أن يعي .

توقف عن الانين مساء وفقد رشده . لكن الماً حاداً في رأسه ما لبث ان اعاده الى الصواب واخرجه من خدره .

كانت اول فكرة واتته عند يقظته هي : « أين تلك السماء العميقة البعيدة التي لم اكن اعرفها من قبل والتي اكتشفتها اليوم ? » ثم تساءل : « وهذا الألم ايضاً ، أما كنت أجهله ? ... نعم ، لقد كنت اجهل كل شيء حتى الآن ، اطلاقاً كل شيء ... لكن أين انا ? »

تناهى الى سمعه وقع حوافر جياد مقتربة فأصغى . وصكت اذنه عبارات فرنسية ، ففتح عينيه . كانت تلك العميقة التي تسبح الغيوم العالية فوق صفحتها ،

وتضفي على الجو لوناً لازوردياً ممتعاً ، قائمة فوق رأسه . لم يدر رأسه ليرى نوع الأشخاص الذين كانوا يقتربون من مكانه ، رغم ان اصواتهم كانت تدل على انهم توقفوا قريباً منه .

كان اولئك الفوسان هم الامبراطور نابوليون واثنان من ضباطه المساعدين، وكان يقوم بجولة في ساحة المعركة متفقداً . وبعد ان اعطى اوامره بدعم المدفعية التي كانت تقصف السد والجنود المتراصين حوله ، راح يتفحص وجوه القتلى والجرحى الذين تركوا في ساحة المعركة .

قال وهو يرى احد القناصة الروسيين ملقى على الارض ووجهه الى الاسفل، مسود العنق وأحد ذراعيه ممتد قليلاً ومتصلب :

ــ انهم من اجمل الرجال .

وجاء احد الضباط المساعدين موفداً من قبل قياده المدفعية التي تقصف اوجويزد فقال :

ــ ان ذخيرة المدافع قد نفذت هناك يا صاحب الجلالة .

فأجابه نابوليون :

ــ قدموا مدافع الاحتياط .

خطا بضع خطوات وتوقف قرب الأمير آندريه ، الذي كان ممدداً على ظهره قرب صارية العلم الذي أخذ الفرنسيون القماش عنها ، وقال وهو يتأمل وجه بولكونسكي :

ــ انها ميتة جميلة .

فهم بولكونسكي أن الأمر متعلق به ، وان نابوليون يتحدث عنه . لقد سمع منذ حين صوت احدهم يخاطب المتكلم الحالي بلقب « صاحب الجلالة » . لكن الكلمات كانت تصل الى اذنيه على شكل دندنة خافتة ، أوطنين ذبابة . لم يلق

بالا اليها ، ولم يهتم بفهم ما يقال و معرفة ما يدور حوله . بل انه فقد قوة الذاكرة بعد حين . كان يحس بنار تلتهب في رأسه ، ويشعر ان الدم يغادر جسمه ، ويتأمل السماء المرتفعة البعيدة ، العالية المتسامية الخالدة . كان يعرف ان نابوليون ـ بطله المفضل ـ موجود بالقرب منه . لكن نابوليون بدا له في تلك اللحظة شديد الضآلة ، شديد التفاهة ، اذا قيس بالمأساة الصاخبة الأليمة التي كانت تمثل في اعماق روحه ، بين روحه والسماء الصافية ذات الغيوم السابحة . لم يعد يهتم لمعرفة اولئك الذين كانوا منحنين فوقه يتحدثون عنه . لكنه كان مسروراً لأنهم لم يتجاوزوه. كان يرغب في ان يدعوه بعون وغوث ليعيدوه الى تلك الحياة التي بدت له رائعة الجمال ، منذ ان اكتشف اخيراً عقيدته الجديدة . جمع قواه ــ أو على الأصح ما تبقى من قواه ـ فاستطاع تحريك ساقه ، وانطلقت أنة خافتة ملأ صوتها الناحب نفسه تحنانا !

قال نابوليون :

ــ آه انه حي ! ليحمل هذا الشاب وليودع في عربه الاسعاف !

واستمر الامبراطور في سيره ليستقبل الماريشال . لان (Lanes) ، الذي كان يتجه نحوه باسماً وقبعته في يده . هنأه الامبراطور بفوزه وانتصاره الساحق.

لم يحتفظ الأمير آندريه وبذكريات ما حصل له بعد ان امر نابليون بنقله على عربة الاسعاف . لقد سبب له نقله على المحفة واختبار عمق جراحه ، اغماء طويلاً ، فلم يعد الى وعيه الا عند المساء ، عندما كانوا ينقلونه الى المستشفى في صحبة عدد آخر من الضباط الروسيين الجرحى . شعر خلال الرحلة انه احسن حالاً ، واستطاع ان يجيل بصره حوله وان يتلفظ ببعض الكلمات .

قال احد الضباط الفرنسيين وكان يرافق موكب الجرحى :

ــ ينبغي التوقف هنا .

فكانت هذه اولى الكلمات التي سمعها بولكونسكي بعد ان استعاد الوعي . اضاف الضابط :

ــ سيمر الامبراطور من هنا بعد حين . ولا شك انه سيسر لرؤية هؤلاء الاسرى من الجرحى البارزين :

فقال ضابط آخر :

ــ ان لدينا الآن المزيد من الاسرى حتى ان الامبراطور سيتذمر لكثرتهم، لدينا كل الجيش الروسي تقريباً .

فأجاب الضابط الاول :

ــ صحيح ، لكن هـذا ـ واشار الى ضابط في ثوب ابيض تابع للحرس الراكب ـ كان يقود على ماذا الينا فيلق حرس الامبراطور الكسندر كله .

عرف بولكونسكي ان ذلك الضابط الجريح كان ربنين الذي كان قـــد صدفه مرات في الاوساط الراقيـة . وكان الى جانبه ضابط آخر من سلاح الحرس في العشرين من العمر او تنقص قليلاً .

اقترب نابوليون هدبا واوقف جواده بالقرب منهم . سأل عندما وقع بصره على السجناء الجرحى .

ــ من هو الارفع رتبة ؟

فأجيب ان الزعيم الأمير ربنين

سأله نابوليون وهو يلتف نحوه :

ــ أأنت رئيس الحرس الراكب التابع للامبراطور الكسندر ؟

لقد كنت اقود كوكبة من ذلك الحرس .

ــ لقد قام فيلقك بواجبه كاملاً .

ــ ان ثناء عسكري كبير خير مكافأة للجندي الصغير !

– انني امنحك اعجابي عن طيبة خاطر ... لكن من هو هذا الشاب الراقد بالقرب منك ؟

فأجابه الأمير ربنين انه الملازم سوختلن نظر اليه نابوليون وقال وهو يبتسم :

– لقد جاء يحتك بنا وهو مازال فتى يافعاً !

فاجاب سوختلين بصوت متهدج :

– ان صغر السن لايمنع المرء أن يكون شجاعاً .

– جواب بديع ايها الشاب ، سوف تبلغ مرتبة سامية !

كان الأمير آندريه قد وضع في الصف الاولى من الجرحى ليكمل اللوحة التي شاء الضباط الفرنسيون رسمها لامبراطورهم . ووقعت انظار الامبراطور عليه بالطبع ، واجتذبت هيأته انتباهه. تذكر انه رآه من قبل في ساحة المعركة فسأله ، وهو يناديه بعباره: «ايها الشاب» التي احتفظ بذكراه في مخيلته مقروناً بها :

– وانت ايها الشاب ؟ كيف تشعر الآن ايها الباسل ؟

ظلت عينا الأمير آندريه ، الذي استطاع منذ حين ان يوجه بضع كلمات الى الجنود المرافقين ، شاخصتان الى وجه الامبراطور ، وقد غرق في الذهول والسكون ... شعر بان الاهداف التي تشغل بال نابوليون ، تافهة حقيرة ، وأحس بأن بطله بالذات شديد الضآلة في حمى انتصاره الحقير ، اذا قيس الى جلال السماء وعظمتها ، تلك السماء الحافلة بالعدالة والخير ، والتي اكتشفت حقيقتها في اللحظة الاخيرة . لذلك فانه لم يجد عبارة يحسن به ان يوجهها اليه .

كان كل شيء يبدو لناظريه فانياً حقيراً اذا قورن بالافكار القاتمة الصارمة السامية التي خلفها في نفسه نزيف الدماء من جسده . والألم الحاد الذي أحس به ، وانتظار الموت البطيء الذي تعرض له ظلت نظرته غارقة في اعماق عيني نابوليون ، يفكر في غرور العظمة وبطلانها ، وفي تفاهة الحياة الزائلة الفانية ،

التي لايمكن لأحد ان يدرك معناها ومرماها ، وبطلان الموت نفسه الذي كان مدلوله مغلقاً ابداً على مفاهيم الاحياء .

ولما لم يتلق الامبراطور جوابا من الامير آندريه ، استدار نحو رجاله وقال لهم آمراً :

ــ أريد ان يعنى بهؤلاء السادة وان ينقلوا الى مركزي . اطلبوا الى طبيبي لاري ان يفحص جراحهم .

وهمز جواده بساقيه معاً واندفع ووجهه مشرق بالسعادة والرضى .

لما شاهد جنود النقالات مدى عناية الامبراطور بالجرحى ، هرع الذي سلب الامير اندريه الصورة المقدسة الذهبية ، يعيدها اليه . ولم ير الامير اندريه ذلك الذي اعادها اليه ، كما لم يشعر كيف وقع ذلك ، لكنه فجأة شاهد الصورة فوق ثوبه العسكري ملقاة على صدرة ، ورأى سلسلتها الذهبية التي احاطت اخته ماري عنقه بها بخشوع ورهبة وانفعال .

تساءل آندريه وهو يتأمل الصورة : « لماذا لايبدوا كل شيء نيراً واضحاً بسيطاً كما تؤمن به ماري ؟ ياله من عزاء اذا عرف المرء أين نجد العون في هذه الحياة ، وأدرك ماينتظره فيما وراء القبر ! ياللسرور ، وياللهدوء الذي سأحس به لو استطعت القول : مولاي ، رحمة بي ! ... ولكن لمن اتقدم بهذا الابتهال ؟ ألتلك القوة غير المحدودة ، غير الملموسة التي لاأستطيع توجيه الكلام اليها ولا اقدر على التعبير عن افكاري بكلمات في وصفها ، وهل هي العدم أو كل شيء ؟ ام ترى لهذا الله الذي أراه هنا مؤطراً في هذه الصورة التي صنعتها يد ماري ؟ لايوجد شيء ثابت ، الا اذا اعتبرنا ان ماأعرفه ضئيل وان ماأجهله جليل كبير عظيم ، وهذا الجزء الهائل غير مفهوم مني ، ولكنه مع ذلك عظيم الاهمية . »

عاد حاملوا النقالات الى سيرهم . كان بولكونسكي يشعر بآلام هائلة إثر كل

رجة او صدمة . ازدادت وطأة الحمى عليه وأخذ يهذي . كان خيـاله الملتهب بالحمى حافلا بشتى الذكريات . كانت صورة ابيه وزوجه واخته ، وذكرى تحنانه تلك الليله الفائتة ، ووجه نابوليون الصغير الضئيل المتناهي في الصغـار ، ومشهد السماء اللامتناهية الصافية ، كل هذه المرئيات كانت تدوي وتصطخب في رأسه وتفكيره .

كان يرى نفسه في ليسيبيا جوري ، يعيش حياته بهدوء وسكون . لكنه مايكاد ينعم بتلك الحياة البيتية الهانئة حتى ينتصب وجه نابوليون ، ذو النظرة القاسية البـاردة ، وعلى سيمائه امارات الاغتباط لتعاسة الآخرين ، فيعيده الى مهاوي الشك والريب والألم . وعندئذ ، يلقي نظرة الى السماء ، السماء الصافية ، فتلهمه السلوان . وحوالى صباح اليوم التالي ، كانت هذه الاحلام لاتزال تعتلج وتتزاحم في خياله المحموم ، حتى ان الطبيب لاري أكد ان الظلمات الفكرية التي غرق فيها بولكونسكي والانحلال الكلي في قواه ، لاتبرئه الحياة ، كما يشفيـه الموت نفسه !

أكد الطبيب قائلا :

ــ انه شخص عصبي سوداوي . لن ينجو من الموت .

وهكذا تُرك بولكونسكي لعناية سكان المنطقة اسوة بجرحى آخرين رؤي ان شفاءهم لاأمل فيه .

انتهى المجلد الأول

ألف الكونت ليو تولستوى أعظم رواياته فى ستينيات و سبعينيات القرن التاسع عشر نابذاً فيها القيم الرومانسية للبطولة و الحب العذرى و أظهر بدلاً من ذلك اهتماماً عميقاً بالمراحل الطبيعية للنمو البشرى كالولادة والزواج والوفاة .

و روايته الرائعة "الحرب والسلم" (1869 م) جلبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسى لروسيا و نيرانه عام 1812 م و لكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب و تكشف عن رغبة تولستوى فى حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة.

و فى آنا "كرنينا" (1875 ـ 1877 م) هاجم تولستوى الحب الرومانسى باعتباره ضرباً من الانغماس الذاتى و شجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقى وحب الأسرة.

أما روايته "موت إفيان إيليتش" فإنها صورة مرعبة لموت رجل و قبوله لمصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة.





www.gocp.gov.eg

الثمن : خمسة جنيهات

تصميم الغلاف : فكرى يونس